رحلة الرحلات

مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة



عبدالهادي التازي

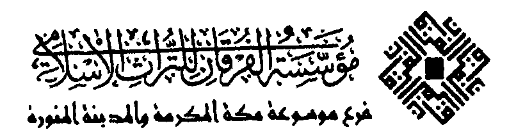
مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)

رحلة الرحلات
مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة

تأليف
الدكتور عبد الهادي التازي

مراجعة
الدكتور عباس صالح طاشكندي

الجزء الأول



١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

ⓒ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التازي، عبد الهادي

رحلة الرحلات.. مكة المكرمة في مئة رحلة مغربية ورحلة/ عبد الهادي التازي .- الرياض، ١٤٢٥هـ.

٨٢٥ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٧-١٩٤-٤٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

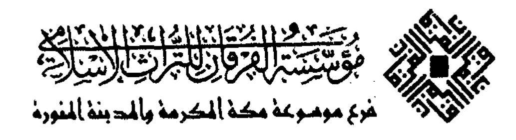
١ - مكة المكرمة - وصف ورحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٥,٣١٢١٠٤ ١٤٢٥/٣٨٣٠

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٣٨٣٠

ردمك: ٧-١٩٤-٤٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

٥-١٩٥-٤٦-٩٩٦٠ (ج١)

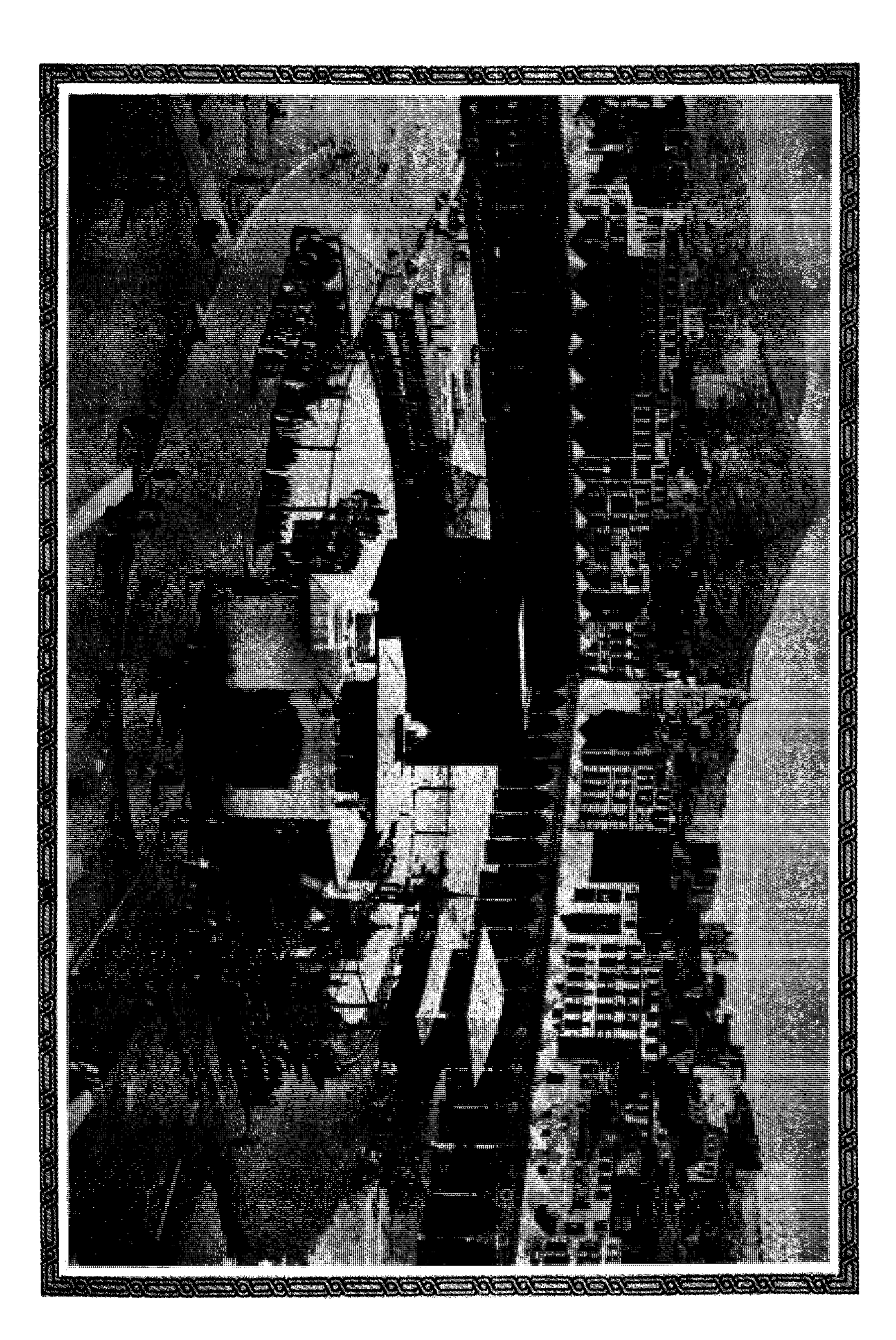


١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

المحتويات

الجزء الأول

الجـــــزء الثانـــي



تقديم

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وجعل مكة المكرمة قبلة المسلمين، وضع فيها أول بيت، وظهرت من أرضها آخر الرسالات، فكانت الأساس لأرقى الحضارات.

وما أظن أن مدينة أخرى على وجه البسيطة حظيت بما حظيت به مكة المكرمة عاصمة الإسلام، قصدها مئات الملايين من كل الأقطار خلال القرون، يحجون إليها، ثم يعودون محملين بأجمل الذكريات، منهم من يتحدث عنها، ومنهم من يكتب عنها.

ومن أجمل الرسائل التي كتبها أولئك الحجاج الوافدون رسائل كتبها حجاج المغرب العربي، الذين تجولوا بأبصارهم يصفون معالمها ومشاعرها والطريق إليها، وتعمقوا ببصيرتهم يصفون روحانيتها والنور الذي ينبثق منها.

بعض تلك الرسائل مطبوع متداول، وكثير منها لا يزال مخطوطاً لا تصل إليه غير أيدي القلة النادرة من الباحثين والمؤرخين.

وعندما بحث المجلس الأعلى لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي فكرة الإسهام في الاحتفاء باختيار المدينة المقدسة مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية بإصدار سلسلة من الأبحاث والتحقيقات لموضوعات تتعلق بقبلة الإسلام، ومخطوطات تعنى بتراثها الثقافي والديني والأدبي، بادر الأستاذ العلامة المحقق الدكتور عبد الهادي التازي (وهو عضو في مجلس الفرقان) فتبرع مشكوراً بجهده الفريد في هذا المضمار، ووافق على إخراج كتاب سماه «مئة رحلة مغربية ورحلة»، يتضمن ذلك عدداً من رسائل المسلمين القدامى من

علماء المغرب العربي وحجّاجه، الذين حجّوا إلى بيت الله الحرام، وكتبوا عن مشاهداتهم ومشاعرهم بعد عودتهم.

والمهم أن معظم تلك الرسائل تحتاج إلى كبير المؤرخين وإمام المحققين العلامة الدكتور التازي ليخرجها من مخابئها ويعلق عليها، ويجعلها متاحة للباحثين في تاريخ البلد الحرام، والمحبين لمكة المكرمة قبلة الإسلام.

ومهما تحدثت عن القيمة العلمية والتاريخية لهذا المؤلَّف الجليل فلن أوفيه حقه، ومهما توجهت إلى أستاذنا التازي بالشكر على صنيعه فلن أوفيه جزاءه، فذلك أمر نكله إلى رب البيت الحرام الذي قيّض لنا مثل هذا العالم، فأضاف إلى الكثير من مؤلفاته وتحقيقاته هذا المؤلَّف الذي تضعه «الفرقان» بين يدي الباحثين ليكون درّة مضيئة بين أعمال أستاذنا التازي.

جعل الله عمله صدقة جارية في ميزان حسناته، وجعل عمل «الفرقان» خالصاً لوجهه معبراً عن حبها لمكة المكرمة وتراثها وآثارها وأخبارها.

والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أحمد زكي يماني

ديباجة

راودني هاجس الإسهام في أدب الرحلات منذ عيّنني الملك محمد الخامس عضواً في الركب الرسمي المغربي لموسم الحج عام ١٣٧٨هـ / (يونيو ١٩٥٩م).

كنت أعرف عن طائفةٍ من الشخصيات المحظوظة التي تقاطرت طوال العصور الخالية على أرجاء مكة المكرمة ورجال مكة المكرمة، وما أدرك ما تلك الأرجاء وأولئك الرجال!

وما تفضل الأرجاءَ إلا رجالُها

وإلا فلا فضلٌ لتربٍ على تربِ!

كنت أعرف عن سلسلةٍ متلاحقةٍ من الأركب التي قصدت تلك الديار مبعوثة من الدولة، ومن مختلف أقاليم المغرب، جنوبه وشماله، شرقه وغربه...

ولكن ذلك الهاجس ظل محدوداً فيما حررته عن الحجة الأولى، وفيما كتبته بين الحين والآخر عن مشاهدات عابرةٍ سمحت بها الظروف في مناسبات مختلفة، وخاصةً عندما عيّنني للمرة الثانية عام ١٩٧٩م الملك الحسن الثاني عضواً أيضاً في الركب في أعقاب سفارتي لبلادي لدى الجمهورية الإسلامية في طهران.

كنت أريد أن أكتب عن الذين سبقوني في التجربة، لأقارن وأوازن بين هذا وذاك ... لكني ظللت ـ وأقولها بصراحة ـ مشغولاً بالشأن الدبلوماسي، إلى أن قيّض الله من صحّاني للعودة إلى الهاجس ..

وكان هذه المرة هو معالي الأخ العزيز الدكتور الأستاذ أحمد زكي يماني رئيس مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، وكان بصدد إصدار موسوعة عن مكة المكرمة والمدينة المنورة تتضمن جميع ما قيل عنهما في كل جهات العالم الإسلامي، وبخاصة عن مكة المكرمة التي أصبحت منذ السنة الثامنة للهجرة القطبَ الذي يقصده الناس من جميع أطراف دار الإسلام بحكم أن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام.

لم تعد قواعد الإسلام منحصرةً فيما كنا نعرف قبل هذه السنة، ولكنها ـ أي القواعد ـ تجاوزت ذلك إلى قاعدةٍ أخرى تقتضي من المسلم أن يتحرك، وأن يتنقل، وأن تكون

عيونه على مواقع جغرافية قد تقرب إليه أو تبعد. ولكن عليه أن يصل إليها ليتعرف إلى حدودها ومعالمها ورسومها...

لقد كان الحج أكبر وأعظم وأهم مؤسسة قدمها الإسلام للمسلمين أينما كانوا وحيثما كانوا، أعظم مؤسسة بما تشتمل عليه من تنوع زادٍ... كان الحج أبرز رسالة موجهة إلينا لمعرفة الآخر، ولاكتشاف الآخرين لحوار الحضارات ... مهما كتب الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، فإنهم لن يصلوا إلى استجلاء جميع جوانب هذه المؤسسة الحضارية الكبرى ...

ولا نحتاج هنا إلى التذكير بما زودنا به هذا الركن من أركان الإسلام من ثروةٍ فقهيةٍ نادرة المثال ... وعشرات النوازل، ومئات الحالات التي كان على الفقهاء أن يجدوا لها حلولاً تتناسب وأهداف المشرِّع. ثقافة الحج وحدها تعبر عن فكر خلاّق تجلّى فيما قدمه الفقهاء لنا سواء أكانوا ينتسبون إلى هذا المذهب أو ذاك، أم ينتسبون إلى هذه المدرسة أو تلك، وبخاصة عندما يمتزج الجانب الفقهي المتعلق بالحج بالجوانب الأخرى المتعلقة بالأسفار وآدابها، وقضايا الإيجار، والعلاقات بين الرجل والمرأة في هذه الفترة، ثقافة الحج التي تتضمن في صدر ما تتضمنه ضبط تلك العلاقات في أثناء الحج والتدريب على تحمل المتاعب ومواجهة المصاعب وتخْليق الممارسات..

ولا بد أن نذكر أن هذا التشريع - تشريع الحج - خلق للمسلمين عموماً، وللمغاربة خصوصاً، مرجعيةً مهمة لثقافتهم وعِلمهم، ومن هنا كانوا يعتزون بالسند الذي يعودون به إلى بلادهم وهم يرددونه في مجالسهم العلمية، يعود المغاربة ليؤدُّوا صورةً صادقة عن طريق تلقُّنهم، وعن الدين، أو الذين تلقوا منهم تلك العلوم. كنا نشعر بالمتعة تغمرنا ونحن نقرأ عن الآصرة المقدسة التي تربط العالم المغربي من فاس أو سوس بالعالم من بخارى أو خراسان ... كان المغاربة يعودون بحمولةٍ مهمة من الزاد العلمي والمعرفي، وكانت مكة المكرمة بالنسبة إليهم المرجعية التي يشعرون إزاءها بوجدانهم وآمالهم.

سنقرأ في روايات الحجاج وفي رحلات العائدين ما يؤكد لنا مدى إيمان المغاربة بمصداقية تلك المرجعية التي كانت تعني فضاءً عاش فيه نبي الإسلام ﷺ وصحابته

وخلفاؤه الراشدون وعلماء الإسلام من مختلف جهات الدنيا...

كان الحجاج يعودون وهم يحملون معهم ذكرياتٍ وإفادات، ينقلونها إلى المجتمع الذي ينتسبون إليه، هذا المجتمع الذي يستفيد من كل تلك المعلومات للاسترشاد بها والاسئتناس بها، وإشاعتها، كانوا ينقلون بعض اللقطات التي يجب ألا نمرَّ عليها مرور الكرام بوصفها لقطاتٍ دالةً هادفةً، وأحياناً مُسلية أيضاً!

ولنتصور أحد الذين كتبوا رحلتهم في العصر الوسيط ... العبدري الحيحي يلاحظ أن أحد الحجاج من الذين التقاهم مصادفة في الموسم كان معوق النطق بحرف الكاف، ينطق به همزة، عوض أن يقول: (لبيك اللهم لبيك) بالكاف، يقول: (لبيأ اللهم لبيأ !!) بالهمزة!

ويمضي الفكر بالذين يسمعون عن هذه اللقطة بالمغرب، يمضي بهم ليتصوروا ذلك الحاج وهو يتلو آيةً شريفةً تحتوي على سطرين اثنين وتشتمل على ستة عشر حرف كاف: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

أرجو أن تجعلوا أنفسكم مكان العبدري وهو ينقل تلك اللقطة إلى زملائه في أقصى الجنوب المغربي!!

مائة رحلة ورحلة، كلٌّ يتحدث بما كان يعتقد أنه مقصده، وبما كان يهتم به هو في خاصة نفسه، هذا مهتم بمن يلقاه من الرجال، وذاك مهتم بالمنشآت المعمارية، وهذا مهتم بالطبيعة وألوانها، وآخرون اهتموا بالمخالفات والمنكرات التي شاهدوها، وأنشدوا معنا قول المعري:

سَبِّحْ وصلِّ وطفْ بمكةَ زائراً
سبْعينَ لا سبعاً فلستَ بزائرِ
جَهِلَ الديانةَ مَنْ إذا عرضتْ له
أطماعُهُ لم يُلْفَ بالمتماسكِ!!

هؤلاء اهتموا بأحوال الحكم في البلاد، وتعاقب الحكام على الكرسي بما يصحب

ذلك من مماحكات ومواربات، وهؤلاء بأحوال الأوبئة والمناخ والجو حتى قرأت عن بعضهم رصد خسوف القمر على سماء مكة المكرمة مما لم أقرأه في كتاب يتعلق بتاريخ مكة المكرمة!!

هناك القصصُ المطرف بل المُغرق في الطرافة مما يحكيه الحجاج، وكان موضع تعليق ممن يستمعون أو يعلقون، وموضع أمثالٍ شعبية وتعابير دارجة، ونحن نعرف عن "حكايات" الحجاج وما يتصل بها...

وإذا كان بعض الحجاج من إخوتنا في المشرق قد تالقوا في كتابة رحلاتهم سواء كانوا عجماً أو عرباً، فإن الحجاج المغاربة بزّوا زملاءهم كماً وكيفاً، وهكذا توفرنا على العشرات والعشرات من الرحلات المغاربية المكتوبة، فيها المقتضب وفيها المسهب، فيها المنثور والمنظوم، والفصيح والعامي على ما سنرى، وما كان حديثاً يفترى!..

ولقد كان كراتشكوفسكي على حق عندما لاحظ أن المغاربة أحرزوا درجة السبق في أدب الرحلات، وهي الحقيقة التي أبرزها زميلنا الراحل الشيخ حمد الجاسر عندما كان ـ وفي كل مناسبة ـ يشيد بالتفوق المغربي في هذا الصدد.

ولقد عرفتُ السرَّ في إلحاح (أبى هاني) على التصدي بالخصوص للرحلات المغربية، كان على حقٌّ عندما أراد جردها وإعدادَ مسْرَدٍ لها، ثمّ إبراز أمرها لدى عشّاق أمّ القرى وما أكثرهم! ! إن كل رحلةٍ من الرحلات المغربية تجر وراءها أكواماً من الروايات والحكايات المكتوبة، وإذا أضفنا إلى هذا المكتوب ما يردده المغاربة في رواياتهم الشفوية مما لا ينتهي ولن ينتهي فإننا نصل، في خاتمة المطاف، إلى الاقتناع بأن الزَّاد المغربي فيما يتصل بالحج، وما يتصل بمكة المكرمة والكعبة المشرفة وزمزم والصفا والمروة، يحتاج وحده إلى تتبع؛ لأنه أدب متحف مليء بالعظة والإيمان.

وهل يسوغ لنا أن ننسى أسطورة الحاج المغربي الفقير الذي عثر على صرةٍ ثقيلةٍ من المال في منعرجٍ من منعرجات مكة المكرمة، فحملتْه أمانته على أن يسلمها في مكة المكرمة إلى المسؤولين الذين أخذوا عنوانه، ولكن ليبحثوا عنه بعد فترة من الوقت ليسلموه الصرة؛ لأن صاحبها لم يظهر؟! وهكذا أصبح الحاج المسكين بين عشيةٍ

وضحاها من أغنى أغنياء بلدته، غير أنه لم يقلل من ذلك الغنى أن يقتني هذا الإنسان عقاراً كبيراً في بلدته ليحبسه على فقراء مكة المكرمة..! وكيف نفسر وجود فخذةٍ بكاملها من قبيلة بني زروال تحمل اسم بني مكة؟!

والحديث عن عطاءات المغرب إلى تلك البقاع مسجلٌ في كل حجج الوقف عندنا قديمها وحديثها، ومعروف في كلّ المراسلات التي تتصل بركب الحاج ... والمهم في هذا حقاً أن نقف على جميع الأسماء التي كانت تتوصل كلَّ موسم بالمبالغ المرسلة إليها مما يعطينا فكرة دقيقة عن أسماء الأسر المقيمة في الحرمين الشريفين اسماً اسماً ... لوائح العلماء، ولوائح الخطباء والأئمة ... وعبيد الحرم (الأغوات)، وخَدَمة عين زبيدة، وخدمة الحرم ومصالح الحرم، وشيخ زمزم وجماعته من الموقتين والمؤذنين بالمنائر والمكبرين والمرحمين ووقّادي الحرم، وسرَّاجي الأروقة الأربعة وسرّاجي منائر الحرم وشيالة القمائم، وكنّاسي الحرم، وفرّاشي مقامات الحرم والجبّادين ببئر زمزم، والبّوابين بأبواب الحرم، وحاملي مبخرة باب الكعبة (حامل شمع باب الكعبة)، وحاملي أعلام الخطيب، وكنَّاسي ما بين الصفا والمروة، ومؤذني جبال مكة! وخدمة مشاهد مكة، ومعلمي الصبيان من الرجال والنساء... عالم كبير من الموظفين والأطر نجد تفصيل الحديث عنهم في الرحلات المغربية...

والطريف أن كلَّ هؤلاء الأطر بمن فيهم الذين يؤذنون على رؤوس الجبال نعرف أسماءهم وأسماء أسرهم على ما نجده في السجلات المحفوظة...

هذه خصائص لا يمكن أن نجدها في رحلاتٍ أخرى مما قرأنا عنها بالمشرق، وهذا ما يؤكد حالة الخصوصية بالنسبة إلى المغرب، أو يؤكد مرة أحرى ما دعونا إليه من ضرورة عودة المؤرخ في الجزيرة العربية إلى ما سجلته الرحلات المغربية عن مكة المكرمة والمدينة المنورة، وعن "الأطر" التي كانت تقوم عليها مختلف الوظائف الدينية، ومرافق الحياة في تلك الديار المقدسة مما كان يقوم به الحجازيون، وكذا المجاورون والمجاورات. وهكذا تتوفر الرحلة المغربية مثلاً على شمولية الموضوعات المطروحة من جهة، وهي من جهة أخرى - لكونها رحلات متتابعة متوالية متلاحقة - تغطي جميع سائر فصول السنة، ففيها

نموذج من لائحة العطاءات المغربية لبعض الفئات بالحرمين الشريفين

ما كان يتم في الصيف، وفيها ما كان يتم في الشتاء أو الربيع أو الخريف، ومن ثمت فقد كنا على خبرةٍ من حالة البلاد الحجازية على طول الفصول الأربعة . . .

إن كثيراً من المعلومات والإفادات ما كان لها أن تُعرف من خلال ما قرأناه في تواريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة لولا رجوعنا إلى ما حررته أيادٍ مغربية ونقلته إلى الجناح الآخر من دار الإسلام، مما يعني أن تاريخ ذلك الإقليم يوجد ـ كما قلنا ـ موزعاً في أقاليم أخرى، ومن أبرزها وأهمها بلاد المغرب الكبير، بما فيها الأندلس وطرابلس وتونس والجزائر وموريتانيا وغرب إفريقية على العموم.

وهكذا، فعلى نحو ما أسلفناه نردد هنا أنه منذ السنة التي شُرع فيها الحج أصبحنا مدعوين للبحث عن تاريخ الجزيرة في جميع بلاد الدنيا، وحيث يوجد الإسلام؛ أي أن شبه الجزيزة لم تبق حدودها على ما كانت قبل السنة الثامنة من الهجرة، ولكنها حدود اتسعت وترامت وأمست، أو بعض أجزائها على الأقل، محرمةً على كل من يريد اقتحامها ما لم تتوافر فيه شروط الإقامة، التي كان من أبرزها وأهمها اعتناق الإسلام. .!!

عجيب أمر ذلك التشريع ـ تشريع الحج ـ الذي غيّر أوضاع العالم، وفرض عليه تقنيات من واجبه أن يقبلها إن كان يريد مسالمة دار الإسلام ومعايشتها. . .

ومن الطريف أن نلمس صدى العلاقات الدولية في هذا الركن من أركان الإسلام، نلمسها في أمر المعاملات التجارية، في أمر التأشيرات والزيارات.

وأية رحلةٍ حجازيةٍ في الدنيا سجلت حضور سيدات فضليات وأميرات عالمات جليلات حظين بشهادة قاضي مكة المكرمة ورئيس الموسم، حظين منه بشهادةٍ مكتوبة تتحدث عن حضورهن في مكة المكرمة، وطوافهن وسعيهن ووقوفهن بعرفة، وبسط ذات اليد للفقير والمحتاج. . واقتنائهن العقار، وتحبيسه على أهل الخير والصلاح من المنقطعين والمتبتلين؟! ومتى كنا نعرف أن هناك مؤذنين على الجبال المحيطة بمكة المكرمة يُسمعون ذكر الله لمن كان وراء تلك الجبال . . . ويعرفون أن لهم عطاءات خاصة لضمان وصول صدى تلك الأصوات، عطاءات تأتيهم مما وراء البحار؟!

إن المرء ليأسف اليوم وهو يرى أن الحديث عن أدب الرحلة في طريقه إلى النهاية إن لم

يكن قد انتهى فعلاً بسبب ما جدّ من تطورات حسَّنت وسائل أداء الفريضة، لكنها قضت على كثير من مظاهر جمالها وأسرار كمالها التي كانت تتمثل في تلك المبادرات التي أصبحت اليوم أثراً بعد عين، وأمست، فقط، حديثاً خاطفاً للحجاج المتعجلين، والمعتمرين العابرين..!

ومن باب التحدث بالنعمة أن أذكر في الأخير أن من نعم الله عليَّ أن كل الذين كنت أقصدهم للأخذ بيدي في الحصول على ما لم يكن متوافراً لديّ من نصوص رحلات، كل أولئك استجابوا مشكورين لرغبتي. لقد كان لزاماً عليَّ أن أرحل إلى حيث أحقق رغبتي، وهكذا حصلت في جامعة ليبسيك (شرق ألمانيا) على مخطوطة لرحلة مغربية فريدة لا توجد إلا في تلك المكتبة دون سائر جهات العالم..! وكان الأمر هكذا بالنسبة إلى مخطوطةٍ في لندن بمركز الدراسات الإفريقية والآسيوية (SOAS)، وهكذا بالنسبة إلى مخطوطة فريدة أخرى ثالثة توجد بدار الكتب المصرية، وأخرى رابعة بمكتبة الإسكندرية لرحالةٍ آخر، شاكرين كذلك لذوي الأريحية نجدتهم، ومخطوطة خامسة بالدار التونسية للكتب، وسادسة من الجمهورية الجزائرية التي غمرني الإخوة فيها بلطفهم. ولا أتحدث عن المغرب؛ فقد أزعجت المشرفين على المخطوطات سواء بالعاصمة الرباط أو سلا أو بفاس أو مراكش أو تطوان وطنجة، بالمكتبات العامة والخاصة مما لم أكن أتوفر عليه في مكتبتي من رحلاتٍ موزعة على العصور والدهور...

ومع كل تلك الأتعاب التي كنت أحسها، لكني مع كل ذلك كنت أشعر بالمزيد من المتعة وأنا أعيش مع المعلومة الجديدة أقرؤها، ومع الخط الصعب أكتشفه.

وقد سنحت الفرصة في لندن يوم ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٢م في أثناء اجتماع المجلس الاستشاري الدولي لمؤسسة الفرقان فأنهيت لزملائي مراحل العمل التي وصلت إليها ... وهو ما رحب به السيد الرئيس الذي زف إلينا خبراً هو أن سنة ٢٠٠٤م ستكون السنة الثقافية العالمية لمكة المكرمة!..

وبينما كان (جار الله) يضع اللمسات الأخيرة على عمله هذا إذا أزمة صدرية تنتابني اضطررتُ معها دخول مستشفى ابن سينا، لكن من غير أن يفارقني الأمل في أن

أستمر في عملي، لأني من المؤمنين بالحديث الشريف: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فليغرسها»!!

لقد كان أخوف ما أخافه ألا أكمل تصنيفي ... وأن يتحدث الناس بعدي بمثل ما تحدثوا عن مؤلفين سابقين عندما قالوا عنهم: "واخترمته المنية قبل أن ينهي تأليفه!!".

وهكذا، ففي المستشفى اشتغلت على عددٍ من المخطوطات، وشكرت الله على أن مكنني من أن أنجز ما به وعدت مما أسعد اليوم بتقديمه إلى القرّاء والقارئات من مختلف الجهات والقارات.

وبعد، فلقد كان الشعار الذي رفعته في معظم مؤلفاتي هو الشعار نفسه الذي رفعه الأدباء والفقهاء والمؤرخون من أمثال ياقوت عندما سأل الناظر في (معجمه) ألا يقصد قصد من إذا رأى حسناً ستره، وإذا رأى عيباً أظهره!!

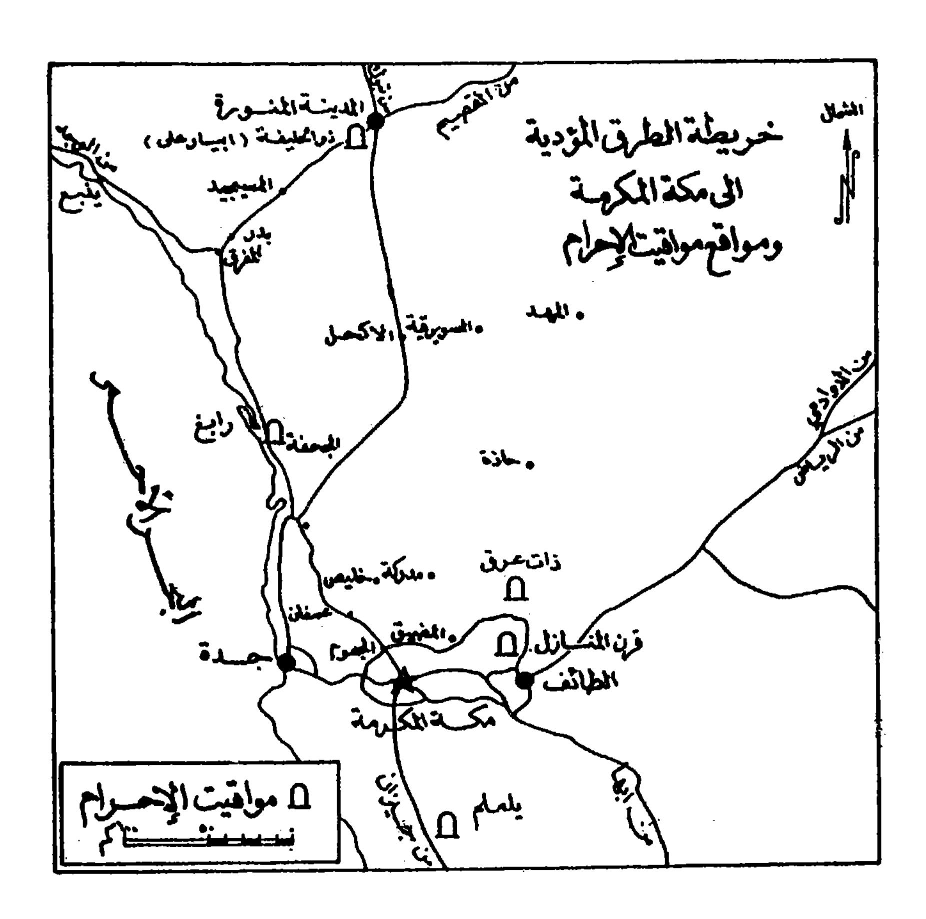
ومن أمثال الشيخ خليل بن إسحاق الذي توسل في مقدمة مختصرة إلى القراء" أن يكملوا النقص، ويصلحوا الخطأ، فقلما يخلو مصنف من الهفوات، وينجو مؤلف من العثرات ...".

ومن أمثال ابن خلدون الذي اعترف في نهاية مقدمته بالعجز، وأهاب بمن يأتي بعده، ممن يزوده الله بعلمٍ صحيح، أن يفصل ما أجمل، ويلحق ما أهمل، ويصلح ما أغفل ...

هذا الشعار عندي هو الذي أرفعه اليوم أيضاً معلقاً الأمل على جميع القراء والقارئات أن يجعلوه "المنسك" الذي لا غنى عنه لكل الباحثين الشرفاء الأمناء.

تمام الحج أن تقف المطايا
على خرقاء واضعة اللثام!

د. عبد الهادي التازي



خريطة الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة ومواقع مواقيت الإحرام

مكة المكرمة كمرجع علمي للغرب الإسلامي

لقد كان من أطرف ما استأثرت به مرويات التاريخ المغربي ما تضافرت الروايات على نقله من توجه وفادةٍ مغربيةٍ منذ الأيام الأولى لظهور نبي الإسلام إلى مكة المكرمة للاجتماع به ﷺ والاستماع إليه قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة، ويتعلق الأمر بجماعةٍ تتألف من سبعة رجال من قبيلة رجراجة؛ أشراف قبائل مصمودة كان شاكر بن يعلي بن واصل على رأسها... وعن طريق هذه الوفادة سمعت بلاد المغرب بالإسلام أول الأمر على ما ذكره أبو عبدالله محمد بن سعيد المرغيتي السوسي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م.

ولعل مما يستأنس به في هذا الصدد ما يوجد في صحيح الإمام مسلم عن نافع بن عقبة قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة، فأتى النبيَّ ﷺ قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف فوافوه عند أكمة، فإنهم لقيام ورسول الله ﷺ قاعد، قالتْ لي نفسي: ائتهم فقم بينهم لا يغتالونه، قال: قلت لعله نجيّ معهم، فقمت بينهم وبينه... الحديث.

ولا بد لي أن أذكر أن تلك الوفادة ظلت عالقةً بأذهان المغاربة إلى اليوم، أمراء وعلماء، وهو ما يفسر انشغال السلطان المولى إسماعيل بن الشريف ١٠٨٢-١١٣٩هـ / ١٦٧١-١٧٢٧م الذي جمع علماء المغرب لمدارسة الموضوع وإبداء رأيهم فيه(١)...

وبداية أذكر أننا في هذا البحث إذ نعطي للمغرب بعداً جغرافياً واسعاً يشمل قواعد الأندلس وبلدان المغرب الكبير وبلاد السودان، فلأننا نعرف أن المغرب كان في فترةٍ واسعةٍ من الفترات يمثل إقليماً واحداً، بحيث كنا نجد أن القاضي يمكن أن يكون أصلاً من المغرب الأدنى (تونس) ويتعلم بقرطبة (الأندلس)، ويستقضي بالمغرب الأوسط

---

(١) أثارت معلومة الشيخ المرغيتي عدداً من التعاليق، فيها المؤيد وفيها المعقب. ومهما كان، فإن المهم أن ألفت النظر، منذ البداية، إلى أن مشايخ المغرب من أمثال المرغيتي كانوا حريصين على تقصي كل ما يعبر عن تطلع المغاربة إلى استجلاء الأخبار وحرصهم على أن يكونوا من السباقين إلى البحث عن الآثار.
العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج٥، ص٣٠٤-٣٠١. المختار السوسي: المعسول، ج٤، ص ٦-١٦. مطبعة فضالة - المحمدية ١٣٣٠-١٩٦٠. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٣، ص ٢٩-٣٠. الإيداع القانوني ٢٥ /١٩٨٨. مطابع فضالة.

(تلمسان)، ليتحول إلى قضاء إشبيلية ثم يعين قاضياً بالمغرب الأقصى (فاس) على أن يصل إشعاعه إلى مالي في قلب إفريقية الغربية.

ونحن نعرف أن المغاربة ـ منذ كانوا ـ مولعون بالرحلة إلى المشرق ... يبحثون بذلك عن ذاتهم، عن منابعهم وأصولهم.. وقد سجلت تلك الاتصالات من خلال مدونات التاريخ، وكتب الفهارس، وتراجم العلماء ورجال الفضل ... من خلال كل هذه المصادر المهتمة بالغرب الإسلامي نكشف الكثير عن حياتها الاقتصادية والاجتماعية كذلك، صيفاً وشتاءً، ربيعاً وخريفاً، لماذا؟ لأن موسم الحج ـ وهو تابع للسنة القمرية ـ كان يختلف من حر إلى قر، إلى اعتدال ...

كل مصادر تاريخ الغرب الإسلامي ـ وما أكثرها ـ كانت تهتم بلقب "الحاج"، وهي عادة معروفة من قديم لدى المغاربة، وخاصة منهم غير المنتسبين إلى آل البيت، فإن هؤلاء لا يحملون عادة لقب (الحاج) بالمغرب؛ لأنهم لا يحتاجون إلى هذا اللقب الذي هو الحاج. كان المغاربة ـ وما يزالون ـ يحرصون على أن يضيفوا إلى نعوتهم الشخصية نعت "الحاج" ... لأن المسافة الفاصلة بينهم وبين مكة المكرمة لم تكن مسافةً قصيرةً ولا سهلة، ولا حتى آمنة ... فالذين كانوا يستطيعون أن يجتازوا إقليم برقة في ليبيا كأنهم كانوا روادَ فضاءٍ باصطلاح اليوم.!! برقة التي ضربت بها الأمثال في الصعوبة والامتناع، هذا إلى سبب آخر له ـ أحياناً ـ علاقة بالطموح إلى الزعامة السياسية!! فإن هذا اللقب قد يصبح مرجعيةً للذين يتوقون إلى منصب قيادي..!

وفي هذا الصدد لا أنسى أن أذكر أن لقب "الحاج" أمسى عند بعض المغاربة يعوض الاسم العائلي المعروف للأسرة بالأمس، بمعنى أن الأسرة قد تزهد في ألقابها السابقة التي تنسبها إلى حيّز جغرافي أو مهنةٍ أو صفةٍ، وتميل إلى الاكتفاء بكلمة "الحاج"، فتجد في هذا اللقب كل ما كانت تتوق إليه.. وهكذا فإننا نجد من العائلات المغربية المعروفة اليوم في الأندلس والمغرب عائلة ابن الحاج ... عوض أن تقول القرطبي أو القيرواني أو التلمساني أو الفاسي...

وإن كل الذين يقومون بترجمة عَلَم من الأعلام، سواء أكان ينتسب إلى قواعد

الأندلس أو ينتسب إلى قواعد المغرب وإفريقية، كانوا يرون أن من واجبهم أن يعرفونا أن هذا العالم أو ذلك "له رحلة إلى المشرق وأنه أدى الفريضة، وأخذ بمكة عن فلان وفلان أو صحب معه فلاناً وفلاناً".

لقد كان الإنسان المغربي يحس بأن الفضاء الذي يعيش فيه لم يكن كافياً لإرضاء كل رغباته، بكل ما كان يحتضنه هذا الفضاء من محامد ومناقب، ولذلك فإن عليه أن يسعى لرؤية العالم الآخر: عالم المشرق الذي كان مصدرَ سعادته، والذي لم يكن يعني غير مراكز الإشعاع الروحي والفكري التي كانت تتمثل فيها تلك السعادة التي تغمره طوال يومه وليله، تلك المراكز التي كان يتصدرها قطب مكة (البيت الحرام) ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾.

مرت بيننا مجموعةٌ كبيرة من رجالات الغرب الإسلامي ممن كانوا يرون أن شخصياتهم إنما تكتمل عندما يذكرون أن لهم رحلةً إلى المشرق، وأنهم قصدوا مكة المكرمةً بالذات، وحرصوا على أن "يأخذوا" عن شيوخها، وهنا تسنح الفرصة لذكر بعض الشيوخ ممن كانوا يتصدون للتدريس هناك في البيت المعمور...

ومن ثمتَ نجد أن كتب التراجم والفهارس حافلة بذكر طائفة من الرواد الذين طبعوا حياة الغرب الإسلامي بما نقلوه وبثوه في صدور الرجال. ونذكر في صدر هؤلاء رجالاً عاشوا منذ القرن الثاني الهجري والثالث، وطوال القرن الرابع والخامس والسادس فيما بعد،، ممن كانوا زينة المجالس وقرة العيون، فيشعر المرء وكأنه يعيش في عالم إسلامي واحد لا فرق بين مشرقه ومغربه. وهكذا فأنت تقف ـ والحالة هذه ـ على أعلامٍ شخصيةٍ قد تكون من الهند أو السند أو الصين، ينقلها أحد المغاربة إلى قلب المدن الأندلسية أو الحواضر المغربية أو حتى تخوم بلاد السودان...

١ـ ونذكر في البداية يحيى بن يحيى الليثي المتوفى سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٧-٨٤٨م ... هذا الذي يذكر أن أصله من برابر مصمودة، وهو راوي «كتاب الموطأ» عن الإمام مالك ... وكان رواها بالأندلس عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون ... ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة ... والمهم أن نذكر هنا أنه سمع بمكة

المكرمة عن سفيان بن عُيينة .. وقد ذكر ابن الأبّار في «التكملة»[1] أن ولده محمد بن يحيى سمع هو الآخر بمكة، وقد توفي هناك في حياة والده الذي وجد عليه وجداً شديداً... وقد ترجم ليحيى هذا غير واحد، منهم ابن الفرضي (ت٤٠٣هـ / ١٠١٣م) في «تاريخ علماء الأندلس» والحُمَيدي (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) صاحب «جذوة المقتبس»، والضبي (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م) مؤلّف «بغية الملتمس»، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) في «وفيات الأعيان»[2].

٢ـ ونذكر أبا عبدالرحمن العالم الشهير الذكر الذي أثار انتباه ابن تيمية فقال: إن تفسيره للقرآن أفضل من تفسير الطبري!! هذا هو بقيّ بن مَخْلد بن يزيد المتوفى سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٦م الذي ينعته المقّري بالأحق بالسبق والتقديم، أندلسي قرطبي ... ارتحل إلى المشرق ولقي كبار القوم، وسمع عدداً عظيماً من الشيوخ بمكة المكرمة والمدينة المنورة ومصر ودمشق وبغداد، وكان لا يقتصر على السماع من المالكيين، ولكنه كان يتجاوز ذلك إلى الشافعيين[3]...

٣ـ ونذكر أبا عبدالله محمد بن عبد السلام القرطبي المتوفى سنة ٢٨٦هـ /٨٩٩م. رحل قبل الأربعين ومئتين، فحج وسمع بمكة المكرمة من محمد بن يحيى العدني وغيره.

٤ـ ومن هؤلاء أبو يحيى زكرياء بن خطاب الكلبي التُّطِيلي الذي رحل عام ٢٩٣هـ. فسمع بمكة المكرمة كتاب "النسب" للزبير بن بكار، سمعه من الجرجاني الذي حدث به عن علي بن عبد العزيز الجمحي عن الزبير ... كما سمع بها من إبراهيم بن عيسى الشيباني والقزاز في آخرين[4].

---

(١) ابن الأبّار: التكملة لكتاب الصلة، طبعة حجرية ١٨٨٧م، ج١، رقم ٣٠٥.

(٢) نفح الطيب في غصن الأندلس الرّطيب، تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقّري، تحقيق د. إحسان عباس، ج١ص ٣٣٩، ج٢، ص٩-١٠، ص ١٤٩- دار صادر، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

(٣) المقّري: نفح الطيب، ج٢، ص ٤٧-٤٨، ٥٢٠.

أبو عبدالله ابن الأبّار القضاعي: الحلة السيراء، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعين، بيروت ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

(٤) المقّري: نفح الطيب ج٢، ٦٣٢.

٥- ومنهم أبو زكرياء يحيى بن عبدالعزيز القرطبي المعروف بابن الخراز المتوفى سنة ٢٩٥هـ، وقد قام بالرحلة إلى المشرق وسمع بمكة المكرمة من علي بن عبدالعزيز، وكانت رحلته ورحلة سعيد بن عثمان الأعناقي، وسعيد بن حميد، وابن أبي تمام واحدة(١).

٦- وأبو محمد قاسم بن ثابت العوفي السرقسطي المتوفى سنة ٣٠٢هـ، الذي كان أول من أدخل كتاب (العين) إلى الأندلس، وقد رحل مع أبيه، فسمع بمكة المكرمة من عبدالله بن علي بن الجارود، ومحمد بن علي الجوهري(٢).

٧- ومنهم أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن حيّون من أهل وادي الحجارة (على مقربة من مدريد الحالية) المتوفى بقرطبة سنة ٣٠٥هـ. وقد رحل إلى المشرق فتردد هناك نحواً من خمس عشرة سنة وسمع بمكة المكرمة ... ولقي جماعة من أصحاب الإمام أحمد ابن حنبل منهم عبدالله بن أحمد... وفيه قيل: لو كان الصدق إنساناً لكان ابن حيُّون!!(٣).

٨- ومنهم القاضي أبو عبدالله محمد بن أبي عيسى المتوفى سنة ٣١٤هـ، عَلَمُ الأندلس، وعالمها الندس. مما يروى عنه أنه أعجب بأبياتٍ شعريةٍ سمعها فكتبها على ظهر يده حتى لا ينساها!! وقد رحل من قرطبة سنة ٣١٢هـ، وحج وسمع بمكة المكرمة من ابن المنذر، والعقيلي، وابن الأعرابي، وغيرهم(٤).

٩- ومنهم أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف البيَاني، (بيانة من أعمال قرطبة)، وقد رحل إلى المشرق مع محمد بن عبدالملك بن أيمن، ومحمد بن زكرياء بن عبد الأعلى سنة ٢٧٤هـ، فسمع بمكة المكرمة من محمد بن إسماعيل الصائغ، وعليّ بن عبدالعزيز... وانصرف إلى الأندلس بعلمٍ كبيرٍ، فمال الناس إليه ... مولده سنة ٢٤٧هـ، توفي بعد المحرم سنة ٣٢٤هـ(٥).

---

(١) النفح، ص٦٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص٤٩.

(٣) المصدر السابق، ص٥٢.

(٤) النفح ٢، ١٢.

(٥) النفح ٢، ٤٧.

١٠ـ ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون التميمي الجزيري الذي حج غير مرة، سمع بمكة المكرمة وطاف ببلاد الشام... وقد أدركته وفاته سنة ٣٤٤هـ(١).

١١ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القرطبي المعروف والده بالقنتوري، رحل سنة ٣٣٧هـ فسمع بمكة المكرمة من ابن الأعرابي، ولزمه حتى مات. ثم سمع بمكة المكرمة أيضاً من جماعة غيره ... وعاد إلى الأندلس بزادٍ كبيرٍ، فاستقضاه الحكم المستنصر ... وتوفي برجب سنة ٣٤٨هـ(٢).

١٢ـ ومنهم أبو المطرف عبدالرحمن بن خلف التُّجِيبي الإقليشي، روى عن أبي ميمونة دراس بن إسماعيل فقيه مدينة فاس، ورحل حاجاً سنة ٣٤٩هـ. سمع بمكة المكرمة من أبي بكر الآجُرِّي وأبي حفص الجمحي ... كان مولده سنة ٣٠٣هـ(٣).

١٣ـ وأبو عثمان بن نصر بن عمر بن خلْفون الاستجي الذي رحل إلى المشرق فسمع بمكة المكرمة من ابن الأعرابي سنة ٣٥٠هـ، وقد أدركه أجله ببغداد...

١٤ـ ومنهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة، كان تحفةَ زمانه علماً وحصافةَ رأي، وصلابة موقف، وأرْيَحِية سلوك... رحل حاجاً سنة ٣٠٨هـ واجتمع بعدة أعلام، وظهرت فضائله بالمشرق، وكان ممن سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة المكرمة محمد بن المنذر النيسابوري، سمع عليه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء المسمى بـ«الإشراف».. كان متفنناً في ضروب العلوم ... غلب عليه التفقه بالظاهرية، لكنه إذا جلس للحكم قضى بمذهب مالك؛ لأنه المذهب الذي عليه العمل بالأندلس ... أدركه أجله بقرطبة سنة ٣٥٥هـ(٤).

١٥ـ ومنهم علامة فاس الشهير الأثير دَرّاس بن إسماعيل دفين مدينة فاس عام ٣٥٧هـ. وقد توجه إلى الحج فلقي عدداً من العلماء في مكة المكرمة، ثم رجع إلى فاس فكان أولَ من أدخل إليها مدونة سحنون، ولا يزال مشهده معروفاً إلى الآن بفاس(٥) ...

---

(١) النفح ٢/١٣٨.

(٢) المصدر السابق، ٢١٨.

(٣) المصدر السابق، ص٦٣٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) د. التازي: جامع القرويين، المسجد والجامعة، ج١، ص١٥٤، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢م.

١٦ـ ومنهم الشيخ المعروف أبو جيدة بن أحمد الفاسي اليازغي، دفين فاس عام ٣٦٥هـ، كان يحسن مذهبي مالك والشافعي، وهو مع درّاس بن إسماعيل ممن بعثوا الحياة العلمية بالمغرب، وكان ذلك بفضل الرحلة إلى المشرق والأخذِ عن أعلامه... وعلى رأسهم رجالُ مكة المكرمة(١).

١٧ـ ومنهم أبو الأصبغ الشيخ عبدالعزيز بن عبدالملك بن نصر الأموي الأندلسي الذي ولد بقرطبة، وتوفي ببخارى سنة ٣٦٥هـ. كان ممن تزودوا بعلم مكة وثقافتها، وهو الذي حدث بما قاله رسول الله ﷺ: «أنا وليُّ ولد فاطمة وهم عترتي»(٢).

١٨ـ ومنهم القاضي أبو بكر محمد بن إسحاق، الشهير بابن السليم، قاضي الجماعة بقرطبة ... رحل سنة ٣٣٢هـ، فسمع بمكة من ابن الأعرابي ... وعاد إلى الأندلس وأقبل على دراسة العلم فسمع منه الناس. وقد أدركه أجله عام ٣٦٧هـ(٣).

١٩ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن صالح القحطاني المغافري الأندلسي المالكي، رحل إلى الشرق فسمع بمكة المكرمة أبا سعيد ابنَ الأعرابي ... وروى عنه كثير من الناس فيهم أبو عبدالله الحاكم قائلاً: اجتمعنا به في همذان، أدركه أجله في بخارى عام ٣٨٣هـ(٤).

٢٠ـ ومنهم أبو هارون موسى بن يحيى الصديني الفاسي الذي له رحلة إلى المشرق، كذلك لقي فيها أبا جعفر الأُسواني المالكي، ولا يزال في فاس زقاق يحمل اسم الصديني، كما أن هناك بفاس بالقيسارية قبةً تحمل اسم قبة الصديني، وقد أدركه أجله سنة ٣٨٨هـ(٥).

٢١ـ ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ الحافظ الأندلسي الذي رحل إلى المشرق ... وسمع بمكة المكرمة من بكير الحداد وأبي الحسن الخزاعي والآجُرّي... وقد

(١) د. التازي: تاريخ القرويين، ج١ ص١٥٥.

(٢) النفح ج٢، ص٥٣.

(٣) النفح ٢، ١٠٥.

(٤) النفح ٢، ١٤٢.

(٥) د. التازي: جامع القرويين، ص١٣٥.

أدركه أجله سنة ٣٩٣هـ[١].

٢٢- ومنهم أبو عبدالله محمد بن عبدالملك بن ضيْفون اللخمي الرصافي القرطبي الحدّاد. وقد حج عام ٣٣٩هـ؛ أي سنة رد القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه، وقد سمع بمكة المكرمة من ابن الأعرابي ... حدث وكتب عنه الناس. أدركه أجله بقرطبة في شوال سنة ٣٩٤هـ.

٢٣- ومنهم أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموي القرطبي، عرف بالداني لسكناه في دانية ... رحل إلى المشرق سنة ٣٩٧هـ ... وحج وخلف كتبه بالحجاز وغيرها، وينعته المقّري في النفح أيضاً بالشهير عند أهل الغرب والشرق والأحق بالتقديم والسبق، وقال بعض أهل مكة: إن أبا عمرو الداني مقرئ متقدم، وإليه المنتهى في علم القراءات ... وقد أدركه أجله في دانية سنة ٤٤٤هـ[٢].

٢٤- ومنهم شخصية "كان لها من اسمها نصيب" كما يقولون، هو العلامة المسمى: نعم الخَلَف بن عبد الله بن أبي ثور الحضرمي الطرطوسي، الذي رحل إلى المشرق، ولقي بمكة المكرمة أبا عبدالله محمد بن عبد الله الأصبهاني، فسمع منه سنة ٤٢٢هـ، وقد حدث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف[٣]..

٢٥- ومنهم أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حَاج الفاسي، إليه ينسب درب (بوحاج) بفاس (الطالعة الكبرى)، اضطر إلى مغادرة فاس لأسباب سياسية ... ثم رحل إلى المشرق ... وأخذ بمكة المكرمة عن أبي القاسم عبدالله بن محمد بن أحمد السقطي ... ثم حج حجات كثيرة، وتجدد لقاؤه بعلماء مكة المكرمة ... ويعدّ الرأس المدبر لاستنزال ولاة زناتة عن الحكم! أدركه أجله سنة ٤٣٠هـ[٤].

٢٦- ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد الميّورقي، رحل حاجاً فأدى الفريضة سنة ٤٥٢هـ، وصحب في رحلته سنة ٤٥٢هـ عبد الحق الصقلي الفقيه ... وقدم أبو المعالي

(١) النفح ٢، ١٠٥.
(٢) النفح ٢، ١٣٨.
(٣) التكملة، ص٤٢٢، رقم ١٢١٣.
(٤) د. التازي: تاريخ القرويين ج١، ص١٥٧-١٥٨، مصدر سابق.

الجويني مكة المكرمة وهما بها حين سمعا منه جميعاً، ورويا عنه تآليفه قبل العودة إلى ميّورقة[١].

٢٧ـ ومنهم أبو الحسين طاهر الأندلسي المالقي ... ترك قرطبة لما دخلها البربر عنوة سنة ٤٠٣هـ، والتحق بمكة المكرمة إلى حدود الخمسين وأربعمئة ... وجاورَ بمكة طويلاً، وأقرأ على مقربة من (باب الصفا)، وكان الشيبيون يكرمونه ويفرحون به عند دخول البيت الحرام[٢] ...

٢٨ـ ومنهم أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس، مقرئ أهل قرطبة، رحل وقوّى معلوماته في القراءات بمكة المكرمة على أبي العباس الكازريني ... وكانت الرحلة إليه في وقته، أدركه أجله سنة ٤٦١هـ[٣].

٢٩ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن شريح الرُّعيني الإشبيلي الذي رحل إلى المشرق سنة ٤٣٣هـ. سمع بمكة المكرمة عن أبي ذر الهروي، وقد أدركه أجله بإشبيلية سنة ٤٧٦هـ. ونذكر أن أبا ذر المذكور هو عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن غفير الأنصاري المالكي، سمع بهراة ... ثم حج وجاور وتزوج في العرب، وكان يحج كلَّ عام ويحدّث[٤].

٣٠ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله الأزدي الحَميدي نسبة إلى جده حميد الأندلسي ... كان يُحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥هـ ولمّا يبلغ عمره عشر سنوات !! وقد رحل سنة ٤٤٨هـ، وسمع بمكة من الزنجاني ... كان إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته ... ومن تآليفه: «جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس» الذي ألّفه في بغداد، و«الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، و«ما جاء من الأخبار في حفظ الجار». أدركه أجله ببغداد سنة ٤٨٨هـ.

---

(١) التكملة، ص١٢٦.

(٢) كتاب التكملة، رقم ٤٤٣، ص٨٠.

(٣) النفح ٢، ص ٦٣٧.

(٤) النفح ٢، ص٧٠-٧١-١٤١.

٣١- ومنهم محمد بن خليفة الذي رحل إلى مكة المكرمة فسمع من غير واحد، واستكثر من أبي بكر محمد بن الحسين الآجُرّيّ، وسمع كذلك من الخزاعي تأليفه عن «فضائل مكة»(١).

٣٢- ومنهم أبو القاسم عبدالرحمن بن يحيى بن عبدالرحمن فورتش السرقسطي الذي رحل حاجاً، فسمع بمكة أبا ذر الهرويّ، وأجاز له أبو عمرو السفاقسي. توفي قبل أو سنة ٤٨٩هـ(٢).

٣٣- ومنهم أبو عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن خَلَصة المعافري الشاطبي، رحل حاجاً فلقي بمكة المكرمة أبا الحسن علي بن المفرح الصقلي، وسمع منه صحيح البخاري عن أبي ذر الهروي، ولازمه وأكثر عنه، ولقي أيضاً بها أبا محمد هياج بن عبيد الحظيني فأخذ عنه كتاب الزهد لهنّاد بن السري سنة ٤٦٤هـ، وقد أدركه أجله سنة ٤٩٠هـ(٣).

٣٤- ومن أهل القرن السادس الهجري أبو بكر محمد بن عمر بن قطري الزبيدي، من أهل إشبيلية، له رحلة حج فيها، وروى بمكة المكرمة عن الحسين الطبري ... وقد أدركه أجله سنة ٥٠١ هـ حيث كان ينشر العلم(٤).

٣٥- ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري، من أهل سبتة، يعرف بابن الفلُّو، كان من الرحالين في طلب العلم وأهل العناية بتحصيله ... سمع بالحجاز من جماعة، ولقي بمكة المكرمة أبا المعالي الجويني، وأبا محمد عبدالحق بن هارون الصقلي وغيرهما، ودرس هناك الأصول، وقفل إلى بلده فولي القضاء به ... وعكف على التدريس حياته كلها، توفي في آخر المحرم سنة ٥٠٢هـ.

٣٦- ومنهم أبو محمد عبدالوهاب بن محمد بن عبد الملك اللخمي الإشبيلي الذي رحل حاجاً فأخذ بمكة المكرمة في رمضان عام ٤٩٢هـ عن أبي عبد الله الحسين بن علي الطبري، سمع منه صحيح مسلم سنة ٥١٧هـ.

---

(١) التكملة رقم ١٥٦٣، ص ٥٥٢-٥٥٣.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٥١.

(٣) التكملة رقم ٥٠٨.

(٤) التكملة ص ١٤٤.

٣٧- ومنهم أبو علي حسن بن إبراهيم بن محمد بن تقي الجذامي المالقي ... كانت له رحلة سمع فيها من عدد من الرجال بتاريخ رجب سنة ٥١٥هـ. وفي رحلته هذه لقيه أبو علي الحسن بن علي البطليوسي نزيل مكة المكرمة. حدث عنه أبو طالب التنّوخي من أهل الإسكندرية ... وقد روي عنه عن بعض الشيوخ: قيل لأبي ذَر الهروي: أنت من هراة، فمن أين تمذهبت بمذهب مالك والأشعري؟ فأجاب: عن طريق القاضي أبي بكر الباقلاني الذي تعرفت عليه بفضل الدارقطني(١).

٣٨- ومنهم عبدالرحمن بن محمد بن أبي زرعة الحضرمي من أهل إشبيلية، رحل حاجاً فأدى الفريضة وسمع بمكة المكرمة من أبي الفتح بن البيضاوي في ذي القعدة سنة ٥١٦هـ.

٣٩- ومنهم أبو بكر اليابري، ويكنى أيضاً أبا محمد، وهو عبدالله بن طلحة بن محمد بن عبدالله، أصله من يَابُرَة (البرتغال) ونزل بإشبيلية، وروى عن جماعة ... ورحل إلى المشرق، وروى عن جماعة. ثم رحل إلى مكة المكرمة وبها أدركه أجله، وكان سماع أبي الحجاج منه موطأ مالك سنة ٥١٦هـ(٢).

٤٠- ومنهم أبو محمد عبدالوهاب بن محمد بن عبد الملك اللخمي من أهل إشبيلية، رحل حاجاً فأخذ بمكة المكرمة عن أبي عبدالله الحسين بن علي الطبري، سمع منه صحيح مسلم في رمضان سنة ٤٩٢هـ وقفل إلى بلده، وحدَّث وأخذ الناس عنه سنة ٥١٧هـ(٣).

٤١- ومنهم أبو زيد عبدالرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي المرسي، رحل حاجاً فأدى الفريضة، وجاور بمكة، ولقي بها أبا الحسن علي بن المفرج الصقلي فسمع منه موطأ الإمام مالك رواية أبي مصعب الزهري، كما لقي أبا عبدالله الحسين بن علي الطبري فسمع منه صحيحي البخاري ومسلم، ولقي أبا عبدالله بن اللَّجَالة النحوي الأندلسي فحدث عنه بالملخص للقابسي عن مؤلفه، وقفل إلى بلده فدرس التفسير

(١) التكملة رقم٣٢.

(٢) التكملة رقم ١٣٣٠.

(٣) التكملة ص ٦٣٩.

والحديث. وأدركه أجله بعد العشرين وخمسمئة من الهجرة[١].

٤٢ـ ومنهم أبوالحجاج يوسف بن عبدالعزيز بن علي اللخمي الميّورقي، يعرف بابن نادر، حج وأدى الفريضة، وسمع بمكة من أبي عبدالله الطبري صحيحَ مسلم، ومن أبي الحسن علي بن سليمان البغدادي صحيح البخاري بروايته عن أبي ذر ... توفي في آخر سنة ٥٢٣هـ[٢].

٤٣ـ ومنهم أبو عمر ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني، سكن المرية، وأصله، كما يقول ابن الأبار، من صحراء المغرب ... وكانت له رحلة حج فيها. وسمع بمكة المكرمة من أبي عبدالله الطبري صحيح مسلم في سنة ٤٩٧هـ، وسمع بها أيضاً من أبي مكتوب عيسى ابن أبي ذر الهروي صحيح البخاري في أصل أبيه أبي ذر، وابتاعه منه بمالٍ جليل، وهو الذي أوصله إلى المغرب ... كان ميمون بن ياسين من أمراء المرابطين، رغب في السماع من عيسى ابن أبي ذر بمكة المكرمة، واستقدمه من سراة بني شبانة، وبها كان سكناه وسكنى أبيه أبي ذر من قبل، فاشترى منه صحيح البخاري أصل أبيه الذي سمع فيه على أبي إسحاق المستهلي وغيره بجملةٍ كبيرة وسمعه عليه في عدة أشهر قبل وصول الصحيح إليه، وقفل ميمون إلى الأندلس، وحدّث بها. توفي بإشبيلية في ذي القعدة سنة ٥٣٠هـ[٣].

٤٤ـ ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن عامر بن فحلون القنطري، سكن بطليوس، يعرف بابن الرَّوية، رحل حاجاً فأدى الفريضة، ولقي بمكة المكرمة رزين بن معاوية الأندلسي فحمل عنه كتابه في تجريد الصحاح سنة ٥٠٥هـ، ومنها حج وقفل إلى بلده ... قال ابن الأبّار: أحسبه في سنة ٥٣٠هـ[٤].

٤٥ـ ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن بشر الأنصاري، يعرف بالميُّورقي ... رحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة عن أبي الفتح عبد الله بن محمد

(١) التكملة ٥٥٧-٥٥٨.

(٢) التكملة رقم ٢٠٧٥.

(٣) التكملة رقم ١١٣٧.

(٤) التكملة رقم١٧١.

البيضاوي، وابن نصر عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي في شوال وذي القعدة سنة ٥١٧هـ . . . بقي الحديث عنه إلى سنة ٥٣٧هـ[١].

٤٦ـ ومنهم أبو محمد عبدالله بن خلف بن بقي القيسي من أهل بياسة . . . رحل حاجاً فلقي أبا القاسم عبدالرحمن بن عتيق القرشي الصقلي، وأبا بكر عبدالجليل، ولقي بمكة المكرمة أبا محمد عبدالله بن عمر المعروف بابن العرجاء فحمل عنهم القراءات، وسمع من أبي القاسم الصقلي . . . وقفل إلى بلده وتصدر للإقراء . . . توفي بعد سنة ٥٤٠هـ[٢].

٤٧ـ ومنهم أبو زيد عبدالرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي . . . وقد رحل حاجاً صحبة ابن عمه أبي أحمد محمد بن أحمد بن معط التجيبي فأدى الفريضة، وسمع بمكة المكرمة أبا عبدالله الحسين بن أحمد بن طحال المقدادي في ذي الحجة سنة ٧٢٩هـ وجماعةً سواه، وأخذ القراءات بها عن أبي علي الحسن بن عبد الله ابن عمر القيرواني المعروف بابن العرجاء. توفي بعد الأربعين وخمسمئة من الهجرة[٣].

٤٨ـ ومنهم أبو الحسن محمد بن عبدالرحمن بن الطفيل العبدي الإشبيلي المعروف بابن عظِيمة، رحل حاجاً فروى بمكة المكرمة عن رزين بن معاوية، وكانت رحلته مع أبي علي منصور بن الخير الأحدب، توفي في حدود الأربعين وخمسمئة من الهجرة[٤].

٤٩ـ ومنهم أبو الحسن علي بن خلف بن رضا الأنصاري الضرير البلنسي الذي حج وأقرأ، وهناك أخذ عنه القراءات أبو الحسن بن كوثر. توفي سنة ٥٤٤هـ[٥].

٥٠ـ ومنهم أبو القاسم عبدالرحمن بن أبي رجا البلوي المقري . . . رحل حاجاً في سنة ٤٩٧هـ فأدى الفريضة في سنة ثمان بعدها، ولقي بمكة المكرمة أبا محمد عبدالله ابن عمر بن العرجاء فأخذ القراءات عنه، ولقي أبا حامد الغزالي فسمع منه وأجاز له

(١) النفح، رقم ١٥٥.
(٢) التكملة رقم ١٣٥٦.
(٣) التكملة رقم ٢٠٧٥.
(٤) النفح، ٢، ١٥٥-١٥٦.
(٥) التكملة رقم ١٨٥٠.

تآليفه ... ونزل المرية وتصدر للإقراء، وخرج من المرية عام ٥٤١هـ قبل تغلب الروم عليها بعامٍ حيث توفي بوادي آش سنة ٥٤٥هـ.

٥١- ومنهم أبو عبدالرحمن مساعد بن أحمد بن مساعد الأصبحي من أهل أَرْيُولة، يعرف بابن زعوقة، ورحل حاجاً سنة ٤٩٤هـ فأدى الفريضة سنة خمس بعدها. ولقي بمكة المكرمة أبا عبدالله الطبري، فسمع منه صحيح مسلم، مشتركاً في السماع مع أبي محمد بن أبي محمد بن العرجاء، ولقي أبا بكر بن الوليد الطرطوشي وأصحاب أبي حامد الغزالي.

ويروى أن الحاج أبا عبدالرحمن هذا لقي بالمشرق امرأة تعرف بصباح عند باب الصفا، وكان مساعد الأصبحي يقرأ عليها بعض التفاسير، وهنا جرى الحديث عن شعر شاهد: هل له صاحب؟ فسألوا الشيخ أبا محمد بن العرجاء فقال: لا أذكر له صاحباً، وحينئذ أنشدت صباح:

طلعت شمس أخيك ليلا
واستضاءت فمالها من مغيب
إن شمس النهار تغرب باللّيـ
ـل وشمس القلوب دون غروب!!

أدركه أجله في أُورِيولة سنة ٥٤٥هـ.

٥٢- ومنهم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن محمد من أهل شنتمرية الغرب، له رحلة حج فيها مع أخيه عمر بن إسماعيل، ولقي بمكة المكرمة أبا علي بن العرجاء وأبا المظفر الشيباني ... وقد ذكره ابن الأبّار قبل ابن عيّاش المتوفى سنة ٥٤٦هـ[١].

٥٣- ومنهم أبو الحسن محمد بن خلف بن صاعد الغساني، من أهل شلب، لقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد ... ورحل حاجاً فأدى الفريضة، وروى بمكة عن رزين بن معاوية وأبي الحجاج بن نادر. وقد تولى قضاء شلب بعد عودته، وتوفي سنة ٥٤٧هـ.

٥٤- ومنهم أبو محمد عبدالله بن عيسى بن عبدالله بن أحمد بن أبي حبيب،

(١) التكملة رقم٦٦٤.

صرف عمره في طلب العلم، ورحل إلى المشرق وجاور بمكة المشرفة، وأدركه أجله في هراة سنة ٥٤٨هـ(١).

٥٥ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن القاسم بن مسعدة البكري، من أهل وادي الحجارة على مقربة من مدريد اليوم ... له رحلة سمع فيها من ابن الأعرابي بمكة المشرفة قريباً من تاريخ ٥٤٩هـ(٢).

٥٦ـ ومنهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش بن الحسين بن علي بن هشام المخزومي من أهل بلنسية، رحل قبل العشرين وخمسمئة من الهجرة فأدى الفريضة وجاور بمكة المكرمة، وسمع بها من أبي عبدالله الحسين بن علي الطبري، ومن الشريف أبي محمد عبدالباقي الزهري المعروف بشقران، أخذ عنه كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي عن مؤلفه(٣) ... ثم قفل إلى بلده ... ثم رحل ثانية إلى المشرق مع صهره أبي العباس الإقليشي وأبي الوليد بن خيرة الحافظ سنة ٥٤٢هـ وقد نيّف على السبعين، فأقام بمكة المكرمة مجاوراً إلى أن توفي بها عن سن عالية سنة ٥٤٩هـ.

٥٧ـ ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى ابن وكيل التجيبي، ويعرف بابن الإقليشي ... سمع من أبي بكر بن العربي ... ورحل إلى المشرق سنة ٥٤٢هـ، وجاور بمكة المكرمة سنين، وسمع بها من أبي الفتح الكروخي جامع الترمذي برباط أم الخليفة العباسي سنة ٥٤٧هـ... كان الناس يدخلون عليه بيته والكُتُب عن يمينه وشماله ... أدركه أجله في صَدَره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر في عشر الخمسين وخمسمئة من الهجرة(٤).

٥٨ـ ومنهم أبو الوليد محمد بن عبدالله بن محمد بن خيرة القرطبي المالكي ... أخذ عن ابن رشد، وخرج خوفاً من الموحدين: بني عبدالمؤمن بن علي، ثم بدا له أن يقصد القاهرة، لكنه خاف من وصولهم إليها ... فسافر إلى الصعيد فخاف أيضاً!

(١) النفح ٢، ص١٣٦.
(٢) التكملة رقم٣٥٥.
(٣) النفح ٢، ص٥١٣-٥١٤.
(٤) النفح ٢، ٥٩٩.

فمضى إلى مكة المكرمة وهنا قال: ما أنا إلا هربت منه إليه!! ثم دخل اليمن فقال: هذه أرض لا يتركها بنو عبدالمؤمن، فتوجه إلى الهند حيث أدركه أجله سنة ٥٥١هـ(١).

٥٩ـ ومنهم أبو الحسن عبدالملك بن أبي بكر يحيى بن عمرو بن إبراهيم الجذامي، من أهل قرطبة، سمع بمكة المكرمة من قاضي الحرمين أبي القاسم عبدالرحمن بن علي الشيباني الطبري، كان ذلك نحو سنة ٥٥١هـ.

٦٠ـ ومنهم أبو بكر عتيق بن أحمد بن عبدالرحمن الأزدي من أهل أوريولة، حج سنة ٤٨٩هـ، وسمع بمكة المكرمة من أبي الفوارس الزينبي، وحج سنة ٥٢٠هـ، وجاور وسمع بمكة المكرمة من رزين بن معاوية وزاهر بن طاهر الشحامي ... وصدر إلى بلده بروايات عليةٍ وفوائد كان يُقصد لأجلها. وأدركه أجله بأُوريولة سنة ٥٥١هـ.

٦١ـ ومنهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن أحمد بن أحمد الغافقي، من أهل المَرِيَّة ونزل مرسية ... رحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة من أبي علي بن العرجاء أحاديث جعفر بن نسطور وغيرها في شعبان ٥٢٦هـ، وسمع أيضاً من أبي الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسي، وقفل راجعاً إلى بلده... وأسمع صحيح البخاري آخر ذي الحجة سنة ٥٥٥هـ، وكان يحدث به عن سلطان بن إبراهيم عن كريمة المروزية التي قال عنها أبو ذر الهروي: إنها تحمل البخاري(٢).

٦٢ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن يعيش اللخمي من أهل بلنسية، وقد رحل حاجاً في سنة ٥٠٦هـ فأدى الفريضة في آخرها، ثم في سنةٍ بعدها، ولقي بمكة المكرمة رزين بن معاوية، وقد أدركه أجله بإشبيلية سنة ٥٥٦هـ(٣).

٦٣ـ ومنهم أبو أحمد بن محمد بن أحمد بن معط التجيبي، رحل حاجاً، ولقي بمكة المكرمة أبا علي بن العرجاء فأخذ عنه القراءات، وقفل إلى بلده، وتصدر للإقراء.

---

(١) هذا مما يؤيد أن الموحدين كانوا يصممون على وحدة العالم الإسلامي فكان لهم في كل الجهات من يسندهم. النفح ٢، رقم ٢٤٠.

د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٦، ص٢٨٣.

(٢) النفح ٢، ٦٠٥.

(٣) التكملة، رقم ١٥.

أخذ عنه أبو عبدالله التجيبي ابن عمر والده، وأجاز له في شهر رمضان سنة ٥٦٥هـ[١].

٦٤ـ ومنهم أبو محمد بن محمد المرجلي البطليوسي يروي عن أبي ذر الذي لقيه بمكة المكرمة سنة ٥٦٥هـ. وحدث عنه بمغازي ابن عقبة أبو القاسم خلف بن أحمد . . .

٦٥ـ ومنهم أبو بكر عبدالرحمن بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن إبراهيم ابن محمد بن أبي علي الأنصاري المرسي، سمع أبا علي الصدفي ولازمه واختص به، وقلما فاته مجلس من مجالسه . . . ورحل حاجاً في سنة ٥٢٨هـ، فأدى الفريضة سنة تسع بعدها، ولقي بمكة المكرمة أبا المظفر الشيباني، وأخاه أبا القاسم عبدالرحمن، وأبا علي بن العرجاء وأبا سعيد حيدر بن يحيى الجيلي فسمع منهم . . . وقفل إلى الأندلس سنة ٥٣٠هـ. بضاعتُه حمْلُ الآثار، على حد تعبير ابن الأبّار . . . أدركه أجله بمرسية في شعبان سنة ٥٦٦هـ[٢].

٦٦ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة . . . سمع أبا بكر بن العربي . . . ورحل إلى المشرق سنة ٥٢٠هـ، وأدى فريضة الحج سنة ٥٢١هـ، ولقي بمكة المكرمة أبا الحسن بن رزين بن معاوية العبدري إمام المالكية بها، وأبا محمد بن صدفة المعروف بابن غزال من أصحاب كريمة المروزية، فسمع منهما وأخذ عليهما، وروى عن أبي الحسن علي بن عياش الغساني فأجمل عن أبي حامد الغزالي في تصنيفه، وعاد إلى مرسية سنة ٥٢٦هـ، وقد حصل في رحلته علوماً جمة ورواية فسيحة، وكان عالماً بالسنن والآثار . . . أدركه أجله بإشبيلية في متم ذي الحجة سنة خمسمئة وستة وستين من الهجرة، ودفن أول يوم من سنة ٥٦٦هـ[٣].

٦٧ـ ومنهم أبو مروان عبدالملك بن هشام الجذامي القرطبي، رحل حاجاً، ولقي بمكة المكرمة أبا علي بن العرجاء، فحمل عنه الموطأ وحدث به عنه، وله سماع أبي طاهر السلفي سنة ٥٦٧هـ.

٦٨ـ ومنهم علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني القرطبي ابن حنين، رحل إلى المشرق

(١) التكملة، رقم ٧٤٤.

(٢) التكملة، رقم ١٦٠٣.

(٣) التكملة، رقم ٧٤٦.

فلقي أبا حامد الغزالي ... وعاد إلى بلدته فاس ليعلم الناس في المسجد المنسوب إليه إلى الآن والمعروف بسيدي حنين[١].

٦٩- ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر القرشي العلوي الإشبيلي، رحل حاجاً وسمع من أبي حفص الميانشي بمكة المكرمة سنة ٥٧٠هـ[٢].

٧٠- ومنهم أبو بكر محمد بن مالك بن أحمد بن ملك المقّري، من أهل ميرتلة، روى عن أبي بكر بن العربي، ورحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة من أبي المظفر الشيباني في سنة ٥٣٤هـ، وقفل راجعاً إلى بلاده حيث قرأ عليه ثابت بن خيار الليلي كتاب سيبويه، وقد أجاز الأصبحي سنة ٥٧٨هـ.

٧١- ومنهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج المعافري من أهل قرطبة، صحبه محمد بن وضّاح في رحلته الثانية، وشاركه في كثير من رجاله وصدر عن الشرق معه، ثم كرّ إلى مكة المكرمة بعد موت ابن وضاح فنزلها واستوطنها إلى أن أدركه أجله[٣].

٧٢- ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن كوثر المحارثي الغرناطي، سمع من أبيه أبي العباس وحج معه، فسمعا بمكة المكرمة جامع الترمذي سنة ٥٤٧هـ من أبي الفتح الكروخي، وأخذ القراءات بها عن أبي علي بن العرجاء القيرواني، وأبي الحسن علي بن رضا الكفيف البلنسي، وسمع منهم ومن أبي الفضل الشيباني، وأبي بكر بن أبي الحسن الطوسي ... وتصدّر للقراءة بغرناطة ... أدركه أجله سنة ٥٨٩هـ.

٧٣- ومنهم أبو محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجر الأنصاري الذي خرج حاجاً سنة ٥٧١هـ، فجاور بمكة المكرمة، وسمع بها قبل أن يعود إلى بلده سنة ٥٩٦هـ، أدركه أجله سنة ٥٩٨هـ.

٧٤- ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد الأنصاري من (المَرِيّة)، ويعرف بابن اليتيم، وقد رحل إلى فاس قبل أن يخرج إلى الحج سنة ست وستين وخمسمئة من الهجرة، حيث لقي بمكة المكرمة عند أداء الفريضة أبا محمد

(١) التازي: القرويين، ج١ ص١٧٠.

(٢) النفخ ج ٢، ٦٠٦.

(٣) التكملة، رقم ١١٣٩.

المبارك بن الطباخ وأبا حفص الميانشي، تجاوز شيوخه المئة ... وقفل إلى بلاده، فقدم للقضاء والخطبة، توفي سنة ٦٢١هـ.

٧٥- ومنهم أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حِرْزهم (ينطقه المغاربة حْرَازم) الأندلسي الأموي من ذرية عثمان بن عفان، عم أبي الحسين علي بن إسماعيل.. كان قد رحل إلى المشرق وحج فزار بيت المقدس وانقطع مدةً هناك بقريةٍ قريبة منه حيث اجتمع بالإمام أبي حامد الغزالي ... وإليه تنتسب العين المعدنية التي توجد بخولان (سيدي حرازم) غير بعيد عن فاس. أدركه أجله بهذه المدينة أواسط القرن السادس الهجري، ودفن على مقربةٍ من ضريح ابن أخيه علي بن إسماعيل(١).

٧٦- ومنهم أبو جعفر الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري من أهل لرية (من أعمال بلنسية) ... رحل حاجاً سنة ٥٧٢هـ ... وجاور بمكة المكرمة وأخذ بها عن أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري. وكان يرويه عن أبي مكتوم عيسى ابن أبي ذر الهروي، وسمع أيضاً عن أبي محمد المبارك بن الطباخ البغدادي ... وبعد عودته أصابه خُدر فمنعه من التصرف ... أدركه أجله سنة ٥٨٥هـ(٢).

٧٧- ومنهم أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن وضاح اللخمي من أهل غرناطة ... رحل حاجاً إلى المشرق فأدى الفريضة وأخذ القراءات بمكة المكرمة عن أبي يعلى بن العرجاء في سنة ٥٤٦هـ، وسنة سبع بعدها، وحج ثلاث حجات .. توفي في صفر سنة ٥٨٧هـ.

٧٨- ومنهم أبو عبدالله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري، من أهل مربيط، رحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة من أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي ... ثم صدر إلى بلاده حيث أدركه أجله بمربيط سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة للهجرة...

٧٩- ومنهم أبو بكر محمد بن علي بن خلف التجيبي الكاتب، من أهل إشبيلية، رحل حاجاً قبل الستين وخمسمئة للهجرة، ولقي بمكة المكرمة أبا حفص الميانشي وأبا الحسن

---

(١) شيد هذا الضريح بنو مرين، وجدّده السلطان محمد بن عبدالله (محمد الثالث). السلوة للكتاني، ج٣، ص ٦٩-٧٠.

(٢) التكملة، رقم ٤١.

المكناسي وسواهما، وقفل إلى بلده ... توفي بعد المحنة الجارية عليه من لدن المنصور الموحدي سنة ٥٩٦هـ[١].

٨٠ـ ومنهم أبو محمد عبدالله بن علي بن أحمد الخولاني الأندلسي، له رحلة حج فيها، وجاور بمكة المكرمة، وتلقب برهان الدين، حدَّث عنه بعض أهل مرسية، لقيه بمكة المكرمة في سنة ٦٠٤هـ وسمع منه[٢]، لقيه بمكة المكرمة عن أبي الحسن بن مؤمن، أدركه أجله في رمضان سنة ٦٠٤هـ. بنى ببلده مالقة خمسة وعشرين مسجداً من صميم ماله، وعمل فيها بيده، وحفر بيده آباراً عدة أزيد من خمسين بئراً، غزا مع المنصور الموحدي بالمغرب ومع صلاح الدين بالشام[٣] ..! وهذا ما كنا بحاجةٍ إلى تأكيدِه أن الموحدين كانوا إلى جانب صلاح الدين في فلسطين[٤] ...

٨١ـ ومنهم أبو الحجاج يوسف بن محمد بن عبدالله بن يحيى بن غالب البلوي المالقي المعروف بابن الشيخ. حجَّ وسمع بمكة المكرمة[٥] عن أبي الحسن بن مؤمن.. إلخ.

٨٢ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن حسن بن محمد بن يوسف بن خلف الأنصاري، من أهل مالقة ويعرف بابن صاحب الصلاة وبابن الحاج ... ورحل حاجاً فلقي عدداً من رجالات العلم، ولقي بمكة المكرمة أبا إبراهيم الخُجَنْدي، وأبا عبدالله بن أبي الصيف اليمني، وأبا إبراهيم التونسي، وأبا حفص الميانشي المجاورين هناك، أخذ عنهم وكان ذلك في موسم سنة ٥٨٣هـ، قبل أن يرجع إلى بلده ويستشهد في موقعة العِقاب يوم الاثنين الرابع عشر لصفر سنة ٦٠٩هـ / ١٦ يوليو ١٢١٢م[٦].

وقد تحدث عن ابن صاحب الصلاة هذا علاوة على (التكملة لابن الأبّار) ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة)، وكذا ما تفرع عن هذين المصدرين

(١) النفح، ج٢، ص٥٧.
(٢) التكملة، رقم ٤١.
(٣) التكملة، رقم ١٤٢٧.
(٤) التكملة، رقم ٢٠٨٩.
(٥) التكملة، رقم ٢٠٨٩.
(٦) د.التازي: الطب النبوي بين المشرق والمغرب، مطبعة المعارف الجديدة بالرباط ـ رقم الإيداع القانوني ٢٠٠٠/٦٠.

الأساسيين ابتداءً من الديباج لابن عرضون ... وهكذا، فكما قلنا، أخذ ابنُ صاحب الصلاة عن مشايخ مكة المكرمة الذين نختصر الحديث عنهم في الأسطر التالية:

أولاً: أبو إبراهيم الخُجَنْدي الذي يذكره ابن عبدالملك باسم عبيد الله بن عبداللطيف الخجندي الذي سمع منه ابن صاحب الصلاة الأربعين حديثاً.

ثانياً: أبو عبد الله بن أبي الصيف (بالصاد) اليمني وهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن أبي الصيف، فقيه شافعي، أصله من مدينة زبيد، أقام بمكة المكرمة وتوفي بها، له عدد من الكتب منها (الأربعون حديثاً) جمعها عن أربعين شيخاً من أربعين مدينة، وهو من العلماء المشارقة الذين أجازوا أبا القاسم الملاحي، كما أنه كان من المراسلين لابن سليمان بن حوط الله[1].

ثالثاً: أبو إبراهيم التونسي، وهذا التونسي هو المكنى بأبي حفص ...

رابعاً: أبو علي الحسن بن حفص عمر بن عبدالمجيد المياغي. وهو من العلماء المشارقة الذين أجازوا أبا القاسم الملاحي على ما نقرؤه في التكملة.

وإذْ عرَّفنا بهؤلاء الأربعة الذين لقيهم ابن صاحب الصلاة في مكة المكرمة فإنه من المفيد أن نذكر أن ابن عبدالملك المراكشي أضاف إليهم اسم أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الغساني .. إلى جانب اسمٍ آخر ممن لقيهم بمكة المكرمة، وهو أبو عبد الله محمد بن مفلح الذي أجاز ابن صاحب الصلاة لفظاً وخطاً على حدّ تعبيرهم[2] ...

٨٣- ومن أولئك نذكر أبا بكر عتيق بن علي بن خلف بن أحمد الأموي المرواني الذي حج سنة اثنتين وستين وخمسمئة للهجرة، فسمع بمكة المكرمة من علي بن عبدالله المكناسي، ثم قفل وتصدَّر للإقراء ... وتوفي في رجب سنة ٦١٢هـ[3].

٨٤- كما نذكر أبا بكر يحيى بن أحمد بن مسعود الأنصاري القرطبي الذي حج وسمع بمكة المكرمة من علي بن عبد الله بن حمّود المكناسي.. أدركه أجله سنة ٦١٤هـ.

---

(١) التكملة، الترجمة رقم ٩٦٠- ورقم ٢٠٥.

(٢) د. التازي: الطب النبوي ... ص٥٨-٥٩، مصدر سابق.

(٣) التكملة، رقم ١٩٤٠.

٨٥ـ وذكر أبا بكر محمد بن يوسف بن أحمد بن معين بن ميمون الأزدي من أهل شريش، روى عن أبيه، ورحل حاجاً، فأدى الفريضة، وسمع بمكة المكرمة من أبي محمد ابن الطباخ وصحب في السماع منه الشيخ أبا عبدالله التجيبي . . . أدركه أجله في ٢٤ من ذي القعدة سنة ٦١٤هـ.

٨٦ـ ومنهم أبو بكر محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن العربي المعافري من أهل إشبيلية من بيت القاضي أبي بكر بن العربي، رحل إلى المشرق في رحلته الأولى سنة ٥٧٢هـ فأدى الفريضة، وسمع في طريقه من عدد من العلماء، ثم رحل ثانيةً سنة ٥٩٦هـ فلقي طائفة من المشايخ، ولقي بمكة المكرمة أبا محمد يونس بن يحيى الهاشمي، وسمع منه صحيح البخاري ومسند عبد بن حميد، وغير ذلك، وأبا عبدالله ابن أبي الصيف اليمني، وأبا شجاع زاهر بن رستم الأصبهاني قدمها حاجاً، وسمع منه سنن الترمذي، توفي سنة ٦١٧هـ.

٨٧ـ وذكر أبا عبدالله محمد بن علي بن محمد بن يحيى الأنصاري من أهل مرسية . . . رحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة من أبي عبدالله بن أبي الصيف، وأبي محمد يونس ابن يحيى الهاشمي، وأبي شجاع زاهر بن رستم، وأبي الفتوح نصر بن أبي الفرج الحصري، وغيرهم قبل أن يعود إلى بلده مرسية حيث أدركه أجله نحو سنة ٦١٧هـ.

٨٨ـ وذكر أبا عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن أحمد الأنصاري، المعروف بابن اليتيم . . . لقي بمكة المكرمة عند أداء الفريضة أبا محمد المبارك بن الطباخ وأبا حفص الميانشي . . . وقفل إلى بلده فقدم للفتيا . . . أدركه أجله على ظهر البحر سنة ٦٢١هـ.

٨٩ـ وذكر أبا عبدالله محمد بن أحمد بن عطية بن موسى بن عبد العزيز الأنصاري من أهل دانية . . . حل حاجاً فأدى الفريضة، وسمع بمكة المكرمة من أبي عبدالله بن أبي الصيف اليمني وغيره، أدركه أجله سنة ٦٢٣هـ.

٩٠ـ وذكر أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عفير الأموي . . . رحل حاجاً فسمع بمكة سنة ٦٠٤هـ جماعةً منهم أبو محمد يونس بن يحيى الهاشمي،

أخذ عنه صحيح البخاري عن أبي الوقت السجزي، وهو من أهل بغداد، جاور بمكة المكرمة وأسمع الحديث ... وبعد جولةٍ واسعةٍ عاد إلى بلده ... توفي بعد الثلاثين وستمئة للهجرة.

٩١- ونذكر أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن غالب بن يعلى، من أهل مالقة يعرف بابن حريرة، وهو ينتمي أصلاً إلى غمارة من البربر ... رحل حاجاً فلقي بمكة المكرمة أبا محمد يونس بن يحيى الهاشمي، وأبا عبدالله بن أبي الصيف اليمني، وأبا شجاع زاهر بن رستم الأصبهاني، وأبا الفتوح نصر بن أبي الفرج الحصري وغيرهم، فسمع منهم وكتب عنهم كثيراً ... أدركه أجله سنة ٦٣٥هـ.

٩٢- ونذكر أبا الحسن علي بن أبي نصر فاتح بن عبد الله البجائي، والده رومي اعتنق الإسلام ... حج فسمع يونس بن يحيى الهاشمي بمكة المكرمة ... وبالقدس أبا الحسن ابن جبير. أدركه أجله في بجاية سنة ٦٥٢هـ[١].

٩٣- ونذكر أبا المكارم جمال الدين بن مسدي المهلبي الأزدي الأندلسي، فُوضت إليه خطابة الحرم الشريف بمكة، فكان كما يقال: "هذا السوار لمثل هذا المعصم"! وترجم لمن لقي من الأعلام... أدركه أجله سنة ٦٦٣هـ بمكة.

٩٤- ونذكر أخيراً أبا عبدالله محمد بن إبراهيم اليقوري، السفير المغربي الذي حمل رسالة ملك المغرب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثاني ملوك دولة بني مرين إلى الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي. وكان أبرز ما حمله المصحف الذي أهداه العاهل المغربي سنة ٧٠٣هـ إلى مكة المكرمة...

ويفسح لنا إهداء هذا المصحف إلى مكتبة مكة المكرمة المجال لاكتشاف جانبٍ آخر من التاريخ المجيد الذي يربط المغرب بمكة المكرمة، والذي يعبر بكثير من الدقة عن التعلق المتين بتلك الديار.

كان من مهمة السفارة المهمة التي حملت المصحف المذكور إلى مكة المكرمة أن تقف بالقاهرة لتحية ملك مصر الذي كان يشرف ـ كما هو معلوم ـ على خدمة الحرمين

(١) التكملة، رقم ١٩٢٣.

الشريفين، وليوصيه خيراً بالحجاج المغاربة الذين أخذوا يترددون بانتظام إلى الحجاز .. لقد كان أول ركب جهزه بنو مرين بعدما توقف ذهابه مدة بسبب بعض الفتن الداخلية التي حالت في المغرب الأوسط دون وصول الحجاج إلى مكة المكرمة.

وقد تحدث عن هذا الموضوع مصدران اثنان معاصران: أحدهما شرقي وهو «السلوك» للمقريزي، والثاني مغربي وهو «العبر» لابن خلدون ... وبما أن هذا الركب كان أول ما بعثه - كما قلت - المرينيون، فقد كان يكتسي أهمية خاصة، ولهذا نظمه يوسف تنظيماً استمر نموذجاً للأركب بعده من التي سنقرأ عنها من خلال الرحلات المغربية.

٩٥- وقد كان الركب يتوفر أيضاً على القاضي، وهو محمد بن زغبوش أحد أعلام المغرب، وقد بعث العاهل معه فرقةً عسكرية تناهز خمسمئة من رماة زناتة، كما بعث معه أموالاً كثيرة برسم توزيعها على سكان الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة.

٩٦- وقد كان في الركب أيضاً جماعة من رجالات الفضل والعلم برسم مصاحبة المصحف الشريف موضوع الحديث، ومن هؤلاء العلماء أبو عبد الله القصار كبير علماء المغرب، علاوة على أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اليقوري السالف الذكر الذي أدركه أجله بمراكش، والذي على ما يبدو من خلال الوثائق أنه كان المكلف الرئيس بشأن الربْعة القرآنية على ما يذكره المقّري في نفح الطيب، وعلى ما يؤكده ابن خلدون الذي يقول:

« ... فأمر (يوسف) بانتساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن البلياني التلمساني الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وفعل غشاءه من بديع الصنعة. واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدرر والياقوت، وجعلت فيها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقداراً وشكلاً وحسناً، واستكثر من الأصونة عليه».

وقد وقف محمد بن مرزوق التلمساني على هذا المصحف بالحرم المكي حسب إفادته في تأليفه المعروف «المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن»(١).

ومن الطريف والمهم كذلك أن نقف على رسالةٍ معاصرة صادرة من العاهل المغربي

---

(٣) تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م. الباب ٢٦ الفصل الثامن.

يوسف بن يعقوب إلى أمغار (كبير الأشراف) يطلب إليه أن يعين ثلاثة رجال من بين الأشراف المغاربة ليتوجهوا إلى مكة المكرمة مع من يتوجه برسم حمل الربعة القرآنية . . . وقد أُرِّختْ هذه الرسالة في ١١ صفر الخير سنة ٧٠٣هـ. ومن المهم والطريف كذلك أن نقف من خلال هذه الرسالة على حقيقةٍ تاريخيةٍ لم نكن نعرفها إلى الآن تلك أن ملك المغرب يعلن عن توجيهه الكسوة للكعبة المشرفة، وهي معلومة انفردت بها هذه الوثيقة.

والجدير بالذكر أن نقول في ختام هذه الصفحات: إن شريف مكة المكرمة على ذلك العهد أبا نُمَيّ بعث بوفادةٍ إلى العاهل المغربي جاءت مع الركب الذي كان قد حمل المصحف إلى مكة المكرمة، كانت الوفادة برئاسة ابنه لبيدة؛ حيث نجد أن الوفادة تلقى ضروب التكريم خلال زياراتها لمختلف أقاليم المغرب[1].

وإذا كانت كتب التاريخ والتراجم والفهارس قد رسخت في ذاكرتنا مدى اهتمام أسلافنا بمكة المكرمة من خلال هذه الأسماء التي تناهز مئة اسم، فإن هناك مصادر أخرى تصدت بصفة أكثر دقة وأكثر تفصيلاً، ويتعلق الأمر بالرحالين المغاربة الذين عرفوا كيف يبرزون التعلق بتلك البقاع المقدسة، ويرسمون صوراً جميلة بأقلام لتلك الديار، وخاصة منها مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. . .

وإذا كانت عوامل الزمن قد أتت على الكثير من نصوص الرحلات التي وردت الإشارة إلى بعضها فإن هناك طائفةً من الرحلات التي نجت لحسن الحظ من الضياع وتناهت إلينا كلها أو بعضها بما كانت تحتضنه من معلومات ثمينة عن تلك الديار الغالية على كل مسلم . . وخصوصاً مكة المكرمة التي نجد لها في كل رحلة حيزاً خاصاً يختلف أسلوباً ومضموناً. وقد تفنن الرحالون في وضع العناوين الجميلة الدالة لرحلاتهم مما كان يترجم بذاته عن الشغف الذي يتملك المغاربة إزاء البيت العتيق، ومن هنا حبب إلينا أن نقوم بجرد مسرد كامل شامل لما نتوفر عليه من رحلات تجاوزت مئة رحلة. اشتملت على إفادات وشهادات معبرة عن مكة المكرمة وعن الكعبة بالذات وما يتصل بها.

---

(١) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب. ج٧، ص ٢٠٣، مصدر سابق.

ويجب علينا أن نؤدي عبارات الشكر والامتنان لأولئك الذين دونوا رحلاتهم الحجازية وقدموا فيها إلينا تلك الديار على مدى عدة قرون، بمن حكمها من قادة أشراف، وما شاهدته من منافسات ساخنة بين أولئك القادة سواء أكانوا من مصر أم من اليمن أم من المغرب كذلك..!

ثم كذلك نقدم عبارات التقدير والإكبار لكل الذين اهتموا بنشر تلك الرحلات والحديث عنها؛ لكونها تمثل تراثاً جميلاً في فضائنا الفكري(١).

لقد مكننا أولئك الرحالون من معرفة التاريخ العلمي لمكة المكرمة بما تركوه لنا من لوائح لعدد من العلماء والمشايخ الذين كانوا يعقدون لهم مجالس طوال اليوم حتى الليل على ضوء الشموع والمصابيح. وليس الرجال فقط، ولكن السيدات العالمات من أمثال الشيخة صباح المكية والشيخة كريمة المروزية اللتين كانتا حاضرتين في المجالس العلمية بالحرم الشريف ...

أولئك الرحالون مكنونا من معرفة أنواع الإنتاج الزراعي للمنطقة بكاملها من خلال ما كان يحتاج إليه الحجاج من طعام وشراب.

أولئك الرحالون مكنونا من معرفة الفئات الحاكمة والمتنفذة في المنطقة ممن عرفوا في التاريخ بأشراف الحجاز، بمن فيهم الحسنيون والحسينيون، بما عرف عنهم - أحياناً - من احتكاكات مع السلاطين، فقد قرأنا عن التجاء بعضهم إلى ملوك المغرب للاحتكام إليهم وأحياناً لبيعة رجاله أملاً في التخلص من هيمنة المماليك..!

أولئك الرحالون مكنونا - وهذا مهم - من معرفة مدى إسهام السيدة المسلمة في تأثيث تلك الديار وما يتصل بها من قريب أو بعيد مما يسهل على الحجاج أداء مناسكهم في أحسن الظروف ... ومما يشجع القيمين على تلك العتبات المقدسة حتى يظلوا شاعرين بأنهم معززون مكرمون ...

أولئك الرحالون مكنونا من معلومات جغرافية جعلتنا نعرف الكثير عما يفصل هذا الموقع عن ذلك، ومدى أهمية هذا دون ذاك.

---

(١) نذكر من هؤلاء زميلنا الراحل الشيخ حمد الجاسر مؤرّخ الجزيرة.

أولئك الرحالون مكنونا ـ كذلك ـ من متعة زائدة ونحن نقرأ عنهم هم، عن مشاعرهم، عن إحساساتهم وهم يجدون أنفسهم أمام الكعبة التي يتوجهون إليها خمس مرات ـ على الأقل ـ في اليوم على ما عرفنا . . .

أمامنا اليوم، ونحن نتحدث عن (مكة المكرمة في وجدان المغاربة) أو بالأَحْرى عن (الرحلات المغربية)، فيها المختصر وفيها المطول، فيها المخطوط وفيها المطبوع، فيها ما حرر بأقلام قوم ينتسبون إلى الغرب الإسلامي بما في ذلك بلاد الأندلس، وبلاد المغرب الكبير، وبلاد السودان . . ومنها كذلك ما حرر بأقلام غير إسلامية تمكن أصحابها من الدخول لمكة المكرمة متنكرين تحت أسماء إسلامية، لكنهم مع ذلك قدموا لنا صورةً عن تلك الديار من وجهة نظرهم . . . هي رحلات كما أشرنا تتجاوز المئة بكثير . . . سنقدمها واحدةً واحدةً حسب التسلسل التاريخي لوفاة أصحابها في معظم الأحيان، نعرضها بما أفادتْه من جديد عن مكة المكرمة، وسأكتفي بعرضٍ كاملٍ لمحتوى مئة رحلة ورحلة وقفت عليها بنفسي وملكتْها مكتبتي . . . إضافة إلى رحلاتٍ أخرى لا تحتوي على إضافاتٍ جديدة مهمة، ومع ذلك عنينا بجردها أيضاً تحت عنوان : مسرد الرحلات الإضافية؛ لكي نفسح المجال لمن يريد أن يستوعب الحديث عن سائر ما قيل عن الرحلات الحجازية المغربية .

أما الرحلات التي يقتصر الحديث على مجرد العابر من الرواية، والمفترض من الكلام، فقد رأينا عدم الاشتغال بها .

خُذْ ما رأيتَ، ودع شيئاً سمعتَ به

في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زحل!!

مكة المكرمة في مئة رحلة ورحلة

لقد أمكننا أن نتعرف من خلال معظم المغاربة الذين دوّنوا رحلاتهم إلى الكثير مما قيل عن مكة المكرمة عبر العصور.

لقد عرف المغاربة - كما هو معروف - بأنهم متفوقون في أدب الرحلة الحجازية وموفقون فيها كذلك، يدل على ذلك ما تركوه من بصمات لهم في مختلف كتب التراث العربي، "لقد برّزوا في هذا الفن غيرهم من المشارقة"(١).

وترجع أسباب اهتمام المغاربة بالرحلة والكتابة عن تحركاتهم وخاصةً في العهد الإسلامي، أولاً وبالذات، إلى أن الإسلام يجعل من الحج ركناً بارزاً من أركانه، فالمسلم - وهو يفكر في الثوابت التي تجعل منه مسلماً مثالياً - تنتصب أمام مخيلته مكة المكرمة والكعبة المشرفة سواء أكان من الشرق أم من الغرب، يرحل إليها بوجدانه خمس مرات في اليوم على الأقل في صلاته وفي توسلاته. ومن هنا يكون الهدف الأول هو تحقيق الأمل في زيارة تلك البقاع التي تشدّه إليها شداً، ومن هنا ندرك السر في توجه المغربي نحو المشرق، نحو مهد الإسلام ومهبط الوحي، كانوا يقصدون تلك الديار على الرغم مما يصلهم عنها من صعوبة المسالك وأخبار المهالك، على الرغم من العدد الكبير من الذين ابتلعهم البحر أو أودت بهم الفيافي والقفار والأوبئة القتالة، ممن أقبروا هناك على طول الطريق، فيهم العلماء والأمراء والسيدات والسادة، لا يبالون بشيء ما داموا قاصدين تلك الديار المحببة إليهم مهما كان الأمر، تلك الديار التي كانوا ينسون فيها كلّ المصاعب والمتاعب عندما يبلغونها، ويشهدون الكعبة المشرفة.

ومن ثمة كان بعض من يقصد البلاد الحجازية من الفقهاء والعلماء والأدباء يشعر بأن عليه ديناً يجب أن يؤديه لإخوانه من الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالالتحاق بتلك الديار، من الذين كانوا يقنعون بسماع أو قراءة وصف تلك المعالم، وما تضمنته من عوالم.

---

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي. نقله عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامي ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م. رحلات لحمد الجاسر، إصدار الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص٥٨ وما بعدها.

وقد تجلى الشعور بذلك الدِّين في تحرير مقالات للتعريف بذلك المقام وبمن يحتضنه ذلك المقام من رجال أحياء وأموات، طبعاً مع وصف المراحل التي يمر بها الحاج من قرية أو مدينة؛ حيث يجتمع بإخوته هناك من سائر جهات العالم الإسلامي إلى أن يشهد موقف عرفة . . . ذلك التعريف هو الذي نسميه بالرحلة التي يتحدث فيها صاحبها عن محطاته المتبعة سواء كانت براً أو كانت بحراً، وأخيراً جواً، مضيفاً إلى هذا حديثه ـ كما عرفنا ـ عما يعترضه في طريقه من مشاهدات، ومعرفاً بالآثار التي شاهدها، ومعطياً نبذة من المواقع الجغرافية التي يسلكها بما تحتوي عليه من نعوت وأوصاف . . . وهكذا ازدهرت الرحلة نتيجة لهذا، واتسعت حركة استنساخ الرحلات المخطوطة وخاصة منها كتب الرحلة إلى الحجاز، يستصحبها الحجاج معهم للاستئناس وللقيام أحياناً بالمقارنات والمفارقات، والمنافسة على الزيادات وإضافة المعلومات التي لم يذكرها السابقون . . .

ويلاحظ أن تاريخ المغرب، وخاصة في القرون السادس والسابع والثامن الهجرية فما بعد، عرف ظهور مثل هذه الرحلات الحجازية بفضل تشجيع الناس بمن فيهم القادة والحكام لتوفير هذا النوع من المعلومات للمواطنين، ولم يقلل من وفرة الرحلة الحجازية والكتابة عنها إلا ما ظهر من رغبة لتفضيل الجهاد على الحج في أعقاب الاستخفاف المتوالي بالمسلمين في الغرب الإسلامي، وفي أعقاب ما تناهى إلى رجال الحُكم في البلاد المغربية مما يعانيه الحاج المسلم من تعسفات وإهانات في المراكب الأجنبية، خصوصاً عندما تعطل الأسطول المغربي! وبالأخص عندما فرضت المحاجرُ الصحية إجراءاتِها الصارمةَ بحجة ما قد يصيب الحجاج من وباء!

هنا ظهرت فتاوى لعلماء الإسلام رُددت أصداؤها في بعض المدونات المغربية . . . وهي تفضل أن يحافظ المسلم على عزته قبل أن يستسلم أمام الإهانات والإكراهات التي من شأنها إذلال المسلم والنيل من كرامته! . .

ومع كل ذلك، فقد تكونت لدينا لائحة لطائفة من الأعلام الذين قصدوا الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، فيهم الكثيرُ ممن لم تصلنا مذكراتهم إلى اليوم، لكن فيهم جماعة ممن اشتهر ذكرهم بما خلفوه من أعمالٍ جليلة خلدت أسماءهم . . .

ونذكر في صدر المشاهير من هؤلاء الرحالين: أبا الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (ت٦١٤هـ / ١٢١٧م) الذي سار بالرحلة خطوات واسعة، وأصبح مرجعاً لمعظم الحجاج المغاربة الذين كتبوا في الرحلة الحجازية، وبخاصة منهم الفقهاء والكتاب، من أمثال الرحالة العالمي ابن بطوطة الذي قال عنه علامة الدنيا ابن مرزوق الخطيب كلمته العظيمة: "لا أعلم أحداً جال البلاد كرحلته"(١). لقد أصبح ابن جبير دليلاً للمغاربة في الطريق التي يسلكونها للوصول إلى مكة المكرمة، دليلاً حول المعلومات التي قدمها عن البيت الحرام، دليلاً عن المعالم التاريخية التي شاهدها والمواقع الجغرافية التي زارها، ودليلاً لهم حول ما يفعلون وما به يقومون...

وإذا عرفنا أن ابن جبير ـ ومعه زميلهُ ابن بطوطة ـ كان مرجعاً للحجاج المغاربة في الفترة السابقة من التاريخ، فإن علينا أن نعرف أن أبا سالم العياشي غدا بالنسبة إلى المغاربة مرجعاً قوياً في الفترات اللاحقة، إذ أمسى مرجعهم الذي يلجؤون إليه فيما يروون. ...

وإذا حاولنا أن نقوم بمقارنة بين عدد الذين دونوا رحلاتهم الحجازية من أطراف العالم الإسلامي عبر التاريخ، فإننا نصل إلى حقيقةٍ واضحةٍ تتمثل في أن بلاد المغرب، وأعني بها الغرب الإسلامي كله، سجّلت رقماً قياسياً بالنسبة إلى الجهات الأخرى، ولعل مرد ذلك كما ردده الناس مراراً تلك المسافة البعيدة التي تفصل المغاربة عن الحرمين الشريفين. وهكذا، فعلى مقدار بُعد الدار يكثر الحنين إلى تلك الدار عند العاشقين والمحبين!

وبهذا نفسر هذا العدد الكثير ممن دونوا رحلاتهم إلى تلك الجهات، كان فيهم العلماء والمؤرخون، والأدباء والشعراء، والأمراء والزعماء، فيهم المبصرون والمكفوفون ... ومنهم من دوّن رحلته بالدارجة حتى لا يحرم الذين لا يعرفون إلا تلك اللغة. ولم يقتصر حديث المغاربة عن مكة المكرمة والبيت الحرام على الرحلة المدونة بالنثر والشعر الفصيح، ولكنه تجاوز ذلك إلى ما نسميه في بلادنا بالشعر الملحون، وهو من التراث المغربي الأصيل الذي عالج كل الموضوعات التي عرفها الشعر الفصيح إن لم يكن تفوق

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة. ج ٤، ص١٠٠.

عليه في بعض الموضوعات. وهكذا نسجل هنا أن شعراء الملحون وهواته حرصوا ويحرصون على تعداد المواقع الجغرافية التي يمر بها الركب المغربي فيجمعون بين الجغرافية والتاريخ، كما أنهم يطربون بوصف المقام الشريف وما يشعرون به وهم يجدون أنفسهم في بقاعٍ وطئتها بالأمس قدم الرسول الكريم ﷺ، وهكذا تكون قصائدهم للآخرين بمنزلة قناديل تضيء لهم طريق المعرفة!

وهكذا نقرأ للحاج المنداسي وللحاج ابن مسايب من المغرب الأوسط، كما نقرأ للحاج محمد بن علي الدمناتي المسفيوي من المغرب الأقصى أداءً جميلاً يعبر عن مشاعره عندما سافر إلى الحجاز بقصد الحج أولاً وثانياً.

كما نقرأ لزميله الحاج إدريس بن علي الحَنْش قصائده في وصف المراحل والمنازل قبل المناسك والمشاعر...

كما نقرأ لغير هذين الشاعرين قصائد أخرى تفيض بالشوق والتطلع إلى رؤية تلك المعالم والمشاهد، مما يؤكد أن للمغاربة تفوقاً ـ فيما كتب ـ على غيرهم في التزلف إلى تلك الديار(١).

وقد قمنا بالوصف الدقيق لكل تلك المذكرات حتى لا يضيع الحديث عنها ولا يفنى، وحرصنا على أن نرتبها كما أشرنا حسب وفاة الذين سجلوها تيسيراً على المتتبعين والمعقبين.

كانت الرحلات قد رتبت من لدن الباحثين السابقين على نحو لا يخلو من تهافت... أحياناً حسب تاريخ الرحلة، وأحياناً حسب حروف مؤلفيها أو حسب عناوينها... وقد أحلنا على مصادر الرحلة ومراجعها بوصفها تراثاً إسلامياً وحضارياً، سجلناها شعوراً منا بأن أدب الرحلات في طريقه إلى الاختفاء، وتحريكاً لهمم الذين يرغبون في أن يعرفوا عن أطارف الأمس البعيد والقريب...

---

(١) د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي في طبعة فضالة، عام ١٩٧٦م، ص٤٢.
معلمة الملحون، القسم الأول من الجزء الأول والقسم الثاني من الجزء الثاني، تأليف محمد الفاسي، أكاديمية المملكة المغربية ١٩٩٢م مجموع في ملك الأستاذ محمد بن عبد الهادي المنوني رحمه الله.

وها هي ذي الصفحات التي تعتمد على عدد مهم من المصادر الموثقة التي سنتبعها بعروض لما جاء في أهم تلك الرحلات، مما نرى فائدةً في عرضه متحاشين التكرار قاصدين أن نبرز دور أولئك الرحالين بالمغرب في كتابة تاريخ تلك المشاهد بالمشرق، كتابتها وهم شهود عيان لا فرق بين زمان وزمان، وإنسان وإنسان، كان فيهم من حج واعتمر عن طريق البر مستعيناً بالمطايا والرواحل، ومنهم من حج بواسطة السفن والمراكب غير مكترث بالمخاطر والكوارث، ومنهم من أصبح يصل إلى الربوع عن طريق الأجواء التي لا تخلو بدورها من المغامرات والمعاكسات، وألححنا على ذكر التاريخ الشمسي إلى جانب التاريخ القمري لجعل القارئ في الصورة الصادقة لظروف الرحلة، وهل كانت تصادف الشتاء أو الصيف.

ورأينا في الأخير ألا نغفل "منافسة" العمرة للحج، وخاصة في العقود الأخيرة عندما وجد بعض الناس راحتهم في أن يقصدوا تلك الديار في غير موسم الحج الذي يتميز عادة بكثافة الحضور، يقصدونها خصوصاً في شهر رجب ورمضان، إذ أمسينا أمام مواسم أخرى تضاهي موسم ذي الحجة، واضطر المشرفون على شؤون موسم الحج إلى أن يدخلوا في حسبانهم مواسم جديدة في رجب أو رمضان لا تقل عن الموسم الأول، الإجراءات نفسها، والترتيبات نفسها باستثناء موقف عرفات.

مسرد مئة رحلة ورحلة

(١) ابن العربي ٥٤٣ هـ / ١١٤٨م

(٢) الشريف الإدريسي ٥٦٠ هـ / ١١٦٥م

(٣) ابن جُبير ٦١٤ هـ / ١٢١٧م

(٤) الباجي الإشبيلي ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م

(٥) العبدري الحاحائي ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م

(٦) ابن رُشيد السبتي ٧٢١ هـ / ١٣٢١م

(٧) البادسي ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣م

(٨) التُجيبي ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م

(٣١) اليوسي ١١٠٢هـ / ١٦٩١م

(٣٢) الرافعي الأندلسي ١١١٠هـ / ١٦٩٨م

(٣٣) الهشتوكي ١١٢٧هـ / ١٧١٥م

(٣٤) أحمد بن ناصر ١١٢٩هـ / ١٧١٧م

(٣٥) القادري ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م

(٣٦) الدلائي ١١٤١هـ / ١٧٢٩م

(٣٧) الغنامي ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م

(٣٨) المنداسي ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م

(٣٩) الأميرة خناثة ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م

(٤٠) أبو مدين الدرعي ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م

(٤١) سيدي بناني ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م

(٤٢) المنالي الزبادي ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م

(٤٣) الولتيتي ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م

(٤٤) ابن الطيب الشرقي ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م

(٤٥) العامري التازي ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م

(٤٦) الهلالي ١١٧٥هـ / ١٧٦١م

(٤٧) ابن مسايب ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م

(٤٨) ابن عبدالسلام السلاوي ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م

(٤٩) الحضيكي ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م

(٥٠) الورثيلاني ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م

(٥١) الأمير المولى علي ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م

(٥٢) العيني ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م

(٥٣) ابن عمار ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م

(٥٤) ابن عثمان ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م

(٥٥) الفاسي ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م

(٥٦) الشريف العباسي ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م

(٥٧) الأمير المولى عبدالسلام ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م

(٥٨) الأمير المولى إبراهيم ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م

(٥٩) المعسكري بورأس ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م

الناصري ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م

(٦٠) الرحلة الأولى ١١٩٦هـ / ١٧٨٢م

(٦١) الرحلة الثانية ١٢١١هـ / ١٧٩٧م

الزياني ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م

(٦٢) الرحلة الأولى ١٢٠٨هـ / ١٧٩٤م

(٦٣) الرحلة الثانية ١٢٢٦هـ / ١٨١١م

(٦٤) الحيوني ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م

(٦٥) ابن بابا التيجاني ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م

(٦٦) ابن طوير الجنة ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م

أبو العلاء إدريس ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م

(٦٧) الرحلة الأولى ١٢٢٥هـ / ١٨٠٩م

(٦٨) الرحلة الثانية ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م

(٦٩) الرحلة الثالثة ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م

(٧٠) أنجال السلطان المولى عبدالرحمن ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

(٧١) الغيغائي ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

(٧٢) ابن الشيخ سيدي ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

(٧٣) العلمي الوزاني ١٢٨٠هـ / ١٨٦٤م

(٧٤) التامراوي ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م

(٧٥) ابن البشير ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م

(٧٦) ابن كيران ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م

(٧٧) السنوسي التونسي ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م

(٧٨) الإلغي ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م

(٧٩) ماء العينين ١٣٢٨هـ / ١٩١١م

(٨٠) السرغيني العمراني ١٣٢٩هـ / ١٩١١م

(٨١) الولاتي ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م

(٨٢) ابن عبدالهادي ١٣٣١هـ / ١٩١٣م

(٨٣) السبعي ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م

(٨٤) الكتاني بن جعفر ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م

(٨٥) البلغيثي ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م

(٨٦) مؤلف مجهول ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م

(٨٧) دنية الرباطي ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م

(٨٨) الغسال ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م

(٨٩) الجعايدي ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م

(٩٠) المنبهي ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م

(٩١) التميمي القيرواني ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م

(٩٢) التُوزاني الميضاري ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م

(٩٣) العياشي سُكَيْرج ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م

(٩٤) القاضي السائح ١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م

(٩٥) الهواري ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م

(٩٦) الرهوني ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م

(٩٧) الحجوي ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م

(٩٨) ابن العتيق ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م

(٩٩) كنون ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م

(١٠٠) التازي ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م

(١٠١) محمد الخامس ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م

رحلة ابن العربي ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م

تحدث الناس كثيراً عن رحلة الإمام أبي بكر بن العربي الذي رحل إلى المشرق في مهمتين اثنتين على ما يتأكد :

الأولى : سياسية، وهي السفارة لدى المستظهر بالله العباسي من لدن يوسف بن تاشفين، وهي المهمة التي نص عليها ابن خلدون في مقدمته، وهو أولى من يعرف عن هذا الأمر، خصوصاً أنه قد أكد أن المهمة نجحت، حسبما تضمنه "مكتوب للخليفة بذلك منقول في أيدي الناس"(١).

المهمة الثانية : القيام بفريضة الحج وما يصحبها من طلب العلم ولقاء الرجال أخذاً وعطاءً. وتتضمن الرحلة، على ما يبدو من الشذرات التي وصلتنا منها، الحديث عن المهمتين معاً . . .

وهكذا فإن الرحلة ولو أنها تعدّ مفقودة، بيد أن ما نقل عنها في بعض أمهات الكتب يعطي فكرة عن أهمية المعلومات التي تضمنتها.

وأذكر - على سبيل المثال - ما أورده عبدالملك ابن صاحب الصلاة المؤرخ (٥٩٤هـ / ١١٩٨م) في تأليفه العظيم عن الموحدين حول (كتاب الرحلة) قال حين دخل بغداد وتعرف إلى سلطانها : "نعمت المعرفة التعرف بالسلطان والتشرف به عند التغرب في الأوطان، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان"(٢).

وفي اعتقادي أن هذه النصيحة التي تقدم بها ابن العربي في بداية زيارته لبغداد كانت تهدف إلى فتح الأبواب أمامه في الزيارات الباقية، وفي صدرها زيارته لمكة

---

(١) ابن خلدون، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت عام ١٩٢٦، ج٦، ص١٨٦. د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٥، ص٢٧٤، رقم الإيداع القانوني ٢٥ / ١٩٨٦، مطابع فضالة، المحمدية.

(٢) المن بالإمامة على المستضعفين، تأليف ابن صاحب الصلاة، طبعة ثالثة ١٩٨٧م، تحقيق د. عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، ص ١٨٥ - ١٨٦، الرسالة الأولى التي نوقشت في جامعة محمد الخامس في ٢٨ فبراير ١٩٦٣م.

المكرمة لأداء مناسك الحج... ونحن نعرف أن أبا بكر بن العربي ـ على نحو والده الشيخ عبدالله ـ كانا يخلصان في المهمة التي عَهِد إليهما بها ابن تاشفين الذي كان على ما تحدث الناس عنه من فضل واستقامة، الأمر الذي كان ينقله الحجاج المغاربة عنه وبخاصة القاضي ابن القاسم الذي شهد له ابن العربي نفسه بقوله: ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاضٍ من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم، وذكر من حال هذا الأمير (المرابطي) ما ذكرته، ويؤكد ما أوردته، وقد أشاع القاضي المذكور ذلك بمكة المكرمة، وذكر أن الروم على شفى جرف من تضييقه عليهم وحصاره لهم[1]...

وعندما عدد المقّري تآليف ابن العربي [2] ذكر في آخرها[3] كتاب «ترتيب الرحلة» معلقاً بقوله: «وفيه من الفوائد ما لا يوصف»، وهنا أخذ يعدد بعض الفوائد فقال:

ومن الفوائد قوله: «شاهدت (المائدة) بطورزيتا مراراً، وأكلت عليها ليلا ونهاراً .. وكان الناس يقولون: مسخت صخرة، والذي عندي أنها كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء ... وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس» إلى آخر ما ذكره قائلاً: «وقد شرحت أمرها في كتاب (ترتيب الرحلة) بأكثر من هذا».

ومن الفوائد قوله: «كنت بمكة مقيماً في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمئة، وكنت أشرب ماء زمزم كثيراً، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان، ففتح الله تعالى لي ببركته في المقدار الذي يسَّر لي من العلم»، قال: «ونسيت أن أشربه بنية العمل بالعلم، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله تعالى لي فيهما، ولم يقدر، فكان صَغْوِي للعلم أكثر منه للعمل»!!

وقد ذكره ابن بشكوال في «الصلة» فنعته بأنه ختام العلماء، وأنه رحل إلى المشرق

(١) إحسان عباس، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق، مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية (حزيران ١٩٦٣م) ـ رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل، ثم أيضاً مجلة الجامعة الأمريكية ـ بيروت ـ كانون الأول ١٩٦٨م.

(٢) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تأليف المقري، ج٢، ص٨٨ وما حواليها، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات.

(٣) نفح الطيب، ج٢، ص٣٧.

مع أبيه مستهل ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمئة ... ثم حج في سنة تسع وثمانين ... وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير.

يذكر المقَّري في النفح أن ابن سعيد ما وفّى حافظ الإسلام أبا بكر بن العربي حقه، وأنه؛ أي: المقَّري، يحاول أن يملأ الفراغ بما يحضره في التعريف به.

وهنا يذكر بعض ما عرف عن القاضي ابن العربي من استقامة وصرامة، وإقبال على نشر العلم وبثه على الرغم من ارتباطاته بخدمة السلطان، ونحن نعرف أن الإمام ابن العربي سمع بالأندلس وبجاية والمهدية والإسكندرية ومصر ودمشق، لكنا نخصص هذه المناسبة لنشاطه العلمي بمكة المكرمة، ولو أن مكة كانت تعيش في هذه الأعوام ظروفاً قلقةً بسبب الفتن الناشئة(١) ... وهكذا نقرأ عن أخذه في مكة عن محدثيها ومفتيها أبي عبدالله الحسين بن علي بن الحسن الطبري الشافعي (٤١٨-٤٩٨هـ) الذي جاور بمكة، وحدث بالحرمين الشريفين. وأخذ عن أبي محمد عبدالله بن طلحة الأندلسي اليابري، وهو من شيوخ الزمخشري، أخذ عنه كتاب سيبويه. وعن أبي المعالي ثابت بن بندار الحمامي البقالي المقرئ المتوفى سنة ٤٩٨هـ، سمع منه نسخة دينار بن عبدالله الأهوازي عن أنس بن مالك.

وقد أخذ بمكة أيضاً عن جملة ممن سمع منهم في بغداد من أمثال أبي الفوارس طراد بن محمد الزينبي مسند العراق ونقيب العباسيين(٢)..

---

(١) السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، ج١١، جامعة أم القرى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) ابن العربي: العواصم من القواصم حول مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب، ١٣٧٥هـ، المطبعة السلفية.

الأحكام الصغرى لابن العربي، تحقيق سعيد أحمد أعراب، منشورات الأيسيسكو ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.



ابن العربي

الشريف الإدريسي ٥٦٠هـ / ١١٦٥م

مرّ المؤرخون لمكة وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن إفادات الإدريسي الذي لا أشك في أنه زار الحرمين الشريفين وهو في مصر وبلاد الشام، إلى جانب رحلاته التي تحدث عنها المهتمون بحياته. ولا بد أنه اكتسب معرفة بأحوال البلاد وإحاطة بأهلها، وهذا الذي كان وراء دعوته من قبل روجار الثاني لقاعدة صقلية ... ولعل للظروف الدولية التي صادفت وجوده هناك أثراً في إهمال المعلومات التي أوردها عن مكة المكرمة[١]، والتي خفيت عن سائر الذين تناولوا تاريخ البلد الحرام. والمهم في هذه المرويات أنها تملأ فراغاً كبيراً مما شعرنا به في "العقد الثمين"، و"شفاء الغرام"، و"غاية المرام"، وما كان يتبع هذه التآليف من "منائح الكرم" إلى "تاريخ مكة" و"الحرم المكي" وغير ذلك مما كنت أرجع إليه فيما توفرت عليه مكتبتي المتواضعة.

فماذا عند الإدريسي من جديد في عهده عن مكة في كتابه المعلمة: «نزهة المشتاق»[٢] الذي كتبه عام ٥٤٨هـ؟ سنلاحظ منذ البداية أن الإدريسي يتجنب الأساطير المروية عن هيّان بن بيّان، ونلاحظ على العكس من ذلك أن مكة المكرمة تظل عنده القطب الذي يحيل إليه حتى لو تحدث عن «أهل الصّمان الذين كتب لهم الفقر بأمان»! وحتى لو كان حديثه عن قرية معدن النقرة التي يجتمع فيها حاج الكوفة والبصرة...

ثم إنه ما ينفك ذاكراً الحجيج ومسالكه إلى مكة، وهذا يعبر عن تعلق الرجل بالمكان ولو أنه أغفل الزمان. وهكذا نجده وهو يتناول الجزء الخامس من الإقليم الثاني يذكر أن فُرضة مكة هي جدة التي يذكر أن واليها تابع لشريف مكة الهاشمي الذي يقصد به - دون شك - هاشم بن فُلَيتة الذي تولى أمر مكة من سنة ٥٢٧هـ إلى سنة ٥٥١هـ، هاشم هذا هو الذي أقام الخطبة للعباسيين[٣]...

---

(١) المهندس الدكتور أحمد سوسة: الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، ج٢، ص٢٧١ فما بعد - بغداد: نقابة المهندسين العراقيين ١٩٧٤م.

(٢) نشر النزهة، المعهد الجامعي الشرفي بنابولي في تسعة أجزاء.

(٣) السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق د. جميل عبدالله محمد المصري، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج٢، ص٢٤٥، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

ويؤكد الإدريسي في النزهة أن الهاشمي شريف مكة هو الذي يقبض صدقات جدة ولوازمها ومكوسها ويحرس عمالتها، ولها ـ وهي فُرضة مكة ـ مراكب كثيرة تتصرف إلى جهات كثيرة.

وهو يقول عن مكة: إنها قديمة أزلية البناء، مشهورة، معمورة مقصودة من جميع الأرض الإسلامية، وإليها محجهم المعروف، وهي مدينة بين شعاب الجبال، وطولها من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين، وهو من حد الجنوب إلى جهة الشمال، ومن أسفل جبل أجياد إلى ظهر جبل قُعَيْقِعان ميل.

والمدينة مبنية في وسط هذا الفضاء، وبنيانها حجارة وطين، وحجارة بنيانها من جبالها . . .

وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالحرم، وليس لهذا الجامع سقف، وإنما هو دائر كالحظيرة والكعبة، وهو البيت المسقف في وسط الحرم، وطول هذا البيت من خارجه من ناحية الشرق أربع وعشرون ذراعاً، وكذلك طول الشقة التي تقابلها في جهة الغرب[1].

وشرقي هذا الوجه باب الكعبة، وارتفاع الباب على الأرض نحو قامة[2]، وسطح الكعبة من داخل مساوٍ لأسفل الباب.

وفي ركنه الحجر الأسود، وطول الحائط الثاني الذي من جهة الشمال، وهو الشامي، ثلاث وعشرون ذراعاً، وكذلك الشقة الأخرى التي تقابلها من جهة اليمن.

ومع أصل هذه الشقة موضع محجوز في دائر، وطوله خمسون ذراعاً، وفيه حِجْر أبيض يقال: إنه قبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وفي الجهة الشرقية من الحرم قبة العباس، وبئر زمزم، والقبة اليهودية، وما استدار بالكعبة كله حطيم يوقد فيه بالليل مصابيح ومشاعل. وللكعبة سقفان، وماء السقف الأعلى يخرج عنه إلى خارج البيت في ميزاب من خشب.

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٢٨٩، تحقيق رشدي الصالح ملحس، مطبعة دار الثقافة، مكة، طبعة ثامنة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٢) أخبار مكة، مصدر سابق، ص٣٠٧.

ونعتقد أن هذا الميزاب الذي كان على عهد الإدريسي من خشب هو نفسه ميزاب ابن رامشت الذي نقل السنجاري أن سنة خمسمئة وسبع وثلاثين شهدت وصول مثقال خادم الشيخ أبي القاسم بن رامشت صاحب الرباط المشهور، وصوله بعد موته بتابوته ومعه ميزاب كان قد عمله سيده للكعبة، فركب الميزاب[١].

قال الشريف الإدريسي: وذلك الماء (النازل من الميزاب) يقع على الحِجْر الذي قلنا: إنه قبر إسماعيل.

والبيت كله من خارج ـ على استداراته ـ مكسو بثياب الحرير العراقية، لا يظهر منه شيء، وارتفاع سمك البيت المذكور سبع وعشرون ذراعاً.

وهذه الكسوة معلقة فيه بأزرار وعرا، وصاحب بغداد المسمى بالخليفة يرسلها في كل سنة إليها فتكسى بها، وتزال الأخرى عنها، قال: وهذا مهم، ولا يقدر أحدٌ أن يكسوها غيره!

ومن خلال هذا النقل المعاصر تقريباً لهذه المعلومة، نستفيد أن ما قاله التقي الفاسي: "وفي سنة خمسمئة واثنتين وثلاثين كسا الشيخ أبو القاسم بن رامشت الكعبة"، كان يعني أن أبا القاسم المذكور كان يعمل لحسابه الخاص بتواطؤ مع هاشم بن فُلَيتة.

وقد حدث أن جرؤ الهاشمي هذا سنة خمسمئة وتسع وثلاثين على نهب ركب الحاج العراقي بالحرم الشريف وهم يطوفون، بسبب حدث وقع بين هاشم وأمير الحاج العراقي، فكان هذا سبباً لرد فعل من المقتفي الخليفة العباسي في بغداد (٥٣٠-٥٥٥هـ) تجلى في إنفاذ الخليفة المذكور ميزاباً جديداً عوض ميزاب ابن رامشت ... وفي السنة نفسها عمر سقف الكعبة، والدرجة التي يصعد منها إلى سطحها[٢].

بعد أن يتحدث الإدريسي عما يذكره أهل الخبر من أن الكعبة كانت خيمة لآدم عليه السلام قبل أن يهدمها الطوفان، وتأتي مدة إبراهيم وإسماعيل التي شهدت إعادة

(١) منائح الكرم للسنجاري، ج٢، ٢٤٦، تعليقات ٣، ٤، ٥.

أخبار مكة للأزرقي، ص٣١١-٣١٤.

(٢) منائح الكرم، ص٢٤٧.

البنيان، بعد ذلك يتحدث عن قضية الماء في مكة، وأنها لم تستتم إلا في أيام المقتدر من بني العباس (٢٩٥-٣٢٠هـ) ... ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب، وأطيبها ماء بئر زمزم، وماؤها شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه ... وليس بجميع مكة شجر ثمر إلا شجر البادية.

ويسكن صاحب مكة في قصر له بالجهة الغربية بموضع يعرف بالمربعة على بعد ثلاثة أميال من مكة، وهو قصر مبني من الحجارة، وتجاوره حديقة قريبة العهد فيها نخيلات، وكثير من المُقل (الدوم)، وبها جملة شجر منقولة إليها... ويتحدث عن الناحية الأمنية في البلاد، فيقول:

وليس للهاشمي شريف مكة عسكر خيل، وإنما معسكره رحالة لا خيل لهم، وتسمى رجالته (الحرابة).

ولباسه البياض والعمائم البيض، وهو يركب الخيل، وسياسته حسنة، وحكمه عدل، وإنصافه ظاهر، وإحسانه غَدق على قدر إمكانه.

قال: ولمكة موسمان ينفق فيهما كل ما جلب إليها، أحدهما في أول رجب، والثاني موسم الحجيج. ولأهل مكة أموال صامتة وأحوال فاشية، ودوابّ وجمال، كما أن لمكة مخاليف وهي الحصون ... ولا زرع بها ولا حنطة إلا ما جلب إليها من سائر البلاد، والتمر يأتي إليها كثيراً مما حولها، والعنب يجلب إليها من الطائف التي ينعتها بالمدينة المتحضرة التي تأتي منها أكثر فواكه مكة ... والتي يضرب المثل بجودة بغالها! والغالب على ضعفاء أهل مكة الجوع وسوء الحال، وإذا خرج أحد عن مكة في كل جهة تلقاه أودية هنا جارية وعيون مطردة، وآبار غدقة، وحوائط كثيرة، ومزارع متصلة...

والرجل في حديثه عن المسالك التي تصل مكة بالمدينة لا يقتصر على المسلك الواحد، ولكنه يعدد الدروب لتختار منها ما تشاء، وهو في هذه الأثناء يشير إلى ما تأكد عندنا من أنه شاهد عيان، يشير إلى نمطٍ من الناس سمة الشقاء عليهم بادية!.

وفي معرض حديثه عن المدينة المنورة قال: إنها تقع في مستوٍ من الأرض، وإنها حارة سبخة، كان عليها سور قديم، وبخارجها خندق محفور، وهي الآن في حين تأليف

الكتاب (شوال ٥٤٨هـ / يناير ١١٥٤م) عليها سور حصين منيع من التراب بناه قسيم الدولة الغازي، ونقل إليها جملةً من الناس، ورتب المسير إليها ... وحولها نخل كثير وثمرها حسن ... وشرب أهلها من نهر صغير، يأتي إليها من جهة المشرق جلبه عمر بن الخطاب وجاء به إليها من عين كبيرة إلى شمال المدينة وأجراه بالخندق المحتفر بها، ومقدار مدينة يثرب على قدر نصف مكة ... وفُرضتها هي (الجار)، وهي قرية آهلة عامرة، وكانت قبل هذا مدينة قريبة من جدة (ينبع الحالية).

لقد وصف الإدريسي مكة على نحو ما وصف به مدينة سبتة مسقط رأسه، وعلى نحو هذا وجدناه يصف المسجد الأقصى بأنه ليس في الأرض كلها مسجد على قدره إلا المسجد الجامع بقرطبة في ديار الأندلس!

لقد ظلت مكة محور حديثه حتى عندما تحدث عن مدينة أودغشت في إفريقية الغربية عندما قال: إنها مدينة بين جبلين على نحو مكة ... وعندما قارن في آسيا بين مكة ومدينة الجُرْزُوان التي تقع هي كذلك بين جبلين...

وهكذا، فكما أشرت منذ البداية، فإني على مثل اليقين، إن لم يكن اليقين كله، من أن الإدريسي ـ بهذه المعلومات ـ سجل لنا رحلته إلى مكة، وأنه إذا لم يذكر طوافه وسعيه ووقوفه بعرفات، وإذا لم يذكر من لقيه من الرجال ومن زودوه بالمعلومات فلأنه يحترم موضوع التآليف الذي كان مخصصاً بالدرجة الأولى للشأن الجغرافي الصرف، على الرغم من أنه مع ذلك لم يستطع أن يحمي نفسه من ذكر حركة العمران بمكة المكرمة، وذكر رجال النفوذ بها، وذكر الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

فإذا أضفنا إلى كل هذا أنه كان يتحدث إلى الملك روجار الثاني الذي لم يكن يشاطره في المعتقد ولا في الهوية أدركنا إذن طريقة الإدريسي في أدائه لهذه الرحلة التي رأيت من واجبي أن أذكرها في صدر الرحلات التي أسهمت، وبصفة واضحة، في التعريف بأم القرى، وما كان حديثاً بفترة.



الشريف الإدريسي في مجلس الملك روجار الثاني يشرح له تفاصيل كرته الأرضية الفضية (حوالي 548 هـ - 1154 م)
Al Idrissi présentant sa mappemonde à Roger II (1154)

الشريف الإدريسي في مجلس الملك روجار الثاني يشرح له تفاصيل كرته الأرضية

ابن جبير ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م

دخل ابن جبير مدينة مكة المكرمة في الساعات الأولى من يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ، وهو الرابع من شهر أغسطس ١١٨٣م، على ما حرص على ذكره الرحالة الأندلسي الذي ـ كما نعلم ـ كان يعايش بين الذين يستعملون التاريخ الشمسي الذي يضبط فصول السنة . . .

وتعبيراً من ابن جبير عن الفرحة العارمة التي غمرته في هذه اللحظات الفريدة من حياته وصف "البدر الذي ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنا قناعه، والأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء، وتبتهل إلى الله بالثناء، فتارة تشتد بالتلبية، وآونة تتضرع بالأدعية، فيالها ليلةً كانت في الحسن بيضة العُقْر[١]، فهي عروس ليالي العمر، وبكر بنيات الدهر. . . وألفينا الكعبة الحرام عروساً مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن، فطفنا طواف القدوم، ثم صلّينا بالمقام الكريم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم ـ وهو ما بين الحَجَر الأسود وباب الكعبة ـ ودخلنا قبة زمزم، وشربنا من مائها. ثم سعينا بين الصفا والمروة، ثم حلقنا وأحللنا . . ."

وبعد وصف دقيق للمسجد الحرام والبيت العتيق، يذكر أن ظاهر الكعبة مكسو بستور من الحرير الأخضر رسم في أعلاها بالحرير الأحمر[٢]: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾ الآية واسم أبي العباس أحمد الناصر ابن عبدالله بن المستضيء بالله بن المستنصر بالله . . . وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام حسناً، فيها سود وسمر وبيض . . . وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة . . .

ويتحدث ابن جبير عن الأشكال الشطرنجية التي أمر بها الخليفة الناصر الذي نجد نقشاً حوله على رخامة على هذا النحو: «مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ابن عبدالله أمير المؤمنين، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمئة».

(١) العقر: أول بيضة للدجاج، والعقر أيضاً الذي لا ولد له.

(٢) يلاحظ أن لون الكسوة سيتحول إلى ألوان أخرى حسبما يقتضيه الوضع السياسي وشعار الدولة الحاكمة.

وتحت الميزاب ـ وهو من صفر مذهب سعته مقدار شبر ـ قبر إسماعيل غير بعيد عن قبر أمه هاجر . . . بينهما سبعة أشبار، يقول ابن جبير معتمداً في إفادته على بني شيبة.

وبعد وصف قبة زمزم على عهده، يذكر قبة الشراب المنسوبة إلى العباس عم النبي ﷺ، والقبة اليهودية، وقد أصبحتا مخزناً لأوقاف البيت الكريم . . . كما يتحدث عن الحجر الأسود . .

ومن المهم أن نعرف عن الحرم الشريف أنه كان محدقاً بحلقات المدرسين وأهل العلم، وهذا الذي كانت تؤيده شهادات الحجاج الرحالين من الذين قرأنا عنهم من خلال كتب التراجم.

ولم يفت ابن جبير، وهو الحريص على اعتماد النقوش مصدراً حياً من مصادر التاريخ، أن يذكر أن للمهدي محمد بن أبي جعفر العباسي يداً في توسعة المسجد الحرام على ما يدل عليه نقش يقول: «أمر عبدالله محمد المهدي أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ بتوسعة المسجد الحرام لحجاج بيت الله وعمّاره في سنة سبع وستين ومئة»، وعلى ما يدل عليه أيضاً ما وجده منقوشاً على ساريتين مقابلتين للركن الأسود دخولاً من باب الصفا: «أمر عبدالله محمد المهدي أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ بإقامة هاتين الأسطوانتين علماً لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ليتماشى به حجاج بيت الله وعمّاره على يد يقطين بن موسى، وإبراهيم بن صالح، في سنة سبع وستين ومئة».

وقد نقش بالذهب في باب الكعبة المقدسة: «مما أمر بعمله عبدالله وخليفته الإمام أبو عبدالله محمد المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، صلى الله عليه وعلى الأئمة آبائه الطاهرين وخلد ميراث النبوة لديه، وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه إلى يوم الدين، في سنة خمسين وخمسمئة» . . .

ويلاحظ ابن جبير أن الخطيب يوم الجمعة دعا للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر، ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى . . . الحسني، ثم لصلاح الدين ابن المظفر يوسف ابن أيوب، ولوليّ عهده أبي بكر بن أيوب[1].

---

(١) رحلة ابن جبير. نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٨١م، ص ٦٦.

ويذكر ابن جبير معلومةً طفق معظمُ الرحالين يرددونها من بعده، ويتعلق الأمر بأن حَمَام الحرم الشريف - وهي لا تحصى كثرة - لا سبيل لها أن تنزل سطح البيت العتيق، ولا تحل فيه بوجه ولا على حال، وهذا ما ستردده بعض الرحلات، ويذكر أنه قرأ في (أخبار مكة) يعني تأليف أبي الوليد الأزرقي الذي كان يروي أحاديثه عن جده، أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه(١)...

ولا يهمل ابن جبير في مذكراته عن البيت الحرام وسائل الإضاءة التي كانت تجعل من الليل نهاراً في مختلف العصور...

هذا إلى جانب أنواع التأثيث الأخرى من سجاد وكراسي ومنابر وشراجيب، لكن الظاهرة التي نظل في كشفها مدينين لابن جبير هي الحديث عن تعدد المذاهب الفقهية مما لا يخلو منه حديث لحاج أو زائر ممن كانوا يترددون إلى مكة. وهكذا نجد ابن جبير يتحدث عن الأئمة الأربعة، بالإضافة إلى إمام خامس هو إمام الزيدية، الذين لا يصلون الجمعة مع الناس، وإنما يصلونها ظهراً أربع ركعات، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتهم ...

فهو يذكر الإمام الشافعي المقدم من الخليفة العباسي ... كما يذكر المالكي والحنفي والحنبلي وموقع كل واحد من هؤلاء الأئمة في المسجد الحرام(٢).

ولا شك أن ابن جبير استغرب من هذه التعددية التي لم يألفها في الأندلس والمغرب؛ لأن الغرب الإسلامي جميعه يعتنق المذهب المالكي الذي لاحظ الرحالة المغربي أن الإمكانيات المادية لإمام هذا المذهب هناك تعدّ زهيدة؛ فإنه أقل شمعاً، وأضعف حالاً؛ لأن مذهبه في تلك البلاد غريب على حد قول ابن جبير ...

وقد وقف ابن جبير في مكة المكرمة، في الحرم الشريف، في القبة العباسية على مصحف لأحد الخلفاء أصحاب رسول الله ﷺ، وبخط زيد بن ثابت، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله ﷺ، تنقصه ورقات كثيرة، وهو كبير الورقات واسعها...

---

(١) سنقرأ أن بعض الرحالين ينكر هذه المعلومة.

(٢) سنلاحظ أن هذه الظاهرة اختفت مع ظهور المملكة العربية السعودية.

وكان لمبنى الحرم الشريف اتصال ببعض الديار كدار زبيدة، ودار القاضي، ودار العجلة، وسواها من الديار...

وقد اهتم ابن جبير بتعداد أبواب الحرم الشريف على عهده باباً باباً، بادئاً من باب الصفا لكونه أكبر الأبواب، وهو الذي يخرج منه إلى المسعى، ويُثني بباب بني شيبة الذي استحب الدخول منه إلى الطواف على أن يخرج من باب الصفا. وكان مما لوحظ عليه نسبته باب إبراهيم إلى إبراهيم النبي عليه السلام مع أن القصد إلى خياطٍ كان يحمل اسم (١) إبراهيم!.

ويتحدث ابن جبير عن المسافة التي يقطعها الحاج في السعي بين الصفا والمروة حيث نصب الميلان الأخضران.. حيث نقش ما يلي: «أمر بعمارة هذا الميل عبدالله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين - أعز الله نصره - في سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة».

وقد انتقد ابن جبير ما كان عليه الحال مما يتعرض له الساعون الذين لا يرتاحون من كثرة الزحام على الحوانيت الموجودة في المسعى يميناً وشمالاً(٢)!

ولقد وجد نقيشة على سارية خارج باب الصفا تقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا عَلَماً لطريق النبي ﷺ، وفيها: «أمر عبدالله محمد المهدي أمير المؤمنين - أصلحه الله تعالى - بتوسعة المسجد الحرام لما يلي باب الصفا؛ لتكون الكعبة في وسط المسجد، في سنة سبع وستين ومئة».

وتحت هذا النقش في أسفل السارية منقوشٌ أيضاً: «أمر عبد الله محمد المهدي.. بتوسعة الباب الأوسط الذي بين هاتين الأسطوانتين، وهو طريق رسول الله إلى الصفا...».

وفي أعلى السارية التي تليها منقوش أيضاً: «أمر عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين ... بصرف الوادي إلى مجراه على عهد نبيه إبراهيم عليه السلام، وتوسعة الرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره». وتحتها أيضاً منقوش ما تحت الأول من ذكر توسعة الباب الأوسط.

---

(١) الرحلة ص٧٤.

(٢) يلاحظ أن هذه الشكوى ظلت جاهزة عند معظم الذين كتبوا مذكراتهم عن حجهم.

ويقصد بالوادي المذكور الوادي المنسوب إلى سيدنا إبراهيم المشار إليه في القرآن الكريم: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾، وكانت الأمطار تغرق الحرم الشريف بالسيول فيطاف حول الكعبة سبحاً في بعض الأحيان!!

ولم يفت ابن جبير أن يتحدث عن موقع مكة بين الجبال المحدقة بها ... وقد كان لها ثلاثة أبواب قبل أن تصبح مدينة مفتوحة...

ويخصص ابن جبير فصلاً كاملاً لمشاهد مكة ... فذكر منها قبة الوحي في دار خديجة أم المؤمنين ... وقبة فيها كان مولد فاطمة الزهراء ... والحسن والحسين ... ومن مشاهدها مولد النبي ﷺ ... ودار أبي بكر الصديق. وقبة الصفا والمروة تنسب إلى عمر بن الخطاب أو إلى عمر بن عبد العزيز ...

ويتحدث ابن جبير عن جبل أبي ثور؛ حيث الغار الذي أوى إليه النبي ﷺ مع صاحبه الصديق رضي الله عنه ... منددا ببعض المبادرات التي يقوم بها هنا طائفة من الحجاج الجهلاء.

وقد ذكر ابن جبير في رحلته ما وجد في مكة المكرمة من الثمرات، وفوجئ بوفرتها وتنوعها على نحو أكثر مما يوجد بالأندلس، قال: «وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغصّ بالنعم والفواكه والتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمُقْل ... ومن أعجب ما اختبرناه البطيخ (لنتصور أن ابن جبير زار مكة في قلب الصيف، جمادى الأولى عام ٥٧٩هـ / أغسطس ١١٨٣م) كانت رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ... يكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رؤياه عن أكلك إياه! حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شِيب بسكر مذاب أو بجني النحل اللُّباب». قال ابن جبير: «ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو، كلا لعمر الله! إنه لأكثر مما وصفت، وفوق ما قلت[١] ...».

ويذكر من أخلاق المكيين وعادتهم مصافحة بعضهم بعضاً عند مطلع كل شهر

---

(١) الرحلة ص٨٧.

مهنئين متغافرين كفعلهم عند حلول الأعياد.

وفي معرض حديثه عن الأعمال الإنشائية والخيرية نوه بأحد رجال الفضل ممن كان يحمل اسم جمال الدين، المصلاوي الأصل، ولكل امرئ من اسمه نصيب ... هذا الرجل الذي جلب الماء إلى عرفات ... وجدد باب الكعبة وغشاه فضة مموهة بالذهب. هذا الرجل الذي كان يحظى بحب كبير من أبناء البلاد الذين قاموا بتكريمه بعد الوفاة حيث حجّجوا رفاته ودفنوه بالمدينة غير بعيد عن قبر الرسول عليه السلام.

ومن الطريف أن ينبهنا ابن جبير إلى أن من المحظورات في الحرم المكي أن أحداً مهما علا قدره وكثر يساره لا يمكنه أن يجد سبيلاً لتجديد بناء أو إقامة حطيم (Enclosure)[1] أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك!!

ولو كان هذا الأمر مباحاً لتمكن أهل الثراء من جعل حيطانه عسجداً وترابه عنبراً ... فلا بد إذن من إذن الخليفة الذي ـ كما نعلم ـ لا يسمح بترويج اسم أيٍّ كان غير اسم الحاكم!

ويتحدث ابن جبير عن مركز شهر رجب عند المكيين ... فهو أكبر أعيادهم يتوارثون تعظيمه خلفاً عن سلف متصلاً ميراث ذلك من الجاهلية، كانوا يسمونه (منصل الأسنة)، يحرمون فيه القتال.

وللعمرة الرجبية ذكر لا يبلى، وخاصة في اليوم الأول من رجب، وقد شاهدالرحالة الأندلسي هودج الشريفة جمانة بنت فُلَيتة عمة الأمير مكثر[2] .. مصحوبة بهوادج حرم الأمير وحرم قواده. ولم يبق في مكة إلا من خرج للعمرة من أهلها ومن المجاورين ... فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج ... والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق، والشمع بين أيدي الإبل ...!

واجتمع الناس قبيلة قبيلة، حارة حارة... شاكّين في الأسلحة فرساناً ورجالاً...

(١) يتردد مصطلح الحطيم عند معظم الرحالين القدماء، وقد قرأنا أن الإدريسي يرى أن الحطيم هو كل المساحة التي تدور بالكعبة، وسوف نقرأ وجهات نظر أخرى.

(٢) هو من الطبقة الثالثة من الأشراف الذين حكموا الحرمين: الهواشم بعد الطبقة الأولى الموسويين، والثانية طبقة السليمانيين، على ما سنرى عند الحديث عن ابن بطوطة.

كانوا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفاً بأيديهم... وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء... ويستلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم، إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده، وأبناؤه أمامه... وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة.

وبعد الميقات ... وصل إلى المسجد الحرام فطاف والقراء أمامه ... وخرج إلى المسجد فلما فرغ من السعي استلت السيوف أمامه، ثم توجه إلى منزله ... والناس بين هذا وذاك يتغافرون، والنساء كذلك، والكل لبس أفخر ثيابه ...

وبعد أن يطرف ابن جبير قراءه بأخبار عن قبائل من اليمن وتعرف بالسرو ... نقل أخبارها عن فقيه من اليمن يعرف بابن أبي الصيف ... يستقبلون البيت عند صلاتهم فيسجدون دون الركوع، وينقرون بالسجود نقراً، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة، ومنهم من يسجد الاثنتين والثلاث والأربع ... ثم يسلمون أو يقومون من دون تسليم ولا جلوس للتشهد..!

كلّ هذه المشاهد في مكة المكرمة حكى عنها ابن جبير.. إلى قصص أخرى عن هؤلاء السرو ... وقد كان من المشاهد المثيرة التي حكى عنها ابن جبير مما وقع داخل الحرم المكي ما حدث في اليوم المخصص لطواف النساء.

لقد ذكر أنه في اليوم التاسع والعشرين من رجب ٥٧٩هـ / ١٧ نوفمبر ١١٨٣م، وكان يوم خميس، أفرد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أوب، ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم... فلما لم يبق حول البيت أحد من الرجال بادرت النساء إلى الصعود إلى البيت المبارك حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت! وتسلسل النساء بعضهن ببعض وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة..! وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السَّرو اليمنيين.. وتمادين في ذلك صدراً من النهار وانفسحن في الطواف... وتشفين في تقبيل الحجر واستلام الأركان... كن مع الرجال مسكينات مغبونات، لا يرين البيت الكريم ولا يلجنه ويلحظن الحجر المبارك ولا يستلمنه... فهذا اليوم عندهن الأكبر، والأزهر الأشهر...

ثم يتحدث عن العادة المكية في شهر شعبان ... وعن اعتقاد العامة أن ماء زمزم

يفيض ليلة النصف من شعبان!

والجميل في رحلة ابن جبير أنه يقوم بتقديم يومياته لما يجري في مكة المكرمة والبيت الحرام طوال الشهور حتى نأخذ فكرة مسبقة عما ينتظرنا هناك إن كنا ممن يخططون للزيارة!

وهكذا نجده وهو يعيش في مكة المكرمة مع إطلالة ليلة الاثنين ثاني رمضان سنة ٥٧٩هـ / ١٩ ديسمبر ١١٨٣م، وما أدراك ما رمضان بالمسجد الحرام!! نجده يتحدث عن الحركة المتميزة التي شاهدها المسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير المشاعل وتوزيع الأئمة لإقامة التراويح، ما بين الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية والمالكية الذين توزعوا على ثلاثة قراء يتناوبون. لقد كان المالكية أحفل جمعاً وأكثر شمعاً بهذه المناسبة؛ لأن قوماً من التجار المالكيين تنافسوا في ذلك فجلبوا لإمام الكعبة شمعاً كثيراً، من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار!

ويلاحظ أن ابن جبير يستعمل مصطلح (أسبوع) للدلالة على سبعة أشواط على نحو ما سيفعله ابن بطوطة مما خفي على بعض الناشرين!!

وحديثه عن عادة "التسحير" في بعض الصوامع يذكّرنا بما يسميه المغاربة "التهليل" الذي يقصد به تأنيس الذين يسهرون حتى وقت السحر بالذكر والتوسل ... كما تذكّر القناديل المرفوعة في المنارات بما يوجد عليه الحال في جهات أخرى انتظاراً لوقت الإمساك ...

وقد رأى ابن جبير من الأمانة أن يتحدث عن العمرة التي قام بها بعض كبار القوم وكيف تتم المحافظة على الأمن ... وكان الأمر يتعلق بسيف الإسلام الأمير طُغْتِكين بن أيوب أخي صلاح الدين الذي كان في استقباله الأمير مكثر السالف الذكر حيث فتح البيت الحرام تكريماً للزائرين ...

وبعد هذا يتحدث عن تراويح العشر الأواخر من رمضان بالمسجد الحرام، وما أكثرها بهجةً وإشراقاً بما فيها من صلاة القيام، ولا أدري لِمَ لم يتحدث ابن جبير عن تناول الإفطار داخل الحرم بما يحتف به من نثير وعبير لدى المسلم المستنير، ولا ينبئك مثل خبير! وقد ذكرتني حكايات ابن جبير بما يتسابق إليه أطفال مكة عند المحاريب للإمامة

بالحاضرين، ذكرتني في الحال بالمساجد الكبرى بالديار المغربية عند أواخر رمضان ...

ويستهل شوال وهو فاتحة أشهر الحج المعلومات المباركات، وكان يصادف شهر يناير المعروف بطقسه البارد وقد لبس الناس أثواب العيد ... وقاموا بأداء الأسبوع ... ويتصافح الناس ويتبادلون التهاني ...

وينتقل ابن جبير إلى مناسك الحج فيتحدث عن ظهور هلال ذي الحجة ليلة الخميس سنة ٥٧٩هـ / ١٥مارس ١١٨٤م.. والحديث عن هلال ذي الحجة بالنسبة إلى الحجاج حديث مهم؛ لأنه يكشف عندهم عن سر يعلق الحجاج عليه آمالاً كبرى تعني الرغبة في الوقوف بعرفات يوم الجمعة! "وكأن الحج - يلاحظ ابن جبير - لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه!!" .

كانت السماء مملوءة بالغيوم (١٥ مارس)، ومع ذلك كبر أحد الحاضرين فكبر الناس لتكبيرته، وانطلقوا نحو القاضي حرصاً منهم على تثبيت الوقفة يوم الجمعة، لكن القاضي جرّح شهادتهم أسوأ تجريح قائلاً: لو أن أحدكم يشهد برؤيته للشمس تحت ذلك الغيم الكثيف لما قبلته، فكيف برؤيته هلالاً ...؟!

ذكرْتُ هذه القصة لأنه ستظل حديث الموسم، ولأنها تتكرر كل سنة عند الحجاج كلما صادف اليوم ٢٩ أو ٣٠ عشية أربعاء أو عشية خميس!!

وصعد الناس إلى عرفات عبر منى ... ويحرص ابن جبير على تحديد المواقع على نحو ما حدده نبي الإسلام ﷺ حتى لا يقع الحجاج في خطأ...

وعلى عادته يقدم ابن جبير أنباء مفيدة عن وصول أمير الحج العراقي الذي كان يصحبه عدد من أمراء الأعاجم الخراسانيين، وعدد من النساء الخواتن، والسيدات بنات الأمراء.

ومن الطريف أن نسمع عن مقدم الأمير العراقي ... وعن محلته المتنقلة بمضاربها وقبابها المتعددة المقاييس بما كان يدور بها من حاجز كان بمنزلة حدود لهذه المدينة المتنقلة[١] ... كان هذا يذكرني بما يعرف بالمغرب: (أفراك) الذي سيتحدث عنه بعض الرحالين المغاربة من أمثال البلوي وابن بطوطة ...

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٣٧، مصدر سابق.

ويتحدث ابن جبير وهو بالمزدلفة عن هذه الوفرة الكبيرة من الشموع "فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به" . ومن مزدلفة يستصحب الناس حصيات الجمار التي نعرف عن عددها وعن محل رميها ... وانحدر الناس إلى مكة في اليوم الثالث .. ولا يغفل ابن جبير الحديث عن (الكسوة) التي أعدها الأمير العراقي للكعبة على ما كانت عليه العادة آنئذ بما تحتويه الكسوة من تطريز يتضمن اسم الخليفة والدعاء له على ما تقتضيه المراسيم ...

ويُخَصَّص يوم لأصحاب عراق العجم (الفرس) الذين لا يملكون أنفسهم من فرط الطرب أن يلقوا بأنفسهم على باب الكعبة إلقاء الفراش بنفسه على المصباح!! وعادتْ أحوال السّرو اليمنيين بالنسبة إلى هؤلاء الأعاجم حالاً تتسم بالتؤدة والوقار!!

ويختم ابن جبير حديثه عن سوق المسجد الحرام الذي يباع فيه كل شيء من الدقيق إلى العقيق! ومن البر إلى الدر ...

لقد كانت مدة مقام ابن جبير بمكة من يوم وصوله إليها إلى يوم إقلاعه ثمانية أشهر وثلث الشهر ... والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم، يختم الرحالة الأندلسي.

الباجي الإشبيلي ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م

كم كنا نتمنى أن نقف على النص الكامل لرحلة أبي مروان الباجي الإشبيلي إلى المشرق حيث قصد فيها مكة المكرمة ... لكنا لم نقف إلاّ على ملخصها(١).

لقد وصل أبو مروان إلى مكة - شرفها الله - لأربع خلون من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين وستمئة (٢٨ يوليو ١٢٣٧م) فنزل بالأبطح، وهو بين مكة ومنى، ولما قضى فريضة الحج (تاسع ذي الحجة) نزل بدار إمام المالكية الذي يرى زميلنا الدكتور محمد ابن شريفة أنه أبو البركات عمر بن محمد التوزري الذي ولي الإمامة في سنة ٦١٤هـ، وكان يسكن بباب العمرة الذي كان يحتضن عدداً من المراكز العلمية المهمة في مكة. ويلاحظ أن النشاط العلمي لأبي مروان بمكة المكرمة كان محدوداً جداً، ولعل ازدحام الموسم كان وراء الاقتصار على إمام المالكية(٢).

ولعل للتوزري هذا صلةً بنزيل الحرم الأمين الشيخ أبي عمر عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود التوزري المالكي الذي عدّه القاسم بن يوسف التجيبي السبتي من شيوخه في كتابه «مستفاد الرحلة والاغتراب»(٣).

والمعروف عن أبي مروان الباجي أنه من الشخصيات الأندلسية المتنفذة، وقد كان

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، تحقيق د. إحسان عباس، ج٥، ص٦٨٩.
أبو مروان الباجي ورحلته إلى المشرق ٥٦٤-٤٣٥، تقديم وتحقيق د. محمد بن شريفة (كتاب دعوة الحق)، رقم الإيداع القانوني ٢٠٠٠ / ١٨٥٦. د. محمود علي مكي: أثر الحج في الثقافة الأندلسية، بحث قدم للندوة الدولية حول طرق الحج، القاهرة، يونيو ٢٧-٢٨ / ٢٠٠٢م.

(٢) يكتشف الدكتور ابن شريفة أن نشاط أبي مروان بدمشق كان كبيراً ظهر أثره فيما بعد بالمغرب، فقد لقي العلماء هناك وروى عنهم ورووا عنه، ومنهم أبو عمرو عثمان بن البطاح، وسمع منه كتابه المشهور في علوم الحديث. ورواية أبي مروان هي التي وصلت إلى المغرب وتداولها الناس ... المصدر السابق لابن شريفة، ص٤٤- ٦٥، ص١٠٢، تعليق ١٥.

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق وإعداد عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ٤١٥-٤١٦.

قاضي الجماعة، لكن الظروف العصيبة التي عاشها جعلته يقدم على هذه الرحلة عبر البحر إلى أن وصل إلى عكا ميناء فلسطين، ثم يرحل بطريق البر إلى دمشق التي وصلها لسبع خلون من رمضان (٣ مايو ١٢٣٧م)؛ حيث أقام إلى منتصف شوال فخرج منها مع الركب الشامي الذي مضت له سبعة أعوام لم يتوجه فيها إلى مكة بسبب مضايقة التتار.. فصار إلى بصرى ثم إلى محطة الأزرق ثم إلى تيماء ثم إلى خيبر، ثم إلى المدينة المنورة التي أقام بها يومين، ثم إلى ذي الحليفة التي تقع على بعد سبعة أميال من المدينة، ومنها إلى ميقات أهل المدينة، وهناك ارتدى الإحرام إلى مكة التي كان قد وصلها ابن جُبَير قبله بعقود قليلة.

العبدري الحاحائي ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م

أما عن رحلة أبي عبدالله محمد بن محمد العبدري الحاحائي[١] (٦٨٩هـ / ١٢٩٠م) فقد خصص المؤلف فيها فصلاً من (رحلته المغربية) لدخوله إلى البلد الأمين الذي تم يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة سنة ٦٨٨هـ (٢٣ ديسمبر ١٢٨٩م) والفصل فصل شتاء[٢].

لقد صاغ هذا العالم الجليل بقلمه العربي السيال، مع أنه ينتسب جغرافياً إلى فضاء الأمازيغ، صاغ عبارات تفرض علينا أن نلحظ ما تتضمنه من نثر تاركين النظم لأهل النظم ... وأن نتمعن بعض فقراتها، ولا سيما أن الرحالة المغربي المشهور ابن بطوطة اقتبسها، فكانت مما حيّر تراجمة الرحلة البطوطية من الفرنسيين على الخصوص ...

يقول العبدري:

«وفي يوم التروية (٨ ذي الحجة) دخلنا البلد الأمين مقر المجد الصميم والشرف المكين، فخر بقاع الأرض كلها على مرّ السنين، فأقسم بالله أعظم يمين قسماً لا يكذب: ما حُرم سكناه إلا ذو حظ غبين»!!

وبعد قطعة شعرية لامية في المعنى يقول في أولها:

بلد نحوه يحن الرسولُ
وبه عقلت قديماً عقول

بعد ذلك يعود إلى القول:

يا له مشهداً شهد له التنزيل بالتفضيل، وسما عن أن يقرن بعديل أو مثيل، ما كاده أحد إلا وشبا حدّه فليل، ولا مال إليه بظلم إلا والآفات عليه تميل، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل! بلد كأن نفوس الخلق عجنت من طينته، فالخواطر مشغولة بتصور

(١) الحاحائي: نسبة إلى حاحا جنوب المغرب، ومن المؤلفين من يقول: الحاحي، ومنهم من يقول: الحيحي.

(٢) حقق الرحلة وقدم لها وعلق عليها زميلنا الراحل الأستاذ محمد الفاسي، رئيس جامعة محمد الخامس، ضمن سلسلة الرحلات، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م. لكن كثرة الأخطاء في الطبع حملنا على العودة لمخطوطة الخزانة العامة رقم ١٠١٢د.

زينته، انزعج نحوه عقل طالما سار على هيئته، وابتذل بالسعي بدن نشأ على سكينته، يقطع إليه ميلاً بعد ميل، كم حوى من مآثر لا تحد، كم ضم من مفاخر لا تعد، كم به من أشعث دعوته لا ترد، توده الدنيا وهو يعلم ما يود، مال عنها وهي للعقول تستميل، حَرَم لا تهتك حماه، شرف لا يحط علاه، علم لا يجحد هداه، مَن أَمّه من قفر التيه هداه، ويشفى إن يمسح به العليل، إن حلّه مُناءٍ استقام منه ما أقاد[1]، وإن رآه الصعب سلس وانقاد، يسلو به الفتى عما ألَف واعتاد، ويأمن مكر من مكره أو كاد، ويظل الخائف ما عليه من سبيل، هو ربْع السلامة لا ربع بذي سلم، كم فيه للهدى من رسم وعلم، كم جبر به من الدين ما انثلم! كم أَمّه بالقصد ناقص فلم يلبث أن أمد بالتفضيل! هنيئاً لمن أصبح به قاطِناً، لقد ظفر بالمنى ظاهراً وباطناً، يكفيه فيه من محكم كتابنا ﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾، لا خلف فيه ولا تبديل، ما عسى أن يذكر العارف، ما عسى أن يسرد الواصف، ما عسى أن يمدح السالف والخالف، ما عسى أن ينقص من البحر الغارف، فإن العجز سواء أقصر أم أطيل، ليت شعري هل أعود إليه ثانية! ليت شعري هل تفك هذه النفس العانية! ليت شعري في منى ترفض هذه الفانية! فتصبح الآمال بمكة دانية، وحبذا فيها المعرس والمقيل..

ويأتي بعد هذا بقطعةٍ شعريةٍ يبتدئها بقوله:

ألا ليت شعري هل يساعدني الوقت

وتدني لي الأيام ما نحوه تُقت!!

وكل ما قدمه العبدري من نثر ونظم لم يكن كافياً عنده لأداء الصورة، فأعاد الكرة بأسلوب آخر على الرغم من الظروف التي اقتضت منه تعجيل عودته، معتمداً على المقولة السائدة: "للكلام صور متباينة كالإنسان، ويختلف على قدر اختلافها الاستحسان". ومستأنساً بالمثل الجاري على الألسنة عبر الأعمار: «الجحشَ إذا بذّك الأعيارُ»[2].

(١) أي ما أوجب القود كتابة على ارتكاب الجريمة.

(٢) الجحش: ولد الحمار، وهو منصوب في هذا المثل، ومعناه اركب الجحش لما فاتك الحمير، ويضرب به مثلاً للاكتفاء بالشيء القليل عند فقدان الشيء الكثير. انظر الميداني: مجمع الأمثال، طبع القاهرة ١٩٥٩م تحت رقم ٨٦٣.

إن مكة - شرفها الله - يقول العبدري - من عظيم آيات الله في الأرض الدالة على عظيم قدرته، فإنها بلد يسبي العقول والخلق، ويستولي على قلوبهم، ويتملك رقها من غير سبب ظاهر، والنفوس إليه نزاعة من كل أرض، ولا يدخله أحد إلا أخذ بمجامع قلبه، مع عدم الدواعي إلى ذلك، ولا يفارقه إلا وله إليه حنين، ولو أقام به على الضنك سنين لا يمل سكناه، ولا تضيق النفس بلزوم مغناه، على أنه بوادٍ - كما قال الله عز وجل - غير ذي زرع، وأرضها جدبة كلها حجر، لا ماء بها ولا شجر..!

وبعد عتابٍ لبعض أهلها استدرك ليقول: وقلَّ ما ترى منهم من يتبرم بسكناها، ولا من يسر بالانفصال عنها! وما فارقها أحد إلا وفي نيته الرجوع إليها، وهذا أمر أطبق عليه السالف ممن رآها والخالف، واتفق عليه المؤالف ممن شاهدها والمخالف، لا يخلو فكر من تصورها، ولا خاطر من توهمها، فهي نصب الأعين وحشو القلوب، حكمة من الله، وتصديقاً لوعده لدعوة خليل الله[1]، يحضرها الشوق إليها وهي غائبة! ويدنيها وهي نائية! ويهون ما يتكلف إليها من المشاق، وما يعاني إليها من العناء، فكم من ضعيف يرى في الطريق إليها الموت عياناً، ويبصر فيها الحين مشاهدة، ويلقى فيها الردى مكافحة، يطوي الليالي والأيام وتطويه! وتتقاذف به الفلوات والبيد، يسقط في كل مرحلة جزءٌ من قواه! وينهدّ في كل منهلة جانب من جثته! يقدم على الردى وهو يشاهده، ويترامى الهواجر وصر البكر، يباشره الأذى من غير حائل، وينافحه من غير جنة، رجله مطيته، وأخمصه حذاؤه، وبشرته دثاره! لا زاد إلا ما ترشح به الأكف، ولا ماء إلا ما يتبرّض في المناهل، فلا يصل إليها إلا وهو نضو دنف، قد سامه ليبتاعه التلف، فما هو إلا أن يرده امتداد الأجل إلى أرضه، ويرميه إلى مسقط رأسه، حتى تراه مستعداً لمثلها! مشيح العزم في الإقدام ثانية عليها! لم يثن عزمه ما كابده من البرحاء، ولا يكسر من حده ما شاهده من فرط العناء، فيبتديها جديدة، ويفرّ عنها جذعة، ويستقبلها مستأنفة، كأنه لم يذق لها مرارة، ولا رأى من دلائل نصبها أمارة، وهل هذا إلا صنع إلهي وأمر ربَّاني، ودلالة لا تشوبها شبهة، ولا تمر بها مرية، تقوي بصيرة المستبصر، وتسدد فكرة المتفكر.

---

(١) الإشارة إلى الآية الكريمة: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾.

ولا يفوتني أن أذكّر بأن هذه الفقرة الأخيرة هي التي اقتبسها ابن بطوطة، وحيّرت المترجمين ... ولم يدرك معناها تمام الإدراك إلا المستشرق البريطاني المعروف السير هاميلتون جِبْ عندما أداها على نحو معقول مقبول[1].

وبعد أن يؤدي العبدري وصفاً لموقع مكة المكرمة على نحو ما أداه ابن جبير، ينتقل إلى وصف المسجد الحرام معتمداً على الأزرقي ... ويحكي العبدري، وهو يعدد معالم مكة المكرمة، عن مدرسةٍ على مقربة من باب العمرة، "مدرسة مليحة لها علو وسفل كان يعتزم السكن بها ... وذكر له أن المدرسة لحفيد الشيخ الفقيه محب الدين الطبري ... وهو يقول عن ماء زمزم: إنه دافئ، ولكنه ليس بتلك العذوبة! ومع ذلك فالرحالة العبدري يقول: وبودي لو عوضته عن كل ماء، وغنيت به عن كل مشروب، ووردته دون كل منهل ... وهو يضيف إلى هذا أنه لم يدخل قبة زمزم لكثرة الازدحام ... مما لم يرد به شرع ... وما ليس له أصل ...".

وعلى ذكر الازدحام نراه ينتقد ما تواطأت العامة عليه من مسح مقام إبراهيم بالأيدي! كما انتقد تهالك الناس على الحجر الأسود، وعلى دخول الكعبة: ترى الرجال يتساقطون على النساء، والنساء يتساقطن على الرجال، ويلتفّ بعضهم ببعض، ويتأهبون للقتال ... إن باب الكعبة مرتفع ... فإذا تمكن أحد الحجاج من التسلق تعلق به آخرون ... ورأيت - يقول العبدري - رجلاً ينزو ليجد ما يتعلق به فصادف ساق امرأة فقبض عليه من أعلاه وتعلق به مباشرة من غير حائل!!

وإن الذين يعرفون الحس النقدي للعبدري الحيحي لا يستغربون تشنيعه لما شاهده من قمامات وكناسات وتحريفات كذلك!

ولم ترحم النكتة رحالتنا العبدري الحيحي فقد سمع حاجاً مصرياً ينطق عوض الكاف همزة، يقول في التلبية عوض لبيك اللهم لبيك: لبيأ اللهم لبيأ! يجعل الكافات همزة، فلو سمعته - يقول العبدري - لسمعت كلاماً مضحكاً[2]! قلت: ولو سمع

---

(١) رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، جزء١، ص٣٠٢، تعليق ١٠٧، رقم الإيداع القانوني ٣٢١/١٩٩٧.

(٢) الرحلة، ص ١٢٧.

العبدري إلى هذا الحاج يتلو الآية الكريمة: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾ قلت لو سمعه لأغرق في الضحك!!

ويخصص العبدري كسابقيه حيزاً مهماً للحديث عن المقام؛ مقام إبراهيم، إنه ـ كما قال السابقون ـ حجر فيه أثر قدمي إبراهيم عليه السلام وقف عليه وهو يبني الكعبة فساخت فيه قدماه... معتمداً على ما روي عن البخاري، وما قاله الأزرقي ... قال: وهو في حوض من ساج مربع حوله رصاص، والحوض ملبس بالرصاص، وعليه صندوق ساج يقفل عليه ... وهو حجر رخو مضبب بالذهب من أعلاه وأسفله، ضببه المهدي بألف دينار، وزاد عليه المتوكل ذهباً آخر.

ويشهد العبدري بأن على الحجر في وقت حجه هو شباكاً مقفلاً عليه، ومن ورائه موضع قد حِيز، وجُعل مصلًّى لركعتي الطواف وغيرهما...

ويلاحظ أن العبدري كان يريد أن يحقق حول بعض المعلومات وترك فضاءً من تأليفه لملئه، غير أن زحمة الوقت أعجلته فترك على الصفحة بياضاً...

وقد عني العبدري بالتعليق على الأسماء المتنوعة لمكة المكرمة، وكذا للكعبة المشرفة نقلاً عمن اهتموا بذلك... كما عني بالحديث عن المسجد الحرام ذاته منذ عهد الرسول ﷺ حتى كان عمر بن الخطاب الذي بنى حوله حائطاً، وصنع عثمان كما صنع عمر في أمر توسعة المسجد وإعداد فنائه...

وتحدث عن موقع المزدلفة ومنى وعرفات وعن المسافة بين هذه المسالك ... ويبدو أن العبدري كان يبذل جهده لتقديم بعض الإضافات على ما عرفناه عن هذه البقاع، فهو يتحدث عن مسجد عرفات الذي يعرف بمسجد إبراهيم عليه السلام الذي قلَّ من يعرفه من الحجاج.

قال: وعرفني بالمسجد شيخ حجازي عارف بالبلاد سألته عنه وعن حدود عرفة ونحن في الموقف، وسألته عن العلمين المنصوبين على الطريق في وسط بسيط عرفة، فقال لي: إنما بناهما الأمراء ...

ويعني بالموقف بسيط عرفة عند جبالها الشرقية، ويقول: ويكون بعرفة سوق كبيرة ... يجلب إليها كل شيء، ويكثر بها الطعام الذي يأتي به قوم من اليمن يقال لهم السرو ... ويصفهم العبدري بنعوت لا تقل عن نعوت ابن جبير الذي ظل مرجعاً لكل المغاربة... وهو يقول معلقاً: وكانوا إذ ذاك يصلون على نحو ما ذكر ابن جبير، أما الآن فإنما يقصدون السوق ومنى ثم ينصرفون إلى بلادهم!!

وبالإشارة إلى الحدث الذي ذكرناه عند الكلام عن ابن جبير حول الحرص على الوقفة يوم الجمعة، أفادنا العبدري أن الوقفة كانت في عهده يوم الأربعاء حيث سلم من الخلاف!! ويستطرد هنا بذكر أن الحجاج عام ٦٨٠هـ انقسموا على أنفسهم، فبعضهم وقف يوم الجمعة، وبعضهم يوم السبت!! مغتنماً هذه الفرصة ليردد ما شاع من جهالات حول أن من لم ينفذ إلى الغار الذي دخله رسول الله مع صاحبه أبي بكر فهو ولد زنى!.

وإذا كان ابن جبير قد ترفع في مذكراته عن ذكر الفتن الكبرى التي قد تتعرض لها هذه البقاع في أثناء الحج، فإن العبدري - على نحو ما سنرى من ابن بطوطة - تعرض لوصف أحداث شهدتها تلك البقاع في أعقاب الحج مما كان سبباً ربما في قرار العبدري بأن يعدل عن عزمه في مجاورة الحرم بعد أن كان قد قرر البقاء هناك!!

ويختم العبدري مذكراته عن مكة والمسجد والبيت بفصل فقهي مسهب عن مناسك الحج ابتداءً من شرط الاستطاعة، ومروراً بأركان الحج وسننه ومستحباته، إلى ما ينبغي للحاج من التزام الصمت ما أمكن إلا لحاجة تقتضي الكلام ... وعن السر الذي يكمن في السير السريع عند بعض المواقع، وعن الأصل في رمي الجمار... إلى استحسان أن يخرج المودع للكعبة راجعاً القهقرى على نحو ما يفعل المحب عند وداع محبوبه!!

وتكون الصفحة الأخيرة من رواية العبدري حول حدود الحرم، وهي صفحة مهمة بالنسبة إلى الذين يريدون أن يقتحموا مثل هذه البحوث.

وأخيرا يشكو العبدري من ضعف العلم بتلك الدّيار، مرجِعاً ذلك لضعف العيش بها، والناس مع الدنيا وصاحبها!!.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة العبدري

ابن رُشَيد ٧٢١هـ / ١٣٢١م

ينبغي أن ننوه بالجهد الكبير الذي بذله زميلنا الأستاذ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة من أجل نشر رحلة الحافظ المحدث الخطيب أبي عبدالله محمد بن عمر بن محمد ابن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسين بن محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي المولود بسبتة في رمضان سنة ٦٥٧هـ والمتوفى بفاس في المحرم سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م. كانت الرحلة تحت عنوان : «ملء العَيْبة بما جمع بطول الغَيْبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»، وقد قام بالحج في موسم سنة ٦٨٤هـ وعاد إلى سبتة في جمادى الآخرة سنة ٦٨٦هـ.

وإذ ننوه بذلك الجهد نأسف معه إزاء افتقاد الجزء الخامس من الرحلة الذي يختص بموضوع الحرمين الشريفين ... إذ يذكر ابن رشيد في جملة ما يذكر محاوراته مع الأصحاب ومذكراته... ويطنب عند الحديث عن المناسك وهي غرضه الأول من السفر، فيتحدث عن البيت الحرام، وعن المقام، وعن السعي، والمشعر الحرام (المزدلفة)، وعرفة ومنى، ولا يغفل عما التزمه في برنامجه من التعريف بمن لقي من الرجال أو ذكر من روى لهم وقيد مقالاتهم وأشعارهم من أئمة العلم وأهل الفكر والأذن[١].

ففي الحرمين الشريفين يعرف بثلة من العلماء والمحدثين، منهم :

١ـ عفيف الدين بن الزجاج.

٢ـ أبو القاسم عبدالحميد محمد بن الزجاج.

٣ـ أم الخير أم محمد فاطمة البعلبكية.

٤ـ أبو إسحاق إبراهيم الفاسي.

٥ـ أبو محمد عبدالسلام بن مزروع بن عزاز.

٦ـ أبو نصر الشقاري.

---

(١) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة... تقييد أبي عبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (٧٢١هـ / ١٣٢١م) بفاس، الجزء الثاني، تقديم وتحقيق الدكتور محمد الحبيب الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٢٥-٣٢-٤١.

٧ـ أحمد عثمان المصري.
٨ـ أبو عبدالله بن أبي القاسم.
٩ـ أبو محمد المرجاني.
١٠ـ أبو علي عمر الصواف.
١١ـ أحمد بن أبي بكر بن خليل.
١٢ـ أبو عبدالله بن أبي بكر بن خليل.
١٣ـ أبو اليمن بن عساكر.
١٤ـ أحد العلماء أُنسي اسمه.
١٥ـ أبو محمد البسكري.
١٦ـ أبو الحسن التجاني[١].

ويجب أن نذكر هنا أن رحلة ابن رشيد ظلت مرجعاً لكل الرحالين الذين تمكنوا من الوقوف عليها كلاً أو بعضاً.

ونرى من المفيد أن نعرف بعض الأخبار المهمة التي نقلها إلينا أبو عبدالله بن رُشَيد عن بعض المشايخ الذين لقيهم بمكة المكرمة... ويتعلق الأمر بمعلومة تتعلق باجتياح بغداد من قبل التتر ... غابت عن كل الذين تتبعوا أخبار ذلك الاجتياح الوحشي الشنيع.

وهكذا نقرأ في رحلة ابن بطوطة نقلاً عن ابن جزي ناسخ الرحلة يذكر أن شيخه العلامة الشهير قاضي القضاة أبا البركات ابن الحاج محمد بن محمد بن إبراهيم البلفيقي السلمي قال: إنه سمع أبا عبدالله بن رُشيد يقول: لقيت بمكة المكرمة نور الدين بن الزجاج، وهو من علماء العراق ومعه ابن أخ له، فتفاوضنا الحديث، فقال لي: هلك في فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم، ولم يبق منهم غيري وغير ذلك، وأشار إلى ابن أخيه ...

وكما قلنا، فإن هذه المعلومة غابت عن سائر الذين اهتموا بتاريخ بغداد أيام نكبته على عهد العباسيين[٢].

---

(١) ملء العيبة، ج٢، ص٤١-٤٢، الدار التونسية للنشر، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، تونس.

(٢) رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المجلد الثالث ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، رقم الإيداع القانوني ٣٢١/١٩٩٧م، ص ٢٦-٢٧، تعليق ٤٢.

البادسي ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م

نحن أمام نمط من الرحلة يختلف عما نعرفه من الرحلات، سواء في الحوافز أو الاهتمامات، كما يختلف عن هذه الرحلات في طريقة التدوين، ومدّون هذه الرحلة هو أبو محمد عبدالله بن محمد الأوربي الفاسي الذي حَلاه صاحب «الجِذوة» بقاضي الجماعة . . . ومما ذكره صاحب «السلوة» في تعريفه أنه كان فقيهاً عارفاً بعقد الشروط، قريب الغور، بعيد الشأو . . .

أما صاحب الرحلة فهو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلي البادسي الشهير بابن الغمّاز الذي وصفه ابن خلدون بأنه كبير الأولياء بالمغرب في أول المئة الثامنة، ونعته لسان الدين ابن الخطيب بالإمام العارف، ونعته صاحب «المقصد الشريف» بمعمور الأوقات. أدركه أجله في ليلة الثلاثاء ١١ ربيع الآخر سنة ٧٣٤هـ / ٢٠ نوفمبر ١٣٣٣م، وقد ارتبط اسمه بذكر العارف الكبير أبي الحجاج يوسف الأقصوري دفين الأقصر (جنوب مصر). ولا يهمنا هنا أسلوب مدون الرحلة الذي كان يتتبع من غير ترتيب ظروف الرحلة انطلاقاً من ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم علم الظاهر وعلم الباطن، ولكن الذي يهمنا أن نسجل لقطات من الرحلة مما يتصل بالحرمين الشريفين ومكة المكرمة على الخصوص.

وقد ذكر الأوربي أن سبب قيام البادسي بحج بيت الله كان استجابة لما أمره به الرسول ﷺ في أثناء رؤية له في المنام . . .

وقصدت ذكر هذا بداية لتأكيد أن هذه الرحلة من نمط غير الأنماط التي عشناها. وهكذا نجد أن الباعث له على الرحلة كانت الرغبة في تأدية فريضة الحج وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

لقد بدأ رحلته نحو الحجاز في شهر المحرم من سنة ٧٠٥هـ / أغسطس ١٣٠٥م في عدد من الذين توجهوا معه إلى الديار الحجازية . . حيث التحقوا بالركب الحجازي

الرسمي في بجاية على ما يحكيه خديمه أبو زكرياء يحيى الشاكري الذي رافق شيخه أبا يعقوب، الذي لم يزل في درب الحجاز يحمل ركوة الشيخ في يده عساه يحتاج إلى الماء . . .

وعلى نحو ما نعتوه من أنه "معمور الأوقات" فإنه لم يترك في أثناء رحلته شيئاً من أوراده كلها؛ لا صلاةً ولا صوماً ولا تلاوة قرآن ولا شيئاً مما كان يفعله وهو مقيم . . .

لقد كان قاسياً على نفسه في هذه الرحلة، ويكفي أن نذكر أنه ما أفطر مدة غيبته في الحجاز غير أيام الأعياد وغير يوم بين مكة والمدينة كان أصاب الناسَ فيه حرٌّ شديدٌ، ومات من الناس ألفان ونيّف، فأفطر الشيخ في ذلك اليوم (يونيو – يوليو ١٣٠٦م) .

ويحكي خديمه الذي لازمه في أثناء حجتيه معاً أن الشيخ لم يفتر في كل الأحوال عن العبادة والطواف قائلاً : « لما دخلنا مكة كان الشيخ سيدي يعقوب يطوف الليل كله وما رأيته نام فيها ليلاً أصلاً »!!

وعلاوةً على حرص الشيخ أبي يعقوب في التعرف إلى رجال الخير من الأحياء، وفي زيارة مشاهد الأعلام من الأموات وجدناه وهو بمكة المكرمة يتردد مراراً على مقابر المعلاة، يترحم هناك على من آوته تلك التربة من عيون الرجال والنساء، ومن خلال بعض الإشارات الواردة في الرحلة تبين اهتمام الشيخ بالجانب المعرفي، حيث نراه يجلس إلى المذاكرة والمدارسة . . .(١) .

---

(١) المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف، تاليف عبد الحق إسماعيل البادسي (٧١١هـ / ١٣١١م)، تحقيق سعيد أحمد أعراب ١٤٢٠هـ / ١٩٨٢م، المطبعة الملكية الرباط . أحمد البوعناني : حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، ج ١، ص ٣٠ وما بعدها، أدب الرحلات في العصر المريني، تاليف الحسن الشاهدي، ج٢، منشورات عكاظ، ١٩٩٠م، نسخ عن مكتبة كلية الآداب، بني ملال .

التجيبي ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م

وعن القاسم بن يوسف التجيبي السبتي[١] المتوفى ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م في تأليفه «مستفاد الرحلة والاغتراب» الذي ينعت بأنه كتاب شامخ القدر، فقد كان في صدر ما قاله عن مكة المكرمة أنه قصدها عن طريق الموقع الجغرافي المعروف بالتَّنْعِيم[٢] الآتي الذكر، إلى أن نزلوا ليلة السبت الخامس عشر من رمضان سنة ٦٩٦هـ، بموافقة ليلة السادس من شهر يوليو العجمي الشمسي، على الباب المعروف على عهد التجيبي باسم باب الشبيكة وبباب العمرة أيضاً، وهو بأسفل مكة عند ثنية كُدَى ... ومن هذه الثنية دخل رسول الله ﷺ مكة المشرفة يوم الفتح ...

وقد دخل التجيبي مكة ليلاً ... ولما وصل إلى الحرم الشريف من باب بني شيبة اقتداءً بفعل رسول الله ﷺ قصد الحَجَر وقبّله، وجعل البيت عن يساره، وشرع في الطواف ... ويذكر التجيبي أن بعض الأصحاب في القافلة من المغرب الأقصى كان قد حج قديماً، فغلب عليه (هذه المرة) حال رؤية المنزل، فصاح صيحة عظيمة، فأدهشته صيحة المغربي، وأخذت بمجامع قلبه. فلما أكمل أسبوعه قصد مقام إبراهيم عليه السلام فركع خلفه ركعتي الطواف ودعا الله...

ثم مر بين الساريتين اللتين أقيمتا علماً لطريق رسول الله ﷺ، وخرج من باب الصفا، وكان يعرف قديماً بباب بني مخزوم... ويستمر التجيبي في وصف المسعى مغتنماً الفرصة ليلاحظ أن الميل الأخضر نُحّي عن موضعه القديم... ويؤكد أن المسافة بين الصفاو المروة نحو سبعمئة وثمانين ذراعاً... ويختم بأنه حلق رأسه عند المروة وتحلل من عمرته.

---

(١) التأليف من تحقيق وإعداد الزميل التونسي د. عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس ١٣٩٨/٩٧٥.

(٢) من التنعيم يحرم معظم الحجاج للعمرة، وقد يحرم بعضهم من الجعرانة.

وقد كان نزول التجيبي بدارٍ ملاصقة لباب الصفا، قبل أن ينتقل إلى دار بأجياد، وكان في حائطها القبلي طاق فيه شباك جديد يبصر القاعد خلف الشباك البيت المعظم ويلوح له ويقابل الحجر الأسود... وهنا يأتي بقصيدة في وصف البيت الشريف للعلامة الأديب أبي القاسم خلف الغافقي يقول في أولها :

الله أكبر لاح بيت إلاهي
متسربلاً خلع السنا والجاه
مثل العروس بدا بصفحة خدها
خال لديه شفاء ضم شفاه!

وفي الفصل الخامس يذكر مكة المكرمة والمحفوظ من أسمائها ونبذةً من مشهور فضائلها وفضائل الحرم الشريف، وقد ردد التجيبي المعلومات التي عرفناها عن أسلافه ممن تحدثوا عن الموضوع ... كما يردد الكلام عن حدود الحرم التي تختلف قرباً وبعداً من مكة المعظمة، حد الحرم من طريق اليمن على سبعة أميال، ومن طريق جدة على عشرة أميال، ومن طريق الطائف على أحد عشر ميلاً منها، ومن طريق العراق على سبعة أميال، ومن طريق الجعرانة على تسعة أميال.

وعند حديثه عن فضائل الحرم سنراه يرجع إلى ما يحكيه الأزرقي السالف الذكر عند ابن جبير ...

ويخصص التجيبي فصلاً بكامله للحديث عن مسجد مكة المعظمة، ووصف مكة والمشهور من أسمائها ومن ابتدأ بناءها، وذكر الحجر الأسود، وذكر الملتزم والحِجْر والميزاب والركن اليماني، وفضل الطواف بالكعبة والنظر إليها، وذكر زمزم ومقام إبراهيم، وغير ذلك من المواقع الشريفة التي اشتمل عليها المسجد الحرام ...

وهكذا يتحدث عن ساحة المسجد الحرام كيف كانت قبل الإسلام، وفي عهد النبي ﷺ، وأن زمزم كانت خارج المسجد إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب الذي وسعه واشترى العقار من الذين كانوا يجاورون المسجد ... وقد قام الخليفة عثمان أيضاً بعملية توسيع على نحو ما فعل سلفه ... وكما سيفعل عبدالله بن الزبير.

ثم لما كان زمن عبد الملك بن مروان نفّذ إليه أساطين الرخام ... وترك في كل أسطوانة خمسين مثقالاً من ذهب، وزاد في علو جدرانه وسقفه بالسياج المزخرف.

ولما كان زمن ابنه الوليد ... قام بعمل أحكم من عمل والده ... وهو أول من عمل الفسيفساء، التي عاين التجيبي بقيةً منها قريباً من باب بني شيبة، كما جعل الوليد للمسجد شرفات(١).

ثم لما حج المهدي أبو عبد الله محمد بن المنصور سنة ستين ومئة اشترى من الناس دوراً كثيرة وزادها فيه... ثم لما حج سنة أربع وستين ومئة أحب أن تكون الكعبة متوسطة في المسجد الحرام فأحضر المهندسين وشاورهم فقدر ذلك، واشتريت الدور، وجلبت الأساطين في البحر إلى جدة(٢)، ثم جُرَّت على العجل إلى مكة، ووسِّطت الكعبة...

وتوفي المهدي سنة تسع وستين ومئة، فعُمل الباقي أيام ابنه أبي محمد موسى الهادي...

ثم لما كانت أيام المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد أبي العباس أحمد بن الموفق زاد جعفر بن موسى فيه قرب دار زبيدة زيادة حسنة، قال التجيبي: ولم يبلغنا أن أحداً زاد فيه شيئاً بعد ذلك ... وبعد هذا يستمر في النقل عن الأزرقي وينقل عن ابن جبير ... وقد عد السواري الرخامية بنفسه أربعمئة وإحدى وسبعين سارية. وقد نقل التجيبي عن أبي العباس بن عبدالرؤوف تفصيلاً دقيقاً عن عدد السواري بما فيها السواري الجصية، وبما فيها سارية رخامية حمراء رآها قرب دار الندوة، ناقلاً عن ابن عبدالرؤوف كلاماً حولها أيام النبي ﷺ، لكنه عقَّب على ذلك بقوله: إنه لم تكن في المسجد أساطين على عهد الرسول ﷺ ...

ويستمر التجيبي في كلامه ليتحدث عن عدد أبواب المسجد الحرام ... معلقاً على ما قيل عن بعض الأبواب ... وخاصة باب بني شيبة الذي يدخل منه الخلفاء بعد رسول

---

(١) لا شك عندي في استعانة الدولة الإسلامية بالخبرة الأجنبية حول الموضوع على نحو ما تم بالنسبة إلى مسجد المدينة المنورة ومسجد دمشق ... رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٦، تعليق ١٧٦.

(٢) التعليق السابق.

الله ﷺ ... ناقلاً بعض الأخبار عن ابن عساكر الدمشقي ...

ويتحدث عن دار الندوة التي باعها حكيم بن حزام بمئة ألف درهم في زمن معاوية، ولما قيل له: أبعت مكرمة آبائك؟ أجاب حكيم: ذهبت المكارم إلا بالتقوى!!

وفي حديثه عن باب العمرة قال: إن عليه يخرج المعتمرون الآن إلى التنعيم، وبإزائه مدرسة هائلة حافلة، بديعة الشكل مزخرفة البناء والخشب، أمر ببنائها الأجلُّ الهمام ملك اليمن نور الدين عمر الملقب بالمنصور بن علي بن رسول ... والد الملك شمس الدين الملقب بالمظفر يوسف رحمه الله. وقد وقف عليها أوقافاً جمة للمتفقهين على مذهب الإمام الشافعي(١).

وقد علق على باب إبراهيم بأن عليه قبة عظيمة متقنة الصنعة محكمة البناء، وهو - أي الباب - نسبة إلى أحد عوام المكيين والقادمين عليهم ... قال: وبمقربة من هذا الباب بئر تنسب إلى إبراهيم أيضاً ...

ومنها أبواب أجياد التي يقابل أحدها دار أبي جهل بن هشام عدو الإسلام.

ثم باب الصفا الذي ينفتح على خمسة أقواس ... وهو أكبر الأبواب كلّها، وعليه يخرج إلى المسعى على نحو ما فعل الرسول ﷺ. قال التجيبي: ومن هذا الباب كان أكثر دخولي إلى المسجد الحرام مدة إقامتي بمكة. ثم باب القائد الذي، حسبما بلغه، أحدثت بإزائه ميضأة في أحواز ست وتسعين وستمئة، أمر ببنائها ملك مصر. والله يختص برحمته من يشاء!

ويختم التجيبي بذكر باب العباس وباب علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

ويتحدث عن الكعبة الحرام بمثل ما تحدث به أسلافه، كما يتحدث عن أسمائها المتعددة، ومنها البيت العتيق ... ويتحدث عن مراحل بنائها، ومن أسهم في البناء عند انهدامه بعد إبراهيم عليه السلام.

وينقل التجيبي بعض معلوماته مباشرة عن تاج الدين أبي الحسن علي الحسيني العراقي بقراءته عليه بدار الحديث النبيهية من ثغر الإسكندرية في شهر ربيع الأول

---

(١) هي المدرسة نفسها التي سيرد ذكرها عند ابن بطوطة تحت اسم (المظفرية).

المبارك من سنة ست وتسعين وستمئة . . مختتماً روايته بذكر الحديث المروي عن السيدة عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لهدمت البيت حتى أدخل فيه ما أخرجوا منه في الحِجْر، وإنهم عجزوا عن نفقته، وأخرجوا طائفة منه في الحِجْر، ووضعتهُ على أساس إبراهيم وألزقته بالأرض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً"(١).

ويتتبع التجيبي الحديث عن تطور بناء الكعبة معتمداً على ما اطلع عليه... وهنا يذكر أنه لما غلب الحجاج بن يوسف على مكة نقض ما يلي الحِجْر من البيت وأعاده إلى البناء الأول على أساس قريش... وسد الباب الذي في ظهره وترك سائره على ما بناه عبدالله بن الزبير... قال: ولما حج أبو جعفر المنصور همَّ بأن يرد البيت على ما بناه ابن الزبير، فشاور الإمام مالكاً، فقال له: أنشدك بالله ألاَّ تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك!

وذكر القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه «عارضة الأحوذي» أن هارون الرشيد همَّ أيضاً به، فصرفه الإمام مالك...

ويعلق التجيبي على هذا بأن مالكاً اقتدى بعبد الله بن عباس الذي كان قد أشار على ابن الزبير ألا يفعل ...

ومن خلال ما يرويه حول الموضوع يكشف لنا عن بعض المجالس العلمية التي كانت تعرف بمكة المكرمة مثل مجلس الإمام فخر الدين أبي عمرو التوزري ... ومجلس الإمام مفتي الحجيج رضي الدين أبي إسحاق بن محمد الطبري ثم المكي الذي كان مجلسه قبالة الحِجْر والميزاب، ومجلس عماد الدين أبي محمد المكي بالحرم الشريف.

وفي حديث التجيبي عن بعض الأعمدة التي يقوم عليها سقف البيت الشريف قال: إنها كانت مغطاة بصفائح الفضة، ثم كشطها الشريف أبو نُمَيّ وتصرَّف في فضتها ... وبقيت منها الآن بقية مسامير الفضة التي كانت تضبط الصفائح، وتوجد في أعلى البيت الشريف ما يسميه "روازق" أربع لدخول الضوء.

---

(١) يعني يلزق بابه بالأرض ولا يبقى عالياً. وهذا الحديث عظيم في باب الاسترشاد بالظروف المحيطة بالتشريعات.

ونقلاً عن الأزرقي يذكر أن أول سيدة عربية كست البيت الحرام بالديباج كانت السيدة نثيلة بنت جناب بن حبيب.

ويتحدث عن باب الكعبة المصفح بصفائح الفضة المذهبة ... الذي له حلقتان من فضة غير مذهبة ... مؤكداً أن هذا الباب يحمل كتابة بالذهب يقرؤها كل أحد يحسن القراءة من المشارقة والمغاربة، هذا نصها على ما سبق القول:

مما أمر بعمله عبدالله وخليفته أبو عبدالله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين صلى الله عليه وسلم وعلى آبائه الطاهرين وخلد ميراث النبوة لديه، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين سنة خمسين وخمسمئة.

وفي مذكراته عن مكة المكرمة يقول: إن يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رمضان المعظم من سنة (٦٩٦هـ) أول جمعة بمكة المكرمة، في هذا اليوم قرب سدنة البيت الشريف (بنو شيبة) المنبر حتى ألزقوا أدراجه بالكعبة المعظمة ... ويغتنمها التجيبي فرصة لوصف المنبر بأنه واسع بحيث يمكن أن يصعد على كل درجة منها أربعة أنفس في صف واحد، وأن عدد أدراجه تسعة، وهنا يصف طريقة دخول البيت من لدن زعيم بني شيبة ... يقعد في أسْكُفَّته[١] المباركة. ويخبرنا التجيبي أنه ممن أنعم الله عليهم بالدخول إلى البيت، وليس على أحد بأس أن يصلي في أي نواحي البيت شاء، ولم يفت التجيبي أن ينتقد بعض القائمين على البيت في إلحاحهم على الزائر حتى "يؤدي" لهم أجراً!! ولا يتركونه يتفرغ للانقطاع! هذا إلى مؤاخذات أخرى على بني شيبة على عهده في استغلال سذاجة العوام فيما سموه العروة الوثقى وسُرَّة الدنيا!! وهو يدعو الله أن "يبسط على الشيبيين حتى يغنيهم عن هذا التكسب الشنيع"!

ويتحدث التجيبي عن تخصيص حصة من الزمان لدخول النساء للبيت الشريف ليقمن به، ولكن لفترة أقل من مقام الذكور! والتجيبي يسمي اليمنيين الذين نعتهم ابن جبير بالسرو ينعتهم بالزّيلع (لموقع جغرافي معروف باليمن)، وهو يتحدث عنهم بأحاديث غريبة ربما كانت أغرب مما رواه أسلافه، وخاصة عند دخولهم البيت العتيق.

---

(١) الأُسْكُفَّة: عتبة الباب ومدخله.

وفي حديثه عن الحجر الأسود نجده ينقل معلومات الأزرقي ... ومن الطريف جداً أن نقرأ في «مستفاد الرحلة» للتجيبي ما سيؤكد له ما يرويه ابن بطوطة من أن بعض المغاربة كانوا من جملة المقاتلين بالكعبة ضد القرامطة؛ حيث يقول التجيبي بالحرف: «وشهد وقعة القرمطي بمكة من أهل الأندلس ثم من أهل قرطبة سعدان بن معاوية، فأصابته في وجهه ضربة سيف شقت خده وعينه، وكان حافظاً للمسائل رحمه الله..»(١).

ويذكر بهذه المناسبة أن تصنيفاً ألف في المناسك في ذلك الزمان الذي اختفى فيه الحجر الأسود، قال مؤلفه فيه: «وليستلم الموضع الذي كان فيه الحجر ...»!

ويفيد التجيبي أيضاً أن المغاربة كانوا حاضرين بمكة أيضاً يوم أُرجع الحجر الأسود إلى موضعه من أهل الأندلس وأهل قرطبة، ويذكر هنا اسم أبي عبدالله محمد بن عبدالملك اللخمي على ما ذكره ابن الفرضي(٢).

ويفيدنا ـ إضافة إلى هذا من أحداث مكة ـ أن رجل سوء ممن كان وصل في قافلة مصر سنة ثلاث عشرة وأربعمئة انتهز فرصة انشغال الناس فانتزع الحجر وولى هارباً، لكن الناس بادروه وقتل مكانه(٣)!

ويتحدث عن تقبيل الحجر الأسود مردداً قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني لأقبلك وأنا أعلم ما أنت! ولكني رأيت رسول الله يقبلك».

ثم يتحدث عن الملتزم، ويشكر الله على أنه وقف عنده على نحو ما كان يفعله الرسول عليه السلام ...

وينتقل بعد هذا للحديث عن الحطيم؛ ما بين باب الكعبة إلى مقام إبراهيم في قول الإمام مالك حيث ينحطم الناس يتوسلون ويدعون ويلتزمون ...(٤).

وبعد هذا يتفرغ لذكر الحِجْر (بكسر الحاء وتسكين الجيم) والميزاب. وحجر الكعبة

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٣١٤، تعليق رقم ١٢٧.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ج٢، ص١١٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩، ص ٣٣٢. ابن العماد: الشذرات ٣، ص ١٩٧.

(٤) تقدّم رأي الإدريسي حول الحطيم.

قريب من نصف دائرة ... وعرض هذا الحِجْر من الشرق إلى الغرب أربع وعشرون ذراعاً ... جدرانه كلها من رخام مجزع قد أحكم إلصاقه بالقضبان الصفر المذهبة، وارتفاع حائطه من نواحيه كلها خمسة أشبار.

وفي حديث عن الميزاب يقول: إنه كان في زمانه من صفر مذهب، وسعته نحو الشبر. يخرج عن الحائط بنحو أربع أذرع، ويقابله في الأرض رخامتان خضراوان يقع عليهما ماؤه عند نزول المطر ...

ويتذكر التجيبي أن رمضان في السنة المذكورة ٦٩٦هـ شاهد نزول مطر مبارك بعد الظهر، فقام ليتعرض للمطر النازل عبر الميزاب. وقد كان رمضان من السنة المذكورة يصادف منتصف شهر يوليو ١٢٩٧م؛ حيث كان التجيبي يقوم بالطواف حول الكعبة وسط أفواج من المعتمرين الداعين والمتوسلين والراجين.

ويتحدث التجيبي كذلك عن الركن اليماني الذي أخذ اسمه من الرجل الذي بناه من أهل اليمن، وكان يعرف بأُبَيٍّ بن سالم... وكان استلام هذا الركن مأثوراً عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين. ومن الطريف أن تستمع إلى قصة يرويها التجيبي عن مصعب بن الزبير أنه أخذ بالركن اليماني وتوسل قائلاً: اللهم إني أسألك بقدرتك على كل شيء ألا تميتني حتى توليني العراق وتزوجني سُكينة بنت الحسين!!

وقد ترجم التجيبي لسكينة التي توفيت بالمدينة في خلافة هشام يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول من سنة ١١٧هـ.

وقد ذكر عن مقام إبراهيم ـ من جملة ما ذكر ـ أنه حجر لونه بين الدكنة والحمرة منقّط بنقط سود، وله رأسان، وأعلاه أوسع قليلاً من أسفله، ووسطه مخروم جداً يضيق عن أسفله، وهو مكسو بغاشية من فضة مذهبة منقوشة، وفي الشق الواحد من الغاشية مكتوب سبحان الله، وفي الثاني: والحمد لله، وفي الثالث: ولا إله إلى إلا الله، وفي الرابع: والله أكبر.

وقد انمحى أثر القدمين المباركين واخلولق، ولم يبق للأصابع أثر، وإنما فيه الآن حفرتان ... وعليه قفل مفتاحه بيد بني شيبة ...

وقد كان السيل العظيم المعروف بسيل أم نهشل قد جرف هذا المقام من موضعه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أعاده إلى موضعه اعتماداً على إفادات مشيخة مكة.

وخلف هذا المقام صلى الرسول ﷺ ركعتي الطواف يوم الفتح، وفي حجة الوداع كذلك، وهناك يقف اليوم للصلاة المكتوبة إمام أصحاب الإمام الشافعي رضي الدين الطبري السالف الذكر...

وبعد هذا يستمر في الترتيب الذي نعرفه عن صلاة الأئمة باستثناء صلاة المغرب التي يصليها الأئمة الأربعة جميعاً في وقت واحد على ما سنعرفه في رحلة ابن بطوطة.

ويعلق التجيبي على هذه العادات بقوله: وهذا كله من البدع التي حدثت بهذا الحرم الشريف، ولم يكن فيه في زمن السلف الصالح شيء من هذا، وكان الحق أن يجتمع الناس كلهم خلف إمام واحد(١) !!

وينعت التجيبي مذهب الزيدية بنعتٍ فيه قساوة، مؤكداً أن والي مكة الشريف أبا نُمَيّ منهم مع قرابته وحاشيته!...

وبإزاء مقام إبراهيم يكون منبر الخطيب في سائر أيام الجمعة .... إلى آخر ما يرويه الأزرقي...

وقد ساق التجيبي نصاً عن القاضي أبي بكر بن العربي حول زمزم لما كان بمكة في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمئة (ديسمبر ١٠٩٦م)، وهو ما أوردناه سابقاً عند الحديث عن رحلة الإمام ابن العربي.

ويتحدث التجيبي عن بيت زُبيدة الذي بنته على مقربة من قبة زمزم، كما يتحدث عن قبة الشراب أو قبة العباس التي يجاورها بيت كان يلازمه عماد الدين أبو محمد المكي شيخ التجيبي؛ حيث يُسمع فيه الحديث للواردين عليه.

هذا إلى القبة المعروفة بقبة اليهودية ... التي يوجد بها المصحف العتيق المنسوب إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه على ما أخبره به من يعتد به من المكيين والقادمين عليهم ... ويذكر ابن جبير ـ كما أسلفنا ـ أن المصحف بخط زيد بن ثابت.

---

(١) هذا ما سيستقر عليه بظهور المملكة العربية السعودية.

ويذكر التجيبي أنه دخل هذه القبة يوم الجمعة ١٢ شوال سنة ٦٩٦هـ (٣ أغسطس ١٢٩٧م) وعاين المصحف بها ... وتبرك بالقراءة فيه والنظر إليه. وقد أصابه بلل السيل العظيم بعد التسعين وستمئة، أذهب به جملة من رسوم الخط، ومنه أوراق قد جبرت بخط محدث، وجميعه عُرِّي عن الضبط، وفيه أحرف يسيرة معجمة بالنقط، رأى منها الفاء بنقطة واحدة من فوق على عادة أهل المشرق في ذلك إلى الآن، يقول التجيبي[1].

كما عاين لفظ (الربوا) هكذا مكتوبة بالواو والألف، ورأى في أول السور عدد آي السورة بالخط القديم. ورأى على ظهر المصحف كتابة بخط محدث، وهي: كتب عام ثمانية عشر لوفاة رسول الله، قال: وخط هذا المصحف يشبه الخط الذي يدعى عندنا الكوفي، وكل قائمة من أوراقه جلد كبش صحيح، قد سويت أطرافه وبقي بكماله ...

إلى آخر التفاصيل التي أوردها التجيبي عن مصحف عثمان هذا ... وهنا يذكرنا التجيبي بالحديث الشريف الذي يذكر أن المسجد الحرام أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها في جميع أقطار الدنيا بالطول والعرض على حد تعبير التجيبي ...

وينهي هذا الفصل بتكملة ذكر منها ما عاينه من مشاهد ومزارات بمكة المكرمة وبخارج مكة المكرمة في موسم سنة ٦٩٦هـ:

* البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وقد دخله كما يقول يوم الثلاثاء السادس عشر من شوال سنة ست المذكورة، وشاهد مسقط رأسه في هذا البيت.

* منزل أم المؤمنين خديجة، وهو البيت الذي كان يسكنه النبي ﷺ معها، وفيه ابتنى، وفيه ولدت أولادها منه، ومنه هاجر إلى المدينة ....

* ومنها (قبة الوحي) وموضع متهجده، وقبة مولد السيدة فاطمة الزهراء ... بل ومولد الحسن والحسين على ما ينقله عن ابن جبير الذي لم يسلم من اعتراض التجيبي عليه بحجة أن الحسنين ولدا بالمدينة وليس بمكة!

* دار أبي بكر الصديق، وموضع ميلاد علي بن أبي طالب، ودار الأرقم بن أبي الأرقم ... التي تصيّرت للخيزران من قبل المهدي أمير المؤمنين، وكانت تصيرت لوالده المنصور

---

(١) مستفاد الرحلة، المصدر السابق، ص٣٢٧.

الذي اشتراها من أولاد الأرقم بن أبي الأرقم ...

* مقبرة المعلاة المعروفة التي تحتضن رفات عدد من الصحابة والتابعين ورجال الفضل، وقد زارها صحبة عدد من الصلحاء المجاورين، ولا بد أن نجد هنا ذكراً لأخبار الحجاج بن يوسف الثقفي وضحاياه من أمثال عبد الله بن الزبير ... إلى جانب آخرين أمثال الفضيل بن عياض الذي نقش اسمه على حجر، وقبر أبي القاسم القشيري وقد كتب اسمه كذلك في لوح حجر ...

ويتخلص التجيبي بعد مقبرة المعلّى إلى ذكر منى التي تبعد عن مكة بنحو أربعة أميال ... وقد زارها يوم السبت ٢٥ من ذي القعدة سنة ٦٩٦هـ صحبة عماد الدين أبي محمد المكي الذي كان دليلهم للوقوف على مشاهدها ... ثم مسجد الخيف الذي يتخذه الناس محل مناظرة ...

وغار (المرسلات) حيث نزلت سورة والمرسلات عرفاً ... وقد زاره التجيبي صحبة عماد الدين كذلك المكي.

وكان من المشاهد مسجد الكبش ... الذي ذكره الأزرقي ... ويذكر أنه هناك نزل الكبش الذي فدى الله تعالى به أحد ولدي إبراهيم ...

ومنها مسجد عند جمْرة العقبة ... وموضع هذه الجمرة مبلط بالحجارة، بلطته زُبيدة ... أنفقت فيه أموالاً عظيمةً وأوسعته لحاج بيت الله، ولها في طريق الحجاز آثار حسنة ومصانع (خزانات الماء) جليلة لم يسبقها أحد إلى مثلها، وسقت أهل مكة بعد أن كانت الراوية بدينار ...! قال لها وكيلها - وقد أمرته أن يعمل بعض تلك المصانع: تلزمك يا سيدتي نفقة كثيرة، فقالت: اعمل، ولو كانت ضربة فاس بدينار!!

وعاد التجيبي إلى مكة مع صلاة الظهر من يوم السبت المذكور ٢٥ من ذي القعدة ... ليقف على مسجد في طريق التنعيم حيث المتكأ الذي كان يستريح عنده الرسول عليه السلام، وبمقربة من هذا الموضع آبار الزاهد التي منها بئر عسيلة التي تفضل على ماء النيل!!

ومن هنا يخلص إلى ذكر بعض جبال مكة معتمداً دائماً على الأزرقي في أخبار مكة

... جبل أبي قبيس، اسم لرجل كان يعمره ... وكم فيه من آثار يقصد الناس زيارتها، وجبل ثور الذي يحتضن الغار المبارك المذكور في القرآن الكريم والذي آوى الرسول ومعه أبو بكر الصديق، وبينه وبين مكة نحو أربعة أميال. وقد صعد إليه التجيبي يوم الخميس ١٨ شوال سنة ٦٩٦هـ، وهو عسير الدخول. ثم جبل حراء المشرف على منى، وبينه وبين مكة ثلاثة أميال أيضاً ... وقد صعده التجيبي يوم الاثنين ٢٢ من شوال سنة ٦٩٦هـ، ودخل الغار الذي كان النبي ﷺ يتعبد فيه، وهو سهل الدخول ليس كسابقه... ومن المشاهد بها بمقربة من المتكأ جبال أربعة عليها أعلام من الحجارة يقولون: إنها الجبال التي جعل عليها إبراهيم أجزاء الطير، ثم دعاهن ... وبمقربة منها جبل يدعونه بالبكّاء ... وتحته كانت سقاية ابن الجراح ...

وبعد أن ينهي التجيبي حديثه عن معالم مكة ومواقعها الجغرافية يخصص فصولاً مسهبة للهدف الثاني من الحج الذي لا يقل عن الهدف الأول ... ويتعلق الأمر بالتعرف إلى الجانب الثقافي بمكة المكرمة والحياة العلمية بها... أو بالأحرى الحصول على الإجازات العلمية من مشايخ مكة المكرمة التي كانت مجمعاً لرجال الفكر والبحث، وملاذاً لرجال الفضل والخير ...

وهكذا، فعلاوة على ما أسلفناه في تلك اللائحة الطويلة عن "الذين قاموا برحلة حج وأخذوا في مكة المكرمة عن فلان وفلان" نجد التجيبي في رحلته يؤكد أن المجتمع المكي كان حافلاً بجوه العلمي إلى جانب احتفائه بالمناسك، ومن هنا نجد الرحالة المغربي يخصص فصلاً مسهباً يذكر فيه من تيسَّر لقاؤه والأخذ عنه بالبلد الأمين ونيل الإجازة منه.

لقد كان من رجال مكة وجيران بيت الله:

أولاً: أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي الشافعي المكي المنعوت بالعماد المشهور أبوه بالطبري ... وكان صادق اللهجة، صحيح المذهب، حسن الخلق، نظيف الملبس، له بداخل الحرم الشريف بيت خلف قبة الشراب، يسمع فيه الأحاديث النبوية على ما أشار إليه من معلومات سابقة ... ترجمه ترجمة حافلة، وذكر من سمع منهم، كما اهتم بمروياته جميعها، أي: المواد الدراسية التي كان يلقنها، والتي

كان منها كتاب (المعلم بقواعد مسلم للمازري)...

ولقد ختم ترجمة شيخه بالإفادة بأن هذا الشيخ أجازه بجميع ما تجوز له وعنه روايته غير مرة ...

ثانياً: أبوالحسين يحيى، وتسمى أخيراً بمحمد بن علي بن الحسين بن علي المكي المعروف أبوه بالطبري، وهو أخو شيخه عماد الدين السالف الذكر. وقد لقيه أول مرة في بيت أخيه العماد في شهر ذي الحجة سنة ٦٩٦هـ، وكان قبل هذا التاريخ في بعض أودية مكة في مكان يعرف بنخلة، لهم هناك حديقةٌ جيدةٌ فيها نخل وكرم عنب وليمون، وهو فيها أكثر أوقاته، فأجازنا بجميع ما تجوز له روايته وكتب بذلك للتجيبي بخطه ... وقد عدد التجيبي سماعات شيخه.

ثالثاً: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري المحتد، المكي الدار والنشأة والمولد، المنعوت بالرضيّ وبالبرهان أيضاً، وهو مفتي أصحاب الإمام الشافعي بالمسجد الحرام وإمامهم بالمقام، أحد فقهاء مكة، وأحد مفتي الحجيج بمنى وعرفات ... كان وقور المجلس، نظيف الملبس، صبوراً على الجلوس للغرباء، كثير التحمل لجفائهم .. وبعد أن يعدد مشايخ أستاذه يذكر أنه منسوب إلى طبرية مدينة الشام على عهده ...

رابعاً: جار الله ونزيل حرمه الأمين أبو عمرو عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر ابن محمد بن داود التوزري المالكي المنعوت بالفخر، أحد المجاورين ونبلاء المحدثين ... مشايخه يزيدون على ألف شيخ ..! وبعد أن يعدد مروياته يذكر أن هذا الشيخ أجازه بجميع ما تجوز له وعنه روايته، وتلفظ بذلك، وكتبه بخط يده ..

خامساً: جار الله أبو الفداء إسماعيل بن إبراهيم بن أبي الحسين المصري المنعوت بالظهر ... درس عليه التجيبي وعلى التوزري مجتمعين ...

وهذا الشيخ كذلك أجاز التجيبي بجميع ما تجوز له روايته، وكتب له بذلك بخط يده.

سادساً: جار الله أبو محمد عبدالله بن عبدالحق بن عبدالله بن عبدالأحد بن علي

القرشي ثم المخزومي، الشافعي مذهباً، الدلاصي مولداً، المنعوت بالعفيف، أحد الأئمة الفضلاء، المشهور بعلم القراءات ... ويخبرنا التجيبي بأن شيخه الدلاصي أجازه بجميع ما تجوز له روايته وتلفظ بذلك وكتب بخطه.

سابعاً: أبو عبدالله محمد بن غالب بن يوسف بن غالب بن محمد بن شعبة الشافعي الأنصاري الأندلسي الجياني المنعوت بالشمس، نزيل مكة، من المشهورين بالفضل والدين ... وقد أجازه هذا الشيخ أيضاً بجميع ما تجوز له وعنه روايته وكتبه له بخطه ... وقد كان كتب للجياني بذلك في مكة المعظمة من ذي قبل.

ويذكر بعد هذه الكوكبة من أعلام مكة المكرمة في أواخر القرن السابع الهجري بعض الشخصيات التي صادفها بمكة من أمثال نجم الدين العجمي ... وأمثال جار الله أبي عبدالله بن المطرف الأندلسي الإشبيلي الذي لقيه التجيبي برباط الموفق بمكة ... وأمثال ابن صدقة الذي لقيه التجيبي في بيت شيخه العماد المكي السالف الذكر.

وبعد أن يجدد الحديث عن أحوال مكة المكرمة في رمضان ... وتوزيع ماء زمزم على الحاضرين في المسجد الحرام عند المغرب، لا فرق بين صغير وكبير وغني وفقير .. لا يفوته أن ينوه ـ كما فعل الكثير من رحالي المغرب ـ بطريقة تلاوة القرآن عند المشارقة، والمصريين على الخصوص، لقد أخذت تلك التلاحين بقلبه، ونصب نفسه للدفاع عنها ضد الذين لا يعرفونها!

ويخلص بعد هذا لوصف ليالي القدر، وكيف تصبح أعراساً يحتفل بها أهل مكة المكرمة .. بإحضار الشموع الكبيرة، وبذل الكثير من العطاء من أجل أن تمر على أحسن ما يرام مع الدعاء للمتنفذين ورجال الحكم في البلاد، وعلى رأسهم شريف مكة ...

لقد أعادت إفادات التجيبي عن رمضان إلى ذاكرتي الأيام الجميلة التي جادت بها عليَّ الأقدار في العشر الأواخر من رمضان ...

مانسا موسى ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م

هذه رحلة لمْ يدونها صاحبها، أعني إمبراطور دولة مالي: موسى، الذي قام بأداء مناسك الحج سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م، ولكنها رحلة تضافرت على كتابتها مصادر إفريقية مغربية وشرقية وأجنبية كذلك، ونذكر في صدر هؤلاء ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) في «مسالك الأبصار»، كما نذكر منهم الرحالة المغربي ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ /١٣٧٧م).

ونذكر منهم القلقشندي (ت٨٢١هـ /١٤١٨م) في موسوعته «صبح الأعشى»، ونذكر المؤرخ المعروف ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ /١٤٠٦م) في تاريخه، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) في تآليفه(١).

وأخيراً، نذكر تاج الدين السنجاري (ت ١٠٥٧ – ١١٢٥هـ) في كتابه «منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم». ويتعلق الأمر برحلة إمبراطور مالي المانسا موسى صحبة زوجته المفضلة إيناري كونتي إلى الديار المقدسة سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م على ما أسلفنا.

وقبل أن نتحدث عن أصداء رحلة مانسا موسى نشير إلى بعض الرحلات الحجازية الإفريقية التي سبقت رحلة مانسا موسى، ونعني بهذا أولاً مانسا عليّ الذي كان من أعظم ملوك السودان. حج أيام الظاهر بَيْبَرْس، ثم الملك ساكورة أو (سابكارا) كما ينطقون به الذي حج أيام الملك الناصر، وقد لقي مصرعه عند عودته على ما نقرؤه في «صبح الأعشى» للقلقشندي.

وهكذا نقرأ من خلال إفادات عن شاهد عيان سعيد الدكالي المغربي المقيم في

(١) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٦، ص٤١٤ ... دار الكتاب اللبناني، طبعة ١٩٨٣م. لمملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين نصوص جمعها وقدم لها وعلق عليها الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص١٢٢– ١٢٣. كوك: بلاد السودان، ١٩٩٥م، ص ٩١–٩٢.

عاصمة مالي (يناني) خمساً وثلاثين سنة، وعن الأمير أبي الحسن علي بن أمير حاجب الذي كان كثير الاجتماع بالسلطان موسى عندما قدم مصر حاجاً. نقرأ عن الظروف المصاحبة لهذا الحدث التاريخي المهم، الذي كان يعني حج المانسا موسى وزيارته لمكة المكرمة، هذه الزيارة التي أغرت المانسا المذكور بالعودة إلى مكة للمجاورة ولانتظار المصير بها، بيد أن المنية عاجلته قبل أن يُحقق هذا الأمل.

لقد كان المانسا موسى من أصدق المسلمين، فقد بنى المساجد والجوامع والمآذن، وأقام ببلاد السودان الجمع والجماعات والأذان ، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطان المسلمين، وقد تفقه في الدين على حد تعبير ابن فضل الله العمري، ويقول ابن أمير حاجب : إن المانسا موسى كان طوال مقامه بمصر سواء قبل توجهه إلى الحجاز أو عند عودته على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل، كأنه بين يدي الله لكثرة حضوره، وكان هو ومن معه على مثل هذا، مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار، علاوة على أنه كان كريماً جواداً كثير الصدقة والبر . . . وقد خرج من بلاده بمئة وسق من الذهب أنفقها في حجته على القبائل وهو في طريقه عبر الصحاري الموحشة بجوها وقلة أمنها ومائها وما كانت تتطلبه من استعدادات هائلة ليس فقط للأشخاص، ولكن للجمال والمطايا التي تحتاج إلى الأحواض المتنقلة كما نعلم في طريقه إلى مصر، ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز عبر البحر الأحمر. . حيث كان ينفق بسخاء في التوجه والعودة حتى احتاج إلى القرض من مصر، فاستدان على ذمته من التجار بتعويضات مغرية جعلها لهم، بحيث حصل لهم من ثلاثمئة دينار سبعمئة دينار ربحاً بعثها إليهم بالوزن الراجح!

لقد أصبح واضعو الخرائط يرسمون السودان مع صورة المانسا موسى وهو يمسك بيده كرة من ذهب، تعبيراً عما كان يمتلكه من مبالغ ضخمة من المال . . .

ويقول ابن فضل الله : بلغني أول قدومي مصر وإقامتي بها حدث وصول هذا السلطان موسى حاجاً، ورأيت أهل مصر يلهجون بذكر ما رأوه من سعة الإنفاق، فسألنا الأمير أبا العباس أحمد بن الحاكي المهندار، رحمه الله، فذكر لي ما كان عليه هذا السلطان

من سعة الحال والمروءة والديانة ... وكان شعاره - يعني عَلَمَه - أصفر في أرض حمراء.

وكان من أطرف ما حكاه الأمير الذي عهد إليه باستقبال المانسا ومرافقيه من لدن السلطان الأعظم الملك الناصر أنه بعد أن قدم إلى الخزينة السلطانية بمصر أحمالاً كثيرة من الذهب المعدني حاول أن يطلعه للقلعة؛ مقر الملك، حيث يجتمع بالسلطان فأبى قائلاً: أنا جئت لأحج لا لشيء آخر، وما أريد أن أخلطه بغيره!!

ويذكر الأمير ما يفيد أن هذا الاحتجاج أو الاعتذار من المانسا كان بسبب ما بلغه من أن عليه أن يقبل الأرض أو اليد على الأقل كما كانت المراسيم المصرية تفرضه آنذاك!

وأمام إلحاح التشريفات السلطانية في إحضار المانسا وافق معتقداً أن "رسالته" بالاعتذار للسبب المذكور قد وصلت ... لكن الذي حصل أنهم أوعزوا إليه في القصر أن يقبل الأرض فأبى إباءً ظاهراً ... وحاولوا أن يفسروا له الوضع، لكنه أجاب: أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني، وسجد لله على أرض الله!!

وكانت أخبار هذا "الصراع" قد وصلت إلى الملك الناصر الذي نراه، كما تقول الأخبار، يقوم له بعض قيام! ولو أنه أكرمه وأجلسه إلى يمينه حيث جرى حديث طويل بين الرجلين. وأعقب ذلك إرسال ملك مصر عدداً من الخلع الكاملة للمانسا ولأصحابه وعدداً من الخيول المسرجة الملجمة له ولأعيان من معه إلى آخر الهدايا التي تعبر عن مدى إدراك الملك الناصر لشخصية هذا الذي ورد من آخر الدنيا يقصد مكة المكرمة مع هذا الحشد الكبير من إفريقية الغربية متجشماً أنواع الأخطار...

ولما آذن أوان الحج بعث الملك الناصر إلى المانسا موسى بعددٍ من المطايا والأزواد، ورسم لأمراء الركب المصاحب له بإكرامه واحترامه، وغادر القاهرة يوم ٢٢ من شوال ...

لقد أطنب ابن فضل الله العمري حول الأثر الذي تركته زيارة المانسا لمصر سواء على الصعيد الاقتصادي، أو الأخلاقي كذلك، لكن الشهادة التي تهمنا أكثر هي الشهادة التي تلقّاها ابن فضل الله العمري من الدليل الرئيس المرافق للمانسا إلى الحجاز ... مهنّا ابن عبدالباقي العجرمي، الذي قال: إن المانسا أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سحائب الإحسان، وكان في غاية التجمل وحسن الزي في سفره هو ومن معه، وتصدق بمال كثير.

قال مهنا: وقد نابني منه نحو مئتي مثقال من الذهب، وأعطى رفاقي جمالاً أخرى.

وتتميماً للحديث يقول العمري: إن المانسا كتب لملك مصر بعد وصوله إلى مقر ملكه رسالة بالخط المغربي في ورق عريض ... أرسلها بواسطة بعض خواصه ممن جاء للحج، ومضمونه السلام والوصية بحامله الذي جهزه بخمسة آلاف مثقال من الذهب هدية لملك مصر ...

وقبل أن نسوق إفادة الرحالة ابن بطوطة ننقل ما ذكره تاج الدين السنجاري في كتابه (منائح الكرم) السالف الذكر عن مقام المانسا بمكة المكرمة، وهو يدل كذلك على سمو أخلاق المانسا وكرم نفسه، قال: وفي سنة سبعمئة وأربع وعشرين (١٣٢٤م) حج ملك التكرور موسى، وحضر للحج معه أكثر من خمسة عشر ألفاً من التكاررة..!!

وعلى ذكر حجة المانسا موسى نذكر أن الإمام علي بن عبد القادر الطبري[١] صاحب «الأرج المسكي في التاريخ المكي» ذكر أنه وقعت فتنة بين الترك (يعني الأتراك المماليك العاملين في مكة) والتكاررة بالمسجد الحرام وشهرت السيوف بالمسجد...

ومن حسن الحظ أن الملك موسى كان يشرف من شباك على المسجد بالرباط الذي كان يقيم فيه العاهل الإفريقي، هذا الرباط الذي يحمل اسم رباط الخوزي، الذي كان الأمير قرامز بن محمود بن قرامز الأقدري الفارسي وقفه وحبسه على الصوفية والمتجردين سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م على ما كان يظن الفاسي، فعندما شاهد بداية المعركة أمر أصحابه فوراً بالكف عن القتال، وهذا ما أنقذ الموسم من فتنة ماحقة...

* وفي حديث ابن بطوطة عن تومبكتو[٢] قال: إن بهذه البلدة يوجد قبر الشاعر المفلق أبي إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف بالطويجن الذي كان العاهل الإفريقي قد

---

(١) هذا الكتاب لعلي بن عبد القادر الطبري المتوفى سنة ١٠٧٠هـ / ١٦٦٠م. وانظر ابن كثير في البداية والنهاية ١٤ / ١١٢، والفاسي في شفاء الغرام، طبعة ثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ج١، ص ٦٠٩، والنجم ابن فهد في إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٣، ص١٧٨، والجزيري في درر الفوائد ص٣٠٠، وانظر كذلك أحمد زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، ص ٣٠، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٥هـ. مرارة الجنان وعبرة اليقظان.

(٢) رحلة ابن بطوطة. تحقيق د. التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج ٤، ص٤٣١ وما بعدها.

تعرف إليه وهو بمكة ... كما أن بها قبر سراج الدين ابن الكويك؛ أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية الذي ورد على العاهل المالي المانسا موسى ...

قال ابن بطوطة: وكان السلطان المانسا موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر، وبها ينزل السلطان، واحتاج (المانسا) إلى مال فتسلفه من سراج الدين، وتسلف منه أمراؤه أيضاً، وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال فأقام بمالي ولم يعد، فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له، فلما وصل تنبكتو أضافه أبو إسحاق الساحلي، فكان من القدر موته تلك الليلة، فتكلم الناس في ذلك واتهموا أنه سم، فقال لهم ولده: إني أكلت معه ذلك الطعام بعينه، فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً، لكنه انقضى أجله. !!

وبلغ الولد إلى مالي حيث اجتمع بالمانسا الذي أعطاه المال المستحق قبل أن ينصرف إلى ديار مصر.

وقد ردد السعدي إفادات ابن بطوطة على أنها حقائق ثابتة[1].

وقد خصص هذا الحدث الكبير بالتأليف عام ١٩٧٥م الأستاذ إبراهيما بابا كاكي السنغالي[2]، ونحن نقتبس من التأليف الذي يبدو أن الصنعة الأدبية اقتضت منه أن يقوم ببعض الاستطرادات التي نوافقه عليها.!

لقد دخل الإمبراطور البيت الحرام يوم الجمعة خامس ذي الحجة (٢٣ نوفمبر)، وقام بطواف القدوم ... سبعة أشواط، ابتدأها من الحجر الأسود ... وسعى بين الصفا والمروة ... ثم حضر خطبة اليوم السابع (يوم الزينة) التي يلقيها قاضي مكة (رضي الدين الطبري) الذي يفتتح بهذا الخطاب موسم الحج ويذكّر الناس بما عليهم من واجبات المناسك..

ثم توجه مانسا إلى منى متبعاً الخطوات نفسها التي سلكها النبي ﷺ، حيث قام بكل ما تفرضه عليه المناسك، منقطعاً إلى الصلاة والعبادة والتوسل بين هذه الحشود

---

(١) انظر الباب الثالث من تأليفه حول تاريخ بلاد السودان ..

(2) Cake, Ibrahim Baba: Kankou Moussa, Ampereur Du Mali. Ed. Neas 1975.

الخاشعة الضارعة إلى رب الأكوان ....

ومن غير أن يتحدث كاكي عن الموقف يوم عرفة الذي كان يصادف الاثنين (٢٦ نوفمبر) ولا عن الخطيب ولا عن المزدلفة ورمي الجمرات؛ لأنها عبادات شخصية بين العبد ومولاه، يعود ليذكر أن الإمبراطور رجع إلى مكة ومعه شيخ سدنة الكعبة الذي كان مالكي المذهب... حيث يتفرغ للعبادة ويتفحص البيت الحرام ... وهنا يذكر أن الكعبة كانت تكتسي رداء أسود يغلفها من سائر الجهات..

وتنص الإفادة على أن باب الكعبة كان «مصفحاً بصفائح الفضة، بديع الصنعة، تعلوه عضادة من الذهب الخالص، وقد نقش على الباب بعض الآيات بالذهب الخالص كذلك»(١).

لقد اعتاد الإمبراطور كانكو موسى أن يجلس في الظلّة على عقبيه يرتدي إحرامه الأبيض حيث وجد نفسه في أعظم بيت مقدس عند المسلمين على وجه الأرض... كان يشعر بحالةٍ روحانيةٍ لم يعشها في حياته ... كان يتوسل ويتلو آيات من القرآن الكريم.

كان الإمبراطور كانكو موسى يقضي وقته في التأمل مستعرضاً حياته الماضية، هل كان يحكم بعدل وحكمة؟ وهل ارتكب ذنباً أو اقترف جرماً بدون علم؟ كم من قوم ظلمهم وهم لا يستحقون ذلك؟ كم من بريء لقي حتفه في الحروب التي أمر بها؟ كيف يمكن التمييز بين ما صدر عنه كإنسان وما صدر عنه كسلطان؟ كيف يمكن له أن يميز بين هذا وذاك؟ كيف يمكنه أن ينسى موت والدته وقد كان هو سبب وفاتها من غير شعور؟ (ماتت والدته من نفاس). تحت ثقل الذكريات ضرب بصدره بيده صائحاً: الله !الله! الله! لماذا مكنتني من الحكم؟ وإذا كان حكمي جائراً فلماذا يسمح لي بأن أبقى على وجه الأرض؟

منذ هذا الوقت، وأول مرة في حياة الإمبراطور، قرر أن يصبح رجلاً عادياً كسائر الناس، بلا سلطة ولا مسؤولية ... كان يشعر باضطراب داخلي كبير، ولم تعد إليه الطمأنينة إلا عندما يأخذ في الصلاة أمام الكعبة...

---

(١) لا ننسى أن ابن بطوطة الذي وصف الباب بعد سنتين فقط من زيارة الإمبراطور قال: إن العضادتين من فضة.

وبهذه المناسبة، يصف كاكي داخل الكعبة التي زارها مانسا موسى، وصفها بأوصاف تقارب ما قرأناه في رحلة ابن بطوطة التي تمت بعد سنتين من حجة الإمبراطور، لقد كان هذا الداخل مفروشاً بالرخام الملون على نحو ما نجده كذلك في الجدران على مقدار قامة الإنسان ... وأن بعض القطع الرخامية الموشاة بالأخضر والأحمر كانت مفصولة بحواجز من رخام ذي بياض ناصع وصفاء كامل، وفي الأعلى يوجد إفريز يحمل نقوشاً من ذهب على أرض لازوردية (حجر كريم سماوي الزرقة)، وهناك صفائح ذهبية منقوشة تغطي الجانب الأعلى للجدران، ويقوم السقف على الأعمدة الثلاثة من العود القماري (Bois de L'aloes)، وهو مغشى بأثواب من حرير مختلف الألوان. وعلى يسار الداخل للكعبة، حيث موضع الحجر الأسود في الخارج، يوجد صندوقان يحتويان على عدد من المصاحف الرفيعة المهداة للكعبة المشرفة[1]، كما يوجد عن يمين الداخل الباب الذي يحمل (اسم باب الرحمة) والذي يصعد منه إلى سطح الكعبة المشرفة.

وقد نبه شيخ السدنة المانسا موسى، وعلى بعد ثلاث خطوات من المدخل، إلى موضع قبالة الباب كان النبي ﷺ يصلي فيه، وطلب من العاهل أن يصلي معه في الموقع نفسه، حيث قام العاهل بالصلاة متوسلاً إلى الله بحرمة هذا المكان الذي مسته أقدام الرسول ﷺ، لكنّ تأثره كان أقل من تأثره يوم دخل المسجد الحرام وأدى الصلاة وحيداً في الطّلة.

وفي أعقاب اختتامه للمناسك أهدى للمدينة المقدسة عشرة آلاف قطعة ذهبية.

وبعد هذا ذهب بنفسه إلى شريف مكة (الأمير عُطيفة)[2] الذي استقبله استقبالاً عظيماً وهنأه بمقدمه مع هذا الحشد الكبير من بني قومه الماليين الذين أسعدهم الحظ بأن يقوموا بأداء هذه الفريضة المقدسة.

وهنا أجابه الإمبراطور بأنه يرغب في ازدهار الإسلام ببلده، وأن يعمل على أن يزداد بلده إيماناً بالله ورسوله، وأنه يعتزم بناء عدد من المساجد والمدارس، ولهذا الغرض فإنني ـ يقول المانسا ـ أرجو إليكم أن تساعدوني على أن ترسلوا معي بعض الأشراف ...

---

(١) يمكن أن يكون من بينها المصحف المغربي الذي أهداه العاهل المغربي يوسف بن يعقوب سنة ٧٠٣هـ للمسجد الحرام. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٧، ص٢١١.

(٢) أحمد السباعي: تاريخ مكة، الطبعة السابعة، ص ٢٦٧.

وتذكر هذه المراجع المكتوبة بالإنجليزية أيضاً أن مانسا لم يتردد في أن يطلب إلى شريف مكة أن يصدر أمره باصطحاب الإمبراطور لثلاثة شرفاء أو أربعة ليعيشوا إلى جانب مملكته للتبرك بهم والاستفادة من علمهم.

فكان جواب الشريف بالرفض التام قائلاً: على الرغم من رغبتي في تحقيق أمنيتك فإنني لا أرضى أن أخاطر بالأشراف في بلادٍ يوجد فيها وثنيون لا يؤمنون بالله...

أجابه الإمبراطور بأن البلاد ولو أن بعض سكانها لا يتوفرون على إيمان كامل ولو أن بعضهم يعبدون الأوثان، ولكن الأمن هو المسيطر في بلاده، ولذلك فإنه لا خوف أبداً على الأشراف؛ لأن الناس هناك كيفما كانت معتقداتهم يتحركون في أطراف البلاد بكل أمان... فإذا مكنتني من تحقيق رغبتي في وجود الأشراف هناك فإني أضمن لهم سلامتهم التامة ... ولا يمسهم أي أذى... يقول المانسا...

وأمام إلحاح الإمبراطور وجدنا أن الشريف يذعن للاستماع إلى مقترح الإمبراطور، ولكن على الطريقة التي تتلخص في أن الشريف لا يأمر أحداً بمصاحبة الإمبراطور، ولكنه يقترح أن يقوم هذا الأخير بتوجيه نداء داخل المسجدالحرام وباقي مساجد مكة المكرمة ليعلن الرغبة، فمن شاء لبَّاها ... وقد تم ذلك بالفعل، حيث وجدنا الإمبراطور يعطي لكل من استجاب لدعوته ألف مثقال ذهباً مع الالتزام التام أن يكونوا محل تكريم وتشريف وأمن وأمان في الإمبراطورية المالية، وهكذا صحبه أربعة أشراف من مكة.

وعلى نحو مقامهم بمكة كان الأمر بالنسبة إلى المدينة ... حيث وجدناه يغرق في العبادة والتبتل والتوسل والتلذذ بسماع الأذان الذي ينطلق من كل صوب ... وكم كان الإمبراطور متأثراً عندما فتحت أمامه أيضاً الروضة الشريفة ودخلها ليجد نفسه أمام قبر الرسول الأكرم ﷺ وإلى جانبه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ... لقد شكر الله على أن منحه الفرصة للوصول ... ثم رأيناه يلح على زيارة موقع النخلة التي كان الرسول يقف عندها لإلقاء خطبه ... إلى جانب هذا كان يتتبع ويتطلع لمعرفة أطراف الأرض التي مرّ بها نبي الإسلام ليتبرك بها ... ولا يفوته أن يزور مسجد قباء الذي يعرف عن شهرته، ولكن ليجد نفسه على موعد كل ليلة في المسجد النبوي، حيث يتلو كل واحد ما تيسر له من القرآن على أضواء الشموع التي تجعل من الليالي نهاراً...

لقد كان الإمبراطور في قمة المتعة وهو يعيش هذه الأجواء التي كانت على ما يبدو تشجعه على البقاء أكثر.

ولم يعكر من هذه الأجواء إلا وصول نبأ يحمله رسول خاص من مالي يخبره بأن ملك سُنغاي هاجم بلاده، وأن الحرب قائمة بين الجانبين.

ومن المهم أن نذكر هنا أن الرواية الإفريقية التي ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية تؤكد أن الإمبراطور وحاشيته وجدوا أنفسهم مأخوذين بسيرة أهل مكة من حيث أناقتهم في لباسهم الأبيض وهندامهم الجميل، وسماقة قدِّهم وعيونهم السوداء التي يعلوها الكحل، وبشرتهم اللينة المعطرة، كانت معاملتهم مع الجميع معاملة نموذجية مثالية، كانت الميزة التي لفتت أنظار حاشية الإمبراطور أن أهل مكة كرماء بشكل نادر لا مثيل له، فهم ينزلون الطعام للفقراء والمحتاجين في أثناء معابر الطرق..

وإلى جانب هذا، لاحظت الحاشية المالية الدرجة العالية للأمانة التامة التي يتوفر عليها حتى أطفال مكة الذين لم يخطر لهم على البال أن يخونوا أو يسرقوا ...

لقد قضى الإمبراطور مع كبار قومه كل وقته بالحرمين الشريفين موزعاً بين التلاوة والصلاة والعبادة، إلى جانب التعرف إلى رجال الفكر والعلم والدِّين، وكان من بين هؤلاء الشاعر الساحلي المعروف بالطويجن الذي سلف ذكر له.

لقد خطط منذ الآن كيف سيقضي أيامه القابلة ـ على ما أشرنا ـ وقرر بعد أداء المناسك أن يرجع إلى بلاده ليرتب أموره ويضع الأسس القوية لبناء أمن بلاده وينصب ابنه على العرش؛ ليعود إلى مكة حيث يقضي ما تبقى له من العمر في العبادة والنسك.

وهكذا أخذ طريق العودة إلى بلاده عبر القاهرة، حيث سيصله رسول آخر يبشره بالانتصار على سنغاي التي سيدخلها الإمبراطور قبل أن يدخل إلى مالي إلى آخر ما تحكيه الرواية الإفريقية(١).

ونذكر بهذه المناسبة أن حفظة الروايات الشفوية يجمعون على القول: إن مانسا اشترى في مكة عدداً من الأراضي والدور لإيواء الحجيج السودانيين(٢).

(1) Shapers Of Africa, Florence T, Polatnich, Cecile Clairval And Alberta L. Saletan Julian Messner New York. P.15-37.

(٢) انتشار الإسلام في ظل حكم مانسا موسى، تاريخ إفريقيا، يونيسكو، ص ١٦٠-١٦١.

وبالنظر إلى اهتمامنا بمصداقية المانسا، وخاصة استنكافه من السجود لملك المشرق هذا السجود الذي لم يعتد سماعه وهو يتعامل مع ملوك المغرب، أحببنا أن نكمل الصورة الجميلة لهذا الملك الإفريقي العظيم الذي أعطى المثل الأسمى في سلوكه وسيرته بهذه الإضافة:

لقد كان ملوك بني مرين في المغرب الأقصى مهتمين بإمبراطورية مالي، إذ نرى تبادل السفارات والهدايا بين ملوك فاس وملوك مالي، وقد فتح (مانسا موسى) ببلاده طائفة من المدارس لتحفيظ القرآن، وهناك جملة من الروايات تتحدث عن إرسال بعثات مالية إلى مدينة فاس للدراسة في جامع القرويين، وكان على رأس تلك البعثات بعض الأمراء من أبناء المانسا(١)، وهو ما يفسر لنا - إن كنا بحاجة إلى تفسير - ماذا كان وراء ازدهار (جيني) و(تومبكتو) حتى أصبحتا بعد قرن مركزين علميين كبيرين.

ولا بد أن نختم الحديث عن الإمبراطور مانسا موسى بهذه المعلومة المهمة التي ننقل أصولها من المصادر المغربية التي أفادتنا أن مانسا موسى بعث بسفارة حافلة إلى العاهل المغربي بعد عودته من حج بيت الله... كانت تحمل طائفة من الهدايا السنية من مثل التي كان يهادي بها ملوك مصر والشام... لقد كانت سمعة السلطان أبي الحسن مدوية في الآفاق وخاصة عبر إفريقية والأندلس، ومن ثم أصبحت العلاقات بين المملكتين على قدر كبير من الاحترام المتبادل التي بلغت إلى حد تقديم الولاء للمغرب على ما يقوله المؤرخون.

وقد استقبل السلطان أبو الحسن بمدينة فانسا سفارة المانسا موسى التي كان ترجمانها هو الحاج يونس وأعادها مثقلة بالهدايا والتحف(٢) .. ولعل في ترديد نص ابن خلدون ما يعبر عما نقصده من متانة العلاقات بين الجهتين، قال: وكان بين هذا السلطان مانسا موسى وبين ملك المغرب لعهده السلطان أبي الحسن مواصلة ومهاداة، سفرت بينهما الأعلام من رجال الدولتين(٣).

---

(١) الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية) - مادة Mansa Moussa.

Manssa Mussa, Ency d'islam: D.c. Conard.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٧، ص٤٠. التعليق ١، ٣، ٤.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٤١٦، ج ٧، ص ٥٥٤، طبعة دار الكتاب اللبناني.



المانسا موسى ملك مالي (عن الخريطة الكروية لدولسير عام ١٣٣٩م)

الأميرة الوالدة ٧٣٨هـ /١٣٣٨م

(مصحف بخط الملك هدية إلى المدينة)

لقد شهدت هذه السنة رحلة تضافرت على الحديث عنها مختلف المصادر المغربية والمشرقية، بل تولت بعض المراجع الأجنبية ترجمتها إلى لغاتها المختلفة، إذ وجدت فيها حدثاً تاريخياً وحضارياً يستحق الوقوف عنده ...

ويتعلـق الأمر برحلة الأميرة مريم حظية السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رأس دولة بني مرين ...

وكان الذي بعثها في هذه الرحلة الحجازية بعد أن تعذر إرسال والدته بسبب وفاتها، هو السلطان الشهير أبو الحسن بن أبي سعيد عثمان الذي عدّه ابن بطوطة في صدر الملوك السبعة الذين يحكمون العالم في عصره[1]، بعثها لكونها في محل والدته، وقد كانت مربيته فعلاً. وقد صحبت هذا الركب المغربي الجليل سفارة لا تقل أهمية عن موضوع الركب، وكان مما زاد في أهمية هذه الرحلة الأميرية أنها كانت تحمل معها هدية فريدة إلى المسجد النبوي لم يعرف التاريخ مثلها لملكٍ من ملوك الإسلام! فلقد نسخ العاهل المغربي السلطان أبو الحسن ابن أبي سعيد بيمينه نسخة من القرآن برسم الوقف الخالص للمسجد النبوي.

لقد جمع الوراقين لتنميق النسخة وتذهيبها، وأحضر القراء لضبطها وتهذيبها، وصنع للمصحف ربعة (ظرْفاً) من الأبنوس والعاج والصندل من فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب، ورصع بالجواهر والياقوت، واتخذت له أصونة من الجلد المتين المحكم المرقوم بخطوط الذهب، ومن فوق ذلك غلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان..

وقد زود الركب بمبلغ كبير من الأموال التي عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على الذين يتلون في المصحف عبر الدهور والعصور[2]...

---

(١) ملك المغرب، وملك مصر والشام، وملك العراقين، وملك الترك، وملك خوارزم، وملك الهند، وملك الصين. انظر الرحلة ٢، ص٣٨٢.

(٢) محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب، ١٩٩٦م، ص ٢٠٨.

وكانت هذه المناسبة فرصة كذلك لتبادل الرسائل الرفيعة المستوى بين خادم الحرمين الشريفين الملك الناصر والسلطان العظيم أبي الحسن، إلى جانب الهدايا المتبادلة بين ملك المغرب وملك المشرق من عيون التحف وغريب الهدايا وأكرم الطرف. وقد كانت البعثة المغربية للحج المرافقة للأميرة تتكون من أكبر الشخصيات وأوسعها تنوعاً، فقد كانت تشتمل على خلق كبير فيه كبار الرجال، على نحو ما كان يتوفر على طائفةٍ من السيدات الفضليات المرافقات للأميرة..

ولا بد أن نذكر من أولئك الرجال السفير الجليل والخطيب البليغ الشيخ أبا إسحاق إبراهيم ابن الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي يحيى التازي ...

كما نذكر الحاجب أبا زيان عريف ابن الشيخ أبي زكرياء يحيى السويدي أمير بني زغبة من عرب بني هلال بسجلماسة، والكاتب أبا الفضل وأبا المجد محمد ابن أبي عبدالله محمد بن أبي مدين العثماني الفقيه الكاتب الشاعر...

بهذه المناسبة بعث السلطان أبو الحسن برسالة ـ كما أشرنا ـ إلى الملك الناصر تتضمن تأكيد العواطف التي يكنها العاهل المغربي لأخيه خادم الحرمين الشريفين، كما تتضمن تقديم أعضاء البعثة بمن فيها من الخاصة والزعماء والفرسان، وتتضمن بطبيعة الحال التوصية بالوفادة خيراً...

وهذا بعض ما جاء فيها بعد الديباجة:

« .. فإنَّا (أبا الحسن) نحيط علم الإخاء (الناصري) بما كان من عزم المولاة الوالدة على أداء فريضة الحج، فاعترض الحمام دون ذلك المرام، وإن لدينا من نوجب إعظامها ونقيم بها ـ بحكم البر ـ مقامها، وعزمها إلى ما أملته مصروف، وهي محل الوالدة المكرمة، وقد شيعناها إلى حج بيت الله الحرام والمثول ما بين زمزم والمقام، والفوز من السلام، على الرسول عليه وآله الصلاة والسلام صاحب الرسالة ومثابة الجلالة ...

وقد أصحبناها من رجال دولتنا وأحظيائها، ووجوه دعوتنا وأوليائنا، من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر من أعيان بني مرين والعرب وأولاد المشايخ، أولي الديانة والتقوى وكل من له أثرة مشهورة.

ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا ... إلى سيدنا ومولانا وعصمة ديننا ودنيانا محمد رسول الله ﷺ بطيبة، زادها الله تعظماً وتشريفاً، وأبقى على الأيام فخرها منيفاً...».

ثم تتحدث الرسالة عن المبالغ المالية التي سلمت لمحل الوالدة: «وقد عينا بيد محل الوالدة المذكورة من المال ما تشتري به في تلك البلاد المحوطة من المستغلات ما يكون وقفاً على القراءة فيه مؤبداً عليهم وعلى غيرهم فوائد مجانية».

ويشير الخطاب بعد هذا إلى رسائل شفوية حملها العاهل المغربي لأخيه الملك الناصر: «والإخاء الكريم يتلقى من الرسل المذكورين ما إليهم في هذه الأغراض ألقيناه، ويأمر بإحضارهم لأدائهم ـ بالمشافهة ـ ما لديهم أوْ عيناه، ويوعز بإعانتهم على هذا الغرض المطلوب، وييسر لهم أسباب التوصل إلى الأمل والمرغوب»(1).

وقد تضمنت الرسالة الجوابية الناصرية للعاهل المغربي، علاوةً على تقرير الرسالة المغربية السابقة، الإخبار بما لقيتْه الوفادة المغربية من تكريم وتبجيل منذ حلولها على ملك مصر والشام والحجاز. وتتخلص الرسالة إلى ذكر وصف مقتضب للهدايا الفاخرة التي غمر بها العاهل المغربي أخاه عاهل مصر بما فيها من خيول مسوقة، وبغال مثقلة بكل بديع وطريف من بلاد المغرب... ومنها ما كان من بلاد الصحراء كدَرَق لمطة، وأن الملك الناصر قد اتخذ سائر التدابير اللازمة لتوفير الراحة للواردين، وأنه كتب لسائر العمال والنواب.

ويشير الجواب الناصري للمصحف الفريد الذي انتسخه السلطان أبو الحسن للمسجد النبوي بخط يده ...

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجواب أخذ طريقه للمغرب قبل التحاق ركب الحاج بالبقاع المقدسة لأداء المناسك، وهو ما يدل على مزيد العناية والاهتمام.

وقد تحدث الناس دهراً على حد تعبير ابن خلدون(2) بالهدايا الرفيعة والمتنوعة التي

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ج8، ص99-103. الاستقصا: ج3، ص127 وما بعدها. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 7، ص 210-211.

(2) ابن خلدون: العبر، ج7، 552. التعريف به ص1166-1167.

بعث بها السلطان أبو الحسن صحبة هذه السفارة التي كانت حظية الوالد ضمن ركبها:

خمسمئة من عتاق الخيل المحلاة بسروج الذهب والفضة واللجم الخالصة المموهة والمغشاة، خمسمئة حمل من متاع المغرب وماعونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم وأزراً معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون ساذجاً ومنمقاً، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الصنع بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللَّمْط، ومن خرثى المغرب وماعونه وما تستطرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حَصَى الجواهر والياقوت(١).

وقد ذكر الإمام ابن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن» مفصّلاً بعض ما أجمله ابن خلدون، فقال: إن العاهل المغربي بعث للناصر من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمئة وخمسة وعشرين، ومن الزمرد مئة وثمانية وعشرين، ومن الزبَرْجَد مئة وثمانية وعشرين، ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمئة وأربعة وستين، وأرسل حللاً كثيرة فيها مذهبة ثلاثة عشر، ومن الأنساق عشرين مذهبة، ومن الخلادي ستة وأربعين، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة، ومن المحررات المختمة ثمانمئة، ومن الرصاق عشرين شقة، ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرين، ومن البرانس المحررة ثمانية عشر، ومن المشففات مئة وخمسين، ومن أحاريم الصوف المحررة عشرين، ومن شقف الملف الرفيع ستة عشر، ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنسوق والمحلل ثمانمئة، ومن أوجه اللحف المذهبة عشرين، وحائطين حلة، وحنابل مئة واثني عشر كلها حريرا! وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجواهر عشرة، والسروج عشرة بركب الذهب كذلك، ومهاميز الذهب، وثلاثة رُكَب فضة، وستة مزججة ومذهبة، ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك، وشاشية حديد بذهب مكلل بالجوهر، ومن لزمات الفضة عشرة، ومن سروج مخروزة بالفضة عشرة، وعشرة أعلام مغشاة مذهبة، وعشر رايات مذهبة. وعشر براقع مذهبة، وعشر أشلة مرقومة، وثلاثون جلداً

(١) ابن خلدون: ج ٧، ٥٥٢-٥٥٣. التعريف ص ١١٦٦-١١٦٧. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب. ج٧، ص ٢١٤-٢١٥.

شركي، وأربعة آلاف درقة لمط، منها مئتان بنهود الذهب، وثمانمئة بنهود الفضة، وخباء قبة كبيرة من مئة بنيقة، لها أربعة أبواب، وقبة أخرى مضروبة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة، وهي من حرير أبيض، ومرابطها حرير ملون، وعمودها عاج وآبنوس، وأكبارها من فضة مذهبة.

ولما كان العاهل المغربي يعرف عن شغف الملك الناصر بهواية القنْص بالصقر فقد بعث إليه من جملة الهدايا أربعة وثلاثين من البزاة الأحرار المنتقاة، ومن عتاق الخيل العربي ثلاثمئة وخمسة وثلاثين، ومن البغال الذكور والإناث مئة وعشرين، ومن الجمال سبعمئة.

ووصف المقريزي مؤرخ مصر هذه الهدية بانها جليلة إلى الغاية، نزل لحملها من الأسطول السلطاني المغربي ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال، وكان من جملتها أربعمئة فرس، منها مئة حَجْرة، ومئة فحل، ومئتا بغل، وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة، وبعضها بسروجها وركبها ذهب، وكذلك لجمها، وعدتها اثنان وأربعون رأساً، منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر ... وفيها سيف قرابه من ذهب مرصع، وخياطه ذهب مرصع، وفيها مئة كساة، وغير ذلك من القماش الغالي[1].

وبعد هذا، يأتي نص لسان الدين بن الخطيب حول برنامج الهدية، وقد توسع في الموضوع عن سابقيه، حيث نجده يثبت «نسخة العقد الذي يتضمن هدية السلطان أبي الحسن إلى صاحب الديار المصرية صحبة الربعة الكريمة بخطه».

وأخيراً، لعل من الظريف أن نذكر في جملة التقادم (الهدايا) "الإعلامية" ثوراً أصفر فاقع اللون، كامل الخلقة، لكن في وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع منه رؤوس أضلاعه، وذلك الكتف بمرفق وذراع وحافر مفرق مثل حافر البقر، فكانوا يطوفون به في القاهرة، ويجبى عليه كما يفعل بالسباع، وعليه جل من حرير أصفر على ما يذكر ذلك ابن إياس في بدائع الزهور[2].

---

(١) د. التازي: ألفاظ الحضارة في الوثائق العربية ذات الطابع الدولي، بحث قدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (فبراير - مارس ١٩٨٩م).

(٢) ابن إياس، ج١ ق١، صفحة ٤٧٢. يلاحظ أن ابن إياس أخطأ في السنة التي كانت عنده ٧٣٦هـ.

وقد طلب ملك مصر إلى الأميرة أن تملي ما تحتاج إليه، فأجابت: إنها لا يعوزها شيء، وإنما تريد إكرامها وإكرام من معها حيث كانوا، إلى أن يصلوا إلى مكة؛ حيث نجد أن ملك مصر يأمر بتجهيزها اللائق بها، وهكذا استخدم لها السقاؤون والضوئية، وهيأ لها كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبجماط الذي يحمل اليوم في مصر اسم البقسماط[1].

وطلب الناصر من الحمالة نقل جهازها وأزودتها، وندب للسفر معها متولي الجيزة، وأمره أن يرحل بها في مركبها بمفردها قدام المحمل، ويمتثل لكل ما تأمر به . . .

وكتب لأمير مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة.

وختاماً، أذكر أن هذه الرحلة الحجازية، على أهميتها الدولية والحضارية، لا نجد لها ذكراً فيما نتوفر عليه من مصادر تتصل بتاريخ الحرمين الشريفين، لا نجد لها ذكراً في تاريخ مكة والمدينة، ولو أنها ـ أي: الرحلة ـ تمت في عهد الشريف رميثة بن أبي نُمَيّ الأول الذي استمرت مدة حكمه ردحاً من الزمان.

وهكذا لم تنل هذه الرحلة المغربية ما نالته رحلة الإمبراطور مانْسا موسى، وربما كانوا يرون أن الحديث عنها بمصر يكفي عنه في مكة على الرغم مما عرفناه عن الرحلة من أنها كانت تحمل إلى المدينة مصحفاً مكتوباً بخط العاهل المغربي، وعلى الرغم مما عرفناه عن المبالغ المالية الضخمة المخصصة لاقتناء العقار والأراضي من أجل جعلها وقفاً على القراء هناك.

لقد كان شريف مكة الذي كانت على عهده هذه الرحلة ـ كما قلنا ـ هو الأمير رميثة الذي خلص له الأمر بعد نزاع طويل مع أخيه عُطيفة الذي كان يشارك أخاه في الحكم بين الفترة والأخرى[2].

---

(١) انظر الذهب المسبوك للمقريزي، تحقيق جمال الدّين الشيال ١٩٥٥م، ص٩٠، تعليق ٤. وانظر كذلك (محيط المحيط).

(٢) يراجع الحديث عن رحلات ابن بطوطة إلى مكة.

الأميرة مريم ٧٤٥هـ / ١٣٤٥م

بعد مصحف ثانٍ لمكة بخط السلطان أبي الحسن عام ٧٤٠هـ مصحف ثالث بخطه كذلك لبيت المقدس ٧٤٥هـ.

وبعد رحلة محل والدة السلطان رحل إلى المشرق عام ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م أحد أعيان الكتَّاب يحمل معه مصحفاً ثانياً بخط السلطان أبي الحسن برسم مكة المكرمة، حمله إلى الناصر ملك مصر والشام وخادم الحرمين الشريفين، حمله من تخيره العاهل المغربي من أعيان كتَّابه. ويفيد ابن خلدون أن هذا المصحف الثاني جرى على قانون المصحف الأول، بمعنى أنه انتسخه بيده وجمع الوراقين لتنميق النسخة وتذهيبها كما جمع القراء لضبطها وتهذيبها وإعداد أوْعيتها وتنويعها وتصنيعها على غرار المصحف الأول(١).

بعد هذه الوفادة التي لم نعرف عنها شيئاً أكثر من أنها حملت المصحف الثاني لمكة ... يأتي الحديث الكبير الآخر المتمثل في رحلة أميرة مرينية ثانية هي السيدة مريم أخت السلطان أبي الحسن التي حملت معها المصحف الثالث بخط أخيها، والمهدَى إلى بيت المقدس، أنقذه الله من الرجس!

وقد وقف على هذا المصحف الثالث المقّري هناك، وأسعدني الحظ أنا أيضاً بالوقوف عليه وتصفحه بمناسبة زيارتي للقدس الشريف يوم الأربعاء ٢٨ صفر ١٣٧٩هـ / (٢ سبتمبر ١٩٥٩م)(٢)، ثم حصلتُ على صور لبعض ورقاته التي تحمل اسم السلطان أبي الحسن رحمه الله.

وقد كان في ركب الأميرة هذه السنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م الكاتب الأرفع الشيخ أبو المجد

---

(١) نلاحظ أن ابن خلدون التبس عليه أمر المصاحف، فذكر أن المصحف الأول كان هدية لمكة، بينما كان الثاني للمدينة. وعليه اعتمد صاحب الاستقصا، مع أن الرسائل المتبادلة بين المغرب والمشرق كانت صريحة في الموضوع، وأن الأول للمدينة والثاني لمكة.

(٢) د. التازي: القدس والخليل في الرحلات المغربية، نشر الأسيسكو ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص٥٢.

وأبو الفضل وأبو عبدالله محمد بن أبي عبد الله الحاج محمد بن أبي مدين الذين كان ضمن الوفد الذي كان قد رافق الأميرة "محل الوالدة" عام ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م.

لقد كان الركب يحمل الرسالة إلى خادم الحرمين الذي أصبح هذه المرة هو الملك الصالح أبا الفدا إسماعيل ابن الملك الناصر[١]. وكان من أهداف الركب تفقد أحوال المصحفين السالفين وأوقافهما...

وهكذا قرأنا في المصادر التاريخية بالمشرق والمغرب عن هذه الرحلة وأهدافها ورجالها، وقد وردت نصوص الرسائل المتعلقة بهذه الرحلة في أكثر من مصدر...

وقد علق ابن خلدون على مهمة ابن أبي مدين الجديدة قائلاً: إنه قضى من وفادته ما حمل، وكان شانه عجيباً في إظهار أبهة سلطانه، والإنفاق على المستضعفين من الحاج في سبيلهم، وإتحاف رجال الدولة التركية (المماليك) بذات يده، والتعفف عما في أيديهم.

وقد عاد ابن أبي مدين بجوابٍ من خادم الحرمين الشريفين الملك الصالح أبي الفداء إسماعيل يفيض بالود والإخاء...

ومن المهم أن نشير إلى بعض ما ورد في الرسالة المرينية التي حملها السفير ابن أبي مدين معه بعد المقدمة التقليدية التي عزّى فيها ملكَ مصر في وفاة والده.

ولقد قصت الرسالة ما كان من بعث السلطان أبي الحسن بالمصحفين الأكرمين اللذين خطهما بيمينه إلى الحرمين الشريفين، وما كان من إذن الملك الناصر للمتوجهين بهما من شراء رباع توقف عليهما، ورسمه المراسيم بمسامحتهما على وجه التأييد، فجرت أحوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد، ريثما يصلهم من خراج ما وقفه عليهم ملك المغرب ببلاده، على ما رسمه الملك الناصر من عنايةٍ مهمةٍ متصلة، واحترام في تلك الأوقاف، فوائدها به متوفرة متحصلة.

وفي هذه الوجهة أمر أبو الحسن سفيره وحامل رسالته للملك الصالح إسماعيل،

---

(١) ابن خلدون، ج٧، ص٥٥٣، طبعة دار الكتاب اللبناني عام ١٩٨٣م. د. التازي: المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي.

كاتبه أبا المجد ابن كاتبه الشيخ الحاج أبي عبدالله بن أبي مدين بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف بمكة والمدينة، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف، وأن يتخير لها من يرتضي لذلك. وقد بسطت الرسالة المغربية هذه القضية بين يدي الملك الصالح بما يقتضيه كماله من تخليد ذلك البر الجميل، وتشييد ما اشتمل عليه من الشراء الأصيل، والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة السفير المغربي على ما يتوخاه من ذلك الشأن من طرق الصواب ...

وقد كان جواب العاهل المصري على نحو ما نسمعه اليوم عندما يتولى حاكم جديد لبلاد ما فيصرح بأن سياسته الخارجية لا تختلف عما كانت عليه في أثناء الحاكم السابق!

ويذكر الجواب المصري عن الرسالة المغربية أن السفير المغربي ابن أبي مدين حضر بين يدي الملك الذي أخبر السفير بأن الأمر يجري في قضية المصحفين بما أمره العاهل المغربي، وأنه رسم لنوابه في توخي أوقافهما طبق الملتمس المغربي. وإلى هذا تطمئن الرسالة الشرقية ملك المغرب بأن وقفه المبرور مرعي الجوانب، آمن من إزالة رسمه أو إدالة حكمه، بل له مزيد الرعاية، وإفادة الحماية، ووفادة الرعاية.

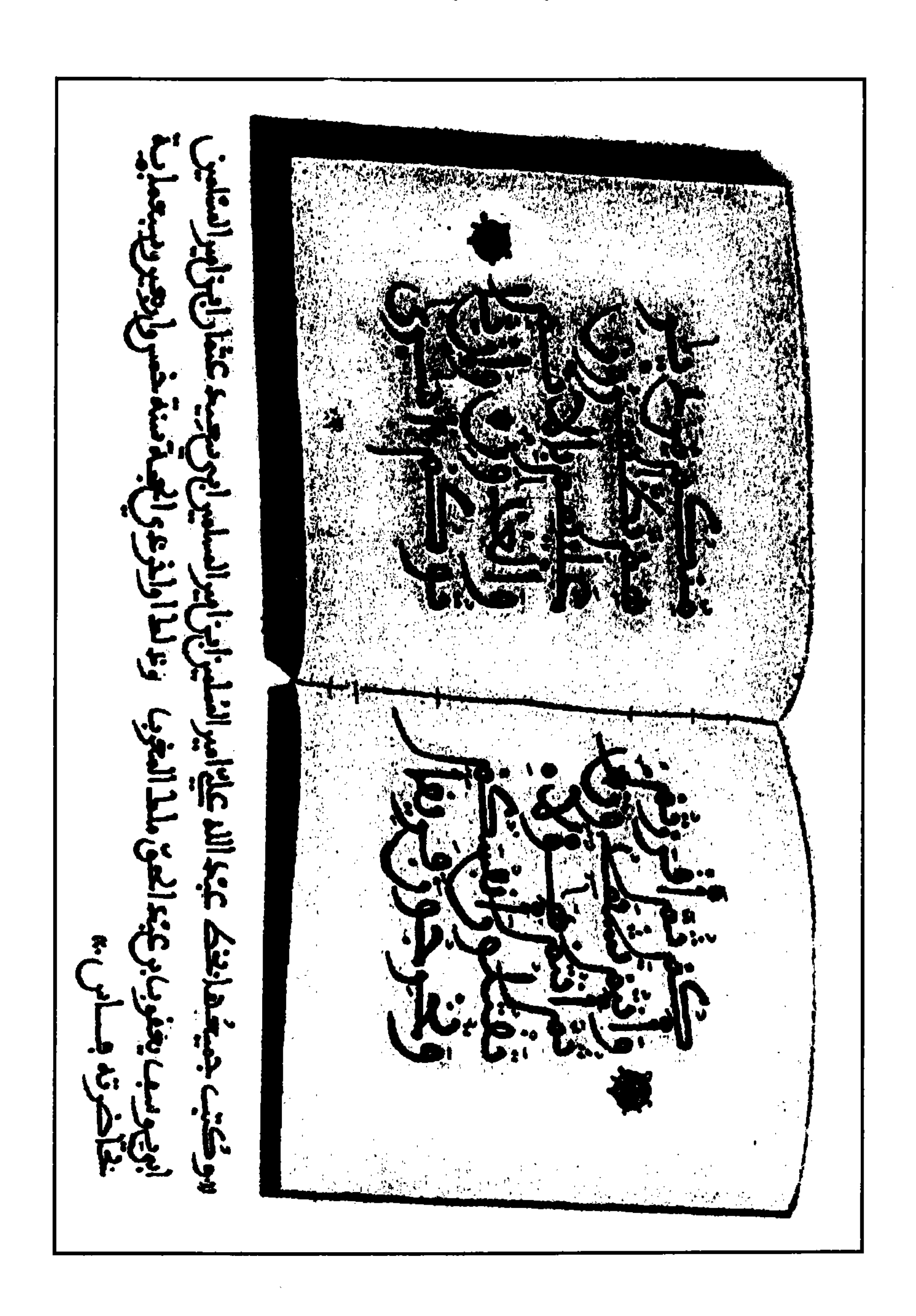
ومن الطريف أن نعرف أن الأميرة مريم كانت تحمل رسالةً خاصة من أخيها إلى ملك مصر ... وتتضمن حسب موجزها الذي احتفظ به "السلوك" رغبة ملك المغرب أن يدعو له الخطباء يوم الجمعة، وأن يكتب لأهل الحرمين الشريفين كذلك...

ويذكر ابن مرزوق في (المسند الصحيح الحسن) أن عَلَم السلطان أبي الحسن وقف على جبل عرفة، وجهر له الخطيب في الموقف بالدعاء، ودعي له على المقام...

ومن المهم أن نختتم الحديث عن رحلة الأميرة مريم بهذه المعلومة المهمة، ويتعلق الأمر بما ذكره معاصرٌ للكاتب ابن أبي مدين هو أبو عبدالله الحضرمي في تأليفه (السلسل العذب) (مخطوط) أن لابن أبي مدين رحلة حجازية "أحكم تصنيفها ووصف فيها عجائب ما رأى"(١).

---

(١) محمد الفاسي: الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق عدد ديسمبر ١٩٥٨م، ص٢١.



صفحتان من المصحف المخطوط

الوادي آشي ٧٤٩هـ /١٣٤٨م

هذه رحلة لأبي عبدالله محمد بن جابر الوادي آشي التونسي مولداً وقراراً، وقد قام برحلتين إلى المشرق، ولذلك لقب بصاحب الرحلتين، وكانت الأولى في حدود عشرين وسبعمئة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، وكانت الثانية في حدود أربع وثلاثين وسبعمئة ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م. ومن خلال الرحلتين اهتم بالنقل والسماع والرواية عن أعلام القرن الثامن بديار المشرق، وخصوصاً من أعلام الحرمين: مكة المكرمة والمدينة المنورة ... توفي بتونس بالطاعون سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م.

وهذا التأليف ـ ولو أنه لا يحمل عنوان "الرحلة"، ويحمل: برنامج الوادي آشي، بمعنى ذكر شيوخ هذا الرحالة الجليل ـ يعطي فكرة عن المناخ العلمي والنشاط الفكري اللذين كانت تعرفهما مكة المكرمة في القرن الثامن الهجري(١).

وقد ذكر الوادي آشي أنه سمع (رسالة التصوف) للإمام أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري (ت٤٦٥هـ) تجاه الكعبة المعظمة على المقرئ عفيف الدين أبي محمد عبدالله الدلاصي بحق سماعه لها مرتين بمكة المشرفة على أبي اليمن عبدالصمد بن عبدالوهاب بن الحسن بن عساكر بسماعه لها من جده المذكور، عن عمه الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر، عن أبي المظفر عبدالمنعم ابن الأستاذ أبي القاسم، عن والده المؤلف مناولةً مقرونةً بالإجازة.

قال أبو اليمن: وبإجازتي من الشيخة أم المؤيد بنت أبي القاسم عبدالرحمن الشعري، عن مشايخها الثلاثة: أبي الفتوح عبدالوهاب بن شاه الشاذن قراءةً وسماعاً منه، وأبي عبدالله محمد بن الفضل الفراوي، وأبي المظفر عبدالمنعم المذكور، عن الأستاذ أبي القاسم، عن مشايخه فيها(٢).

---

(١) نشر هذا البرنامج بتحقيق الأستاذ محمد محفوظ، ونحن نعتمد على هذا التحقيق في طبعته الثالثة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.

(٢) برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، ص٢٣١.

وقرأ «عوارف المعارف» للإمام الحافظ أبي حفص عمر بن محمد السُّهْرَوَرْدي البكري (ت٦٣٢هـ) من ذرية أبي بكر الصديق، على الشيخ رضي الدين أبي إسحاق الطبري بمكة المكرمة تجاه الركنين المعظمين، حيث بابها وحيث ميزابها، والشريف أبو عبدالله محمد بن محمد الحسني الفاسي يمسك أهل سماعه منها، وحدثني الرضي بها عن ضياء الدين أبي عبدالله محمد بن عمر القسطلاني إمام المالكية بالحرم الشريف سماعاً عليه تجاه الكعبة، قال: سمعتها بقراءتي على المؤلف(١).

وقرأ مختصر مولد الرسول عليه السلام، تاليف أمين الدين أبي اليمن بن عساكر .. قرأه على الشيخ أبي عبدالله محمد بن الحسين الزبيدي، وسمعته على الأستاذ أبي الحسن علي البوذري المسراتي، قراءة للأول عليه بمكة المكرمة، وسماعاً للثاني من لفظه بمكة المشرفة(٢).

وقرأ الأربعين (الأربعين السباعية المخرجة) لأبي المعالي عبدالمنعم بن عبدالله بن محمد الفزاوي، مع الأبيات المتصلة به، قرأها على الخطيب أبي الفضل بن أبي القاسم اللبيدي وولده الأكبر أبي عبدالله محمد، وحدثاني بها عن أمين الدين عبدالرحيم بن أبي جعفر الأنصاري، سماعاً للولد بقراءة والده عن أشياخه الثلاثة: أبي طالب عبدالمحسن بن أبي العميد بن خالد الخفيقي الأبهري سماعاً بمكة المشرفة، وأبي عبدالله محمد بن محمد بن أبي نصر النوقاني سماعاً بقرافة مصر، وأبي عبدالله محمد بن سعيد بن الدبيتي قراءة ببغداد، كلهم عن مؤلفها(٢).

---

(١) برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، ص٢٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٤-٢٨٥.

المقَّريّ الجدّ ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م

من الشخصيات المرموقة التي قامت بمناسك الحج، وكانت لها رحلة إلى الحجاز، قاضي الجماعة بفاس وكبير علماء المغرب، وهو من الذين تهافتت المصادر المغربية على تتبع خطواته سواء عندما عاش بالمغرب أو كان بالمشرق(١).

كان من الذين صادفوا الوقفة في عرفات يوم الجمعة سنة ٧٤٤هـ/٢٣ إبريل ١٣٤٤م.

ويحكي أنه قبل أن يقصد عرفات حضر المسجد الحرام يوم سابع ذي الحجة حيث قام الخطيب يقول في الناس: إن جمعة وقفتكم هذه السنة هي خاتمة مئة جمعة وقف بها من الجمعة التي وقف فيها رسول الله ﷺ في حجة الوداع آخر عشر من الهجرة، وشاع ذلك في الناس وذاع، وكان الخطيب قد علم ذلك مما تواتر عندهم(٢).

وهو يحكي عن نفسه قائلاً: لقيتُ بمكة إمام الوقت أبا عبدالله محمد بن عبدالرحمن التوزري المعروف بخليل(٣) ... وسألته يوم النحر حين وقفت بالمشعر الحرام عن بطن محسّر لأحرك فيه الجمل، فقال لي: تمالأ الناس على ترك هذه السنة حتى نسي بتركها محلها! والأقرب أنه هذا ... وأشار إلى ما يلي الجابية التي على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق أو ما يجانبها إلى أن يأخذ صاعداً إلى منى ... وما رأيت أعلم بالمناسك منه.

كما لقي بمكة الإمام أبا العباس رضي الدين الشافعي وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد...

قال: ولقيت بالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبري وغيره..

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج٥، ص ٢٠٣–٣٥٠. ابن الخطيب والإحاطة، ص ١٣٦. نيل الابتهاج، ص ٢٤٩. سلوة الأنفاس ج٣، ص٢٧١.

(٢) نفح الطيب، ج٥، ص٢٨٠، نقلاً عن نيل الابتهاج، ص٢٣٢.

(٣) القصد إلى إمام الموسم الذي سيتحدث لنا عنه قريباً الرحالة ابن بطوطة.

البلوي ٧٦٨هـ /١٣٦٧م

ونحن مع خالد بن عيسى البلوي في رحلته «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»[١]، وقد بدأها يوم السبت ١٨صفر سنة ٧٣٦هـ، وفرغ من تأليف رحلته آخر يوم من شهر ربيع الأول سنة ٧٦٨هـ . . . عاصر ابن بطوطة وألف رحلته في أثناء سفره، ونقحها بعد عودته فجاءت محكاً لرحلة ابن بطوطة في المنطقة التي تجولا فيها معاً من العالم الإسلامي.

ولقد وصل البلوي إلى مكة المكرمة في ضحوة يوم السبت[٢] الخامس لذي الحجة من سنة ٧٣١هـ (٩ سبتمبر ١٣٣١م) والأصوات تصافح الآذان بالتلبية، وتضج بالرغبات والأدعية.

وحين تبدت لنا الكعبة الغراء في أستارها - يقول البلوي - وتجلت لنا المليحة في حلل أنوارها:

وضعنا جباهاً في الثرى قد تهللت
أساريرها منها وزاد سرورها
وطفنا بها سبعاً وزمّت ظلالها
على خائفٍ مثلي أتى يستجيرها!

وحين وقع نظري عليها ومثلت لديها أنشدت مرتجلا بلسان الخضوع، وكتبت خجلاً بماء الدموع:

إلهي، هذا البيت بيتك جئتُهُ
وعادة ربّ البيت أن يكرم الضيفا!
فهب لي قِرًى فيه رضاك، وإنني
من النار خوفي فلتؤمّنني الخوفا!

وأخذنا نطوف طواف القدوم .. ونصبر عند تقبيل الحجر على الاصطدام والاضطرام،

---

(١) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تأليف خالد بن عيسى البلوي، تقديم وتحقيق الحسن السايح، طبع اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

(٢) يلاحظ أن اليوم الخامس كان يصادف الاثنين في جداول كاطنوز ١٩٥٤م.

و«المنهل العذب كثير الزحام.. ونستلذ المقام بين الأركان والمقام، ونشرب من ماء زمزم ما يروي الأوام، واللسان يردد لنجم الدين مهلل بن محمد الدمياطي:

يروق لي منظر البيت العتيق إذا
بدا لطرفي في الإصباح والطَّفَلِ
كأنّ حلّته السوداء قد نسجت
من حبّة القلبِ أو من أسود المقلِ!

وعلى نحو ما سلكه أسلافه نجد أن البلويّ يقوم بوصف البيت المكرم متحدثاً عن أركانه الأربعة محدداً بالأذرع مسافة ما بين الحجر الأسود والركن اليماني: تسع وعشرون ذراعاً، بينما سائر الجوانب ثمان وعشرون بسبب انصباب السطح إلى الميزاب ... وكما قال من سبقه، فإن أول الأركان هو الركن الذي فيه الحجر الأسود، يليه الركن العراقي، ثم الركن الشامي، ثم الركن اليماني قبل أن يعود الطائف إلى الركن الأسود حيث يتم الشوط الأول من الأسبوع...

ويتحدث بدوره عن باب البيت المكرم الذي يقع بين ركن الحجر الأسود والركن العراقي، وقال: إنه من فضة مذهبة الصنعة يستوقف الأبصار... وفي حديثه عن ارتفاع الحجر الأسود عن الأرض يردد التعبير السائر: «الطويل يتطامن لتقبيله، والقصير يتطاول له» ... ولما وصف الحجر الأسود ذكر أن في وسطه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها شامة بيضاء، إلى آخر الوصف الذي أبرز فيه ما قيل عن الركن اليماني.

وقد أحسن البلوي عندما اهتم - كابن جبير - بالمنقوشات التي تعتبر خير موثق للأحداث، وهكذا نجده يذكر أن ظاهر البيت كله من الجوانب الأربعة مكسو ستوراً من الحرير الأكحل، وفي أعلاها رسم بالحرير الأبيض: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾.. الآية. واسم الخليفة الإمام العباسي الآمر بإقامتها ...

ويتحدث عن مواد بناء البيت العتيق بالحجارة الكبار الصُّمّ... له خمسة مضاوٍ عليها زجاج عرافي بديع النقش، وفيه باب يسمى باب الرحمة، يصعد منه بواسطة الأدراج إلى

سطح البيت الكريم. ومرة أخرى تلفت نظره معاينة البيت: «فلا تُبصر الأعين إلا دامعة، ولا تسمع إلا ألسنة إلى الله داعية ضارعة، لا يمل النظر إليه ولا يسأم الطواف به...»

والبلوي ينقل بدوره عن «أخبار مكة» للأزرقي أن الطيور لا تنزل على سطح البيت إلا لمرض يصيبها مما أسلفنا التعليق عليه ...

وبعد أن يتحدث عن الممر الذي يطوف فيه النساء، يذكر أنه جدد ترصيعه، ونمّق تنميقاً بديعاً، وهو يحمل تواريخ مرسومة، ومنها ما نصه: «أمر بعمارة المطاف الشريف سيدنا ومولانا الإمام الأعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ... وذلك في سنة إحدى وثلاثين وستمئة».

وهو يحدد موقع (الحِجْر) بأنه من الركن العراقي إلى الركن الشامي يقابل الصفح الذي فيه الميزاب، وفي ارتفاع جدار الحِجْر ستة أشبار إلى آخر وصفه لهذه البقعة المقصودة التي يحتضن صحنها، بمقربة من جدار البيت، قبر إسماعيل عليه السلام...

ويصف الميزاب والمادة المكونة له ... ثم يصف مقام إبراهيم بما عرفناه من النصوص السالفة ... قائلاً: وبإزاء المقام الكريم منبران كبيران حسنان، فيهما ضروب من قطع الخشب الملون المتخير المتنقى، والجديد منها منقوش من جميع جهاته، وتاجه مذهب بأبدع نقش، منقوش عليه برسم الذهب ما نصه: «مما عمل برسم الحرم الشريف في شهور سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة».

وفي حديث عن زمزم قال: إن ماءها يذهب بالحمى والصداع.. وإنه يأتي عليها زمان تكون فيه أعذب من النيل والفرات... وقبة زمزم تقابل الركن الأسود إلى آخر الوصف.

وبظاهر جدار القبة المباركة مكتوب بالخط الرائق المذهب ما نصه: «دعا الله لمن أسس هذه السنة الحسنة من هذا الحرم الشريف في سنة ثمان وعشرين وسبعمئة».

وقد قال عند حديثه عن "قبة الشراب" التي تلي قبة بئر زمزم: إنها يليها قبة أخرى. وهما على عهد البلوي مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف[1] وكتب وشمع

(١) لا ندري هل كان مع المصاحف المصحف الذي أهداه العاهل المغربي يوسف إلى مكة سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م قبل المصحف الذي سيكتبه بيده أبو الحسن ويبعثه مع ركب الحاج إلى مكة سنة ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م قبل أن يبعث بثالث بخطه كذلك إلى بيت المقدس سنة ٧٤٦هـ. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٧، ص ٣٠٣-٣١١.

وغير ذلك.

ثم كان الحديث عن ذرع المسجد الحرام برمته على ما هو معروف بسواريه الرخامية والجصية.

وتخلّص بعد هذا لتأكيد أن للحرم الشريف أربعة أئمة، ولكل واحد منهم صلاته في حطيم له، يقول البلوي: إنه مصنوع من الخشب البديع النجارة، فالمالكية تصلّي في حطيمها قبالة الركن اليماني، والشافعية في حطيمها خلف المقام، والحنفية في حطيمها قبالة الميزاب، والحنابلة تقابل في حطيمها بين الحجر الأسود والركن اليماني ...

وتحدق بهذه المواضع كلها مشاعل توقد في صحاف من حديد فوق خشب مركوزة، فيتقد الحرم الشريف كله نوراً، وتوضع بين أيدي الأئمة في محاريبهم ...

ويتحدث البلوي عن الصوامع التسع، وعن الأبواب التي تبلغ نيفاً وأربعين باباً ... يعدّها عداً اقتداء بالأسلاف ... غير مهمل الميل الذي يرمل الساعي عنده ... وقد نقش عنده: «أمر بعمارة هذا الميل عبدالله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره سنة ثلاثة وسبعين وخمسمئة ...».

وكان مما سجله البلوي في عهده أنه كان بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حافلة بجميع أنواع الفواكه وغيرها من الحبوب والمبيعات وغيرها ... مضيفاً إلى هذا أن الطريق إلى مكة ذاتها ملتقى الصادر والوارد؛ فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر ... من البُرّ إلى الدُّرّ على ما ردد السابقون ... من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعقاقير الهندية ... ومجلوبات الحبشة إلى الأمتعة العراقية واليمانية إلى السلع الخراسانية، وكذا البضائع المغربية إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط ..

ويتحدث عن أبواب مكة: باب المعلى القريب من المقبرة، ثم باب المسفلة، ثم باب الزاهر أو باب العمرة الذي يتوجه منه إلى التنعيم أقرب ميقات المعتمرين..

وفي أثناء حديث مشابه لما عرفناه عند التّجيبي عن مشاهد مكة ومعالمها يسجل أنه كان هناك نقش على قبة السيدة خديجة أم المؤمنين هذا نصه: «تقرب إلى الله بعمارة

هذا الموضع الشريف المنسوب إلى خديجة، ومسكن الرسول ومهبط الوحي، العبد الفقير إلى رحمة الله مولانا السلطان ابن السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي خادم الحرمين الشريفين .. وذلك بتاريخ شهر صفر سنة ست وثمانين وستمئة».

إلى آخر ما يرويه عن الموضع الذي ولد فيه الرسول ... وقد نقش فيه: «هذا ما أمر بعمله عبدالله وخليفته الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد أمير المؤمنين ... في سنة ست وسبعين وخمسمئة».

وفي سفح جبل أبي قبيس مسجد محتفل البناء كتب عليه: هذا المسجد كان مولد علي بن أبي طالب، وفيه تربى رسول الله، وكان داراً لأبي طالب عم النبي ﷺ...

وقد ذكر من مشاهد مكة المكرمة دار أبي بكر الصديق، قال: وهي اليوم دار سكة الأمير، مما يعني أنه كانت هناك دور لضرب العملة ...

وعلى ما هو مألوف لدى الرحّالين المغاربة الذين بلغوا الحرمين الشريفين فإنهم كانوا إلى جانب اهتمامهم بالمعالم التاريخية والمشاهد التراثية كانوا يهتمون بوصف الحالة العلمية، ومن هنا رأينا البلوي ـ وقبل أن يكمل الحديث عن مناسك حجه ـ يخصص طائفة من الورقات للحديث عن الذين تعرف إليهم من أهل العلم والفكر ممن كانوا قبساً له في طريقه لاستكمال معارفه. وهكذا يخص بالذكر من أعيان هؤلاء:

* فارس المنابر وإمام الأئمة ومقتدى فرق الأمة أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عمر المكي المالكي المشهور بخليل، الذي كانت الأعناق متعلقة إليه، والركبان منثالة عليه، ماثلة بين يديه، سامعون لأمره، متصرفون عن إذن من قوله وفعله ... أكلته الأيام بشغف الزهادة، وهو على ذلك من أصبر الخلق على إلحاح السائلين واختلاف القاصدين ... والمهم أن نذكر أن الشيخ خليلاً هذا أجاز البلوي بجميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة مطلقة عامة.

والجدير بالذكر هنا أن هذه الشخصية هي التي نعتها المقّرى سابقاً بإمام الوقت، وهي التي تحملّ أيام زيارة ابن بطوطة لمكة المكرمة سنة ٧٢٦هـ لقب (إمام الموسم) الذي يعني أنه المرجع الأول والأخير في كل ما يتعلق بموسم الحج، سواء من الناحية الأدبية أو المادية[١].

(١) رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، ج١، ص٣٨٧-٣٨٨.

وكان من أولئك الرجال أيضا أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي، شيخ علم وذكاء، حسن الشارة، مستحسن الإشارة، دراية تعضدها رواية وسماع، وينعقد عليها اتفاق وإجماع ... وأسانيده مكتوبة في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ... لقيه البلوي بحرم مكة تجاه الكعبة المعظمة فسمع منه كثيراً من حديث رسول الله ﷺ .

والمهم أن نذكر أن البلوي في تتميم الحديث عن مناسك الحج يذكر أنه خرج في اليوم الثامن من ذي الحجة، يعني يوم التروية، إلى منى، ويصف هنا ازدحام الخلائق التي كانت الأرض تموج بهم ... ولا يفوته أن يصف الهوادج التي تسيل في أباطح مكة وشعابها، وعن الإبل التي زينت بأنواع التزيين[1] فتراها تتهادى تهادي العرائس في الكلل، وترفل في قلائد الذهب وأستار الديباج في الحلي والحلل، فلا تبصر إلا سجفاً تسحب على وجه الأرض، وتشبه في وشيها وشي الروض، خلائق تملأ في الطول والعرض.

ويصف منى التي عاين فيها ليلة من أعذب ليالي الدنيا ... حيث عادت الأرض ثريًّا بما يوقد فيها من الشمع والمشاعل .... ويتحدث عن منى كمدينة عظيمة الآثار إلا أنها درست إلا منارة حسنة محدثة النزول تحف بجانبي الطريق.

وهنا يذكر مسجد البيعة التي عقدها العباس للنبي ﷺ ، ثم إلى عرفات، وما أدراك ما عرفات! التي يجب ألا تختلط ببطن عُرَنة الذي أمر الرسول ﷺ بتجنبه...

وهنا نجد الحديث عن جبل الرحمة الذي يحتوي أعلاه على قبة تنسب إلى أم سلمة... وفي أسفل هذا الجبل دار عتيقة البنيان في أعلاها غرف لها طيقان ... وهنا صهاريج للماء وجباب ... وهنا مسجد يخطب الخطيب فيه يوم الوقفة التي صادفت هذا العام يوم الأربعاء، ولقد كان الخطيب هو إمام الموسم نفسه الذي تقدم الحديث عنه.

وبعد أن يصف الوقفة وما يصحبها من توسلات وتضرعات يسقط قرص الشمس فيدفع ويشير الإمام إلى الانصراف بدفع الناس بالنفر دفعاً ... وترتج الأرض وترتجف الجبال ... ورعدت الطبول، وخفقت البنود، وخرجت من بين العلمين تلك الجنود إلى

(١) الوصف يذكر فيما يقوم به الهنود لتزيين الأفيال وتجميلها عند المناسبات الكبرى ...

أن وصلوا إلى المزدلفة بين العشائين ... وقد اتقد هذا المشعر الحرام بالمشاعل من الشمع المسرج ... حتى « يخيل للناظر أن كواكب السماء كلها نزلت به » على حد تعبير الحجاج السابقين واللاحقين.

وهنا يتحدث البلوي عن تنافس الخراسانيين وسواهم من أهل العراق والشام على إنارة المكان، فيا لها من ليالٍ مشرقة! وكذلك فإن هذه الفئات تتنافس في نصب القباب والخيام والأروقة والسرادقات ...

وكما سمعنا في المغرب عما نسميه بالبربرية (أفراك)؛ المدينة المتحركة التي يتخذها الملوك المغاربة من الخيام من مختلف الأحجام المؤدية لشتى الأغراض، وعليها جوامير ذات تفافيح مذهبة، قرأنا للبلوي وصفاً أعظم وأشمل للسرادقات التي كانت تنصب على هيئات عظيمة غير معروفة لديه، فترى أحدهم من الأمراء والكبراء قد أحدق به سرادق كالسور، نسيج كتان وكأنه حديقة بستان، وزخرفة بنيان، وفي داخله القباب المضروبة، وهي كلها سواد في بياض، مشرقة ملونة كأنها أزهار رياض، ولهذا السرادق أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة، يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ثم يفضي منها إلى المنطقة التي تحتوي على القباب، فكأن أحدهم ساكن في مدينة قد أحدق بها سور وتنتقل بانتقاله، وتنزل بنزوله. قال البلوي: وهي من الأبهات الملوكية التي لم تعهد عند ملوك المغرب(١)، هذا إلى قباب بديعة المنظر عجيبة الشكل قد قامت كأنها التيجان المنصوبة أو الأخبية المضروبة، وتنقش أحسن النقش، وتملأ بأبهى الفرش ...

ويعود البلوي إلى الحديث عن ظاهرة الهوادج التي يقعد فيها الراكب مستريحاً أيّ مستراح، وبإزائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى، والقبة مضروبة عليهما، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران، فعندما يصلان إلى المرحلة التي يحطان بها ويضرب بها سِرادقهما ينزلان للحين إن كانا من أهل الترف والتنعيم فيدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه فينتقلان إلى ظل فيه المنزل

(١) يبدو أن البلوي لم يطلع على ما أهداه السلطان أبو الحسن إلى ملك مصر السالف الذكر عند ذكر حج الأميرات.

دون شر فيح يلحقهما، ولا خطفة شمس تصيبهما، وناهيك من هذا الترفيه، وهذا المحمل النبيه، فهؤلاء لا يلقون في أسفارهم وإن بعدت مشقة ولا نصباً، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً!

وكأن الحديث عن هذه الفئة من الحجاج استهواه، ونسي الحديث عن الطبقات الأخرى التي ترى في التعب والكد والجهد مكسباً أكثر للأجر والثواب، فعاد لينوه بالذين يحمِّلون أنفسهم مشقة المشي على الأقدام، وهنا يورد من الآثار ما يشجع الماشين، ويقوّي من عزمهم على الاقتداء بالسابقين . . .

ويعود ليخبرنا بأن الناس قضوا ليلهم بالمشعر الحرام (المزدلفة) في هذه الليلة العاشرة من ذي الحجة، فلما صلّوا الصبح غذوا منه إلى منى . . . إلى آخر ما يعرضه عن شعيرة الحج.

ويقيم البلوي بمنى إلى أن يخرج منها بعد رمي الجمرة الأخيرة وصلاة الظهر من يوم الأحد رابع يوم النحر ١٣ ذي الحجة فينزل بخارج مكة . . . وهنا أحرم مجدداً للقيام بمناسك العمرة من التنعيم (مسجد عائشة) بعد صلاة المغرب. ومن هنا أتى مكة حيث دخل الحرم الشريف للطواف والسعي إلى أن قضى ذلك في النصف الأخير من ليلة يوم الاثنين خامس عيد الأضحى. وودع المسجد الحرام وانصرف بعد أداء فريضة الحج والعمرة في اتجاه المدينة المنورة.

ابن بطوطة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م

- أربع رحلات وسبع حجات

لا أعتقد أن رحالة من الذين قصدوا الحجاز استطاع أن يكتب مثل ما كتبه ابن بطوطة عن مكة المكرمة كماً وكيفاً، شكلاً ومضموناً، فقد ظلت مكة المكرمة شاخصة في مذكراته عند كل منعرج من تحركاته حتى أرج الحجاز ... ويكفي أن له أربع رحلات إلى مكة، وسبع حجات، وأنه صام فيها ثلاث رمضانات، وهذا ما لم يتيسر لغيره، وهو ما ضرب به ابن بطوطة الرقم القياسي.

لقد تحدث عن مكة كمدينة، وتحدث عن المسجد الحرام بها، وعن الكعبة، وعن الميزاب، وعن الحجر الأسود، وعن المقام، وعن الحجر، وعن المطاف، وعن بئر زمزم، وعن القباب، وعن أبواب المسجد، وعن المشاهد التي تحيط به، وعن الصفا والمروة، وعن المقبرة، وعن المشاهد التي توجد خارج مكة، وعن الجبال، وعن الأمراء الذين كانوا يحكمون مكة عند مقامه بها، وعن فضائل أهل مكة، وعن القاضي، وعن الخطيب، وعن إمام الموسم، وعن الشخصيات النابهة بها، وعن المجاورين، وعن العادات المتبعة في رعاية الكعبة، وعادة أهل مكة في صلواتهم بها ومواضع أئمتهم في المسجد، وصلاة الجمعة، والعادة عند ظهور هلال شهر رجب، والزيارات، وليلة النصف من شعبان بمكة، ورمضان، وشهر شوال، وإحرام الكعبة، والاحتفالات المتبعة، وإسهام الحجاج في كسوة الكعبة، وما حدث بمكة من فتن.

وكل هذا الاستيعاب في الحديث عن مكة لم يكن بمناسبة حجته الأولى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م؛ لأن الفترة كانت ضيقة، فقد دخل مكة في آخر ذي القعدة، وخرج منها في العشرين من ذي الحجة. كما لم يتم ذلك الحديث في حجته السادسة؛ لأن الفترة كانت أيضاً قصيرة.

وإنما أخذ الرحالة وقته عند مقامه بمكة مجاوراً طوال ثلاث سنوات: ٧٢٨ و٧٢٩

و٧٣٠هـ، وأيضاً بمناسبة حجته السابعة والأخيرة عندما صام رمضان بها للمرة الثالثة.

ومن هنا يمكننا أن نلاحظ أن الرحالة لم يكن حريصاً عند التأريخ لمشاهداته على التدقيق حول هل كان هذا الحديث أو ذاك تم سنة ٧٢٦هـ، أو سنة ٧٤٩هـ، ولكن المهم عنده كان هو أن ينقل إلى القارئ ما يتعلق بمكة وما يتعلق بأمرائها منذ القيام بحجته الأولى، وهي صياغة إنما نعتب فيها على الناسخ ابن جزي الذي لم يكن له من الوقت ما يمحص فيه بين ما جرى عند الحجة الأولى أو الحجة السابعة!

وتوقياً لهذا التداخل، فقد رأينا ألاّ تبقى الرحلة واحدة، ولكنها تقسم أربع رحلات على ما كان واقعها، فنذكر بعض مذكراته عن الرحلة الأولى، وبعض مذكراته عن الرحلة الثانية التي استمرت ـ كما قلنا ـ ثلاث سنوات، ثم الرحلة الثالثة، ثم الرحلة الرابعة.

الرحلة الأولى ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م

في حجته الأولى موسم ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م، كان يريد أن يسلك الطريق نفسها التي سلكها قبله ابن جبير، أي أنه يمر عبر البحر الأحمر إلى الحجاز، لكنه صادف ظروف حرب شبّت بين دولة المماليك والبجاة، وهذا ما عطل الطريق البحري وأرغم ابن بطوطة على أن يعود أدراجه إلى سلوك طريق « درب الشام » كما كانوا يقولون.

وهكذا انتظر ببلاد الشام وصول موعد الموسم فوجدناه يصل إلى مكة المكرمة نحو ٢٠ ذي القعدة من سنة ٧٢٦هـ / ١٨ أكتوبر ١٣٢٦م.

ويهمنا أن نعرف انطباعه ـ كسائر الحجاج ـ وقد وجد نفسه أول مرة في مكة في المسجد الحرام وأمام الكعبة التي نستقبلها كل يوم.

لقد نعت مكة بأوصاف ثلاثة فهي حرم الله ... ومبدأ انطلاقة خليله إبراهيم، ومبعث صفيه عليه الصلاة والسلام.

وقد دخل المسجد الحرام ـ على ما هي السنة ـ من باب بني شيبة، باب السلام.

وقال عن الكعبة: إنها كالعروس تتجلى على منصة الجلال، وترفل في بردة الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة الرضوان... وبعد أن يلخص الحديث عن طواف القدوم، واستلام الحجر الكريم، وأداء الركعتين بمقام إبراهيم، والتعلق بأستار

الكعبة .. وبعد شرب ماء زمزم، والسعي بين الصفا والمروة... بعد ذلك يعود لانطباعاته عن الكعبة قائلاً: إن من عجائب صنع الله أنه طبع القلوب على النزوح إلى هذه المشاهد المنيفة والمعاهد الشريفة، وجعل حبها متمكناً في القلوب... حكمة من الله بالغة... يهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق... وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها... فإذا جمع شمله بها تلقاها مسروراً مستبشراً كأن لم يكابد محنة ولا نصباً..! إنشاء في هذا القبيل يقتبسه من العبدري، ولو أنه لم يذكره باسمه على نحو ما كان يذكر ابن جبير.

إنه لأمر إلهي وصنع رباني، لا تشوبه شبهة، ولا يطرقه تمويه. وهنا يردد ابن بطوطة تلك الجملة الفريدة الدالة التي أشرنا إليها ونحن نعيش مع مذكرات العبدري، تلك الجملة التي حيرت كل الذين حاولوا ترجمتها إلى اللغات الأخرى! قال: إنها تقوّي بصيرة المستبصر، وتسدد فكرة المتفكر ... بمعنى أن الواقف أمام هذه المشاهد لا يخلو إما أن يكون من الذين أنعم الله عليه بنور البصيرة فهو يزداد إيماناً، وإما أن يكون من "المتفلسفين" الذين يزعزعهم الزيغ والمروق، فهؤلاء عند وقوفهم أمام هذه السيول من البشر المتحركة ليل نهار، هؤلاء الصنف من الناس يشعرون وكأن شحنة عظيمة تأخذهم، فترجع بهم إلى طريق السداد والصواب..

لقد أنعم الله على من رزقه الوصول إلى تلك الأرجاء - يقول ابن بطوطة - وحق له أن يشكر على ما خوله، ويديم الحمد على ما أولاه، فبذلك يعرف الله ...

وبعد هذه المشاعر ... يقدم وصفاً لمدينة مكة المكرمة التي يقول: إنها كبيرة متصلة البنيان ... تحف بها الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها، وهنا يقدم وصفاً لتلك الجبال المطلة على المدينة بمواقعها وأسمائها ... ثم يذكر أبواب المدينة كذلك.

ولا يفوت الرحالة المغربي أن يلتفت لذكر ما أنعم الله به على هذه البقعة الشريفة من خيرات تجلب إليها من كل مكان لا فرق بين قريبه وبعيده...

ويعود إلى المسجد الحرام ليذكر أنه يقع وسط المدينة، وأنه متسع الأرجاء، ويحاول أن يقدم مساحته بالأذرع ناقلاً ذلك عن الأزرقي الذي يظل دليلاً معتمداً لدى الرحالة.

ومرة أخرى يعرب عن عجزه أمام وصف الكعبة العظيمة ومنظرها البديع ومرآها الجميل ... متخلصاً لوصف المسجد الحرام عندما كانت بلاطاته لا تتجاوز الثلاث ... وعندما كانت سواريه تترواح بين أربعمئة وسبعين أو تسعين ... ويتحدث عن المساطب المتناثرة بالمسجد.

ويخصص ابن بطوطة ـ علاوة على هذا ـ فصلاً لمبنى الكعبة الماثلة وسط المسجد، فيحاول أن يقدم إلينا مقاييس لها بالأذرع والأشبار من جميع جهاتها ... كما يذكر عن مواد بنائها المحكم الذي لا تغيره الأيام، ولا تؤثر فيه الأزمان ... ويتحدث عن بابها العظيم مذكراً أن المكان بين الباب والحجر الأسود هو المسمى بالملتزم، ثم يتحدث عن ارتفاع الباب عن الأرض، وسعته وطوله، وأنه مصفح بصفائح الفضة ...

وعلى نحو حديث ابن جبير عن الكرسي المتحرك المعدّ لدخول الكعبة، على نحو ذلك يردد ابن بطوطة الحديث مؤكداً دور بني شيبة إلى الآن في رعاية هذا البيت العتيق..

وعلى نحو ما قاله سابقوه فإن الحَمَام ـ حسب ملاحظته ـ لا ينزل على سطح الكعبة، ولا يعلوها في الطيران ...

وبعد حديث عن الميزاب يتحدث عن الحجر الأسود، ويؤكد معلومة طريفة رددتها مصادر تاريخ المغرب قبل ابن بطوطة، ويتعلق الأمر بإسهام جماعة من المغاربة في مقاومة القرامطة الذين جرؤوا على العدوان على الحجر الأسود(١). والحديث عن التزاحم على الحجر الأسود وعلى باب الكعبة يردده ابن بطوطة، ولكن بصفة أقل حدة من سابقيه: ابن جبير والعبدري.

ويأخذ مقام إبراهيم من الوصف حظه في حديث ابن بطوطة على نحو أسلافه... وكذلك ناحية الحجر؛ حجر إسماعيل عليه السلام.

ويخصص ابن بطوطة حيزاً لماء زمزم، وهو يقول: إن داخل قبتها مفروش بالرخام الأبيض، وينقل عن الناس ما ذكروه من أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة، لكنه لم يعلق على ذلك بما علق عليه سابقه العبدري من التشكك في ذلك..!

(١) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٤، ص١٤٤-١٤٥، رقم الإيداع القانوني ٢٥، ١٩٨٦، مطابع فضالة ـ المحمدية ـ رحلة ابن بطوطة، تقديم وتحقيق د. عبدالهادي التازي، المجلد الأول ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص ٣١٤-٣٧٣، رقم الإيداع القانوني ٣٢١-١٩٩٧.

كما يخصص ابن بطوطة فصلاً لأبواب المسجد الحرام ... وما يحتف به من المشاهد الشريفة قبل أن يعدد الصوامع المجاورة.

الرحلة الثانية ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م

حجاته الثانية والثالثة والرابعة والخامسة

لقد أتى ابن بطوطة في رحلته الأولى إلى مكة من غربها، أما في رحلته الثانية هذه فقد أتاها من الشمال، من العراق، من الكوفة حيث وصلتُ ـ يقول الرحالة ـ مكة زادها الله شرفاً وتعظيماً، وطفتُ بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم، وكنت ضعيفاً بحيث كنت أؤدي الصلاة المكتوبة قاعداً، فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكباً على فرس أمير الركب (العراقي) وهو البهلوان محمد الحويج ...

وبهذه المناسبة ـ مناسبة عودته إلى مكة مع العراقيين سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م ـ يذكر أن فعل العراقيين مع المجاورين والفقراء كان على نحو ما حكاه عند حجته الأولى، فقد أكثروا من الصدقة لدرجة أن سوم سعر الذهب بمكة نزل!! على نحو ما قيل عند حجة إمبراطور مالي مانسا موسى.

وشهد ابن بطوطة بأن اسم سلطان العراق أبي سعيد بهادور ذكر سنة ٧٢٧هـ على منبر مكة وعلى قبة زمزم اعترافاً بأريحيته.

ويفيد ابن بطوطة أنه كان يوجد في وقته بين الصفا والمروة رباط يسكنه المجاورون عوض دار العباس التي كانت هناك، وقد بنى هذا الرباط الملك الناصر ملك مصر، وبنى أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين (وسبعمئة) ... وعليها ربْع يسكنه خدمها، وقد نولى بناء ذلك الأمير غلام الدين بن هلال الدولة الشيزري، وكان السلطان ندبه لعمارة المسجد الحرام سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م.

قال: ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين[١] (٢٦ أكتوبر عام ١٣٢٧م)، فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال من مرضي، ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة، وكان بها الأمير علاء الدين، فشيد الدواوين مقيماً لعمارة دار الوضوء بظاهر

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٤٩.

العطارين من جهة باب بني شيبة . . .

ويخبرنا ابن بطوطة أنه ورد على مكة المكرمة في تلك السنة عدد من المصريين بقصد المجاورة، منهم جماعة من كبراء كبرائهم، فيهم تاج الدين بن الكُويك، ونور الدين القاضي، وزين الدين بن الأصيل، وابن الخليلي، وناصر الدين الأسيوطي . .

ويخبرنا بأنه سكن تلك السنة بالمدرسة المظفرية، وأن الله عافاه من مرضه فكان في أنعم عيش، وتفرغ للطواف والعبادة والاعتمار.

وأتى في تلك السنة كذلك (٧٢٨هـ) حجاج الصعيد، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفوني، والأخوان علاء الدين وسراج الدين ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر.

قال: وفي منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك، ووصل معه في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي، وكان منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن القاضي ابن أبي العباس ابن القاضي أبي القاسم الجُراوي، والفقيه ابن عطاء الله، والفقيه الحضري إلى آخر اللائحة الطويلة . . . وعلاوة على هذه الأعداد من المغرب يخبر الرحالة أنه وصل في تلك السنة أيضاً سيف الدين تقزدمور من الخاصكية، وهذا ما يؤكده ابن حَجَر في الدرر الكامنة، وكذا سائر المصادر الشرقية مما يؤيد مصداقية معلومات ابن بطوطة . . .

وقد وصل أيضاً في هذه السنة الأمير موسى بن قرمان، والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك، والتاج إسحاق، وكذا الست حَدَق مربية الملك الناصر، وكانت لهم صدقات حميمة بالحرم الشريف.

وقد حرص ابن بطوطة على أن يخبرنا ـ كما هي عادة الحجاج ـ بأن وقفتهم في هذه السنة ٧٢٨هـ كانت يوم الجمعة(١) . . .

ويستمر ابن بطوطة مجاوراً، ويخبرنا بأن هذه السنة الجديدة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م وصل إلى مكة أحمد ابن الأمير رُميثة، ومبارك ابن الأمير عُطيفة من العراق صحبة الأمير محمد الحويج، والشيخ زاد الحرباوي، والشيخ دانيال، وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٥٢.

وأهل مكة من قِبل سلطان العراق أبي سعيد الذي سمعنا اسمه يذكر في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ... وقد دعوا له بأعلى قبة زمزم، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد[١] علي بن داود بن يوسف المظفر (المتوفى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م).

ويفيدنا ابن بطوطة أن الأمير عُطيفة ابن الأمير أبي نُمَي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحَسني[٢] (وكان يشرك أحياناً في حكم مكة أخاه رميثة) لم يوافق على ذلك وبعث شقيقه منصوراً ليعلم الملك الناصر بذلك، فأمر رميثة برده فرد، فبعثه عطيفة ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك.

ويخبرنا ابن بطوطة أن الوقفة كانت سنة تسع وعشرين وسبعمئة يوم الثلاثاء (٣ أكتوبر ١٣٢٩م).

ويبدو أن ابن بطوطة استطاب المقام بهذه الديار فقرر أن يجاور أيضاً طوال عام ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م، حيث أتيحت له الفرصة أن يقف على عددٍ من المعالم والمشاهد ويتعرف أكثر أحوال المدينة ورجالها وعاداتها وطبيعة الحياة في المسجد الحرام كذلك.

وهكذا، ففيما يتصل بحكم الأميرين المشتركين معاً في حكم مكة، يذكر أن الأمير رميثة هو الأكبر سناً، لكن الخطيب يوم الجمعة يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة المكرمة لعدله، قال: ولرميثة من الأولاد أحمد وعجلان ...

« ... إن الطبول تضرب على باب دار كل واحد منهما عند صلاة المغرب في كل يوم ... » يقول ابن بطوطة، الذي يخص أهل مكة بحديثٍ عن فضائلهم وأخلاقهم... كان على عكس سلفه العبدري يشيد بمكارمهم من غير تحفظ ولا تصنيع ... فهو يؤكد أنهم يلتفتون إلى الفقراء والمنقطعين والمجاورين ... وينفقون على الأيتام والصغار ... هذا إلى أناقةٍ في اللباس والهندام، وهم يستعملون الطيب ويكتحلون ويحرصون على

(١) يذكر ابن بطوطة هنا اسم نور الدين، والذي وجدناه عند الزركلي ما ترى، وما كان حديثا يفترى!

(٢) يشير ابن بطوطة إلى الطبقة الرابعة من الحكام الأشراف للحرمين بعد طبقة الموسويين والسليمانيين والهواشم ... وحديثه عن الشراكة في الحكم بمناسبة حجته الأولى صحيح، لكن حديثة عن عجلان سابق لأوانه، فإن عجلان إنما كان أميراً لمكة عند عودة ابن بطوطة سنة ٧٤٩هـ، وهكذا نجد أن الرحالة المغربي يدمج هنا معلومات لاحقة، وتلك عادته في عدد من الإفادات التي كان يقحمها في غير مكانها.

نظافة أسنانهم . . .

وسمح ابن بطوطة لنفسه بكشف بعض الحالات التي قد يرى بعض الناس في الحديث عنها حرجاً أو حياء . . . قال: "ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال وذوات صلاح وعفاف، وهنّ مولعات بكثرة التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً! وهن - يقول ابن بطوطة - يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحةُ طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عميقاً! وهذا ما يذكرني بقول امرئ القيس:

إذا قامتا تضوع المسك منهما

نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل!

ولعمري إنها ظاهرة تعبر وحدها عن قمة اعتناء السيدة بمظهرها وحرصها على الاحتفاظ بجانبٍ كبير مما يندرج - على ما أرى - في الأثر المروي: «إن لنفسك عليك حقاً»!!

ويتحدث ابن بطوطة عن الأطر المتنفذة المُشرفة على تسيير الحياة بمكة المكرمة، وأهمها إطار قاضي مكة، وخطيبها، وكذا إمام الموسم الذي يعدّ الركن الأساسي في حياة الموسم إلى جانب العلماء والصلحاء، ويسمي قاضي مكة على عهده نجم الدين محمد ابن الإمام محيي الدين الطبري(١) الذي يمطره ابن بطوطة بجميل الصفات الإنسانية الرفيعة، وخاصة إطعام الطعام في المواسم، ولا سيما بمناسبة مولد الرسول . . . وكان سلطان مصر الملك الناصر يعظمه، وعلى يديه كانت توزع نفقات الأمراء . . . وقد أمسى ولده شهاب الدين قاضياً بمكة . . .

وبعد ذكر القاضي يأتي دور خطيب مكة بمقام إبراهيم حيث الموضع المخصص للخطبة، وقد كان الخطيب يحمل اسم بهاء الدين محمد بن عبد الله الطبري المترجم في الدرر الكامنة لابن حجر . . . كان أحد الخطباء الذين ليس لهم في المعمور مثال بلاغةً وحسن بيان . . . ينشئ في كل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد . . .

---

(١) رحلة ابن بطوطة: تحقيق د. التازي، ج١، ص٣٨٧– تعليق ١٨٧.

لكن الجديـر بالذكـر أكـثـر هـو الإطار الجـديـد الذي نسـمعـه إلى جـانب القـاضي والخطيب، هو إمام الموسم، الذي يعهد إليه بعلاج كل القضايا المهمة التي تطرح في الموسم على ما قدمنا، وقد كان بالمصادفة أيام هذا الرحالة هو إمام المالكية بالحرم الشريف الشيخ أبو عبدالله محمد بن أبي زيد عبد الرحمن المشتهر بخليل، أصله من بلاد الجريد من إفريقية، من أسرة بني حيون الأندلسيين ... كان إمام الموسم هذا كريم النفس حسن الأخلاق كثير الشفقة لا يرد من سأله خائباً ... تلك كانت صفة المسؤول الأول عن الموسم؛ موسم الحج ...

ويتناول ابن بطوطة جانباً آخر من جوانب أهل مكة: ذلك أنهم كانوا لا يتناولون الطعام في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، يتخلل ذلك في سائر النهار تناول بعض حبات من التمر، قال: ولذلك صحت أبدانهم، وقلّت بينهم الأمراض والعاهات ..!

وكان من أعلام مكة المكرمة على ذلك العهد إمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان، ومنهم إمام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي ... يطعم المجاورين وأبناء السبيل ... ومنهم إمام الحنابلة المحدث محمد بن عثمان البغدادي وهو نائب القاضي ...

ومن أعلام مكة المكرمة الذين لفتوا نظر ابن بطوطة الفقيه زين الدين الطبري شقيق نجم الدين السالف الذكر، من المجاورين، ومنهم الفقيه محمد بن فهد القرطبي .. ومنهم العدل محمد بن البرهان ...

وبالمناسبة يستمر في ذكر بعض المجاورين من الذين كان لهم حضور بمكة من أمثال الإمام العالم عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي ... وأمثال القاضي العابد نجم الدين الأصفوني ... وأمثال الشيخ شمس الدين محمد الحلبي وأمثال أبي بكر الشيرازي المعروف بالصامت؛ لأنه يقتصر على العبادة ولا يتكلم! وأمثال خضر العجمي الصائم ... وبرهان الدين العجمي الواعظ، وأمثال المقرئ برهان الدين إبراهيم المصري، وأمثال الثريّ عز الدين الواسطي الذي يوزع ما يرد عليه من أموال من بلاده على الضعفاء، يتولى حملها بنفسه إلى عناوينهم، وأمثال الفقيه المغربي أبي الحسن علي بن رزق الله الأنجري الذي كانت له صلة بوالد ابن بطوطة كلما زار مدينة

طنجة، وكان الأستاذ الأنجري يعطي دروساً بالمدرسة المظفرية على أن يعود لسكناه برباط ربيع الذي كان يتوفر على بئر عذبةٍ لا نظير لها بمكة. هذا الرباط الذي يزوّده أهل الطائف بمختلف الفواكه ... وأمثال أبي العباس الغماري الذي سكن كذلك رباط ربيع ... وأمثال أبي يعقوب يوسف من بادية سبتة وقد أصبح شيخاً للرباط المذكور ... وأمثال أبي الحسن علي بن فرغوس التلمساني وسعيد الهندي شيخ رباط كلالة ...

وابن بطوطة وهو بمكة المكرمة هذه المرة يتحدث عن رجالها، كلّ وانشغالاته واهتماماته، ويجد الفرصة أحياناً مناسبة للاستطراد بذكر حقائق تاريخية قد تكون من الأهمية بمكان على نحو ما نراه وهو يتحدث عن الشيخ سعيد الهندي الذي قصد ملك الهند محمد بن تغلق فأعطاه مالاً عظيماً قدم به مكة المكرمة؛ حيث طلب إليه الأمير عطيفة تسليمه ذلك المال، وهذا ما دفع بالشيخ سعيد إلى العودة إلى الهند حيث قام بأدوارٍ جدّ مهمة حول العلاقات الهندية العربية ...

وأخيراً يذكر ابن بطوطة من رجال مكة حسن المغربي خديم نجم الدين الأصبهاني الذي كان يلقب بالمجنون، ويظن ابن بطوطة أنه أصلاً ينتمي إلى مدينة آسفي ...

وبعد هذا يتصدى الرحالة المغربي لتسجيل عادات أهل مكة في عدد من عاداتهم سواء فيما يتصل بالعبادات أو المعاملات، وهكذا يذكر مركز الإمام الشافعي كأول الأئمة إيثاراً وتقدماً من قِبَل أولي الأمر ... إلا أن مما يلاحظ أن الدعاء للخلافة العباسية المعروفة أيام ابن جبير لم يعد هو أيام ابن بطوطة؛ لأن أولي الأمر بالأمس غيرهم اليوم..!

ويذكر ابنُ بطوطة أن صلاة إمام الشافعية تكون خلف مقام إبراهيم في حطيم له هناك بديع.

ويقدم الرحالة المغربي تعريفاً لمصطلح الحطيم بصياغةٍ جديدة غير الصياغة التي أتى بها ابن جبير في عصره. لقد كان ابن جبير وصف حطيم الشافعية بأنه «سياج من خشب عظام، بائنة الارتفاع، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة، فيتصل منها فضاء يكاد يمسك نصف الحرم عرضاً، ووصلت بالحطيم المذكور، ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الأذرع المذكورة، وعلت طبقات أخرى حتى

استكملت ثلاث طبقات، فكانت الطبقة العليا منها خشباً مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف لاصقاً بعضها ببعض كظهر الشَّيْهَم (القنفذ)، نصبت عليها الشموع، والطبقات تحتها ألواح مثقوبة ثقباً متصلاً وضعت فيها زجاجات المصابيح، ذات الأنابيب المنبعثة من أسافلها » .

تلك كانت صياغة ابن جبير، لكن صياغة ابن بطوطة كانت أكثر تطوراً وحداثةً عندما قال : « إن الحطيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلّم تقابلها خشبتان على صفتهما، وقد عقد الكل على أرجل مجصصة، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد تعلق فيها قناديل زجاج . . . »

« وبعد صلاة الإمام الشافعي في حطيمه يُصلي إمام المالكية في محراب بالركن اليماني، ويصلي إمام الحنابلة معه في وقتٍ واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلى إمام الحنفية قبالة الميزاب في حطيم له هناك . . . »

هكذا ترتيبهم في الصلوات الأربع، قال ابن بطوطة ملاحظاً ما لم يلاحظه الرحّالون قبله : « وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقتٍ واحد، كل إمام يصلي بطائفته، ويدخل على الناس في ذلك سهو وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو سجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم مُصيخين كلٌّ أحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلاً يدخل عليه السهو !! »

أما عن عادة أهل مكة المكرمة في خطبة صلاة الجمعة في عهد ابن بطوطة الذي نؤكد مرة أخرى أنه زار مكة في عهد حكم المماليك، وليس في عهد حكم العباسيين، فإن عادتهم يوم الجمعة أن يلصق المنبر إلى صفح الكعبة الشريفة، فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويكون الخطيب لابساً السواد من كساء ملك مصر الملك الناصر . . . في يده الفرقعة، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عالٍ يسمعه مَن بداخل الحرم وخارجه، فيكون إعلاماً بخروج الخطيب .

ولا يزال ماشياً حتى يقترب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ثم يقصد المنبر، والمؤذن بين يديه لابس السواد، وعلى عاتقه السيف، وتركز الرايتان عن جانبي المنبر، فإذا صعد أول

درج قلده المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرون، ثم يضرب في الثاني ضربة، ثم في الثالث أخرى، فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعياً بدعاء خفي مستقبلاً الكعبة ...

ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، ويرد الناس عليه، ثم يقعد، ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد، فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبته التي يرضى فيها عن الخلفاء الأربعة، وعن سائر الصحابة، وعن عمي رسول الله (حمزة والعباس) وسبْطيه (الحسن والحسين)، وأمهما فاطمة الزهراء، وخديجة جدتهما ...

أما عن عادة أهل مكة في استقبال شهور العام، فإن أمير مكة يأتي في أول يوم من الشهر ... يحتف به قواده وهو لابس البياض، فيصلي عند المقام ركعتين، ثم يقبل الحجر الأسود ويشرع في طواف الأسبوع ... فعندما يكمل الشوط الأول ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين من أعلى قبة زمزم بالدعاء له والتهنئة بمطلع الشهر ... ويفعل به هكذا في الأشواط السبعة... فإذا فرغ منها ركع ركعتين عند الملتزم (ما بين باب البيت العتيق والركن الأسود)، ثم ركع خلف المقام أيضاً ركعتين ثم ينصرف.

ويستمر هذا التقليد عند مطلع كل شهر إلا عند شهر رجب الذي نجد له تقليداً متميزاً؛ حيث يستقبل الشهر بضرب الطبول وعزف البوقات[1]، ويخرج أمير المدينة راكباً مع أهل مكة فرساناً ورجالاً على ترتيب عجيب، يلعبون بالأسلحة بين يدي الأميرين اللذين يصحبهما أولادهما وقوادهما ... يسيرون حتى ينتهوا إلى ميقات التنعيم، ثم يأخذون في الرجوع إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن من أعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط، فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وعند المقام. وخرج إلى السعي فيسعى راكباً ... إنه يوم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب.

لقد شاهدتهم - يقول ابن بطوطة - في ليلة السابع والعشرين من رجب وشوارع مكة قد غصت بالهوادج إلى ميقات التنعيم ... والنيران مشعلة بجنبي الطريق، والشمع

---

(١) يلاحظ أن أدوات الموسيقى كانت حاضرةً في المواسم الدينية على ما سنرى متجلياً أكثر في العصور اللاحقة.

والمشاعل أمام الهوادج ... والجبال تجيب بصداها إهلال الملبين ... فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة ... والمسعى متقد السرج غاص بالناس، والساعيات في هوادجهن ... وهم ينعتون هذه العمرة بالأكمية على نحو ما قرأناه عند ابن جبير؛ لأنهم يحرمون من أكمةٍ أمام مسجد عائشة بالتنعيم السالف الذكر.

وأهل الجهات الموالية لمكة المكرمة جميعهم يبادرون إلى حضور عمرة رجب، ويجلبون من خيرات بلادهم ... «ولولا أهل هذه الجهات لكان أهل مكة في شظف من العيش»! يقول الرحالة المغربي ...

وبعد رجب تأتي ليلة النصف من شعبان فيكثر أهل مكة من أعمال البر ... من طواف وصلاة، جماعات وأفذاذاً، يصلون مئة ركعة يقرؤون في كل ركعةٍ بأم القرآن وسورة الإخلاص يكررونها عشراً ...

أما عن عادة أهل مكة في رمضان فإن الاحتفالات تبتدئ في المسجد الحرام، من تجديد الحصر - على ما أسلفنا - وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نوراً، ويسطع بهجة وإشراقاً. وتتوزع الأئمة فرقاً: وهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية.

وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء ... ولا تبقى ناحية من الحرم إلا وفيها قارئ يصلي بجماعته ... وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين، والشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً...

وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذنون التَّسحير في الصوامع؛ أي مؤانسة الذين يتناولون سحورهم وتنبيههم لوقت السحر ... وقد نصبت القناديل في أعلى المنارات ليكون إطفاؤها دليلا على انتهاء وقت السحور ...

وفي كل ليلةِ وترٍ من ليالي العشر الأواخر يختمون القرآن ... على يد أحد أبناء الأكابر من أهل مكة على نحو ما قرأناه عند ابن جبير ... وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين، واحتفالهم فيها أعظم من احتفالهم بسائر الليالي ... وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم القائم في الحرم.

ويتقدم الإمام فيصلي فريضة العشاء الأخير، ثم يبتدئ بسورة القدر التي يكون إليها

انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها، وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً لختمة المقام؛ مقام إبراهيم . . . فيختم الإمام في تسليمتين، ثم يقوم خطيباً . . . فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم . . .

ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المحراب المالكي الذي نصبت الأعواد بإزائه على شكل دائرة محراب، كما وضحه ابن جبير . . . لكن ابن بطوطة يقول: إن ذلك تم «في منظر مختصر، وعن المباهاة منزه موقر . . .»

ولو عاش ابن بطوطة اليوم وشاهد مآدب الإفطار التي تشمل الخاص والعام، داخل المسجد الحرام، في نظام وانتظام، وبما يعلو من صفاء ووئام، لكانت صياغته للكلام على غير هذا المرام . . !

ويكون شأن أهل مكة في شوال ـ وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات ـ شأن الشهور المعتبرة، كالأعياد: إيقاد المشاعل وإسراج المصابيح في الصوامع في سائر الجهات، وفي سطح الحرم وفي سطح المسجد الذي بأعلى جبل قبيْس . . . ويتسابق الناس إلى الحرم لصلاة العيد في مكة لا يوجد على ظهر الدنيا أفضل منه . .

وبنو شيبة أول من يبكِّر للمسجد . . . فيفتحون باب الكعبة، إلى أن يأتي أمير مكة فيستقبلونه ويطوف بالبيت أسبوعاً (أي سبعةً) . . . والمؤذن فوق قبة زمزم يدعو له ولأخيه . . . ويأتي الخطيب فيصلي خلْف المقام، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبته، فإذا فرغ أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام . . . ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى للترحم على أرواح الجم الغفير ممن تحتضنهم المقبرة من رجال الفضل والخير . . .

ولا يبقى بعد هذا اليوم إلا اليوم السابع والعشرون من ذي القعدة الذي تشمر فيه أستار الكعبة من جهاتها الأربع صوناً لها من الأيدى أن تنهبها، ويسمون ذلك إحرام الكعبة، وهو يوم مشهود، ولا تفتح فيه الكعبة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة.

ويستمر ابن بطوطة في ذكر عادات أهل مكة عند استقبال الشهور، فيذكر أنهم عند استقبال شهر ذي الحجة تضرب الطبول في أوقات الصلوات بكرةً وعشية؛ إشعاراً بالموسم المبارك، ولا تزال الطبول تضرب كذلك إلى يوم الصعود لعرفات، فإذا كان اليوم السابع

من ذي الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر يعلم الناس فيها مناسكهم وما هم مقبلون عليه يوم الوقفة، فإذا كان اليوم الثامن يبكر الناس بالصعود إلى منى على ما هو معروف.

وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشموع، ولكن التفوق يرجع دائماً إلى أهل الشام، فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفات فيمرون في طريقهم بوادي محسر الذي يعدّ الحد بين مزدلفة ومنى... ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين وفيه جبيل صغير هو الذي يطلق عليه المشعر الحرام، وحول المزدلفة مصانع وخزانات للماء مما بنته زبيدة زوجة أمير المؤمنين هاورن الرشيد.

ويصف ابن بطوطة عرفات(١) بمثل ما وصفها به ابن جبير منبهاً للتحفظ من بطن عُرَنة الذي أمر النبي ﷺ بالارتفاع عنه.

وأخيراً، وبعد موسم الحج والوقوف بعرفة سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م الذي لم يعين اسم يومه، والذي نرجح أنه صادف يوم السبت أو الأحد (٢٣ سبتمبر ١٣٣٠م...)، بعد ذلك يخبرنا بحادثة خطيرةٍ عاشها بُعَيد الوقفة وقد أوشك الموسم على النهاية، ويتعلق الأمر بما ذكر عن أن تجاراً من أهل اليمن تعرضوا لسرقة، فشكوا أمرهم إلى إيدمور ... فقال إيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة: أحضر هؤلاء السراق! فقال الأمير: إنه لا يعرفهم، فكيف يأتي بهم؟!

وأضاف هذا الأمير قوله: إن أهل اليمن تحت حكمنا، ولا حكم لك عليهم! فلو تعرض أهل مضر والشام للسرقة حق لك أن تطلب مساعدتي!

وهنا شتمه إيدمور بأقبح الشتائم ... وضربه على صدره وأسقطه أرضاً، ووقعت عمامته عن رأسه! وغضب عبيد الأمير ... وركب إيدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ..! ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر.

ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة، قيل: إنها كانت تحرض أهل مكة على القتال، وركب من بالركب من الأتراك وأميرهم كذلك، فخرج إليهم القاضي والأئمة المجاورون

(١) لا بد أن ننبه هنا على خطأ وقع فيه ناسخ رحلة ابن بطوطة عندما ذكر أن لعرفة ثلاثة أسماء. إن الأسماء هي للمزدلفة التي تحمل هذا الاسم كما تحمل اسم الجمع، والمشعر الحرام... فعندما كان الناسخ ينقل من ابن جبير كان متسرعاً. قال ابن جبير: وتسمى المزدلفة المشعر الحرام، وتسمى جمعاً، فلها ثلاثة أسماء.

وفوق رؤوسهم المصاحف، وحاولوا الصلح...

ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها بعد موسم الحج ووقوف عرفة، وانصرفوا إلى مصر. وبلغ الخبر الملك الناصر فشق عليه الأمر، وبعث العساكر إلى مكة المكرمة، ففرّ الأمير عطيفة وابنه مبارك، وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة، فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولأولاده، فأمنوا، وأتى رميثة، وكفنه بيده، إلى الأمير فخلع عليه، وسلمت إليه مكة المكرمة وعاد العسكر إلى مصر، وكان الناصر حليماً فاضلاً كما تدل عليه هذه الحادثة...

وهكذا نرى أن معظم إفادات ابن بطوطة عن مكة المكرمة كان الفضل يرجع فيها إلى رحلته الثانية وإقامته مجاوراً بمكة، حيث حج أربع حجات متوالية ...

الرحلة الثالثة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م

لقد أتى ابن بطوطة هذه المرة ليس من غربها، ولا من شمالها، ولكن من شرقها، عندما وجدته ظروف الرحلة في اليمامة التي تحمل اسم حَجْر (بفتح الحاء وتسكين الجيم)، كما يضبطها ابن بطوطة، وهي اليوم الرياض العاصمة الرسمية للمملكة العربية السعودية.

فمنها انطلق صحبة أميرها طفيل بن غانم، وذلك سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة[١] (أغسطس ١٣٣٢م) حيث وصل إلى مكة المشرفة ...

وقد سجل ابن بطوطة في مذكراته لهذه السنة أن الملك الناصر سلطان مصر حج هذه السنة في جملة من أمرائه، وهي كما يقول آخر حجةٍ حجها الناصر، فقد أجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين ...

ولم يتردد ابن بطوطة في الاستطراد بذكر الحادثة التي روتها تواريخ مصر، والتي تقول: إن الناصر قام بقتل الأمير أحمد الذي يذكر أنه ولده، وقتل كبير أمرائه بكتمور الساقي أيضاً[٢] ... ويرسمه تقي الدين المقريزي هكذا: أيدمر.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج ٢، ص٢٤٨.

(٢) المقريزي: الذهب المسبوك في ذكرى من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مصر ١٩٥٥م، ص٩٩-١٠٦، ج ٣، ص٢٤٩.

وإذا كان المقريزي قد تستر على أسباب هذا التصرف الذي تم في يوم شديد الحرارة، على حد تعبير ابن بطوطة، فإن ابن بطوطة وهو أقرب للحدث من المقريزي يذكر قصة مثيرةً ورهيبة ينبغي العودة إليها في المجلد الثاني من الرحلة(1) ...

لقد كانت رحلة ابن بطوطة هذه المرة قصيرةً وسريعة؛ ولذلك فإننا لا نتوفر على معلومات أكثر مما عرفناه عن مقامه في أثناء مجاورته بمكة المكرمة ...

الرحلة الرابعة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م

يأتي ابن بطوطة هذه المرة الرابعة والأخيرة لأداء حجته السابعة عبر البحر الأحمر التي كان يحلم بها أول مرة سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م التي تعذرت بسبب الحرب القائمة بين الأتراك المماليك والبجاة على ما عرفناه من الرحلة.

لقد سافر من القاهرة إلى بلاد الصعيد، إلى عيذاب، وركب البحر ليصل إلى جدة، ومنها إلى مكة التي وصلها في الثاني والعشرين من شعبان سنة تسع وأربعين وسبعمئة / ١٦نوفمبر ١٣٤٨م)(2) ...

لقد وجد أن أمير مكة هذه المرة هو الأمير عجلان(3) بن رميثة الذي كان والده تنازل له عن مكة شراكة مع أخيه ثقبة قبل أن يقوم الملك الصالح إسماعيل ملك مصر بإفراد عجلان بالحكم بمكة، ثم شرك معه إخوته ثقبة وسنداً ومغامساً!

لقد كان من حظ الشريف عجلان أن يذكر في الجزء الأول من الرحلة عندما استطرد ابن بطوطة بقوله وهو يذكر أبناء الشريف أبي نُمَيّ: «وعجلان هذا أمير مكة في هذا العهد» يعني في سنة ٧٤٩هـ عندما كان ابن بطوطة في طريق العودة، وبهذا نتأكد من استرواح ابن بطوطة أو الناسخ ابن جزي الذي لم يرتب الرحلة حسب تسلسلها التاريخي.

لقد نزل ابن بطوطة في هذه المرة بجوار إمام المالكية الولي الفاضل أبي عبدالله محمد

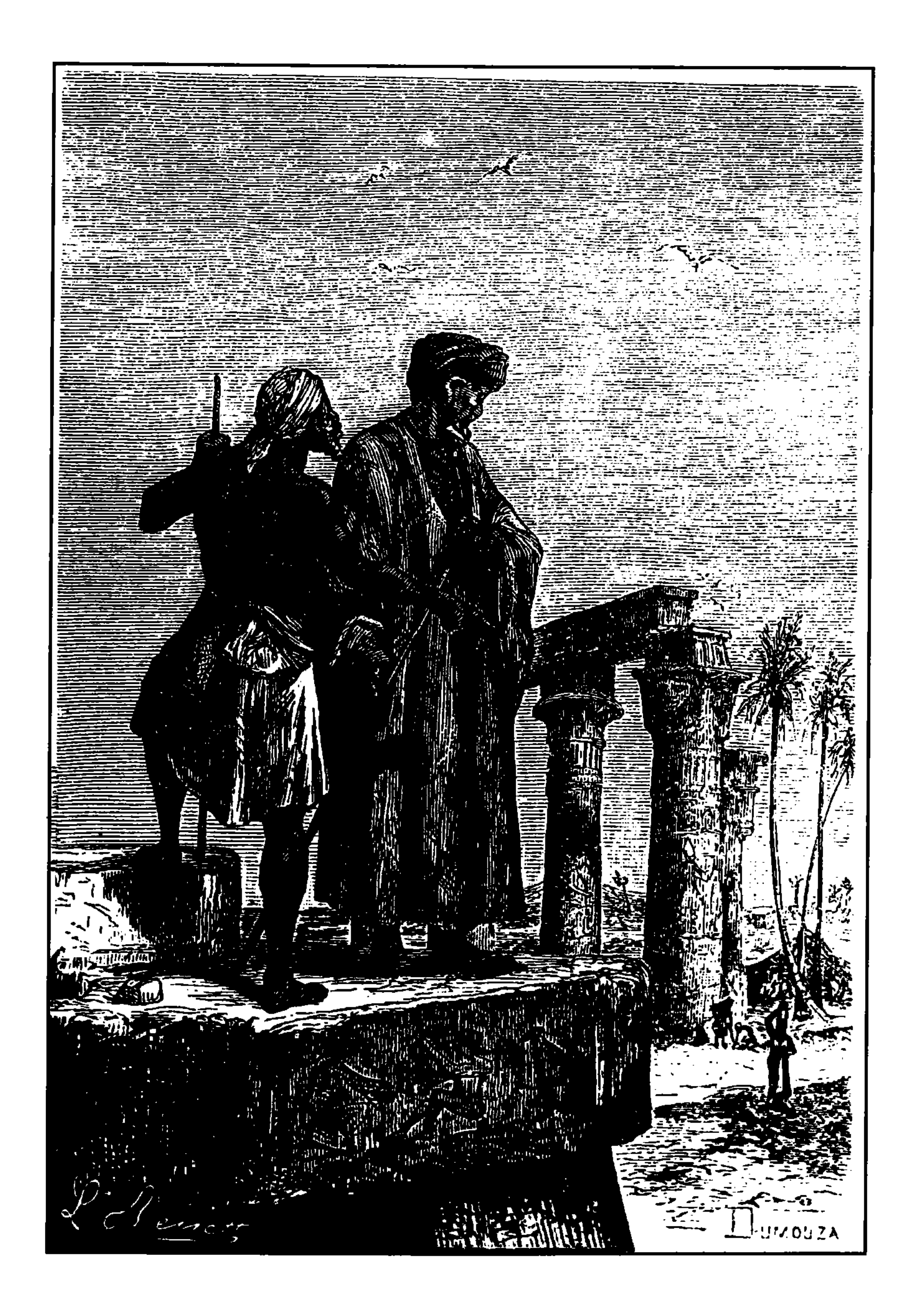
(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٤٩ – ٢٥٠.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج ٥، ص٣٢٤.

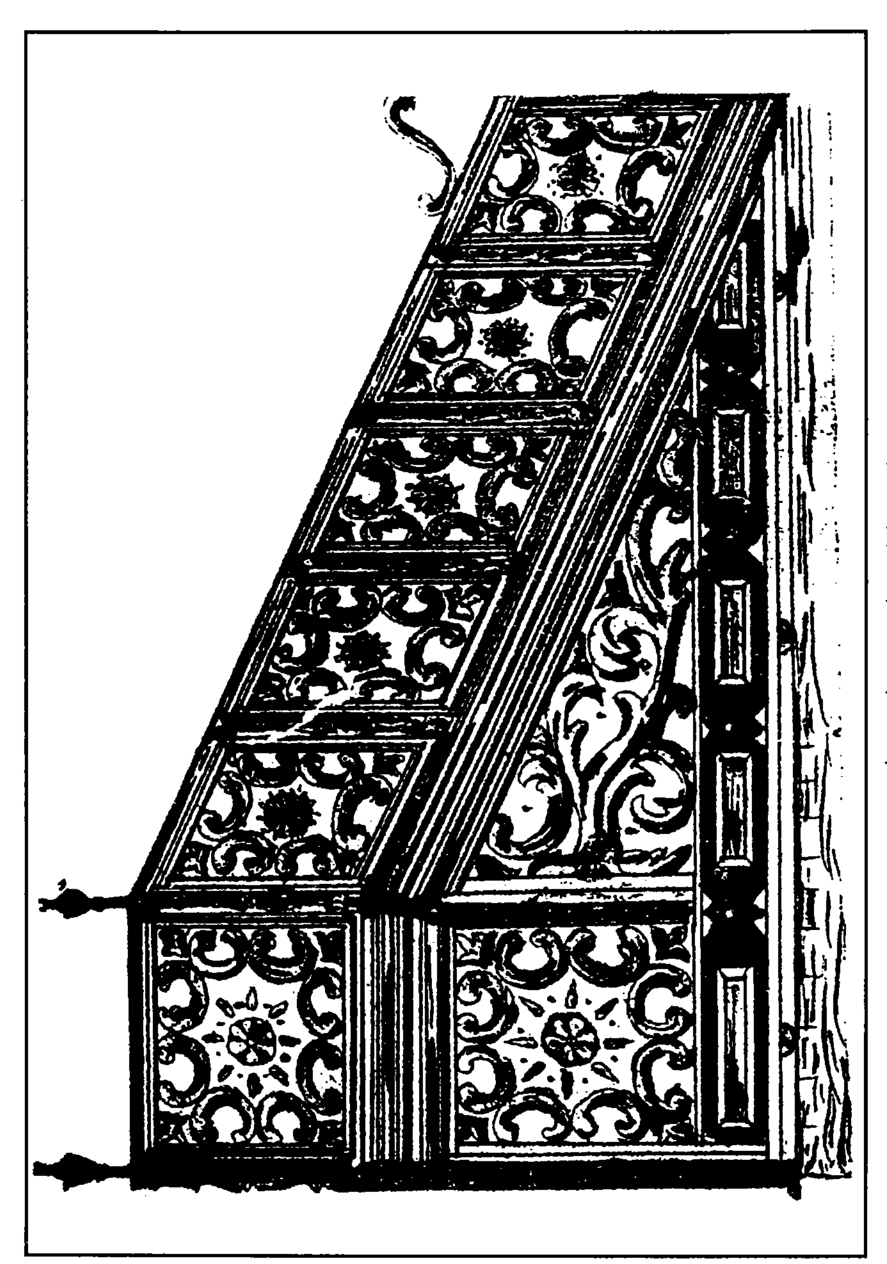
(٣) راجع التعليق عند الحديث عن الأشراف الحسنيين أبناء قتادة، وانظر رحلات ابن بطوطة، ج١، ص٣٤٤.

ابن عبد الرحمن المدعو بخليل الذي تحدث عنه في المرة الأولى على أنه إمام الموسم، فصام رمضان بمكة، وكان يعتمر كل يوم على مذهب الشافعي كما يقول، ويخبرنا أنه لقي بمكة ممن كان يعهده من أشياخها شهاب الدين أحمد بن علي السنجري الحسيني إمام الحنفية، وشهاب الدين الطبري الذي عوض والده في القضاء محمد بن محيي الدين، وأبا محمد عبدالله بن سعد بن علي بن سليمان اليافعي الشافعي، ونجم الدين الأصفوني السالف الذكر عند الحديث عن المقام الأول لابن بطوطة بمكة المكرمة، وكذا أحمد بن قاسم بن عبدالرحمن العمري الحرازي . . .

ويبدو أن ابن بطوطة كان يعيش في زحمة وقت وهو في طريقه إلى بلاده المغرب؛ ولذلك فإن وقته لم يسمح بتعيين يوم وقفته على عرفات، واقتصر على القول: إنه حج تلك السنة التي هي سنة تسع وأربعين وسبعمئة دون أن يعطينا معلومات أكثر عن مكة المكرمة.



ابن بطوطة



المنبر الخشبي لخطيب الجمعة في المسجد الحرام

ابن مرزوق ٧٨١هـ / ١٣٧٩م

رافق الخطيب ابن مرزوق نحو سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م والده الشيخ أحمد في سفره إلى الحجاز لأداء فريضة الحج؛ حيث تعرف في هذه الرحلة عدداً من أعيان العلماء بالمشرق، وقد تولى هو نفسه ذكرهم في تأليفه «عجالة المستوفي المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز»(١). ونحن نقتصر هنا على ذكر من أخذ عنهم بمكة، وهم:

شرف الدين أبو عبدالله عيسى بن عبد الله الحجي المكي، هكذا في الإحاطة، وزين الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي، وشرف الدين خضر بن عبدالرحمن العجمي، وحيدر بن عبدالله المقرئ، وبرهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الآبلي المصري، ومصلح الدين الحسن بن عبدالله العجمي، وأبو الصفاء خليل بن محمد بن عبدالله بن أسعد الشافعي، وفخر الدين عثمان ابن أبي بكر النويري المالكي، وشهاب الدين أحمد بن الحرازي اليمني، ونجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبدالله بن المحب الطبري، وجلال الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن براجين القشيري التلمساني، وشرف الدين عيسى بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب، وفاطمة بنت محمد بن أبي بكر بن أيوب (أخت المذكور قبلها)، وفاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري المكية، وأبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان المراكشي السفاح، وعز الدين أبو عمر عبدالعزيز بن محمد ابن جماعة الكناني.

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص١٠٥، ١٠٦. تحقيق عبدالله عنان، القاهرة ١٩٧٥م. انظر مقدمة المسند الصحيح الحسن، تحرير الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر ١٩٨١م، ص٣٣، ٣٦، ٤٩، ٥٠.

ابن خلدون ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م

ونحن نتحدث عن الذين رحلوا إلى الحجاز، ودخلوا المسجد الحرام، وعبروا عن شعورهم إزاء تلك المشاهد، نرى من المفيد أن نشير إلى ابن خلدون الذي تحدث في مذكراته عن قضاء الفريضة ... وخروجه لهذا الغرض في منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمئة إلى مرسى الطور؛ حيث ركب البحر من هناك عاشر الفطر ووصل إلى الينبع لشهر، فوافي المحمل ورافقهم من هنالك إلى مكة ودخلها ثاني ذي الحجة (١٤ ديسمبر ١٣٨٧م) فقضى الفريضة في تلك السنة (حيث صادف الوقفة يوم الجمعة) ثم عاد إلى الينبع فأقام به خمسين ليلة حتى تهيأ له ركوب البحر[1] ...

ويتساءل الناس وخاصةً من أمثال الذين يعرفون عن باع ابن خلدون في تسجيل مذكراته: لماذا اختزل الحديث عن مكة المكرمة والبيت الحرام ؟! ونحن نجد الجواب عن هذا "الاختزال" فيما كتبه قبل هذا التاريخ سنة ٧٧٩هـ، أي بأكثر من عشر سنوات، في مقدمته الشهيرة لكتابه الموسوعة (العِبَر) بما كتبه عن هذه البقاع المقدسة.

قال: « ... وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به، وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة، وفرض شعائر الحج ومناسكه، وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والإجلال ما لم يوجبه لغيره، فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم، وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره، وحمى العائذ به والراتع في مسارحه في مأمن من مواقع الآفات، فلا يرام فيه خائف، ولا يصاد له وحش، ولا يحتطب له شجر ... »

قال: وحدُّ الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع، ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة، ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشائر.

---

(١) تاريخ ابن خلدون: العبر، طبعة دار الكتاب اللبناني ١٩٨٣م، ج١٤، ص١٠٧٥.

بهذه العبارات العميقة الدالة يقدم ابن خلدون البلد الحرام ...

وهو إلى هذا يذكر أسماء البيت الحرام، ويشرح الفرق بين مكة وبكّة ... قبل أن يذكر أن الأمم منذ عهد الجاهلية كانت تعظمه، وكانت الملوك من أمثال كِسرى وغيره تبعث إليه بالأموال والذخائر.... وقد وجد رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، في الجُبّ الذي كان فيها، سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان الملوك يهدون للبيت، فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمئة قنطار وزناً ... إلى آخر الحديث الذي نقل بعضه عن الأزرقي مضيفاً إليه ما نقله عن البخاري بسنده إلى أبي وائل الذي كان يروي عن شيبة بن عثمان.

وليس هذا فحسب، ولكن ابن خلدون الذي لم يفصّل الحديث عند حجته سنة ٧٨٩هـ عاد في مقدمة تاريخه ليذكر ما اعتدنا أن نقرأه عند سائر الرحالين عن المساجد الثلاثة التي تعدّ أفضل بقاع الأرض: مكة والمدينة وبيت المقدس... تعدّ قرة عين المسلمين، ومهوى أفئدتهم، وعظمة دينهم. وهو يقول عن البيت الحرام الذي بمكة: إنه بيت إبراهيم، أمره الله ببنيانه وأن يؤذّن في الناس بالحج إليه، فبناه هو وابنه إسماعيل، وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحِجر (بكسر الحاء وتسكين الجيم)...

ويعود ابن خلدون لتتبع آثار مكة المكرمة، فيتحدث عن أوليتها منذ عهد آدم قبل أن يهدمها الطوفان بعد ذلك، وقبل أن يبعث الله إبراهيم، وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف، وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة، فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما، وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ...

واتخذ إسماعيلُ بموضع الكعبة بيتاً يأوي إليه، وأدار عليه سياجاً، وجعل عليه زرباً ... وجاء إبراهيم مراتٍ لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب، فبناه واستعان في ذلك البناء بإسماعيل، ودعا الناس إلى حجه. واستمر الناس يهرعون إليه من كل أفق من جميع أهل الخليقة ممن دنا أو نأى ...

ثم أصاب البيت سيل، وتهدم فأعادوا بناءه ... وصادف الحال أن انكسرت سفينة

بساحل جدة الميناء الرئيس لمكة، فاشتروا خشبها واستعملوه للسقف ... وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثماني عشرة ذراعاً، وكان الباب لاصقاً بالأرض فجعلوه فوق القامة لئلاً تدخله السيول ...

وبقي البيت على هذا البناء إلى أن تحصن عبدالله بن الزبير بمكة حين دعا لنفسه، وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية ... ورمي البيت سنة أربع وستين بالنفط فأصابه حريق ... وأعاد بناء البيت على أحسن ما كان ... بعد أن اختلفت عليه الصحابة في بنائه، واحتج عليهم بقول رسول الله ﷺ لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم» ... وهكذا جعل فرشها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب.

ثم جاء الحجاج لحصار ابن الزبير أيام عبد الملك، ورمى على الكعبة بالمنجنيقات إلى أن تصدَّعت حيطانها، ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما كان بناه، فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هو اليوم، يعني ابن خلدون عندما زارها لأداء الفريضة ... فكل البناء الذي فيه اليوم مزيج من بناء ابن الزبير وبناء الحجاج ... لُحمة ظاهرة بين البناءين ...

وبعد أن يُسهم ابن خلدون في مناقشة ما يقوله الفقهاء في أمر الطواف بناءً على تلك التغيرات يعود إلى ذكر مساحة البيت الحرام ... وتطور الزيادات فيه عندما كثر الناس ... إلى زيادة المنصور وابنه المهدي إلى أن استقرت على ما هي عليه في عهدنا، يقول ابن خلدون.

أتينا بمعظم هذه الإفادات لنؤكد القول بأن ما ترك ابن خلدون ذكره وهو يقوم بالرحلة إلى الحج سبق أن قاله في المقدمة بما لا مزيد عليه، ومن ثمَّت ساغ لنا تسجيل هذه الرحلة أداء للأمانة وحرصاً على جمع النظائر والأشباه.

القلصادي ٨٩١هـ / ١٤٨٦م

هذا عالم آخر من علماء المغرب الكبار أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي، المعروف عند الناس جميعاً بأنه عالم رياضي؛ لأنه متضلع من علم الحساب(١)...

ويهمنا في هذه المناسبة ملاحقة الرجل وهو يقوم بأداء مناسك الحج بمكة المكرمة التي وصلها في الثلث الأول من ليلة الجمعة ٢٩من رمضان سنة ٨٥١هـ / ٨ ديسمبر ١٤٤٧م.

ومعنى هذا أنه من الحُجَّاج الذين اتفق لهم أن أدّوا مناسكهم في الفصل الذي نعدّه فصل شتاء بالنسبة إلينا في المغرب.

وقد دخل المسجد الحرامَ من باب إبراهيم عليه السلام (٢): «وحين أشرفنا على الكعبة الشريفة - يقول القلصادي - رأينا ما يدهش الناظر، ويحير الفكر والخاطر، بما خصها الله به من الهيبة والتعظيم ...».

وكسائر الذين كتبوا مذكراتهم حول الحج يصف القلصادي طوافه وصلاته خلف مقام إبراهيم؛ مستقر الأمن والأمان، قبل أن يخرج للسعي، وقد استطرد هنا بذكر بعض أصحابه الأندلسيين من أهل بسطة الذين صادفهم هناك ... ولم يُخْفِ سروره الكبير بوجوده في هذه البقعة الشريفة التي كان الوقت يمر فيها بسرعة، كما يلاحظ القلصادي.

وفي اليوم الموالي ينتقل إلى التنعيم ليقوم بأداء العمرة من مسجد عائشة، وكان من

(١) نشرت هذه الرحلة بدراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، ونشرتها الشركة التونسية للتوزيع عام ١٩٧٨م. سعاد الناصر: رحلة القلصادي الحجازية، مجلة الفيصل السعودية، العدد ٣١٣، ص٥.

(٢) يضيف القلصادي إلى اسم إبراهيم قوله: (عليه السلام)، مما يقتضي أن الباب منسوب إلى نبي الله إبراهيم. وهو سهو من الشيخ القلصادي رحمه الله. والمعروف عند الذين تحدثوا عن هذا الباب أنهم ذكروا أن إبراهيم المنسوب إليه الباب كان خياطاً يجلس عند الباب، وأن من نسبه إلى إبراهيم الخليل من أمثال ابن جبير في رحلته السابقة الذكر كانوا ساهين وقد كان الباب يحمل قديماً اسم باب الخياطين أو باب الحناطين على الخلاف في ذلك. انظر رحلة القلصادي، ص١٣٢، تعليق ٢١١. ورحلة ابن جبير، ص ٧٤.

الأصحاب الذين سر برؤيتهم الشيخ قاسم بن الحسن التلمساني الذي أصبح من المجاورين بمكة المكرمة، والذي خص القلصادي ببيته في المكان المعروف برباط الموفق الذي يفيد محمد أبو الأجفان أن القصد بالموفق: علي بن عبد الوهاب الإسكندري الذي وقفه سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) على مكة المكرمة ...

ولقد تذكَّر مع الشيخ قاسم أزماناً سلفت بتلمسان مع أشياخه ... كما أنه اجتمع بالفقيه الصدر أبي الفضل قاسم بن أبي حديد القسنطيني الذي أحلته الأقدار أيضاً بمقام الأمن والجوار، ونزح إلى طلب العلم هنا، وفاق النظراء من أهل زمانه ...

كما تعرف إلى الشيخ المرابط أحمد الزواوي ... وصديقه ورفيقه عيسى الزواوي، وكأنه كان على موعد مع هؤلاء الرفاق، وهذه منقبة من مناقب مكة المكرمة.

والطريف في حياة القلصادي بمكة المكرمة أنه قام هناك بشرح فرائض ابن الحاجب ... كما روى عن بعض المشايخ الموجودين هناك من أمثال العلامة الراوية المصنف شرف الدين أبي الفتح محمد ابن قاضي القضاة زين الدين المراغي المدني، وكتب أسانيده على كتب الحديث، بل إنه أجازه في ذلك وكتب له بخطه ...

وكما قرأنا عن الرحالين السابقين قام القلصادي بزيارة بعض المواقع التي اعتاد الحجاج أن يقصدوها لما لها من ذكرى في وجدانهم، وكانوا يقيمون بعيداً عنها ... وهكذا زار جبل ثور... وغار المائدة، وغار حراء، ومسجد البيعة، ومسجد الخيف، وغار المرسلات، وموضع الكبش ... والجعرانة التي كان النبي ﷺ أحرم منها على ما هو معروف.

كما زار بمكة موضع ميلاد النبي، وعليّ، وفاطمة، وقبة الوحي، ودار أبي بكر ... وكأنَّ بيده رحلة التجيبي «مستودع العلامة» يتتبع خطاها ...

وعند تفرغه لوصف أداء مناسك الحج تشعر بأنك مع فقيه مالكي يطبق جميع ما دونه المالكية حول الحج، وقد أحرم بحج الفريضة يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة من سنة إحدى وخمسين وثمانمئة (١٤ فبراير ١٤٤٨م).

ويستمر في طريقه فيذكر منى، ثم المزدلفة (المشعر الحرام)، ويصل إلى عرفات، والحج - كما نعلم - عرفات، وهنا يذكر أنه أقام بها إلى الغروب قبل أن ينصرف إلى

المزدلفة، هذا الانصراف الذي يعطيه الفقهاء مصطلح (الدفع) على نحو ما يعطون مصطلح (النفر) للانصراف من منى، يعني مغادرتها بعد إنهاء النسك.

وهنا يتردد الحديث عن الحصيات المطلوبة للرمي ... قبل أن يحلق الحاج رأسه ويقصد المسجد الحرام بمكة ليطوف طواف الإفاضة، ويسعى بين الصفا والمروة ...

ثم يرجع إلى منى لإنهاء عملية رمي الجمرات.

وعند نهاية هذه المرحلة يشد الرحال، ويرجع إلى مكة، فيدخل مكة ويطوف طواف الوداع.

ابن الصباح - القرن التاسع الهجري

لم يكن القلصادي آخر أندلسي قام بمناسك الحج، فقد أتى بعده أندلسي من المدجنين الذين أخذت اللغة العربية تغيب عنهم! وأخذوا يشعرون بأنهم في طريقهم إلى أن يتركوا دينهم الذي اعتنقه أجدادهم بالأمس! وهكذا نجد هذه الرحلة الغريبة العجيبة التي تتميز بأسلوبٍ خاص بها.

إنها رحلة طويلة لا نعرف عن صاحبها إلا أنه الحاج عبدالله الصباح الذي يؤكد أنه يمني الأصل من ذرية أبرهة بن الصباح الذي نقرأ عنه في تاريخ مكة ... يوجد أصل الرحلة بدار المكتبة الوطنية بتونس تحت رقم ٢٢٨٥، وهي من ثلاث وسبعين ومائتي ورقة، وتوجد لها صورة بالخزانة العامة بالرباط رقم ١٨٧٤.

ولم نتمكن من معرفة تاريخها بالضبط على الرغم من تتبعنا لغضون الرحلة عبر المراحل التي قطعها الرحالة انطلاقاً من حديثه عن الأندلس وملك بني الأحمر، ومروراً بسبتة وفاس ومراكش أيام مرين، وتلمسان أيام بني عبدالواد، وتونس أيام الحفصيين، ومصر أيام بقية المماليك.

كان يقول عن غرناطة ردّها الله دار إسلام(١) ... وهو يسأل الله أن يرزق الصَّبر للذين بقوا بالأندلس مما يذكرنا بالنصيحة التي قدمها المغراوي (ت٩٢٩هـ / ١٥٢٣م)(٢)، لكن الرحالة ابن الصباح يتحدث عن شخصيات لقيها، وعن إفادات سمعها ترجع إلى ما قبل هذا التاريخ ... ومن هنا كنت أعتقد أن نص الرحلة الذي يتحدث أحياناً عن ابن الصباح بقوله: رحمه الله، مكتوب من طرف موريسكي ثانٍ؛ ولهذا فإني أعتقد أن الرحلة التي بين أيدينا عملت فيها يدان اثنتان: أولاهما يد الرحالة ابن الصباح الذي يبدو أنه قام بالرحلة في القرن التاسع الهجري، ثم أتى بعده موريسكي

(١) سلمت غرناطة بمقتضى الاتفاق يوم ثاني يناير ١٤٩٢م / ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ.
د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٧، ص٣٢١ (يراجع آخر تعليق في هذا البحث).

(٢) المغراوي وفكره التربوي، تحقيق د. التازي، نشر مكتب التربية العربية لدول الخليج ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٨، ص١٣٠، رقم الإيداع القانوني ٢٥/١٩٨٦.

نسخ الرحلة... وتصرف فيها حسبما تجدد في القرن العاشر الهجري من أحداث.

وبعد هذا، فإننا نلاحظ أن أسلوب الرحلة كان هو الأسلوب الذي يوجد في أغلب المخطوطات الموريسكية الألخميادية(١). هذا وسنلاحظ أيضاً من خلال قراءة بعض المقاطع التي تتعلق بمكة بعض التجاوزات اللغوية والنحوية التي لا تخفى على القارئ، إلا أن الرحلة ذات فائدة كبرى سواء على صعيد الفائدة التاريخية أو الفائدة الاجتماعية، ونفضل أن نأتي بنصها كما هو حرصاً على تبليغ الصورة كما هي...

وهكذا، فبعد أن يتحدث ابن الصباح عن مروره بينبع للتزود بما يحتاج إليه من هذه السوق التي يوجد فيها حتى "لبن الطير" على حد تعبيره، وبعد أن يتحدث عن آلاف من المشاعل الكبرى التي تضيء الليل في وجه القاصدين قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، وبعد أن يصف وسائل النقل والاتصال، بما فيها الهوادج التي توفر الراحة للمسافرين وكأنهم في عرس يعيشون في بيوتهم أكلاً وشرباً ومناماً على نحو ما قرأناه في رحلة البلوي سالفة الذكر، وبعد الحديث عن رابغ والإشارة إلى الفرق بين حج الإفْراد والتمتع والقران، ثم إلى التجرد من المخيط من الثياب وارتداء لباس الإحرام والتزام النطق بالتلبية المطلوبة ...

بعد كل هذا يتحدث عن وصوله إلى مكة في فصل شديد الحرارة لم نصل إلى تاريخه بالضبط، وكأن التاريخ لا يهم ابن الصباح ! وهو يقول بعد كل هذا وبأسلوبه التلقائي البسيط:

قال المؤلف: والله لقد أحرمت بالإفراد وكشفت رأسي، ما كان إلا ثلث النهار ورأسي قد انتفخ من شدة الحرور كأنه قِدر الغَرب من متاع(٢) الحمَّام حتى غطيت رأسي وفديته!

---

(١) الحسين بوزينب: تقييم للكتابات الأعجمية الموريسكية، مجلة دار النيابة، السنة ٢، العدد السادس ١٩٨٥م، طنجة اللغة الموريسكية المسماة بالعجمية ضمن أعمال البحث اللساني والسيميائي، الدار البيضاء، ١٩٨١م. القيمة الحقيقيَة للرموز الخطية في الأدب الأعجمي ضمن أعمال الأدب الإلخاميات الموريسكية، تونس، ١٩٨٦م. الدين واللغة من خلال المكتوبات العجمية الموريسكية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموريسكية، تونس، ١٩٨٣م.

محمد رزوق: مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب للحجري الأندلسي أفوقاي، كلية الآداب، الدار البيضاء، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢) متاع في الاصطلاح المغربي تعني ديالك أو تبعك، والغرب: القُب.

ثم نرحلوا (كذا!) إلى بطن مرة على بعد مكة بثلاثة مراحل، ندخلوا (كذا) مكة، شرفها الله، فمنهم الركب الأول يدخلها أولاً ليأتي من مهل[1] في الجحفة، والغير الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس إلى اليوم السابع يوم التروية، يوم الطلوع إلى منى.

قال ابن الصباح: كل ما ذكرنا من مراحل برية الحجاز طروق (كذا) في وادي بين جبالٍ سود عالية مع السحاب حجارة بلا شجر ولا خضرة، الشجر الذي فيها بلا ورق! ومن شدة الحر جبال مكة والحجاز مسيرة شهرين سود مثل الحريق، تقول[2] الدخان جرى عليها والنار، بلاد حارة الشتاء والصيف كله فيها سواء، ودليل ذلك قوله عليه السلام: « من صبر على حرّ مكة وجوع المدينة ضمنت له على الله الجنة ».

وبمثل الشعور الذي هيمن على الرحالين السابقين من أمثال العبدري وابن بطوطة وهما يجدان أنفسهما في مكة المكرمة، في المسجد الحرام أمام الكعبة، على الرغم من كل المخاطر والأهوال التي تعترض سبل القاصدين إلى ذرية إبراهيم الذين تهوي إليهم أفئدة الناس، بمثل ذلك الشعور يعبر هذا الموريسكي الذي نراه يستحضر نعمة الله عليه بتمكينه من جوار هذا البيت الشامخ المنيف الذي كان منبع الخير والفضيلة بالنسبة إلى الطائفين والركّع السجود.

قال ابن الصباح: « والله لقد دخلت مكة، شرفها الله، ونحن نطوف بالكعبة الشريفة، وهلَّ علينا الهلال[3] ونحن طائفون بالكعبة الشريفة، فلله الحمد كثيراً كما هو أهله، والحمد لله الذي سلمنا الله من تلك المفاوز والقفار المهلكة والجبال الوحشة، كم من حاج ينتظرونه أهله (كذا) وهو قد مات على عطش! وكم من سلكها ولم يبلغ حجه، وكم من أنفق ماله ولم ينلْه منها شيئاً (كذا)، وكم من سلطان يتمنى النظر في تلك الكعبة الشريفة ولم يرها! وكم من أمير ووزير يريد المشي ولا يُحمل، وكم من يريد وصلها بالمال ولا يصل لها، وكم من مذنب يريد أن يطهر ذنوبه بالوقوف على عرفة ولا

---

(١) يلاحظ مهل عوض محل؛ لأن الأجانب لا ينطقون الحاء يبدّلونها هاء.

(٢) تقول بالدارجة الأندلسية المغربية تعني كأن أو مثل أو شبه.

(٣) لم نتمكن ـ كما أسلفنا ـ من التاريخ الذي تمت فيه الرحلة.

يُعطى، وكم من يتمنى الوصول إليها ولا يصل، وكم من واصل إلى نصف الطريق ولم يبلغ، وكم من بلغ إلى يومٍ منها ولم يبلغ! وكم من زعيم بماله ورجاله ولم يصل، وكم من غني زعيم بغناه ولم ينفعه غناه! وكم من فقير آيس يبلغ! وكم من حقير حقر لفقره وبلغ مراده! وكم من أموال اكتسبت وجمعت بالقناطير المقنطرة ولم يبلغ صاحبها الموضع الشريف! وكم من قليل بلغ بالعناية من عند الله ولم يحتج إلى مال ولا إلى زاد، ولا إلى ركوب إلا حملته العناية، ومن قال: ذلك الموضع لا يبلغ إلا بالمال والجمال والزاد والرواحل فقد نكر (كذا) نعمة الله وعنايته! بل الحامل هو الله سبحانه!».

قال المؤلف: بلغنا مكة والكعبة المشرفة وسلمنا عليها من باب بني شيبة المبارك علينا وعلى كل من رآه، ورأينا الكعبة وبكينا، ولذلك تسمى ببكة؛ لأنها تبكي من نظر إليها، ولو كان قلبه مثل الحجر يبكي بلا خلاف، فنحن لله الحمد وصلنا بعناية الله وجاوزنا بالحلال من بقية مال والدينا إذ كان مالاً حلالاً، وصلنا إلى هذا المقام، وجاورنا وبلغنا المراد من الله سبحانه وتعالى، واطهرنا من الذنوب السالفة، خرجنا إلى أبينا ودعونا كما وجب علينا... وأنه علينا نعم لا تحصى، فلله الحمد كثيراً والشكر ما دامت أرواحنا في أجسامنا، والروح والنفس تتمنى إلى يوم يبعثون يوم البعث، ويدخلون (كذا) المؤمنون الجنة، ونتوسل بسيد الأولين والآخرين، بنبينا وشفيعنا محمد العربي القرشي الهاشمي العدناني، خير ولد إبراهيم الخليل وإسماعيل الصادق، وصاحب الوعد الجميل ﷺ ما دام الداعون يدعون بالخير إلى محمد وآل محمد بالصلاة والتسليم إلى يوم الحشر والدين صلاة تفوح مسكاً وتعبق عبقاً بريح طيبة الجنة والرضوان، ما دامت الدقائق والساعات والأيام والجمع والشهور والسنون والأيام المباركة من الأعوام والدهور بعدد الشهور والحساب من جري الأيام، حتى يصير الناس فريق في الجنة وفريق في السعير صلاة متصلة برضاء الرب الكريم والمولى العظيم، إلى أن يحضروا سر حضرة القدس في الكرامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، آمين، نحن وجميع كافة المسلمين، ويشفع بعضنا في بعض، ويسلم بعضنا على بعض في دار السلام وجنات النعيم، والحمد لله رب العالمين.

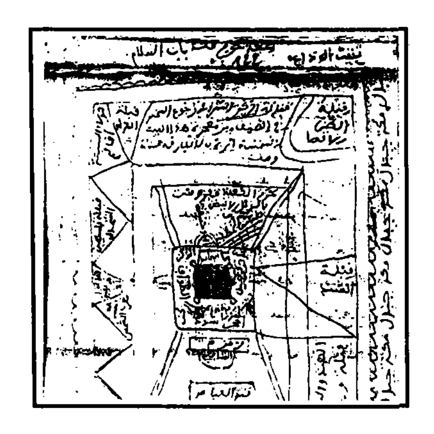
قال المؤلف رحمه الله: لما جاورت مدينة مكة المكرمة والكعبة الشريفة بيت الله الذي قامت عليه السماوات والأرض على وجه الماء قبل الأرض، وبعد ذلك من تحته دحيت الأرض، ومن تحته خلق الله التربة الذي (كذا) خلق الله آدمَ منها، ومن تلك التربة خلق الله جميع ألوان التراب، وعلى هذه البيت الشريفة (كذا) دوران الفلك والشمس والقمر والنجوم والبروج المزينات التي تسير فيها الشمس وهي خوبة الأرض وعجائبها لا تنحصر، ولكن ذكرنا منها الاختصار.

وهذه صفات عرفة والمزدلفة والمشعر الحرام، أعاد الله علينا وعلى المسلمين جميعاً من بركاتهم (كذا).

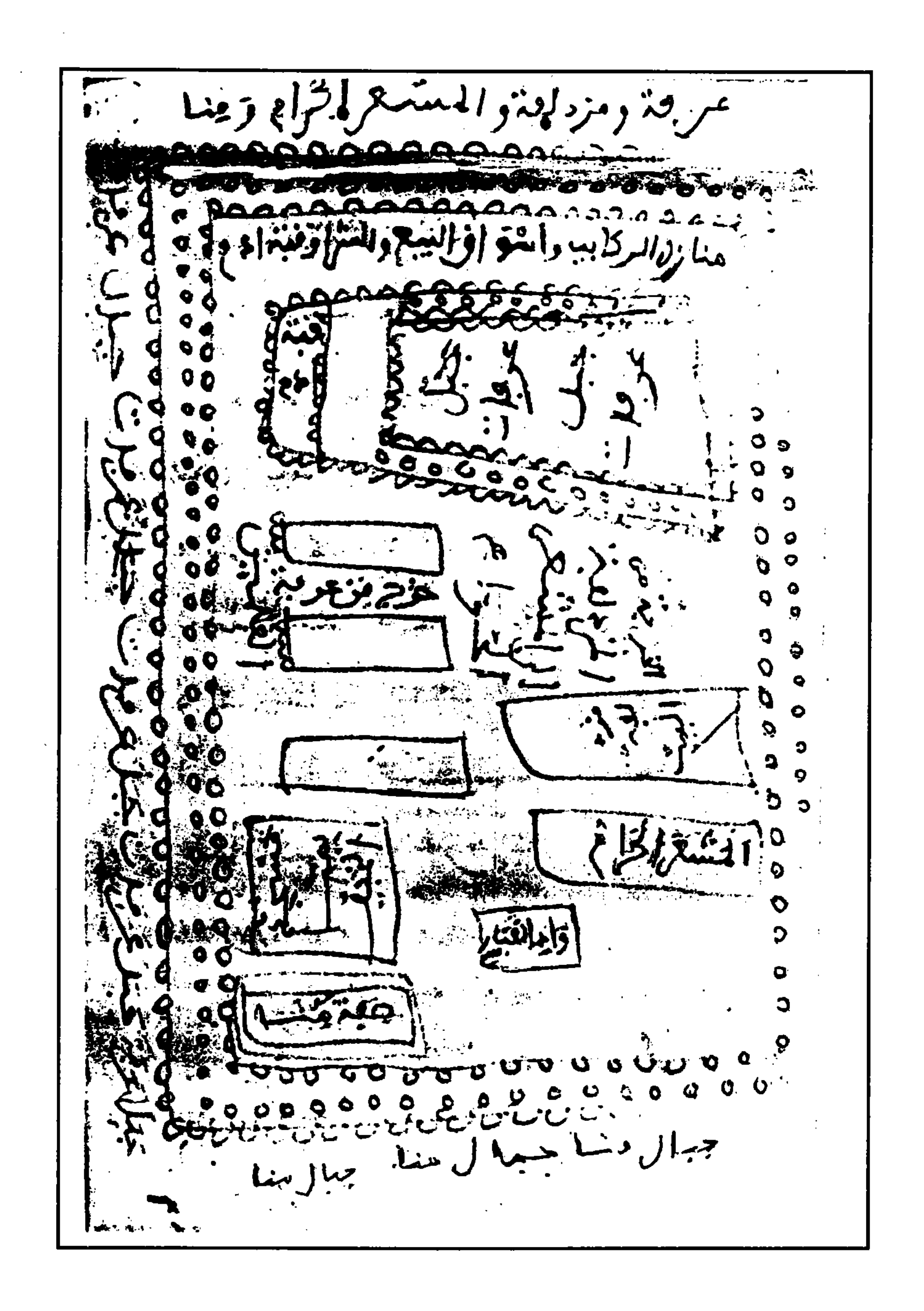
وقد كان ابن الصباح يُعنى بالرسوم التي تقرب الصورة للذين لم يسعفهم الحظ بالوصول إلى هذا الفضاء المليء بالكثير من المعاني والدلالات التي تظل بعيدة كل البعد عن الذين لم يدركوا الوصول إلى الكعبة فظلوا شاردين تائهين.

ونفضِّل أن ننقل تلك الرسوم على ما هي في المخطوطة في ورقتها الثانية والعشرين بعد المائة حرف (أ) وحرف (باء)، ويلاحظ أن تنقيط الحروف يخضع للمصطلح المغربي.

والطريف في رسم الكعبة تضمينه اتجاه مختلف البلدان إلى أركانها الأربعة، وهو الصنيع الذي يذكرنا في الرسم الذي وضعه الصفاقسي في نفس القرن (٩٥٨ هـ / ١٥٥١م) والذي نصحبه مع رسم الكعبة وعرفات.



رسم للكعبة في المخطوطة حرف (أ)



رسم للمشاعر المقدسة في المخطوطة حرف (ب)

قال عبدالله بن الصباح: صوّرنا هذا البلد الأمين والكعبة الشريفة وحرمها المبارك ومناسكها المشهورة الشريفة كما تراها أيها القارئ والمستمع. فوجب علينا أن نذكر وننشر مفاخر هذا الذي صورناه، ونذكر فضائل هذه الجزيرة: الكعبة الشريفة، وما أخصها (كذا) الله على سائر البيوت في الأرض، وأعطى قاصدها من الجزاء، ومُجاورها بالكفاءة (كذا)، وما أعطى الله لهذا الحرم من الوفادة وأهله من الكفا ... ولو نصف طول عمر نوح ما نبلغ ربع ولا ثمن الثمن من معجزاته الكرام...

ويستمر في حديثه عن مكة وما جاورها إلى أن يعدد المواقع الستة عشرة التي نعتها بالمناسك: جبل عرفة، المزدلفة، المشعر الحرام، الجمرات، منى، الكعبة، الحجر الأسود، الركن اليماني، الملتزم، حِجْر إسماعيل، مقام إبراهيم، بئر زمزم، الصفا، المروة، المسعى، التنعيم.

وفي معرض حديثه عن الحجر الأسود ردد قولة عمر بن الخطاب: والله إني لأعلم أنك حجر لا ينفع ولا يضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبّلتك. قال المؤلف رحمه الله: شاهدت في وسطه قدر الدرهم من البياض، وهو مطوق بطوق من فضة بيضاء طوّقه بها عبدالله بن الزبير، فهو اليوم يضيء ليلة الظلمة مثل نجمة الزهرة.

وفي معرض حديثه عن فضائل زمزم قال: «ولقد مرضت في هذا الحَرَم أول مجاورتي، وحلفت أن طوال ما يقضي الله لي بمجاورتي لا أشرب ماءً غير ماء زمزم، فدخل يدي ونحل جسمي حتى لم يبق إلا الجلد على العظم، فحبسني ربي مألوماً ستة وأربعين يوماً حتى أشفاني (كذا) الله، وطابت نفسي بالماء والهواء، وصرت نشربه غدوة وعشية وكل ساعة ... يخرج من البئر سخوناً كأنه اللبن.

ولما أراد ابن الصباح توديع (مكة) شربه بنية حفظ القرآن، قال: فحفظته ... وشربته لتوقي العطش وسافرت في البراري أزماناً ... وماتوا ... وإنا لم نر بأساً...

وفي حديثه عن كسوة الكعبة قال: إنها إلى بني شيبة من ذرية طلحة وعثمان الذين نزلت فيهم الآية في مفاتيح الكعبة لما أخذه العباس منهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**...﴾.

وابن الصباح يتخذ الذراع والقدم والأصابع هي معيار تحديد المسافات، وهكذا حدد الكعبة على هذا الأساس منبِّهاً على أنه يقصد أذرع وأقدام وأصابع الرجال المتوسطين! وبهذه المناسبة يعود إلى ما وقف عليه مما طرز على كساء الكعبة، وإلى ما يوجد على وجه الباب المبارك، والوجه الثاني والثالث، وكذا الوجه الرابع الذي يحمل اسم سلطان ذلك الزمان والعام الذي كسا البيت...

ويتأكد أن ابن الصباح كان من المحظوظين الذين دخلوا الكعبة؛ ولهذا نجده يقدم وصفاً لها قائلاً: قال المؤلف الأصبحي: ارتفعت (الكعبة) من الأرض قدر طول الرجل، نطلع سبعة دروج من ألواح تنقل وترد، وباب الكعبة الشريفة متوسطة فيما بين مطلع الشمس في الشتاء والصيف، بابها من عود اليبانوز (الأبينوس)، ملبس بالنحاس الصيني، مُذهب بماء الذهب، مُغلق سائر الأيام إلا يوم الجمعة المباركة، يفتحونه بنو شيبة خدام البيت الحرام، يدخلونه الرجال، يركعون فيه ... وداخله مفروش بالمرمر الملون، والحيطان بأنواع البلاط وألوان المرمر، عليها من داخل البيت حلة حمراء مرصعة من الحرير الأحمر، مرصعة بالذهب الملون. وأنواع فيها من الذهب على صورة سنبلة الصنوبر، وسقفها باللوح والمسمار، والسطح المبارك بجص الجير والرمل المحمّر، في السطح أربعة مضاوي (ثُقب لإدخال الضوء) مثل مضاوي الحمَّام، قدْر كل واحد الأفل الأكبر، تعمل ضوءاً للبيت مثل النهار...

ويتحدث بعد هذا عن حبال أستار الكعبة وتوثيقها في رأس الحائط.

ثم يصف ابن الصباح الميزاب (في صفحة ١٣٢) من المخطوط بأنه من عود الأبينوس، وهو ملبس بالنحاس الصيني، مذهب بماء الذهب الأحمر. ويصب في مرمرة خضراء في حِجْر إسماعيل مثل قطر نهر الكوثر عند نزول المطر ...

ويذكر أن طوله قدر ذراع بذراع الشرفاء الطويل... وهو يحكي أنه عندما تمطر السماء ترى المجاورين يقفون تحته يتبركون من الماء النازل من سطح البيت رجاء تطهيرهم من الذنوب.

ويؤكد مرة أخرى أنه عاجز عن وصف فضائل البيت ... وهنا يروي حديث ابن عباس عن أن الصلاة في هذا المسجد تعدل مئة ألف صلاة في غيره ... وأنه كان يقول

أيضاً: إنه كما تضاعف فيه الحسنات تضاعف فيه السيئات، ومن هنا كان ابن عباس يفضل ألا يسكن مكة ويختار المقام بالطائف؛ حيث يوجد قبره اليوم وعليه مقام عظيم.

ويخلص بعد هذا للحديث مرة أخرى عن تعداد المناسك الستة عشرة السالفة الذكر.

وبما أنه قضى السنة مجاوراً، فقد عاش في مكة أيام رمضان، وما أدراك ما رمضان بمكة! وهكذا يتحدث عن التراويح وختم القرآن في ليلة القدر.

ولم يتأخر ابن الصباح هو الآخر عن كيل الحرم الشريف طولاً وعرضاً بالخطوات، كما عدد سواري الحرم ... وأبوابه ...

ويتحدث ابن الصباح عن ظاهرة لا نزال نشهدها إلى اليوم، تلك إقبال بعض الحجاج على شراء أكفانهم التي يبللونها بماء زمزم محتفظين بها إلى وقت الحاجة ...

ومن طيبة أخلاقه أنه، وقد قضى كما قلنا عاماً بكامله في مكة المكرمة، وعلى نحو ما قام به وهو في طريقه إلى مكة من مدح الجهات التي مر بها ... الأندلس، سبتة، مراكش، فاس، تلمسان، تونس، مصر ... على نحو ذلك خصَّص جانباً من مذكراته لأهل مكة رجالاً ونساء الذين قال عنهم: وأكثرهم - جزاهم الله عنا خيراً - رجالاً ونساء، ما أحسنهم وجوهاً! وأحسنهم كلاماً! وما أضبطهم عادة وسيرة حسنة، ومن سيرتهم الحسنة أنه لا يدخل أحدٌ منهم الطواف إلا بشيء يتصدق به ويزكيه بعد طوافه، وكذلك نساؤهم، وطوافهم (يعني طوافهن) عند غروب الشمس بين المغرب والعشاء الآخرة، يدخلون (كذا) الطواف بأثواب حسان، الغالب عليها الأزرق ... مزينين (كذا) بالحلي والخلاخل من الفضة ومقابيس الذهب هم وأولادهم الصغار ...

وابن الصباح يشكر الله على أنه قام بهذه الحجة من مال حلال - على ما سلف - ميراث الأبوين المرحومين ... وأنه وقف على عرفة وقفتين، واعتمر إحدى عشرة عمرة ... ودخل الكعبة على عدد الجمعات في السنة، يدخل الرجال ثم النساء حيث يركع كل واحد بما يشاء ... كل جمعة آليت على نفسي الطهور في زمزم والدخول إلى داخل الكعبة نصلي داخلها كل جمعة عشرة (كذا) ركعات، ثمانية وأربعين جمعة (كذا)، وآليت على نفسي الطواف في يوم وليلة اثنان وثلاثون أسبوعاً (كذا)، في كل أسبوع

سبعة أشواط، ولكل طواف ركعتان خلف مقام إبراهيم الخليل...

وسيراً على النهج الذي سلكه ـ قبل أن يصل إلى مكة ـ من وصفه الأقاليم التي مر بها قام بتقديم وصف للإقليم المبارك الذي أطيب بلده مكة:

هي موضع بلا زرع ولا حرث إلا ما يجلب إليها من بلاد بعيدة على مسيرة ثلاثة أيام، وأكثر عيشها من التمر والإبل والنخل ... وبعد أن يبرز أهمية الإقليم كسرة للأرض كلها، وينعت الحرم بأنه يشبه العروس تتجلى في حليها... يتخلص لتاريخ مكة مذكراً بدور الأشراف في القيام بشأنها والسهر عليها ذاكراً اسم الشريف أحمد بن عجلان (ت ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م)[١] مشيداً بالحشد الكبير من الأشراف الشجعان العربان أهل مكة الأبطال الأشداء الكرماء الفصحاء ...

ويخصص ابن الصباح حيّزاً لمدينة الطائف (مرقد عبدالله بن عباس) الكثيرة المياه والشجر والفواكه التي تمد مكة بخيراتها على مرّ الفصول...

ويتحدث عن بجيلة وزهران ... أقوام صالحين لا يعلمون عدداً ولا حساباً ولا الشر ولا الخير، لباسهم جلود المعز المدبوغ يدبغونه بالعروق الطبية، له رائحة طيبة ... وحبالهم من حلفة المسَد ... يسوقونها إلى مكة للآبار والدلو ولخروج الماء من الآبار؛ لأن مكة ما لها ماء إلا من الآبار، كل بئر طوله وعمقه أربعة وعشرون قامة! رطلهم ست أواق، وكيلهم موافق، ودرهمهم فضة، وصرفهم فضة وذهب وفلوس، عيشهم الغالب لحوم الجمال، وإدامهم أكثره السمن، والغالب عليهم تمْر العجوة يخزنونه ويدسونه مثل دسّ التين، له حلاوة مثل العسل ... فارحون بأوطانهم، وكذلك جميع البلاد والأوطان في عيون أهلها جنة!!

وبعض حديثه عن اليمن والعلاقة بينها وبين مكة في الخلقة والسحنة والفكر والفصاحة والعفة واللين والشفقة على الغريب ... وابن الصباح يميز بين اليمنيين والمكيين في طبيعة سرعة الغضب، إذ ينسب إلى هؤلاء أنهم يغضبون بخلاف أهل اليمن! وهو يعلل ذلك بأن أهل مكة من ذرية إسماعيل آل عدنان، وأهل اليمن من

---

(١) هل نفهم من هذا أن الرحلة تمت في أيام عجلان (٧٧٧-٧٨٨)؛ أي في القرن الثامن الهجري؟ وقد علمنا أن ابن الصباح كان يقول عن غرناطة: ردَّها الله دار إسلام، وهذا إنما سلِّمت غرناطة عام ٨٨٧هـ / ١٤٢٢م (يراجع التعليق الأول في هذا البحث..).

حمير آل قحطان، فأهل اليمن من العرب العاربة، وأهل مكة من العرب المستعربة، وأهل اليمن أخوال أهل مكة ...

وقد تخلص ابن الصبّاح بعد هذا إلى التعريف بأصوله اليمنية الأولى ... إنه من آل الصبَّاح، جاء أجداده من بلدة سبأ المتصلة ببلاد مأرب ... فيهم ملوك بني صالح الأصبحيون الكرام اثنان من الإخوة محمد وأحمد ملوك الزمان ... بلاد الصبَّاح منها أبرهة بن الصباح صاحب الفيل والفارس المشهور بالفروسية والشجاعة في جميع الكتب إلى اليوم.

وبعد الكثير من الإشادة بالملك الصبّاحي يقول: لكن أيام السعادة مكتوبة مؤجلة مختومة في اللوح المحفوظ مخطوطة!!

وهنا يتخلص إلى ذكر أخباره مع الملك الحبشي التي انتهت بقيادة الجيوش الحبشية ومن معها من عرب اليمن إلى مكة التي كان فيها آل عبدالمطلب، حيث كانت مصارعهم وانتصر أهل مكة.

قال ابن الصبّاح: وهؤلاء الصبّاحيون أو الأصباحيون هم اليوم ملوك تهامة ومشايخ عرب البادية والجبال، كلهم من ذرية قيسوم بن أبرهة بن الصباح ... انتشروا في المشرق والأندلس والمغرب...

ونختم إفادات ابن الصباح عن مكة المكرمة وما يتصل بها بما استطرد به من ذكرها في أماكن أخرى ... وهكذا فبمناسبة حديث له (صفحة ٢٥) عن الأواني الصينية الرفيعة قال: إنه رآها بحرم مكة بأغلى ثمن ... وإنه سأل أهل مكة عن سبب غلاءها، القطعة الواحدة منها بخمسين درهماً، وهناك ما يبلغ الدينار.. إلخ. فأجابوه: إن من خصائص هذه الصحون أنها تقاوم السموم، فإذا وضعت مادة سامة فيها تكسرت لحالها! ولذلك كانت أثمانها عالية وهي بين لون أخضر أو سماوي.

وفي معرض حديثٍ عن الصرامة في الحكم وهو يتحدث عن صرامة العثمانيين قال: إنه ليلة خروجه من جبل عرفة والتحاقه بمنى لم يذق للنوم طعماً لكثرة اللصوص والجبالصة، وهو يرمي الجمرات أيضاً حيث كان مهدداً بالسراق .. قال: فتجب الغلظة إذن في الأحكام مع هؤلاء الظلام، يعني على نحو الحال عند العثمانيين الذين أخذوا في فرض هيمنتهم على المنطقة.

ب 132

وأربعون في مصليين وعشرون للقاعدين الشـ
هدين للبيت ولو ترى ابقا الغارة والمسمع
حين تمطر السحاب فيفيض الميزاب ترى جميع
المجاورين يقفون تحت الميزاب يغتسلون
من تلك الماء المبارك المنزل من سما
البيت رجاء ان تغسل تلك الرحمة المنزلة
فيغتسلون الحجاج منها رجاء التطهير
الذنوب قال المؤلف الاضعف لو نصف فضايل
هذا البيت طول العمر ما نبلغ وصفه وكيف
نبلغ وصف هذا الحرم الشريف وهذه
الكعبة الشريفة والصلاة فيه بمائة الف
صلاة في الفضل والجزاء قال ابن عباس رضي
الله عنه الصلاة في هذا المسجد بثلاث

إحدى صفحات مخطوطة رحلة ابن الصباح

ابن أبي مَحَلّي ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م

هذا هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي مَحَلِّي الفيلالي العباسي المتوفى سنة ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م في أعقاب تمرده على الأمير المولى زيدان ابن السلطان أحمد المنصور الذهبي بطل معركة وادي المخازن التي صُرع فيها إمبراطور البرتغال سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م. لقد كان من المتأثرين بما سماه من تأليفه «الحذيفية» الموعود بها، أي أنه سيكون المهدي!! (صفحة ٧٢) كانوا يرمزون لوفاته بقولهم: ولد طيشاً ومات كبشاً.

له رحلة تحمل ثلاثة عناوين: "الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النّفريت" أو "عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج" أو "الرسالة".

والتأليف المذكور عبارة عن (فهرسة) عرض في بابها الأول شيوخه في التصوف، بينما ذكر في الباب الثاني - وهو المهم - أساتذته في العلوم بالمغرب ومصر وكذا بالحجاز، مضيفاً إلى ذلك ارتساماته عن طريقة تدريس بعض الشيوخ ونصوص مراسلاتهم له مع نص إجازة له من شيخه أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار الفجيجي، ثم تناول في الباب الثالث ترجمته الذاتية أو "نسبهُ الجثماني" كما يعبر، مع ارتساماته عن رحلتيه إلى مصر والحجاز وما أثار خلالهما من المناقشات في موضوع نظرة الإسلام إلى تناول عشبة "التبغ" طابة، أو الدخان كما نسميه بالمغرب.

فرغ من جمع تأليفه أواسط شوال سنة ١٠١٦هـ / ١٦٦٧م، وقد أشار العباس بن إبراهيم إلى رحلتيه للحجاز، وكان من طريف ما روى عنه وهو يطوف بالكعبة أنه سُمع وهو يقول: «يا رب، إنك قلت وقولك الحق: ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾، فاجعل لي يا رب دولةً بينهم»، قالوا: «ولم يسأل الله حسن الخاتمة، فرُزق الدولة وآل الأمر إلى ما أبرمته يد القدرة»!!

والتأليف مخطوط في ثلاث نسخ بالخزانة الملكية، أهمها واحدة تحمل رقم ١٠٠، وهي موجودة ضمن مجموع من الورقة رقم ١ ب إلى ورقة ١٤٦ ب[1]، وقد تحدث

(١) المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ج ١، ص١٤٩، رقم ٣٤٨.

انظر العباس بن إبراهيم: الإعلام، ج ٢، ص٢٨٦ فما بعد. محمد الفاسي: الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، عدد ديسمبر ١٩٦٨م. فهارس الخزانة الحسنية، طبعة جديدة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٧١-٧٢.

ابن سودة عن نسخة رابعة توجد بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٤٣١[1]، وقفت عليها بل حصلت على نسخة منها، وهي تحتوي على ٥٢٨ صفحة، وتحمل الورقة الأولى هذه الكلمات: مؤلف الكتاب هو الإمام الثبت الحجة أحمد ابن أبي عبدالله محمد بن أبي اليسع بن أبي محلي العباسي السجلماسي رحمه الله...

وكتب على يسار الورقة: تحت نظر الفقير محمد مرتضى الحسيني غفر له سنة ١١٩١هـ بمصر.. وعلى وسط الورقة بحروف بارزة: (وقف لله تعالى) ثم رقم ٤٣١ - أدب.

والمخطوطة هنا بمصر تحمل عنوان: «عذراء الوسائل وهودج الرسائل». ومعلوم أن المؤلف كان يعنون كتابه حيناً بالإصليت ... وحيناً ثانياً بالعذراء، وثالثاً بالرسالة على ما أسلفناه[2].

ومن خصائص مخطوطة القاهرة أنها مكتوبة بأكثر من خط! فهناك الخطوط المشرقية، وهناك المغربية كذلك، ومن بين الخطوط بياض يشعرك بأن الخطاط تغير ... مع ملاحظة أن الخط المشرقي كان أجمل ... والمغربي كان أصح، ولا خروم بها، وتكتفي -عند الترقيم- بما اصطلح عليه بكلمة "الرقاص" التي توجد أسفل الصفحة.

وإن إلقاء نظرة عابرة على هذه الفهرسة أو على الأصح على الجانب المخصص منها للرحلة الحجازية ليعطي فكرةً بأن ابن أبي محلي قام بحجتين اثنتين، لقي فيهما عدداً من الفضلاء منهم شيوخه المشارقة ... وهو ينعت حجته الأولى بأنها كانت مع من وصفهم بهذا النعت: "الصعاليك" الذين يعتمدون على نفوسهم في أخذ الطريق، وقد سمحت لنفسي أن أنعت رحلته الثانية برحلة "السكاكيك" المترفين. والظاهرة البارزة في رحلتي ابن أبي محلي أنهما غير مرتبتين في الذكر، فقد يذكر في البداية ما كنا

---

(١) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج٢، ص ٣٦٨ – ٣٦٩. وقد قُدِّم التأليف كرسالة جامعية من لدن الباحث عبد المجيد القدوري لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، يونيو ١٨٨٤م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

(٢) نغتنم هذه الفرصة لنجدد الشكر لاهتمام دار الكتب المصرية بإرضاء طلبنا بالسرعة الممكنة، ونخص بالشكر الدكتور صلاح فضل مدير المؤسسة، والأستاذ محمد سيد غندور رئيس الإدارة المركزية.

نتوقع ذكره في النهاية، فهو إذن لا يسلك الأساليب نفسها التي عهدناها في الرحلات السابقة واللاحقة، ولكنها أسلوب خاص وأداء خاص.

« ... ففارقته (الشيخ سالم السنهوري المصري) متوجهاً للحج في الراجبية من بحر سويس، إذْ ركبته وبقيت على ظهره نحواً من أربعة عشر يوماً، ثم أرسينا بالينبوع فوردتُ المدينة المشرفة قبل مكة في الحجة الأولى، وبها صُمْتُ رمضان كله، ثم في الفطر توجهت لمكة وأقمت بها شهراً قبل مجيء الحاج على نحو ما أذكره إن شاء الله في الباب الثالث أو غيره[١] ...

وكنت حين الأخذ عنه في الحجة الأولى[٢] عام واحد بل اثنين بعد الألف رث الهيئة في غاية الضيعة قد لا يعبأ بي الناظر إلا بعد سبر حاضر، عن الحقيقة حاشر ... وقد تركت فيهم من نظمي[٣] ... فندموا على إهمالي، فلما عدت الثانية عام ثلاثة عشر وألف أو أربعة عشر برسم الحج أيضاً في نفر يسير وركب غير كبير ... فما شعرنا إلا والإمام السنهوري راكب على حماره ... يتلقانا ويهنئنا ...

وبعد هذا يتحدث ابن أبي محلي عمن أخذ عنهم في الحجة الأولى بمكة، فيقول، وهذا مما بتر فيما طبعه د. القدوري، قال: ومنهم أيضاً شيخ من عجم بخارى لقيته بمكة شرفها الله تعالى وهو يقرئ في النحو والحديث، فلازمته حتى أحس بي مدة إقامتي قبل الحج بمكة، وقد تقدمتُ فسألته أن يعبر لي عما يقرؤون في الحديث باللسان العربي[٤]، فأجاب رحمه الله، وكان أول ما يقرر المسألة من (نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر) لابن حجر رضي الله عنه بلغة قومه العَجَم الحضور ثم يعيدها لي أنا خصوصاً بلسان عربي مبين حتى ختمتها عليه أيده الله.

---

(١) مخطوطة القاهرة، الورقة: رقم ٢٦٧ – ٢٦٨.

(٢) هنا بتر مخل بالمعنى عند د. القدوري يتعلق بالتاريخ.

(٣) كان من هذا النظم قصيدة دالية طويلة الذيل من ١١٦ بيتاً يقول في أولها:

فمن حامل العذراء في الهودج الخرد ... إلى سيد الأشراف والعالم المهدي

مخطوطة مصر الورقة ٧ و ٣٠٠، ومخطوطة الخزانة الحسنية، ص ٢–٣.

(٤) بتر عظيم وقع في طبعة د. القدوري، فاختلط أصحاب فجيج بالمغرب الأقصى بأصحاب بخارى في الشرق الأقصى!!

وقيدت ذلك عنه يوم الأحد التاسع عشر من ذي القعدة عام اثنين بعد الألف بمكة تجاه الكعبة بالحرم الشريف (٦ أغسطس ١٥٩٤م)، واسمه ـ رضي الله عنه ـ الشيخ محمد يوسف (وليس ابن يوسف)، هكذا علمُه مركب من اسمين، لكنه من غير واو عطف، فاعلمه، وهو الذي ذكر لي ذلك حين سألته عن اسمه، فهو إذن محمد يوسف ابن سيف الله البدخشي بالعراق ومن بخارى كما عرفني به.

وقال ابن أبي محلّي معرفاً بالموقع الجغرافي: وبَدَخْش[1] ناحية منها، وهي بباء مفتوحة موحدة ثم دال مهملة مفتوحة تليها خاء معجمة ساكنة آخرها شين معجمة، تكسر لياء النسب، وإلا فهي ساكنة، كذا عرفني رحمه الله. ويضيف إلى هذا:

قلت: ومن غريب ما سمعته منه أنه قال: بقرب بلده ناحية ليلُها مقدار ما بين العصر والغروب فقط أو أقل، وكل زمانهم نهار إلا يسيراً، وإن أهل بلده يسافرون لتلك الناحية، وإنه لا شك في ذلك، والله على كل شيء قدير.

قال ابن أبي محلي معلقاً على ذلك: ولا أتهمه لعقله وعمله ورزانته فيما أرى[2].

قال ابن أبي محلي: وكذلك حدثني عن إمام الحرم يومئذٍ ونحن جميعاً نصلي خلفه غير مرة، اسمه الشيخ إبراهيم الحنفي، وكذلك البدخشي المذكور أيضاً حنفي المذهب، عن شيخ هندي كان مجاوراً معهم بمكة قبل قدومنا عليها، من مشايخ الصوفية الأعزاء ثم عاد إلى الهند ...

ويستمر في الحديث عن كرامات الأولياء... إلى أن يحكي عن أحجارٍ كانت في حوزته وسرقت منه بمكة، وكانت معه أمانة لبعض الصعاليك من مصر ...

ويقع زميلنا د. القدوري في بتر آخر لا يقل إخلالاً عن الأول، وذلك عندما عاد ابن أبي محلّي إلى الحرمين في المرة الثانية .. ونفضل أن نأتي بالنص الكامل لهذا البتر لمساعدة الذين يرغبون في ترميم نسخهم، قال في الصفحة ٣١٠ من مخطوطة دار

(١) بدخش أو بدخسان بخراسان، وهي مشهورة بالياقوت المنسوب إليها. انظر رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص٥٩، تعليق ٨٦.

(٢) رحلة ابن بطوطة. تحقيق د. التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٣٩٨ – ٣٩٩، تعليق ٥٢–٥٣، رقم الإيداع القانوني ١٩٩٧/٣٢١.

الكتب المصرية، بعد خمسة أسطر من كلمة «والله أعلم»[١].

«... وكذا أيضاً اجتمعت بالحرمين الشريفين في الحجتين بالفقيه النحوي المتكلم المالكي الشيخ خالد الإفريقي المغربي، وتذاكرت معه تجاه الكعبة في شيء من أمر الصوفية، إذ له ميل مع تحقيق فنه لسبيلهم، وربما أفادني بحكمةٍ من قبيلهم رضي الله عنهم، وعن كل محب في دليلهم ...»

ويأتي ابن أبي محلي بعد هذا بفصْل قال عنه: وبه ختام مقالتي عن المغاربة والمشارقة من شيوخي في العلم الظاهر كالذيل لهذا الباب ...

وفي هذا الفصل أيضاً عودة إلى الحديث عن حكم الشجرة القريبة العهد بالحدوث بل الظهور وهي تَبَغ[٢] بمثناة فوقية وموحدة ثم غين معجمة مفتوحات ... وهنا حديث جديد عن اهتمامه بموضوع الدخان ... إلى أن يصل إلى كلمة: ولا جازفت في مساق الأدلة من نقول الجلة التي اقتصر عليها محقق الإصليت الخريت ....

هنا ورقة من مخطوطة دار الكتب المصرية

---

(١) تراجع صفحة ١٤٦ من مطبوع د. القدوري عند قوله: والله أعلم.

(٢) زهر العريش في تحريم الحشيش لبدر الدين الزركشي. تحقيق: د. السيد أحمد فرج. رحلة ابن بطوطة، تحقيق: د. التازي، ج ٢، ص ٢٥٧، ج ٣، ص ٣٤١.

خاص وقتا دون آخر للمرء فقط وعلى هذا النمط أو نحوه كان كلام ذي النون رضي الله
عنه والله أعلم. بهذا الاعتبار يجوز مع شرطه لأربابه كلام الحاضر ومن منع من ذلك
فلظنه اختلال الشرط أو سدا للذريعة لما أداه إليه نظره من ورعه كما أنكر على الإمام
المحاسبي الرد على المبتدعة بأدلة المتكلمين ولكنه أي أحمد بن حنبل يعتقد من الصوفية
الأكابر الشيخ بشر الحافي رضي الله عنهما كاعتقاد الإمام الشافعي شيبان الراعي وأبي
حنيفة الإمام بن أدهم رضي الله عنهم وما منهم إلا له مقام معلوم نفع الله بهم الإسلام
وكذا أيضا اجتمعت بالحرمين الشريفين في الحجين بالفقيه النحوي المتكلم المالكي الشيخ
خالد الأفريقي المغربي وتذاكرت معه تجاه الكعبة في شيء من أمر الصوفية إذ له ميل
مع تحقيق لمسلكهم وربما أفادني بجملة من قبيلهم رضي الله عنهم وعن كل محب
في دليلهم وأما الشيخ أحمد السنهوري المالكي المصري فلا شك أنه مشهور بعلمه في الأزهر
ولكني قط ما لقيته وإن كنت معه بالجامع الأزهر [illegible] إلا أنه كاتبني عند
الوداع الثاني مع تلميذه أو على لسانه أعني الشيخ علي الأجهوري أيده الله فصل
وبه ختام مقالتي المغاربة والمشارقة من شيوخي في العلم الظاهر كالذيل من هذا
الباب لما فيه من سؤال عام يتوجه بعد سببه الخاص لكل من تأمل الجواب عنه من ذوي
الألباب وهو سؤال مضطر حامل كما يعلم الله تعالى حاضر بل فاقته إلى ما يجيبه
به كل عالم محقق ناقل عاقل وذلك في حكم نجم قريبة العهد بالحدوث قبل الظهور
وهي تبغ بمثناة فوقية وموحدة ثم غين معجمة مفتوحات واسمها مشهور قد اختلف
فيها الطالب والمطلوب ما بين محرم ومحلل ومتوقف حيران للجهل والتعارض
النقلين عنده وما وقف على الترجيح فاستقل مكانه ولم يمل اليمين ولا الجنوب
وقد شخصت فيها سؤالا وافيا بالغرض إلى شيخ المذهب وإمام المحدثين الشيخ
سالم السنهوري رحمه الله من قولنا في المنقول من مصر للمغرب وبلغه ومكث

ابن أبي محلي 1099 = 1613 - 181 [illegible]

إحدى صفحات مخطوطة دار الكتب المصرية لابن أبي محلّي

ابن عاشر الأندلسي ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م

هذه جولة شعرية ارتأينا أن نقترحها على القارئ ضمن الرحلات إلى مكة؛ لأنها تعدّ أصدق دليل للحاج الذي لا يهمه أن يتتبع تحركات شريف مكة، وإنما يهمه أن يؤدي المناسك المطلوبة.

ويتمتع صاحبها بشعبية كبيرة عند المغاربة الذي يحفظون الأرجوزة عن ظهر قلب، ونحن نعلم ما للأرجوزة من دور في تحصيل المعلومات والمرويات.

ويتعلق الأمر بشيخ الجماعة بفاس ونواحيها عبد الواحد بن عاشر الأنصاري الأندلسي الفاسي المتوفى سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م[١]. هذا العالم الجليل عندما حج سنة ١٠٠٨هـ كان يصادف صيف عام ١٦٠٠م، فكر منذ وصوله إلى رابغ في أن يحمل قلمه ليحرر بالشعر جميع ما يتعلق بالحج، ثم ليرسم طريق الحاج بأسلوب بسيط ومركز أجمل فيه كل ما قاله سابقوه، لدرجة أن آباءنا يحكون أن "المطوفين" تضايقوا من منهجه الواضح والسهل، فكانوا لا يرتاحون منه لكونه مضايقاً لأرزاقهم! ... وقد حدث أنه لما وجد نفسه في البيت الحرام عرض عليه المطوف خدمته - وهو لا يعرف أنه ابن عاشر - فاعتذر للمطوف اعتماداً على ما يعرفه جيداً عن المسالك والمناسك، فأقسم عليه المطوف قائلاً: والله لو كنت أنت ابن عاشر لما كان لك غنى عن المطوِّف!!

ولهذا نرى من المفيد ليس فقط عرض الأرجوزة، ولكن أن نحض على العودة إليها.

وهكذا، فبعد أن تحدث عن مركز الحج كفريضة مرة من العمر استعرض أركان الحج كالإحرام والسعي ووقوف عرفة والطواف، كما استعرض أركانه كطواف القدوم والمشي فيها ونزول المزدلفة، ويذكر المواقيت بالنسبة إلى الواردين من مختلف جهات العالم ...

---

(١) السلوة ٢، ص٢٧٤-٢٧٦. ميارة: مختصر الدر الثمين والمورد المعين، طبع وزارة الأوقاف، المغرب، بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

بعد هذا يرسم الطريق للحجاج...

قال ابن عاشر في كتابه «المرشد المعين على الضروري في علوم الدين»:

وإن ترد ترتيب حجك اسمعا

بيانه، والذهن منك استجمعا

إن جئت رابغا تنظف واغتسلْ

كواجب وبالشروع يتصلْ

والبس ردا وأزرة نعلين

واستصحب الهدي وركعتين

بالكافرون ثم الاخلاص هما

فإن ركبت أو مشيت أحرما

بنية تصحب قولاً أو عملْ

كمشي او تلبية مما اتصلْ

وجدِّدنْها كلما تجددتْ

حال، وإن صليت، ثم إن دنتْ

مكة فاغتسل بذي طوى بلا

دلك، ومن كَدا[1] الثنية ادخلا

إذا وصلت للبيوت فاتركا

تلبية وكل شغل واسلكا

للبيت من باب السلام واستلمْ

الحجر الأسود[2] كبر وأتمّ

سبعة أشواط به وقد يسرْ

مكبّراً مقبّلاً ذاك الحجرْ

(١) أصله كَداء بالمد: مدخل، بينما كُدى (بضم الكاف والقصر) توجد عند الخروج من مكة.

(٢) صادفت سنة حج ابن عاشر أعمال الترميم الكبرى التي شملت الكعبة والحجر الأسود الذي تعرض إلى انفلاقه إلى شظايا على ما هو مبسوط عند السنجاري، ج٤، ص٩٠، حيث نقرأ عن جهود الشريف عبدالله بن حسن بن أبي نمي، وعن موقف العلماء من الموضوع. السباعي، تاريخ مكة، ص٤٧٥.

متى تحاذه فذا اليماني
لكن ذا باليد خذ بياني
إن لم تصل للحجر المس باليدِ
وضع على الفم وكبر تقتدِ
وارمل ثلاثاً، وامش بعدُ أربعاً
خلف المقام ركعتين أوقعا
وادعُ بما شئت لدى الملتزمِ
والحجر الأسود بعدُ استلمِ
واخرج إلى الصفا فقف مستقبلا
عليه، ثم كبّرن وهلّلا
واسعَ لمروة فقف مثل الصفا
وخب في بطن المسيل ذا اقتفا
أربع وقفات بكل منهما
تقف، وللأشواط سبعاً تمما
وادع بما شئت بسعي وطوافْ
وبالصفا ومروة مع اعترافْ
ويجب الطهران والستر على
من طاف، ندبها بسعي اجتلى
وعد فلبِّ لمصلى عرفةْ
وخطبة السابع تأتي للصفةْ
وثامن الشهر اخرجنّ لمنى
بعرفات تاسعاً نزولنا
واغتسلنْ قرب الزوال واحضرا
الخطبتين، واجمعنّ واقصرا

ظهريك، ثم الجبل اصعد راكبا
على وضوء، ثم كن مواظبا
على الدعا مهللاً مبتهلا
مصلياً على النبي مستقبلا
هنيهة بعد غروبها تقفْ
وانفر لمزدلفة وتنصرفْ
في المأزمين العلمين نكبْ
واقصر بها واجمع عشا لمغربْ
واحطط وبت بها وأحي ليلتكْ
وصل صبحك وغلس رحلتكْ
قف وادعُ بالمشعر للإسفارِ
وأسرعنْ في بطن وادي النارِ
وسر كما تكون للعقبةِ
فارم لديها بحجار سبعةِ
من أسفل تساق من مزدلفةْ
كالفول، وانحر هدياً إن بعرفةْ
أوقفته واحلق وسر للبيتِ
فطف وصلّ مثل ذاك النعتِ
وارجع فصلِّ الظهر في منى وبتْ
إثر زوال غده ارمِ لا تفتْ
ثلاث جمرات بسبع حصياتْ
لكل جمرة، وقف للدعواتْ
طويلاً إثر الأولين أخِّرا
عقبة، وكلَّ رميٍ كبِّرا

وافعل كذاك ثالث النحر، وزدْ
إن شئت رابعاً، وتم ما قصدْ

وبعد هذا الوصف الدقيق لمسيرة الحاج منذ ابتدائه في أداء واجبه إلى أن ينهي أعماله يذكر ما يمنعه لباس الإحرام على الحاج من صيد وقتل لبعض الحيوانات ... وكذا ما يمنعه الحج من مخيط وطيب ... ثم يتخلص لذكر العمرة ليقول: إنها تنطلق من التنعيم، وإنها كالحج في برنامجها، ولا ينسى أن يطلب إلى الحاج أن يصحب بعض الهدايا من هذه البقاع المقدسة إلى أقاربه وإلى من يعيشون من حواليهم ...

المقَّري الحفيد ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م

هذا المقري صاحب (نفح الطيب) الذي له رحلة حجازية كذلك، أحمد بن محمد بن أحمد المقَّري الذي قام من أعقاب مشكل سياسي بالمغرب، قام باستئذان العاهل المغربي للقيام بمناسك الحج، وتلك عادة كبار المغاربة إذا أرادوا أن يتخلصوا من وظائفهم السياسية يطلبون الإذن لهم بالذهاب إلى الحج، ويظلون هناك حتى تتضح لهم الرؤية!!

وهكذا فبعد تفويت مدينة العرائش من لدن أمير المغرب إلى الإسبان، وطلب السلطان من العلماء أن يقولوا: هل من حق الأمير المأمون أن يفدي أولاده بالعرائش أم لا؟ هنا قام عدد من العلماء المغاربة بالهجرة إلى الخارج، وكان منهم المقري الحفيد هذا.

وهنا وجدناه بالمشرق يزور الحرمين الشريفين مكة والمدينة في موسم ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م.

وهكذا شمرت ـ يقول المقري الحفيد ـ عن ساعد العزم بعد المقام بمصر مدة قليلة، إلى المهم الأعظم والمقصد الأكبر [١] الذي هو سر المطالب الجليلة، وهو رؤية الحرمين الشريفين والعلمين المنيفين زادهما الله تنويهاً، وبلغ النفوس ببركة من شرفا به مآرب لم تزل تنويهاً ... إلى أن بلغت جدة ... فحين حصل القرب، واكتحلت العين بإثمد تلك التربة ترنمت بقول من قال محرضاً على الوخد والإرقال:

بدا لك الحق فاقطع ظهر بيداء
واهجر مقالة أحباب وأعداء
واقصد على عزمة أرض الحجاز تجد
بعداً عن السخط في نزل الأوداء
وقل إذا نلت من أم القرى أرباً
وهو الوصول بإسرار وإبداء

---

(١) المقّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ج١، ص٣٩.

يا مكة الله قد مكنت لي حرماً
مؤمناً لست أشكو فيه من داء
فمذ رأى النازح المسكين مسكنه
في قطرك الرحب لم ينكت بأرزاء
شوق الفؤاد إلى مغناك متصل
شوق الرياض إلى طل وأنداء

ثم أنشدت، عندما بدت أعلام البيت الحرام، قول بعض من غلب عليه الشوق والغرام، وقد بلغ من أمانيه الموجبة بشائره وتهانيه المرام:

وافى الحجيج إلى البيت العتيق وقد
سجا الدجى فرأوا نوراً به بزغا
عجوا عجيجاً وقالوا: الله أكبر ما
للجو مؤتلقاً بالنور قد صبغا
قال الدليل: ألا هاتوا بشارتكم
فمن نوى كعبة الرحمن قد بلغا
نادوا على العيس بالأشواق وانتخبوا
وحن كل فؤاد نحوها وصغا
وكل من ذم فعلاً نال محمدة
في مكة ومحا ما قد جنى وبغى

ولما وقع بصري على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود، واستشعرت قول العارف بالله الشبلي[1] لما وفد إلى حضرة الجود:

قلت للقلب إذ تراءى لعيني
رسم دار لهم فهاج اشتياقي

---

(١) الشبلي: أبو بكر دلف بن حجر بن جحدر صاحب الجنيد (٣٣٤)، ناسك عمل للعباسيين ثم تزهد وسلك طريق المتصوفة (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢: ٣٩، وحلية الأولياء ١٠: ٣٦٦). وقد أورد في تاج المفرق (٩٣ظ) ثلاثة من أبيات الشبلي دون نسبة.

هذه دارهم وأنت محب
ما احتباس الدموع في الآماق
والمغاني للصب فيها معانٍ
فهي تدعى مصارع العشاق
حل عقد الدموع واحلل رباها
واهجر الصبر وارع حق الفراق

ثم أكملت العمرة، ودعوت الله أن أكون ممن عمر بطاعة ربه عمره، وذلك أوائل ذي القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنية، وأقمت هناك منتظراً وقت الحج الشريف، ومتفيئاً ذلك الظل الوريف، ومقتطفاً ثمار القرب الجنية، إلى أن جاء الأوان، فأحرمت بالحج من غير توان، وحين حللت مما به أحرمت، نويت الإقامة هنالك وأبرمت، فحال من دون ذلك حائل، وكنت حريًّا بأن أنشد قول القائل:

هذي أباطح مكة حولي وما
جمعت مشاعرها من الحرمات
أدعو لي لبيك تلبية امرئ
يرجو الخلاص بها من الأزمات
نلت المنى بمنى لأني لم أخف
بالخيف من ذنب أحال سماتي
وعرفت في عرفات أني ناشق
للعفو عرفاً عاطر النسمات

وأن أتمثل في المطاف، إذ حفتني الألطاف، بقول من ربعه بالتقوى مشيد، البغدادي الشهير بابن رشيد:

على ربعهم لله بيت مبارك
إليه قلوب الناس تهوي وتهواه
يطوف به الجاني فيغفر ذنبه
ويسقط عنه جرمه وخطاياه

وكم لذة أو فرحة لطوافه

فلله ما أحلى الطواف وأهناه

ثم قصدنا بعد قضاء تلك الأوطار، لطيبة الشريفة التي لها الفضل على الأقطار، واستشعرت قول من أنشد وطير عزمه عن أوكاره قد طار:

حمدت مرادي إذ بلغت مرادي

بأم القرى مستمسكاً بعمادي

ومذ رويت من ماء زمزم غلتي

فلست بمحتاج لماء ثماد

فلله سبحانه الحمد على نعمه التي جلت، ومننه التي نزلت بها النفوس مواطن التشريف وحلت:

من يهده الرحمن خير هداية

يحلل بمكة كي يتاح المقصدا

وإذا قضى من حجه الفرض انثنى

يشفي برؤية طيبة داء الصدى

وكان حظي في هذا الحال تذكر قول بعض الوشاحين من الأندلسيين الذي كان لهم ارتحال إلى تلك المعاهد والمشاهد الزاهرة التي تشد إليها الرحال، وهنا أتى المقّري بموشحة طويلة الذيل أتبعها بقول أبي جعفر الرعيني الغرناطي:

يا راحلاً يبغي زيارة طيبة

نلت المنى بزيارة الأخيار

حي العقيق إذا وصلت وصفْ لنا

وادي منى يا طيب الأخبار

وإذا وقفت لدى المعرّف داعياً

زال العنا وظفرت بالأوطار

وأتبع هذا بقول بعض من حيده بمحاسن طيبة حال ... وتلت هذا قطعة شعرية طالما رددها الزوار:

قل لعينيك تهملان سروراً

طالما أسعداك يوم الفراق!!

هذه دارهم وأنت محبّ

ما بقاء الدموع في الآماق!

وجاءت بعد هذا أبيات اقتبسها الطيبون والطيبات من الحجاج والحاجات:

إذا لم تطب في طيبة عند طيب

به طيبة طابت فأين تطيب؟!

وإن لم يجب في أرضها ربنا الدعا

ففي أي أرض للدعاء يجيب

أيا ساكني أكناف طيبة كلكلم

إلى القلب من أجل الحبيب حبيب!

ويتذكر المقّري هنا كل ما في كنانته عن مدينة الرسول، فيقدم لنا قول عالم الأندلس عبدالملك السلمي المشهور بابن حبيب:

لله در عصابة صاحبتها

نحو المدينة تقطع الفلوات

حتى أتينا القبر قبر محمد

خص الإله محمداً بصلاة

كما يقدم لنا قول كمال الدين ناظر قوص الذي كان بنى قبة على الضريح النبوي:

أنخ، هذه، والحمد لله، يثرب

فبشراك، قد نلت الذي كنت تطلب!

ويكشف عما أفصح به وقد سلم على الرسول ﷺ:

إليك أفرّ من زللي

فرار الخائف الخجل

وكان مزار قبرك بالـ
مدينة منتهى أملي

إلى آخر القصيدة الجميلة التي أردفها بأخرى مخمسة ينسيك أولها آخرها! إلى أن يختم بهذه الأبيات التي يقول في آخرها:

ليس بالعيش في البلاد انتفاع
أطيب العيش ما يكون بطيبهْ!

ولم تكن هذه الزيارة آخر عهد للمقّري بالحرمين مكة والمدينة؛ فقد عاد إلى مكة عام تسعة وعشرين وألف خمس مرات: وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة، والله يجعل أيام العمرة بالعودة إليها مديدة، ووفدت على طيبة العظيمة سيما مناهجها السديدة سبع مرار، وأطفأت بالعود إليها ما بالإكبار الحرار، واستضاءت تلك الأنوار وألفت بحضرته ﷺ ما منّ الله به عليّ في ذلك الجوار ... وكان عودي من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة.

القيسي (ابن مليح) ١٠٤٨هـ / ١٦٣٩م

هذه رحلة حجازية تحمل عنواناً طويلاً على هذا النحو (أُنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب) لمؤلفها أبي عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح[١]...

وهي رحلة لها طعم آخر بما احتوته من معلومات مهمة عن تعلق المغاربة بالحرمين الشريفين، ومدى سعيهم من أجل الحصول على رضى تلك البقاع ومن تحتضنهم تلك البقاع... وقد تمت أيام السلطان الوليد بن زيدان بن المنصور أحمد الذهبي ... الوليد الذي بعث بهدية فريدة للحرمين بواسطة القائد جوهر على ما سنرى، وقصدت تلك البقاع عن طريق الصحراء، عبر واحة سيوة إلى مصر. وكما اعتدنا فإننا سنقتصر على ما في الرحلة مما يتصل بوجود ابن مليح في أم القرى ... وكل الصيد في جوف الفراء.

تتحدث الرحلة عن ميقات أهل مصر والمغرب: رابغ، قبيل محطة الجحفة التي يحرم منها الحجاج... وبعد حديث عن فرائض الحج وسننه يتحدث عن المناسك: المنسك الأول: التجرد من المخيط... الثاني: الإحرام. وبعد هذا يخبرنا ابن مليح بأنه دخل إلى مكة (ذو الحجة ١٠٤٢هـ / يونيو ١٦٣٢م) من موقع كَداء، والأصوات - كما قال البلوي - تصافح المسامع بالتلبية... لقد قطعوا ربا مكة ربوة ربوة... وتبدت لنا - يقول ابن مليح - الكعبة الغراء في أستارها، وتجلت لنا المليحة بأنوارها، وهي تقول بلسان حالها:

إليَّ إليَّ يا عشاق حسني
فهذا الوقت وقت لا يضاهى
فكأس الوصل لي قد دار صرفاً
وشمس جمالها أبدت سناها

---

(١) هذه الرحلة حققها وقدم لها وعلق عليها محمد الفاسي (وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي)، سلسلة الرحلات ٥، حجازية ٢، مطبعة فاس ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م. ونظراً لجهلنا تاريخ وفاة ابن مليح فقد أخذنا هذا التاريخ الذي يتأخر عن وفاة الوليد بن زيدان (١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م) بنحو سنوات، وكان ابن مليح يترحّم عليه.

فأين يصاب مثل عروس حسنى
وما في الكون معشوق سواها
وقد سعدت عيون قد رأتها
وقد شقيت عيون لا تراها!

فسبحان من شرف الكعبة البيت الحرام بالإجلال والإعظام واصطفاها، وجعل حماها مباحاً رحباً لمن حام حول حماها، وحرماً آمناً لمن دخل إليه ووفى ما عليه حين وافاها، هذا كله والتلبية تتجدد عند كل صعود وهبوط.

ويطوف ابنُ مليح طواف القدوم ابتداء من الحجر الأسعد ... ثم أداء الركعتين خلف مقام إبراهيم ... ثم إلى المسعى بين الصفا والمروة صابرين على اصطلاء الازدحام "والمنهل العذب كثير الزحام" كما قال السابقون، ونشرب من ماء زمزم ما يذهب الأورام، ويريح الآلام ويقوم مقام الطعام.

ويقدم لنا ابن مليح معلوماتٍ عن بناء الكعبة وارتفاعها ناقلاً عن صاحب كتاب «الروض الأنف» ... ثم يتحدث عن أركان البيت الحرام بما عرفناه عند الآخرين ابتداء بالركن الأسود مروراً بالركن العراقي والشامي واليماني ...

وعند الحديث عن مقدار ارتفاع الحجر الأسود عن الأرض يردد العبارة التي أصبحت معهودة عند الجميع: "الطويل يتماطى لتقبيله، والقصير يتطاول له"، وهو كذلك يتحدث عن الشامة البيضاء في الحجر الأسود إلى آخر ما عرفنا في نصوص الرحلات السابقة.

وبعد وقوف عرفة يقضي ابن مليح ليلة الاثنين العاشر من ذي الحجة ١٠٤٢هـ / ٢٨ يونيو ١٦٣٢م) بالمشعر الحرام: المزدلفة، على أن يقصد منى في اليوم الموالي لإتمام الشعائر المطلوبة.

ويحث كسابقيه على أن يحذر الحاج ترك النزول بالمحصب (بين مكة ومنى) والصلاة فيه؛ لأن النبي ﷺ فعل ذلك ... مؤكداً على حقيقة يجب أن يجعلها الحجاج أمام أعينهم، هذه الحقيقة تتجلى في أن أفعال الحج غالبها تعبدي.

وقد قصد ابن مليح مسجد عائشة حتى يقوم بالعمرة ... ويعود إلى مقامه بمكة ليقيم عشرة أيام للأخذ بوسائل السفر ...

ويشير ابن مليح لأحداث داخلية عرفتها المنطقة مذكراً بانشغال الجيش بقتال العدو الباغي الصائل على الحرم الشريف(١).

ولو أن الحديث عن مكة لكننا لا نهمل حدثاً تميزت هذه الرحلة بذكره، ويتعلق الأمر بالهدية الفريدة التي بعث بها العاهل المغربي السلطان بن السلطان بن السلطان الوليد بن زيدان.

لقد كانت الهدية تتكون من حسكتين (شمعدانين) من عسْجد مركبتين على يواقيت من زبرجد، وزن كل واحدة منهما أربعة أرطال من ذهب، إلى حسكتين من فضة خالصة، وزن كل واحدة منهما عشرة أرطال، وصندوقان مملوءان بشمع العنبر، الذي مثله لم يبصر، وعشرة آلاف من الذهب المطبوع...

وكانت الهدية مصحوبة برسالة وقصيدة موجهة إلى صاحب الضريح، وقد جرت عادة الملوك المغاربة على ذلك من قديم، وكأنهم يخاطبون مخلوقاً حيًّا... يعتذرون له عن عدم الحضور بأنفسهم معتذرين بأنهم يقومون على الدفاع عن حوزة الإسلام في بلادهم.

وقد فتح باب الروضة ودخل القائد جوهر حتى وضع جميع ذلك بداخل الروضة، ووضع الرسالة والقصيدة بعد فض ختامها، وقراءتها بمرأى ومسمع من الحاضرين من أهل البدو والحضر، وانتشر بذكر مقصدها ما انتشر ... ودفع المال لحراس الروضة وسدنتها، وفي كل ليلة يركب شمع العنبر في تلك الحسك التي لم يهد مثلها مملوك ولا ملك، وتوقد من المغرب إلى الصباح، ونورها مشرقٌ على الربا والبطاح، ونشرها عابق فائح يستنشده الغادي والرائح ...

ومما نقش في دائرة حسكة الذهب هذان البيتان بخط أخضر من ذهب أصفر في غاية ما يكون من الجمال:

متع لحاظك في محاسن منظري
لترى عجائب مثلها لم يُعهدِ
قمر على غصن الزبرجد جاثم
ينبيك عن حب الوليد لأحمدِ!!

---

(١) بالعودة إلى تاريخ الحرم نجد أن البلاد كانت تعيش فعلاً ظروفاً صعبة. انظر (منائح الكرم) ج٤، ص ١٤٥.

الحَجَري الأندلسي ١٠٥١هـ / ١٦٤١م

هذه شخصية أندلسية غريبة: أبو العباس أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم ابن الشيخ الحجري الأندلسي الشهير بأفوقاي ... ولد في قرية الحجر الأحمر بظاهر غرناطة نحو سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م، نشأ بإشبيلية مسلماً في الباطن، مسيحيًّا في الظاهر... تعلم ما تيسر من القرآن واللغة العربية والشريعة الإسلامية من أفراد أسرته ... كما أتقن الإسبانية والبرتغالية... وعرف الإنجيل والتوراة والديانة المسيحية واليهودية، وإلى جانب هذا كان أفوقاي عارفاً بالتنجيم والفلك والجغرافيا، كتب لنفسه ترجمة مفصلة في كتابه: «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب» الذي لا نملك حالياً نسخة منه... ومن حسن حظنا أن نجد نقولاً عن الكتاب المذكور في مصادر مغربية ... وقد كتب له مختصراً بعنوان «ناصر الدين على القوم الكافرين»[١].

وله كتاب آخر يحمل عنوان: «العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، وهو ترجمة لتأليف استراتيجي من عمل الرايس إبراهيم بن محمد بن غانم بن زكرياء الأندلسي[٢] في المدفعية لإبراهيم غانم، ترجمه بعنوان: «كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، ثم نقله عن الإسبانية إلى العربية[٣].

تحدث أفوقاي عن نفسه منذ أن كان في الأندلس إلى أن خرج متنكراً في ربيع سنة ١٠٠٧هـ / ١٥٩٩م على ظهر سفينة تحمل المؤن إلى حامية البريجة، ومن البريجة انتقل

---

(١) نشرت هذا الكتاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، بتحقيق د. محمد رزوق عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٨٧، وحسب رحلة حجازية مغربية لمؤلف مجهول (ستاتي) فإن هناك نسخة توجد بدار الكتب المصرية. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج٢، رقم ٣٦٩.

(3) Clelia Sarnelli Cerqua: Alhag Ari Studio Maghrebin Lll Napoli 1968. P. 43. Juan Penelie Sur Les Moricos Andalous En Tunisie, Tunis 1973 P. 258-263. P. Harvey: The Morisco Who Was Muley Zaidan Interpreter In Miscelanea De Estudios Arabes Y Hevraicas, Granada T Vii, 1959. P. 57-97, Etc.

إلى أزمور القريبة، حيث توجه إلى مراكش عاصمة المغرب على عهد الدولة السعدية آنذاك... وانخرط في سلك الكتاب كمترجم ببلاد السلطان أحمد المنصور الذهم ثم للسلطان زيدان، ثم ابنيه عبد الملك والوليد، وبحكم وظيفته تمكن أفوقاي من زيارة فرنسا وهولاندا كسفير للسلطان زيدان ... وفي هذه المناسبة تعرف إلى بعض رجال الفكر والعلم، نذكر منهم كوليوس Colius المستشرق الهولاندي المعروف الذي سبق له أن قام بزيارة للمغرب ضمن بعثة دبلوماسية هولاندية[١] ...

ويذكر أن أفوقاي لما زار هولاندا أقام في منزل إيربينيوس Erpenius الذي كانت له مع أفوقاي مناظرات ومكاتبات، وقد كان على نحو كوليوس أستاذاً للغة العربية في جامعة ليدن، وهو الذي أنشأ بداره مطبعة كتاب عربية تطورت فيما بعد لتصبح دار بريل Brill الشهيرة إلى الآن، وفيها طبع كتاب الآجرّومية في قواعد اللغة العربية باللاتينية الذي ألفه إيربينيوس بمساعدة أفوقاي.

والمهم بعد هذا، أن نذكر أن أفوقاي قام سنة ١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م برحلة إلى الحجاز لأداء مناسك الحج.

وفي طريق العودة إلى المغرب عرج على مصر؛ حيث اجتمع بعدد من رجالاتها نذكر منهم شيخ المالكية بالأزهر الشريف علي الأجهوري الذي طلب منه أن يسجل مذكراته عن مغامراته ومحاوراته للقسيسين والرهبان، فكان كتابه بعنوان (ناصر الدين) السالف الذكر.

ويحيط الغموض بالمرحلة الأخيرة من حياته ... ولا نعرف عنه إلا أنه أتم ترجمة (كتاب العز والمنافع) بتونس سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م، وإلا أنه نسخ بخطه كتاب (ناصر الدين) بتونس كذلك سنة ١٠٥١هـ / ١٦٤١م.

ثم لا ندري سنة وفاته، ولا المكان الذي أدركته الوفاة فيه... لقد كانت الحالة الداخلية أواخر الدولة السعدية على حال من الاضطراب والفوضى مما كان سبباً في اختفاء عدد من المعالم والرموز[٢].

(١) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المدن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق: د. عبد الهادي التازي، طبعة ثالثة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٩م، ص ٣١-٣٢.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٨، ص ١٤، ٧٩، ١٦١، ١٧٦، ١٧٧. محمد حجي: أفوقاي معلمة المغرب، ج٢، ص ٥٦٤-٥٦٧.

أما عن إشارات أفوقاي للحرمين الشريفين في كتابه (ناصر الدين) فإننا لا نجد إلا بعض إفادات، نذكر منها أنه عند الحديث عن معلومة عن الرَّق (بفتح الراء)، ذكر أن النبي ﷺ، بعد افتتاح مكة المشرفة وهي قبلة المسلمين، خرج منها ولم يعد إليها إلا في حجة الوداع . . . كما نذكر - وهذا مهم - أنه يحكي عن كتب ضاعت له في طريق الحج في شوال سنة ١٠٤٦هـ.

كما نذكر منها أنه عند حديثه عن قبر نبي الإسلام عليه السلام قال : إنه - أي القبر - في المدينة التي تبعد عن مكة عشرة أيام.

ونذكر منها تزييفه للمقولة التي تدعي أن قبر النبي عليه السلام يوجد داخل الكعبة البيت العتيق.

وأخيراً يحكي أن رجلاً أندلسيًّا بمكة المكرمة ذكر له أنه خدم سلطانيين مسلمين هناك[1].

---

(١) ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، ص ٣٠، ٥٦، ٧٩، ٩٧ . محمد حجي : أفوقاي معلمة المغرب، مادة (أفوقاي) . محمد الفاسي : الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، عدد ديسمبر ١٩٥٨م.

العياشي ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م

هذا أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي المتوفى سنة ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م، وهو من أعيان علماء المغرب من الذين تركوا لهم بصمات بارزة في التاريخ المغربي، وقد حج ثلاث مرات، أعوام ١٠٥٩هـ - ١٠٦٤هـ -١٠٧٢هـ. وعن الحجة الثالثة ألّف رحلته، وقصد أن تكون - إلى جانبها الموضوعي - ديوان علم، وبذلك طالت حتى استوعبت سفرين ... وتعرف بالرحلة الكبرى، وتحمل عنواناً هو «ماء الموائد»، وله رحلة تعرف بالرحلة الصغرى، وربما حملت عنوان: «التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الظروف إليه في طريق الحجاز» ...

وهذه الرحلة المغربية كتبها لتلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي وهو في بدء طريقه للحج سنة ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م، حيث زوده بإرشاد عن الأمتعة التي يصحبها معه، وعن طريق الحج ومنازله وعرّفه بمراكز المياه الصالحة، وبالمشتريات النافعة مع الأعلام الذين يأخذ عنهم والمزارات التي يقصدها ... وقد ترجمها إلى اللغة الفرنسية الأستاذ محمد الأخضر.

ولهذه الرحلة مخطوطات بالخزانة العامة بالرباط: الأولى تحت رقم ٤٣ / ك، والثانية رقم د ٢٧٩٣، والثالثة رقم د ٢٨٣٩، وهناك نسخة رابعة بمكتبة مؤسسة علال الفاسي تحت رقم ٤٦٧ ع ١٨٢[١].

أما الرحلة الكبرى فهي منشورة بالمطبعة بفاس سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨-٩٩م، وقد أعادت نشرها في الرباط بالأوفسيت سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

---

(١) المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص١٨٧، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، رقم ٤٨٨ - ٤٨٩.
عبدالرحمن بن العربي الحريشي، الفهرس الموجز بمخطوطات مؤسسة علال الفاسي، ج١، ص٢٦٩.
د. أحمد العراقي: الأدب المغربي من خلال تواصلاته، الإيداع القانوني ٢٧٩ / ٢٠٠١، ص٩٩.

وقد اجتذبت الرحلة العياشية اهتمام الأستاذ الفرنسي باربْرُوجِير BARBRUGGER فترجم قسماً منها إلى الفرنسية نشر في مجلة جزائرية...

وتعد رحلة العياشي "ماء الموائد" من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشاراً؛ لأنها أكثر مادة وتنوعاً، وقد طفق الرحالون من اللاحقين ينقلون عنها من دون أن يرجعوا إلى مصادر أخرى أحياناً. ومن هنا نرى أن الاهتمام بها يعدّ اهتماماً بجلّ الرحلات التي تلتها... لقد فضل أبو سالم عبدالله العياشي أن يقصد مكة أولاً قبل المدينة، ثم يقوم بزيارة المدينة ليجاور فيها قبل أن يعود إلى مكة مرةً ثانية، وبهذا كان له من الوقت ما يكفي ليستوعب الموضوع..

وقد عرفنا من خلال الرحلات الماضية أن المغاربة عموماً لا يتصورون أن يقوموا بفريضة الحج دون أن يفكروا في زيارة قبر الرسول، يعدّون ذلك داخلاً في واجبهم، وعلى نحو ما يقولون: "حجة وزيارة"، بمعنى أن الحجة كاملة ...

ولنبق مع العياشي بهذه المناسبة، في مكة عند الزيارة التي قام بها في ذي الحجة من سنة ١٠٧٢هـ (يوليو عام ١٦٦٢م). لقد وصل مكة آتياً من ينبع عشية يوم السبت خامس يوم من الشهر المذكور، أول يوم من السمائم (١٢ يوليو الفلاحي / ٢٥ يوليو)، وكان العياشي يشتكي من شدة الحر ... عند الطواف في النهار!

ويسجل العياشي أن الركب المصري دخل مكة قبله في اليوم الرابع، والركب الشامي في اليوم السادس ... ملاحظاً أن أهل هذا الركب عانوا من قطاع الطرق "الحرامية" شدة، حتى أشرفوا على الهلاك! ودفعوا للأعراب مالاً كثيراً نحو مئة ألف بعدما انتهب من ركبهم كثير وقتل أناس ... وقد وصل بعد هذا الركبُ العراقي في اليوم الثامن ...

لقد اضطر أصحاب العياشي إلى النزول وسط المقبرة بالحُجون... لم يجدوا مكاناً غير ذلك، والأركب قد ملأت خيامُهم السهل والوعر... قبل أن يكتروا منزلاً بقرب باب إبراهيم من صاحبه الشيخ محمد الغدامسي باثني عشر ريالاً تاركين الخباء والربل بالحجون.

وأتى إلى المسجد وقد حان الغروب، وكادت تطير من الفرح القلوب، فدخلنا فرحين مستبشرين من باب السلام، وشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام، وقد

تدلت أستاره وأشرقت أنواره، وقد شمَّر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله، يفعلون ذلك به في أول ما تقدم الوفود، ولا يطلقون الأستار حتى تعود ... وهنا جادت قريحة العياشي بأبيات في المعنى ظلت بدورها مرجعاً لمعظم الكتاب من الحجاج:

فكأنه لما بدا متشمّراً
والزائرين به جميعاً أحدقوا
ملك همام ناهضٌ للقاء من
قد زاره ولهم إليه تشوّق
فتبادر الغلمان رفع ذيوله
حتى إذا رجعوا جميعاً أطلقوا

ولما وقعت عليه أبصارنا، وافتضح ما أكنَّته من الشوق إليه أسرارنا، اقشعرت جلودنا من هيبته، وذهلت العقول من عظمته، فلم نزد على أن بسملْنا وسلمنا وهللنا ...

إلى أن يقبّل العياشي الحجر الأسود، ولم يبال بما ناله من الازدحام «والمورد العذب كثير الزحام»، ويطوف ويقف بالملتزم ويشرب من ماء زمزم ... وخرج لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا ... ثم أتى المروة في زحام كثير في السعي؛ لأن المسعى من أسواق البلد العظيمة فيتضرَّر الساعي بذلك كثيراً...!

وهكذا يرفع العياشي عقيرته بالشكوى من وجود هذا السوق في المسعى، قائلاً: «ولو قيضَّ الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كثير»، وسنلاحظ أن هذه الشكوى ظلت حديث الحجاج !!

وقد لقي العياشي في مكة المكرمة شيخه العلامة أبا مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري المغربي المجاور الذي خصص له من رحلته حيزاً كبيراً كان يستحقه، ولم ينفك ذاكراً له مشيداً به، ويذكر العياشي أنه من وطن الثعالبة، من عمالة الجزائر بإفريقية، وهم ينتسبون إلى الإمام جعفر بن أبي طالب...

وعلى ذكر شيخه أبي مهدي عيسى نجد من المفيد أن نذكر هنا اسماً لامعاً وجسراً

مهمًّا من الجسور التي ربطت بين المغرب والحجاز ممن حظي من العياشي كذلك بترجمةٍ واسعة له عريضة، على الرغم من أنه «كان على طرفي نقيض» من شيخه أبي مهدي. إنه الشيخ ابن سليمان الروداني الآتي الذكر . . . كلاهما صالح الحال ديانةً ووفور علم !!

لقد أجمل العياشي الحديث عنه في ثلاثة أسطر شرحها فيما بعد متوقعاً المصير الذي كان ينتظر العلامة الروداني، قال العياشي :

ربما عاب كلّ منهما على الآخر ترك ما عاب عليه فعله، وقد قلتُ للروداني ذات يوم : إن سيدي عيسى يقول : ما أحسن فلاناً لو أنه كف عن غرْبه (جدته) شيئاً وألان جانبه للخلق، فقال لي : وأنا أقول ما أحسنه وأعلمه لو انقبض عنهم شيئاً وترك مداهنتهم في الحق . . . !

ويتطوع العياشي بشرح هذه الجمل والأصداء تصله بالمصير المحزن الذي كان ينتظر العلامة الكبير الروداني[1] . . .

ولا بد أن يعود العياشي إلى الاهتمام ببعض العفش الذي تركه في الحُجُون، ليذكر أنه على الرغم من أنهم تركوا معه بعض الأصحاب لحراسته فإنه يتعرض لهجوم السراق بالليل!! إن هؤلاء السراق يعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وإرخاء العنان للسراق في ذلك، وقد قيل : إنهم أي الحكام يأخذون من السراق جُعلاً على ذلك في أيام الموسم! فإذا أتى إليهم سارق أدخلوه الحبس على أعين الناس فإذا جن الليل أخرجوه!!! وأما في غير الموسم فإن الحكم في تلك البلاد تام، ولا يوجد مثله في بلد من البلاد، وقد علمنا أن العياشي أمسى من المجاورين.

والحكام يعتلون في أيام الموسم باختلاط الناس من جميع الآفاق، وتعدّد الحكام والرؤساء؛ إذ لكل ركْب حاكم! ويقولون : لو أطلقنا اليد للحكومة على كل سارق ربما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب، فيؤدي ذلك إلى الهرج أيام الموسم.

---

(١) كان مما رواه العياشي مما بلغه الروداني من الورع أنه ـ أي الروداني ـ ترك أكل ثمار المدينة بالجملة، وذلك لفساد معاملة ملاك الحوائط للعمال، فإن رب الحائط يعامل المساقي على أوسق معلومة في كل سنة يدفعها له، وهذا فاشٍ عندهم، وقل من يعامل المساقي بالجزء المشاع السائغ شرعاً. العياشي ٢، ص٣٨. أحمد بناصر ٩٠.

ويعلق العياشي على هذه الحجج بأنها ضعيفة، وأنها لا تبرر انعدام الأمن في أقدس مكان نعته القرآن بأنه مثابة الخائفين ومأمن القاصدين . . .

وفي اليوم الثامن رحلوا إلى منى حيث نزلوا على مقربةٍ من مسجد الخيف في سفح جبل ثبير، وهناك قضوا ليلهم على ما هو. ويتأكد يوماً عن يوم أن العياشي فقيه متضلع، وأنه مالكيّ ملتزم، لذلك فإنه يعلق على كل النوازل الفقهية التي تمر من حواليه، ولا يترك شاذة ولا فاذة إلا أعطى فيها رأيه دون ملل بروح علمية موضوعية أمينة . . .

ومن الطريف أن نجده يستأنس بابن رُشَيد والعبدري ومن بعدهما . . . ويتجلى من خلال هذا أن العياشي كان يعتمد على بعضِ الرحالين الذين سبقوه لزيارة تلك البقاع.

وارتحل إلى عرفات يوم الأربعاء حيث وقفوا على إبلهم في يوم شديد الحرارة (٢٦ يوليو ١٦٦٢م) انتهى بنزول أمطارٍ كسرت سَوْرَة الحرّ . . . وأعقبها نسيم بارد، لكن العياشي يؤكد أنه لم يسمع حرفاً واحداً من خطبة الإمام على نحو ما سنقرؤه في بعض الرحلات اللاحقة، وهو الأمر الذي يجعلنا نحمد الله اليوم على ظهور المكبرات والشاشات!!

ويتحرك العياشي من هذا الموضع إلى ذاك من عرفات رجاء برَكة الواقفين، واستمر على ذلك حتى غابت الشمس ونفر في أخريات الناس . . . ومرةً أخرى يحكي أنه لما غاب القمر، وهو بالمزدلفة، أخذ السراق يرمونه بالأحجار من الجبل القريب منهم . . . لكن الله كفاهم شرور هؤلاء اللصوص . . . ثم إلى مكة حيث يقوم بالمناسك إلى أن يهيّئ الله لهم من يحلق لهم بطريقة شرعية. وهنا يلاحظ أن الحلاقين يكثر عليهم الزحام، فلا يستوعبون الرأس بالحلق ولا يحسنونه . . . إنهم ـ طلباً للتفرغ للآخرين، واستكثاراً في الأجرة ـ لا يكملون عملهم . . . وكانت هذه ملاحظة من سيأتي بعد العياشي!

وقد تمكنوا من دخول البيت الحرام قبل أن يغلق، إنهم يفتحونه هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة، ولا ينصب سلّم للدخول، وإنما يدخل من تكلف للصعود بمعين أو بخفة أعضاء، على نحو ما سيقوله الآخرون بعد العياشي. وكانت فرصة له ليصف داخل البيت الحرام بما اعتدنا أن نقرأه في المؤلفات الجارية . . . وقد أورد رسماً للبيت في الرحلة مما يؤكد الحس العلمي عند العياشي.

ويقول العياشي: إن إمعان النظر في داخل البيت الحرام يعتبر من قلة الأدب. وهو ما قاله بعض من قبله ويردده بعض من بعده ...

وبعد العودة إلى منى والمبيت بها ... يخبرنا بأنه من الغد عمرت الأسواق، وكثرت الأنفاق، وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان ...

وبعد الفراغ من الرمي زار منزل أبناء شيخه تاج الدين، فصادف عندهم شيخه أبا مهدي عيسى الثعالبي السالف الذكر، حيث مكث عندهم برهة من الزمان حتى حضر الطعام.

ولأهل مكة، وخصوصاً الأكابر من أهل الوظائف كالعلماء والأمراء والتجار، منازل في منى ينزلونها أيام الموسم ... قال: منزل شيخنا تاج الدين المالكي هنا من أحسن المنازل ... وبينما نحن جالسون في مصطبته إذ مرّ أمير مكة الشريف زيد في موكبه، وله شارة حسنة، ومعه طائفة من الأشراف والجند، كان ذاهباً لرمي الجمار، قد ظلل رأسه بمظلة كبيرة من حرير وكأنها قبة خباء، يحملها فارس بجانبه ويساره وهو في ظلها، والناس يحيونه عن اليمين والشمال، فالعوام يقولون في تحيتهم: نصرك الله يا زيد! والخواص يقولون: السلام عليكم، وهو يرد على كل من حيّاه من وضيع وشريف، ولا يهمل أحداً، ويشير برأسه إلى كل من حيّاه؛ وذلك لشدة تواضعه ... ويصفه بأنه رجل أسمر اللون، أبيض اللحية، سمح الوجه ... أثنى عليه شيخنا أبو مهدي ... وهو من أحسن أمراء عصره سياسة وحسن تدبير، ولم تزل الإمارة في أسلافه منذ أعصار متطاولة، وأسلافه هم المشهورون بآل أبي نُـمَيّ، وهو بطن في أبي حسن، وإخوانهم بنو حسين لهم إمرة المدينة. وولاية الحجاز الآن بأطرافه، من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة، ثم إلى خيبر مما يلي ناحية الشام، ثم إلى ينبع، كلها للأمير زيد بن محسن وأسلافه، وليس لبني حسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلا الاسم فقط، وبعض تصرف من تحت يد الأمير زيد، وكان هذا الأمير فيما مضى على معتقد أهل بيته، كاعتقاد الزيدية[1]، ثم رجع إلى معتقد أهل السنة، وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة.

---

(١) أحمد السباعي: تاريخ مكة، طبعة سابعة، ورقم الإيداع ١٣٣٩ / ١٤، ص ٣٧٢. مع شكري للأستاذة هالة صالح التوني التي أهدت إليّ هذا التاليف.

لقد أسهب العياشي في تقديم الأمير زيد بن محسن إلى قراء رحلته، ولا سيما أهل المغرب، وهذا ما يؤكد نظريتنا المتلخصة في أن كتابه «تاريخ الحجاز» لا سبيل إليه إلا بالعودة إلى المصادر المغربية(١) ... وعلى الخصوص الرحلات، وها نحن مع الأمير زيد أحد أفراد أسرة أبي نُمي الذي قضى في ولاية مكة أكثر من ثلاثين سنة، ويروي عنه أخباراً غريبة وطريفة لم نقرأها في مصدرٍ من المصادر الأخرى ...

ولم يفت العياشي أن يتحدث بدوره وهو في منى عن تنافس أهلَ الشام ومصر في إيقاد المصابيح واتّخاذ الخيام ...والإكثار من الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجو ... وكان السلطان زيد يشاركهم على نحْو ما يفعلون.

لقد قضى العياشي وصحبه ليلة من أرغد عيش بارد، وأصفى سرور وارد، لولا تشويش السرّاق علينا برمي الأحجار بعد القمر! إلا أن ذلك إلى جانب ما حصل له من النعيم ليس بضرر على حد قوله ... إن ليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان ... وقد تحركت شاعرية العياشي بنظم لامية في منى:

كل المنى بمنى إذا
ما جئتها تكفي النقم
أكرم به من منزل
فإليه تجتمع الأمم
فيه تشابهت السما
والأرض في داحي الظلم
هذا بأنجمه أضا
وذاك بالسمع اضطرم
حيث القباب البيض تلـ
ـمع مثل نار على علم !!!

وأخذ الناس في الرحيل ما بين متعجلٍ ومتأخر ...وقد أثنى على صديقه القديم أمير

(١) عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

الركب المغربي محمد بن محمد الحفيان الذي كان يلبي الحاجات والرغبات إلى صاحب الفقيه القاضي أحمد الخطيب المراكشي . . .

وهنا لقي الشيخ سليمان بن الشيخ عبد العزيز الحبشي من مدينة الأحساء، وعقد معه عقد أخوةٍ في الله . . . ويقوم العياشي بوصف مسجد الخيف وصحنه وتجديده ومنقوشاته.

وكفقيه عالم، على ما أسلفنا، فإنه لا يفتأُ معلقاً، وهكذا نراه يعقب على ما روي عن الشيعة بأن نهر الجنة خاص بهم! يعقب أن النهر لهم ولغيرهم من المسلمين!! ويفتخر العياشي بأنه نزل المحصب وصلى فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وانتقد الحجاج الذين لا يعرفون هذا الموقع القريب من مكة، والذي كان مستراحاً لرسول الله ﷺ.

ونزل بالشبيكة ليلة الاثنين ١٤ من ذي الحجة؛ حيث كان ينزل الركب المغربي، إلى أن دخل مكة حيث قام بأداء العمرة، وأحرم لها هذه المرة من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الحر (٣١ يوليو ١٦٦٢م).

وقد اجتمع العياشي يوم الأربعاء بالشيخ جمال الدين الهندي، بالمدرسة الداودية، جمعه به شيخه وصاحبه الشيخ علي باحاج اليمني بعدما كان سأله العياشي عمَّن هو اليوم في الحرمين أفضل في هذه الطائفة النقشبندية . . . دلّني عليه وعلى رجل آخر من أصحاب الشيخ تاج الدين، إلا أن الشيخ جمال الدين أكثر منه عبادة وزهداً « لا مال ولا أهل » . ويخبرنا العياشي أنه أخذ عن الشيخ جمال الدين طريق السادة النقشبنديين ظهْرَ يوم الأربعاء المذكور، واعداً القراء بأنه قد يستحدث عن هذه الطريقة الغريبة في المغرب الأقصى. وكان من بين ما سجله العياشي مما أثار فضول الأطباء أنه أصابته الحمى بمكة المكرمة في هذه الأيام الشديدة الحر والهواء المختنق، وأشد ما يكون الحر بالحجاز في برج السنبلة والميزان (٢٤ أغسطس)، أصابته الحمى فاحتجم، فعافاه الله منها . . .

ويفي العياشي بوعده فيذكر أنه تلقى الذكر على طريق السادة النقشبندية وألبس الخرق الثمانية . . . لقد كان العياشي يستعد للاعتكاف والمجاورة . . .

وهكذا نسجل للتاريخ وجود الطريقة النقشبندية في المغرب عن طريق الرحالة العياشي الذي ربطها بالطريقة الشاذلية ... حيث يستفيض هنا حديثه حول هذا الموضوع الذي يسلمه إلى موضوعات أخرى...

ويعود العياشي مرة أخرى ليعتذر عن عدم استيعاب الأماكن الفاضلة التي تزار بمكة، لشدة الحر ... واعداً أنه سيذكرها عند قيامه بالمجاورة ... ومع هذا فإنه يعطي رأيه حول الدار التي يقال: إن النبي ﷺ ولد فيها، والتي اتخذت مزاراً يجتمع إليها الوفود ... وكذا عن مكان مولد فاطمة في دار خديجة ... مختتماً كلامه بما علم من اختلاف الأئمة، في القديم والحديث، حول مثل هذه الآثار والمشاهد التي لم يرد بها خبر صحيح بمكة والمدينة والقدس، مردداً أيضاً ما ورد عن عبدالله بن عمر أنه ارتحل إلى المسجد الأقصى، فلما دخله لم يزد على أن صلى ركعتين ودعا ورجع من يومه، ولم يقف إلى الصخرة ولا إلى غيرها من الآثار والمشاهد مع كثرتها، فلم يتضح من الحديث إلا إتيانه للصلاة به. وهكذا نجد العياشي مرة أخرى لا يستسلم للمرويات ما لم يكن لها سندٌ في المصادر الموثوقة ...

لقد أخذ الحجاج المغاربة في الرحيل من مكة المكرمة يوم الأحد ٢٠ من ذي الحجة، ويسجل العياشي أن أخاه عبدالرحمن تعب في الطريق من شدّة الحرّ (خامس أغسطس)، وكان أخوه هذا هو السبب في قرار العياشي بأن يبقى هناك للمجاورة ...

ويعود أبو سالم العياشي بعد المجاورة في المدينة إلى مكة في شهر الصيام، وهكذا خرج من المدينة ضحى يوم الثلاثاء، وهنا أخذ مرة أخرى ينوه بمكة وما تشتمل عليه من مشاهدة البيت والطواف به وأداء المناسك من حج وعمرة وغير ذلك ... وأن الأعمال تضاعف بحرم مكة زيادة على حرم المدينة...

لقد ودعه الأحباب حتى ذي الحُلَيفة ... وهاله ركوب الشقدف الذي كان وهبه إياه شيخ الأغوات بالمدينة المنورة؛ لأنه لم يكن يعهد هذا النوع من المركوب ..! محمل كبير ما رأيته! - يقول العياشي - إلا في أرض الحجاز، ذو شقين، يوضع كلّ واحد على جنب البعير، ويقرن بينهما بحبالٍ وثيقةٍ على ظهر البعير، ولا بد للراكب في الشقّ من

معادل له في الجهة الأخرى مقارناً له في الوزن، ثم يوصل بين الشقين من أعلى بحبال يظلل عليها بغطاء يقي من الحر والبرد، وهو من أشهى المراكب وأهناها، لا سيما لمن له فرش وثيرة ووسادة يتكئ عليها من الجانبين، فإنه لا يكاد يحس بأن الإبل تسير به، وقد رأينا مَن اعتاد الركوب فيه ينام من أول الليل إلى آخره، ولا يستيقظ إلا بإناخة الجمل عند النزول وقد لا يستيقظ!

كان يعادله في الشقدف أخوه عبدالرحمن، ويشرف على المسير مكاري كما هو معلوم ... إن ظاهرة الهوادج والشقادف ووسائل النقل في الحجاز تحتاج وحدها إلى تدوين ...

ويلاحظ العياشي ـ كما أسلفنا ـ أن ما يكون معتاداً أيام الموسم من السرقة والنهب والحرابة يختفي في غير الموسم الذي يجتمع فيه الناس والأوباش من كل مكان!!

لقد دخل مكة المكرمة هذه المرة ليلة الأحد ٢٩ من شعبان (٨ أبريل)، ولقد أناخوا في سوق باب إبراهيم أمام رباط الموفق المعد للمغاربة، وهنا بادر إلى دخول المسجد والطواف والسعي بين المروتين ...

ومن المهم أن نأتي هنا على وصف لشاهد عيان للسيل العظيم الذي أتى على مكة المكرمة في ذلك التاريخ ...

ويتعلق الأمر بما أخبر به العياشي مما جرى في شعبان سنة ١٠٧٣هـ (مارس عام ١٦٦٣م)، ونفضل أن نأتي بالنص الكامل لأبي سالم العياشي؛ وذلك لكون المصادر المشرقية لم تستوف الحديث عن الموضوع كما يجب الاستيفاء(١).

«لقد خرّب السيل غالب أسواق مكة ـ يقول العياشي ـ وهدّ دوراً كثيرةً، وأتلف أموالاً عظيمة، ومات فيه أناس، وهدم دور بعض أرباب الدولة على ما قالوا، ودخل المسجد الحرام، وكان أكثر دخوله من باب الصفا والأبواب الموالية له التي تلي دار الإمارة، وذلك أن السيل المنحدر من أعلى مكة لما قابل دار الإمارة لقيه سيل آخر مثله في العظمة

(١) السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، دراسة وتحقيق الدكتورة ماجدة فيصل زكرياء، ج٤، ص٢٢٧، جامعة أم القرى ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م. وقد حدد السنجاري يوم السبت ٧ شعبان تاريخاً للحدث. الرحلة العياشية ج١، ص٩٥.

نازل من الوادي الذي وراء جبل الحَزْوَرَة، وخرج قريباً من دار الإمارة، فالتقى السيلان هنالك، وتصادفا وحصر كل منهما الآخر! فانكفأ الماء راجعاً، وقد غفل الناس عن إغلاق الأبواب فدخل المسجد حتى امتلأ المسجد كله، وارتفع الماء فيه إلى أن ذهب بقناديل المطاف كلها! وما في المسجد من دواريق وبُسُط، وارتفع على قبة المقام، وعلى سطح زمزم الأدنى، وارتفع في البيت سبعة عشر شبراً على ما قال لي من شبَّر ذلك، وبلغ حلق الباب، وملأ كل البيت وخزانة في المسجد، وكان ذلك كله على ما زعموا ساعة زمنية أو أقل!

وأخبرني صاحبنا الحاج أحمد العجين الطرابلسي - وهو عندي ثقة - أنه كان في المقام بعد صلاة الظهر وأخذ المصحف يقرأ، فقرأ عشرة أحزاب بعد صلاة الظهر، فتكلَّم الرعد، وأنزلت السماء عَزَالِيَهَا ... وانهمر المطر كأفواه القرب، فما جاء وقت العصر حتى امتلأ المسجد ماءً ولا قلع المطر، ولم يقدر أحد على الوصول إلى البيت بقية ذلك اليوم والليل كله وفي الغد إلى الضحى، ولم يهتد أحد من الناس لموضع البلاليع التي في المسجد المعدة لخروج الماء، حتى جاء السلطان زيد بنفسه ودلَّهم على أماكنها. فغاص الناس إلى مجالها حتى فتحوها وخار الماء ونقص. وطاف بعض الناس بالبيت عوماً ممن يحسن السباحة! وكان ذلك أمراً مهولاً لم يعهد الناس مثله منذ أزمان(١).

وقد أخبرني من شاهد السيل الذي وقع سنة تسع وثلاثين وألف (١٠٣٩هـ) أنه لم يبلغ ما بلغ هذا السيل(٢)، ولكن الله سلم فيه البيت لوثاقة البنيان وكونه قريب العهد. إلا أنه (أي هذا السيل) زلزل الرخام الذي فرش به البيت من الداخل، وحرّكه حركة باينت بعضه من بعض، فلما غاض الماء بقي المسجد كله ممتلئا تراباً وطيناً، ولم يمكن

---

(١) الرحلة، طبعة حجرية، ج٢، ص٩٥.

(٢) ينبغي أن نعود إلى السنجاري في كتابه (منائح الكرم ..) السالف الذكر، لنقرأ عن أيام الشريف مسعود بن إدريس بن حسن التي حصل فيها ذلك السيل الذي أحدث ارتباكاً كبيراً بين أهل مكة بسبب سقوط بعض أركان الكعبة؛ حيث تولى الشريف مسعود بنفسه أمر العمليات بعد أن رفع الميزاب وجمع ما وجدوا من القناديل الذهبية ... حيث وقع استفتاء العلماء عن عمارة ما وَهِيَ من الكعبة، وألفت التآليف حول الموضوع أيام السلطان مراد خان، وستروا المنهدم من البيت الحرام بالأخشاب والأخصاف، وألبست الكعبة ثوباً من الدولعي الأخضر فوق ذلك الخشب والخصف، وصار الناس يطوفون به على هذه الحالة ... انظر منائح الكرم، ج٤، ص٦٤ وما بعدها.

للناس الصلاة فيه ولا الطواف إلا بمشقة!

وأمر السلطان بإغلاق الحوانيت، واجتمع أهل مكة كلهم واجتهدوا في إخراج ما أمكن من التراب والأحجار والطين، وعمل فيه الناس كافةً حتى السلطان بنفسه وأولاده وأقاربه.

ويخبرنا العياشي أن السلطان الخاقان الأعظم[1] بعث في هذه السنة مئة ألف دينار ذهباً ـ على ما قالوا ـ لتجديد ما يحتاج إلى التجديد من معالم الحرمين، وكان المقدم لذلك نائب جدة، فصرفت جملة من ذلك المال في تنظيف المسجد والمسعى وما احتيج إلى التنظيف من مشارب الماء التي ملأها السيل، وكان يخدم في المسجد كلّ يوم ما يقرب من مائة وخمسين رجلا بالكراء، وأدركنا المسجد ـ يقول العياشي ـ لم ينظف منه إلا المطاف وأماكن قليلة حوله ... حتى نظف المسجد كله، ودام العمل على ذلك إلى انتهاء رمضاء وأكثر شوال، وفعلوا مثل ذلك بما بين المرْوَتين ... وأخذوا بعدذلك في تجديد الصباغات الرائقة والنقوش الرفيعة التي محق السيل أثرها في المقام وقبة زمزم وقباب مقامات الأئمة وغير ذلك على أرفع مما كان، وزيدت في المسجد أشياء عجيبة، وصبغت أعمدة الحديد الدائرة بالمطاف كلّها بصبغ أحمر قانٍ، مصقولة، ووضع على كل عمود هلال مذهب أبلغ تذهيب، وزيدت في مصابيح المسجد والمسعى ثلاثمئة مصباح، إلى آخر المعلومات الدقيقة التي أوردها العياشي والتي تسهم ـ كما هو معلوم ـ في التأريخ لهذا المسجد العظيم.

وقد حرص العياشي على ذكر بعض المعالم التي أتلفها السيل، فذكر منها خزانة الكتب التي كانت بالمسجد وتعود إلى شيخه أبي مهدي عيسى الثعالبي.

وكانت المكتبة تحتوي على نحو ثمانين سفراً، فيها من نفائس الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها ... والتي كان منها ما هو ملك شيخه أبي مهدي عيسى السالف الذكر، ومنها ما هو من كُتُب الوقف على ما سيأتي ذكره بعد قليل.

ويلاحظ العياشي أن السيل المذكور بما صحبه من دمار كان من جهة أخرى سبباً في خصبٍ كثير، حيث رخصت الأسعار، وغزرت المياه فوق العادة، حتى زمزم قد زال ما

(١) القصد إلى السلطان محمد خان الرابع.

فيها من الطعم وغزر ماؤها وارتفع حتى كاد يتناول باليد! وانكسرت صولة الحرّ في هذه السنة بمكة وبشعابها وبالمسجد وأفنيته لنداوة الأرض.

وبعد هذا ينتقل العياشي إلى الحديث عن اقتراب أيام موسم الحج، فيتحدث عن البيت الذي حصل عليه من لدن صاحبه القديم الشيخ محمد الغدامسي حول باب الصفا، أقام فيه إلى أن خرج من مكة بعد أن كان يقيم في بيوت أخرى يذكر منها بيت الشيخ عبدالرحمن أخي المُلاَّ إبراهيم، وكان برباط السلطان قَايتبَاي المشرف على الصفا، وهو رباط مليح واسع، فيه بيوت كثيرة جيدة جامعة لمرافق السكنى[(١)] . . .

ويعقد العياشي بعد هذا فصلاً خاصاً لشهود رمضان بمكة، وما أدراك ما رمضان بمكة[(٢)]! مهملاً ما أورده ابن بطوطة حول الموضوع مما يؤكد أنه لم يقف على تلك الرحلة!

قال: ولما دخل رمضان شمَّر الناس عن ساق الجد والاجتهاد في العبادة، ونصبت الأسواق طوال الليل ـ كما هو شأن أهل المشرق في ليالي رمضان ـ فلا تكاد ترى بالمسجد ليلاً إلا طائفاً أو تالياً أو مصلياً، وأخذ الناس من أهل مكة والمجاورين[(٣)] في الاعتمار لا سيما ليلة الجمعة، فلا تكاد الطريق تنقطع طوال الليل من التنعيم إلى مكة ركباناً ومشاةً، رجالاً ونساءً وصبياناً، وعبيداً وإماءً . . . .

واجتهد أهل الثروة من أهل مكة فكان لكل واحد منهم مصباح كبير بين يديه، وخصفة (لَبْدة) يجلس عليها كل ليلة، ويأتي بنفر يقرؤون عنده من القرآن أجزاء على المناوبة إلى أن تذهب حصة من الليل . . . ويسقيهم من الأشربة اللذيذة . . . ويطيبهم . . . فإذا كانت ليلة الختم احتفل بها أكثر . . . حتى تكون ليلة العيد فيعطي كل واحد

(١) يبدو لي حسب وصف العياشي أن هذا المكان هو الذي أصبح اليوم معروفا بالإقامة الملكية التي تستضيف كبار الشخصيات والتي نزلناها مراراً . . .

(٢) د.التازي: عائد من أول بيت وضع للناس، جريدة العلم المغربي، عدد ١٢ شوال ١٤٢١هـ/٧ يناير ٢٠٠١م.

(٣) يلاحظ أن حضور الأفّاقيين للعمرة لم يكن موجوداً على خلاف الحال اليوم عندما كثرت الاتصالات وأصبحنا نجد أن عدد المعتمرين ربما وصل إلى عدد الحجاج!!

(٤) لا يزال الحال إلى اليوم مستمراً على هذا التقليد كما وقفت عليه . . . انظر مقالي السابق بعنوان: عائد من أول بيت وضع للناس.

من القراء كسوة ودراهم(٤) ...

ويُبالغ في تنظيف مقامات الأئمة الأربعة، التي نجد لها في كل مقام إماماً يصلي بصلاته جماعة كبيرة من أهل مذهبه ... ويوتى بشموع كبار هائلة ترفع على حسَك عظيمة رائقة ...

ويحضر الختم من في المسجد، ويخلع على الإمام بعد الفراغ خلعة من عند السلطان، ويعطى فتوحاً زائداً على الخلعة، وأول من يختم الشافعية ليلة إحدى وعشرين، والمالكية ليلة خمس وعشرين، والحنفية ليلة سبع وعشرين...

والعادة أنه كلما فتحت الكعبة يوماً للرجال فُتحت في غده لدخول النساء، ولا يقرب ساحة البيت يوم دخول النساء أحد من الرجال كفعل النساء يوم دخول الرجال.

ولما كان يوم الأربعاء يوم الفطر بكر الناس لأخذ مواضعهم للصلاة في المسجد ... وخطب الإمام خطبة بليغة وأطالها... ولما وصل إلى ذكر شريف مكة والدعاء له قام أحد أصحاب الأمير وخلع عليه الخلعة وهو يخطب ...

ويلاحظ العياشي أنه بمجرد عملية الخلع هذه تتابع الناس أفواجاً للخروج من غير أن ينتظروا فراغ الخطبة ولا كذلك دعاء الخطيب! لقد كان قصدهم فقط هو مشاهدة الخلع على الخطيب!!

وقد قصد العياشي شيخه المعروف أبا مهدي في منزله للتهنئة، وكذا لتلقي الحديث بالسماع في يوم الفطر، وهذا ما حققه؛ إذ نقرأ سنده بذلك في الرحلة قبل أن يعود إلى بيته ليكتشف أن شيخه عبدالرحمن المكناسي المقيم بالطائف أوصى أصحابه بمكة أن يتفقدوا أبا سالم العياشي في يوم العيد بطعام فاخر ...

وبعد هذا يقوم الرحّالة، كما كان وعد به، بذكر الأماكن التي ينبغي أن تزار بمكة المعظمة ونواحيها في انتظار موسم الحج بهذه السنة.

وهنا نراه يذكر غار جبل ثور الذي زاره الأربعاء ثامن شوال ووصفه على نحو ما وصفه سابقوه الذين كانوا يجمعون على أنه الغار الذي اختفى فيه الرسول ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم زار مدينة جدة، لأنه كان يتوفر على رغبة قوية في معرفة أرض الحجاز ورؤية ما بها غير الحرمين الشريفين على حد قوله، وهناك في جدة زار المكان الذي يحتضن قبر أمنا حواء على ما يقول الإخباريون، ابن خلّكان مثلاً[1] ..! وقد رحل إليها بعد عصر اليوم العاشر من شوال الذي كان يوم جمعة على ظهر حمار من حمير الحجاز التي لم ير أسرع ولا أوطأ مركباً منها !! وهم يتغالبون في ثمن الحمير، فقد بلغ الحمار مئة دينار ذهباً. !! ونحن في المغرب نضرب المثل بحمير جدة في السرعة وخفة الحركة ..[2]

والطريف أن العياشي يحدد المسافة بين جدة بعدد المقاهي المنتشرة على طول الطريق، فيقول: إنها ثمانية، ويقول عن جدة: إنها تمتد على ساحل البحر الأحمر المزود بالمدافع ... وفي مرساها سفن كثيرة مختلفة الأحجام، وغالبها معمول بالشريط (النباتي) من المسد، ليس فيها مسمار[3] ... وأسواق البلد ممتدة مع جانب البحر، وغالبها أخصاص واسعة ... وقد اتخذوا في القهاوي أَسِرّةً منسوجة بشريط المسد بطريقة محكمة، ويتحدث عن المسجد الكبير بجدة فيصفه بأنه من أجمل المساجد، وأن فيه أعمدة من السياج تخالها رخاماً أحمر، قيل إنها جلبت من كنيسة بالحبشة عندما افتتحها المسلمون ... وهناك في جدة تعرَّف إلى مفتي الشافعية الشيخ عبد القادر، قال: وليس عنده من العلم والرواية ما يرغب في أخذه، لكنه لقي مفتي الحنفية الشيخ مصطفى الذي كان ـ على العكس من الأول ـ ذا مشاركةٍ في العلوم... كما تحدث عن أديب من أدباء المدينة يعرف بالشيخ محمد مخبر... وقد أقام بجدة ثلاثة أيام ينتظر سفن مصر علّها تحمل إليه أخبار بلاده المغرب...

وقد عاد إلى مكة بعد صلاة الظهر من الثلاثاء ليصلوا مع أذان الصبح لليوم الموالي الأربعاء الخامس عشر من شوال.

ولا ينسى العياشي تتبع الحديث عن آثار السيل الذي وصفه آنفاً، وبخاصة ما يتصل

(١) وفيات الأعيان: ج٥، ص٣٨٩، تحقيق د. إحسان عباس، دار الكتاب، بيروت ١٩٧٢م.

(٢) ينطق المغاربة بكلمة حمار مصغرة فيقولون: (حُمَير) جدّة.

(٣) التجربة تدل على أن ماء البحر يأكل من المسامير عكس النبات الذي يزداد قوة مع الماء ... تراجع رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي. ج٤، ص١٢١.

(٤) لم نكن نعرف عن هذا التصميم القديم لسقف البيت العتيق الذي تحدث عنه ابن خلدون كما أسلفنا.

بالبيت العتيق، وهنا يذكر أنه لما عاد من جدة في التاريخ المذكور وجد العمال قد شرعوا في تجديد السقف الأعلى للبيت، وذلك أن للبيت سقفين بينهما مقدار ذراعين[٤] ونصف أو ثلاث؛ صيانة للبيت عن وصول شيء من التغير بنزول ماء أو غيره، فإن احتاج أحد السقفين إلى تبديل كان الآخر عوناً له.

ولقد ظهر - بعد ذلك السيلِ - شبه أثر قطر، فكشف عن ذلك فوجد في بعض خشبات السقف الأعلى مآكل بسبب الأرضة (السوسة) لطول العهد، فاقتضى نظر الخاصة تجديد السقف كله، فشرعوا في ذلك يوم الاثنين الثالث عشر من شوال على ما يذكره العياشي بتفصيل دقيق بما في ذلك الآلات والسلاليم التي ساعدت على وصول المواد إلى السطح من جهة الحِجْر، وبما في ذلك جلب خشب الساج من جدة ... شاهد عيان يحكي أنه هو ذاته أسهم في عمليات سطح البيت العتيق بمساعدة الحاج سليمان وهو من الصعيد المصري[١].

وقد كان من المزارات التي وصلها العياشي في مكة الجبل المشرف على المحصب يمين الذاهب من مكة إلى منى.

ومن المزارات غار حراء المشهور أمره، والذي نزلت فيه أول سورة من القرآن الكريم ﴿**اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...**﴾، وهو على ثلاثة أميال من مكة، وقد زاره في إحدى ليالي ذي القعدة...

ومن المزارات (الجِعرانة) موضع بين مكة والطائف، بينها وبين مكة ثمانية عشر ميلاً، ومنها كانت عمرة النبي ﷺ في ذي القعدة، وهي التي اعتمرتُ منها في حجتي الأولى[٢]، ولو أن أهل مكة يعتمرون اليوم من التنعيم ... ويذكر من المزارات التي زارها جوار مكة مدينة الطائف التي تحتوي بدورها على مزارات كثيرة ... في صدرها ضريح عبدالله بن عباس ترجمان القرآن، وهو يوجد إلى جانب المسجد الأعظم، قصدها ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة ... ويستغرب العياشي تغير أحوال الطقس عند

(١) نفتقد مثل هذه التدقيقات عند السنجاري في كتابه (منائح الكرم)، تحقيق الدكتورة ماجدة، مصدر سالف الذكر.

(٢) د. التازي: التحليق إلى البيت العتيق ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، نشر دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ، ص٩٩.

الجبل ونزول درجة الحرارة؛ حيث شعر بالبرد بعد أن كان يشكو أول النهار من شدة الحر!! وقدّم مدينة الطائف على أنها قصور تحيط بها جنات من نخيل قليل وأعناب كثيرة وفواكه مما يشتهون ... وتحدث عن المسجد الأعظم الذي ذكرناه ... وهناك على باب المسجد التقى أستاذ المجودين الشيخ عبدالعزيز بن حسن بن عيسى التواتي، تلميذ الشيخ عبدالواحد بن عاشر، تعرفه بواسطة السيد عمر المدني من متفقهة المدينة، وقد اغتنم العياشي هذه الفرصة فسمع من الشيخ التواتي المسلسل بسورة الصف؛ حيث سلم التواتي نص الإجازة للعياشي بضريح عبدالله بن عباس الملاصق للمسجد، كما قلنا.

كما لقي العياشي السيد عبدالرحمن المكناسي الذي كان يسكن بأعلى البلد. وكان العياشي تعرفه بمكة[١] .. وبهذه المناسبة حرر العياشي مذكرةً له حول هذا اللقاء تحمل تاريخ عشية الجمعة الثاني والعشرين من ذي قعدة الحرام سنة ثلاث وسبعين وألف ...

وبعد أن يعدد العياشي مزارات الطائف الذي يعدّ عند الشافعية كحَرَم مكة، تلك المزارات التي يذكر في صدرها قبر ترجمان القرآن وحبر الأمة سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ... يذكر أنه عاد إلى مكة محرماً بعمرة من قرن الثعالب[٢] الذي هو ميقات أهل نجد؛ حيث وجد مكة قد غصّت بالوفود التي ترد عليها من كل فج عميق.

وفي انتظار الحديث عن موسم الحج يذكر لنا بعض من لقيه من أهل مكة أيام المجاورة ... وفي صدر هؤلاء مفتي الشافعية وإمام المقام وشيخه زين العابدين الطبري الحسيني ... كما يذكر شيخه المعروف الذي استفاد منه معظم علمه ومروياته أبا محمد عيسى ابن محمد الثعالبي الجعفري الذي أعطاه النصيب الأوفر من الحديث راوياً عن كتابه «كنز الرواة»، مبرراً ذلك التكرار بالرغبة في تكثير الفائدة ...!

وإلى جانب هذا ذكر بعض من أخذوا عنه هو كأبي علي حسن العجيمي المكي الحنفي، وكذا الفقيه قاضي المالكية بمكة الشيخ أحمد تاج الدين المالكي إمام مقام المالكية.

---

(١) د. التازي: الطائف في مذكرات الرحالة المغربي أبي سالم عبدالله العياشي ... بعد أن زرتها يوم الجمعة ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٠م. وقد نشر في صحيفة سعودية غاب عني اسمها وزمانها ومكانها.

(٢) هو قرن المنازل.

وبعد هذا يعود العياشي إلى الكتب، فيخصص فصلاً للحديث عما عثر عليه بمكة من كتب غريبة... ويذكر من ذلك رحلة الشيخ المحدث محمد بن رُشيد السبتي السالف الذكر، رأى فيها عدة أجزاء بمكتبة شيخه أبي مهدي عيسى، وكانت في وقف المغاربة برباط الموفق وعليها خط ابن رُشَيد وخط تلميذه عبدالمهيمن الحضرمي إلى آخر ما ينتقيه من رحلة ابن رُشَيد.

ومما رآه بمكة كتاب «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» للشيخ نجم الدين عمر بن فهد، الذي يذكر أنه انتقى منه أشياء، منها: وفي سنة إحدى وستين ومئة أمر المهدي بشراء جميع ما كان من الدور بين المسجد والمسعى لإدخاله في المسجد ... ودخل في ذلك دار خيرة بنت سباع الخزاعية ... ومنها جملة ملابس سليمان بن عبد الملك لما حج على سبعمئة بعير، وقيل: تسعمئة ...

ويعود إلى ذكر المزارات فيذكر دار الأرقم، و(المودّع) الذي يذكر أن النبي عليه السلام ودّع منه أهل مكة لما أراد الخروج إلى المدينة بعد حجة الوداع، وقريب منه رباط ينسب إلى الشيخ الجيلاني، ومنها جبل أبي قبيس ومقابر الحُجُون وقبة الشريف أبي طالب، غير غافل عن التعليق والتعقيب حول مصادر هذه المرويات على ما أسلفنا(١).

وأخيراً يعود أبو سالم العياشي إلى الحديث عن مكة عندما استهل شهر ذي الحجة.

لقد تهيأ أهل مكة للخروج ... خرج غالب أهلها حتى العواتق وذوات الخدور على حد تعبيره، وبالغوا في انتقاء الفرش والمواكب المزينة ولذيذ الأطعمة كما هي عادتهم ... وخروج غالبهم إلى عرفات في اليوم السادس، ويقيمون بها السابع والثامن، وتكون لهم بها سوق عظيمة حافلة لا يرى مثلها على ما سبقت الإشارة إليه.

وقد أحرم بعض الناس من أول الشهر، وغالب الأفاقين من قبل ذلك بقوا على إحرامهم

---

(١) من المهم أن نقرأ تعليق العياشي على قبة أبي طالب السامية العالية: إن عوام الناس يظنون أن القصد إلى عم رسول الله ﷺ، فسألت أهل العلم بمكة، فأخبروني أنه أمير من أمراء مكة المتأخرين من أشرافها من آل أبي نُمَيّ اسمه أبو طالب. قالوا: وكان في حياته شجاعاً مقداماً ... دوخ بلاد الحجاز .. وأهل الحجاز يؤرخون بموته فيقولون: كان هذا في زمن أبي طالب ... ولو أنه لم يعمر طويلاً. السنجاري: منائح الكرم، تحقيق د. ماجدة فيصل زكرياء، ج٣، ص ٥٠٥ وما بعدها، ج٥، ص ١٥.

لأنهم أحرموا بالحج، وغالب الناس إنما يحرمون يوم خروجهم...

أما العياشي فقد أحرم ليلة الجمعة السابع من الشهر قارناً، ونوى الاعتكاف في تلك الليلة ويومها، فجمع ـ كما يقول ـ بين حج واعتكاف وصوم ...

وأقام بمكة إلى ضحى اليوم الثامن، حيث خرج من مكة صحبة أصحابه راجلين وجعلها حجة "صعْلوكية" ـ كما قال ـ من دون دواب، يحملون زادهم على ظهورهم لتمكن شراء المحتاج إليه في كل مكان ...(١)

ووصلوا إلى منى ظهراً ونزلوا بمسجد الخيف مختلطين بالفقراء، وقضى بالمسجد ليلةً مباركة، فلما كان الغد خرجوا قرب بزوغ الشمس ذاهبين إلى عرفات، ولم يصلوا إلى نمرة حتى اشتد الحر ... «ووجدنا الماء كثيراً في أبواب المسجد. سبَّله بعض أرباب الدولة، يبعث روايا حتى إذا فرغت بعث بغيرها، لا يمنع منها شارب ولا متطهر ... إلى أن صلى الناس وذهبوا إلى الموقف ... وكان شيخنا أبو مهدي نازلاً في رواق مظلل لبعض أصحابنا التونسيين...»، وهناك اجتمع بالشيخ وروى عنه مرة أخرى ....

ولما زالت الشمس وجمعنا الظهرين ذهبنا إلى الموقف في حرٍّ شديد ما رأيته طوال عمري ـ يقول العياشي ـ وبلغ منى الجَهد غاية، وتذكرت حرّ القيامة ...! وكنت أنظر يميناً وشمالاً، وتحملت أشد ما يكون من التعب ومعاناة الحر الشديد، لا سيما بعد أن دخلنا مزدحم الناس وانضغاطهم، وامتزاج حرارة أنفاس الحيوانات بحرارة الشمس، وثوران غبار الأقدام على الرؤوس حتى لا يكاد الإنسان يشك أنها نار لظى!! (١٥ يوليو ١٦٦٣م)، إلى أن وصلنا إلى موقف النبي ﷺ، وما كنا نعرفه قبل هذه السنة، وبعث معنا شيخنا أبو مهدي رجلاً دلنا عليه، وهو تحت موقف الإمام اليوم في أصل الجبل على صخرات مفترشة، وبني على تلك الصخرات محوط شبه مسجد، فوقفت به ساعة فغلبت، ثم جلست إلى أن فات وقت العصر وقضيت الوظيف المعهود من الدعاء والاستغفار والتكبير والتهليل والصلاة على النبي عليه السلام.

وقد خرج العياشي عن مزدحم الناس وحاول أن يحصل على هدْي؛ لأنه كان يتمتع

---

(١) الرحلة ٢، ٢٩٣.

بالحج والعمرة مقترنين على ما أشرنا .. فلم يستطع وتأخر إلى أن قام بذلك في مكة، ولم يزل بقية يومه يدعو ويكبر ... ولما كان قرب الاصفرار نفرت محامل الأمراء والجند وذهب معهم حُطمة الناس، وتلك عادتهم لا ينتظرون الغروب في الموقف! وما نفرنا نحن إلا بعد الغروب وإقبال الليل ... فلم نصل إلى مزدلفة حتى قاسينا من التعب ما لا مزيد عليه، وجمعنا العشائين، وصعدنا إلى جبل قزح وبتنا عليه تنحياً عن مواطئ الأقدام... وبتنا حتى أصبحنا ووقفنا بالمشعر الحرام، ثم سرنا رويداً نجر الأقدام على الأرض جراً، فما وصلنا مسجد الخيف حتى اشتد الحر وخفت أن أجلس للاستراحة فاغلب عن رمي جمرة العقبة، فذهبت على ما بي حتى رميت الجمرة فرجعت[1] ...

ويبدو أن العياشي أخذ ينهار مع توالي التعب في هذا الحر الشديد (١٦ يوليو)؛ حيث نجده يقول بلغة العصر الحاضر: إنه تعرض لضرْبة شمس!!

لقد قال بأسلوبه الخاص: رجعتُ من رمي العقبة، فبمجرد جلوسي ثار عليٌّ قيء وتدويخ، حتى كدت أن يغشى عليَّ، فبقيت طيلة يومين لا أنتفع بنفسي..! ويئست من طواف الإفاضة في تلك الأيام وحلقت رأسي، وأخرت الإفاضة إلى أن رجعنا من منى.

ولما شعر العياشي ببعض الراحة خرج لزيارة بعض الأماكن التي تزار بمنى، ويذكر المسجد أولاً؛ لأنه منزل رسول الله ﷺوهو في القبة التي توجد وسط الصحن، والتي يصفها العياشي بأنها مثمنة الشكل ....

ثم (غار المرسلات) المذكور عند الرحالين السابقين، ومسجد النحر الذي دله عليه شيخه أبو مهدي، ومسجد العقبة ... وذهبنا وصلينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمحصب، فدخلنا مكة بعد العشاء حيث وجدنا المسجد الحرام غاصاً بأهله لا تكاد تجد فيه مجلس رجل واحد... وقد أخر الطواف والسعي إلى آخر الليل عندما خف الزحام.

ولما قضينا تفثنا ـ يقول العياشي ـ وفرغنا من نسكنا أخذنا في الأهبة للرحيل ... وعزمنا على الخروج مع القوافل التي تذهب إلى المدينة قبل خروج الأركاب ...

ولم يتردد العياشي في الحملة على المكاري الذي تعاقد معه قائلاً: «واكترينا من عند

---

(١) الرحلة ٢، ٢٨٣.

أناس من عرب الحجاز ليس لهم دين ولا مروءة، كلما عقدنا معهم عقداً حلُّوه، ولَكَمْ أبرمنا أمراً نقضوه طلباً للزيادة في الكراء بعد شدّ الأحمال على الجمال!!».

ولقد كان خروجه من مكة المكرمة ليلة الثلاثاء الثامن عشر من شهر ذي الحجة، وكان قد طاف طواف الوداع وقت العصر من أمس الاثنين ... ومر بمنزل شيخه أبي مهدي فودعه ... ورافقه صاحبه أبو علي حسن العجيمي إلى ذي طوى عندما التحق هناك بالرواحل.

كانت لحظات الوداع جد مؤثرة كما يحكي ذلك أبو سالم...

وإلى جانب هذا يحكي أن الرفقة لم يكن بها أحد من أبناء جنسه! فضاقت عليه الأرض بما رحبت، لا سيما مع القلق الذي كان يعانيه من المكارين الذين قالوا له: إن أمتعتكم ثقيلة، فإما أن تزيدوا في الكراء وإما أن نطرح لكم أمتعتكم أرضاً، حيث اضطر العياشي إلى الزيادة، وهكذا أصبح ثمن الكراء من مكة إلى المدينة أزيد مما اكترى الناس به من مكة إلى مصر!!

كنا نتمنى أن نستوعب جميع ما أورده العياشي الذي - كما قلنا - ظل لازمة الرحلات اللاحقة لولا أنه مطبوع على الحجر في أيدي الناس، ولو أن الطبعة في حاجةٍ إلى قراءةٍ جديدة مزودة بتحقيق وفهارس شاملة.

ابن سليمان الروداني ١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م

هذا السيد الجليل القدر العالم الكبير محمد بن سليمان الروداني ينتسب إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس الأقصى جنوب المغرب، لم يخلف رحلة مكتوبة بالحروف، لكنه خلفها مكتوبة بالرسوم المتحركة كما نقول بمصطلح اليوم! لم يخلف رحلة مكتوبة بالحروف، ولكن فرض اسمه على محرري معظم الرحلات الحجازية المغربية التي ذكرته باعتزاز كبير على طول عقود متتابعة، بل فرض اسمه على سائر المؤلفات التي تعالج تاريخ مكة المكرمة في القرن الثاني عشر الهجري، كان عليها أن تخصص له حيزاً مهما في مؤلفاتها: فهو حاضر في التاريخ المعماري بمكة؛ فهو الباني وهو المؤثث للحرم، وهو حاضر في تاريخها العلمي؛ فهو شيخ الأشراف والمشايخ، وحاضر في التاريخ الاجتماعي؛ فقد وقف في وجه المستفيدين مما ليس لهم الحق في الاستفادة منه!! وهو حاضر في التاريخ السياسي، كان ناظر الحرمين الشريفين؛ فهو الموجه والمنظر، بمعنى أنه كان لفترة من الزمان كل شيء بمكة، إنه كان في نظرنا خميرة للحركات الإصلاحية التي ستعود بالناس إلى نهج السلف الصالح...

وقد تحدث عنه تلميذه اللامع علي بن تاج الدين السنجاري في تأليفه الجامع (منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم)[١].

ولأننا نرى الشيخ الروداني رائداً كبيراً من رواد التاريخ الإسلامي، وجسراً قوياً من الجسور التي ربطت المغرب بالمشرق وبالحجاز بصفة خاصة، وبالحرمين الشريفين بصفة أخص، فقد رأينا من واجبنا أن نستعرض بعض ما ورد عن بدايته في بعض المصادر المغربية قبل أن نرجع إلى المصادر الحجازية.

لقد نعته الإمام أبو سالم العياشي السالف الذكر في رحلته «ماء الموائد» (١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م)، وقد اجتمع به وخبره عن قرب ... نعته بحكيم الإسلام وأحد العلماء

(١) إعداد الدكتور جميل عبد الله محمد المصري وآخرين، جامعة أم القرى، مكة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

الأعلام، المتوقد فطنة، والمتوهج ذكاء، والممتلئ حكمة وإيماناً، لم يرشح له وعاء! ولا حل له أحد وكاء! توغل في أقطار الأرض وجال، وبلغ على حداثة سنه مبلغاً عجز عنه فحول الرجال من المتقنين لعلوم كثيرة، والمتحلين بحلي من محاسن الأوصاف أثيرة، ودخل مدينة فاس بقصد تعلم العلوم الرسمية، ولا سيما علم الحكمة من هيئة وتنجيم وحساب ومنطق وما شاكل ذلك .. وانتقل إلى مراكش، وانتفع بعلمائها[1] ...

ولم يزل ينتقل في البلاد إلى أن وصل إلى البلاد المشرقية عبر الجزائر التي أخذ أيضاً من رجالها وأصفيائها ... وانتهت سياحته إلى المدينة المشرفة، لم يخرج عنها إلا إلى مكة المكرمة ... ثم دخل البلاد الإفريقية، ثم ركب البحر إلى إستانبول حيث وقعت له وقائع مع بعض "علمائها" المنتحلين لنفسهم ما ليس لهم! فشعر بالصدمة، والتجأ إلى التحنث والابتعاد عن مثل هؤلاء الانتهازيين الوصوليين والمشعوذين.

وانتقل إلى مصر فقصد الصعيد ليقيم هناك بعض الوقت، حيث كانت له مراسلات مع شيخ المالكية بمصر الإمام الأجهوري حول لباس الصوف الوارد من بلاد الروم ...

وينتقل الروداني إلى الحجاز، ويقوم بأداء فريضة الحج قبل أن يختار المدينة موطناً له، حيث لزم الصمت وانقطع عن الناس في أغلب الأوقات إلا ما كان يتعاطى له أحياناً من الدرس مع بعض الخواص في بيته المشرف على الحرم الشريف ...

وبما نعرفه عن الإمام أبي سالم من تفتّح على الناس وحسن سلوك معهم، كان يعاتب الروداني على تجهمه للخلق، وعدم معرفته لأهل زمانه! وضيق حوصلته!! فكان الروداني لا يتردد في مصارحته بما يعتقد أنه الصواب ...

كان لا يدري مداراة الورى

ومداراة الورى أمر مهم!!

ويسمح أبو سالم لنفسه ليقوم بمقارنة بين ابن سليمان الروداني الصلب وبين الشيخ أبي مهدي عيسى الثعالبي الجزائري، وكانا على طرفي نقيض على حد تعبير أبي سالم

---

(١) رحلة أبي سالم العياشي: طبعة حجرية ٢، ص ٣٠. القادري، نشر المثاني، طبعة الرباط ٢، ص ٣١٤ وما بعدها. د. التازي، تاريخ القرويين، ج ٣، ص ٧٩٤.

الذي يخلص إلى القول: كلٌّ على هدًى، إلا أن النفس إلى ما عليه أبو مهدي أميل!!

لقد كان العياشي لقيه بالمدينة، عندما قرر المجاورة أوائل سنة ١٠٧٣هـ / أغسطس ١٦٦٢م، حيث هيأ له الروداني، لما علم أنه ينزل بجواره، مكاناً ينزل فيه، وهو محل خزانة كتب، وهي وقف للسلطان قايتباي مشرف على الحرم، قبل أن ينتقل العياشي إلى منزل آخر على أن يظل كثير التردد على صديقه ابن سليمان...

وهنا سنعرف أكثر عن أفكار الروداني وعن أسباب اعتزاله عن الناس وانزوائه عنهم، كما نعرف عن سر نفور بعض الناس منه وتحاشيهم سماع أفكاره ...

لقد كان الرجل يرى ما لا يريد أن يراه، ويسمع ما لا يرضى أن يسمعه، ومن هنا كان ظاهرة غريبة عن المجتمع الذي يعيش فيه ومن حوله ...

كان الروداني ذا ورع تام ما رأيته في عصرنا لأحد، يقول الإمام أبو سالم عبد الله العياشي: كان لا يقبل من أحد عطاء إلا إذا علم وجوه مكاسبه! وقد انتهى به الورع إلى ترك أكل ثمار المدينة بالجملة لفساد معاملة أرباب الحوائط لعمالهم في الغالب، فإن رب الحائط يعامل المساقي على أوسق معلومة في كل سنة يدفعها له، وهذا فاشٍ عندهم، قلَّ من يعامل المساقي بالجزء المشاع شرعاً ...

ومن ورعه أنه لا يتقوت إلا من كسب يده، وكانت له يد صناع يحسن غالب الحرف المهمة، لا سيما الرقيقة العمل الرائقة الصنع كالطرز العجيب، والصياغة المتقنة، وتسفير الكتب والخرازة!

وله يد طولى في عمل الأسطرلابات وغيرها من الآلات التوقيتية، كالأرباع والدوائر والأنصاف والمكانات (المنجانات).

وكان يجير قوارير الزجاج المتصدعة بحسن احتيال ولطف تدبر إلى ألاَّ يكاد صدعها يبين!

وأجل ما اخترعه «الأدلة الجامعة النافعة في علمي التوقيت والهيئة»، ولم يسبق إلى مثلها، ولا حادى أحد على شكلها، بل ابتكرها بفكره الفائق، وصنعه الرائق، وهي كورة مستديرة الشكل، منعمة الصقل، مغشاة ببياض الوجه المموَّه بدهن الكتَّان،

يحسبها الناظر بيضة من عسجد لإشراقها، مسطرة كلها دوائر ورسوم، قد ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج، وغيرها مستديرة كالتي تحتها، مصقلة مصبوغة بلون أخضر، فيكون لها ولما يبدو تحتها منظر رائق، ومخبر فائق، وهي التي تغني عن كل آلة تستعمل في فني التوقيت والهيأة، مع سهولة المدرك، لكون الأشياء فيها محسوبة، والدوائر المتوهمة في الهيئة، والتقاطع الذي بينهما مشاهد فيها، وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها.

وحاصل القول فيها أن الوصف لا يكاد يحيط بها، ولا يعلم قدرها ومزيتها إلا من شاهدها وكانت له معرفة بالعلمين، فيرى ما يذهل الفكر ويحير النظر، ويعلم أن من اهتدى لاستخراج ذلك للعيان بعد أن كانت القرائح الجيدة تحير في تصوره ذهناً قد أُيِّد بنور الهدى وإلهام رباني.

قال العياشي: وقد ألف واضعها رسالة في وصفها وكيفية العمل بها في سائر المطالب التي تدرك بغيرها وزيادة ... ويورد العياشي أول هذه الرسالة بما فيه من ذكر غالب رسومها والأشكال المثبتة فيها ... ست صفحات كاملة حول تقديم هذه الرسالة العلمية الرائعة تحتاج إلى درس عميق...

كانت هذه فذلكة من معاصر مغربي عايش الشيخ ابن سليمان في الحرمين، ذلك هو أبو سالم العياشي، الذي ودع الحجاز وظل مشغولاً بأخبار صديقه الروداني خائفاً عليه، لا سيما وقد عرف عن عميق علمه ومشاركته الواسعة، كما عرف عن صلابة عوده وقوة شكيمته، إن مثل هؤلاء الناس قليلة سلامتهم ... وذكاء المرء محسوب عليه، كما يقولون. فماذا عما يقوله تلميذه أبو الحسن علي بن تاج الدين السنجاري المتوفى بعد العياشي بخمس وثلاثين سنة فقط؟

لقد ذكر السنجاري شيخه الروداني أكثر من خمسين مرة في موسوعته (منائح الكرم) ... وعلى الرغم من أن التلميذ كان يخالف شيخه في بعض القرارات الصارمة التي كان اتخذها الروداني فيما يتصل بالحالة الاجتماعية في مكة، إلا أن التلميذ كان يجل شيخه ويكبره ويعدّه صانعاً لتاريخ الحرمين طوال بضع سنوات، وقد خصص له

ترجمة واسعة، وكان يدعو له عندما يذكره بقوله: «رحمة الله عليه، وجعله مقرباً لديه».

وباختصار شديد سنحاول تتبع حضور "الشيخ محمد المغربي"، لإثبات فعاليات رحلته الحجازية وإيجابيتها التي ـ كما قلنا ـ لم تكن مكتوبة، ولكنها منقوشة في كل ذاكرة وفي كل مذكرة، وسنعرف من خلال هذا الحضور دور المجاورين أو الأفّاقيين في صنع تاريخ الحرمين الشريفين على مختلف الصعد ...

ونبدأ بمبادرته، وقد اجتاحت مكة موجة من شدة الغلاء سنة ١٠٧٩هـ / ١٦٧٠م فضربت الفقراء في الصميم، فوجدنا الشيخ يتحرك للقيام بمبادرة إنسانية ذكية، فيكلم الشيخ أبا مهدي عيسى الثعالبي مسند مكة، ولو أنه كان معه على طرفي نقيض كما أسلفنا، كما يكلم الرجل الصالح عبد الرحمن الزناتي، وكل الثلاثة مغاربة؛ ليقوموا بفتح اكتتاب من أجل إعداد وجبات للفقراء ابتدأ من يوم خامس جمادى الآخرة / ١٠ نوفمبر صباحاً ومساءً.

وكتبوا للشريف سعد بن محسن بن الحسين بن حسن بن أبي نُمَي وسائر أعيان البلاد ... وكان هذا أول ظهور للشيخ بمكة المكرمة.

وقد شهدت سنة ١٠٧٩هـ كذلك، وبالضبط يوم سادس ذي الحجة، عملاً علمياً فريداً من نوعه قام به الشيخ ابن سليمان، ذلك أنه وضع المزولة التي صنعها في المسجد الحرام بعد أن بنى لها قوائم طول قامة الرجل، بحيث يقف الإنسان ويرى رسومها حيال الركن الشرقي على ممشى باب السلام(١)، ظلت المزولة قائمة ردحاً من الزمان على ما سنرى(٢).

وقد صادف أن حج أخو الوزير الأعظم محمد بن أحمد بن إبراهيم الكبرلي في موسم سنة ١٠٨٠هـ / مايو ١٦٧٠م، وكان وزيراً للسلطان محمد خان ... فاجتمع بالشريف سعد، ونزل في دار مولانا الشيخ محمد بن سليمان لصحبة سابقة بينهما ...

وكان للشيخ محمد بن سليمان صهر من الأروام يقال له محمد الفصيحي، كان الشريف سعد سمع عنه كلاماً تحققه فيه فبطش به على الرغم من تشفع الشيخ ابن سليمان.

---

(١) انظر تفصيل الحديث عن هذه المزولة عند العصامي: سمط النجوم العوالي ج٤، ص٥٠٥، وقد ذكر أنها ركبت يوم الاثنين ١١ ذي القعدة.

(٢) السباعي، ص ٣٨١.

ولما حج أخو الوزير المذكور اجتمع بالشيخ ابن سليمان، وسأله السفر معه إلى الروم، ومثل ابن سليمان لا يعدم من يرغب في صحبته، ويضمن له كل ما يروم!!

وقد وجد الشيخ محمد بن سليمان عند ذلك للمقال مكاناً فسيحاً، وأبدى للملك حسرته على ما يقع ! فعند ذلك أمر الوزير الأعظم بإخراج أمر سلطاني إلى صاحب مصر أحمد باشا بتجهيز ثلاثة آلاف عسكري من مصر إلى مكة، وكتب إلى حسين باشا صاحب حلب أن يحج هذا العام بألفي عسكري وينظر في أمر الحرمين، ولا يبرم أمراً دون إشارة الشيخ محمد بن سليمان ... وهنا أمر الشيخ الروداني بالحج وإصلاح البلد وتولية من يرى فيه الصلاح...

وفي اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٠٨٢هـ / ١٢ مارس ١٦٧٢م، وردت كتب من المدينة من الشيخ محمد بن سليمان إلى مولانا الشريف سعد، ومضمونها التعريف بوصوله صحبة حسين باشا، وأنه من المحبين لكم فقابلوه بما يليق؛ فإنه عين الوزير الأعظم.

وترددت المراسيل حول مراسيم الاستقبال، ولما كان اليوم السادس من ذي الحجة ورد الشيخ محمد بن سليمان مكة وصحبته الوفد الذي كان بعث به الشريف لاستطلاع سر حضور العساكر المصرية !!

فاجتمعوا بمولانا الشريف، حفظه الله، وسألهم عما فهموه من حسين باشا، فأخبروه بأنهم رأوا منه غاية الكمال، وأنهم عندما سألوه عن العساكر المصرية أجابهم بأنه إنما أمر بالخروج مع الركب الشامي وحفظه من العرب.

ولما كان اليوم السابع من ذي الحجة ورد مكة، ونزل بالزاهر إلى الليل، ودخل الطواف ليلة ثمان بعد أن أرسل له الشريف هدية سنية على نحو ما فعل أخوه الشريف أحمد.

وخرج مولانا الشريف، أعزه الله، للقائد تلك الليلة بعد صلاة المغرب، فالتقيا بالمعلاة وتصافحا على خيولهما، وقبَّل الباشا المذكور يد مولانا الشريف، وأظهر الفرح بلقائه، وأبدى من الخضوع ما تقر به العين، وهو مضمر ما أضمر شمر للحسين!

وحج الشريف في هذه الطريق بقوة جأش وعدم إيحاش، لكنه رأى القتال في هذا الشهر الشريف مما يضر بأهل التعريف، كما يقول السنجاري، الذي أضاف أن الشريف،

صحبة أخيه، غادر مكة ليلة الاثنين الثالث عشر من ذي الحجة ...

وهكذا وجدنا أن الباشا حسين يجتمع مع كبار مساعديه في منزل الشيخ محمد بن سليمان بمنى؛ حيث تم استدعاء الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نُمَي.

لقد اختفى إذن ذوو زيد من الساحة السياسية ليظهر ذوو بركات ... لقد كانت المنافسات مستعرة على الدوام بين الفريقين ! ولم يتردد السنجاري في القول بأن الشيخ محمد بن سليمان كان وراء المنهج المذكور لإنتاج الفعل المقدور!

وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة اجتمع الشريف بركات وكبراء العسكر وحسين باشا في منزل الشيخ محمد بن سليمان الذي أظهر بيديه أمراً سلطانياً يتضمن نظره في أمر الحرمين وإصلاحهما والتصرف في أحوالهما، فأذعن له بذلك مولانا الشريف بركات، ومكَّنه من الزمام وفق التصريف ...

وهنا أخذ الشيخ ابن سليمان في تنفيذ مشاريعه، حيث نجده على ما يحكيه السنجاري يقوم بسلسة من الإجراءات التي أغضبت المستفيدين؛ لقد أصدر ابن سليمان يوم الاثنين الرابع من المحرم سنة ١٠٨٣هـ / ٢ مايو ١٦٧٢م[١] أمراً يتضمن إخراج من كان في الخلاوي (المساكين) الموقوفة، لقد انتزعها ممن له بيت يأويه وعياله، كخلاوي قايتباي والشرابية ونحو ذلك من الربط.

قال السباعي: «كان الشيخ ابن سليمان يرى أن هذه الخلاوي ما بنيت إلا لتأوي المجاورين من طلبة العلم ممن ليست لهم بيوت يأوون إليها، وأن غلالها ما ربطت إلا لتعول هذا النفر الذي ليس له عمل إلا طلب العلم، وأنها إذا كانت قد آلت بتقادم السنين إلى ورثة لهم بيوت يسكنونها مع عائلاتهم ولهم طرق للكسب يستطيعون بها أن يستغنوا عن الخلاوي ومربوطاتها، فإن من الحق أن تنتزع منهم لتوجه للمجاورين الفقراء يستفيدون منها»[٢].

وتدخلت بعض الشخصيات وأظهروا فتاوي بأيديهم، فما أجدى ذلك عند الشيخ

---

(١) زيني دحلان، خلاصة الكلام، ص٩٠.

(٢) تاريخ مكة، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

ابن سليمان!

وقد أدلى أبناء الملامكي بما في أيديهم من أوقاف السلطان قايتباي في الكتب، وأن إقامتهم في المدرسة لذلك، فأبقوا في المدرسة أياماً، لكنهم أخرجوا بعد ذلك!

وأمر الشيخ بقراءة أجزاء ربعة السلطان قايتباي، وأمر بقراءة البخاري، وأخذ الوقفية عنده، وجعل تدريس الحديث للشيخ عبدالله العباسي الطاهر الطاشكندي، وأخذ مدرسة الشرابية من يد الشيخ أحمد الحكيم، وكانت بيده أوامر لآبائه تقضي له بالسكنى فيها، وأعطاها لأحد المجاورين وهو مصطفى أفندي الديار بكري، فسكن بها ودرس بالمدرسة، وأمر أن تكرى جميع الأوقاف بأجرة المثل: لقد كان مدخول وقف قايتباي ستمئة حرف (نوع عملة) فارتقى إلى أربعة آلاف قرش وستمئة!!

وأخرج الشيخ إبراهيم زاده من وقف الدوري، وظهر أنه من عمائر السلطان جقمق، وأنه كان موضع دشيشة للفقراء، وأخذ ما بأيدي الناس من حب السلطان جقمق الوارد لأهالي مكة، وحب السلطان خان الواصل من مصر إلى أهالي مكة كذلك، وحب السلطان قايتباي ومال المصرية، وعمر بذلك تكية في محل وقف الدوري المذكور، وطبخ فيها شربة للفقراء بالحب المذكور!

وعمر عدة أوقاف بمكة كانت خربة قد استولت عليها الأيدي، قال السنجاري: ونعم ما فعل في ذلك!

ونصب الشيخ علي العصامي مدرساً شافعياً في مدرسة قايتباي، ونصب شيخنا ـ يقول السنجاري ـ الشيخ محمد المغربي الغدامسي مدرساً مالكياً، وعين مدرسها الحنفي قاضياً شرعياً، وجعل مدرس الحديث، عِوَض الحنبلي، الشيخ عبدالله العباسي الطاشكندي السالف الذكر.

وصرف على الدشيشة المذكورة من كرى جقمق وقايتباي ومال الحرمين، ومن الأوقاف الباقية ومعالم ذلك، وما للمدرسين والطلبة مذكور في تاريخ العلامة القطبي[1].

(١) يعني كتابه إعلام الأعلام ببناء المسجد الحرام. وانظر أعمال ابن سليمان في (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام) للشيخ زيني دحلان، طبعة مصر ١٣٠٥، ص٩٢-٩٣.

وكان من أخبار نشاط الشيخ ابن سليمان أنه قام يوم السبت التاسع من جمادى الآخرة من العام المذكور ١٠٨٣هـ بزيارة مطعم الدشيشة المخصصة للفقراء في التكية التي عمرها الشيخ المذكور من الأوقاف بعد صلاة العصر ومعه كبار العسكر وبعض تلامذته، وغرف بنفسه من الشربة وشرب منها وسقى من معه، وفُرِّقت بعد ذلك على الفقراء بعد أن قرأ الفاتحة للسلطان جقمق. وتعليقاً على هذه المبادرة التي لم ترق للسنجاري قال: وما أحسن ما قال المختار الشاعر المكي، ولم يدرك هذا الوقت المبكي:

وظائف الناس قد صارت مفرقة
ما بين عبد ومعتوق وأفّاق
وأهل مكة قد خارت نجومهم
فما يرى كوكب يبدو بآفاق!

ويبدو أن الشيخ الروداني كان غير مبالٍ بما يقوله مخالفوه! كما لم يكن متساهلاً إزاء من يحاولون التشويش عليه، ومن هنا نراه يعزل في شعبان من السنة نفسها الشيخ محمد بن محمد المنوفي من التدريس بالمرادية؛ لأنه صدر منه كلام في حق الشيخ..!

وقد رأى أن العين بعرفة تحتاج إلى عمارة فاقترح على (الأبواب السلطانية) مطلبه، مما جعل تلك (الأبواب) تبعث له بالمهندس الذي يساعد على بناء العمارة، حيث نجد الشيخ ابن سليمان يشرف على أعمالها باهتمام إلى جانب الشريف بركات، وما فتئت الرسل تترى بين ابن سليمان والأبواب السلطانية على ما يذكره السنجاري في أحداث أواخر هذه السنة ١٠٩٣هـ، وكان موسم الحج مناسبة لاستضافة كبار الشخصيات الواردة من الأبواب وتعزيز الصلات بها ...

واستمر الشيخ ابن سليمان معززاً من لدن الشريف يفاتح الأبواب في طلب المزيد من المال لدعم مشروعه الرائد حول الدشيشة وحول تعمير رباطات جديدة تكون في صحائف مولانا الوزير ...

وقد حدث ليلة الثلاثاء خامس وعشرين شعبان ١٠٨٤هـ أن نزل مطر بالليل، فقام جماعة من العسكر بهدم الساعة مع قوائمها التي كان بناها الشيخ محمد بن سليمان

منذ سنة ١٠٧٩هـ، ويقال: إنهم وجدوا فيها أعمالاً، وأنهوا ذلك إلى القاضي الذي قال لهم: لعل بانيها أن يتكلم في هدمها، فلم يتكلم الشيخ في هدمها...

ولعل لتنصيب المرشدي نائباً عن القاضي المذكور، وبإشارة من محمد بن سليمان، علاقة بهدم الساعة!!

وبمرور الأيام يتأكد للناس أن الشيخ ابن سليمان يكون دائماً وراء العزل والتنصيب حتى بالنسبة لمساعدي الشريف بركات! بل وحتى وراء رفض بعض قرارات مصر بعزل نائب حرم مكة وتنصيب آخر!!

لقد كان ابن سليمان الروداني يقدر جيداً مسؤوليته كناظر للحرمين الشريفين، ولهذا فإنه يستعمل حقه في التصرف حسبما يراه على نحو ما شاهدناه وهو يقوم بعمليات تنظيف الحجون وإصلاح مدرج منى واقفاً على ذلك بنفسه من غير اعتماد على مساعد..!

وبمناسبة موسم حج سنة ١٠٨٦هـ دخل مكة يوم رابع ذي الحجة ابن أخي الوزير الكبرلي الذي استقبله الشريف بركات، وأقام بالمدرسة الداودية عند الشيخ محمد بن سليمان قبل أن يدركه أجله بمنى ثالث أيام التشريق، حيث وجدنا الشيخ ابن سليمان يقوم بالواجب ويحضر مراسم جنازته في مكة إلى جانب الشريف بركات، وهو الحدث الذي كان وراء إرسال الشريف بركات نجله سعيداً إلى الأبواب السلطانية لتعزية الوزير الأعظم في ابن أخيه... حيث كان للشيخ ابن سليمان رأيه في اختيار الوفد المرافق للشريف.

وفي أوائل ربيع الأول سنة ١٠٨٧هـ قام الشيخ ابن سليمان باستئجار بيت بجانب المدرسة الداودية، ولم يلبث أن هدمه ليشيد مكانه عمارة ملوكية، ويزخرفها بأنواع النقوش، ويواصل بين تلك الأماكن إلى باب إبراهيم. لكن الذي أثار السنجاري حقاً هو أنه في أحداث نهاية ربيع الثاني من هذا العام ١٠٨٧هـ يروي أن الشيخ محمد شرع في هدم قبور المعلاة وبنى مقبرة خاصة جعلها أربعة جدارات وفصلها تفصيل الشطرنج، وجعل لها بابين[١]، فهتك بذلك - يقول السنجاري - حرمة الأموات! وهنا يروي شعراً لبعضهم:

(١) لعلها السلمانية المعروفة بهذا الاسم إلى اليوم. السباعي، ص ٣٨٢.

تكفل ابن سليمان أذية من
قد وحَّد الله ممن حل بالحرم
فحين عم الأذى الأحياء منه غدا
مفتِّشاً لأولي التوحيد في الرمم!
طريقة من شقاء ما تناقلها
أهل التواريخ من عرب ومن عجم!!

فهل شعر ابن سليمان بمقالات هؤلاء الناس؟ نعم، لكنه يعرف ما يفعل..!!

ولقد روت الأخبار أن أحمد باشا عم الوزير الأعظم محمد باشا الكبرلي دخل مكة في الخامس من شعبان من السنة نفسها ١٠٨٧هـ، فاجتمع بالشيخ محمد بن سليمان بعد أن طاف وسعى على ما كانت عليه العادة مع أعيان الأبواب السلطانية.

وبمناسبة زيارة رسول من سلطان الهند من (الأوزبيك)؛ عابد خان، أتى بمال يهديه لأهل مكة، بعث الرسول هذا بنجله إلى ناظر الحرمين الشيخ ابن سليمان، فلم يستقبل الشيخ ذلك الولد، لعله كان ينتظر قدوم والده الذي رأيناه يغضب ويمتنع عن زيارة الشيخ ابن سليمان!

ولغياب الشريف بركات في ينبع، فقد أمر الشيخ الشريف مولانا إبراهيم أخا الشريف بركات بأن يتسلم هدية الهند من رسولها، لكن هذا رفض إلا أن يسلمها لصاحب مكة ...! وهذا ما سنرى أنه يتحقق بعد عودة الشريف بركات إلى مكة، بل سينتهي الأمر بعناق الشيخ سليمان لعابد خان!!

وقد كا مما حدث في أثناء غيبة الشريف نازلة فقهية تبدو غريبة، لكنها ليست غريبة! فقد توفي الشيخ محمد الزرعة الذي خلف ولداً له، حيث نجد أن الشيخ ابن سليمان يأمر بضبط مخلف محمد الزرعة، فبلغ المخلف سبعة عشر ألف دينار، فذكروا له ذلك، كما ذكروا أن الميت أوصى لحفيد له من ابن آخر كان قد مات بأربعة آلاف، فقال الشيخ: «إن هذا الابن لم يترك مالاً، وقد استغرقت الزكاة ماله، وصار لبيت المال»!

وأمر الشيخ ابن سليمان مولانا السيد إبراهيم وهو نائب الشريف وأخوه[1]... بأخذ المال، لكن هذا لم يوافق، مما حمل الشيخ ابن سليمان على جعل النيابة إلى أخيه عمرو، فتحقق للشيخ ابن سليمان ما أراد!!

عند ذلك أمر الشيخ ولد محمد الزرعة أن يحضر عند القاضي، ويقر بأنه ليست له أهلية التصرف في هذا المال، وأنه أقام على نفسه وكيلاً مفوضاً في حفظ ماله والتصرف فيه إلى آخر النازلة.

ويذكر السنجاري من مشاهد يوم الخميس العشرين من شوال من السنة حفل اختتام الشيخ عبد المالك المغربي المجاور بمكة سنن أبي داود تحت مدرسة الداودية، وحضر الختم الشيخ محمد بن سليمان والشريف بركات معه، كانت المرة الأولى التي يحضر فيها صاحب مكة ختماً بالحرم المكي.

وفي مقابلة هذا الحضور الكبير لدرس حي من دروس الحديث الشريف، قام الشيخ بمبادرة غير مسبوقة، تلك أنه منع إقامة موسم للشيخ الشهير عبد الله العيدروس، وقد كان الناس تعودوا تنظيم مهرجان بالمناسبة يحضرها الرجال والنساء يوم ثاني ذي القعدة محتجاً بأنها من المناكر الظاهرة!!

ومن المصادفة أن تحمل الأخبار في هذا اليوم وفاة الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلي، الذي كان السند الأول للشيخ ابن سليمان في الأبواب السلطانية.

لقد كان وقع وفاة الوزير عظيماً على الشيخ ابن سليمان الذي أمر بقراءة الرباع بعد صلاة العصر، ونزل بنفسه مع الشريف بركات إلى الحرم الشريف.

ويعلق السنجاري الذي نعلم عن نزعته الصوفية، يعلق على حدث الوفاة وحزن الشيخ ابن سليمان قائلاً: «لقد عد الناس ذلك من كرامات السيد العيدروس، وابتدأ من اليوم ظهور الاختلال في أمر الشيخ»!!!

وبالفعل فقد ورد الأمر في موسم هذا العام سنة ١٠٨٧هـ / فبراير ١٦٧٧م من الوزير مصطفى برفع يد الشيخ عن تعاطي أمور الحرمين، فنجده يغلق بابه ويترك مخالطة الدولة.

---

(١) سنرى أن السيد إبراهيم هذا يدركه أجله فجأة وأخوه الشريف عند الشيخ ابن سليمان. السنجاري، ص١٤٠-٤٤٠.

يقول علي السنجاري: «خمس سنوات في قمة الحكم بالحرمين الشريفين، مما جعل من الشيخ معلمة كبرى في دار الإسلام، ولو أنها تسببت له في خلق خصوم وأعداء من الذين تضررت مصالحهم الشخصية أو مسوا في نفوذهم».

«لقد اضطرب أمر الشيخ محمد بن سليمان - يقول تلميذه السنجاري - فقصد الطائف يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الثاني ١٠٨٧هـ، وحصل للناس بخروجه فسحة، حتى أنشده بعضهم في ذلك قوله مؤرخاً:

اليوم مكة جنة
لما نأى عنها الوبيل
إن قيل عام خروجه
أرخ فقل غمٌّ أزيل!!»

ويبدو أن العلاقة بين الشريف بركات وبين الشيخ ابن سليمان احتفظت حتى الآن بحرارتها؛ إذ نرى الشريف يقوم بزيارة الطائف، ويعين بها وزيراً جديداً برأي الشيخ محمد بن سليمان.

ويقول السنجاري:

«وفي يوم الخميس السادس عشر من شعبان ركب الشيخ محمد بن سليمان من الطائف قاصداً المدينة، وجاء الخبر إلى مكة بنزوله في الوادي (مر الظهران)، فخرج لوداعه الوزير ابن حميدان وبعض تلاميذه وحفدته، فاجتمعوا به في الوادي، وتحرك من هناك ولم يدخل مكة». ولم يفت السنجاري أن يذكر بعض الشعر الذي قيل عن لجوء شيخه ابن سليمان إلى المدينة خوفاً على نفسه!!

ويتأكد أن الشيخ كان على صلة بالأخبار المتجددة حوله، وهو الأمر الذي يفسره ورود الخبر يوم الأربعاء الثالث والعشرين بإخراج الشيخ من مكة ومنعه من المقام بالمدينة، وأن الأمر صدر بإخراجه من الحرمين معاً!!

وفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شعبان دخل الشيخ ابن سليمان مكة صحبة محمد أغاطرة أفندي، وظهر أن الدفتردار شفع في الشيخ في أن يدخل مكة ويكف عن مخالطة الدولة!

وخرج لاستقباله في الوادي الوزير عثمان حميدان وابن عمه إبراهيم وبعض تلامذة الشيخ ممن له به تعلق، وجلس للناس يوم الاثنين.

وقد استمرت قضية الشيخ ابن سليمان بعد وفاة الشريف بركات وتنصيب نجله سعيد في خامس ربيع الآخر من سنة ١٠٩٣هـ / ١٣ مارس ١٦٨٢م على ما كانت، حيث نجد مولانا السيد أحمد بن غالب، يصحبه بعض الأشراف، يدخل مكة ويطوف ويسعى وينزل على مولانا الشريف سعيد فيعزيه في والده، ثم يستقبل السيد أحمد الذي ظهر أنه جاء بحل أمر ابن سليمان!

يقول السنجاري:

«لقد تبين أن الأغا الوارد من جهة الروم الذي خرج صحبة السيد أحمد المذكور أظهر أمراً سلطانياً يتضمن إخراج الشيخ محمد بن سليمان من مكة والحرمين!

وأبلغ الشيخ بورود الأمر السلطاني بخروجه إلى بيت المقدس، فامتنع الشيخ عن الخروج إلا بعد الحج، وبعث الشريف سعيد ابن عمه عارضاً عليه إعطاءه كل ما يريد. ولكن الشيخ امتنع قائلاً: إن الأمر السلطاني ورد بأن أخرج وأنا خارج إذا جاء الموسم... وليس في الأمر أني أخرج يوم وصول هذا الأمر وتسجيله عند القاضي!!

وجاؤوا إلى دار الشيخ وهموا بكسر الباب، والشيخ واقف في الطاقة يستغيث بالناس وينادي بأعلى صوته:

يا أهل الله! يا مسلمين! أطلب شريعة محمد بن عبد الله، إن كان الأمر السلطاني بقتلي فأمضوه، وإن كان بإخراجي فأنا خارج إذا جاء الحج!

وعبثاً كان تدخل الشيخ البشبيشي لدى القاضي...»

قال السنجاري: «إن العامة المتجمعين أخذوا يصرخون بسب الشيخ، بينما أحدهم يسب الشريف سعيد ووالده بركات بأنواع السب!!

واستطاع مولانا السيد ثقبة بن قتادة أن ينفذ إلى الشيخ ابن سليمان ويؤمنه ويفتح باب الدار طالباً إليه أن يخرج معه في جواره إلى بيته في (خليص) في انتظار موسم الحج!».

وهكذا خرج الشيخ ابن سليمان من مكة صحبة إدريس بن صالح المغربي إلى الشام

متوجهاً إلى الأبواب بموجب الأمر السلطاني تاركاً أهله وأولاده بعد أن وزَّع طريفه وتلاده!!

قال السنجاري: «ومما رسخ من المسامع أن الدنيا يجمعها غير آكلها، ويأكلها غير جامعها»!

ويخبرنا السنجاري أن الأخبار وردت بوفاة الشيخ محمد بن سليمان بالشام يوم الحادي عشر من ذي القعدة من سنة أربع وتسعين وألف، ويتساءل عن موته: هل كان فجأة، أو أنه مات مسموماً، أو منتحراً؟

ويخبرنا السنجاري أن الوزير أحمد باشا عم الوزير أحمد باشا الكبرلي رثى الشيخ بقصيدة، غير أنه لم يقف عليها وهو يحرر كتابه (منائح الكرم) الذي ختم فيه الحديث عن شيخه الروداني الذي قدر عليه أن يدخل في هذه الدائرة من المحن السائرة، ويصفه بالإمام الجليل الذي تقصر عن وصفه العبارة، وتحدو بذكره السيارة.

وبعد أن يعدد السنجاري مشايخه بالمغرب والمشرق.. ويشير لمقامه بالحرمين الذي انتهى إلى ما عرفنا، يتحدث عن مؤلفات هذا العلامة الكبير، وخاصة رسالته حول الأسطرلاب والكرة مما سبق الكلام عنه نقلاً عن الإمام أبي سالم العياشي.

قال السنجاري: وكان بيني وبينه ألفة تامة قبل أن يقصد إلى بلاد الروم، ولما عاد تركته خوف الإبراق والإرعاد سامحنا الله وإياه، آمين.

تلك نبذة من حياة الشيخ ابن سليمان الروداني الذي أختم هذا الحديث عنه بما ذكره أبو سالم العياشي الذي ظل مشغولاً بمصيره حتى بعد أن ودع المدينة، قال أبو سالم:

«... وقد بلغني بعد انفصالي من المدينة بأزمان أنه - حرس الله مهجته - قد أوذي، وكثرت القالة في شأنه، وأدى ذلك إلى خروجه من المدينة إلى مكة، وأطلق الحسدة فيه ألسنتهم، وكنت شممت بعض ذلك من بعض الناس ونحن هنالك، إلا أني ما كنت أظن أنه يبلغ ما بلغ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وديانته ومكانته من العلم تحميه إن شاء الله منهم، لا سيما وهو غير منازع لهم في دنياهم، ولا راغب في خططهم التي يتنافسون فيها، إلا أن داء الحسد قديم، ودواؤه من بين سائر الأدواء عديم! والله يهدي من شاء إلى صراط مستقيم!!».

من العلوم الغريبة وقد رأيت بالمدينة المشرفة كتابا عند بعض أهل المغرب وهو في نعت
الأولياء وشمس المغرب ونكتة سر الشفاء في القول اللاحق المهمل للشيخ محيي
الدين ورأيت له فيه قلما ابتكره يكتب له الأشكال المتعددة مما يدل على اختبار له ومعرفة
مرتبة [illegible]
ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ي ومنهم
الحكيم الإسلامي وأحد العلماء أبو عثمان المتوفر بكنية والمتورع ذكاء أمثلتي حكمة
والبيانات ولم يرتفع له دعاء ولا حل له أحد وكان الذي توغل في أفكار الأذكياء رجال
وبلغ على حد أنه سنه فبلغنا بعجز عنه فحول الرجال المتفننين في علوم كثيرة والمتحلي
بحلي من محاسن الأوصاف ما لا يحصى سيدي محمد بن سليمان الروداني كان من أهل الرشد في
مغربه بالمحيط من رشده في كبره نشأ ببلده من سوس الأقصى بمدينة تارودانت فاعرف
بلاد السوس الأقصى فلما بلغ مبلغ الرجال شاقت نفسه إلى تعلم العلم فخرج من دار
أبويه فدخل بلاد درعة واشتغل عند صالح علمائها وقرأ على عالمها سيدي محمد بن ناصر
الدرعي رضي الله عنه فاقتبس من علومه مدة ثم خرج من عنده إلى ... وجال في أكناف
المغرب ودخل سجلماسة وغيرها من البلاد القبلية ثم وصل إلى مدينة الجزائر ودخل إلى
تادلا ثم إلى فاس ولقي بها أهل زمانه في سلوك من أهل العزم والعزيمة النكتة في معرفة
الأدب فعاملة الأدب والعلم سيدي محمد بن عبد الله معن الأندلسي رضي الله عنه وكان
ذا حزم له للناس في تعلم العلوم الرسمية سيما علم الحكمة من منطق وتنجيم وحساب
وهندسة وما شاكل ذلك فقد كانت له اليد الطولى في ذلك شديد البحث عمن يتقن
بعضها فلم يكن في بلاد المغرب من يشفي غليله في ذلك فلما دخل فاس ولقي العارف
بالله سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله أشار إليه عن تعاطي هذه العلوم وغيرها من العلوم
الرسمية ومنعه من لقاء علماء الوقت والزمه الرجوع إلى الزاوية والأخذ عنه فلم يرض
فرجع إلى الزاوية حتى كادت فلوسهما تأذن له في السفر فرجع إلى الجزائر وأقام بها
مدة وانتفع بعلمائها كالشيخ محمد بن سعيد وهو ... ثم ... ولم يزل ينتقل في
البلاد إلى أن وصل البلاد المشرقية ووصل إلى الأزهر وأقام بها مدة وانتفع بالإمام
كالشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة وغيره وأخبرني أنه لقي بها رجلا من أهل ...
... وكان من الكتب الجلود عنده ومنه في الغالب ما كنت لا أتكلم فلا ... يوم

إحدى صفحات مخطوطة للعياشي يتحدث فيها عن الروداني

اليوسي ١١٠٢هـ / ١٦٩١م

هذه رحلة للعالم الكبير أبي علي الحسن بن مسعود بن محمد اليدراسني اليوسي المتوفى بأيت يوسي سنة ١١٠٢هـ / ١٦٩١م، ويصف فيها حجته سنة ١١٠١هـ / ١٦٩٠م لبيت الله الحرام، جمعها ولده أبو عبد الله محمد العياشي الذي بقيد الحياة المتوفى سنة ١١١٩هـ / ١٧٠٨م من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط، رقم ك ١٤١٨ ضمن مجموع مع خ. م ٢٣٤٣ في جزء من حجم صغير يشتمل على أربع وخمسين صفحة(١).

لكنه لم يذكر بها أحداً ممن لقيهم من العلماء ورجال الفضل، قائلاً في تقديمها: «إنما قيدته لنفسي ومن هو من أبناء جنسي».

وتبتدئ المخطوطة بقوله: «الحمد لله العلي الكبير، المدبر القدير، السميع البصير، مالك الملك، ومجري الفلك...».

وآخره: «وبلغنا الدار بتامزازيت يوم الأحد الثامن والعشرين من شوال، والحمد لله ذي العزة والقدرة والجود والإفضال، والصلاة والسلام على النبي»(٢).

وقد ترجم لليوسي محمد بن الطيب القادري في «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني»(٣)، وقال: إنه ينتسب إلى جد جليل القدر في العائلة يحمل اسم يوسف، ولكنهم في عرفهم يحذفون الفاء، فعوَض أن يقولوا: اليوسفي قالوا: اليوسي.

---

(١) المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، رقم ٤٩١، ١٨٨، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م. هذا وقد أصدرت مجلة المناهل المغربية عدداً خاصاً بالإمام اليوسي يضم عدداً من البحوث المهمة التي تبرز شخصية اليوسي، العدد ١٥، شعبان ١٣٩٩هـ / يوليو ١٩٥٧م.

(٢) المخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم ٢٣٤٣، والخزانة العامة في مجموع رقم ١١٨، كما أسلفنا.

(٣) منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ١٤٩٧هـ / ١٩٨٦م، ج ٣، ص٢٥-٤٩.

ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب عبدالقادر الخلادي، الرباط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص ١٨٩-١٩٠-١٩١، التعليق ٣٢.

د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة فضالة، المحمدية ١٩٧٦م، ص٣٧، تعليق ٣.

كانت له أمنية تصحبه منذ صغره، أن يحج بيت الله... وقد حقق الله أمله قبل أن يدركه أجله في التاريخ الذي ذكرناه.

لكن الذي لم يتحدث عنه مترجموه، وهم كثير، هو أن حجته هذه اقترنت بمرافقة ركب الأمير المعتصم ابن السلطان المولى إسماعيل، الذي كانت تصحبه شقيقته ست الملك على ما نقرأ في المصادر المغربية[1].

وليس المهم هذا فقط، ولكن المهم أن نعرف أن ركب الحاج هذا زوده السلطان المولى إسماعيل بأموال طائلة ضخمة هدية للحرمين الشريفين، وخاصة مكة المكرمة، وسنجد في حجج الوقف التي ترجع إلى أيام السلطان المولى إسماعيل ١٠٨٢ - ١١٣٩هـ / ١٦٧١ - ١٧٢٦م ما كان يبعث به سنوياً إلى بقية أهل الحجاز في ينبع والطائف وبدر ورابغ، إلخ... علاوة على ما يخصص به العلماء والفقراء واليتامى والضعفاء.

وفي شارع القطانيين من فاس - وهو شارع تجاري مهم - فندق كبير يحمل اسم (تربيعة مكة)، ويحتوي على ثلاث طبقات، يخصص ريعه كذلك لمكة المكرمة، هذا إلى عدد بلغ زهاء ثلاثمئة وعشرين من أنواع العقار الموقوف على الحرم المكي. وهي؛ أي تلك العقارات، مفصلة في حجج الوقف المعروفة في المغرب تحت اسم (الحوالات الحبسية) ابتداءً من دولة بني مرين ودولة بني وطاس ودولة السعديين إلى الدولة العلوية، وبالذات عهد السلطان المولى إسماعيل الذي كان وراء رحلة الشيخ اليوسي[2] صحبة الأميرين؛ المعتصم وأخته ست الملك.

وقد نقلت المصادر المغربية أن السلطان المولى إسماعيل بعث إلى الروضة النبوية ياقوتة عظيمة الجرم، وصفها أحد الرحالين بأنه ما رأى مثلها في الصفاء والكبر، زنتها رطل وست أواقٍ، وقد جعلت في شباك من الذهب مرصع بالياقوت، وصنعت لها

---

(١) المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل الشريف، لمؤرخ الدولة مولاي عبدالرحمن بن زيدان، تقديم وتحقيق: د. عبدالهادي التازي، طبعة ثانية، الدار البيضاء ١٩٩٣م، ص١٦٥-٣٩٣.

(٢) د. عبدالهادي التازي: توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب، نشر ضمن كتاب بعنوان «الوقف في العالم الإسلامي...» من لدن المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٥م، ص٧٨.
ابن الحاج: تاريخ العلويين، مخطوط بالخزانة الحسنية، ج ٧، ص ٣٨. سلوة الأنفاس، ج٢، ص١٧.

سلسلة لتعليقها، وجعلت في صندوق من الذهب سترة لها، وقد قومت بأربعة وعشرين قنطاراً من المال، في كل قنطار ألف مثقال من الدراهم الرائجة(١).

لقد كانت الصرة المغربية المرصودة إلى الحرمين تعني ميزانية ضخمة تستفيد منها جميع المؤسسات في الحجاز، ولا بد أن نرجع إلى "الحوالة المغربية" التي سبقت الإشارة إليها لنعرف منها حتى أسماء الأسر والشخصيات الفاعلة في المنطقة كلها بتفصيل دقيق وتوزيع جغرافي محكم، مع المبالغ التي تصل بانتظام وكل سنة إلى كل أسرة أسرة وفرد فرد، وعلى سبيل المثال أذكر أن الحوالة الإسماعيلية تنص بالنسبة إلى مكة مثلاً على ذكر الأشراف من ذوي زيد، وذوي عبد المنعم، وذوي الحارث والشنابرة، وذوي عبد الله، وذوي إبراهيم من آل بركات، وذوي موسى من آل بركات، وذوي حراز، وذوي الفضل، وذوي جود الله، وذوي الحرائر، وذوي منديل، وذوي ثقبة، وذوي عمرو وآل حسين، والحسنيين بمكة من أهل باعلوي، وأهل بيت المرغني، وأهل بيت السقاف، والمساوة الذين بمكة، والمهادلة، وذوي سرور، وبيت الخطاب، وبيت السيد عيدروس، والكريشات، وأشراف الطائف.

وأذكر أن هذه الحوالة الإسماعيلية تنص على الأشراف الذين بالمدينة المنورة: أهل بيت باعلوي، والمرغيني، والمهادلة، وذوي سرور، وبيت السيد عيدروس، والموهبين، والسماهدة، وبيت الكوامي، والمساوة، وبني حسين، وبني الجامجي، وبني الجودي، والأزبك، والبرزنجيين، والبخاريين، وأصحاب الحيد، وشرفاء سجلماسة، وبيت الأنصاري. هذا إلى المخصصات المرسلة إلى أهل ينبع التي ينتسب إليها جدود العاهل المغربي، والعيايشة ذكوراً وإناثاً(٢)، والكرون والمحاميد، وبيت الكردي، وذوي إبراهيم والوشيات، وذوي جبريل، والبكيشات، وذوي هجر، وذوي عقيل، وذوي زارع، وأهل بن علي، والكريشات، وذوي حسين، وذوي هنشل، وذوي هاشم، والعمور، وذوي سليمان.

هذا إلى أهل بدر: بيت الرديني، وذوي عبيد، والمهادلة، وأهل الخريبة، وذوي

---

(١) ابن زيدان: الإتحاف، ج ٣، ص ٧٣، مصدر سابق. المنوني: ركب الحاج المغربي، ص ٢٦-٢٧.

(٢) وقفت في (ينبع) عند زيارتي لها على بعض هذه الأسر التي لا تزال حاضرة هناك.

مسيب، وذوي الفضل، وأهل رابغ، وأهل خليص، وذوي إبراهيم بالصفراء، وذوي نُمَي، وذوي الحسينية، وأهل عين العلجة الموسويين.

إلى كل هذا تخصص "الحوالات الحبسية" قسطاً من هباتها إلى الجهات التالية: إلى المؤذنين، ومؤدبي الصبيان بمكة، ولجميع الرواقات المذهبية بالبيت الحرام، ولبيت الشيبي، ولبيت ابن سليمان الروداني بمكة.

وإلى هذا نضيف من سمتهم "الحوالة" بأهل الرسائل: الحاج بو سالم، والشيخ محمد الخوجة، وعبد الله حجي، وعبد الرحمن المدني، والطالب أحمد بن مغلب.

وختاماً تذكر الحوالة حفاري المقابر الذين كان لهم نصيب في الأوقاف المغربية.

لقد تعمدنا ذكر كل تلك المواقع الجغرافية، وكل تلك الأعلام بأسمائها، لنقول: إن ركب الحاج الذي كان يرافقه الإمام اليوسي بمن صحبه من شخصيات كان نموذجاً من الأركب المبكرة التي تمت رحلته في فجر عهد العلويين الذي تميز بكثرة الرحلات إلى الحجاز مما سيمر بنا كلاً وبعضاً.

وإلى جانب كل ذلك البذل للحرمين نجد أن السلطان المولى إسماعيل يبعث رسائل إلى الأمراء المتولين الحكم في مكة المكرمة يوصيهم فيها بالاتحاد ونبذ الخلافات فيما بينهم؛ احتراماً للمقام العظيم الذي عهد إليهم بخدمته!!

ومن بين هذا نجد رسالته التاريخية التي بعثها سنة ١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م إلى الشريف سعد بن زيد، التي تحتفظ بنصها كذلك المصادر المغربية[1].

وبعد هذه الإفادات التي تؤكد الجسر الدائم الذي كان يربط بين المغرب وبين الحرمين الشريفين، نقرأ معكم ملخصاً لبعض الورقات مما استطعنا أن نتبينه من مخطوطة الخزانة الحسنية والخزانة العامة، وخاصة من الرحلة ما يتصل بحضور الشيخ اليوسي بمكة المكرمة، مع العلم أن كثيراً من الرحلات اللاحقة كانت تردد ما قاله اليوسي في قصيدته الرائية التي قالها عند وداع وفد الله لبيت الله، وهي من مائة واثني عشر بيتاً، وفيها يقول في جملة ما يقول:

---

(١) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٩، ص ٥٤، رقم الإيداع القانوني: ٢٥ / ١٩٨٦، مطابع المحمدية، فضالة، المغرب.

أحجاج بيت الله سيروا وأبشروا
بما لم ينلْه رائح ومبكِّرُ
ووافيتم البيت الحرام وطفتم
فمسلم منكم به ومكبِّرُ
وصليتم خلف المقام وعدتم
لياقوتة فيها الكتاب مدَّخر

قال ولده وهو يتحدث عن والده الذي كان يمزج بين وصف المناسك وبين الأحكام الشرعية المطلوبة من الحاج... قال: لقد سأل الناس كثيراً سيدي الوالد عما يوجد في لباس الإحرام من الخياطة الضرورية لحفظ نسيجه من الانتثار، فكان يجيبهم أن لا بأس بذلك للمضطر.

تحدث عما يتبع الإحرام وعن الصَّرورة (بالصاد)، الذي لم يحج قبل.

وعلى العادة في الدخول إلى المسجد الحرام كان من باب بني شيبة، وهو باب السلام... ثم إلى الحديث عن الحجر الأسود... والملتزم والشاذروان، وأن الذي قال: إن به ثلاثاً وأربعين حلقة، فتجد أن العامة عند طوافهم يدخلون أيديهم فيها معتقدين أن فعل ذلك من الواجبات! وعند باب الكعبة أيضاً حلق تراهم يتعلقون بها ويسمونها «العروة الوثقى»، قال: ولكل امرئ ما نوى.

وبعد أن يلاحظ ارتفاع الباب على نحو من سبقوه، يذكر الصفا والمروة بما نعهده، قال: «ولم يتمكن لنا طواف القدوم إلى أن صلينا المغرب لكثرة الحر (أوائل سبتمبر ١٦٩٠م).

وأصبحنا مقيمين يوم الاثنين، وهو يوم الزينة (٧ ذي الحجة / ١١ سبتمبر) ويوم الثلاثاء، وهو يوم التروية... ورحلنا ضحًى ونزلنا بمنى عند الزوال... وتوصيك الرحلة باصطحاب الماء معك من منزلك بمكة؛ فإنه لا يوجد ماء حلو بمنى!!».

ولا بد أن تذكر الرحلة مسجد نمرة وصلاة الظهر والعصر قصراً وجمعاً... ولا بأس عند الإمام اليوسي من الجواب عن النوازل الفقهية ولو في زحمة الوقفة التي كانت تصادف يوم الأربعاء (١٣ سبتمبر).

إذا كان شكر نعمة الله نعمة
عليَّ له في مثلها يجب الشكر

ويحرص الإمام على مساعدة الحجاج بتقديم بعض التنبيهات عند الخروج من عرفات في اتجاه المزدلفة والمناسك الباقية.

وتذكر رحلة اليوسي أن ميزاب الكعبة الموجود عند زيارته هو لمكة من مبادرات السلطان أحمد بن محمود ابن السلطان مراد أحد ملوك عثمان، قال: وهو من فضة مموهة بالذهب، وضعه سنة اثنتين وعشرين وألف ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م، بعد أن أخذ الميزاب العتيق، قال: وهو الآن في خزائنهم بالقسطنطينية الكبيرة يتبركون به... ويوصي بالدعاء لدى الملتزم، ويتحدث كذلك عن الحطيم وزمزم.

ولا ينسى الإمام اليوسي أن يرفع عقيرته بالشكوى من المطوفين الذين لا يتركون له مجالاً للتأمل والتدبر وهو يقوم بالطواف! لقد كان يقاسي منهم العناء، يعترضون طريقه ويملون عليه قول ما يحفظون! إنهم يرغمونك على أن تنطق بما يرددون ولو أنه خطأ! وكان يشتري منهم تركه لحاله، ولكن هيهات! قال: والحاصل أنه لا ينجو منهم أحد!!

وتنقل مخطوطة اليوسي عن الشيخ مظفر الاستنباطي أن أهل مكة أهل أنفة وكبر وحسد... وأنهم يبغضون الغريب:

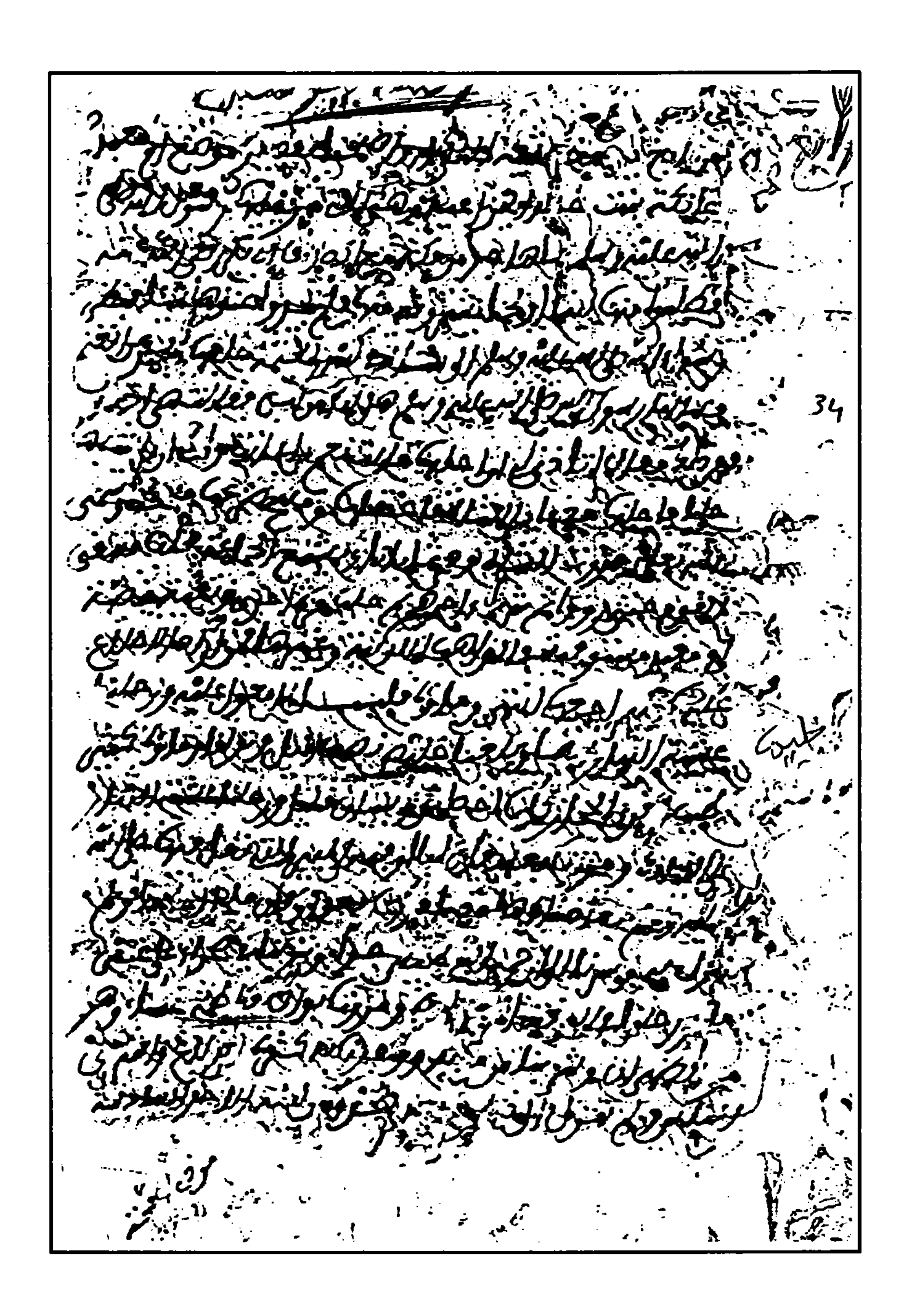
لا تنكرن لأهل مكة قسوة
والبيت فيهم والحطيم وزمزمُ
آذوا رسول الله وهو نبيّهم
حتى حمته أهل طيبة منهمُ

ومع هذا فلهم حرمة، يقول اليوسي، ويجب علينا تعظيمهم وعدم أذاهم؛ فإنهم جوار بيت الله، في كلام من هذا القبيل.

وعلى عكس هذا يسدي الثناء العطر على أهل المدينة المنورة.

ويختم اليوسي بالحديث عن العمرة التي قام بها من التنعيم ليلة الأربعاء السادسة عشرة من الشهر (٢٠ سبتمبر)... ثم يخبرنا أنه اتجه نحو طيبة مردداً بيت أبي الطيب المتنبي:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا
فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لُبَّا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة
لمن بان عنه أن نلم به ركبا



إحدى صفحات مخطوطة رحلة اليوسي

الرافعي الأندلسي التطواني ١١١٠هـ / ١٦٩٨م

هذه رحلة كاملة لأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني... المولود نحو سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م، والمعروف عنه أنه كان حياً عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م حسبما يؤخذ من تقاريظ ديوانه(١)، وهي تحمل عنوان «المعارج المرقية في الرحلة المشرقية».

ولقد قام بهذه الرحلة عام ١٠٩٦هـ / ١٦٨٥م، حيث جمعته الصداقة في مكة وفي منى مع شيخ الطريقة الناصرية أبي العباس أحمد بن ناصر الآتي الذكر...

وقد كان يهمنا من نصوص الرحلة ما يتصل بانطباعات الرافعي وهو يجد نفسه في مكة المكرمة، في المسجد الحرام، وأمام البيت العتيق، وفي منى والمزدلفة وعرفات...

لقد وصل الركب المغربي إلى مكة في رابع ذي الحجة (فاتح نوفمبر) بعد أن قطع من المراحل أربعاً وثلاثين، سردها المؤلف في منظومة استهلها بقوله:

خرجنا بركب الغرب من مصر ضحوة

نؤم الحجاز والدليل بنا يحدو

وقد وصف مدينة مكة المكرمة وما فيها من معاهد وأماكن وآثار، وأثبت نصوص الدعوات التي تقال في مختلف المناسبات والمواقف، وكل ذلك بشعور فياض وعواطف متأججة.

كالعادة إلى منى وعرفة فكان المؤلف في ركاب الشيخ أحمد بن ناصر، وكانوا يلازمون قراءة كتاب «دلائل الخيرات» للإمام الجزولي(٢).

وقد تحدث عن الأركاب التي شاهدها: الشامي والمصري والبغدادي والبصري.

---

(١) محمد داود: تاريخ تطوان، طبع ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ج١، ص ٣٩٠-٤٠٩. ونحن نشكر بهذه المناسبة كريمته الأستاذة حسناء القائمة على مكتبة الشيخ داود التي تفضلت علينا بنسخة مصورة للرحلة.

(٢) د. التازي: ترجمة الجزولي ضمن الكتاب الذهبي الذي صدر في فيينا بالنمسا حول نسخة مغربية فريدة لدلائل الخيرات.

Al Gazuli: commertar Von Tarui Al Samman, Graz-Amaut, 1987.

وبالنظر إلى أهمية إفادات الرحالين فإننا ننتقي هنا بعض مضامينها، خصوصاً أنها من أوائل الرحلات في عهد العلويين، معتمدين على المخطوطة الأصلية التي توجد كما أشرنا بمكتبة الشيخ محمد داود بتطوان.

لقد دخل مدينة مكة المكرمة من باب المعلى، وهو خاضع ذليل للملأ الأعلى. كنت - يقول الرافعي - راغباً وصاغياً وسائلاً وراجياً... كنت شاهدت عند الدخول إلى مكة عموداً من نور صاعداً من ناحية الكعبة يبرق بنور، كان دخولنا يوم الجمعة عند الغروب، فحططنا الرحل عند باب المعلى، وما مسنا تعب ولا لغوب.

وقد بادر إلى الطواف بالبيت العتيق... وكان دخوله من باب السلام... وسار إلى السعي بين الصفا والمروة، تارة يرمل وتارة يهرول... كان يقوده عند الطواف شاب من أبناء الأشراف... كان بوجهه سماح، فجعلنا ننقاد خلفه متأدبين؛ لأن الله خص أهل مكة بهذه الفضيلة.

وباكروا من الغد أيضاً بالطواف بالكعبة... وصلى بمقام إبراهيم الخليل... وما زال يقبِّل الحجر الأسود في كل شوط... كما كان يستلم الركن اليماني، ويعتنق الملتزم، وقد صلى داخل الحجر، وإن كان في الصلاة داخله خلاف! وصلى في كل مقام ترجى بركته، ولو أن البيت كله فاضل... ولم يزل يتردد إلى المسجد الحرام يسعى مع كل قوم، ويطوف مع خير رفيق، شاكراً لله أن منَّ عليه برؤية الكعبة المشرفة وسط هذا الحرم الشريف وكأنها حوراء جليت في أعلى الفراديس..!

وبعد أن يعد أبواب المسجد يذكر أنه شاهد على باب العباس نقشاً في الحائط وقد كتب فيه بخط فائق الحسن: محمد - أبو بكر - عمر - عثمان - علي. وقال: للبيت سبع صومعات... وأكثر هذا البيت محصب سوى طرقات وسط المسجد مفروشة بالرخام... وباب الكعبة عالٍ عن الأرض بثمانية أشبار وأربعة أصابع، وعرضه ثمانية أشبار، ذو حسن وجمال ونور ساطع، كأنه البدر... والملتزم بجانب الباب... والحجر الأسود، ياله من حجر حاز الفخار..!

ويتحدث عن حجر إسماعيل وحكم الصلاة فيه على رأي المذاهب، وقد سأل شيخ

الحرم وإمام المالكية به العلامة سيدي أحمد الغدامسي عن أحوال الكعبة، فأعطاه معلومات عن علو جدارها وطولها وعرضها، كما سأله: هل الصلاة أفضل في هذا البيت الشريف من الطواف؟ قال: وتدور على الكعبة من كل الجهات أعمدة كالسواري من النحاس، على رؤوسها جوامير مذهبة ما لها في المثل قياس..!

وتفيض سجية المؤلف فيخاطب الكعبة بقصيدة ميمية يقول في أولها:

أيا كعبة الله جُزْتِ العلا
وسُدْتِ وصُلْتِ على كل سام
أيا كعبة الله أنت الشفا
لكل عليل عراه السقام

ويصف مقام إبراهيم الذي كان عليه شباك من النحاس من الجهات الأربع... وداخل الشباك يوجد الحجر الذي صعد عليه أبونا إبراهيم ونادى بالحج... ويصف المنبر الخالص الرخام الذي له قدر وافتخار... وأما قبة زمزم فهي قبة مهندسة البناء... وقد كان يروح إلى زمزم كل حين فيشرب من مائه ويصب على جسده... وخلف زمزم مخزن الكعبة الشريفة تقابله سقاية الحجاج. ويتحدث عن مصلى الأئمة الأربعة، وينقل عن الإمام محمد بن مزين في تأليفه أن قبلة أهل المغرب والأندلس وإفريقية وما والاها إلى الحجر إلا أنها أخذت قليلاً من الركن الشمالي، وقبلة أهل الكوفة وبغداد وأصبهان وخراسان وما والاها إلى الركن العراقي بين الباب والحجر، وقبلة أهل البصرة وما والاها باب الكعبة، وقبلة أهل اليمن الركن اليماني، وقبلة أهل الهند والصين الحجر الأسود...

وأما الصفا والمروة فهما خارجتان عن البيت، وبينهما سوق عظيم... إلى آخر الوصف الذي يشبه ما أورده مَنْ قبله من الحجاج.

قال: فلما كان اليوم السابع من ذي الحجة صعد منبر الكعبة رجل شريف، وهو محرم، له حظ من العلم منيف، حنفي المذهب، ذهب فيه أحسن مذهب، مؤتزر بفوطتين قطنيتين، فخطب خطبة واحدة بليغة وجيزة، فكل عالم كان في المسجد أقرَّ له بالفضل.

وفي اليوم الثامن رحلوا عند الضحى... إلى أن وافوا منى قبل الزوال... وباتوا بها،

وعند الصباح رحلوا إلى عرفات، فجازوا على «المشعر الحرام» الذي يصفه بأنه مسجد بلا سقف، مرتفعة جدرانه من ثلاث جهات، له صومعة ومحراب حسن ومنزلة حسناء... وعند حديثه عن المحسر، قال: إنه المكان الذي نزل فيه العذاب على أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل.

وبعد حديث عن العلمين الفاصلين بين الحل والحرم يصل إلى جامع النمرة الذي له أربعة أبواب... أكثره بلا سقف... له صومعة في أحد جوانبه، حيث جلسوا لقراءة «دلائل الخيرات».

وما زالوا واقفين بسفح الجبل في موضع يقعد فيه أوحد الزمان سيدي محمد ناصر أبيه تبركاً بفعله، والله يصطفي من يشاء ويجتبيه، حتى كان قريباً من العصر قصدوا مع الشيخ إلى تحت الجبل الذي يخطب فيه الإمام، وهو موضع وقف به أو مر به نبينا عليه السلام... هناك تنسكب العبرات... ويكثر الأنين والزفرات، والتأسف والحسرات، عما اقترفه العبد من الزلات... وهناك سألنا الله صلاح الأهل والأنجال.

ولم نزل نرغب إلى المولى ونبتهل إلى المغرب، وأتم الإمام الخطبة، وكان على ما بلغنا فصيحاً معرباً... لقد صادفت الوقفة يوم الأربعاء سنة ست وتسعين وألف. قال: ولي من العمر ست وخمسون سنة.

ثم نفروا إلى المزدلفة، فصلوا خلف الشيخ (ابن ناصر) فريضة المغرب والعشاء جمعاً في أمم مختلفة، وباتوا بإزاء الشيخ، وصلوا خلفه صلاة الصبح، قبل أن يقصدوا الجمرات... ثم حلقوا ونحروا، لكنهم عجزوا عن المسير إلى مكة... لعدم التيسير. وهنا تذكر قول ابن جبير؛ حيث قال:

هنيئاً لمن حج بيت الهدى

وحط عن النفس أوزارها

وهنا أيضاً جادت قريحته بقصيدة بائية من أربعة وعشرين بيتاً، وقد وصف مسجد منى الذي يحمل اسم مسجد الخيف ومسجد علي... وهو يقول عن سوق منى: إنه سوق عظيم، فيه كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين... من كل الفواكه والأرزاق...

وكم من أمتعة فاخرة وتحف تبقى القلوب والأعين من حسنها باهرة.

ولا يغفل الحديث عن المشاعل والمصابيح التي توقد في منى... والمدافع والبارود الذي يتصاعد في الجو بصنعة يفعلونها حتى يعود الليل كالنهار..! والناس في إقبال وإدبار، فكم من أمير وافى الجبل بعساكره... ولو رأيت سلطان مكة شرفها الله لوجدت الله إعظاماً وإجلالاً على ما منحه الله تعالى.

لقد عاينت - يقول الرافعي - أمامه من الرايات أزيد من خمسين، وعشر نشاشات، ومظلاً قائماً على رأسه لا أستطيع له تبيين، كل راكب خلفه فرس أو جواد بدراعة على كل اللباس في غاية الرقة، ورمح من خيزران لا يحد ولا يقاس، أما الطبول والغوائط والمزامير والبنود فشيء لا يحد.

ويتحدث الرافعي عن كيفية رمي الجمرات... وتكون مناسبة لذكر المشايخ الذين كانوا حاضرين معه من أمثال العلامة سيدي أحمد الشريف عالم المدينة المشرفة... وسيدي أحمد الغدامسي إمام مكة شيخ الحرم السالف الذكر، والفقيه سيدي أحمد أشتوك، والعالم سيدي أحمد بن إبراهيم... إلى أن ركبوا النوق وتوجهوا إلى مكة... حيث دخلوا البيت الحرام العتيق؛ ليحكي مرة أخرى عن الطواف... وعن الركعتين خلف مقام إبراهيم... ثم يقوم بسُنَّة العمرة من التنعيم؛ حيث مسجد عائشة، قبل أن يعود إلى البيت الحرام لينعم برؤية ومشاهدة بيت الله صباحاً ومساءً.

وقد تحدث الرافعي عن دخوله رباط الإمام عثمان... شاهد فيه أربعة أرحية تطحن... صغاراً بجانب الحائط مبنية... ومازلت أتردد - يقول الرافعي - إلى الشيخ سيدي أحمد بن ناصر الدرعي ذي القدر السامي والجناب المرعي في كل حين من الأحيان، وطفت خلفه على الكعبة مراراً... وكان نزول الشيخ بغرفة من غرف المسجد الحرام مجاوراً إلى باب السلام.

وفي يوم الأحد الموفي عشرين من الشهر فتح باب الكعبة صباحاً... حيث كان أمراء الأركاب يفدون... فقد كان الرافعي ينتظر تحقيق هذا الرجاء، كيف لا وهو باب الله الأعظم، وفوز ونجاة ومغنم، كيف لا ومكة المشرفة تاج على هام الزمان... كيف لا وهي

أم القرى أسواقها معمورة، وخاناتها بالمتاجر مغمورة، طيبة الهواء، عذبة الماء.

وما زال بمكة فرحاً مسروراً يكرع من مائها العذب شراباً طهوراً، يتناول غرفة بكأس كان مزاجها كافوراً.

ويقترب وقت الرحيل فتقوى مشاعره ويلجأ إلى الشعر ليجد فيه متنفسه:

أزف الرحيل بمكة وحماها
ودنا الترحل والغرام تناهى
كيف السلو - سادتي - عن حضرة
شرف الإله بيتها واجتباها؟!

وعزم على المسير لعدم التيسير.. لقلة ذات اليد وخشية الإرهاق... والإنسان ضعيف اليقين، ولم يبلغ درجات التمكين.. فأسرعنا إلى كراء الجمال... واكترينا من بعض الصعايدة أباعر للمسير وخلصناه (يعني أدَّينا له)، فما كان إلا أن هرب لنا بجعل من المال! وتركنا في حسرة والفؤاد أضناه، وغامرنا من البؤس والكدر ما لم أجد له وصفاً مدى الدهر:

رفعت أموري لرب رحيم
رحيم مجير بحالي عليم!
عليم بما نالني من أسى
سريع الإجابة بر كريم

وبعد أن اكتروا جمالاً أخرى قصدوا البيت مودعين... ثم خرجوا من باب الشبيكة مرتحلين... وكان ارتحالنا من مكة يوم الاثنين بعد غروب الحادي والعشرين من ذي الحجة.

وما نتعلل به الآن نختصر على الغرض وعدنا إلى رحالنا راجين القبول والأجر والثواب
غانمين ثم بتنا تلك الليلة بمنى في دار عز وعيش وسرور ومناه ومسى
ليلة النفر المتقدم ذكرها فيا لها من ليلة طلع فيها نجم السعود
وبزغ بدر مناه وبدا هلال اليمن والهناه واستبان ضوؤه بالتبهج منا
فيما يمسي بيننا منا وأجلناه وكعبة للسرور ما أكملناه ثم إننا بالغد بعد
النزول إلى رمينا بقية الجمار وأخذنا في المسير والارتحال وركبنا
النوق وتوجهنا إلى مكة شرفها الله مجيبين بالتلبية والثناء على
الله فبلغنا مكة وبادرنا إلى الكعبة شرفها الله ودخلنا
البيت العتيق من باب جوار الله وطفنا به طواف الإفاضة فيا منة
علينا نعم الله الجليلة الفاضلة ابتدأنا بتقبيل الحجر وتوجهنا للعرض وطفنا
بالكعبة سبعا مكملين العدد من الحجر بالترمل شغلنا البصر في الطواف
والمشاء وعند تقبيل الحجر كبرناه وفي حالة الطواف دعونا الله
ومن فضله طلبناه كنا أسرعنا المشي في ثلاثة أشواط وأربعة مشينا
هونا ولم بالثلاثة الأول والأربعة رتبناه وما زلنا نكرر ربنا اغفر
وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ربنا آتنا في الدنيا
حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يا ذا الفضل والجود
يا حليم يا غفار ومثل ذلك دعونا وابتهلنا في كل الأطواف وعند الركن
اليماني والحجر الأسود وأنا ارتجينا الإجابة ثم صلينا ركعتي الطواف
خلف مقام أبينا إبراهيم الخليل وسألنا الله التوبة والمغفرة وأن يكون
لنا خير كفيل كما سألناه المغفرة لآبائنا وأمهاتنا وصلاح أهلينا
وأولادنا وجملة إخواننا وأقاربنا وأشياخنا وأسلافنا

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الرافعي الأندلسي

الهشتوكي ١١٢٧هـ / ١٧١٥م

هذه رحلة لأبي العباس أحمد بن محمد بن داود بن يعزي بن يوسف الجزولي نسباً، الأَحُزِي لقباً، الهشتوكي شهرة، التملي بلداً؛ نسبة إلى أنتملت.

هكذا سمى نفسه في مقدمة الرحلة على نحو ما كان منه في إجازته لأبي العباس الدمنهوري المجيز له عامة بما أجازه الشيخ عبد القادر الفاسي.

ذكروا أن له رحلتين حجازيتين ذكر فيهما مَنْ لقيه من العلماء ورجال الفضل، وهما بالفعل رحلتان حجازيتان بالخزانة العامة، من مخطوطات وزارة الأوقاف، انظر المنوني، رقم ٤٩٤ ... وهي تحمل عنوان: «هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام، والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه السلام».

وتبتدئ بقوله: «الحمد لله الذي كرَّم وشرَّف بيته العتيق، وأوجب حجَّه على كل مكلف حر مطيق، فتأتيه الركبان وافدة من الناس من كل فج عميق، ليغسل كل منهم بذلك أوزاره وذنوبه التي هو فيها غريق».

إلى أن يذكر تاريخ ابتداء الرحلة الأولى الذي كان يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٠٩٦هـ (٢ أبريل ١٦٨٥م). هذا إلى الرحلة الثانية التي جرت سنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، وهي في الخزانة العامة تحت رقم ١٤٧، ج [1].

وينبه الهشتوكي على ضرورة قيام الذي يريد الحج بصلاة الاستخارة التي تعدُّ أساساً لتحرُّك المسلم وتوجهاته.

وهو يمهد لأعماله بتخصيص قصيدة تمهيدية؛ حيث حديثه عن البحر وأهواله، لكنه إذا تعين ركوبه يصبح واجباً إذا أمن الإنسان من العطب:

(١) الكتاني: فهرس الفهارس ٢، ٤٢٣-٤٢٤. د. التازي: ليبيا من خلال الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة ١٩٧٧م، ص ٣٦، التعليق ٣. الإعلام للعباس بن إبراهيم، ج٢، ص ٣٥٣، طبعة جديدة. عبدالله المرابط الترغي: فهارس علماء المغرب، منشورات جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، طبعة أولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٦٦١-٦٦٢. أعمال السوسي في كتاب الفهرسة، دعوة الحق، يونيو ٢٠٠٢م. المنوني: رقم ٤٩٤.

وكم أمر تساء به صباحاً

وتأتيك المسرة بالعشيّ

والهشتوكي في رحلته ينقل عن ابن خلدون، وهو ينبه الحجاج لحقيقة يجب أن تظل أمام أعينهم، وهي التذرع بالصبر: «واعلم أن كل ما تحتاج إليه من تلك الطريق فإنك تحتاج إلى أضعاف أضعافه من الصبر، فاعتمده واجعله في قمة المروءة؛ فإنه كنز لا يفنى».

ومن جهة أخرى فهو ينبه على أن أفضل عملة يمكن للحاج أن يعتمد عليها هي الذهب، وعلى الخصوص التبر غير المصنوع والمطبوع. وبهذه المناسبة ينصح الحجاج بالإنفاق والإنفاق، فإنك ستجد عاقبته.

ولا يفتأ مذكّراً ومعترفاً بأنواع الحفاوة التي يتلقاها الحاج وهو في طريقه إلى مكة ما دام منفقاً كريماً.

وعلى عادة العلماء القاصدين للحج فإنه مستعد دائماً للجواب عن النوازل... وهو ذو قابلية زائدة للاستطراد والتجول في أطراف الحديث، واستحضار الأشعار اللائقة بالمقام.

رضيت بما قسم الله لي

وفوّضت أمري إلى خالقي

كما أحسن الله فيما مضى

كذلك يحسن فيما بقي!!

وبعد هذا وقبل هذا، سنجد الهشتوكي متأثراً بأبي سالم العياشي ينقل عنه أحياناً الفقرات الطوال، ومعلوم أن العياشي كما قلنا يظل لازمة لجل الرحالين المغاربة، ولهذا فإن الجديد في رحلة الهشتوكي قليل في نظرنا؛ لأنه ظل متأثراً بمرويات أبي سالم باستثناء بعض الاستطرادات والفتاوى المفيدة.

أحمد بن ناصر ١١٢٩هـ / ١٧١٧م

صاحب هذه الرحلة هو الشيخ أبو العباس أحمد ابن الإمام الشهير أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي. كان ظاهرة في زمانه، موزعاً لأوقاته، مالئاً لها بالمهم من الأعمال، مقتدياً بقول والده الإمام: «مسألة تستفاد خير من خلافة بغداد».

رحل إلى المشرق فأخذ عن جلة القوم الذين أجازوه في الحجاز وبلاد الشام ومصر.

وقد اعتمد كثيراً عند كتابته رحلته على رحلة شيخه أبي سالم العياشي السالفة الذكر، والتي قلنا عنها: إنها كانت عمدة معظم الرحالين المغاربة اللاحقين على نحو ما كان من رحلة ابن جبير بالنسبة إلى السابقين.

وقد توفي سنة ١١٢٩هـ / ١٧١٧م في تمجروت، ودفن مع أبيه.

قال أبو عبد الله محمد المدعو المكي بن محمد الناصري الدرعي الذي كان حياً سنة ١١٧٠هـ[١]، قال في كتابه «الدرر المرصعة في صلحاء درعة»: حج الشيخ أحمد الخليفة رضي الله عنه أربع حجات:

الأولى: صحبة والده الإمام الشهير، وكانت بمثابة التمهيد لحجاته اللاحقة[٢].

الثانية: بعده عام ١٠٩٦هـ / ١٦٨٤م، وله فيها تأليف رحلة صغيرة مفيدة، وأشار لبعض محتواها في الرحلة الثالثة، وقد صادفت رحلة الرافعي الأندلسي التطواني الذي يذكر فيها شيخه الدرعي على ما سلفت الإشارة إليه عند تلخيص رحلة الرافعي ١١١٠هـ / ١٦٩٨م.

الثالثة: عام ١١٠٩ / ١٦٩٧م، وله كذلك فيها رحلة عجيبة أكبر من الأولى.

الرابعة: عام ١١٢١هـ / ١٧٠٩م، وله فيها رحلة كبيرة تكون في سفرين رباعيين جمع فيها بين اللتين قبلها.

---

(١) ابن سودة، ص ٤٦-٤٧.

(٢) لقد كشف الشيخ السنجاري أنه اجتمع بالشيخ أبي عبد لله محمد بن ناصر سنة ١٠٨٢هـ في بيت العلامة المغربي محمد بن سليمان الروداني الذي كان يخبر عن محمد بن ناصر بالعجائب. منائح الكرم، طبعة جامعة أم القرى، ج٤، ص ٥١٣، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

وإذا كانت رحلاته: الأولى، والثانية، والثالثة لم تنل شهرة، فإن الرحلة الأخيرة سنة ١١٢١هـ / ١٧٠٩م كانت من الشهرة بمكان، وهي الموجودة في أيدي الناس، وتحمل في الخزانة الملكية رقم ١٧٨٧.

وهذه هي المطبوعة على الحجر بفاس سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م في جزأين اثنين... وترجم قسم منها إلى الفرنسية من لدن د. باربروجا على أثر ترجمة قسم من رحلة العياشي، ونشر الجميع بمجلة جزائرية. ويوجد بالخزانة الحسنية عدد من النسخ المخطوطة(١)، وفيها يفصل المؤلف أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي قصة رحلته البرية البحرية إلى الأراضي المقدسة بعد أن خرج من مقره بالزاوية الناصرية يوم ٢٤ جمادى الأولى سنة ١١٢١هـ/ أول أغسطس ١٧٠٩م، ومنها إلى سجلماسة... ومنها إلى بسكرة واصفاً المحطات مستطرداً بذكر بعض التواريخ(٢).

وقد غادر الركب الناصري القاهرة يوم ٢٨ من شوال (٣ ديسمبر ١٧٠٩م)... وركب بحر القلزم، والتقى بالركب المصري في العقبة؛ حيث انضم إليه ركب القدس، وهو يصف لنا بحر القلزم وأهواله ومدينة العقبة... وسار الركب المشترك خلال مفاوز وشعاب ضيقة حتى وصل إلى ينبع أول بلاد الحجاز.

ثم وصل إلى مكة فدخل من باب المعلى وهو الثنية العليا التي دخل منها المصطفى سيد الآخرة والأولى... وقد بالغ الولاة في حفر هذه الثنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة، ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون.

ودخلنا مكة بفرحة لم تغادر في النفس ترحة، وجلت عن العيون كل قرحة، صبيحة يوم الخميس السادس من ذي الحجة سنة ١١٢١هـ السابع والعشرين من يناير(٣) (الفلاحي)،

---

(١) فهارس الخزانة الحسنية، ج١، إنجاز محمد عبد الله عنان، عبد العالي لمرير، محمد سعيد حنشي، إشراف ومراجعة أحمد شوقي بنبين مدير الخزانة الحسنية ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٥٦١-٥٦٦.

(٢) الصفوة ص ٢٢١، النشر ج٢، ص ١١٩٦، الالتقاط ص ٦٠، السلوة ج١، ص٢٦٤، طلعة المشتري في النسب الجعفري، ج٢، ص ١٧، الأعلام ج٢، ص ٣٥٧، المطبعة المكية، ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، الرباط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٩م، ص ١٠٦-٢٠٧، ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج١، ص ١١، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٠م، طبعة ثانية.

(٣) القصد إلى يناير الفلاحي وليس الفرنجي المتعارف عليه والذي يصادف ٦ فبراير ١٧١٠م.

فذهبنا نؤم البيت الحرام، واثقين بنيل كل مرام، فجئنا المسجد الشريف، فدخلنا من باب بني شيبة... فشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام، وقد تدلت أستاره، وأشرقت أنواره، وقد شمر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله.

ويأخذ أحمد بن ناصر في النقل عن أبي سالم العياشي... واصفاً الطواف والسعي رافعاً عقيرة الشكوى، على عادة من سبقه، من وجود السوق في المسعى.

ويخبرنا ابن ناصر بأنه نزل بدار الشيخ محمد بن سليمان التي اكتراها من ورثته بتسعين أحمر، وفيها ثلاثة مساكن، نزل مع زوجتيه بالمسكن الأعلى، وجعل أثاثه وحوائجه في الوسط ونزل أولاده وأصحابه بالأسفل.

ولما كان آخر الليل بعث بزوجتيه فطافتا وسعتا... وصلى الجمعة بمكة، وكان الخطيب هو ولد الشيخ محمد تاج الدين مفتي الحنفية، ووالده هو الذي التقى به في باب المنزل بالمسجد الحرام وأخبره بأنه جار له... وقد سأله عن بعض شراح الهمزية، فذكر أن عنده ابن حجر، فقال له أحمد بن ناصر أردت أن أنظر فيه الشيخ مرزوق الكفافي، فبعث ولده وأتى بالتآليف...

ومن هنا استمرت علاقة الرجلين في باب إعارة الكتب وتبادل النقاش، وتعرف بواسطة هذا المفتي إلى الشيخ عبد الله بن سالم البصري الذي وجده في مكتبته، والكتب محدقة به يميناً وشمالاً ووراء وأماماً!! وقد أجاز صاحب الترجمة في سائر مقروءاته ومروياته ومسموعاته.

ويعود أحمد بن ناصر إلى الموضوع ليحمد الله على ما ناله من الطرب والفرح، الذي أنساه العناء والترح، فلا ترى إلا ضاجاً بالذكر، وصارخاً بالدعاء بالسر والجهر.

وهنا رأى من المناسب أن يستشهد ببعض الأبيات من قصيدة هائية[1]، ويتعلق

---

(١) القصيدة الهائية تذكر في القطعة الهائية التي نظمها المنالي الزبادي (١١٦٣هـ / ١٧٥٠م) في رحلته الآتية الذكر:

لله ذاك البيت ما أسناه
يا سعد من فيه بكت عيناه!
وفِّ المناسك، ثم جِدَّ لطيبة
مأوى الرسول وربعها مغناه!!

الأمر بقول قائلهم، ولله درك:

وما زال وفد الله يقصد مكة
إلى أن بدا البيت العتيق وركناه

فضجت وفود الله بالذكر والدعا
وقد فرَّت الحجاج حين رأيناه

وقد كانت الأرواح تزهو لفرحة
لما نحن من عظم السرور شهدناه

فصافحت الأملاك من كان راكباً
وتعتنق الماشي إذ تتلقاه

وطفنا به سبعاً رملنا ثلاثة
فاربعة مشياً كما قد وعدناه

كذلك طاف الهاشمي محمد
طواف قدوم مثل ما طاف طفناه

إلى آخر الأبيات الخمسة عشر، وهو يقول:

فهذا الذي نلناه يوم قدومنا
وأول ضيق للصدور شرحناه

ويذكر أنه في اليوم الثامن - وهو يوم التروية - خرج إلى منى بعد الطواف على ما هي السنة، مستدلاً بما في كتب الفقه المالكي. وهكذا كان يمزج مذكراته باستعراض أقوال الفقهاء.

قال: وكان نزولنا بمنى شرقي مسجد الخيف قريباً من بابه الشرقي، وصلينا به الظهر والعصر خارج القبة التي تواتر أنها موضع خيمة الإمام علي كرم الله وجهه.

وقد اجتمع ابن ناصر هناك بالشيخ محمد أكرم ابن الشيخ عبدالرحمن مفتي الهند، وهو رجل عالم له تآليف حول الإمام البخاري، وهو ضرير كبير السن... وقد سأله أحمد بن ناصر عن المسافة بيننا وبين الهند، فقال: أربعون يوماً في البحر، وأربعة أشهر أو ستة في البر، وإن بلده هو السند، وبينه وبين الهند ثلاثون يوماً.

وبعد أن يهتم بأمر رؤية الهلال الذي تبين أنه خبر سجاح!! يعود إلى قضية المبيت بمنى، وأنه سنة أُميتت من زمان على ما ذكره العبدري وابن رشيد، لكن الشيخ ابن ناصر أحيا هذه السنة في سائر الحجات التي قام بها(١).

وقد نزل بجواره الشيخ عبد القادر بن أبي بكر مفتي الحنفية، فسأله عن البناء القائم بمسجد الخيف ونمرة فأخبره المفتي بأنه من بناء قايتباي.

قال: «ووقفنا تحت الجبل الذي عليه القبة المنسوبة لآدم»، قال: «ولكن الخطيب لم نر له شخصاً، ولا سمعنا له صوتاً، وإن لم يكن بعيداً عنا لكثرة الازدحام، واختلاط الأصوات مع اختلاف اللغات وتباين الرغبات، إلا أصوات التلبية لاشتراك الكل فيها، ولا سبيل إلى تغييرها!!

ووقفنا على إبلنا، وأرحنا بغالنا، إلى أن غربت الشمس، قبل أن ينفر الإمام، ويفر الناس في زحمة محفوفة بالألطاف.

«ولو شاهدت يا هذا تلك الحال، وما عليه الناس، لهالك ذلك المشهد الذي هال أمره وعجز عن وصفه زيد البيان وعمره - يقول ابن ناصر - إذ ترى الملوك في مقام الافتقار والذلة، والفقراء في محل الاضطرار والقلة، والجميع يرغبون في المغفرة من الرحمن، ويطلبون الرحمة والعفو من العفو الرحيم الحنان المنان، فكم من دموع تدفقت، وكم من ضلوع تحرقت، وكم نسمات هبات هبت، وكم سحائب رحمة هبت».

وهنا يأتي أيضاً بأبيات من القصيدة الهائية، بلغت سبعة وثلاثين بيتاً:

فكم حامد! كم ذاكر! كم مسبح!
وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه

وكم خاضع! كم خاشع متذلل
وكم سائل مُدَّت إلى الله كفاه

وكم من منى نلنا بيوم وقوفنا
وكم من أسير للمعاصي فككناه

(١) ص ٧٥ من مخطوطة الخزانة الملكية.

فظل حجيج الله لليل واقفاً

فقيل: "انفروا" فالكل منكم قبلناه

بعد هذا الشعر حيث رأينا الملوك في مقام الافتقار والذلة... يخبر ابن ناصر أنهم ساروا إلى المزدلفة حيث التقطوا الأحجار للجمرات.

ويجيء أحمد بن ناصر بطن محسر، وهو وادي النار: البركة الخربة التي على يسارك إن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى... قال: وبهذا عرفه أهل عصره بالمناسك خليل المكي حسبما نقله عنه البلوي في رحلته[1] إلى أن أتينا جمرة العقبة... ورميناها بسبع حصيات.

ويدعو أحمد بن ناصر حلاق الحاج عبد القادر فيحلق، ويسير إلى المسجد الحرام لطواف الإفاضة، حيث وجد البيت العتيق مفتوحاً والناس على ظهره بكسوته.

وهنا عرض له الأخ الحاج بوعزة المراكشي، وحثه على دخول البيت، وقد امتنع الشيخ أحمد بن ناصر تأدباً متعللاً بالزحمة! ويتدخل الحاج بوعزة لدى أمير الركب المصري إبراهيم أبو شنب فيشجعه هذا ويأخذ بيده ليطلعه.. ويشعر أحمد بن ناصر بالهيبة، فيركع لناحية الباب غافلاً عن السنة التي تقضي بأن يجعل الباب خلفه، لقد أنساه الخجل والوجل ما كان يعرف!!

لكنه لما دخل البيت العتيق المرة الثانية في حجته هذه، ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة، ركع إلى سائر الجهات وكبّر في سائر نواحيه، ومشى في عرضه وطوله؛ طلباً للعلم والوقوف على حقيقة المكان، لا للتفرج والتنزه، وفي كل ذلك كانت تلازمه السكينة والوقار، والإكبار والإجلال، واستشعار الحرمة والعظمة.

قال: روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «عجباً للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قِبَل السقف! ليدع ذلك إجلالاً لله تعالى وإعظاماً. دخل رسول الله ﷺ الكعبة فما خلف نظره موضع سجوده حتى خرج منها».

---

(١) هكذا في مخطوطة أحمد بن ناصر الورقة ٧٦، ولم نعثر على هذا النقل في رحلة البلوي المطبوعة والمحققة من لدن د. الحسن السائح، ج٢، ص ٦. فهل اعتمد ابن ناصر على نسخة أخرى؟!

وبعد هذا يعود للنقل الحرفي عن الإمام أبي سالم حول ما يعتقده بعض العوام والمتفقهة في موضوع تجديد السعي بعد طواف الإفاضة، ثم يأتي هو بتعليق عن الموضوع.

ويعود ليذكر أنه لما فرغ من الطواف جلس للاستراحة في أخريات المسجد، واشترى خبزاً وسمناً وعسلاً، وأكل قبل أن يرجع إلى المنزل بمنى، وكان نزوله بثبير قرب الغار الذي نزلت فيه سورة المرسلات. قال: والناس يتحامون القرب من الجبل تقية من أذى السراق، فيستجير بعضهم من بعض، ويفرون إلى الدخول في غمار الناس، ولا يبالون بما ينالهم في ذلك من وطء الأقدام واستنشاق الروائح الكريهة، ونحن استسهلنا أمر السرقة في جانب هذه المضارّ، وكذلك فعلنا في كل ما مضى من الحجات، والله يعيدنا إليه الكرات بعد الكرات.

قال: وقد ذبح في منى في ذلك اليوم من الغنم ما أحسب الغني والفقير، وكفى البصير والضرير، وأغنى الوارد والمستوطن، فامتلأت الطرقات باللحم، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى؛ أغنياء وفقراء، فأكل الكل من ضيافة مالكهم، وتزودوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطير والهوام والوحش!!

وهنا أخذ النقل عن الإمام أبي سالم... قبل أن يعود إلى ذكر أنه قضى الليلة بمنى في نعمة كاملة، ويصبح الغد ليتحدث عن الأسواق العامرة، حيث أخرجت البضائع ذوات الأثمان، وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان، وأكثر التجار يقولون: إن من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته وجد بركته!

قال: ولما زالت الشمس توضأنا وخرجنا إلى رمي الجمار، مبتدئين الأولى التي تلي مسجد الخيف، ثم بالوسطى، وختمنا بالعقبة.

ويتحدث عن الليلة الثانية بمنى التي يتحدث كل الرحالين عن احتفالاتها وإيقاد المصابيح بها، والتنافس بين أهل مصر والشام في الرمي بالبنادق والمدافع والمحارق المرتفعة في الجو.

قال: فهو (أي موقع منى) أجمل الأندية، ومبانيه أحسن الأبنية، تشرق في النهار

فساطيطه الموثقة، وبالليل مصابيحه المشرقة.

ويعود للاستعانة بالإمام أبي سالم حول هذه التسليات والاحتفالات والمهرجانات..

قال: فلما أصبح الناس في اليوم الثالث أخذوا في الرحيل متعجلين، ولم يبق إلا جماعتنا وبعض أهل البصرة والأحساء، ولو أن سلطان مكة تعجل وكان من عادته ألاّ يتعجل(١).

ولما زالت الشمس في اليوم الرابع ارتحلوا من منى... ومالوا إلى مسجد الكبش فزاروه، ثم مسجد العقبة الذي تمت فيه بيعة الرسول ﷺ، وجاؤوا المحصب ونزلوا به بإزاء مسجد عائشة، حيث صلوا به الظهر والعصر والمغرب والعشاء... ورقد رقدة على حد تعبيره ليتفرغ بعدها للعمرة، ويحرم من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الخوف وقلة الرفيق!!

وأتينا مكة، فطفنا، وهنا يحكي عن حادثة كثيراً ما تقع للحجاج، قال: «ووطئ إنسان على بنصر رجلي اليسرى ولا أظنها إلا انكسرت!! وأتممت الطواف وأنا أحجل، ولم أقبل الحجر مباشرة في أكثر الأشواط:

هل أنت إلا إصبع وطئت

وفي سبيل الله ما لقيت!!

وخرجت إلى السعي فسعيت على رجلي، وتعبت جداً فعجزت عن إتمام السعي راجلاً، وأوتيت بالدابة فركبت وأتممته راكباً، وأتيت المنزل الذي اكتريناه ورقدت رقدة!».

وأصبحنا بمكة يوم الجمعة، رابع عشر ذي الحجة (ثالث فبراير - الفلاحي)، وأقمنا بها بعد قضاء النسك تسعاً، وفي هذه المدة في تلك العرصات نجول ونسعى، ودخلنا البيت الشريف كما قدمنا، فتمتعنا بإجالة النظر في نواحيه حرصاً على تحقيق مبانيه.

وهنا يأتي ابن ناصر بقطعة ثالثة من القصيدة الهائية التي سبق له أن ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة.

وهنا نقرأ صفحة نقدية مهمة حول مصداقية ما يروى عن تلك المشاهد... وهو يقتفي في ذلك خطوات الإمام أبي سالم القائل باستبعاد ما يروى حول بعض المواقع

---

(١) القصد إلى الشريف عبد الكريم بن محمد بن يعلى من ذوي بركات الذي كانت له مشاكل مع بني عمه المتنافسين على الحكم. السباعي: تاريخ مكة، ص ٤٠٣، ٤١١، ٤١٢.

(مولد النبي مثلاً) بعد مرور الأزمان والأعصار وانقطاع الآثار . . . كلام طويل ولكنه لا يخرج عن إطار ضرورة التأكد من نسبة هذه الأمكنة إلى أصحابها، وفي إطار أنها إذا تمت زيارتها فإنما تزار رعاية لعظم قدر مَن أضيفت إليه!!

ويؤيد أحمد بن ناصر الإمام أبا سالم في تعليقه على حادثة وقعت في غار حراء لبعض الهنود هناك، حيث هلك بعض الحجاج نتيجة تخلفهم عن الجماعة . . . لقد علق العياشي بجملة مفيدة رائعة تقول : « والانفراد عن الناس لا سيما في المفازات والمغارات البعيدة عن العمران لا يقوى عليه إلا من أيده الله بروح القدس » .

وبعد كل هذا، يخصص الشيخ أحمد بن ناصر فصلاً بكامله لذكر من لقيهم في الحرم المكي من الأئمة، وهنا نجده ينقطع عن النقل من رحلة العياشي .

ونرى من المفيد أن نأتي بلائحة لشيوخه من العلماء الأعلام من الذين ينتسبون إلى مختلف جهات العالم الإسلامي، وهذا الذي يعطينا فكرة عن الوسط العلمي بأم القرى على ذلك العهد، ويذكر منهم حسب قوله :

الشيخ أحمد النخيلي الشافعي .

الشيخ عبدالله بن سالم البصري الشافعي .

الشيخ محمد تاج الدين مفتي الحنفية وابناه .

الشيخ عبد الحسن .

الشيخ عبد المنعم .

الشيخ عبد القادر بن أبي بكر الحنيفي المفتي سابقاً .

الشيخ محمد أكرم الهندي .

الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكي الشافعي، وله تاليف عن التاريخ، ذكر فيه علماء الحادي عشر وصلحاءه وأدباءه وملوكه وشعراءه، وأطلعني على سفر منه ذكر فيه المحمدين فقط، ولم يكمل إلى الآن، وله رحلة إلى اليمن، ولقي الوالد، وأخذ عنه وجعل له ترجمة[1] .

---

(١) القصد إلى المؤرخ مصطفى المكي المتوفى سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م، والإشارة إلى تاليفه « فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر » . الزركلي : الأعلام، ج٨، ص ١٤٠، والكتاب مخطوط .

الشيخ محمد بن عبد الباقي الإسكندراني المالكي.

الشيخ إدريس بن أحمد الصعدي الشماع الشافعي، وهو نسبة إلى صعدة؛ بلدة في اليمن.

الشيخ عبد الرحمن السندي (الهندي) والد أكرم.

الشيخ عبد الكريم الهندي، وفي عام ستة وتسعين وألف (١٠٩٦هـ / ١٦٨٤م) التقيناه بمكة وأكرمنا بالشيخ حسن العجيمي.

الشيخ الحسين الحنفي المكي، وأهدى إلينا عكازاً من الخيزران.

الشيخ علي اليمني، وهما من أصحاب سيدنا الوالد رضي الله عنه، وطلعا معنا إلى جبل أبي قبيس، فجلسنا هناك سويعات للدعاء ومشاهدة البيت العتيق والمسجد الحرام ومكة كلها.

وممن أجازنا بمكة من السادات ـ يقول أحمد بن ناصر ـ أبو محمد الشيخ عبد الله بن سالم البصري (السالف الذكر)، وقد كان أجازنا بلفظه، ثم بعث إلينا بالإجازة لبلدنا مع بعض أصحابنا.

وبعد أن يأتي الشيخ ابن ناصر بالنص الكامل للإجازة في رواية الكتب الستة التي هي دواوين الإسلام، ورواية موطأ الإمام مالك، هذه الإجازة التي يضيف فيها الشيخ البصري إلى أحمد بن ناصر اسم عالم مغربي آخر هو الشيخ اللوذعي والكامل الألمعي حسين بن محمد بن علي بن نشرحبيل البوسعيدي الدرعي.

وكانت الإجازة تحمل تاريخ الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف، وهي مذيلة بالتوقيع على النحو التالي:

كتبه الفقير إليه سبحانه عبد الله بن سالم بن محمد بن سالم البصري منشئاً، المكي مولداً، الشافعي مذهباً، لطف الله به وبالمسلمين، آمين.

ويعرف الشيخ أحمد بن ناصر بالمشايخ الذين ورد اسمهم في هذه الإجازة المذكورة من الذين أخذ عنهم الشيخ البصري علومه؛ أمثال:

أولاً: الشيخ عيسى الجعفري الذي يقصد به الشيخ أبا مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري شيخ أبي سالم العياشي السالف الذكر في الرحلة العياشية، وقد اعتمد

أحمد بن ناصر في الترجمة للجعفري على النص الكامل الذي أورده العياشي.

ثانياً: الشيخ محمد بن سليمان الذي يقصد به إلى العلامة الفذ ابن سليمان الروداني الذي نخصصه بحيز على حدة، وكان من أصحاب والد صاحب هذه الرحلة... وقد نعته أحمد بن ناصر تقليداً لأبي سالم بحكيم الإسلام وأحد العلماء الأعلام الذي لم يرشح له وعاء... وكان في هذه الترجمة أيضاً يعتمد على جميع المعلومات التي أوردها العياشي عن هذا العالم الجليل، بما فيها اجتماعه بفاس مع أوحد زمانه في سلوك طريق الصدق العديم النظير في معرفة آداب معاملة الحق؛ محمد بن عبد الله معن الأندلسي... الذي تحدث عنه القادري في رحلته (نسمة الآس)... وبما في ذلك مقارنة ابن سليمان من الوجهة العلمية بالشيخ داود الأنطاكي صاحب (التذكرة)[1].

لقد وجد أحمد بن ناصر في ترديد مرويات العياشي ما يستحق التكرار براً بروح الروداني الذي ذهب ـ كما نعلم ـ ضحية صراحته وصدقه.

ونختم تقديمنا لرحلة الشيخ أحمد بن ناصر بالإشارة إلى تنويهه ـ على نحو شيخه أبي سالم ـ بخفة الحمير التي تربط المواصلات بين جدة ومكة. كل الرحالين المغاربة أشادوا بخفتها وقوتها وتحملها حتى لأصبح تعبير (حمار جدة) يعني البريد السريع، ويحتفظ المغاربة إلى اليوم في حديثهم باستعمال كلمة «وحُمَير جدة» (حمير تصغير حمار)... يقولونها في شأن الغلام الخفيف الحركة الوافر الأداء.

(١) عن ابن سليمان، اقرأ تاريخ مكة للسباعي، ص ٣٩٨ وما بعدها.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة ابن ناصر

القادري ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م

هذه رحلة تحمل عنوان «نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس»، وقد ألفها أحد تلامذته: أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري الحسني المتوفى سنة ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م.

استهلها بقوله: «الحمد لله الكريم المنان، العظيم السلطان، إلخ...». ومراد المؤلف بأبي العباس الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن عبد الله معن المتوفى سنة ١١٢٠هـ / ١٧٠٨م.

وتوجد نسخة منها في الخزانة الملكية رقم ٨٧٨٧، وبالمكتبة العامة ضمن مجموع رقم ١٤١٨ /ك[١].

والطريف في هذه الرحلة أن صاحبها لا يتحدث عن نفسه، ولكنه يغطي رحلة لأستاذه أحمد بن محمد عبد الله معن، فهو يتحدث عنه كشيخ عظيم في قومه وعند مريديه، إذ نلاحظ في أسلوب القادري نوعاً من أدب السلوك مع من نجلُّهم ونكبرهم، وهو من ناحية أخرى يؤدي صورة عن تمسك المالكية بمذهبهم في أداء بعض مناسك الحج من غير أن يخالفوا زملاءهم الحنفية في باقي الممارسات الأخرى، وسنرى أيضاً أن القادري يعمل على التزام السجع في حديثه عن هذه الحجة التي كانت تصادف أيام حكم الشريف أحمد بن غالب بمكة.

قال: ونزلنا من الغد بعسفان، وبها عمارة، وبئر، ماؤها عذب جداً... ثم ارتحلنا منها وسرنا جد السرى فوصلنا غدوة لمكة أم القرى، وحين وصل سيدنا ـ حفظه الله ـ إلى أم العقيق، وذلك بعد صلاة المغرب، أخذ عن يمين الطريق، وذهب يستبق الركب ونحن معه نقتفي أثره ونسلك مهيعه، فأدركنا أول الركب مع الدليل بمر الظهران المعروف الآن بوادي فاطمة، ثم جزنا الركب وسرنا إلى أن وصلنا سرف، فمررنا بضريح أم المؤمنين

(١) يراجع بحثنا حول رحلة الوزير الإسحاقي في ليبيا، مطبعة فضالة، ص ٣٧، تعليق ١. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب، ص ٣٦٨.

ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها، وهو معروف مشهور مذكور في « شفاء الغرام » وعليه قبة، فوقفنا به هنالك وزرناه ودعونا وقرأت الفاتحة، وسرنا غير بعيد، فطلع الفجر علينا فنزلنا وصلينا، ثم ركبنا وسرنا فبلغنا ذا طوى، فنزلنا به واغتسلنا عند آبار هنالك، ثم سرنا فدخلنا مكة المشرفة من أعلاها، من ثنية كداء بالمد، وهو الموضع الذي ينحدر منه إلى الموضع المسمى عند العامة بالمعلى، ووجدنا هنالك جل المجاورين خرجوا للقاء سيدنا، ولقيه بعضهم بذي طوى وبعضهم بين ذلك، وفيهم الفاضل الخير الحسيب أبو عبد الله محمد بن طاهر الشهير بابن رضوان الأنصاري البخاري الفاسي القاطن بمكة، فطلب منه أن ينزل عنده بداره وألح عليه في ذلك، فلم يجد بداً من مساعفته جبراً لخاطره ومراعاة لنسبه وجواره له بمدينة فاس حيث كان بها.

وكان يوم دخولنا مكة يوم الاثنين الخامس من ذي الحجة (عام مئة وألف / ١٩ سبتمبر ١٦٨٩م)، وقطعنا حينئذ التلبية وسرنا فمررنا بالحجون، ثم ذهبنا، ثم قيل لنا: هذا هو (المدعى)، وهو الموضع الذي دعا فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ**...﴾ الآية.

وسرنا فمررنا بالمسعى، ثم أتينا باب السلام، ودخلنا المسجد الحرام، ونحن في خير رفيق، فوقفنا عند البيت العتيق، وشرعنا في طواف القدوم من غير التفات، إذ واجب فعله على كل قادم وآت، وبدأنا بالحجر الأسود فقبلناه، وبلغ كل منا فيه مناه، فطفنا سبعاً، ورملنا في الثلاث الأول، وكلما مررنا بالركن اليماني كبرنا بعدما استلمنا، وإذا وصلنا الحجر مع سيدنا قبَّلنا وكبرنا، ثم صلينا ركعتي الطواف خلف المقام.

ثم جاء سيدنا (الملتزم) بين الركن والباب، حيث الدعاء مستجاب، فوقف ووقفنا معه ساعة، رافعاً يديه للدعاء والضراعة، واشتغلنا بطلب المعلمات كالشهادة عند الممات.

ولما فرغ سيدنا من الطواف والصلاة والدعاء، ذهب من فوره نحو المسعى فخرج على باب الصفا، وقد طاب وقته وصفا، ونحن حوله مجتمعون، وأثره متبعون، فبدأ بالصفا فرقاها حيث يرى البيت من أعلاها، فبدأنا بها كما بدأها الله، إن الصفا والمروة من شعائر الله، فنوينا حينئذ بالسعي الفرض والوجوب، سائلين من ربنا تكفير الذنوب، وسرنا

حتى انتهينا إلى المروة، فصعدنا أعلاها واستقبلنا البيت، ودعونا ورجعنا إلى الصفا من فورنا، وكلما مررنا ببطن المسيل خببنا ونحن نتضرع ونرغب، وكم من عبرة تنحدر وتسكب، شعثاً غبراً مشاة، منتعلين وحفاة، حتى مررنا سبعاً، فكان وقوفنا بالصفا أربعاً وبالمروة أربعاً، وقد تم سعينا وشكر سعينا لله الحمد والمنة، فأتممنا بتمامه الركن الثاني من الحج، وأتينا إلى موضع حط الرحال، إلى حيث أنيخت الجمال، فنزل سيدنا بدار ابن رضوان المذكور قرب المسجد الحرام، بموضع يسمى سوق الشام (الشامية)، بمحل مرتفع عن السوق، والأصحاب حوله بدار واحدة جدارها به ملصوق، يصلي بالحرم الشريف سائر الأوقات، ويطوف بالبيت في المساء والصباح، وفي جوف الليل وكل وقت مباح، ويكثر من التنفيل والضراعة، واللجا والتملق كل ساعة، ويكثر ماء زمزم، وفي الوقوف بالملتزم، والناس يقتدون بفعله وصنعه، متبعون لوتره وشفعه، وهم في غاية الفرح والسرور، والسلوان والحبور، وقد بلغوا المنى، وحق لهم الهنا، وقد قلتُ في ذلك شعراً، وقصدت به شكراً:

هنيئاً لمن أمسى وأصبح بالحرمْ
وقام به عند المقام وملتزمْ
وطاف بذاك البيت قرباً لربه
وإن مرَّ بالركنين قَبَّلَ واستلمْ

فلما كان اليوم الثالث من دخولنا مكة، وهو يوم الأربعاء السابع من الشهر، جاء الخطيب إلى المسجد الحرام وصعد المنبر، وخطب الناس خطبة أمرهم فيها بالخروج من الغد إلى منى، وبين لهم بعض المناسك، وما يفعل هنالك، والركاب حينئذ هناك مجتمعة، وفرح الناس أن كانت الوقفة يوم الجمعة، وهذا اليوم - هو اليوم السابع - يسمى يوم الزينة، فتفرق الناس وتهيؤوا لتمام حجهم، ثم من الغد وهو يوم الخميس الثامن من الشهر، ويسمى يوم التروية، أتى سيدنا المسجد الحرام، وطاف بالبيت سبعاً وصلى ركعتي الطواف خلف المقام، ودعا وشرب من ماء زمزم وقام ساعةً يدعو بالملتزم.

ثم خرج من مكة وتوجه إلى منى يلبي راكباً على دابته وذلك قرب الزوال، ونحن معه وفي أثره نلبي ونعظم ذا الجلال، وسرنا حتى وصلنا سوق منى، فنزلنا هنالك في ظل

جدار بمكان مرتفع ينتظر من بقي من الأصحاب حتى لحقوا به، ثم سرنا فانتهى بنا المسير إلى أصل جبل ثبير، وصلينا الظهر والعصر بالتقصير، ونزلنا هنالك بمنى، وبتنا بها حيث المبيت سنة، لله الشكر وله المنة، ثم من الغد وهو يوم الجمعة المشرفة تاسع ذي الحجة ويوم الوقف بعرفة، يوم جعله الله عيداً للمؤمنين، وموسماً للمسلمين، وأنزل فيه على نبيه في فضلهم وشرفهم قرآناً مبيناً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾.

أصبحنا بمنى ننتظر إشراق ثبير، كنا نرحل ونسير، فلما أشرق ارتحلنا باليمن والبركة، ورحالنا متوافقة ومشتركة، والجمال حينئذ سائرة، والعقول والأفئدة طائرة، وسيدنا على راحلته في هودجه يهيم بين البوازل، ويسأل عن تلك المنازل، حتى مررنا بالمشعر الحرام، ثم المزدلفة، ثم حيناً تراءى جبل الرحمة من جبال عرفة، فأخبر سيدنا وقيل له: هذا جبل عرفة، واعتراه حينئذ بكاء وحنين، وعلته عبرة قوية وأنين، وهو يقول رافعاً صوته: الله، الله، الله، وتارة يقول: يا سيدي يا رسول الله! وبقي كذلك سائراً لم تنقطع عنه العبرة، وتتابع عليه ذلك المرة بعد المرة، ولم تنقطع عنه حتى وصل مسجد نمرة.

ولما وصلنا إليه، وذلك ضحوة، نزلنا جميعاً معه، ونحن رفقة واحدة مجتمعة، وبنينا أمام المسجد الأخبية، وشرعنا في إصلاح ما نحتاج إليه من الأغذية... لما قضيت الأوطار، وذلك قرب الزوال، اغتسلنا وتوضأنا، وللصلاة تهيأنا، ثم لما زالت الشمس قطعت التلبية، وأتى الخطيب إلى مسجد نمرة، وصلى بالناس الظهرين وقصر فيهما وخطب، فبين للناس مناسكهم وما يصنعون في حجهم ووقوفهم، وما هو واجب عليهم في مذهبهم، وغالبهم حنفية.

ثم اجتمعنا نحن المغاربة المالكية خارج المسجد، ونشط الناس، وطابت الأنفاس، بحضور سيدنا أبي العباس، فصلينا هنالك الصلاتين ظهراً وعصراً، جمعاً وقصراً، سراً لا جهراً، بأذانين وإقامتين.

وكان إمام الصلاة يومئذ السيد العفيف الفقيه العالم النزيه، نادرة الزمان أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، القاطن الآن بالمدينة المشرفة منذ أربع عشرة سنة، كان لقي

سيدنا بمكة وخرج معه حاجاً، وكان لا يفارقه إلى أن خرجنا من المدينة، وكان لا يمر بمكان من تلك الأماكن المباركة إلا ويعرف به ويسميه له ويذكر له ما يفعل فيه، فكان ذلك من منة الله علينا.

ثم لما فرغنا من الصلاة توجهنا إلى عرفات في الحين، ونحن وراء سيدنا مستبشرين فرحين، آمين ذلك الموقف الأعظم، والجمع الأفخم، حتى وصلنا جبل الرحمة، فأخذنا عن يساره لأجل الزحمة، وسرنا يمنتنا فوافينا الموقف الذي وقف به سيدنا رسول الله ﷺ في حجة الوداع. وهو كما حققه العلماء عند الصخرات الكبار المفترشة قرب الهضاب في أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الصغير الذي توسط أرض عرفة الذي بأعلاه القبة المسماة عندهم بقبة آدم، وأخبرنا بذلك أيضاً السيد الشريف الفقيه أبو العباس أحمد ابن عبد الرحمن المتقدم، وأنه معلوم عندهم، فوقف سيدنا بذلك الموضع الشريف مستقبلاً القبلة، والأصحاب من الأشراف والفقهاء وغيرهم حوله ممتثلون فعله، وهو رضي الله عنه على راحلته في هودجه ظاهراً للشمس إذ كان قطع أعلاه كما تقدم، ومعه فيه السيد الشريف النزيه العفيف أبو العباس أحمد بن عمر الحسني السجلماسي المجاور بالمدينة المنورة، وهو ديِّن خيِّر فاضل صالح حدَّث عنه بعض الفقهاء الثقاة أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت له: يا رسول الله، من تحب من المجاورين؟ فقال: أحب المغاربة والمسلمين من الهنود!

وقد اجتمع بذلك الموقف العظيم والمشهد الكريم بشر كثير وجم غفير، وحضر فيه من الركاب: ركب أهل مكة المشرفة وسلطانهم يومئذ الذي حج بالناس وهو الشريف أحمد بن غالب بعسكره وخدمه وحشمه، وخيله ورجله في زي واحتفال وهوادج ومحفات للنساء والأطفال[1]، والركب اليمني، والشامي، والبصري، والمصري، والفاسي، والقسطنطيني؛ سبعة ركاب، وحضر من عرب الحجاز وغيرهم من الأعراب ما لا يعد، والناس على كثرتهم، واختلاف ألوانهم وألسنتهم، منضمون بعضهم حول

(١) حسب المصادر الحجازية المهتمة بأمر شرافة مكة فإن الشريف أحمد بن غالب - وهو من ذوي بركات - استولى على مكة بمساعدة والي مصر بتاريخ ثاني شوال ١٠٩٩هـ، وتُلي مرسوم تعيينه في شهر ذي القعدة بالحطيم، وزينت مكة ثلاثة أيام. السباعي: تاريخ مكة، ص ٣٩٢.

بعض، عراة الرؤوس، شعثاً غبراً، رافعين أكفهم صافين أقدامهم، واقفين بين يدي مولاهم، خاشعين متضرعين، خاضعين متملقين، باكين داعين، وذاكرين ومسبحين ومستغفرين، فبقوا كذلك بعد الصلاة إلى غروب الشمس والإمام على ناقته في الجبل يدعو الله ويتضرع طوال تلك العشية، وبإزائه مسمع يسكت ساعة ثم يلتفت ويشير بفويطة(١) إلى الناس رافعاً صوته بالتلبية فيلبون أجمعهم على اختلاف مذاهبهم، رافعين أصواتهم بين تلك الجبال والهضاب، مجيبين لرب الألباب، راجين مولى كريماً وإلهاً عظيماً من سأله أعطاه، ومن استغنى به كفاه، ومن استشفى به شفاه، ومن استغفره غفر له، ومن تاب تاب عليه، فسبحان من يعلم سرهم ونجواهم! ويسمعهم ويراهم! فلو رأيتهم وقد ملؤوا تلك البسيطة مع الهضاب والآكام، وقد استوى هنالك في الرفعة والضعة الخاص والعام، وهم مشرفون على كل شرف، لا يدرى لهم حد ولا حرف، وسيدنا في هودجه على جمله بين الأقوام، كأنه بدر التمام أو مصباح بين الأنام، على هودجه بهاء وجمال، بين تلك الرواحل والجبال، وهو تارة يذكر الله وتارة يصلي على رسول الله، وتارة يرفع يديه يدعو ويتضرع، وساعة تفيض أعماقه ويخشع، وتارة يقرأ دلائل الخيرات(٢) حتى يسكب العبرات، وجميع الأصحاب حوله على تلك الحالة إلى الغروب، راجين مولاهم غفران الذنوب، مستشرفين لكل خير عاجل، مستشفعين بسيد الأواخر والأوائل، فيالها من وقفة ما أعلاها! وعشية ما أغلاها! وكل من حضر ذلك المكان أو رآه، يتيقن بنيل رحمة مولاه.

وقد قلتُ في ذلك:

عشية ذاك اليوم ليس لها مثلُ
على سائر الأوقات حق لها الفضلُ
لقد قامت الأقوام في عرصاته
لدى عرفات الجمع يجتمع الكلُّ

---

(١) يعبر آخرون بخرقة.

(٢) كتاب أوراد من تأليف (الإمام الجزولي) دفين مراكش، وهو واسع الانتشار في الديار المغربية.

بهـا آدم قد قام فيه لربه
وأبناؤه من بعده سيما الرسلُ
وكم من نبي جاءه في زمانه
وقام به طوعاً ولذ له الوصلُ
وأتباعهم جيل فجيل أتت له
ومؤمن جنس الجن حولهم شغلُ
وخير عباد الله والصحب كلهم
وتابعهم والتابعون لهم تتلو
رجال من أهل الغيب يحضر جمعهم
والأوتاد والأبدال والقطب لا تخلو
عباد قيام راغبون لربهم
بعزم وإلحاح والأعين تنهلُ
بباب الكريم الواسع الجود والعطا
فما منهم إلا ويُرجى له البذلُ
سألتُ الذي ساق الجميع بفضله
يعاملنا بالسمح فهو له أهلُ

ولما غربت شمس ذلك اليوم، وغاب قرصها عن أعين القوم، نفر الأنام بالناس، ودويت أصوات مختلفة الأجناس، وسارت الهوادج والجمال، ورعدت النفارات والأطبال، واهتز من كل جانب الحجيج، وكثر حينئذ الضجيج، ورجع الناس يطيرون فرحاً وهياماً، ويسرعون من الفرح ركباناً وقياماً، فلا تسمع منهم إلا ذاكراً لمولاه، أو شاكراً لما أولاه، أو مصلياً على رسول الله.

وقضينا حينئذ الركن الثالث وأتممناه، وبلغ كل منا ما يتمناه، وهذا الركن من أعظم الأركان المهمات، كما جاء في الحديث: «الحج عرفات».

ونفرنا معشر الأصحاب مع سيدنا ونحن قائلون بأرفع الأصوات: الحمد لله والشكر لله، ما خاب عبد قصد مولاه، بصيغتها المعلومة عند الحجاج.

وبقينا كذلك مدة طويلة نقولها ونحن سائرون، ثم سكتنا وسرنا على هيئة حسنة مؤتلفة، إلى أن وصلنا بعد العشاء بمدة بمنزلة المزدلفة، فأنيخت الجمال، وصلينا العشاءين جمعاً فيهما وقصراً في الأخيرة، ثم حططنا الرحال، ووضعنا الأثقال، والتقط كل واحد منا سبع حصيات منتخبة، ليرمي بها من الغد جمرة العقبة، وبتنا هنالك بليلة كأنها ليلة القدر، وسيدنا بيننا كنجوم وسط البدر.

ولما طلع الفجر صلينا الصبح على الفور، وارتحلنا في الحين ذاكرين ومسبحين، فوصلنا بعد ساعة إلى المشعر الحرام، وهو موضع بالمزدلفة فيه مسجد وصومعة، فوقف به سيدنا مع الأصحاب، مستقبلين القبلة والمشعر على اليسار، يدعون ويتضرعون، ومن مناهل رحمة ربهم يكرعون، وبقينا كذلك إلى قرب الإسفار، وسرنا وانفصلنا عنه قبل طلوع النهار.

ثم رجعنا نذكر لا إله إلا الله بلسان واحد جهراً، فأرسل إلينا سيدنا بعد مضي ساعة أن قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فجعلنا نقولها.

ثم وصلنا بطن محسر، ويسميه أهل مكة وادي النار، وهو مقدار رمية بحجر، فأسرعنا فيه وهرولنا، وذهبنا إلى منى، فنزلنا بها ضحوة، وذلك يوم عيد الأضحى ويوم السبت، وسار سيدنا بالفور ونحن معه، فرمى جمرة العقبة بسبع حصيات مستقبلها ومنى عن يمينه وطريق مكة عن يساره، وكبر مع كل حصاة.

ثم أتى حلاقاً فحلق رأسه عند جمرة العقبة، وحلقنا على أثره، ثم ركب دابته وقصد مكة لطواف الإفاضة على هيئة الإحرام، فبلغناها وأتينا البيت الحرام، ودخلنا على باب السلام فخلعنا النعال، وأتينا بيت ربنا المتعال، فإذا بابه مفتوح، وعليه أنوار تلوح، والناس به طائفون، وحوله حافون، فشرعنا في طواف الإفاضة، بعد أن قبلنا الحجر الأسود فطفنا سبعاً بنية الوجوب، وهو الركن الرابع من أركان الحج، ثم صلينا ركعتي الطواف خلف المقام، ثم أتينا الملتزم ودعونا، ثم رفعنا إلى الكعبة فدخلناها، وكنت أنا دخلت قبل سيدنا، فلم أدْرِ من دهشتي ما أصنع! فإذا بدر سيدنا عليٌّ قد طلع، فدخل الباب وسار أمامه، ثم مال إلى اليسار، حتى وصل إلى المستجار[1] وصلى به ركعتين،

---

(١) سيعرفنا القادري بالمستجار بانه بين الركن اليماني إلى الباب المسدود خلف الكعبة.

ثم ركعتين منحرفاً إلى الركن اليماني، ثم جلس هنالك ساعة يذكر الله ويتحدث بنعمه وامتنانه، ووجهه يتهلل سروراً كالواصل لأوطانه، ثم قال مبتسماً، وأنشد ناطقاً ومتكلماً: وهل يقال لفضل الله ذا بكم؟

ثم ذيلتُ بعد ذلك هذا الشطر، وزدت عليه بيتاً في شطر فقلتُ:

قـد قـال لي منشـداً بداخل الحـرم
لما رأى من توالي الخـيـر والنعمِ
لا تعـجـبـوا من عظيم الجـود والكرم
وهل يقـال لفـضل الله: ذا بكمِ !!

ثم قام ومشى إلى الركن الذي عن يمين الداخل من الباب تحت الدرج الذي يصعد منه إلى سطح البيت، فجلس هنالك ساعة يتحدث بنعم الله، وبما أولاه سيده ومولاه.

ثم قام وجعل العمود الموالي له خلفه، إذ البيت قائم على ثلاثة أعمدة مصطفة في طول مساحته، واستقبل الجدار الذي عن يسار الداخل وجعل العمودين الآخرين أمامه وصلى ركعتين ثم ركعتين، وصليت معه أولاً وآخراً، ثم عاد إلى موضعه الثاني تحت الدرج وجلس، فقال له بعض فضلاء الأصحاب: يا سيدي هذا المكان الذي قال الله فيه: ﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾، ادع الله لنا يا سيدي، اللهم كما أمنتهم فأمنا، فرفع يديه ورفعنا للدعاء ساعة... ومسح على وجهه وتبعته الجماعة.

ثم قام وخرج من عذرٍ ظهر له هنالك، وكان غرضه في المقام أكثر من ذلك، وقد قلت متحدثاً بتلك النعمة، حاكياً ما وقع ثمة:

وإنَّ من الفـضل الذي مَنَّ ربنا
عليَّ به في مكة بعـد حـجـتي
أتيـتُ لبـيت الله ثم دخلتـه
إذا بابن عـبـد الله أقـبل في الوقتِ
وصلى إلى الركن اليـمـاني بقـربه
وقـام وصلى للعـمـودين بالثـبتِ

وبـالمـوضـــــعين هـا أنـا عـن يمـينـه
أصلي إذا صلى وأجلس في البـيـتِ

ولما خرجنا ذهب من فوره إلى منى فوصل إليها قرب الزوال، ونلنا بحمد الله خير سؤال، وعاد عيدنا بها من أعذب الموارد، لكل صادر ووارد، ونعم ربنا علينا ظاهرة، وخيراته لدينا متكاثرة.

ثم نزعنا ثياب الإحرام وبتنا يومين بمنى، وبلغنا بفضل الله المنى، وحق لنا البشارة والهنا، وكنا نقصر بها الصلاة.

ثم من الغد، وهو يوم الأحد، عند وقت الزوال ذهب سيدنا والأصحاب لرمي الجمار، بعد أن التقطوا ما يكفيهم من الأحجار، فرمى الجمرة الأولى وهي التي تلي مسجد الخيف سبع حصيات، قدر حصى الخذف، من جهة المسجد المذكور مستقبلاً طريق مكة، مكبراً مع كل حصاة، ثم تقدم أمامها ووقف ونحن وراءه مستقبلين القبلة، ورفعنا أيدينا فدعونا الله ساعة طويلة، ثم أتينا الجمرة الوسطى فرميناها بسبع حصيات أيضاً مع التكبير لكل واحدة مستقبلين طريق مكة من جهة المسجد.

ثم تقدمنا أمامها وجعلناها عن يميننا ورفعنا أيدينا للدعاء مثل الأولى، ثم أتينا جمرة العقبة ورميناها من الموضع الذي رميناها في يوم النحر، ثم ذهبنا إلى مسجد الخيف، ويعرف اليوم بمسجد سيدنا علي كرم الله وجهه، فصلينا به الظهر بالقبة التي هنالك وسط الضحى، وقد ذكروا أنها موضع خيمة النبي ﷺ في حجته».

وبعد حديث عن فضل مسجد الخيف عاد القادري إلى يوميته ليقول: ثم في الغد، وهو يوم الاثنين الثالث عشر من ذي الحجة، ذهبنا عند الزوال ورمينا الجمرات الثلاث على الصفة المتقدمة، ثم تعجل الناس إلى الحرم، وانصرفوا إليه ﴿**فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾.

وسرنا نحن مع سيدنا إلى مسجد البيعة قرب جمرة العقبة في شعب عن يمين الذاهب من منى إلى مكة، سمي بذلك لأن الأنصار رضي الله عنهم بايعوا رسول الله ﷺ هنالك بموضعه، وهو مذكور في «شفاء الغرام»، فصلينا به الظهر وكملنا الصلاة، وكان

إمام الصلاة حينئذ الشريف أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الحسني، وهو الذي كان يصلي بسيدنا بمنى غالباً.

ثم وصلنا إلى مكة المشرفة عند العصر، وكمل - والحمد لله - حجنا، وأحوالنا مجتمعة لما كانت وقفتنا بالجمعة!

وبعد أن ينقل نصوصاً عن فضل الوقفة يوم الجمعة للشيخ خليل في «مناسكه»، وعن الشيخ زروق في «تحفة المريد»، يذكر أن الشيخ - وهو بمنى - قام بزيارة الغار الذي يقال: إن سورة المرسلات نزلت به على الرسول ﷺ، وقد زاره سيدنا مرتين.

وبعد هذا يعود القادري إلى مدح شيخه ابن عبد الله معن بنظم يؤرخ في آخره لهذه الحجة بحرفي (شق) أي عام مائة وألف:

وعمرت أوقات أيامه
وحج بها عام (شق) الحجاز

قال: ولما رجع سيدنا إلى مكة واستقر به المنزل زار كثيراً من أهلها، لم يعرفوه وهم عنه بمعزل، تضوع عبير نسيمه وفاح، وانتشر عرفه بين تلك البطاح، فأتاه الناس على طبقاتهم من أكابرهم وسوقاتهم، فكان يأتيه الأشراف والفقهاء والفضلاء والصلحاء من أهل مكة والمجاورين بها بقصد التبرك والزيارة والمجالسة والاستشارة، وهو ضنين بأوقات تلك الأيام حريصاً على قلة المخالطة والكلام، شديد الحرص على الأدب والاحترام... وملازمة المسجد الحرام، مواظب على الصلوات الخمس فيه وما يتبعها من النوافل... وأما طوافه بالبيت فمتتابع ومسترسل، لا سيما في الليل؛ إذ كان يستغرق الأوقات يلازم العبادة بتلك الأماكن والجهات.

وكان إذا فرغ من الطواف ليلاً وشفع، صلى ركعتين لكل جهاته الأربع، وكان يكثر القيام بالملتزم، ويمر بالحطيم ويدخل قبة زمزم، ويشرب من مائه ويشبع، ويكثر منه ويتضلع، ويقف للدعاء بالمستجار، وخارج الحجر قبالة الميزاب عند الجدار، وبكل مكان يظن به الإجابة، وبآثار النبي والصحابة.

قال: والحطيم هو ما بين الحجر الأسود وزمزم ومقام إبراهيم والحجر... والمستجار ما

بين الركن اليماني إلى الباب المسدود خلف الكعبة.

وبعد هذا يتخلص لذكر المشاهد التي زارها شيخه: قبة السيدة خديجة... مولد الرسول ﷺ وعليه قبة خضراء «مثل العمارية عندنا صورة وقدراً»... ودار خديجة... على نحو ما قال التقي الفاسي في «شفاء الغرام»: وهي بموضع يقال له زقاق الحجر... ودار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي... وتعرف بدار الخيزران.

وكان سيدنا ـ يقول القادري ـ يجلس بالمسجد الحرام في غير أوقات الطواف أو عند الفراغ منه مستقبلاً البيت تارة بالمقام المالكي، وتارة عند المقام الحنفي، وتارة بالقرب من الباب الموالي لمنزله، وربما جلس في غيرها من المواضع.

وكان يكرم الشرفاء، ويعطي المساكين والضعفاء، وكان أجود ما يكون، يطعم الطعام، ويفيض الإنعام، ويتصدق على الدوام.

وبعد حديث عن توجيهات الشيخ لبعض الغافلين، ولقائد الركب المغربي، قال: ولما كان يوم الخميس الخامس عشر من ذي الحجة أخبرنا ـ معشر الأصحاب ـ أن سيدنا أراد أن يعتمر ليلاً، فتهيأنا للتعرض له، والاجتماع به، والاعتمار معه، فصلينا جميعاً العشاء من ذلك اليوم بالحرم الشريف، ورجع سيدنا إلى منزله فاغتسل وتجرد من مخيط الثياب، ولبس ثياب الإحرام، وفعل الناس مثل فعله بسرعة، ووقفوا قرب بابه ينتظرونه، فخرج عليهم راكباً على بغلته، لابساً ثياب إحرامه التي أحرم فيها في حجته، فسار وسرنا معه بأجمعنا ـ لله الحمد ـ حتى وصلنا التنعيم، موضعاً على فرسخ من مكة به مسجد وأخصاص وماء، فنزل مَن كان راكباً، ودخلنا مسجده، وصلينا ركعتين وأحرمنا بالعمرة من هنالك، وهي سنة مؤكدة مرة في العمر، كما أن الحج فرض مرة في العمر أيضاً، وركب سيدنا ومن له دابة وجئنا معه نلبي، ونذكر الله ونصلي على رسول الله ﷺ، وسررنا أن كانت ليلة الجمعة، وجماعة الأصحاب مجتمعة، فقصدها الناس للاعتمار من جميع الأقطار، وكنا نمر بهم ونلقاهم ونسمعهم ونراهم، وكانت ليلة مقمرة مضيئة نيرة، فلا تسأل عن مسيرنا بذلك البساط، وما كنا عليه من الفرح والانبساط، ونحن آتون البيت الحرام لبلوغ تمام المرام، سائرين على تلك التبعية مكثرين من التلبية، حتى وصلنا

مكة ودخلناها، وأتينا المسجد الحرام والبيت وطفنا سبعاً مع سيدنا، وصلينا ركعتي الطواف خلف المقام، وخرجنا للسعي على باب الصفا، فأتيناها ودعونا وسعينا أيضاً سبعاً كالطواف في الحج كما تقدم، ثم حلقنا الرؤوس، وطابت النفوس، ومن الغد حلق سيدنا رأسه وقد تمت لنا جميعاً العمرة، وكملت لنا ـ والحمد لله ـ المسرة.

وما زال سيدنا على حاله بمكة في بقية تلك الأيام، متراسل الطواف والطاعات، متواصل العبادات ونوافل الخيرات في الليل والنهار، حتى توجه إلى المصطفى المختار.

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من ذي الحجة خرج الركب المصري من مكة فخرجنا معه بعد أن صلينا الجمعة، ولما فرغنا من الصلاة جاء سيدنا إلى البيت (الحرام) وقبَّل الحجر الأسود ونوى الوداع وطاف سبعاً، وصلّى ركعتين، وقام بالملتزم ساعة يدعو ويتضرع رافعاً يديه، ثم انصرف فاتبعته فتوجه ناحية الباب الموالي لمنزله فمر بالمسجد بجرة مملوءة من ماء زمزم عندها كوز، فأخذه وأفرغ منها وشرب، ثم ملأ وشرب حتى روي، وناولني الكوز فشربت، وما زلت أشرب المرة بعد المرة حتى لم أجد له مسلكاً!!

وسرت في أثره وخرجنا على ذلك الباب، وسار إلى منزله فوجد أصحابه يجمعون الأثقال، ويحملون على الجمال، فوقف معهم حتى فرغوا من ذلك، ثم ركب دابته، وخرج من مكة ونحن معه على باب الشبيكة... وسرنا مع الركب المصري، نقيل بالنهار، وبالليل نسري لحرارة الحجاز وصعوبة المجاز، فنزلنا بعد العشاء مر الظهران، حيث تنزل الركبان، وتركنا مكة الأمينة، وتوجهنا نحو المدينة، ولولا زيارة سيد العرب والعجم لما هان علينا فراق الحرم والملتزم وزمزم.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة القادري

الدلائي ١١٤١هـ / ١٧٢٩م

ما كان لنا أن نتخطى الوقوف عند رحلة الدلائي الذي ينتسب ـ كما نرى ـ إلى زاوية كان لها صيت قوي في أواخر دولة السعديين وأوائل العلويين قبل أن يكسر شوكتها ـ أي الزاوية ـ السلطان المولى رشيد، ويستقدم علماءها إلى فاس، حيث حظي النابهون منهم بالتقدير من لدن طلبة العلم ورجال الفكر؛ لأنهم ـ أي الدلائيين أنفسهم ـ كانوا أيام ازدهار زاويتهم يستقبلون من يرد عليهم من الطلبة والعلماء بحفاوة ما عليها من مزيد(١).

وقد كان من بين العلماء الدلائيين الذين حظوا بشهرة واسعة في العهد العلوي أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الدلائي (مؤسس الزاوية).

هذا السيد تلمذ لكثير من الشخصيات العلمية البارزة من أمثال قريبه الشيخ محمد المسناوي الذي ينحدر هو الآخر من الشيخ أبي بكر، كما أخذ عن الحسن بن رحال المعداني وعبد السلام بن الطيب القادري... وقد أهلته فصاحته وجهورة صوته للقيام بالخطبة يوم الجمعة في المدرسة البوعنانية وبجامع الشرفاء من فاس.

وفي سنة ١١٤١هـ / ١٧٢٨م عزم على الحج والإقامة بالشرق في آخر أيامه، فباع جميع ممتلكاته وغادر وطنه صحبة الركب المغربي المتوجه للحجاز... فقد سمعنا له رحلة منظومة تحمل عنواناً جميلاً: «تحريك الساكن وتهييج الشوق الكامن إلى زيارة

---

(١) ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب: عبد القادر الجلادي، الرباط، ١٣٩٧هـ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر عام ١٩٧٧م، ص ٢١٣–٢١٥. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص٣٨٠. د. التازي: ليبيا في رحلة الوزير الإسحاقي، ص ٣٦، تعليق ٢. د. حجي: الزاوية الدلائية، طبعة جديدة، ص ٢٦٥. انظر: البدور الضاوية في التعريف بالسادة أهل الزاوية الدلائية، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ٢٦١د، الفصل الثاني في ذكر الشيخ محمد ابن الشيخ محمد المرابط الدلائي، ص ٤٤٨–٤٥٧ إلخ. السلوة، ج٢، ص٩٠–٩١، المنوني: ركب الحاج المغربي، ص ٧.

طيبة ومَنْ بها ساكن»، عبارة عن أشعار في مناسك الحج تبلغ نحو مئتي بيت، نسبها إليه أبو عبدالله محمد بن أحمد الفاسي الفهري في شرحه لنظمه «درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان» المحفوظ بالخزانة العامة تحت رقم ١٤٣٢ك.

وقد حضر موسم الحج فعلاً لسنة ١١٤١هـ / ١٧٢٩م، لكنه بعد أن أدى الفريضة وهو في بداية طريقه من مكة إلى المدينة أدركه أجله بعد أن عثر به جواده، وكان مدفنه قرب وادي فاطمة.

وقد خلف محمد بن عبد الرحمن هذا طائفة من المؤلفات علاوة على قصيدته حول الحج، مثل «الزهر الندي في الخلق المحمدي» و«فخر الثرى بسيد الورى»، و«درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان»[1].

---

(١) إلى جانب منظومة محمد بن عبدالرحمن في مناسك الحج، نذكر أن الشيخ محمد بن محمد المرابط الدلائي المتوفى بفاس سنة ١٠٩٩هـ / ١٨٨٨م، نظم قصيدة من مئة وستة وثلاثين بيتاً سماها «الرحلة المقدسة»، رتبها على منازل ركب الحاج الفاسي من باب الفتوح بفاس إلى المدينة المنورة.

الغنامي ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م

هذه رحلة لقاضي تامسنا لأبي زيد عبد الرحمن المدعو رحو بن أبي القاسم المزامري الشاوي الغنامي المتوفى بعد سنة ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م، وهي تحمل عنوان «رحلة القاصدين ورغبة الزائرين»، ذكر هذه الرحلة الإفراني في كتاب «صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر». ونقل عنها هذا الإفراني في كتاب «نزهة الحادي» معلومة تاريخية عن العلاقات المغربية البرتغالية عندما كان البرتغال يحتل مدينة البريجة(١).

وفي هذه الرحلة يصف الغنامي رحلته لقضاء فريضة الحج، ويمهد لذلك بإيراد طائفة من الأحاديث والأقوال المأثورة حول الموضوع.

وقد وصل إلى مكة المكرمة من باب المعلى، ودخل المسجد الحرام يوم الأحد السادس من ذي الحجة سنة ١١٤١هـ / يونيو - يوليو ١٧٢٩م، وقام بالحديث عن مناسك الحج منذ وصوله إلى رابغ، وهو يبين لنا حكمة التلبية والوقوف بعرفات ورمي الجمار.

وقد زار الغنامي بمكة جميع الأماكن والبقاع المقصودة للزيارة، مثل: قبر السيدة خديجة، والمكان الذي ولدت به السيدة فاطمة الزهراء، كما زار عدداً من قبور أكابر الصحابة والتابعين قبل أن يقوم بزيارة المدينة المنورة بما تحتضنه من مقابر ومشاهد... ثم يقصد الإسكندرية ليأخذ مركبه إلى تونس إلى أن قدم مدينة تطوان في الرابع والعشرين من شوال سنة اثنتين وأربعين ومئة وألف / أواسط مايو عام ١٧٣٠م.

وتبتدئ الرحلة بقوله: «الحمد لله العظيم ذي الجلال والإكرام، المان علينا بنعمة الإيمان والإسلام».

وعلى الرغم مما لحق المخطوطة من بتر، فقد رأينا أن نستخرج بعض ما في بعض صفحاتها(٢)؛

---

(١) روى الإفراني في رحلة القاضي الغنامي ان قبطان البريجة البرتغالي عقد المهادنة مع أهل أزمور لمدة معينة، وفي هذه الفترة أمرت زوجة القبطان زوجها أن يخرج بجيوشه ويبعث لقائد أزمور المغربي ليخرج بجيش المسلمين من أجل تنظيم ألعاب مشتركة فيما بينهم حيث تتفرج عليهم، وحدث أن حمل برتغالي على مغربي فقتله، فلكم القائد المغربي القبطان وأخبره بما وقع، فأجابه القبطان مستهزئاً ساخراً: فما يضركم أن مات شهيداً. نزهة الحادي، ص ٢٦٨.

(٢) المخطوطة بالخزانة الحسنية بالقصر الملكي، ص ٥٦٥٦. انظر فهارس الخزانة، ج١، ص ٥٥٩.

لنقرب الصورة للقارئ حول هذه الرحلة. قال: وأما الحكمة في التلبية فلأن الإنسان إذا ناداه إنسان جليل القدر أجابه بالتلبية، فكيف بمن ناداه مولاه الملك العلام، ودعاه إلى جانبه ليكفر عنه الذنوب والآثام. قال: ومما قيل:

عبد دعاه لقربه مولاه
فأجابه باللطف حين دعاهُ
وأتى يلبِّيه بفرط تذلُّل
يا فوزه بالربح إذ لبَّاهُ

وأما الحكمة في الوقوف بعرفة وأخذ الجمار من المزدلفة، فإن فيه أسراراً لذوي العلم والمعرفة، وكان العبد يقول: حملت جمرات الذنب والأوزار، وقد رميتها في سبيل طاعتك... أنت العزيز الغفار... وأما الحاجة إلى حلق الرأس بمزدلفة فإن حكمته بالغة... إن فيها يقظة وتذكيراً... لأن الحاج إذا وقف بعرفة، وذكر الله عند المشعر الحرام، وضحَّى بمنى، وحلق رأسه، طهر بدنه من الأدناس والآثام، وكتب الله له ثواباً، وضاعف له أجوراً... ووقاه جحيماً وسعيراً. قال: ومما قيل:

إلى بابكم سعيي وإني مقصرٌ
فقير إليكم فارحموا ذلة العبد
فإن تطردوني ليس لي غير بابكم
وإن أنتم جدتم عليَّ فيا سعدي

ثم لما كان الثامن من ذي الحجة الحرام (يوليو) توجهنا مبادرين لطاعته بعد صلاة العصر إلى جبل عرفة، للموقف الأكبر والمشهد الأنور، محل الرحمات، ومجمع البركات، وموطن إجابة الدعوات، ملبين متضرعين لله رب العالمين، فنزلنا ليلة التاسع بمنى إلى الثلث الأخير من الليل، ثم ارتحلنا إلى عرفة، فوصلنا إليها قبل طلوع الفجر، وزرنا في أثناء الطريق الجبل الذي فيه غار حراء، وهو محل ابتداء نزول الوحي الذي أنزل الله فيه ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...**﴾.

وجمعنا بين الظهر والعصر جمع تقديم... ثم توجهنا تجاه الإمام بالقرب منه، وأنعم

الله علينا بمجاورة كسوة الكعبة وكسوة النبي ﷺ، وبقينا هناك إلى أن تحقق غروب الشمس خاضعين مفتقرين طالبين... وهو موضع تنزل فيه البركات، محل الأبطال، ومجمع الرجال، وهو المشهد الأكبر الذي أنزل الله فيه على نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾.

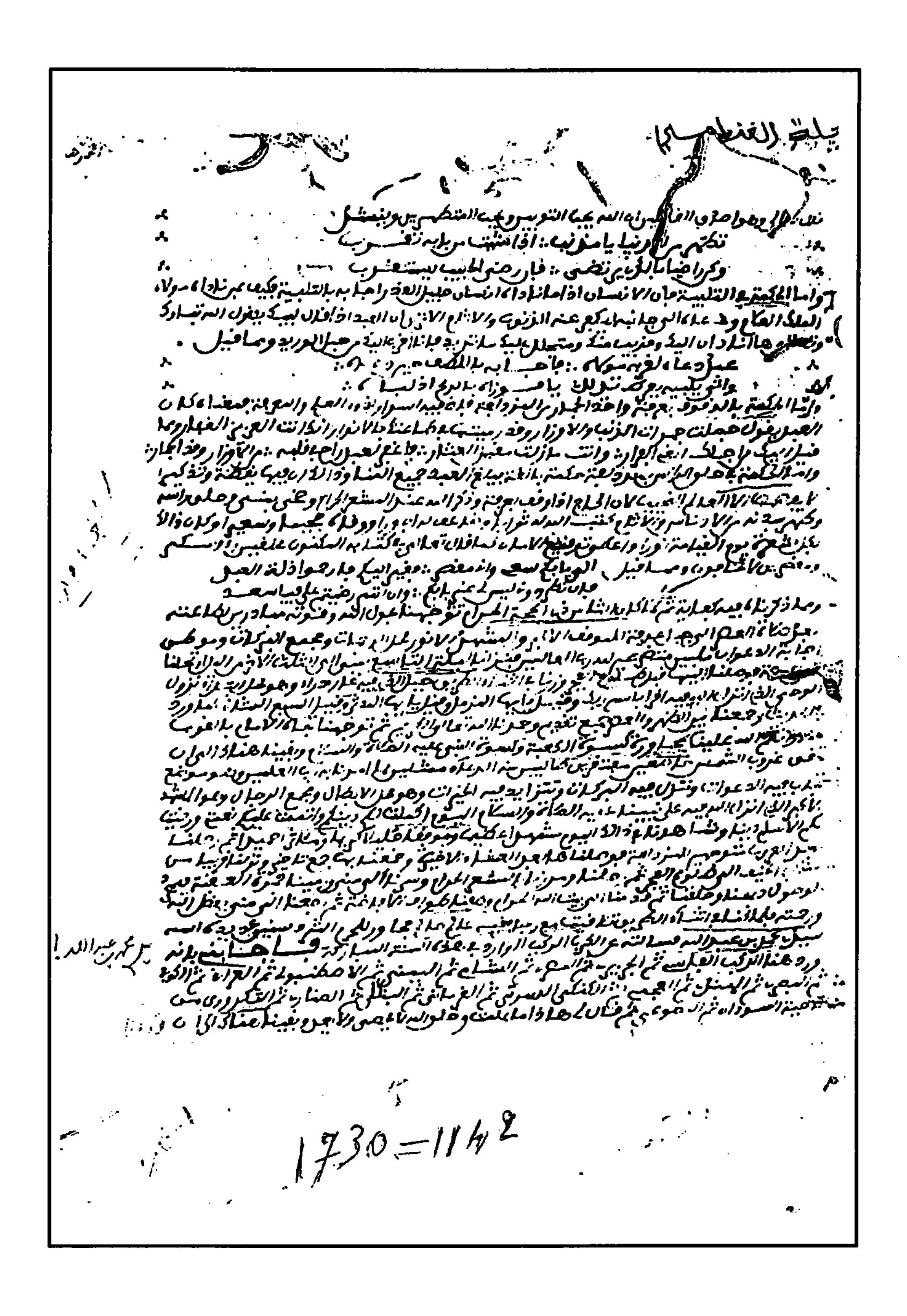
ثم رحنا بعد الغروب متوجهين للمزدلفة، فوصلناها بعد العشاء الأخير وجمعنا بها، جمع تأخير، ونزلنا قريباً من مسجد الخيف إلى طلوع الفجر، ثم رحلنا ومررنا بالمشعر الحرام وسرنا إلى منى ورمينا جمرة العقبة... فبمجرد الوصول ذبحنا وحلقنا، ثم قدمنا إلى بيت الله الحرام، وطفنا طواف الإفاضة، ثم رجعنا إلى منى.

وهنا يتحدث الغنامي عن بعض من لقيهم في هذه الأثناء، فيذكر أنه لقي أحد رجال الفقه والعلم من المجاورين هناك لعدد من السنين، وهو يحمل اسم سيدي محمد بن عبد الله، فسأله عن عدد الأركاب التي وردت في هذه السنة، فأخبره بورود الركب الفاسي، ثم الجزيري، ثم المصري، ثم الشامي، ثم اليمني، ثم الإسطنبولي، ثم العراقي، ثم الكوفي، ثم البصري، ثم الهندي، ثم العجمي، ثم الكنكي، ثم المسرتي، ثم الغرباوي، ثم السينكالي، ثم الصناري، ثم التكروري (السودان)، ثم المصوعي، مختتماً كلامه بقوله: هذا ما علمت، وخلق الله لا يحصى ولا يعد.

وبقينا هناك إلى أن قدمنا مع سيدنا العلامة فريد وقته وعصره... الحاج محمد بن عبد السلام بن ناني الفاسي، فسح الله في عمره... مع جماعة من الفقهاء إلى مسجد الخيف، حيث قضوا فترة من الزمن في العبادة والتوسل.

بعد هذا توجهوا إلى غار المرسلات... ثم بعد الجمرات رجعوا إلى مكة، وبمساعدة من رجل من أهل الصلاح محمد السجلماسي قام الغنامي بزيارة عدد من المشاهد المقصودة للزيارة، معلقاً على كل منها بما يروى في التاريخ أو بما يسمعه من دليله[1].

(١) مخطوطة رحلة الغنامي بالخزانة الحسنية، ص ٥-٦.



إحدى صفحات مخطوطة رحلة الغنامي

سيدي سعيد المنداسي ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م

نرى من واجبنا ـ وقد أخذنا على عاتقنا أن نحاول استيعاب مسرد لأدب الرحلات المغربية إلى الحرمين الشريفين ـ ألاَّ ننسى نمطاً من هذا الأدب، لا يعتمد على الفصيح من القول، ولكنه يعتمد على ما يعرف تحت اسم «الملحون»، هذا الملحون الذي خصصت له التآليف من كل حجم، وبكل لغة[١].

وسيدي سعيد المكنى بأبي عثمان هو ابن عبد الله المنداسي الشريف التلمساني، وقد أدركه أجله في سجلماسة بعد سنة ١١٥٠هـ.

ويذكر الناصري في «الاستقصا»[٢] أن المولى محمد ابن الشريف (محمد الأول) من ملوك الدولة العلوية أعطى لسيدي سعيد بو عثمان المنداسي خمسة وعشرين رطلاً من الذهب على قصيدة نالت إعجاب العاهل المغربي.

والمهم أن نذكر هنا أنه مدح الكعبة المشرفة بقصيدة طويلة تعرف بليلى.

ويعلق الأستاذ الشيخ أحمد سهوم ـ وهو من كبار الممارسين المتذوقين العارفين بالملحون ـ يعلق على اختيار اسم ليلى كرمز للكعبة بقوله: إن أربعة أخماس غزليات الملحون التي تندرج تحت أسماء نسوية معينة، مثل: ليلى وفضيلة وشامة ومالكة... إلخ[٣]، كلها تعني مكة المشرفة. ويضرب من جملة الأمثلة على ذلك ما قاله الشيخ سعيد المنداسي (١١٥٠هـ / ١٧٣٧م) في مكة المشرفة في قصيدته المعنونة ليلى:

بمحبتها القلوب تسلى

تسقي العاشقين خمراً ختيم حلال

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، بمجلداتها المتتابعة الصادرة عن أكاديمية المملكة المغربية ابتداء من شعبان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، بيروت، ١٩٧١م، ص ٧٥.

(٢) ج ٤، ص ١٥.

(٣) محمد الفاسي: معلمة الملحون، مئة قصيدة وقصيدة، ص ١٦٤.

خلة ما كيفها خليله

بمحاسنها أهل الفضل تضرب الأمثال

ليلى ! يا من يريد ليلى

أيا يا من ابغى نزورا ذات الخال

ليلى يا زايرين ليلى!

نتمنى في الزمان حضرة

في البقعة الطيبة أمع الناس الحيين

وكيوس الزنجبيل تترى

وأصوات أتردد المعاني صوت احنين

تارة تنشي السبكا وتاره

بين الصفين تطرب وتقر العين

ليلى يا زايرين ليلى!

نهواها لو أكثر ابلاها

كذب من يدعي المحبة دون الروع

وإذا ينحاشى لي أهواها

يعمل في القلب ما ابغى نعطيه الطوع

حسن أن يسبى العقل أبهاها

عندي من شكرها المطرز كمن نوع!

ليلى يا زايرين ليلى!

نهواها روضة المحاسن

من لا قبلت أعلى اعرب في فج عميق

ما كبرت في لحضر المداين

ما برزت في أمزلجت بنيان أشريق

مــا حــجــبــت مــثـلهــا اســلاطين

عجزت الأمثال والشكل من كل افريق

ليلى يا زايرين ليلى!

أنا من حــــبــــهـــا امـــتــــيم

والناس ايعــاينوا دليلي به الغـــيـــر

ذات الجـــاه الحـــفـــيل الأعـظم

طب الحيران ما لها في الأرض نظيـرا

قلبي في غــــيـــــرها امـــسـلم

لو كـان من الرياض الأزهر هي خـيـرا

ليلى يا زايرين ليلى!

أنا قلـبي أيـريـد هـيـــــفـــــا

مـوصـوفـة في الكتب تفـز لاتـذكـار

رحــمــة الإسـلام جـهـر واخـفـا

ذات الحسن المشرفة بهجة الأسرار

نـبـــــغي منهــــا أتـكـون زلفـى

تسـعـد ببـشـاير المنى وبعـقـبى الدار

ليلى يا زايرين ليلى!

يـقـض جـــــــفـنـك ورد بـالـك

واسمع ما قال في القصيدة بوعثمان

وابسط المشكلات حـــــالك

واسمح في ما اختل واتفضل بإحسان

واعـلـم إذا الـزمــــان خـــانـك

يدفع لمحـــاينه ويذهب بالسلوان!

ويؤرخ سيدي سعيد لنظم قصيدة ليلى بسنة ١٠٠٧هـ فيقول:

هاك الدر النفيس الأزهر

مما ركب سعيد في سلك اليبريز

في مولود الأبطحي المطهر

شهر أربيع الفضيل عند الناس عزيز

سبع سنين شاع واظهر

بعد الألف عام باح بألفاظ التمييز

فيمن نهوى أنشيت حلة

بالنظم المشرقي اتخابرها الأفضال

بين أيدين الملوك تتلى

محبوب عن ذكرها تنصت الأقوال

بالحمد كملت القصيدة

في شكر الباهية الشريفة بيت الله!

مختصره طيبة امفيدة

بألفاظ أمرونقة ابديعة عند الله

من دار دفعت الجريدة

ذات الحسن الشريف الأسعد سيف الله

ليلى يا زايرين ليلى!

استيقظ باعشيق لي

هي الكعبة المشرفة مولاة الخال!!

بها بين الصفوف نسلي

كيما يسلي الظمي من الماء طيب زلال!!

وقد كان من قصائد سيدي سعيد القصيدة التي تحمل عنوان العقيقية التي نظمها بعد حجه وأرخها عام ١٠٨٨هـ: عام حشف من الطي أبرزتها في شعبان[١].

---

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، ترجمة شعراء الملحون، ص ٢٥٢.

وهذه القصيدة هي التي شرحها الأستاذ بوراس المعسكري، وقد نشرها الجنرال الفرنسي فوربيكي Forebiguet مع ترجمة فرنسية بالجزائر عام ١٩٠١م. وكان المنداسي ـ كما هو معروف ـ هاجر تلمسان إلى المغرب، ولحق بدولة المولى الرشيد ابن الشريف.

وقد وصفه صاحب «الاستقصا» بأنه متفنن، وله الباع الطويل في العلوم ونسيج الملحون. وقد ذكره الأستاذ قاضي محمد في كتابه «الكنز المكنون في الشعر الملحون» (الجزائر ١٩٢٨م)، فقال: إنه كان شاعراً مؤنساً للسلطان المولى إسماعيل، وله فيه قصيدة.

ولا نودع سيدي سعيد الذي أطلق على مكة اسم (ليلى) وأطلق على الحجر الأسود اسم «الخال» دون أن نذكر أن الشيخ الحاج أحمد الغرابلي الذي عاش أوائل القرن الرابع عشر الهجري هو الذي أطلق على الكعبة اسم مالكة:

أراية الملاكة يا مولاتي الهالكة

ليك العبد وكل ما ملك، انصروا مالكة

حمالت المليك![1]

ودون أن نقتطف كذلك أبياتاً من قصيدة للهادي بناني دفين فاس عام ١٩٢٥م[2]، وهي قصيدة مشهورة على نحو اشتهار قصيدة الحرم يا رسول الله، بعنوان (هاض علي وحش الرسول) وحربتها على النحو التالي:

جيت مزاوك في حماك، جد يا نور الهدى طه

أبحر التعظيم والفضل يا رسول الله!

لعندك نسير فوق عشاري يتباهى

لمكة ذات الجمال من حازت عز وجاه

في رابغ نحرم كيف أمرنا نبينا طه

ونلبي ونطوف كيف طافوا عباد الله

ونقبل حجر الاسعاد، المراغب نستوفاها

ونزيد بشوقي لبير زمزم نروي من ماه

---

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، تراجم الشعراء، ص ٢٥٢-٢٥٦.

(٢) محمد الفاسي: معلمة الملحون، تراجم شعراء الملحون، ص ١٢٨-١٢٩.

مـا بين الصـفـا والمروة روحي مـا ابقـاها

نتوسل لسامع الدعاء مقصودي نوفاه

نطلع لجبل عرفة المبهاج

ونفوز بالنجا

ندرك مقام رفيع وادراج

في الضي والدجى

نتسمى في الحين بالحاج!

ويكمل الرجا!![1]

منجم غني وثري حول الرحلة إلى الحرمين الشريفين في شعر الملحون.

وهو يختلف من شاعر إلى آخر، فمنهم من تيسر له الوصول فناجى الكعبة وهو في رحاب البيت الحرام، ونذكر من النماذج ما نظمه الشيخ ابن عبود والد أخينا الراحل الدكتور المهدي بن عبود:

راقت الروح ورق القلب عند رحاب الكعبة

وكل مـا في يا تسعـادي ضل يلبي

ومن الشعراء من حج وعاد، لكنه كلما دار الحول عاوده الحنين، فيقول شعراً جديداً على نحو ما نجده عند ابن ريسول عندما يقول:

شوشوني يا با منين طافوا بالكعبة

وعند الزهراوي عندما ينشد:

مكة يا لالي

غيرك ما يحلالي!

أما الفريق الثالث فهو يحلم بالوصول ويتشوق ويتحرق. وحسبنا أن نسوق هذا البيت من عشرات القصائد التي تتناول الموضوع:

همـا شمـوا من الكعبة جل الطيب

وأنا شميت ريحة شياط قليبي!!

---

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، ص ٣٦٥.

الأميرة خناثة أم الأشراف ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م

الأميرة خناثة بنت بكار زوجة السلطان المولى إسماعيل مؤسس الدولة العلوية، أم السلطان المولى عبد الله، جدة السلطان محمد بن عبدالله (محمد الثالث). من الأميرات العالمات اللاتي أسهمن في حياة المغرب الفكرية والسياسية كذلك. وقد قامت بحجتها التاريخية هذه عام ١١٤٣هـ / ١٧٣١م بصحبة حفيدها محمد الثالث. أدركها أجلها بفاس سنة ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م.

وقد قام بتسجيل رحلتها الوزير أبو محمد عبد القادر الجيلاني الإسحاقي الذي كان في صدر الركب الرسمي.

وأحسب الإسحاقي متأثراً بالعبدري في تحاملاته، أكثر من تأثره بالعياشي في مجاملاته! ويتجلى باعه من الناحية الفقهية في الفتوى التي حررها بمكة المكرمة حول جواز تملك العقار بالبلد الحرام، بطلب من الأميرة المغربية المذكورة.

وهكذا فإن لهذه الرحلة طابعاً خاصاً؛ لأنها إلى جانب أنها رحلة حجازية، لكنها من جهة أخرى رحلة رسمية ترأسها أميرة نابهة فاضلة كان لها دور كبير في صنع الحياة السياسية بالمغرب، لصلاتها بملوك المشرق وقادة إفريقية وملوك أوروبا... وقد كانت هي كل شيء في الرحلة على ما نشعر به في النصوص التي بين أيدينا والتي تنعتها "بأم سيدنا"(١).

وسنخصص حديثاً في الرحلة لمقام الأميرة بمكة وقيامها صحبة الركب بمناسك الحج... ننقل ذلك بالحرف لتعميم الفائدة، ولكون نص الرحلة لم ينشر بعد.

«... وسبقت "أم سيدنا" ـ نصره الله ـ قبل ارتحال الركب المغربي، فأناخت بذي طوى

---

(١) د. عبدالهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة ١٩٧٦م، ص ٨٧-١٠٢. د. التازي: المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، ص ٢٠٣ وما بعدها، نشر الفنك، الدار البيضاء، ١٩٩٢م. هذا وقد دفنت بمقبرة السلطان المولى عبد الله إلى جانب لالة مباركة والدة مولاي إسماعيل.

وصلَّت به المغرب، وتهيأت لدخول مكة، وكنا فيمن تقدم معها، فدخلنا مكة عشاء على ثنية كَدَاء التي تشرف على مقبرة الحجون، وذلك ليلة السادس من ذي الحجة الحرام من السنة ١١٤٣ (١٢ يونيو ١٧٣١م) وأقمنا بمكة يوماً[١]، ثم خرجنا يوم التروية[٢] إلى منى - يقول الإسحاقي - ولم يقع بها مبيت كما كانت السنة، فإن هذه السنة أميتت منذ أزمان.

ثم كان دخول الأركاب إلى مكة: الركب المصري والشامي والمغربي، وهم كذلك يمرون بمنى ولا يبيتون إلا بعرفات، ينزلون بها ليلاً، ويضيعون النزول بمسجد نمرة، ونمرة جبل على اليمين إذا خرجت من مأزمي عرفة، وعليه أنصاب، وتحت الجبل غار ذكروا أن النبي ﷺ نزله، وبين الغار والمسجد ألف ذراع وإحدى وعشرون ذراعاً، قاله الأزرقي، وكنا نزلنا خلف الجبل عن يمينه وأنت مستقبل القبلة.

وقد اجتمع بعرفات، من الركاب الآتية من سائر الآفاق، من البشر جمع لا يحصي عدّه إلا الله عز وجل.

وفي معرض الحديث عن أصل اسم عرفة قال من جملة ما قال: إن آدم عليه السلام لما هبط من الجنة وقع بالهند (سرنديب)، ووقعت حواء بجدة[٣]، واجتمعا بالمزدلفة وتعارفا بعرفة!

قال: وهي بسيط من الأرض مد البصر لو كان محشراً للخلائق لوسعهم! تحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة، وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة، وفيه وحوله موقف الناس، والعلمان قبله بنحو الميلين، فما أمام العلمين إلى عرفات حل، وما دونهما حرام، ويقال: إنما بناهما الأمراء احتياطاً على الناس ألا يتقدموا فيخرجوا من عرفة قبل غروب

---

(١) د. عبد الهادي التازي: المرجع السابق.

(٢) يتجلى أن هنا بتورا ملحوظة في المخطوطة فلا حديث عن الطواف والسعي... وسيتجلى أن الأميرة وقد دخلت مكة في محملها في اليوم السادس... فتحت لها الكعبة، وقامت بالطواف والسعي قبل أن تقصد منى، وذلك من خلال نص الإسحاقي الآتي الذكر، ومن خلال الشهادة المهمة التي حررها شيخ الحرم الإمام الطبري، ويبدو أن الأميرة دخلت الكعبة مرة ثانية لما فتحت للعموم بعد عودتها من عرفات.

(٣) تراجع رحلة ابن بطوطة، تحقيق: د. التازي، ج٤، ص ١٧٩، تعليق ٢٦١.

الشمس، فأوهموهم أن العلمين حد عرفة، وهما في وسطها؛ حتى يكون من تعجل لا يخرج من عرفة إلا بعد الغروب... وبمقربة منهما مما يلي عرفات بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه... والواقف في بطن عرنة لا يصح حجه، فيجب التحفظ من ذلك... والمتحفظ لا ينفر من الموقف حتى يتمكن من سقوط قرص الشمس.

وجبل الرحمة المذكور منقطع من الجبال، قائم من البسيط، وهو كل حجارة منقطعة بعضها على بعض، وكان صعب المرتقى، فأحدث فيها بعض ولاة الخير أدراجاً وطيئة من أربع جهاته يصعد فيها بالدواب الموقورة.

ولما جمع الناس بين الظهر والعصر تهيؤوا وتجملوا للوقوف خاشعين باكين متضرعين، والتكبير قد علا، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع، فما رئي يوم أكثر مدامع، ولا قلوب خواشع، ولا أعناق لهيبة الله خوانع خواضع أكثر من ذلك اليوم!!

وما زال الناس على تلك الحال والشمس تلفح وجوههم (١٥ يونيو) إلى أن سقط قرص الشمس وتمكن وقت المغرب، فأشار الإمام الخطيب بيديه، ونزل عن موقعه فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الأرض ورجفت الجبال، فيا له من موقف ما أهول مرآه، وأرجى في النفوس عقباه!.. ثم نرجع إلى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المباركة بعرفات، وكان يوم الخميس على ما ذكره، وذلك أن الناس ينفرون منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر فيصلون مزدلفة مع العشاء الأخيرة، فيجتمعون بها بين العشائين حسبما جرت به سنة النبي ﷺ.

واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كله مشاعل من الشمع المسرج والثريات، وأما مسجده المذكور فعاد كله نوراً «فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به» على حد التعبير المتداول بين الرحالين.

وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الخميس؛ لأن هؤلاء الأتراك المصريين أعظم الناس همة في استجلاب هذا الشمع والاستكثار منه أكثر إضاءة لهذه المشاهد المكرمة.

وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه، وكثيراً ما يقصدون حطيم الإمام

الحنفي؛ لأنهم على مذهبه.

وهذه عادتهم في باقي الأماكن المكرمة مثل بدر وغيره، وكذا شاهدنا من ذلك بالحرم النبوي العجب العجاب.

وقد لاحظ الإسحاقي أن هذه بدع منكرة علاوة على ما فيها من إضاعة المال على ما ذكره خليل في «مناسكه».

ومن مزدلفة يستصحب الناس حصيات الجمار وهو المستحب، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخيف بمنى، وكل ذلك واسع.

ومزدلفة أوسع وأوطأ من منى، والمشعر الحرام منها فيما يلي منى، والنزول بالمزدلفة بعد الرجوع من عرفة كما هو معروف في المناسك.

وحدّ مزدلفة مما يلي منى محسر، وهو وادٍ هنالك، وحدُّها مما يلي عرفة مأزما عرفة، وهما جبلان مكتنفان للطريق أفسح من مأزمي منى.

ومن محسر إلى مسجد مزدلفة نحو الميل، ومن مسجد مزدلفة إلى مسجد عرنة أربعة أميال.

وبعد نقاش فقهي حول حدود الموقف يذكر أن الناس لما انتهوا إلى منى بادروا إلى رمي جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم نحروا وذبحوا، ثم حلقوا وحلوا من كل شيء إلا النساء والطيب إلى أن يطوفوا طواف الإفاضة إلى آخر ما هو معتاد عند الحجاج.

وقد نفر الناس إلى مكة، فمنهم من صلّى العصر بالأبطح، ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام. ويقف للبحث حول الأبطح وهل هو المحصب مستشهداً بما أنشده الشافعي:

يا راكـباً قف بالمحـصب من منى
واهتف بقاطنِ خيفها والناهض

ويختم هذا الموضوع بقوله: إن السُّنَّة قضت قديماً بإقامة ثلاثة أيام بعد يوم النحر بمنى لإكمال رمي سبعين حصاة، لكن وقع التعجيل في هذا الزمان مخافة ما يطرأ من الفتن في منى، قد وقع ذلك غير مرة، وأصيبت فيها أموال نعوذ بالله من الفتن!

ويذكر الإسحاقي هنا أنه كان من العادة أن يقف الركب المصري بالمحمل الذي يحمل

كسوة البيت العتيق بعرفات، على نحو ما يقف الركب الشامي بالمحمل الذي يحمل كسوة الحجرة النبوية بعرفات أيضاً. . . يقفان متسامتين، وينفر الوفدان معاً نفرة واحدة.

ويذكر أن سلطان مكة الأمير عبد الله[١] وقف بإزاء المحملين. . . لكنه يسجل مع هذا حدثاً اقتضاه التنافس والتنافر بين أميري الحج المصري والشامي. . . وكان للسلطان المذكور دور في الفصل بين الأميرين «وسلم الله ذلك الجمع السالم من التغيير والتكسير والله على كل شيء قدير. . .»!

وفي يوم النحر المذكور سيقت ـ على العادة ـ كسوة الكعبة الشريفة المقدسة من محلة الأمير المصري محمد باي[٢] إلى مكة يتقدمها أهل الوجاهة، والشيبي صاحب المفتاح المبارك، والطبول تضرب من ورائها وأمامها، والرايات منشورة حذاءها حتى وصلت إلى المحل الرفيع، فتولى أمرها وتعليقها وشدها بأمراس في غاية ما يكون من الفتل والإحكام السادة الشيبيون والقائمون بذلك الوظيف من أهل البلد، فإذا البيت المبارك يؤول بزينة ما رأى الراؤون مثلها حسناً وجمالاً وبهاء.

وكانت الكسوة من الحرير الأسود، وفيها كتابة بخط أبيض، فيها آيات من كتاب الله بعد البسملة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، وغير ذلك من الدعاء للسلطان العثماني.

وأخذ الكسوة القديمة سلطان مكة (الشريف عبد الله) لنفسه، له في ذلك عادة معروفة، تارة يأخذها، وتارة يأخذها أمير الحاج المصري، وكملت عملية كسوة الكعبة المباركة، وشمرت أذيالها الكريمة صوناً لها من أيدي الناس وشدة اجتذابهم لها وقوة تهافتهم عليها وإكبابهم، فكأنها عروس جليت في أشرف ملابس وأحسن زينة، لا يمل أحد من النظر إليها، تستوقف الأبصار، وتعقل العجلان، وتذهل الأفكار.

---

(١) القصد إلى الشريف عبد الله بن حسن بن أبي نُمي الذي خلف الشريف مسعود الذي كان يقوم بأعمال الترميم بعد أن تعرضت الكعبة للسيل الذي تحدث عنه أبو سالم العياشي في رحلته.
أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ٨٤١ – ٨٤٢.

(٢) لا صلة لهذا الأمير بمحمد علي باشا. . راجع المصدر السابق، ص ٥٢٧.

وفي يوم النحر فتح الباب المبارك للبيت العتيق... فدخله أمير الحاج المصري محمد باي ومن معه من حاشيته وممن قدِّر له ذلك من غيرهم ممن صبر على الازدحام على الباب المبارك، فإنه يرى من تزاحم الناس على الباب الكريم وتطارحهم، ووثوب بعضهم على بعض، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غدير من الماء! أمر لم يُرَ أهول منه يؤدي إلى تلف المهج، وكسر الأعضاء، وهم في خلال ذلك لا يتوقفون بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح إلقاء الفراش على المصباح، وربما فقد في هذا المزدحم الشديد من دنا أجله!!

وكان ممن اتفق له الدخول إلى البيت المبارك مع أمير الحاج المصري صاحبنا الفقيه القاضي السيد بلقاسم العميري[1] وبعض وصفاء سيدنا، نصره الله، ولكنه على ما أخبرني به خرج بآخر رمق بقي ساعة وهو ملقى ينتظر الإفاقة من غشيته!!

وكنا نحن تأخرنا قليلاً مع ولد سيدنا، نصره الله، فلم يقدر لنا دخول البيت المبارك إذ ذاك ولا ليلة فتحوه للسيدة والدة مولانا، نصره الله، إذ كان ذلك ليلاً على وجه الإخفاء بعد الإغفاء! نسأل الله أن يتغمدنا برحمته، وأن يجزل حظنا من ثواب زيارة بيته العتيق ونظرته، وأن يجعلنا ممن يشهد له بتقبيل حجره الأسعد وتقبيل سدته.

وهنا فقط يذكر ما أسلفنا الإشارة إليه من أنهم وجدوا أستار الكعبة المقدسة مشمرة إلى نحو قامة ونصف من الجدار، من الجوانب الأربعة ويسمون ذلك إحراماً لها... ويستشهد بأبيات ثلاثة لأبي سالم سيدي عبد الله العياشي سالفة الذكر.

ويعود إلى استيفاء الخبر عن المنازل بمنى، وذكر المناسك المعظمة بها مستأنساً دائماً بسلفه العياشي، ثم يتعرض للآثار القديمة كذلك مسترشداً بمن سبقه.

ويعقد فصلاً خاصاً بعنوان: «ذكر مكة، شرفها الله، وما بها من المزارات والآثار المكرمة...».

وهو في هذا يردد معظم ما قيل عن الفرق بين مكة وبكة... وبقية أسمائها، نقلاً عن القاضي عياض في «مشارقه» وأبي الفرج ابن الجوزي، وأبي الوليد الأزرقي الذي يحكي

(١) كان القاضي ضمن الوفد المغربي. انظر ترجمته في كتابنا عن رحلة الإسحاقي، مصدر سابق.

معلوماته عن جده، والذي ظل - كما أشرنا - نعم المرجع لكل الذين كتبوا عن مكة!!
وكان مما روى من ذلك نصيحة الإمام مالك للخليفة هارون الرشيد عندما تناهى إليه التغيير الذي أحدثه بعضهم، قال مالك للرشيد: ناشدتك الله يا أمير المؤمنين، لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك...!

وقد نقل الإسحاقي أيضاً بعض المعلومات عن الرحالة ابن جبير الغرناطي قائلاً: «ومن عجيب أمرها - شرفها الله - ما جعل لها في قلوب عباده من المحبة الصادقة التي تحملهم على الوفادة عليها... ولو كان لهم في ذلك ضرب الرقاب وذهاب المال وتقطع الأسباب. إنها تسترق القلوب، وتسبي عقول ذوي النهى، حتى يقولوا: ما مسنا من لغوب!!»

وكما ذكر بعض سابقيه فإنه يقارن ويفارق بين أهل مكة والمدينة، فيفضل معاملة هؤلاء على أولئك معتمداً على شهادات صعاليك الحجاج الذين لا يملكون بغلة ولا بلغة، والذين يؤيدون هذه المقولات.

وهنا يتخلص لذكر الأسباب التي قد توجب التأخر عن الحج في هذه الأزمنة، وذكر فيها خوف عادية الأعراب، وامتهان الأتراك للحجاج وإذلالهم لهم في المصادر والموارد، ومصادرتهم في الأموال والأمتعة، وقبض الخراج منهم عن يد وهم صاغرون..! وقد شاهدناهم... وكَّلوا على مماكسة الحجاج على أحمالهم يهودياً من اليهود[1] وقبض مرتين، وربما احتاج إلى كشف بعض الخيام، بل إلى كشف الحريم لاستخراج ما عسى أن يكون قد غيب من الأغراض التي يشتبه في أنها لم تؤدَّ عليها المكوس التي لا ترتضيها أطايب النفوس..! ويكفيهم مهانة وقلة ديانة اتخاذهم - أي الأعراب والأتراك - البيت الحرام سبباً للمعيشة الحرام! يتهافتون عند الولاة على طلب التولية على الأعمال المكتسبة..!

وهنا يحكي عن نازلة مع من نعتهم بأراذل الغز (فصيلة من الترك):

لقد نزل الركب المغربي بعض المعاطن، فقام الغز واحتجزوا المعطن وحجروه عن المغاربة حتى لا يصل أحد إلى الماء حتى تروي إبلهم ودوابهم. فتقدم جماعة من أعيان الركب إلى سلطانهم فرغبوا إليه أن يخصهم ببئر واحدة أو بناحية منها يدلون دلاءهم مع الغز..

---

(١) ربما كان هذا عند حدود البلد الحرام.

فأنعم لهم بذلك وعين لهم بئراً، فما لبث المغاربة يستقون حتى أقبلت إليهم الغز بالعصي والدبابيز والسيوف فأزاحوهم عنها وبقي صعاليك الحجاج المغاربة رجالاً ونساء يستقون فلا يسقون!!

ويحكي الإسحاقي أنه لما رأى صبياً صغيراً (من الركب المغربي) يتلوى من العطش أخذ ديناراً من الذهب يريد أن يشتري به شربة ماء من البئر... فلما أعياه الطلب تقدم إلى أمير الحج المصري وكان يعرفه، وكان قاعداً على حوض والأدلاء تختلف بين يديه على حوض تسقي إبله، فقلت له: يا أميرا احتجنا شيئاً من الماء وما وجدناه حتى بالشراء وأريته الدينار... فضرب بذقنه إلى الأرض وأولاني أذنا صماء! ثم عاودته وقلت له: أنت أمير وتعرفني، أنا طالب علم، وأيهما أحق بالماء الآدمي أو الجمل؟ فاستنكر مقالتي وأخذته العزة بالإثم! وأمر الغز وأغراهم بالمغاربة وذادوهم كما تذاد غرائب الإبل عن الماء!!

ويعلق الإسحاقي على ذلك بقوله: فمن قال من علماء المغرب والأندلس بسقوط الحج عن أهل بلده واعتقده فاعتقاده صحيح؛ لهذه الأسباب ولما يصنع بالحجاج مما لا يرتضيه الله عز وجل.

وقد استمر الإسحاقي في حديثه هذا ملتمساً العذر للذين لا يؤدون هذه الفريضة.

وهنا ينقل عن مناسك الحج للشيخ خليل ما نصه: «وتشترط في الاستطاعة الأمن على النفس والمال من لص أو مكاس إذا كان يأخذ ما يجحف به، وفي سقوطه بأخذ المكاس ما لم يجحف به قولان، ورجح بعضهم عدم السقوط... وقال أيضاً: بعضهم يرى أن نفس السفر مبيح للتيمم ولو كان على الماء... وبعضهم يتساهل في الصلاة بالكلية... ومضى خليل في تعقيبه قائلاً: إن بعض الناس إنما يحج عادة أو فرجة أو صناعة أو ليقول: لي كذا وقفة، وكان سنة كذا وكذا وسنه كذا وكذا»(١).

ومن الطريف أن نجد الإسحاقي - وهو يعلق على كلام خليل - يتنبه لظاهرة تستحق الالتفات، ويتعلق الأمر بمغاربة يحترفون خدمة الحجاج ذهاباً وإياباً... وهكذا يذكر أن

---

(١) تراجع فتوى الطرطوشي وابن رشد، كما يراجع الاستقصا للناصري، ج٧، ٨٢، وسلوة الأنفاس للكتاني، ج٢، ص ١٢-١٥- ١٦- ١٨.

هناك من يساعد المغاربة من مصر إلى مكة، ومن مصر إلى طرابلس، ثم يرجع إلى مصر ويبتدئ سفراً آخر إلى الحجاز... ومنهم من يحصل على شيء من الدنيا، ويعمل منها رأس مال يتجر به.

وفي تعليقه على بعض أصحاب هاته "الوكالات" التي قد تتعرض للإفلاس قال: وما رأيت متلفة للمال مثل مصر، فإن شهواتها كثيرة ومفاسدها كثيرة، والمعصوم من عصمه الله!

وهنا يقوم بمقارنة بين الإسلام في المغرب والإسلام في المشرق، وأن المذهب المالكي وعقيدة الأشعري يحكمان القبضة في المغرب. وبعد مقارنة بين تعمق العلماء هنا وهناك حيث يصل - من وجهة نظره - إلى أنه لم يبق هناك من تُشدُّ إليه الرحال! بعد هذا يعود إلى مكة التي هي غرضنا من هذا البحث، فيذكر أن لمكة ثلاثة أبواب، يذكرها ويذكر ما جاورها.

وبمناسبة قيامه بسنة العمرة يذكر أن طفلاً من أهل مكة تعلق به ليدلَّه على الطريق كما هي عادة صبيانهم في تعلقهم بالحجاج في مقابل فضة، وأنه حين مرورهم بقبرين يقال إنهما لأبي لهب وامرأته طلب إليه الطفل أن يرجمهما، لكن الإسحاقي كان غير مبالٍ بهذه الأساطير... وقد أدى الإسحاقي أكمل وصف للطريق الذي يربط بين مكة ومسجد السيدة عائشة... وفي حديثه عن مسجد عائشة حيث ميقات المعتمرين المالكيين يذكر أن الشافعية يعتمرون من المساجد المجاوة وأن مسجد عائشة ينسب إلى علي بن أبي طالب.

وفي الفصل الخاص بالمسجد الحرام يذكر الإسحاقي بعض أوصاف المسجد تبركاً على نهج ما نعرف من كيل بالدراع أو الشبر معتمداً على ما في رحلة ابن جبير، وعلى ما أفاده به زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل(١).

---

(١) يتأكد لي أن الإسحاقي كان مشدوداً إلى التزاماته مع الأميرة، فلم يتمكن من تحقيق كل ما كان يريد، فهو يقول: «نسأل الله أن يحقق رجاءنا بتيسير الرجوع إلى هذه الأماكن حتى نستدرك ما فاتنا من هذه»، ونحن نعلم أن السفر مع الأمراء والأميرات والملوك يقتضي التضحية بما ترغب فيه النفس، ولا ينبئك مثل خبير!!

وفيما يتصل بمقام إبراهيم نجد أنه نال من وصفه حيزاً مناسباً، كذلك الحجر الأسود الذي «يتطامن إليه الطويل، ويتطاول إليه القصير»! ثم يتحدث بدوره عن أئمة الحرم الأربعة السنيين، وكان هناك ـ يقول الإسحاقي ـ قبل هذه الأزمنة خامس لفرقة الزيدية الذين قرأنا عنهم في الرحلات السابقة... ويلاحظ الرحالة أن الإمام الحنفي اليوم أخذ مكان الشافعي الذي كانت له المرتبة الأولى في عهد العباسيين... لأن الساعة اليوم ساعة الأتراك، وهم حنفية.

وللشافعي حطيم حافل خلف مقام إبراهيم، ويصلي الإمام المالكي قبالة الركن اليماني، وله محراب من حجر... أما الحنفي فيصلي قبالة الميزاب عند حطيم مصنوع له، ثم الحنبلي وصلاته مع المالكي، وصلاتهما في وقت واحد، وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني.

ويتخلص الإسحاقي بعد هذا لذكر أبواب الحرم الشريف التسعة والثلاثين على عهده، ولا نجد كبير فرق بين الأمس واليوم، وهو كسابقيه يتحدث عن الصفا والمروة ناقلاً عن كتاب (نشق الأزهار في أخبار الأمصار) لابن ياسر الحنفي (ت ٩٣٠هـ)، ويذكر السوق المزدحمة التي كانت بين الصفا والمروة والتي لا يكاد الساعون يخلصون من سعيهم لكثرة رواد السوق!

وفي معرض حديثه عن بعض مشاهد مكة وآثارها يذكر المواضع التي أشار إليها من قبله مؤكداً أنها مصونة، وقد بنيت بناءً يليق بمثلها: مولد الرسول، ودار الخيزران، ودار أبي بكر الصديق، ثم الغار الذي يحاول بعض الحجاج أن يدخلوه بجبل ثور بناء على بعض المرويات... معلقاً على هذه المرويات بأنها خزعبلات. ثم يخصص فصلاً يذكر فيه ما خص الله به مكة من الخيرات والبركات... وكان من أبرزها ميل الأفئدة إليها فكأن بها مغناطيساً! ولم يَنْسَ أهمية أسواق مكة وما تتوفر عليه من شتى البضائع... بما في ذلك الطيب والعقاقير والثياب الهندية والأواني الصينية علاوة على الفواكه وخاصة البطيخ الذي "يشغلك الاستمتاع بطيب شذاه عن أكلك إياه"!!

ومن الطريف أن تقرأ عن الإسحاقي وصفاً لمهارة الحلوانيين في تشكيل حلوياتهم

لدرجة أنهم يصنعونها على شكل الفواكه الحقيقية من رطبة ويابسة[1]، تعرض على أسمطة بين الصفا والمروة لم يشاهد مثلها لا بمصر ولا سواها... «تقيد الأبصار، وتستنزل الدرهم من صياصيه والدينار»!

وكان من أهم المعلومات التي قدمها إلينا الوزير الإسحاقي وهو يذكر أن هذه الفواكه تجلب من الطائف، وعلى الخصوص من مكان معروف بالهدة (الهدا) الذي يحدد الإسحاقي موقعه الجغرافي، ويقول: إن الله جلب إلى الطائف أفواجاً من المغاربة ذوي بصارة بالفلاحة والزراعة، فأحدثوا فيه بساتين ومزارع، فكان ذلك أحد الأسباب في خصب هذه الجهات.

وكان مما يؤكد هذه المعلومة في نظرنا ما وقفتُ عليه من وجود أسر كثيرة هناك تحمل لقب المكناسي والتواتي[2].

وبعد هذا يتخلص الإسحاقي لذكر من لقيه بمكة من العلماء الأعلام، وهو ما يعطي فكرة عن توالي النشاط العلمي بمكة المكرمة عبر العصور والدهور.

وهكذا يقدم لنا العالم العامل عمر البار باعلوي الحسيني... الذي سأل بعض أصحاب الإسحاقي عن بعض المعلومات المتصلة بالمغرب.

وكان الثاني فارس الميدان وأعجوبة الزمان أبا عبد الله محمد بن أحمد عقيلة الذي اجتمع به في منزله، وكان الإسحاقي صحبة ابن أخيه الفقيه العربي بن محمد؛ حيث اطلع الضيفان المغربيان على جملة من مؤلفاته ومصنفاته... وحصل الإسحاقي على إجازة الشيخ عقيلة[3].

وكان مما نقله الإسحاقي من معلومات أخذها عن الشيخ المذكور أن قبر عبد الله بن عمر بن الخطاب يوجد بجبل حزمان عن يسار الذاهب إلى عرفات، وليس ما يزدحم الناس اليوم عليه!!

---

(١) يقصد أنهم يصنعون الحلوى على شكل برتقال أو إجاص وتين، فكأنك أمام أطباق حقيقية من الفواكه الطرية.

(٢) د. التازي: الطائف من خلال رحلة العياشي، نشرته صحيفة سعودية.

(٣) محمد إبراهيم الكتاني: رحلة الأميرة المغربية السيدة خناثة، بحث قدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية، كلية الآداب، الرياض، إبريل ١٩٧٧م.

وكان ثالث المشايخ هو العلامة الورع الشيخ محمد بن علي بن فضل الحسيني الطبري إمام مقام إبراهيم الخليل، لا يخرج عن بيته إلا ليلة السابع والعشرين من رمضان؛ حيث يحيي ليلة القدر بمقام إبراهيم يختم فيها القرآن ثم لا يراه أحد!

اجتمع به الإسحاقي في داره، وأطلعه على تفسيره للقرآن في ثلاثة مجلدات. ونسجل بالمناسبة أن هذا الشيخ كتب شهادة مهمة للأميرة خناثة، وجاءت أهميتها من أنها - أي: الشهادة - تعطينا فكرة عن أن بعض الشخصيات المرموقة من عيون الحجاج كانت تسلم لهم مثل هذه الشهادات التشريفية للتبرك بها، ولتسجيل حضورهم في البيت الحرام..!

والشيخ يذكر في هذه الشهادة أنه لما كانت سنة ألف ومئة وثلاث وأربعين حجت إلى بيت الله الحرام ثمرة الشيوخ المعتبرين المنتخبين من أكرم سلالة، وأفلاذ أكباد العلماء، المتغذين بلبان الجلالة... خناثة بنت المرحوم الشيخ بكار المغفري زوجة المرحوم المقدس مولانا السلطان مولانا إسماعيل، أعلى الله مقامه في الجنان، ورفع لهذه أعلام السيادة تتلى على مر الزمان.

وصلت ليلة السادس بعد العشاء إلى مكة المشرفة وعليها السكينة مرفوفة، راكبة في عجلها وهي في جلالة عظيمة وسيادة فخيمة، في محفل من الأجناد، وجمع من الأجواد، ولهم زجل بالتلبية ووغير بالتسبيح والتقديس والأدعية، فطافت طواف القدوم وطلعت إلى دارها المكرى المعلوم، ثم إنها طلعت إلى عرفات ولهم دوي بالتسبيح والتقديس، وكانت الوقفة يوم الخميس، ثم نزلت إلى منى فأقامت ثلاثة أيام وأكثرت من الهدي، وبذلت الشراب والطعام، ثم نفرت إلى مكة وجاءت بعمرة الإسلام، وفي مدة إقامتها بمكة كانت تنزل في جنح الظلام، وتطوف بالبيت الحرام، وتكثر من الصدقات على الدوام، وبذلت بغير حصر، وأعطت عطاء مَنْ لا يخاف الفقر، ولما فتحت الكعبة دخلتها، وأفضلت على خدمتها.

وقد ذيلت الشهادة بقصيدة رائية من ثلاثة عشر بيتاً في مدح الأميرة الجليلة، وختمت بتاريخ شهر ذي الحجة سنة ١١٤٣هـ.

وكان رابع هؤلاء في الفضل والدراية وتصحيح الرواية الشيخ أبو الفضل تاج الدين ابن عبد المحسن الحنفي مفتي الحنفية بالحرم المكي... لقيه بالمسجد الحرام مراراً، واستمطره في العلم فوجده غيثاً مدراراً... وتبادلا إنشاد الشعر الذي نعدُّه من نفحات الأدب النبوي الرفيع.

ويفيدنا الإسحاقي أن لشيخه هذا مرتَّباً يبعث به إليه العاهل المغربي السلطان المولى عبد الله يبلغ مئة مثقال ذهب مطبوعة تأتيه كل سنة مع أمير حاج المغرب، وكان هذا المرتب لوالد الشيخ جعفر على عهد السلطان المولى إسماعيل، فأقرها ابنه المولى عبد الله على نحو ما كان منه في الصلات المخصصة للحرمين الشريفين ومصر وغيرها.

وكان خامس هؤلاء الفقيه العالم العلامة مفتي الشافعية بالحرمين الشريفين مولانا زين العابدين بن سعيد المنوفي، الذي يقال: إنه، أصلاً، من ذرية مولانا عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم بالمغرب.

لقيه بالمسجد الحرام قدم حاجاً من المدينة المنورة، وله في كلا الحرمين دار، لكن الأصلية بمكة... فسأل عن السلطان المولى عبد الله عاهل المغرب... وقد أقام المفتي المذكور حفلة كبرى على شرف الوفد المغربي، فحضر الإسحاقي وأعيان الركب: القاضي وشيخ الركب وغيرهما من الخاصة والعامة، «فهش لنا وبش، ورش مزن إكرامه وطش»، على حد التعبير السائر.

وقد تطارح الإسحاقي الشعر مع المنوفي على ما نقرؤه في الرحلة، ولما أخبره الإسحاقي أن معه عيالاً[1] وهو يعتزم زيارة المدينة كتب المنوفي كتاباً لولده هناك؛ حيث أنزل الإسحاقي في مصرية له جديدة بالمدينة... وقد رأى الإسحاقي أن يكرم هذا الولد فقدم له أربعة مثاقيل ذهبية، فرفض المنوفي الابن قائلاً: الفضل كل الفضل في أنكم نزلتم عندنا!!

وكان سادس هؤلاء الرجال السيد الحلاحل الأديب الكامل مولانا الشيخ تاج الدين ابن عارف المنوفي، وهو من أقارب زين العابدين السالف الذكر الذي تعرف إليه بالمسجد الحرام، وفي المأدبة الكبرى التي أقامها قريبه الشيخ زين العابدين؛ حيث

---

(١) يتأكد أن ركب الأميرة كان يضم سيدات أخريات على ما يتأكد من هذا النص، كن في رفقة الأميرة.

انعقدت بين الجانبين أواصر المودة.

وكان سابع المشايخ من الذين تعرف إليهم الشيخ الإسحاقي القدوة الشيخ عبدالله الإسكندراني الضرير الذي «جعل الله قوة بصره في بصيرته...».

دخلنا عليه - يقول الإسحاقي - في منزله قرب باب العمرة، وحدثنا بتصانيفه في التفسير والحديث وعلم الكلام، وغير ذلك، منها تفسير للقرآن بالنظم يزيد على ثلاثة آلاف بيت (في الرجز)[1].

ومن المهم أن نعرف أن الشيخ عبدالله كان يعتزم توجيه مؤلفاته إلى المغرب، وطلب من الإسحاقي أن يحملها معه بما فيها (التفسير المنظوم) حتى يوصلها إلى يدي أمير المؤمنين السلطان المولى عبد الله ابن السلطان المولى إسماعيل.

فقلت - يقول الإسحاقي - نحملها على بركة الله، ونقر عينك بذلك، فقال الشيخ: كنت عزمت على هذا الغرض في حياة مولانا إسماعيل رحمه الله فلم يقدر لي ذلك.

ويذكر الإسحاقي أن الشيخ الإسكندراني بدا له إمساكها عنده... ولم يمكنا الكلام معه في ذلك لضيق الوقت... والجدير بالذكر ختاماً للحديث عن هذا الضرير أن الاختيار وقع عليه في أن يستفيد من وقف أجرته الأميرة خناثة على من يدرس البخاري

---

(١) الاسم الحقيقي لهذا الشيخ هو محمد بن عبدالله، وقد ترجمه المرادي في سلك الدرر: ٤/١٢٣، فذكر أن اسمه محمد بن سلامة بن إبراهيم الضرير الإسكندري ثم المكي المالكي، وأنه توفي في ذي الحجة سنة تسع وأربعين ومائة وألف، ويذكر أن التفسير المنظوم يحمل عنوان «تحفة الفقير في بعض ما جاء في التفسير»، يقع في عشرة مجلدات، وقد وقفتُ على نسخة من هذا التفسير بمركز جمعة الماجد في دبي، وقد صورها عن النسخة الأصلية بالمكتبة الظاهرية بدمشق، وتفضل الأخ الماجد فأهداني فاتحة الجزء الأول وخاتمة الجزء العاشر، وهو يبتدئ هكذا:

يقول راجي ربه المقتدر ... المالكي محمد الإسكندري

وينتهي بهكذا:

وأفضل الصلاة والسلام ... على النبي المبدأ والختام

وصحبه وآله من بعده ... ومن مشى بعدُ على منواله

في الحرم الشريف.

وكان ممن لقيه الإسحاقي في المسجد الحرام، وهو الثامن من هاته الشخصيات، الفقيه الوجيه والسري الثري محمد ابن الفقيه العلامة الرحالة محمد بن سليمان الروداني صاحب الصيت بالحرمين الشريفين، وفي البلاد المشرقية كلها.

وهنا يشير الإسحاقي إلى أبي سالم العياشي وما قاله عن ابن سليمان، الذي لم ينقطع عن ذكره لسان!

وكانت داره قرب المسجد الحرام ملاصقة له ورثها عن والده... قال الإسحاقي: إن نسبة هذا الرجل إلى سوس المغربية تنوسيت.

دار المغرب بمكة

وقد سجل الإسحاقي في رحلته أن الأميرة المغربية حبست داراً بمكة على من يتلو القرآن، ويدرس صحيح الإمام البخاري بالحرم الشريف، وقد كانت تقع بباب العمرة، اشترتها من أبناء العلامة الشيخ عبدالله بن سالم البصري بثمن يقرب من ألف مثقال مطبوعة، وذلك بمساعدة محمد بن سليمان الروداني المذكور... وقد عينت الجماعة التالية للقرآن بالاسم، والتزموا القيام بذلك، كما انتدبت لتدريس الإمام البخاري العالم محمد الإسكندراني الضرير السالف الذكر... وعينت الأميرة كذلك التاجر الحاج قصارة الفاسي أحد التجار المجاورين للإشراف على التصرف في مستفاد الدار، وكان الإسحاقي هو الذي تولى كتابة عقد الشراء من أبناء الشيخ البصري بتقديم له على ذلك من لدن الأميرة... لكن الذي حصل أن أمر الشراء استهدف لبعض المشكلات العارضة التي أثارها القاضي القادم من إستانبول!

ويبدو أن المشكلات كانت في الأصل "سياسية" إذا صح التعبير قبل أن تكون فقهية، ومع ذلك فسنستعرض الأحداث كما رواها الإسحاقي الذي قال: ولما ذهبنا للقاضي برسم كتب عقد الشراء، واستظهرت بمرسوم التوكيل من قِبَل السيدة على الشراء ودفع الثمن، واستظهر النائب عن البائع كذلك بالتوكيل، قال القاضي: لا يمكن أن يعقد البيع بين وكيلين، ولا بد أن يباشر العقد أحد المتبايعين بنفسه... فقلت له: أما السيدة

فلا سبيل لكم إليها..! وعند ذلك وجه القاضي عدلين فسمعا من البائع؛ لأنه كان بحال مرض ألزمه الفراش.

ولما تم العقد ولم يبق إلا كَتْب الوثيقة قال القاضي: لا بد من مئة ريال على هذا العقد..! وبمشقة اتفقنا على أداء خمسة وعشرين ريالاً دفعناها لهم، فلما قبضوها قالوا: هذا حق عقد البيع، ونعمل مجلساً آخر لكتب عقد التحبيس.!!

وأرخينا لهم العنان حتى تسلمنا عقد البيع وانصرفنا، فكتبنا عقد التحبيس بشهادة أصحابنا العدول المغاربة تفادياً من جور القاضي وعدوله، وكانوا جميعاً يشربون الدخان(١) على الرغم من أن مكان القاضي يشرف على الكعبة من شراجيب، وذلك لعمري من الأعاجيب!!

ويعود الإسحاقي لمشكل شراء دار المغرب، فيذكر أن الناس هناك اختلفوا في شأنه وأكثروا، فقال بعض المجاورين ممن استند إلى بعض الحكام الجائرين: لا يجوز بيع ديار مكة ولا شراؤها، وقال آخرون من ذوي النهي والأمر: نحن براء من هذه الدار وشرائها.

وهنا أرسلت السيدة إلى الوزير الإسحاقي قائلة: إني أرغب في هذه الحسنة فلا تحرموني منها! وقد قلدتك بها. فطمأنها الإسحاقي قائلاً: إن هذه المسألة جرى عليها قديماً وحديثاً عمل الناس، وها نحن أولاء نحرر لك ما قيل فيها من الفقه.

ويخبرنا الإسحاقي بأنه عندئذ طلب إحضار كتب المذهب المالكي، وحرر فتوى تعدُّ في نظرنا من أروع الفتاوى الفقهية، نقل معلوماتها عن الشيخ خليل في «مناسكه»، والحطاب في «حاشيته على المناسك» وغير هذين، وردت هذه الفتوى في مخطوطة الإسحاقي (ص ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠).

وعلى الرغم من أن الإسحاقي لم يشر إلى ما ورد حول شراء دور مكة عند أبي الوليد الأزرقي في أخبار مكة(٢)، فإن الفتوى المالكية تسوِّغ بوضوح كبير كيف أن أرض مكة

(١) ظل المغاربة يستغربون من تناول زملائهم المشارقة لطابا يعدون ذلك مما يخل بالمروءة.

(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تأليف أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحيق رشدي الصالح ملحس، ج ٢، ص ١٦٢: من كره كراء بيوت مكة وما جاء في بيع رباعها... طبعة ثامنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، مطابع دار الثقافة بمكة المكرمة.

هي ملك لأصحابها، وليس لحاكم ما أن يمنعهم من التصرف فيها بالطريقة التي يرونها هم، وليس غيرهم.

وقد ابتدأ الفتوى على هذا النحو: قال في البيان: ولا خلاف عن مالك وأصحابه أن مكة افتتحت عنوة، إلا أنهم اختلفوا: هل منَّ على أهلها بها فلم تقسم لما عظم الله من حرمتها، أو هل أقرَّتْ للمسلمين؟ وعلى هذا جاء الاختلاف في جواز كراء بيوتها، فروي عن مالك فيه ثلاث روايات... إلى أن يستدل بملك الناس لبيوتهم بالآية الكريمة ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**﴾، وبقوله ﷺ: «مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن...»[1].

قال الإسحاقي: وحينما كتبنا هذه النقول وأنهيناها للسيدة المذكورة، أعزها الله، وعرفت مضمنها ومعناها تلقتها بالرضى والقبول، وأجمعت الشراء في الدار المذكورة والتحبيس... وتحققت آنذاك من تسويل إبليس الخسيس..!

ويأتي الإسحاقي بعد هذا بفصول في مناسك الحج وفي حدود الحرم، وفي أصلها... ثم بفصل آخر يتضمن تفسير المناسك المباركة بطريق الإشارة إلى معانيها، وهل الأفضل الحج والعودة أو الحج والجوار؟ ثم يأتي بفصل نقله من مناسك خليل... وختم بذكر أسئلة تتعلق بالحج مع الجواب عنها.

لقد أقاموا بمكة عشرة أيام استغرق الحديث عنها نحواً من سبع عشرة ومئة صفحة... وهكذا ودعوا مكة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة الموافق ليوم ٢٣ يونيو عام ١٧٣١م بعدما طافوا طواف الوداع.

وودعنا البيت العتيق، على نحو ما قال الشاعر، وداع:

أحبة راعها، والشمل منتظم
داعي الوداع فمن باكٍ ومعتنق!

---

(١) ينبغي أن يراجع حول الموضوع كتاب البيان والتحصيل لابن رشد، تحقيق الحاج أحمد الحبابي، ج٣، ص ٤٠٥-٤٠٦، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، وكتاب البين وكتاب المقدمات الممهدات لابن رشد أيضاً، تحقيق سعيد أحمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، ص ٢١٨-٢١٩، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، وكتاب مواهب الجليل شرح مختصر خليل للخطاب، طبع السلطان مولاي حفيظ، ج٥، ص ٤٢٣، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٩هـ، مع شكرنا لمكتبة دار الحديث الحسنية، الرباط.

وخرجوا من باب كدى من أسفل مكة المكرمة اقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وكان الركب المصري خرج قبلهم، فوجدوه قد ضرب مضاربه بوادي فاطمة حيث أقام الركب جنازة للشهيد أبي القاسم التسولي الذي كان عينه السلطان مولاي عبد الله لملازمة نجله الأمير سيدي محمد، وقد أدركه أجله قريباً من قبر السيدة ميمونة زوج النبي ﷺ في أعقاب حر شديد(١)، تغمده الله برحمته.

(١) د. عبد الهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة، المغرب، ١٩٧٦م، ص ١١٣.



الأميرة خناثة بنت بكار زوجة السلطان المولى إسماعيل بريشة الفنانة الإسبانية إميليا ر. ف.

ولاكن عليهم مهابة وجلالة نعم ما تقع عليهم عين القلب يعرف أنهم
شرفاء وقد قال السيد عبد الله ابن عباس فيما روي عنه رضي الله عنه
خصصنا بستة ما لهم من بين الناس بصباحة وفصاحة و[illegible]
عند النساء و[illegible] وأهل مكة شرفها الله من الاشراف
وغيرهم وعمهم ماء زمزم وغيرها من بركة مكة يتعرضون بذلك
لامير الركب ومن يعرفونه من الفاسيين وقد تعرض [illegible] والدي
مولانا نصره الله بذلك فأكرمهم الاكرام التام جزاه الله بالخير
ثم ارتحلنا من ينبع النخل فاتصل السير وكان النزول على
بدر ومنها لنا الموضع المبارك المشهور محل الغزوة
المباركة المشهورة المستغنية عن [illegible] ولقد نصركم
الله ببدر وانتم اذلة، وهو واد به ماء معين عذب عليه نخل
وعمارة لا يخلو منها شيء [illegible] هنالك [illegible]
[illegible] وصعب [illegible] بلاسم [illegible]
[illegible] ويذكر كذا عن القاموس وبدر [illegible]
جبال من جميع جهاته [illegible] اهلها ومن
جاورهم الى المدينة المشرفة يتحينون وصول الركب ويستعدون
لذلك [illegible] بما يبيعون به من تمر [illegible] وغير ذلك
وقد قلنا بها مواضع مباركة يرغب الحجاج في زيارتها منها

مجر(?)

رحلة [illegible] 1155 = 1742

إحدى صفحات مخطوطة الإسحاقي عن رحلة الأميرة خناثة

أبو مدين الدرعي ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م

هذه رحلة حجازية لأبي مدين محمد بن أحمد بن الصغير السوسي الروداني الأصل الدرعي المتوفى سنة ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م، وقد سافر للحج مرتين: أولاهما سنة ١١٥٢هـ/ ١٧٤٠م، وعنها ألّف الرحلة.

ينقل عنها كثيراً أبو إسحاق إبراهيم السوسي العيني المتوفى سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م في رحلته الآتية الذكر، ويصفها بالطول والإسهاب(١)، وكان الشيخ المختار السوسي وقف على نصفها بخط المؤلف عند بعض أهل المؤلف في قرية سيدي داود من أكلو في ضواحي تيزنيت توجد منها نسخة بالخزانة العامة رقم ٢٩٧ ق. كما توجد نسخة ثانية ضمن مجموع ص ٢٠ – ٢٨٠ مع تذييلها بنصوص إجازات مشرقية للرحالة بخطوط أصحابها ص ٢٨١–٢٩٣(٢)، ويمكن أن نلخص الحديث عن هذه الرحلة في الأسطر الآتية:

يبدو أن الرحلة كانت أولاً مذكرات متناثرة عند المؤلف، ثم ظهر له أن يجرد تلك المذكرات في رحلة؛ «اقتداء بآثار من سبقه إلى ذلك، وإن لم يكن أهلاً لتلك المسالك». يقول أبو مدين: وذلك لتكون عوناً لمن انتهت إليه على فهم بعض المهمات المحتاج إليها، وتنبيهاً على الأماكن الصعبة والبلدان العادية لصوصها، والمالحة مياهها، مقتدياً بشيخه العلامة الجامع بين الحقيقة والشريعة سيدي أحمد بن محمد بن ناصر.

وكانت الديباجة اشتملت على هذه العبارة: الحمد لله الذي أهلنا لحج بيت الله الحرام، ومتعنا بالطواف بالبيت العتيق، واستلام الركنين والصلاة خلف المقام، ونعمنا بالتضلع من ماء زمزم كما أمر سيد الأنام، ووفقنا للسعي بين الصفا والمروة سبعاً على التمام، وبلغنا المنى بالمبيت بمنى اقتداء بمولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام،

---

(١) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص ٣٤٧–٣٤٩. د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة، ١٩٧٧م، ص ٣٨–٣٩، التعليق ١، مخطوطة الخزانة العامة تحت رقم ٢٩٧.

(٢) المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص ١٨٩، رقم ٤٩٩.

وعرفنا فضله بالوقوف بعرفات لنحط به عنا الذنوب العظام، وقربنا إليه زلفى بالمزدلفة، وقد تضرعنا إليه بالمشعر الحرام، وأرشدنا لرمي الجمار والحلق لنرمي عنا الأوزار والآثام، وكمل رجاؤنا بطواف الإفاضة، فتم حجنا وبلغنا المرام.

وقد خطط أبو مدين لرحلته عندما فصلها إلى أبواب... وكان من مضامين الباب الأول الحديث عن خروجه من مصر إلى الحجاز، فقد ذكر المراحل التي قطعها ليصل إلى مكة المكرمة[١]... وكان في معظم هذا يذكر نقولاً عن الرحلة العياشية.

«... فدخلناها من باب المعلى، وهو الثنية العليا التي دخل فيها رسول الله ﷺ المسماة بـ (كَدا) بفتح الكاف، وقد بالغت الولاة في حفرها حتى صارت كأحد الأزقة[٢]، ثم الحجون، التقى بقربها مع صاحبه الحاج محمد بن سعيد الذي كان مع جماعة من الإخوان الذين سبقونا، واكتروا لنا داراً للنزول، فذهبوا مع الجمال وسرنا نحن آمين المسجد الحرام، فدخلناه من باب السلام، ونلنا بدخوله الأمن والأمان التام، فشاهدنا البيت الحرام، وكمل بفضل الله المقصود والمرام، وأزاحت أنواره من قلوبنا كل ظلام، وقد تدلت أستاره وأشرقت أنواره».

وهنا استشهد على نحو ما فعله الآخرون بقطعة شعرية من ثلاثة أبيات لأبي سالم العياشي حول تشمير الكعبة طوال هذه الأيام.

وقد أورد بعد هذه القطعة، مباشرة ومن دون مقدمة، اثنين وعشرين بيتاً من القصيدة التي سبق أن أورد معظمها الشيخ أحمد بن ناصر في رحلته من دون نسبتها... ويتعلق الأمر بالقصيدة الهائية:

وما زال وفد الله يقصد مكة
إلى أن بدا البيت العتيق وركناه
فضجت وفود الله بالذكر والدعا
وكبرت الحجاج حين رأيناه

(١) ماء الموائد، ج١، ص ١٩٠.

(٢) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص ٣٤٧-٣٤٩. د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة، ١٩٧٧م، ص ٣٨-٣٩، التعليق ١، مخطوطة الخزانة العامة تحت رقم ٢٩٧.

وقد كادت الأرواح تزهق فرحة

لما نحن من عظم السرور شهدناه

تصافح ذي الأملاك من كان راكباً

وتعتنق الماشي إذا تتلقاه

إلى آخر الأبيات التي أوردها في الصفحة ١٢٥-١٢٦ من المخطوط الذي يحمل رقم ٢٩٧.

وقد أخذ عنه الشيخ أبو مدين بذكر الأدعية التي يقولها الحاج وهو يجد نفسه أمام الكعبة: «اللهم زد هذا البيت شرفاً وتعظماً وتكريماً ومهابة.. اللهم أنت السلام ومنك السلام...» إلخ.

وعلى نحو هذا يذكر دعاء خاصاً عند الحجر الأسعد: «بسم الله، الله أكبر، الله أكبر، إيماناً وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك...» إلخ.

ويتحدث عن الأشواط التي أتى بها وماذا دعا به في الشوط الأول: «اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً، وسعياً مشكوراً...» إلخ.

وبين ما يقال في بقية الأشواط: رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم[1].. إلخ.

ولما كمل طوافه صلى خلف المقام ورجع للملتزم؛ حيث نبه لما ينبغي أن يتوسل به عند الملتزم: «يا رب عبدك المسكين وأسيرك الضعيف ببابك واقف.. ولا ملجأ منك إلا إليك..» إلخ.

ثم زمزم الذي يذكر له دعاء خاصاً... «اللهم نور قلبي بأنوار معرفتك... وارزقني الأنس بقربك...» إلخ.

ثم يرجع إلى الصفا من باب الصفا... وهنا أيضاً يذكر الدعاء الخاص بهذا المكان: "إن الصفا والمروة من شعائر..." إلى: وكبر ودعا قبل أن يسير إلى المروة ويخب في بطن المسيل... إلخ.

ويخصص الباب الثاني لكيفية الحج والمناسك... وهو على فصول؛ الأول: كيفية الحج.. إلخ.

---

(١) تراجع ترجمة الحسين بن عبد الله بن الجصاص الجوهري المتوفى سنة ٣٢٠هـ.

قال: وفي اليوم الثامن وهو يوم الاثنين ١١٥٢هـ (٧ مارس ١٧٤٠م) خرج لمنى... وهنا يعود لما دأب عليه من ذكر الدعاء الخاص... اللهم أبلغني صالح أملي واغفر لي ذنوبي.

وبات بمنى، وفي جوف الليل توجه سلطان مكة مسعود بن سعيد مع جيوشه إلى عرفات على أن يتوجه أبو مدين وصحبه في الصباح بعد بزوغ الشمس إلى عرفات، حيث ساروا إلى نمرة، وحيث اغتسلوا غسلاً خفيفاً قبل أن يحضروا الصلاة، لقد صادفت الوقفة يوم الثلاثاء ٨ مارس عام ١٧٤٠م، وينفروا بعد ذلك إلى تتميم المناسك على نفس المنهاج الذي نعرفه(١).

وهنا أيضاً يأتي بجانب من القطعة الشعرية الهائية التي أوردها قبله الشيخ أحمد بن ناصر:

فكم حامد، كم ذاكر، ومسبِّح
وكم مذنب يشكو لمولاه
وكم خاضع، كم خاشع متذلل
وكم سائل مدت إلى الله كفاه
وساوى عزيز في الوقوف ذليلنا
فكم ثوب ذلٍّ في الوقوف لبسناه

إلى أن وصل إلى قوله:

فظل حجيج الله لليل واقفاً
فقيل: انفروا، فالكل منكم قبلناه

ويعود إلى هذه القصيدة بعد أن ينهي طواف الإفاضة على نحو ما فعله أحمد بن ناصر:

وردَتْ إلى البيت الحرام وفودنا
ونحن له كالطير حنَّ لمأواه
وطافوا طواف الإفاضة حوله
ولذنا به بعد الجمار وزرناه(٢)

---

(١) تولى الشريف مسعود بن سعيد سنة ١١٤٦هـ وبقي في الولاية حتى سنة ١١٦٥هـ، وهكذا كانت مدة ولايته نحو عشرين سنة. أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ٤٢٧.

(٢) انظر مخطوط أحمد بن ناصر، ص ٧٧، ومخطوطة ابن مدين، ص ١٣٧.

رحلة أبي مدين

الدرعي

إحدى صفحات مخطوطة رحلة أبي مدين

سيدي بناني ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م

فضلنا أن نحلي صاحب هذه الرحلة بالتحلية نفسها التي حفظناها له ونحن صغار نتردد على زيارة ضريحه بدرب يقع بين (الديوان) و(الصاغة) من عدوة القرويين قلب مدينة فاس.

له نظم في أصل بيت بناني، وفي نسبه وشيوخه نظمه حين أراد الذهاب إلى الحج سنة ١١٤١هـ / ١٧٢٨م، ويقع النظم في نحو الستين بيتاً.

ولقد اشتهر في عهد الدولة العلوية عدد كبير من أبناء الأسرة البنانية في الفقه والإفتاء، والأدب والسياسة والدبلوماسية، وبرز من بينهم هذا العالم الكبير الفصيح البليغ محمد بن عبد السلام بن حمدون المتوفى في ١٦ ذي القعدة سنة ١١٦٣هـ / ١٧ أكتوبر ١٧٥٠م في التسعين من عمره.. أخذ عن عدد من فطاحل علماء المغرب، أمثال: أحمد بن الحاج، وأبي عبدالله بردلة، وعبد السلام القادري جد القادري صاحب نشر المثاني، ومحمد بن عبد القادر الفاسي.

ولما حج في السنة التي ذكرنا أخذ عن جماعة من المشارقة، وله منهم إجازات حسبما تضمنته فهرسته، ويذكر أن سيدي بناني جمع عدداً من التآليف من المشرق استعداداً لشرح كتاب الاكتفاء للكلاعي، وقد شرحه فعلاً في ستة أسفار... أضافها إلى تآليفه العديدة التي لم يصرفه عن إكمالها غير المرض الذي ألم به وألزمه الفراش مدة طويلة.

وقد كان في صدر تصانيفه ـ ونحن نتحدث عن الرحلة الحجازية المغربية ـ فضائل الحرمين الشريفين وتوضيح حدودهما وأوليتهما، وغير ذلك مما لا يجمل بالمؤمن جهله، طبعاً مع ذكر فضائل الحج ووجوبه على المستطيع وترتيب مناسكه ومتعلقاته.

وقد اشتملت رحلته هذه على مقدمة وتسعة عشر باباً وخاتمة، وقد خصص الباب الثامن عشر لذكر مَنْ لقيه بالحرمين.

وقد ذكر الكتاني في فهرس الفهارس أنه وقف على الكتاب المذكور، وهو في مجلد،

وقد أحال في هذا الباب على رحلته الصغرى التي نعتقد أنه ذكر فيها أن وقفته بعرفات صادفت يوم الأربعاء (٦ يوليو) في أيام تشتد فيها الحرارة، ولا يزال الأمل معقوداً على العثور على هذه الرحلة التي قد تكون من جملة ما آلت إليه كتب الكتاني أخيراً مما يوجد الآن ضمن كتبه المسلمة من أهله إلى الملك الحسن الثاني التي تحتضنها مكتبته الخاصة بالقصر الملكي بمدينة مراكش[١].

(١) ترجمة ابن الطيب القادري في نشر المثاني، ج٤، ص ٨٠. السلوة ج١، ص١٤٦، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
الكتاني: فهرس الفهارس ج٢، ص١٦٠-١٦١-١٦٢.
عبد السلام بن سودة: ج٢، ص ٣٤٨-٤١٦.
د. التازي: تاريخ جامع القرويين، المجلد الثالث، ص ٨٠٢.

المنالي الزبادي ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م

هذه رحلة جليلة الفائدة تحمل عنوان «بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام»، وهي للعلامة المشارك عبد المجيد المنالي الزبادي المتوفى سنة (١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م).

رحلة غنية ثرية، بما تحويه من موضوعات متنوعة كنت استشرتها وأنا أعد بحثاً حول رحلة الإسحاقي وإفاداته عن ليبيا[١]... كانت آنئذ في عداد المخطوطات، أما اليوم فقد قيض الله لها أحد نبهاء طلبتنا وجدَّ في عزيز من زملائنا من شجعه على تحقيقها وإعدادها رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا[٢].

وقد وجدت مشقة كبرى في الاستغناء عن بعض مقاطعها المفيدة، خاصة وأنا مع موضوعي (مكة)، لقد كان صاحبها كاتباً وشاعراً في كل ميدان، ومع ذلك فإني سأحاول أن أقدم ما أراه أكثر فائدة من هذه الرحلة، ولاسيما مكة وما حواليها من معالم.

لقد ابتدأ الزبادي بمشاعره وهو يجد نفسه أمام الكعبة التي كان يتوجه إليها صباح مساء، فلقد عرفنا عن عبارة العبدري التي رددها ابن بطوطة: «تقوي بصيرة المستبصر، وتسدد فكرة المتفكر».

فماذا عن مكة عند الزبادي؟

كان دخولنا لمكة ـ زادها الله تشريفاً ـ بعد حل النافلة بقليل يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة ١١٥٨هـ (٢٨ ديسمبر ١٧٤٥م) مع الركب المصري، وفي الخامس دخل الركب المغربي، وفي السادس دخل الركب الشامي، وفي السابع دخل الركب المدني، وفي الثامن دخل بقية ركاب الآفاق كاليمن والعراق، وكان يوم دخولنا هو السادس عشر من ديسمبر، وخامس أيام زمن الليالي[٣]، فدخلنا من باب المعلى خاضعين للعلي الأعلى،

---

(١) ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، ص٣٩، تعليق ٣، مطبعة فضالة، المغرب، ١٩٧٦م.

(٢) الطالب رشيد اليونسي، والأستاذ الدكتور علال الغازي، قدمت الرسالة في السنة الجامعية ١٤١٥ – ١٤١٦هـ/ ١٩٩٤– ١٩٩٥م.

(٣) يلاحظ أن الزبادي يعتمد على التقويم الفلاحي.

شاكرين للكبير المتعالي على إحسانه المتوالي، فلقيت الرفقة في بعض الأزقة قد عينوا داراً للكراء، وتعرضا لي حتى أرى، فذهبت معهم إليها، ووافقتهم عليها، فحططنا بها الأثقال، وأطبنا لأهلها المقال، وكانت متصلة بحومة الشاميين الموالية لباب زيادة؛ أحد أبواب الحرم، فلما فرغوا من حط المتاع، ذهبت معهم بين البطء والإسراع، حتى أتيت البيت الحرام، فدخلناه من باب السلام، وضفنا الملك العلام ذا الجلال والإكرام، وتطفلت وإن لم أكن من أهل هذا المقام:

وفدْتُ بذلِّي على ماجد
وإني من زللي ذو احتشام
وفدت على أكرم الأكرمين
وليس يخيب نزيل الكرام

فلما وقعت على البيت العتيق الأبصار، ونفذ من ظاهره إلى باطنه الإبصار، خضعت الجوارح والأسرار، لما احتف به من الأنوار، وتمثل لي البيت المعمور الذي هو بالأنوار الجمالية مغمور، والمولى جل وعلا يقول وهو الشكور المشكور: «مرحباً بضيوفي، ونعم الضيوف، لقد رضيت عن كل من بساحة هذ البيت يطوف»، فما أكرمه من كريم عطوف رحيم، ووجدت معنى أن الله إذا تجلى بالجمال لشيء بالجلال خشع وخضع، ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**﴾، وإذا تجلى بالجمال بهر العقول، ولم تشف فيه النقول، وأحبته القلوب، وحنَّت له الأفئدة، وارتاحت إليه النفوس، وتذكرت به الألباب، ونفذت منه الأسرار إلى رب الأرباب، ومن وقف عنده كان له أعظم حجاب، ﴿**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**﴾، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها، ولولا هذا التجلي ما كانت الكعبة ولا البيت المعمور، ولا وافاهما أحد يزور، وإذا تجلى لشيء بالكمال في غاية الاعتدال، وكان الله سمعه وبصره وبروح منه أيده ﴿**فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾، ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾، فكان عين الحقيقة وشمس الوجود، من فتح بصره فيها ليظفر بكنهها رجع إليه البصر وهو حسير، ومن أطرق حياء وتعظيماً رأى

الكون كله مملوءاً بأنواره مستمداً من أسراره، «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه». ثم أتيت البيت العتيق من باب بني شيبة، وذلك من السنن يعدّ، فأتيت الحجر الأسعد ولم أصد عنه بالازدحام، فقبلته بفمي لا باليد، وكبرت الله تعالى، وشرعت في طواف القدوم، على الوجه المعلوم، وعند التمام صليت ركعتين خلف المقام، ثم ازدحمت فالتزمت الملتزم، ثم تقهقرت فدعوت في الحطيم مستنداً إلى زمزم، ثم خرجت من باب الصفا فأتيتها حتى علوت عليها، ونظرت إلى الكعبة وكبرت الله وحمدته وهللت وسبحت ودعوت، وسرت إلى المروة، ففعلت مثل ذلك إلى أن كملت السعي، فرجعت إلى المسجد، فصلينا الظهر مع بعض جماعاته الأربع، ومكثت في المسجد، لا أبرح ولا أذهب لمنزلي إلا لأكل أو قضاء حاجة أو نوم بالليل حتى تحل النافلة، أو بعد العصر حتى تصلي المغرب، فأشتغل في هذين الوقتين بالذكر.

فلما كان اليوم السابع من الشهر، وكان يوم الجمعة، خطب بنا للجمعة خطيب ظريف، لبيب لطيف، خطبة جيدة، وهو من أهل البلد، وهو الذي رأيته يخطب للجمعة لمدة إقامتنا بمكة، فصلينا الجمعة، وبعد الفراغ بقي الناس في مواضعهم حتى أتى خطيب آخر، فخطب بنا خطبة مشتملة على مناسك الحج وفضائله. ومن الغد، وهو اليوم الثامن، ارتحلت الركاب إلى عرفات، فصلينا الظهر في المسجد الحرام، وخرجت راكباً على ناقة، حامداً لله بحسب الطاقة، فنزلنا منى وقت العصر، فحططنا بها الرحال، ودخلت مسجد الخيف، فصليت العصر في القبة التي كانت بها خيمة رسول الله ﷺ، وكان نزولنا عند مسجد الخيف، فصلينا المغرب هنالك، وارتحلنا إلى عرفات بارتحال الركاب كلها إلا الشريف[1]... وبهذا جرت العادة منذ سنين، فأتينا عرفات، وصلينا العشاء هنالك، ومن الغد اغتسلنا قرب الزوال، ولما تمكن صلينا الظهر والعصر، ولم نذهب لنمرة لبعده من موضعنا جداً، ولكثرة الازدحام من أجل الركاب النازلين هنالك، ثم ذهبت للوقوف راكباً على ناقتي، وهو من السنة معروف، فما زلنا واقفين بالقرب من

(١) القصد إلى الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد حاكم مكة. السباعي: تاريخ مكة، ص ٤٢٧. عبدالفتاح حسين: أمراء البلد الحرام، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

الداعي من الناحية السفلى عن موقف النبي ﷺ ندعو الله ونسبحه ونحمده ونهلل ونكبر حتى غربت الشمس غروباً محققاً، ودخل الليل دخولاً بيناً، ونفر الناس فنفرنا ذاكرين الله تعالى، مصحوبين بمطر من غير أن يتقدمه سحاب ولا مقدمات (ثاني يناير ١٧٤٦م)، فنزل معه في القلوب الرحمات، وكان على القبول من واضح السمات، فخرجنا من بين المأزمين، فما غاب الشفق بلامين حتى حططنا الرحل بمزدلفة، فجمعنا بين العشائين وتعشينا والتقطنا الجمار، وأحيينا الليلة بالصلاة والتلاوة والأذكار، ثم صلينا الصبح في أول وقته وارتحلنا مغلسين، وأتينا المشعر الحرام، ووقفنا خاشعين خاضعين ذاكرين داعين إلى الإسفار البين، وسرنا مرملين ببطن محسر، وأوله من القرن المشرق من الجبل الذي على يسار الذاهب إلى منى، ثم يخرج منه سائراً إلى منى سالكاً للطريق الوسطى التي تخرج إلى العقبة، وليس من مزدلفة ولا من منى، وهو مسيل ماء بينهما . فأتينا منى، ونزلنا قريباً من مسجد الخيف، وذهبت فرميت جمرة العقبة، ونحرت شاة عن لبس الثياب، وحلقت جميع رأسي، وسرت إلى مكة المشرفة وطفت طواف الإفاضة، وقد صليت الظهر بمسجد البيعة بأسفل العقبة عن يمين الذاهب إلى مكة، ونسيت هل ذلك قبل أن نصل إلى مكة أو بعدما خرجت منها، وهذه هي المسائل الأربع التي تفعل يوم النحر، ثم تضلعت من ماء زمزم وخرجت من مكة، فما صليت العصر إلا في مسجد الخيف، ومررت أيضاً بمسجد البيعة، فدخلته وصليت فيه ولست أدري هل الظهر في الأولى وفي الثانية النفل أو العكس، ولما صليت العصر في مسجد الخيف خرجت حتى أتيت غار المرسلات، فقعدت هنالك تبركاً بآثار الرسول ﷺ، وذكرت الله ودعوته، وذهبت إلى منزلي فبتُّ، ومن الغد إثر الزوال رمينا الجمرات الثلاث . ولقيت هنالك شيخنا العلامة أبا عبد الله سيدي محمد بن الطيب الصميلي نزيل الحرمين الشريفين[١]، فلما فرغنا من الرمي ذهب بنا إلى زيارة الشيخ المسن البركة، الولي الكبير والعارف الشهير أبي محمد سيدي عبد الله مدهر الشريف الحسيني الباعلوي اليمني الحضرمي ثم المكي، فدخلنا عليه في مقعد من المقاعد المشرفة على

(١) هذا هو صاحب الرحلة التي وقفنا عليها في مكتبة لايبسك بالمانيا، وقد توفي سنة ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م على ما سنرى.

سوق منى... وحضر معنا في ذلك مولانا أبو عبد الله العراقي[١]، فجلسنا إلى آخر الظهر، وخرجنا من عنده وودعناه، ودخلنا مسجد الخيف، فصلينا الظهر جماعة، وجلسنا هنيهة، فحضر وقت العصر، فصلينا جماعة، وخرجنا إلى الغار، ثم إلى منزلنا فبتنا، وكانت ليلة من أعاجيب الدنيا[٢]، أولها من صنع الخالق على يد الخلائق من كثرة المدافع والمحارق التي تعلو الشوامخ الشواهق، وكثرة المصابيح البديعة الصنع المختلفة الوضع من أشكال الأشجار والسباع والأطيار، وأنواع الشبابيك والخواتم والدوائر والأوفاق، وقد شغل ذلك أذهان الركاب والرفاق. فلما مضى من الليل نحو الثلث على تلك الحال، انقلب الأمر واستحال، وحضر صنع الواحد القهار مكوِّر الليل على النهار، إذ حضر رعد هائل وبرق على الأبصار صائل (يناير) كاد الناس يصعقون من هوله، فتبرأ كل واحد من حوله وقوته، فبقي ذلك مدة يعجز عن وصفها الواصف، وأتى الله بريح عاصف أكفأت الكثير من البيوت والمنازل، فبينما الناس منها في شغل شاغل وتعب هائل، أتت السماء بمطر وابل شديد الوقع متصل سائل، فبنفس ما انقطع بدأ الفجر وسطع، وانكشف ما بالجو وانقشع، وذهب ما حل بالناس وارتفع، فصلّينا الصبح، وجلسنا حتى أضحى النهار، فتحسسنا الأخبار، فإذا هو قد وقع في الخلق موت كثير من الآدميين والجمال والخيل والبغال والحمير، وضاع للناس ما ضاع، وفسد ما فسد[٣]. وأنجز الله لهم اللطف كما وعد. وشرع الناس في الارتحال، فلما تمكن الزوال رمينا الجمرات الثلاث على توالٍ، وارتحلنا لارتحال الركاب كلها متعجلة، فلما كنا عند مسجد البيعة صلينا الظهر وانصرفنا إلى مكة، ولم يتهيأ لنا التحصيب فدخلنا مكة في عيش خصيب، والتحصيب النوم بالمحصب، وهو الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح ساعة من الليل، وقيل: المحصب موضع رمي الجمار من منى، وليلة الحَصبة بالفتح التي بعد أيام التشريق.

وبعد أن استطرد الزبادي بذكر عدد من الفوائد في تحديد موقع عرفة... وتحديد

(١) القصد إلى العلامة المغربي محمد الهادي العراقي الذي كان رفيقاً له إلى جانب العلامة المولى أحمد الصقلي وآخرين.

(٢) معظم الرحالين المغاربة استوقفتهم هذه الليلة في منى بما يجرى فيها من تظاهرات واحتفالات.

(٣) تحدثت مصادر تاريخ مكة عن هذه الأحداث، انظر تاريخ مكة: السباعي، ص ٤٢٩.

المزدلفة... وتحديد موقع منى... وبعد أن يورد بعض الشعر في التشوق إلى تلك الأماكن يأتي أيضاً بفائدة أخرى تتركز على أسماء مكة معتمداً في ذلك على من سبقه من المؤلفين، ثم يرجع إلى مكة ليقول:

فدخلنا مكة عشية الأربعاء الثاني عشر من ذي الحجة، فبقيت أياماً نسيت عددها، ثم خرجت عشية يوم إلى التنعيم، وهو «موضع على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة أقرب أطراف الحل إلى البيت، سمي بذلك لأن عن يمينه جبل نعيم، وعن يساره جبل ناعم، والوادي اسمه نعمان»، وهناك المسجد المنسوب لعائشة رضي الله عنها، بني في المكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن بأمر النبي ﷺ في حجة الوداع، ومن ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها، حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة تسمية للشيء باسم ما يقع فيه. وأما الجعرانة فلم يبق أحد من الناس يحرم منها، حتى تنوسي بين الناس أنها محلة فلا يعلم ذلك إلا الفقهاء[1]. وفي "القاموس": «والجعرانة وقد تكسر العين وتشدد الراء، وقال الشافعي: الشد خطأ؛ موضع بين مكة والطائف سمي بريطة بنت سعد، وهي المراد في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا**﴾».

فوصلتُ إلى التنعيم عند الغروب فاغتسلنا من مائه، ولبست الإزار والرداء والنعلين، وصلينا المغرب جماعة في مسجد عائشة رضي الله عنها، ثم أهللت بعمرة، ورجعت إلى مكة والناس يخرجون من صلاة العشاء من المسجد، وطفت وركعت خلف المقام، وخرجت إلى الصفا فسعيت، ولما فرغت من السعي حلقت ودخلت المسجد، فصليت العشاء وأوترت، وذهبت إلى منزلي لضرورة الغداء.

ولأجل شغفي بالبيت والطواف والجلوس للاستراحة والذكر قرب المطاف، لم يتيسر لي في مكة ملاقاة الأعلام ولا أهل الحال والمقام؛ لأنني علمت أني لا أجاور؛ لأني أخذت بذلك العهد على الوالدين، فاغتنمتُ هذه الأيام بملازمة البيت الحرام، إذ العلماء والصالحون في كل مكان، والكعبة وما حولها لا توجد في غير هذا المكان! فآثرت التنعم

(١) من الجعرانة قمنا بعمرتنا سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م. د. التازي: التحليق إلى البيت العتيق، نشر دارة الملك عبدالعزيز، الرياض (السعودية)، ١٣٢٢هـ، ص٩٩.

بها على ما سواها، فإن كنت مخطئاً فالله المسؤول أن يقبل عذري، على أن الصالحين لم تفتنا بركتهم؛ إذ لا يخلو البيت منهم للصلاة والطواف، ويجمعنا معهم عرفات ومزدلفة ومنى، وهم القوم لا يشقى جليسهم نعم الآثار والمشاهد، ولم أكن فيها بزاهد، غير أني لم أزد كرة على مرة.

وبعد هذا يقوم بتعداد الآثار التي وقف عليها بمكة المشرفة من غير أن يفوته التعليق على أن بعض هذه الآثار لم يقف في شأنه على مصدر يرجع إليه..! يتخلل كل هذا فوائد جمة تتعلق بالحياة الخاصة للرسول الأكرم ﷺ، وبأهل الحَجون الذي يصرُّ على ضبطه بفتح الحاء.

ويعود الزبادي إلى مكة لملازمة البيت كما يفعل... على أن يختم عنوانه بإلمامٍ ببعض ما يتعلق بالبيت الحرام.

وهنا ينقل نصاً عن أخيه العلامة الشريف سيدي أحمد الذي كان مجاوراً بالحرمين الشريفين عن وصف المسجد الحرام وتأثيثه.

كما ينقل عن الرحلة العياشية وصفاً للبيت العتيق... وتصميمه... ثم ينقل عن شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي معلومات عن تطور بناء الكعبة، وأنها بنيت عشر مرات، ولكن من غير أن يجرؤ على ذكر ما رواه الإمام المحدث الحربي المتوفى سنة ٢٨٥هـ / ٨٦٨م من إسهام تاجر من الروم يحمل اسم باقوم في بناء بيت إبراهيم بعد مفاوضة مع قريش(١)... على نحو ما كان بالنسبة إلى المسجد النبوي وجامع دمشق(٢).

وعلى نحو ما قاله الرحالون السابقون(٣) من أن الطير لا تعلو الكعبة وجدنا الشريف الزبادي يردد ذلك، ونحن نعلم عن رواية ابن الصباح حول الموضوع.

ويخصص الزبادي حديثاً طويلاً عن زمزم مشدداً النكير على ما يروى من نحو: (الباذنجال لما أكل له)، مؤكداً أن ذلك من وضع الزنادقة، مختتماً هذا الفصل بذكر

---

(١) كتاب "المناسك" وأماكن طريق الحج ومعالم الجزيرة للحربي، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، المملكة العربية السعودية، ص ٤٨٦-٤٨٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج١، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٣) قال ذلك أول من قاله أبو عبيد البكري. تراجع أطروحة اليونسي، ج٢، ص ١٨٧، تعليق ٤.

أسماء البيت الحرام قبل أن يخبرنا بخروجه من مكة المكرمة فيقول:

لما كملت العشرون من ذي الحجة أخذت الرفاق في الذهاب إلى الآفاق من شام ويمن وعراق... حتى كان يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي الحجة خرج الركب المصري... وأصبح الركب المغربي الذي يمشي معه، وهو ركب فاس، يودع يوم الأربعاء من غير ازدحام... فأقمت في البيت أتنعم بالطواف والصلاة والذكر والنظر والدعاء والشرب من ماء زمزم حتى اشتد النهار، وفرغ أهل ركبنا من الوداع.

وودعنا أخانا في الله ورفيقنا من فاس إلى طرابلس الفقيه الناسك عبدالرحمن الشنقيطي السوسي؛ لأنه أراد التوطن هناك... وودعت أخانا الفقيه سيدي بلقاسم بن أحمد المغربي من عمالة الجزائر وقد ظهر له أن يجاور هذه السنة... وودعت سيدي نصر ابن العريف بن محمد بن علي بن العريف العباسي السوداني الذي ورد بقصد الاستيطان هناك... وودعت المرابط المجتهد أبا العباس مولانا أحمد المراكشي المغربي المجاور هناك منذ سنين. وتآخيت في الله مع خليل بن أحمد أحد الموكلين بأبواب الحرم سداً وفتحاً، وأخرج لي من داره قدح لبن... وأعطاني شيئاً من الند الذي يبخر به الكعبة... وتم هذا: تناول الشرب وعطاء الطيب عند الكعبة بينها وبين المقام المالكي.

وقمت بطواف الوداع وأديت ركعتين ثم خرجت من باب زيادة، وكانت رفقتي تنتظرني عندها، وأخذت نعلي من حارس النعال وهو الشيخ أمان الله، وتآخيت معه طالباً منه ألا ينساني من الدعاء... فركبت ناقتي، وتبرأت إلى الله من حولي وقوتي، فسرنا من الشبيكة... ثم كان الارتحال من الغد عند الزوال، وأتينا خليصاً بعد الغروب فأنخنا حتى ارتوينا.

ومن المهم بعد هذا أن أشير إلى قصيدة من البحر الكامل هي رائية الزبادي... وهي من نحو ثلاثين ومئة بيت، خصصها لمراحل الحجاز وذكر المناسك، وهي وحدها تحتاج إلى أن تكون رحلة! على نهجها سار ابن عاشر (١٠٤٠هـ / ١٦٣١م)، وسيجري التازي في المرشد المعين (١١٧٠هـ / ١٧٥٧م)، وقد سمَّاها: (إتحاف المسكين الناسك ببيان المراحل والمناسك)، ويقول في مطلعها:

في بركة بركت بنا الأكوار
لما رمتنا للفلا الأمصار

إلى أن يصل إلى مكة ليقول:

وأنل من المعلاة وادخل بلدة
في العالم العلوي لها أنوار

بلد شريف بالمناسك مجده
مرَّت على تعظيمه الأعصار

ما زاغ فيه زائغ إلا غدا
داء له أو غاله الإعصار

حنَّت له حبًّا قلوب أسلمت
وعنت له من عزِّه الأمصار

واقصد لبيت الله من باب السلا
م تلح لك الأنوار والأسرار

سلِّم وكبِّر والْثَم الحجر الذي
في ركنه الشرقي، يا زوار[1]

ومن المهم كذلك أن نختم بالإشارة إلى أن الزبادي خصص نحواً من ثلاثين صفحة للحديث عن تحريم الدخان؛ لما فيه من مخالفات لمبادئ الدين، وصحة الإنسان، وسلامة المجتمع... وقد كانت الدولة في الحرمين أزمعت على محاربته كما تؤكد ذلك المصادر التاريخية، وقد حركه لذلك أن أحد المشايخ الذين أجازوه شرط عليه ألا يمنح إجازته لشارب دخان[2].

ونعيد إلى الذاكرة أن ابن سليمان الروداني كان أول من رفض شرب الدخان لما قدمه إليه مفتي إستانبول، ثم كانت تدخلات العياشي، ثم الزبادي الذي اقتدى بها اللاحقون... وهكذا يسجل التاريخ مناهضة السجائر منذ أربعة قرون خلت قبل أن تتحرك اليوم منظمة الصحة العالمية لكشف الأضرار المحدقة به.

---

(١) بلوغ المرام لعبد المجيد المنالي الزبادي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، قدمها الطالب اليونسي رشيد بإشراف الأستاذ علال الغازي لجامعة محمد الخامس، كلية الآداب ١٤١٥ - ١٤١٦هـ / ١٩٩٤ - ١٩٩٥م، القسم الثاني، ص ٣٠٠.

(٢) أخبار مكة للسباعي، ص ٤٢٩.

القائد الولتيتي ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م

الحديث عن هذه الرحلة غير مسجل بمداد الأقلام، ولكنه مسجل بمداد الآلام المزدوجة بدموع الأبناء والإخوان والثكالى من مختلف الأوساط المغربية على اختلاف شرائحها وطبقاتها قمة وقاعدة.

لقد ابتلع البحر زهاء أربعمئة حاج وهم في طريق العودة إلى الديار المغربية بسبب عطب لحق بالسفينة التي كانت تنقلهم، التي صادفت هيجان البحر الذي كان يصادف فصل الشتاء، ونحن نعلم عن ظروف النقل البحري وقتئذ(١).

أربعمئة نفر ليس بالعدد السهل؛ ولذلك فإنه ترك أثراً حزيناً في المغرب، ولم تنسه الحوليات وكتب التاريخ.

لقد اعتاد معظم الرحالين المغاربة على أن يشير إشارات قوية إلى مختلف الأخطار التي كانت تهدد الحجاج، والتي كان الحجاج يعرفون عنها سلفاً، لكنهم كانوا يخاطرون ويغامرون. وفي كثير من الأحيان كان الناس يروحون إلى الحجاز، وكان أهلهم ينتظرون عودتهم، لكنهم لم يعودوا إلى أهلهم! كانوا لا يبالون بالمصير المهم عندهم أن تكتحل عيونهم برؤية الكعبة الشريفة.

ضروري أن نرجع إلى ما كتبه ابن بطوطة مثلاً عن استخفاف الناس بأرواحهم واسترخاصها في سبيل أن يصلوا إلى مكة لا تخيفهم المفازات، ولا تنال من إرادتهم وقاحة اللصوص والقراصنة، سواء أكانوا في البر أم في البحر.

لنقرأ هذه العبارة في رحلة ابن بطوطة: «وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها (مكة)، ويشاهد التلف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسروراً مستبشراً كأنه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا نصباً، إنه لأمر إلهي وصنع رباني، ودلالة لا يشوبها لبس، ولا تغشاها شبهة، ولا يطرقها تمويه...». وإلى جانب ابن بطوطة أقترح

---

(١) محمد الأمين البزاز: ظروف النقل البحري والحجر الصحي في أدب الحج المغربي، مجلة (الحج والعمرة)، شعبان ١٤٢٣هـ / أكتوبر-نوفمبر ٢٠٠٢م، ص ٥٢-٨١.

عليكم إعادة قراءة رحلة عبد الله بن الصباح الموريسكي الذي فسر بقلمه البسيط وبتلقائية وعفوية معنى الآية: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ...﴾.

واقرأ تقديم ابن عبد السلام الناصري الذي يتحدث عن الموتى والمفقودين والغرقى.

ولقد كانت ظروف النقل البحري رديئة، وبخاصة بعد أن تلقى الأسطول المغربي ضربات موجعة من الأجانب الذين كانوا يريدون أن يبقى البحر لهم وحدهم.

حاولت عبثاً أن أعرف جنسية السفينة التي ابتلعها البحر المتوسط، وبحثت عنها في التاريخ البحري للدول التي كانت تعتاد نقل الحجاج من طنجة إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية إلى طنجة.

وجولة عاجلة في ظروف النقل البحري عبر التاريخ كافية لتصور مدى المغامرة التي يقدم عليها الحاج المغربي لكي يصل إلى ممرات وطئتها أقدام الرسول وصحابته.

ومن طريف ما يحكى بهذا الصدد أن الأسر المغربية وهي تتلقى أخبار مفقوديها من الحجاج كانت تتسلى عندما تسمع أن فقيدها أدركه أجله بعد أن وقف بعرفات، أي: بعد أن أدى فريضة الحج، ولا يزال محفوظاً عند العامة تعبيرهم السائر: «الذهب الإبريز هو الذي يبقى هناك...». وإذا رجعنا إلى هذه الرحلات التي نقرأ اليوم عن مضامينها فسنجد أن طريق الحاج مرصعة جميعها، وعلى طول المدى، بالشهداء الذين أدركتهم الوفاة، لا بد أن نجد ضريحاً لأولئك من الأمراء والقواد والعلماء وضعاف الحال.

وفيما يتعلق بالقائد الولتيتي... نعرف أن العادة جرت بأن يبعث ملك المغرب في كل موسم ركباً رسمياً على رأس المئات من الحجاج... لدعم الصلات بحكام الحرمين إلى جانب أداء المناسك.

وهكذا كان الأمر أيام السلطان المولى عبد الله... الذي بعث بركب كان يرأسه القائد الشهير أحمد الولتيتي، الذي كان بالمصادفة هو والي مدينة الرباط، معززاً بطائفة من الأعيان والعلماء والشرفاء، وهو أصلاً من قبيلة (ادا ولتيت).

هذا الولتيتي الذي نجد لقرابته ذكراً عطراً بين أعلام سوس(١)، قبل أن تشيد مدينة

---

(١) المختار السوسي: المعسول، ج ٨، ص ١٧٥-٢٠٠.

الصويرة من لدن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أو محمد الثالث، كما نقول بلغة اليوم.

دور علماء إقليم سوس، وما أدراك ما سوس! في صنع تاريخ المغرب لا يزال بحاجة ماسة إلى دراسة، وأريد القول: إن القائد الولتيتي الذي ابتلعه البحر في جملة من ابتلع كان قائداً للجيش المغربي، وإن الملك المولى عبد الله رأى أن يجعله رئيساً لهذا الركب الذي كتبت له الشهادة، والذي فضلت أن أجعل منه رحلة حية تعبر عن التعلق غير المشروط بمكة والبيت العتيق.

لقد وردت في أحداث سنة ١١٦٨هـ عند ابن الطيب القادري في نشر المثاني[١] في شعبان: ورد الخبر من فاس بأن سفينة مملوءة بالحجاج سافرت من الإسكندرية... قاصدة بلاد المغرب عبر تونس وفيها نحو أربعمئة رجل من المغاربة؛ أهل فاس وغيرهم، غرق جميع من فيها، ونجا منهم بعض الأفراد على بعض الألواح، ومنهم على بعض البراميل التي كانت عندهم لحمل الماء الحلو، وأما السفينة فغرقت بما فيها من الأمتعة والأموال.

ومن جملة من غرق فيها اثنان من السادة العراقيين، وهما سيدي عبد السلام وشقيقه سيدي عبد القادر ابنا الشريف العفيف أبي العلاء سيدي إدريس بن محمد العراقي الحسيني[٢] القاطن بحومة (فرن الشطة) من عدوة فاس القرويين، وكان أمرهما عظيماً.

وإلى جانب هذا النص نجد نصاً آخر للنقيب ابن زيدان يقول: وفي عام ١١٦٨هـ (١٧٥٥م) انكسرت سفينة حافلة للحجاج لدى منقليها من الديار الحجازية فيها من المغاربة سكان فاس وغيرها أربعمئة نسمة، من جملتهم القائد أحمد الولتيتي الرباطي

(١) نشر المثاني، ج٤، ص ١١١.

(٢) القصد دون شك إلى حافظ المغرب وعالم فاس سيدي إدريس بن محمد بن إدريس بن حمدون بن عبدالرحمن العراقي الحسيني المتوفى في شعبان سنة ١١٨٣هـ / ديسمبر ١٧٦٩م، السلوة، ج ١، ص ١٤١-١٤٢.

ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، ص ٢٤٥، تعليق ١٦. د. التازي: تاريخ جامع القرويين، ج ٣، ص ٨٠٤.

وشريفان من أعيان العراقيين سكان فاس، ولم ينجُ من ركابها غير قليل، وكان ورود الخبر المؤلم لفاس في شعبان[١].

ومن الطرائف التي سجلها التاريخ الدبلوماسي أنه بهذه المناسبة بعث شريف مكة مساعد بن سعيد إلى السلطان المولى عبد الله بوفد للتعزية، فخرج العاهل المغربي بنفسه للترحيب به. وقد استقبله العاهل المغربي بقصره في دار الدبيبغ في فاس على ما يذكره الأسير السويدي ماركوس بيرك Marcos Berg الذي كان يعيش آنذاك في القصر الملكي في العاصمة المغربية[٢].

---

(١) ابن زيدان: الإتحاف، تقديم وتحقيق د. التازي، ج ٤، ص ٤٥٩.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٩، ص ٥٥، رقم الإيداع القانوني ٢٥ / ١٩٨٦م.

ابن الطيب الشرقي ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م

هذه رحلة للعلامة اللغوي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الطيب الصميلي الشرقي الفاسي المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠هـ. وهي في الحقيقة صياغة ثانية لرحلة سرقت من المؤلف ضمن ما سرق له كما يقول.

وقد وصف الشرقي أخبار رحلته من فاس إلى مكة سنة ١١٣٩هـ / ١٧٢٧م، ويوجد منها مخطوطة فريدة في خزانة جامعة لايبسيش (ليبسيك) بألمانيا مكتوبة بخط مشرقي، وكان الأستاذ الراحل محمد الفاسي قد اطلع عليها عام ١٩٣٤م، وكَتَب عناوين فصولها، وكُتِبَ لي أن أقف عليها صيف ٢٠٠٢م، وأن أقوم بتسجيل ما يتعلق بالحرمين الشريفين[١]. والرحلة في مجموعها تشتمل على سبع وستين ومئتي صفحة.

ومن المهم أن نعرف أن صاحبها كان إماماً للغة العربية في وقته، ويكفي أن نعرف أنه شيخ لشارح القاموس الشيخ مرتضى الزبيدي وعمدته في تاليفه حول أعمال الفيروزآبادي.

وللشركي هذا تآليف كثيرة... وكان ممن اهتم به الشيخ عبد الحي الكتاني في (فهرس الفهارس)... وقد خصه زميلنا الدكتور عبد العالي الودغيري بتاليف جامع خاص يحمل عنوان: التعريف بابن الطيب الشرقي[٢].

لقد خصص الشرقي فصلاً كاملاً لدخوله مكة المكرمة وهو يقول تمهيداً لهذا: إنه بعد مرورهم بالتنعيم وصلوا إلى وادي الزاهر الذي يسمى «جنان مكة»، وبه آبار وأشجار وبه يوجد قبر عبد الله بن عمر[٣]... وبما أن الشرقي كان من الأدباء والشعراء على ما

---

(١) كان ذلك بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الثامن التابع للأمم المتحدة حول الأسماء الجغرافية في برلين أغسطس - سبتمبر ٢٠٠٢م.

(٢) منشورات عكاظ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م. د. التازي: دور الفيروزآبادي في ازدهار الدراسات اللغوية بالمغرب، بحث قدم إلى المؤتمر العالمي للذكرى المئوية السادسة لوفاة الفيروزآبادي في مدينة شيراز وفيروزآباد لمحافظة فارس، إيران، جمادى الأولى ١٣٢٠هـ / سبتمبر ١٩٩٩م.

(٣) الرحلة العياشية، ج ١، ص ١٨٩.

يعرفه أهل المغرب والمشرق فقد كانت هذه الصفة فيه تدفع به إلى أن يعتمد على السجع في أداء تعابيره، كما يعتمد على الشعر في الإعراب عن عواطفه، ومن هنا نجده لما انحدر إلى الجحون، ودنت له مكة، وأشرقت عليه بانوارها، واشتدت الأشواق إليها، قال قصيدة هذا مطلعها:

لقد فزنا ولله الثناء
وأدركنا من المولى العطاء
وأشرفنا على حرم أمين
له من كل ناحية يجاء!![1]

قال الشرقي: وكانت أكثر من ثلاثين بيتاً اختطفتها يد السارق، وتركت القلب من أجلها في محارق.

ودخلنا[2] مكة في عصر سادس من ذي الحجة الحرام (٢٠ أغسطس ١٧٥٧م) ولم يسعنا أن نقدم شيئاً قبل التوجه إلى بيت الله الحرام، إذ ذاك هو منتهى الشوق وغاية المرام، فجئنا نؤم البيت الحرام، بنيل المنى وبلوغ المرام، وكادت أن تطير من شدة الفرح القلوب، وفازت بما هو لديها المأمول والمطلوب، ودخلنا البيت من باب السلام، اقتفاء لأثر النبي عليه الصلاة والسلام، داعين للبيت العظيم، بزيادة التشريف والتعظيم، قال التقي الفاسي: باب السلام هو أول باب في الجنب الشرقي، وعليه منارة المسجد الحرام... إلى آخر النص الذي أورده الشرقي نقلاً عن الفاسي حول باب السلام.

وأشرفنا منه على ذلك البيت الشريف، الغني عن التعريف، وقد تبدت أنواره، وتدلت أستاره، وبرقعه مشمر عن الأسافل، حتى لا يكاد يناله علي ولا سافل، إذ عادتهم أن يفعلوا ذلك به من أول ما تقدم الوفود، ولا تطلق أستاره حتى تؤوب وتعود،

(١) شعر ابن الطيب الشرقي الفاسي، تحقيق د. عبد العالي الودغيري، طبعة ١٩٩٦م، رقم الإيداع القانوني ١١٩٥/ ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٢) حصلت على صورة كاملة من مكتبة ليبسيك، وإنني لأغتنم هذه الفرصة لأجدد الشكر لترحيب القائمين على المكتبة، كما أشكر سفارتنا في برلين لمساعدتها الثمينة في شخص سعادة القائم بالأعمال الأستاذ رضى الفاسي.

وقد قال أبو سالم في هذا المعنى، وأبدى فيه تشبيهاً غريب المبنى، وهنا أورد الأبيات الثلاثة المعروفة التي أوردها العياشي.

فلما وقعت عليه الأبصار تحير النظر والإبصار، واقشعرت الجلود، وذهلت العقول، وشاهدنا من الهيبة والعظمة ما ليس بمعروف في غير ذلك المكان ولا معقول.

ثم أورد قطعة شعرية همزية من ستة أبيات لم ينسبها، وهي كالآتي:

بدا لك الحق فاقطع ظهر بيداء
واهجر مقالة أحباب وأعداء

واقصد على عزمة أرض الحجاز تجد
بعداً عن الخط في نزل الأوداء

وقل إذا نلت من أم القرى أرباً
وهو الوصول بأسرار وإبداء

يا مكة الله قد مكنت لي حرماً
مؤمناً لست أشكو فيه من داء

فمذ رأى النازح المسكين مسكنه
في قطرك الرحب لم ينكب بإيذاء

شوق الفؤاد إلى مغناك متصل
شوق الرياض إلى طل وأنداء

ولما ضج الضجيج، وراتفعت أصوات الحجيج، ذكرت قول القائل في مثل هذا الموقف الهائل:

وافى الحجيج إلى البيت العتيق وقد
سجا الدجى فبدا نور به بزغا

عجوا عجيجاً، وقالوا: الله أكبر ما
للجو مؤتلقاً بالنور قد صبغا

قال الدليل: ألا هاتوا بشارتكم
فمن نوى كعبة الرحمن قد بلغا

نادوا على العيس بالوقران وانتحبوا

وود كل فؤاد نحوه وصغا

وكل من ذم فعلاً نال محمدة

في مكة ومحامد قد جنى وبغا!

قال: وكلما جددت النظر في محاسن البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود، واستشعرت قول العارف الشبلي لما وفد على حضرة الجود:

قلت للقلب إذ تراءى لعيني

رسم دار لهم فهاج اشتياقي

هذه دارهم وأنت محب

ما احتباس الدموع في الآماق؟!

إلى آخر الأبيات المعروفة.

وكلما نظرت يميناً وشمالاً، وهبَّت عليَّ من نفخات البيت صباً وشمالاً، أنشدت وقد ملت في الوجد مالاً:

هذي أباطح مكة حولي، وما

جمعت مشاعرها من الحرمات

أدعو بها لبيك تلبية امرئ

يرجو الخلاص بها من الأزمات

قلت: المنى، بمنى، لو أنني لم أخف

بالخيف من ذنب أحال سماتي

وعرفت في عرفات أني ناشف

للعفو عرفاً عاطر النسمات[1]

إلى آخر الأبيات التي أوردها الشرقي.

ثم تجاوزت باب بني شيبة وفي قلبي ما لا أكيفه من الهيبة، وتيممت الحجر الأسود،

(١) شعر ابن الطيب الشرقي الفاسي، تحقيق: د. الودغيري.

وتجنب كل أحمر وأسود! وكبَّرت وقبَّلت، وجعلت البيت عن يساري، وشرعت في الطواف، وأقبلت حتى فرغت من طواف القدوم، واستشعرت الوجود، وقد كنت من الذهول في حيز المعدوم! وربما كنت أتمثل في المطاف، وقد ألبست جلابيب الألطاف، الدانية القطاف، بقول ابن رشيد البغدادي[1]، تقوية لأمرادي:

على ربعهم لله بيت مبارك
إليه قلوب الناس تهوى وتهواه
يطوف به الجاني فيغفر ذنبه
ويسقط عنه جرمه وخطاياه
وكم لذة أو فرحة لطوافه
فلله ما أحلى الطواف وأهناه![2]

وربما أتوجه إلى الله في نيل الأوطار، التي حببت لها الأقطار، وأحمده على أن سكن القلب في حرمه، وطالما إليه طار! وألجأ إليه فيما ارتكبه من الأخطار، طوبى لمن طاف بالبيت العتيق، وقد لجأ إلى الله في سر وإجهار.

فكل من طاف بالبيت العتيق نجا
حقاً وقد راح معتوقاً من النار

وربما تأملت حسن جمال الكعبة الباهر الظاهر، فأنشدتها قول من أقبل عليها بالنداء الظاهر:

يا كعبة الله! كم من عاشق قتلا
شوقاً إليك ورام الوصل ما وصلا!
يمسي ويصبح محزوناً ومكتئباً
ويهجر الأهل والأوطان والطللا

---

(١) تنعت مخطوطة ابن الطيب الشرقي التي بين أيدينا، وهي ليست بخطه، تنعت ابن رشيد بالبغدادي، وإنما نعرفه منعوتاً بالسبتي، وهو صاحب الرحلة السالفة الذكر.

(٢) وزن هذه القطعة ورويها يذكر في قطع طويلة كان أحمد بن ناصر يستشهد بها في رحلته، وتبعه عدد من الرحالين، ولم أهتد حتى الساعة لاسم ناظمها.

لولاك ما سرت الركبان من طرب

كلا ولا قطعت سهلاً ولا جبلا

ولا رأت كل ضيق فيك متسعاً

كلا ولاخفَّ عند كل ما ثقلا

باعوا النفوس رخيصاً في هواك وما

تغلو النفوس بوصل منك إن حصلا!

فيا ما أطيب هذه الأوقات المباركة التي لا تعدل بمقاومة ولا مشاركة! ويا ما ألذ ما لقيناه عند تقبيل الحجر من الازدحام، والمنهل العذب كثير الزحام! ويا ما أقصر الوقوف - وإن طال - بالملتزم! ويا ما أكثر الورود من ماء زمزم! ويا ما أحسن التمتع في الحجر بلا حجر! ويا ما أكمل الأماني بالوقوف حول الركن اليماني!! ويا ما أقرب الدعاء في تلك الأماكن للإجابة! ويا ما أسعد من أكرمه مولاه فجاء به إلى بيته الحرام ولبى دعاه وأجابه!

ولما غربت الشمس، وطابت النفس، أدَّينا صلاة المغرب، وقدمناها على ركعتي الطواف تحرياً للخروج عن وقت النهي مع قلة الفصل، ثم صلينا ركعتي الطواف خلف المقام، وقبّلنا الحجر، وخرجنا لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا، وبدأنا بما بدأ الله تعالى به، فوقفنا على الصفا، وارتقينا على مدارجها حتى قابلنا البيت، وبالغنا في الدعاء لله تعالى لنا ولوالدينا ولأشياخنا وأحبابنا ولعامة المسلمين وخاصتهم.

ثم أتينا المروة في زحام كثير من أخلاط الناس الواردين وغيرهم من البلاد؛ لأن المسعى سوق من أسواق مكة العظيمة، ولو وفق الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم، لكان في ذلك خير كثير لما يحصل للساعين من التضرر بكثرة الزحام[1]!

وما فرغنا من السعي حتى قربت العشاء، فدخلنا المسجد، وصلينا العشاء، وخرجنا نتنظر محلاً ننزل فيه، فما ألفيناه حتى مضى ربع من الليل بقرب المسعى، فأنزلنا فيه أمتعتنا، وبتنا به حتى طلع الفجر، وتوضأنا وجئنا لصلاة الصبح بالمسجد الحرام، فطفنا

---

(١) هذه شكوى ظلت شعار الحجاج منذ أن رفعه أبو سالم العياشي ... وقد حقق الله اليوم أماني أولئك السالفين بما أنجز على أيدي اللاحقين من آل سعود.

لأن تحيته الطواف، ويتأكد في حق المسافر... وصلينا فيه وبقينا حتى أشرقت الشمس، وكمل لنا الأنس، وظللنا ذلك اليوم نردد العبادة بين صلاة وطواف، وتمتع بالنظر في الكعبة والطواف، وتضلع بماء زمزم، وتذلل بين الركن والمقام والحجر والملتزم، ومع ذلك نبالغ في اللجوء إلى مولانا، ونسأله الزيادة على ما أولانا!

ولما قبل ابن الطيب الشرقي الحجر الأسود الذي لا أشرف منه ولو أسود، قال شعراً حول الحجر على نحو ما أنشده من الملتزم، وفي الحجر والحطيم، وعندما بلغ الأماني بالطواف في الركن اليماني، وعندما خلص القلب وصفا وسعى بين المروة والصفا.

ثمانية مواقع لم يستطع الشرقي أن يمر بها دون أن يسجل له شعراً حولها مما يعبر عن مدى تعلق الرجل بتلك الأماكن، ونحن نعرف أن الشاعر لا يصوغ بيتاً من الشعر إلا عندما يحس في أعماقه بنازع ووازع.

يشبه الشاعر البخور فلا ينشر طيباً إلا على النار يحرق!!

وتقديراً لعواطف الرجل فإننا نثبت هذه الأشعار هنا، قال في الحجر الأسود:

حصلت على المجد والسؤدد
وأمنت من سالح أسود
وصليت ما شئت خلف المقام
وقبلت فالحجر الأسود

وقال في الملتزم وقد التصق به الجسم والتزم:

يا إلهي قد أتى الملتزما
عبدكم يرثي الذنوب أزما
هد يا رب قواه وبرى
جسمه مولاي حتى عزما
فاخفضنْ بالفضل ربي نصبه
واجعل الملتزم الملتزما

وقال في الحجر والحطيم، وقد ضاعت أعرافها ولا ضوع المسك اللطيم:

هديت إلى الصراط المستقيم

فجئت لحجة البيت العظيم

وعند الحجر قال الحجر: أبشر

فقد حطمت ذنبك بالحطيم!

وقال لما بلغ الأماني بالطواف حول الركن اليماني:

حصلت على الذخائر والأماني

وبُدِّل كل خوف بالأمان!

أما قد بلّغت حول البيت سبعاً

ولامست اليد الركن اليماني

وقال لما خلص القلب وصفا، وسعى بين المروة والصفا:

صفا القلب لما أن وقفت على الصفا

فلله ربع فيه كل امرئ صفا

وأمسى فؤادي ليّناً ذا سهولة

وقد كان قدماً وهو أقسى من الصفا

وفي المروة الغراء زادت مروءتي

كمالاً، ولم لا وهي منزلة الوفا؟(١)

وخرجت ـ يقول الشرقي ـ بعدما ارتفع النهار لأدبر الخروج إلى عرفات، وأصلح الأواني مما أصابها من الآفات، وأستعد للزاد، وأنظر ما نقص وزاد! فظللت أسعى في تحصيل ذلك الغرض، وكلما عنَّ وقت من أوقات الصلاة آتي المسجد الحرام فأصلي فيه الوقت الذي عرض.

وبتنا بمكة أيضاً وقد فاضت علينا أنوارها فيضاً، وأصبحنا يوم الأحد (٢٢ أغسطس) جادين في الرحيل إلى عرفات إذ لم يتأخر عنه في ذلك اليوم أحد، وهو ثامن ذي الحجة

(١) شعر ابن الطيب الشرقي الفاسي، تحقيق د. عبدالعالي الودغيري، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، القنيطرة ١٩٩٦م.

الذي يتعين فيه الخروج لعرفات تكميلاً للحجة، وهو المعروف بيوم التروية. وكان آخر العهد بالبيت الطواف به؛ لأنه مشروع عند الخروج لمنى وعرفات كما نص عليه أبو الحسن والشيخ خليل وابن هلال وغير واحد من أرباب المناسك.

وارتحلنا بعد الزوال؛ لأن ذلك هو السنة في الارتحال، فنزلنا بمنى فوق مسجد الخيف بسفح جبل ثبير، وبتنا في تلك الليلة بمنى إذ المبيت بها هو السنة كما في دواوين الفقه، وقد منّ الله علينا بإحياء هذه السنة حول هذا الموضوع التي قد أميتت منذ أزمان.

فقد قال الحطاب: وهذه السنة قد أميتت منذ أزمان... وهنا ذكر الشرقي بعض الرحالين الذين اقتبس منهم حول هذا الموضوع من أمثال ابن رشيد والعبدري وغيرهما وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب.

قال الشرقي: ولما رأينا ذلك طلبنا من الشيخ (شيخ الركب المغربي) أن يبيت هناك إحياء لتلك السنة، فأسعفنا بذلك، وبتنا هنالك، وقد صدق القائل: فإن الموضوع مخوف! فقد سرقت في هذه الليلة جماعات كثيرة من ركبنا، وذهبت بغال وأموال عريضة، وسرقت لنا خيمتنا بما فيها من حوائج وأمتعة وطعام وغير ذلك، حتى لم يبق لنا ما نسد به الرمق هنالك! تقبل الله جميعه منا، وجعله سبب رضاه! فإن المصيبة في مثل هذا المقام لا تخلو من ألطاف خفية يتعذر حصولها لمن قعد أو قام!

وأصبحنا مسرورين بقبول ذلك القربان، وظهر علينا فضل الله تعالى في ذلك وبان...

وارتحلنا من هناك بعد طلوع الشمس قاصدين لعرفات التي عرف فيها من كل وحشة الأنس، وفاضت فيه عرفات رحمة الله على الجن والإنس، وليس عندنا قلامة ظفر، نقضي بها أدنى غرض بين أهل الوفر! ومع ذلك لا أبالي ولا يخطر أسف على ما تلف ببالي، فقيض الله جماعة الركب، وقاهم الله من كل كرب، أن تعرضوا لي في الطرقات، لما سمعوا أنى ممن عمته السرقات! ونوعوا لنا أنواع الطعام، وأظهروا كل نوع ناعم وبالغوا في الإكرام، وأنالوا غاية المرام، جزاهم الله خيراً، ووقاهم ضيراً، وأكثروا من التردد إلينا، والورود علينا، وتأنيسنا بالكلام اللين، وتذكيرنا بأن ما سرق سهل في جنب ما نلناه من

الأماني وهين! وما علموا أن ذلك عندنا هو المطلوب، وأنه راحة الأجسام والقلوب، إذ هو علامة القبول والإقبال، فأنى يخطر لي التغير عليه ببال؟!

ولم نزل في الخيام التي ضربناها للقيلولة إقامة للسنة، والناس ينوعون الأطعمة والأشربة فرحاً بهذا اليوم العظيم، الجدير بالتبجيل والتعظيم، ويأتوننا بذلك، أو يطلبون منا التوجه معهم لخيامهم جبراً لخواطرنا وتأنيساً لنا بذاك؛ لأن عادة أهل الدنيا أنهم يبالغون في الأسف على ما فاتهم منها أو سرق لهم فيقيسون الناس على أنفسهم!!

وكنا نساعفهم بالأكل من الطعام الوارد، والذهاب مع من طلب، جبراً لخواطرهم، ورغبة في استئناسهم حتى زالت الشمس، وأتانا بعض أصحابنا بكوب ماء فاغتسلنا الاغتسال الثالث من اغتسالات الحاج، وصلينا الظهر والعصر جمعاً، وارتحلنا لقضاء الركن الذي لا أعظم منه، وهو الوقوف بعرفات الذي قال فيه النبي ﷺ: «الحج عرفات»؛ أي معظم أركانه، كما هو مقرر في الفقه...

ومنّ الله علينا بأن جعل الله الوقفة يوم الاثنين (٢٧ أغسطس) فقد صرحوا بأفضليته من عدة وجوه مذكورة في المناسك وغيرها حتى جعلوه قريباً من يوم الجمعة أو مساوياً لها.

وصعدنا الجبل ووقفنا شامي القبة التي على الجبل، وحشر الناس في نواحي الجبل أفواجاً أفواجاً، ودفعوا في أرجائه وجهاته أمواجاً أمواجاً، وأخذنا في الانتقال من موضع إلى موضع رجاء أن تحصل لنا من الوقفة بركة سبب تلك الحركة ....

وكثيراً ما حرصنا على سماع الخطيب، وقربنا من موضعه لاستماعه، فلم نتمكن من سماع حرف واحد من خطبته! لكثرة الأصوات واختلافها، وازدحام الناس على ارتضاع أخلافها مع اختلاف لغاتها ومطالبها، وتباين مقاصدها ومآربها!!

ولم نبرح واقفين متذللين خاضعين لله تعالى سائلين طالبين راغبين راهبين باكين داعين، نبالغ في الدعاء، ونسأل الله تعالى من فضله أن يمن علينا بخيرات الدنيا والآخرة العاجلة والآجلة، لنا ولوالدينا ولأشياخنا وأصحابنا وإخواننا، ولمن سألنا الدعاء، ولجميع المسلمين، وعلى الله تعالى البلاغ، حتى غربت الشمس وتحقق غروبها، ونفرنا من

هنالك... وقد وقعت فتنة بين أمير الركب الشامي وأمير الركب المصري حتى عزما على القتال، وتقابلا للاقتتال، فحال بينهما أمير مكة وفصل بين الأميرين، ودخل بينهما جزاه الله خيراً!!

وسرنا في الأخريات، ولم نر بفضل الله زحاماً ولا ضيقاً حتى خرجنا من بين المأزمين بعد مغيب الشفق، وعدلنا يميناً، واستندنا للجبل، ونزلنا وجمعنا بين الصلاتين، وبتنا بخيمة محبنا التاجر الفاضل الحاج محمد بن عبد الحميد المراكشي؛ لأنه كان يحاذينا من نفورنا إلى أن وصلنا لهذا المحل، وحرص على مبيتنا عنده جزاه الله خيراً.

ولما نزلنا أكرمنا وسقى بغلتنا وعلفها، فبتنا عنده في أرغد عيش، وجلب من عرفات أنواع الفواكه والأرز وغير ذلك، تقبل الله عمله، مع كونه سرقت له بغلة جيدة يوم سرقنا بمنى ... تقبلها الله منه ...

والتقطنا الجمار من مزدلفة، ونمنا حتى طلع الفجر، وجاءنا السيد الحاج محمد بالماء فتوضأنا وصلينا، وارتحلنا مغلسين إلى المشعر الحرام فوقفنا حوله، داعين مكبرين مبالغين في الدعاء والتطفل على الله تعالى لنا ولأحبتنا ولجميع المسلمين إلى الإسفار.

ولما كان الشرقي يعرف عن خفاء موقع بطن محسر فقد حاول أن يحدده فيما يلي:

ثم سرنا قاصدين منى، وأسرعنا في بطن محسر المعروف بوادي النار، وهو من أول ما تحاذي البركة الخربة التي هي على يسارك، إن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى، حتى تأخذ في الطلوع إلى منى وترتفع بك الأرض. وبهذا عرفه أهل عصره بالمناسك الشيخ خليل حسبما نقله البلوي في رحلته إذ سأله عن حدّه.

وسرنا راكبين على هيئتنا حتى رمينا جمرة العقبة من أسفلها بالحصيات السبع التي التقطناها من المزدلفة، وملنا إلى الحلاقين الذين هنالك فألفيناهم في شغل شاغل من كثرة الزحام، وأكثر الناس يكتفي بحلق ناحية من رأسه، ويغتر بقول الحلاقين له: يكفيك هذا!

وهنا ينتقد الشرقي مثل هذه الأقوال من الحلاقين فيعلق على ذلك بأن قصدهم أن يتفرغوا لكسب دراهم أكثر من الحجاج حتى لا يفلت منهم أحد!

ويرجع إلى الموضوع ليقول: ثم ذهبنا كذلك لنغتنم طواف الإفاضة ... ولما فرغنا من الطواف ألفينا باب الكعبة المشرفة مفتوحاً فأخذنا في معاطاة أسباب الوصول إليه، فتعرفنا للقيم عليه فيسر الله علينا أمره، وارتفعنا للدخول إليه راغبين، ولم أشعر حتى وجدت جسمي ملقى في داخل البيت، وكأني أفقت من هيئة ميت! ولم أدر كيف وصلت لذلك!! ولا بماذا نلت الوصول لهنالك، فأخذتني قشعريرة، واعتراني ما يعتري الموصول من ذهول الوصول!! وأخذنا في الصلاة إلى أركان البيت الأربعة، وأطلنا في الصلاة، وبالغنا في الدعاء لنا ولأهلينا .... وأطلنا المكث فيه، رغبة في تحصيل ثواب داخله وقاصده...

وبعد أن ينتقد الشرقي القول بمنع دخول الكعبة يحاول أن يقدم وصفاً لما رآه داخل الكعبة ليعطي فكرة عن ذلك للذين لم يستطيعوا الدخول إليها: « ... وداخل الكعبة كله مرخم برخام ملون مجزع». وهنا ينقل عن التقي الفاسي حول أول من رخم الكعبة وأنه الوليد بن عبد الملك ... كما ينقل كذلك عن الأزرقي .... وفيه ثلاث دعائم، وفيه مصابيح كثيرة معلقة، بعضها من الذهب، وبعضها من البلار الأبيض الصافي المكتوب بلون أزوردي ... قال: وتأملنا هذه الأشياء وإن كان إمعان النظر فيه سوء أدب لما رأينا أنه يغتفر في حق من أراد تحقيق الأمور....

ثم نزلنا مسرورين فرحين من البيت الحرام الذي لم يطل فتحه. ويفيدنا أن العادة جرت على أنه لا ينصب سلم للدخول، وإنما يدخله من تكلف الصعود بمعين أو من يتوفر على خفة أعضاء! قال: وعلى الباب أحد خدام الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكاثرونه، فإن منع من جانب دخلوا من الجانب الآخر، وربما يتعامى عن البعض.!

قال: ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب من ضرب وشتم بألفاظ ينزه المكان عنها، والأولى عدم الدخول إلا لمن يتيسر له ذلك عفواً صفواً من غير إيلام ولا ملام كما منَّ علينا بذلك، دون كلفة ولا مشقة ولا سوء أدب هنالك، لله الحمد سبحانه.

وبعد هذا أخذ الشرقي يصف أوضاع الحجاج في الطواف، كل وطريقه الخاص في أداء واجبه... من يمشي مشية المتكبرين! وفيهم المسرع، ومنهم الباكي والضارع، قال:

فمن مزهو بوصاله، متبختر في طوافه، يتمايل بجميع أوصاله منشداً بلسان حاله:

لا تنكرن حال الطواف تبختري
وتمايلي سكراً بغير شراب!
قد كنت بالذكرى أهيم فكيف لا
عند الوقوف بمرتع الأحباب؟

ومن متعلق بأستار الكعبة مردد قول من سأل فيها ربه:

أستار بيتك أمن المستجير وقد
علقتها طامعاً في العفو يا باري
وقد نزلت ببيت قد أمرت بأن
نأتيه للأمن في العقبى من النار
وإننا جار بيت أنت حافظه
فارحم جواري كما أوصيت بالجار

ومن آخر أدركته من ذنوبه حجلة، فأخذ ينشد قول الشهاب ابن أبي حجلة:

سألتك كشف الضرّ في السرّ والجهر
بحرمة هذا البيت يا مسبل الستر
فحرمته أنت العليم بقدرها
ونحن مع الآباء في عالم الذر

قال: وتركنا الناس ورجعنا إلى منى، لنكمل لنا بالأماني كل المنى، فكان نزولنا عند محبنا الحاج محمد الرسموكي، فكان كثيراً ما يبر بنا وغالب إقامتنا في خيمته...

وفي عشية النهار ذهب بعض أصحابنا ببغلتنا فسقاها لنا من ماء المزدلفة، وعلفها لنا صاحبنا الطالب السيد سالم الصيد القروي، وبالغ في تكثير الشعير لها!!

وفي الليل أوقدت الأركاب المشاعل للمشاركة في الاحتفالات التي تجري بمنى بهذه المناسبة، وخاصة من لدن الركب المصري والشامي، وهنا يتحدث الشرقي عن ليالي منى بما تعرفه من إطلاق مدافع ومحارق.

وبعد أن يتحدث عن إقامته بمنى يومين لإتمام عملية الجمار يخبر عن قصيدة شعرية قالها في هذه الأثناء، لكن يد السارق سطت عليها، ومع ذلك فإنه يورد ما علق منها بالبال:

قــد عــرفنا الخــيــرات في عــرفــات
وضــــمـنا من ســـائر الآفـــات

وظـفـــــرنـا بمـا أردنـا وفـــــزنـا
بعليّ القـــصـــور والغـــرفـــات

وازدلـفـنـا لـربـنـا وجـــمــــعـنـا
كـل خــيــر بجـــمع مـــزدلفـــات

ولـدى المشـعــر الحـرام شـعــرنـا
بقـــبـــول الأعــمـــال والدعـــوات

وأرتـنـا المنـى مـنـى ولـدى الخــيــ
ــف أمنا من ســائر الخــوفـــات

ورمــينا الجـمــار نطفي جـمــار الـ
ـذنب، فـأعـجب للضـد في الجـمـرات

وحـلـقـنـا فـــحـلـقـت حـــولـنـا كـم
حلقـــات من أضـــرب الخـــيـــرات

ثـم طفـنـا إفـــاضـــة حـــول بيـت الـ
ـله - جلَّ - ســـبــعـــاً في الطوفـــات

وركـــعنا خلف المقـام فـيـا حـســ
ــن الركـــوع هناك والمســـتــجــدات

ورجـــعنا إلى منى لتـــمـــام ال
أمـنـيـــــات هـنـاك والـنـيـــــات

منزل لحـــمـــاه تجـــتـــمع الأر
كـاب طراً من ســـائر الســـاحـــات

قـــدرهـا وازدهـى فـلـيـس لـه شـــبـ
ـه ومـــا إن لحـــسـنـه مـن مـــوات!
وتـشـــابـهـت الـســـمـــاء مـع الأر
ض لـديـه فـي غــــاسـق الظـلـمــــات
فـالـسـمـاء بـشـهـبـهـا قـد أضـاءت
والـثـــرى بـشـــمـــوعـــهـــا الزاهـرات

ويتحدث الشرقي الفاسي بعد قصيدة "الخير في عرفات"... عن خروجه لرمي الجمار لما زالت الشمس... حيث أخذ بالأولى التي تلي مسجد الخيف ثم الوسطى ثم ذات العقبة.

وهنا يتحدث عن "الموضع المعد لذبح الهدايا" الذي مر به عند ذهابه للرمي وإيابه.. ويذكر أنه رأى في هذا الموضع من البقر والغنم والإبل المذبوح ما أوسع الغني والفقير، ونال منه الجليل والحقير، حتى كان البعض من الفقراء يأخذ العشرين من الغنم وأكثر، وأما الجلد والساقط، فلا يأخذها لاقط... ومع ذلك فضل عن الفقراء ما أعجز الوحش والطير والهوام، وعم الخواص والعوام... وهو يرجو الله أن يشفع هذه الضيافة المحسوسة لعباده بالضيافة المعنوية، ويقابلهم بالمغفرة والعفو.

ويتحدث عن سوق منى التي يقصّر القلم دون وصفها ولا يبلغ معشارها فضلاً عن نصفها، جمعت بين أنواع البضائع، ما ليس بضائع، والناس يتزاحمون فيها على البيع والشراء ومعاهدة التجارة رجاء بركة ذلك المكان... ومن السوق قصد مسجد الخيف... وقف على العقبة التي في وسطه التي يقال: إنها محل خيمة الرسول ﷺ... كان يتردد على هذا المسجد طوال أيام مقامه بمنى.

وبهذه المناسبة يتحدث عن آيات منى التي يذكر فيها أنها تتسع لهذا العدد الضخم من الحجاج مع أنها محدودة المساحة.

ويتخلص بعد هذا لإيراد شعر الشهاب ابن أبي حجلة في منى يقول في أوله:

شـكـرت إلـهـي بـعـــد حـلـقـي فـي منـى
بـيـوم حـمـدنـا فـي صـبـيـحـتـه الـقـرى

وشعر الصلاح الذي يقول في أوله:

قد رميت الشيطان في يوم حجه
بجمار في طاعة الرحمن

ويذكر أن قريحته جادت كذلك بشعر قاله لما حل بمنى:

بلغنا المنى لما بلغنا إلى منى
وزال العنا عنا فلم نعن بالعنا!
وحصيت الآثام عند محصب(١)
وبالخيف زال الخوف عن كل من عنى

... ويلاحظ اهتمام ابن الطيب ببغلته، والعناية بها، والاطمئنان عليها شاكراً لزملائه الذين يكفونه أمر علفها من أمثال أبي العباس التازي.

ولم ينس ابن الطيب الشرقي الليلة الساهرة بمنى؛ حيث بالغ أهل مصر وأهل الشام في إيقاد المصابيح واتخاذ المصانع منها، وصور الأشجار والأخبية والوحوش والطيور.

لقد أكثروا الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق التي ترتفع في الجو، وقد فعل مثل ذلك سلطان مكة، وقابله أمير جدة، وأبدعوا في المعارضات والمقابلات.

إن ليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان، ومجال بركة وعافية وأمان... إنشاء من هذا القبيل يردده الشرقي الفاسي بأسلوبه المعروف.

ومن الغد أصبح الناس متأهبين للارتحال.. وارتحلنا متعجلين... إذ لم نجد من يعيننا على الإتمام... لا ننسى أن الشرقي نهب عند مبيته بمنى وهو ما يزال يشكو من كثرة اللصوص و"الحرامية" كما ينعتهم على نحو نعت المصريين.

وهكذا توجه للبيت الحرام بمكة... إن القلب ما يزال يتشوق إليه... فالقلوب مجبولة على الميل إليه، لا تكاد تصبر ساعة عليه، وهذا من خصائص هذا البيت المعظم.. وهنا ينقل عن العلامة الفاسي في كتابه "العقد الثمين" حول الآيات البينات التي خص الله بها هذا البيت، وهي كثيرة نقلها ابن رزين الحنبلي... وكان في صدرها حنين الأفئدة إليه، فكأن مغناطيساً يجذب القلوب إليه.

---

(١) شعر ابن الطيب مصدر سابق.

محاسنه هيولي كل حسن
ومغناطيس أفئدة الرجال!
لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها
حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

ولا تكفيه الأبيات المفردة، فيأتي بقطعة شعرية نونية من اثني عشر بيتاً، وهي تقول:

أطوف به والنفس بعد مشوقة
إليه، وهل بعد الطواف تدانِ؟
وألثم فيه الركن أطلب بردها
بقلبي من شوق ومن هيمانِ
فوالله ما أزداد إلا صبابة
ولا القلب إلا كثرة الخفقانِ
فيا جنة المأوى ويا غاية المنى
ويا منيتي من دون كل أماني
أبت غليان الشوق إلا تقرباً
إليك، فما لي في البعاد يدانِ!
وما كان صبري عنك هد قلالة
ولي شاهد من مقلتي ولسانِ
دعوت اصطباري عنك من بعد والبكا
فلبّى البكا، والصبر عنك عصاني!
وقد زعموا أن المحب إذا نأى
سيبلى هواه بعد طول زماني!!
ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا
دواء الهوى في الناس كل أوانِ
بلى إنه يبلي التصبر والهوى
على حال لم يبله الملوانِ

وهذا محب قاده الشوق والهوى
بغير زمام قائد وعنانِ
أتاك على بعد المزار ولو هوت
مطيته جاءت به القدمان!!

وقد أتى بعد هذه القطعة بما أنشده ابن رزين الحنبلي[1] حول ميل الحلف إلى الكعبة الشريفة:

محبة ما عرفت الدهر سلوتها
تجري مع الروح أو تسري مع النفس
وما لها آخر لكن أولها
تعارف سابق في حضرة القدس
في عالم الذر ناجاني البشير بها
أهلاً بمثبتها طهراً من الدنس
أشهى إلى النفس من أمن علا وجل
ومن مجال الكرى في الأعين النفس

ويستمر في النقل عن ابن رزين الحنبلي الذي ينشد:

يا كعبة ملاتنا
شوقاً يسوق العزائم
كم ذا قلوب إليها
مثل الطيور حوائم!
من بيت عليا له في الأرض منزلة
يكاد يحسده من أجلها الأفق؟
قد أودعت فيه أسرار الهوى، فلذا
تراه يلثم أركاناً ويعتنق!

(١) كتبت في المخطوطة الزين وهي ليست بخطه، والصواب ابن رزين. والقصد إلى عبد الرحمن بن رزين بن عبد العزيز بن فكري بن علي بن أبي الجيش الغساني الحواري الحوارني ثم الدمشقي الفقيه سيف الدين أبو الفرج. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، ج٤، ص ٢٦٤.

ويمضي ابن الطيب الشرقي في هذا النقل الرفيع الذي يحاول أن يبرز السر في اشتياق المؤمنين إلى مشاهدة الكعبة... معلقاً بقوله: وهذا كلام بديع في معناه، دال على أن قائله قصده مولاه بالعناية وعناه!!

وبعد هذا الاستطراد... يعود إلى الحديث على أنه دخل المسجد هذه المرة كذلك من باب السلام حيث بادر للطواف، إن الطواف للغرباء أفضل والصلاة للمقيمين أفضل، وإن الطواف يعني التواضع لله والحضور الكامل أمام الحق سبحانه:

يا من يطوف ببيت الله في الجسد
والجسم في بلد والروح في بلد
ماذا فعلت؟ وماذا أنت فاعله
مبرح في التقى للواحد الصمد
إن الطواف بلا قلب ولا بصر
على الحقيقة لا يشفي من الكمد

قال: ولهذا كرهت الإقامة في الحرمين مع اشتغال البال بغيرهما!! والتشوق للبلدان والإعراض عن خيرهما!! إن اشتياق الإنسان إلى الحرمين وهو في بلده مما يثاب عليه بخلاف إقامته في الحرمين مع وجود قلبه يتعلق ببلده!! وينقل هنا عن الإحياء للغزالي حول الإقامة بمكة:

يطوفون بالبيت العتيق تقرباً
إليك وهم أقسى قلوباً من الصخر!!

وقد أنشد ابن رزين الحنبلي للشريف موسى الخطاب:

ظفرت من الطواف ببيت رب
بأوقات لها في القلب حظوه
فمن لي بالخلاص ولو بشوط
ومن لي بالقبول ولو بخطوه!!

ويتحدث ابن الطيب عن فضيلة الطواف في أثناء نزول المطر... وينقل عن ابن رشيد الفهري في رحلته فضل تلاوة القرآن في الطواف عند ذلك النزول.

إن الحاج في البيت الحرام بمكة، مهما كان مركزه، يجب أن يستشعر الذلة والصغار... إن الأكابر فيها كلهم صغار، يقول الشرقي الذي يستشهد بهذا البيت:

ونحن الأوالي في البلاد جميعها

وفي حي ليلى من أقل عبيدها!!

ويتخلص لفضائل الحجر الأسود... مستشهداً لذلك بما ورد في الأحاديث وما حفظه من الشعر من أمثال:

أقول وقد زوحمت عن لثم أسود

من السراب: عجيب فما البيت يحجب!

فإنك مني بالمحل الذي به

محل سواد العين أو أنت أقرب!

هذا إلى أشعار للصلاح، وكان منها قطعة طويلة من ثلاثين بيتاً قافيتها راء يقول في أولها:

إذا لاحت لنا ذات الستور

فأهون بالشموس وبالبدور

وبعد أن يعرض بالقرامطة الذين استطالوا على الحجر يختم هكذا:

ونال المؤمنون علو مجد

وأهل الكفر خصوا بالدحور!

وينقل عن أبي عبيد البكري في كتابه «المسالك والممالك» ما قاله عن مصير الذين جرؤوا من القرامطة على السطو على الحجر... الذي - كما نعلم - قبّله النبي ﷺ، وهنا ردد ابن الطيب قولة عمر بن الخطاب: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت محمداً يقبلك لما قبلتك.

ويستمر ناقلاً حول الحجر الأسود عن ابن رزين الحنبلي والشيخ خليل في «مناسكه».

ويقدم الرحالة كذلك ما قيل نثراً وشعراً عن الركن ومقام إبراهيم والحجر (بكسر الحاء) والميزاب وزمزم.

وللشهاب ابن أبي حجلة:

يا سائلي عن مقامي بالمقام عسى
جلوت كأس مَرَام عند مغتبق
وكم حسنات فاض في الحجر درها
وسال بها حتى امتلأ حجري

وأنشد ابن رزين الحنبلي لبعض الأدباء:

وطاف بكاسات الأماني ودونها
فطيب عيشي في المقام وزمزما

كما أنشد حول زمزم أبياتاً لآخرين:

ودار بماء زمزم لي نديم
وطاف لنا بكأس من معين!
لزمزم نفع في المزاج وقوة
يزيد على ماء الشباب لدى فتك
وزمزم فاقت كل ماء بطيبها
ولو أن ماء النيل يجري على مسك!!
شفيت يا زمزم داء السقيم
وأنت أصفى ما تعاطى النديم!
يا زمزم الطيبة المخبر
يا من علت قدراً على المشتري

وقد ذكروا لزمزم أسماء تنيف على خمسة وعشرين نبّه عليها ابن رزين الحنبلي، وأومأ إلى بعضها التقي الفاسي وغيره:

با لله قولوا لنيل مصر
بأنني عنه في غناء
زمزم العذب عند بيت
محقق الستر بالوفاء

وعدد ابن رزين الحنبلي وغيره لبئر زمزم آيات بينات غنية عن إقامة الحجج وإثبات

البينات!! وذكر منها أنه يقوم مقام القوت، وعليه جماعة من علماء المذهب، فمنعوا الاستنجاء منه، وفيها أنه لما شرب له، إلى آخر الأبيات التي ذكرها..

ويذكر هنا من شعر الشهاب ابن أبي حجلة:

لزمزم بئر غدا ماؤه
يرده بصفي حر
تزاحم الناس على شربه
والمنهل العذب كثير الزحام

وقال غيره:

حمدت إلهي إذ بلغت مرادي
بأم القرى مستمسكاً بعباد
وقد رويت من ماء زمزم غلتي
فلست بمحتاج لماء ثماد

ويخبرنا الرحالة بأنه أحياناً يلود السقائف لحماية نفسه من اشتداد الحرارة... ليبقى متمتعاً برؤية الكعبة التي تعتبر وحدها نوعاً من أنواع العبادة لله.. بل إنها عند بعضهم أفضل من الصوم والصلاة والجهاد:

قفوا واجتلوا من كعبة الله منظراً
فما لفوات منه في الدهر تعويض
وقد لبست سود اللباس تواضعاً
وكل ليالينا بأنوارها بيض

ولله در القائل:

يا كعبة الله إن ربي
آياته فيك بينات
وحيث ما كنت يا مناها
فلي إلى وجهك التفات

ويذكر قطعة نونية من أربعة أبيات تختتم بهذا البيت:

أما إنه بيت الكريم، ومن أتى

فناء كريم لم يفته حنانه

نعم هو بيت كريم خصه الله بالتكريم، يقول الشرقي الذي نقل هنا أن الإمام ابن جماعة ذكر لتفضله على مسجد الرسول وجوهاً كثيرة تنيف على اثني عشر، أرجحها وجوب قصده للحج والعمرة دون المدينة، وبعد تعليقه هو على الموضوع أورد ما أنشده ابن رزين الحنبلي من قول الشاعر:

هذي الديار التي قلب المحب به

شوق إليها وتذكار وأشجان

وأنة وحنين كلما ذكرت

ولوعة وشجى منه وأحزان

وقد ذكروا من وجوه أفضلية الكعبة كونها في الفلك، في المتوسط من الدنيا، ووسط كل شيء أحسنه:

لو لم يكن وسط الأشياء أحسنها

ما اختارت الشمس في أفلاكها الوسطا

وبعد أن يعلق الشرقي على الفكرة من وجهة نظر فلكية ينشر الأسماء العديدة المعروفة بمكة... قبل أن يعود إلى الحديث عن البيت الشريف والكسوة السوداء:

يا حسن بيت الله وهو مجرد

ولنا لهيبة نوره أطراف

فكسوه أسود والقلوب تترد لو

ضمت عليه سوادها الأحداق

ومرة أخرى يطرب الشرقي ذاكرتنا بالمزيد مما قيل من الشعر حول البيت المعظم:

حمانا من مخوف الدهر بيت

له بالذكر أركان وسقف

محوط بالسرور وبالتهاني
عليه البشر والإقبال وقف

الأبيات...

والشرقي بدوره يذكر أن حمى البيت الحرام لا يعلوه حمام، وإنما يطير في جوانبه خلف وأمام...

وحتى يؤكد ميوله الأدبية والشعرية وظهورها في رحلته فيقول: "وياما أنشدتني الأشعار إذا حدا إليها حادٍ له الأدب إشعار، فأقول له: إذا لوحت محاسن الكعبة التي خلبت قلوب البشر، واطمأن الفؤاد بالإقبال عليها واستبشر... وهنا يأتي أيضاً بقطعة ميمية من خمسة عشر بيتاً حول الكعبة المشرفة وما احتف بها من معالم في البيت الحرام:

وانظر عروس البيت يجلى حسنها
للناظرين فلذ بها مستمتعا
والطير لا يعلو على أركانها
إلا ليشفى إن غدا متألما!

وبعد هذا كله قام الشرقي الفاسي بأداء سنة العمرة حيث نجده في التنعيم لتعذر الجعرانة من كثرة الخوف وقلة الرفيق... لقد بانت الطريق من مكة إلى التنعيم كأنها سوق واحدة.

واغتسل هناك بالمسجد الذي يسميه الحجاج بالعمرة، وقصدوا الكعبة على ما هو معروف.

ويختم حديثه عن مكة المكرمة ـ وهذا مهم ـ بذكر من لقيهم من الشخصيات المرموقة من أمثال العلامة أبي عبد الله محمد بن عبدالله الفيلالي وابنه اللذين وردا من المدينة بنية الحج والعمرة(١).

وهذه فقرة تعيد إلى ذاكرتنا ذلك العدد المهم من المجاورين المغاربة بالحرمين الشريفين ممن عرفنا أسماءهم ومن لا نعرف.

---

(١) سلك الدرر ٢، فهرس الفهارس ٢، ص٨٨، د. عبدالعلي الودغيري، التعريف بابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص ٩٩.

العلامة الفيلالي هذا كان خير مرافق للشرقي الذي يذكر أنه كان يتحدث معه حول عدد من المسائل المتنوعة من الفنون العلمية: نحواً وفقهاً وبياناً وحديثاً على حد تعبير الشرقي.

ولما عرف الفيلالي مركز ابن الطيب سعى لكي يلقي درساً خاصاً بمكة حول تفسير البيضاوي.

قال ابن الطيب: وألفيت معه (الفيلالي) جماعة من طلبة الهند، فأخذ يثني لهم علينا، ويبالغ في الثناء بالسعة في العلوم... وإن كنا لسنا أهلاً لما قاله، جزاه الله خيراً. وسألني أن أقرئهم طرفاً من تفسير البيضاوي... فتعللت له بأني لا كتب لي ولا حواشي أستعين بها على ذلك... فأبى أن يقبل... فساعفناه بذلك في تلك الأيام التي انقضت كالأحلام، وكان الفيلالي يحضر هو وولده وناس كثيرون.

قال ابن الطيب: وطالع (الفيلالي) جملة وافرة من كتابنا (شرح نظم الفصيح)[1] فأعجب به إعجاباً كبيراً، واستغرب فوائده وكتب لنا عليه نحواً من خمس أوراق، بالغ فيها بالثناء عليه وعلى مؤلفه بكلام حسن وراقٍ، غير أن ما كتب إليَّ ضاع لي مع غيره من الأوراق!!

وإلى جانب الفيلالي التقى الشرقي الشيخ محمد الإسكندراني الضرير الذي سبق ثناء الإسحاقي على تفسيره المنظوم... الذي كان ينوي إهداءه إلى العاهل المغربي السلطان المولى عبد الله على ما أسلفنا، ويبدو أن الشرقي لم ينسجم مع هذا العلامة الضرير الذي انتقده انتقاداً قاسياً: يفخر بالذهاب للملوك للإرفاد، ولا يصرف الهمة لمن أفاد ولا لمن استفاد، يكثر من النظم في الرجز دون غيره من البحور... ورد علينا مراراً واختبرناه، فإذا هو رجل شاب فشبت فيه خصلتاه، وعمي قلبه لما عميت مقلتاه، طال أمله وأسند حرصه ونقص كماله وكمل نقصه، إذا تكلم ملأ الدنيا دعواً وأطال، فلا طائل ولا جدوى... سنحضر جملة وافرة من السير والحديث على ما بها من القصور، ومع ذلك تجده كثير الجدة والعناد شديد الغلظة على العباد يزعم أنه وأنه، وما علم أن أمثاله جديرون أن يثنوا أنة بعد أنة، ومولانا سبحانه يجبر كسرنا وكسره، ويطلق من

(١) هذا هو الكتاب الذي شرح به منظومة مالك بن المرحل السبتي (توفي ٦٩٩هـ) لفصيح ثعلب المشهور، لذلك سميت أحياناً (بشرح نظم الفصيح)، وقد خصص له د. عبدالعلي الودغيري بحثاً جيداً في كتابه قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب.

هاتك الدعاوي العريضة الكاذبة أسره[1].

وكان من العلماء الذين تعرف إليهم الشرقي الشيخ أبو العباس أحمد بن حجر مدرس قبة الشمع من الحرم الشريف الذي قال عنه ابن الطيب: رجل لا بأس به، له معرفة بالحديث كأسلافه رحمهم الله، وكان منهم الشيخ جعفر الذي تحدث عن صلاحه وسيرته.

وكان من العلماء الذين ذكرهم الشيخ أبو محمد عبد القادر بن يحيى الحنفي اليمني أحد خطباء الحرم وأئمته، وقد أثنى عليه قائلاً: وكان يبدي خطباً مجدة جامعة لا بأس بها، مع إتقان الحفظ ومراعاة المعنى واللفظ.

وكان كذلك منهم الشيخ محمد بن محمد قاضي زاده الأنصاري الشهير بالقاضي عيد الذي قال عنه: ودعانا إلى داره فأسعفناه رغبة في إدخال السرور عليه؛ لأنه رجل طعن في السن، يناهز المئة مع تعلقه بأسباب العلم، وتمسكه بأذيال الحكم، وخضنا معه في مسائل علمية متنوعة إلى عربية وحديث وأدب وغير ذلك، وقد شاهدنا من أحواله سمة الصلاح لما رأينا من إكثاره للذكر وإعلامه بالحمد والشكر.

إلى جانب هؤلاء تعرف الشرقي الفاسي إلى شخصيات أخرى في مكة، ولكنه لم يتذكر أسماءهم، ولم يشرب ماءهم.

ومن المهم أن نذكر أن الشيخ الشرقي الفاسي كان له نشاط علمي تميز به في أثناء مقامه، ويتعلق الأمر بطلب رأيه في بعض النوازل التي عرفتها المنطقة، وذكر - على سبيل المثال - إلقاء السؤال عليه حول شرب المسلم من الميزاب الذي كان على عهده من ذهب... ولا بد أن يتردد هنا أيضاً اسم ابن رزين الحنبلي.

وأخيراً يفيدنا بأنه ظفر من الديار الملكية المعظمة المشرفة بنص الرسالة التي قيدها الشيخ البكري التي ذكر فيها منازل الحاج الحجازية ومناهله... إذ نجد الشيخ الشرقي الفاسي يشرع في الاستفادة من مضامين الرسالة المذكورة وتقديمها للقراء.

---

(١) بهذه الكلمات القاسية تحدث الشرقي الذي لا شك أن للمنافسات العلمية أثرها في جملته، لا سيما وقد وقفنا اليوم على (تفسير المنظوم) بالمكتبة الظاهرية بدمشق وبمركز جمعة الماجد في دبي... وهو تفسير ينم على باع الرجل وكفاءته العلمية الممتازة.

كما ورد في الأحاديث ولما انحدرت من تلك الثنية انحاز معنا بعض صبياننا
إلى بعض الأشجار وجعلوا لنا حائلا عليها للستر واغتسلنا هنالك
وأشرقت علينا أنوار الحرم الشريف ضاعف الله له التعظيم والتشريف
ولاح لنا شعب أبي طالب الجامع لجميع المطالب وتذكرت قول ابن أبي
حجلة في ذلك لما وصل لهنالك

ولم أنس إذ وافيت مكة بكرة ... ودمعي من المآقي بها يتحدر
طويت إليها شقة البيد في السرى ... وأنوارها من ذي طوى لي تنشر
بذلت كنوز الدمع في مكة ... بخلت ببذل المال في الغالب
فكيف أخشى في الورى مهلكا ... ومطلبي شعب أبي طالب

وكنت لما انحدرت إلى الحجون ودنت لي مكة وأشرفت عليها واشتدت
بي الأشواق إليها قلت قصيدة أولها

لقد فزنا وساد الثناء ... وأدركنا من المولى العطاء
وأشرفنا على حرم أمين ... له من كل ناحية بهاء

وكانت أزيد من ثلاثين بيتا اختطفتها يد السارق وترك القلب من
أجلها في محارق

ودخلنا مكة المعظمة في عصر
سادس الحجة الحرام ولم يسعنا أن نقدم شيئا قبل التوجه إلى بيت الله
الحرام إذ ذاك هو منتهى الشوق وغاية المرام فجئنا نؤم البيت الحرام
واثقين بنيل المنى وبلوغ المرام وكادت أن تطير من شدة الفرح القلوب
وفازت بما هو لديها المأمول والمطلوب ودخلنا البيت من باب
السلام اقتفاء لأثر النبي عليه الصلاة والسلام داعين للبيت المعظم
بزيادة التشريف والتعظيم قال التقي الفاسي باب السلام هو أول
باب في الجنب الشرقي وعليه منارة المسجد الحرام قال فإذا دخل القادم
من باب بني شيبة ورأى البيت رفع يديه وكبر وقال اللهم زد هذا
البيت تعظيما وتكريما وتشريفا ومهابة وبرا وزد من عظمه ومجده تعظيما
وتكريما وتشريفا ومهابة وبرا الحمد لله اللهم إنك دعوت إلى حج بيتك الحرام
وقد جئتك له فتقبل مني وأصلح لي شأني كله وأشرفنا منه على ذلك البيت الشريف

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الشرقي

العامري التازي ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م

هذا نوع من الرحلات يعبر بدوره عن مدى تعلق المغاربة بمكة المكرمة ... الرحلة ليست محررة بالمنثور من القول، ولكنها مكتوبة بالنظم ... ولا يخفى ما في الأداء الشعري من صعوبة على الناظم.

وهكذا نجد هذه الهمزية الرائعة التي بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين وثلاثمائة بيت، وكانت من عمل الفقيه العلامة الأديب أبي عبدالله محمد ابن الحاج منصور العامري التلمساني ثم التازي، المتوفى بالمشرق في حدود السبعين من المئة الثانية عشرة[1]. قام التازي في هذه القصيدة المذكورة بوصف المراحل من تازة إلى مكة، ومنها إلى الشام وصفاً كافياً، وصدرها بباب استوفى فيه تعداد الأشياء التي يحتاج إليها مريد الحج على نحو ما قام به بعض الرحالين من السابقين واللاحقين...

القصيدة التازية روعة في استيعابها لأغراض الحاج، ولكن ذكرها بنصها الكامل يطول، لذلك نقتطف منها بعض الأبيات وبخاصة ما يتعلق بتوجيهات القاصدين لمكة، وهي تبتدئ على النحو الآتي:

أَزْمِعِ السير إن دهت أدواء
لشفيع الأنام فهو الدواءُ!

وادّخر عولة العيال فلا تد
ري بأي الأمور يأتي القضاءُ!!

واستحل الإخوان والأهل مما
كان منك وإن يكونوا أساؤوا!

وانتخبْ أسرع المراكب سيراً
وجمالاً تطوى بها الأقلاءُ

(١) أبو الربيع سليمان الحوات: السر الظاهر ... الشيخ التاودي: الفهرسة ... المنوني: ركب الحاج المغربي، مطبعة المخزن تطوان ١٥٣، ص ١٨٠-١٨٨.

واتخذ للفصول خير لباس
سيما عندما يحين الشتاءُ
إن برد الحجاز أعسر برد
وهو أصعب إن تكن رمضاءُ!
كَم قتيل بشؤمه وقت حرّ
مثل قرّ تفنى به الأحياءُ!
واصحب الشمع للإضاءة والفا
نوس تَحْظَ بما به يستضاءُ
وليُصاحبْك كاغد ودواة
مع أقلامها لما قد يشاءُ
لا تقلل من استقاء فكم من
سوء خلق إذا يقل الماءُ!!
فبقدر المشقة يحصل الأجـ
ـر، فلا تستأمنك الضراءُ!!
واتخذ يا فتى من العطر شيئاً
رب وقت به يكون الشراءُ!!
ثم لا تتفرد عن الركب لحناً
إن ذاك يساق منه البلاءُ!!
لا تفارق جماعة الشيخ[1] كي لا
تستبد بتيهك التيهاءُ!
وكلنْ واشربنْ على حسب الحا
ل، فالإسراف نقمة وبلاءُ
ثم أحكم ربط البهيمة في الرا
ضة كي ما ينال منها الهناءُ!

(١) القصيدة إلى شيخ الركب.

ثم بت في الينبوع معطن عذب

ثم بدر حنين فيه ارتواءُ

إلى أن يصل إلى وادي فاطمة حيث يقول:

ثم في واد فاطم انزل على ما

ءٍ ومن بعد مكة الغراءُ!

أكثرن الطواف بالبيت والشر

ب بزمزم إذ لديه الشفاءُ

فهو يغني عن الطعام، وعن شر

ب، ويمنح ما يسر انتواءُ(١)

وتعاهد معاهد الخير فيها

ومن الشيخ نالها الإنشاءُ

موضع البيت مهبط الوحي، مأوى الر

سل حيث الأنوار، حيث البهاءُ

حيث فرض الطواف والسعي والحل

ق، ورمي الجمار والأهداءُ

حبذا! حبذا! معاهد منها

لم يغير آياتهن البلاءُ

حرم آمن، وبيت حرام

ومقام، فيه المقام تلاءُ

---

(١) الإشارة بكلمة (انتواء) إلى دور النية في مفعول هذه العين، ونحن نعلم الحديث الشريف «ماء زمزم لما شرب له». هذا ومن طرائف ما قرأناه اليوم ظهور موقع الإنترنت لتقديم معلومات زاخرة عن هذه العين تشمل أسماءها وفوائدها وبركاتها وذكرها أو الإشارة إليها في القرآن والسنة بالإضافة إلى تحليلها الكيميائي ومعلومات أخرى شائقة، ويوحي تصميم الموقع الجميل الذي يحتوي على درجات لونية زرقاء إلى التي تعيش جو بيئة مائية نقية تمثل ماء زمزم خير تمثيل. جريدة (الشرق الأوسط)، عدد ٢٦/٩/٢٠٠٢م.

فاجتهد في الدعاء فيها بصدق
كم فاز فيه بالمنى الدعاءُ!
فإذا ما قضيت حجك فارحل
حيث طيبة نورها لألاءُ
فهي خير أرض لخير نبي
منه يرجو الشفاعة الشفعاءُ

بعد هذا يعود الشاعر إلى الحديث عن المراحل التي توجد بين مكة والمدينة المنورة، وتعبيراً منه عن التعلق بثالث الحرمين: القدس الشريف، خصص فصلاً للمراحل التي تبلغ الحاج إلى بيت المقدس:

وإذا ما أردت مشياً إلى الشا
م ففيها أئمة أنبياءُ
ولديها جمع كبير من الصحـ
ـب كذا التابعون والأولياءُ
وهناك صخرة القدس في المسـ
ـجد الأقصى حازتهما إيلياءُ

إن الذي نتوخاه من الحديث عن هذه الرحلة الحجازية الشعرية هو تأكيد أن نصيب الرحلة عند الشعراء لا يقل عن نصيبها عند الكتاب والناشرين ... وليست قصيدة التازي إلا واحدة من عشرات القصائد التي اهتمت بمكة المكرمة وما يتصل بها.

الهلالي ١١٧٥هـ / ١٧٦١م

رحلة حجازية للعلامة المشارك أبي العباس أحمد بن عبدالعزيز الذي ينتسب إلى الإمام باز النوازل أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الهلالي، شهرته السجلماسي، نزيل مدغرة، ودفين سجلماسة (تافيلالت) يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ربيع الأول عام خمسة وسبعين ومئة وألف (٢٠ أكتوبر ١٧٦١م).

درس بمدغرة بسجلماسة وبفاس، وكان على صلة بالملك العالم محمد الثالث، وله عدد من التآليف المرجعية.

والمهم أن نذكر أن ابن الطيب القادري ذكر في كتاب « نشر المثاني »[١] أنه - أي الشيخ الهلالي - رحل إلى الحجاز قصد الحج مرتين، وأنه ألف في رحلتيه رحلة لخصها في « نشر المثاني » مؤلفه، وأنه لقي مشايخ مصر والحرمين الشريفين، وأن له إجازات عن المشايخ المشارقة.

ويذكر الشيخ الهلالي في جملة ما يذكره عن أخذه في المسجد الحرام بمكة، أنه سمع من الشيخ العلامة سيدى محمد بن الطيب المغربي حديث: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)، قال: وهو أول حديث سمعته منه بخلوته في المسجد الحرام عن الشيخ محمد ابن الشيخ حسن العجيمي اليمني نجاراً، المكي داراً، الحنفي مذهباً، النقشبندي مشرباً. ويذكر الشيخ الراحل رشيد المصلوت - رحمه الله - في ترجمته للهلالي أن من أساتذته كذلك الشيخ عبد الوهاب

---

(١) نشر المثاني للقادري، ج ٤، ص١٤٥. د. التازي: تاريخ جامع القرويين، ج ٣، ص ٨٠٣. ابن زيدان: الإتحاف، تقديم وتحقيق د. التازي، ج٣، ص ١٢٩. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص ٣٠٩، ٣١٨، ٣٤٨، ١٤٠١. رشيد المصلوت: إتحاف المعاصر والتالي بجمع ترجمة الشيخ الهلالي ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص٧، ٢١، ٢٣. الروضة المقصودة في سائر بني سودة لأبي الربيع سليمان الحوات، ج ١، ص ٢٩٦، تعليق ١٠٢، أكادير، تحقيق وتعليق عبدالعزيز تيلاني، طبعة ألوى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، رقم الإيداع القانوني ١٠٦٧ / ١٩٩٤م.

ابن أحمد الطنشي أصلاً، الأزهري تربية، المكي مجاورة، الشافعي مذهباً، ويذكر من تأليف رسالة وجهها إلى سيد الوجود ﷺ[1]، وهي موجودة بالخزانة الملكية بالرباط ... كان ذلك في ذي الحجة عام خمسين ومائة وألف ١١٥٠هـ (أواخر مارس ١٧٣٨م).

ثم ذكر الهلالي في فهرسته عن أبي سالم العياشي ما يتعلق بهذا الحديث، ويظهر من خلال هذا النص أن وقفة الشيخ الهلالي بعرفات صادفت يوم الأحد (الموافق ٣٠ مارس...).

---

(١) رشيد المصلوت: الإتحاف، ص ٣٢.

ابن مسايب ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م

هذا شاعر تلمساني مشهور، ويعدّ كسلفه سيدي سعيد من الفحول الكبار في الملحون. الحاج محمد بن أحمد بن مسايب، ينتمي إلى أسرة هاجرت من الأندلس إلى فاس حيث عاش مع أسرته مدة طويلة ببلاط السلطان المولى إسماعيل الذي كان موضع قصائد له ... ثم نزحت الأسرة إلى وحدة وتلمسان حيث ولد شاعرنا، وقد قصد بلاد المشرق لقضاء فريضة الحج، وهناك نظمٌ لا يزال إلى الآن يتردد على ألسنة المغرمين بالكعبة وما يتصل بها...

وقد أدركه أجله بتلمسان سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م، وضريحه بمقبرة السنوسي، ويقصده الناس لعودة من غاب عنهم من قريب أو حبيب!

سيدي ابن مسايب

حضار الغايب!

وقد كتب عنه الأستاذ عبدالحميد حميدو التلمساني مقالاً بالفرنسية بمناسبة المؤتمر الثاني لكليات العلوم في إفريقية الشمالية.

ونشر له السيد قاضي محمد في كتابه «الكنز المكنون في الشعر الملحون» عدة قصائد.

ومن المراجع حول الرحلة بحث بالفرنسية للباحث الدكتور الأستاذ محمد العربي بن محمد بن شنب حول (مراحل الحج من تلمسان إلى مكة)[1].

وإلى السيد الجليل ابن مسايب تنسب القصيدة التي قالها بعد أداء المناسك وزيارة المدينة، وهذه القصيدة التي لا يخلو بيت في المغرب من إنشادها والاستمتاع بترديدها وهي تحمل عنوان:

«الحرم يا رسول الله»

---

(١) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، بيروت، ١٩٧١م، ص ١٦٢-١٦٤.

الحرم جيت عندك قاصد

يا سيدي رسول الله!

الحرم جيت عندك قاصد

يا صاحب الشفاعة الأمجد

خوفي بزلتي نتمرمد

يوم الوقوف عند الله!

عاري عليك يا محمد

عار الوصيف عن مولاه

* * *

عاري عليك يا بلقاسم

يا صاحب اللوا والخاتم

تراني على أفعالي نادم

مادرت باش نلقى الله

ما تبت، ما قريت اللازم

يبليس غرني بهواه

* * *

يبليس غرني واجلاني

للمصايب للذنوب ارماني

ضيعت في الغرور زماني

والشيب الغدار اكساه

ما فقت به حين ابراني

رأسي شاب يا ما اكواه!

* * *

ما فقت حين ظهر شيبي

واليوم خفت يظهر عيبي

روحي تعبت في شبابي

وجميع ما فعلت نراه

واللي راد ربي نلقاه

* * *

يوم نموت يوفي أجلي

لا بد نلتقي عملي

في القبر، كي يكون اسألي

نكير ومنكر معاه!

ربي برحمته يغفر لي

وفضله كثير نترجاه

* * *

صلِّ على الرسول الهادي

عين الوجود محمدي

تاج الكرام نور تمادي(١)

سيدي وسيد خلق الله

نمدح مدح في نشادي

حتى تسير عند الله

* * *

نمدح مدح العدناني

بالقلب والأعضاء ولساني

مولوع به طول زماني

ذكره في خاطري ما أحلاه!

---

(١) القصد إلى إثمد العيون.

أحلى من العسل في اكناني
مدح النبي رسول الله

* * *

مدح الرسول فيه كرايم
ويزيد للقلوب نعايم
أزكى الصلاة عليه وسلم
واتلُ الرضى على من يرضاه
وعلى الحافظ من تعلم
والوالدين ومن رباه

* * *

أحمد بن مسايب مدحك
والناس تفخر بنشادك
في الخلود درنا جيرانك
يسر لمن طلب مولاه
سبحان ربنا من وداك
وأعطاك الفضل والجاه

* * *

واعطاك الفضل والجود
يا ولد يامنة وحليمة!
سعدت بك هذا الأمه
جاهك عظيم عند الله
في يوم ساعة القيامة
عندك مداحك تنساه!!

لقد تعمدت الإتيان بالنص الكامل لهذه القصيدة التي تتردد ـ كما أشرنا ـ على كل

لسان والتي وجدت فيها السيدة أم كلثوم منيتها عندما زارت بلاد المغرب حيث كان لدور "الملحون" في أدب الحجاز عطر لا ينسى.

وبقي لي أن أقول في ختام حديثي المقتضب عن رحلات الحجاز عندأصحاب الملحون: إن هناك العشرات من الرحلات التي دونها الشيوخ في الماضي والحاضر عن مناسك الحج، والتعلق بأذيال الكعبة، وزيارة الروضة النبوية، مما نرجو أن يرجع إليه القارئ في مظانه[1].

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، روائع الملحون ١٩٩٠م، ص٩١-٩٥. تراجم شعراء الملحون ١٩٩٢م، ص٣٨ - ٤٠ - مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. د. عباس الجزائري: القصيدة، ص٦١٤، الضعيف في مدح الرسول.

ابن عبد السلام ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م

صاحب هذه الرحلة هو السيد الطاهر بن عبد السلام (السلاوي) المتوفى سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م، وكان سفيراً للعاهل المغربي الملك محمد الثالث عدة مرات، وتهمنا هنا السفارة الأخيرة لدى السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الرابع، هذه السفارة التي اقترنت بحج بيت الله الحرام سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م، حيث كان بصحبة السيد الطاهر بناني (الرباطي)، وحيث حملها السلطان هدية نفيسة فيها خيل عتاق بسروج مثقلة بالذهب مرصعة بالجواهر والياقوت ونفيس الأحجار، وفيها أسياف محلاة بالذهب، ومرصعة بالياقوت المختلف الألوان، وفيها حلي من عمل المغرب، وهي المبادرة التي أجاب عنها السلطان مصطفى بهدية رقيقة عبارة عن مركب موسوق من آلة الحرب: مدافع ومهاريس نحاسية وبارود وإقامة كثيرة للمراكب القرصانية المغربية من صوار ومخاطيف وقلاع وحبال، وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم خبرة بإفراغ المدافع والمهاريس والكور والبند ... حيث اتجهت النية إلى إحياء دار (صناعة السفن) التي كانت بسلا أيام الموحدين وبني مرين[1] إلخ ...

وقد جاء ذكر "الرحلة" عند صاحب (إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا) عند ترجمته لهذا السفير الأديب الذي كان مفخرة للمغرب:

ومنهم المحاضر الأديب — الكاتب المبرز الأريب

محمد الطاهر وهو ابن علي — ثم ابن عبد السلام فيها منجلي

سافر عنه لبلاد الترك — في عهد مصطفى الجميل النسك

---

(١) الاستقصا، ج ٨، ص ٢٥، ٣١، ٣٢، ٥٤. الإعلام للعباس بن إبراهيم، ج٣، ص٢٦٣، مصدر سابق. الإتحاف الوجيز لابن علي الدكالي، منشورات الخزانة العلمية، طبعة ثانية بسلام المغرب، طبعة ثانية ١٩٩٦م، ص ١٤٩-١٥٠، تعليق ١١٧.

وحمل ألهدية العظيمة
ولم تزل معروفة فخيمة

* * *

وأن يزال الحلي عن مصاحفا
كانت لدى الحرام وقفاً شرفا
لما تعذر انتفاع الواقف
بها وخيف من مآل التالف
فأعمل النظر مصطفى وحال
يتركها بحالها وقفاً كمل
ثمت عاد ثانياً سفيرا
في عهد (أخي) مصطفى ظهيرا
لأجل أن يفتدوا الأسارى
من كل أقطار النصارى
وشاء من عبدالمجيد أن يرى
برأيه في فكها محررا

وقد ختم هذه القطعة التي اختصرناها بهذين البيتين المهمين، وخاصة الثاني الذي ينص على تدوينه للرحلة الحجازية التي لا نزال نأمل في العثور على نصها ...

وكم لهذا الشيخ من سفارة
عادت بربح القطر والعمارة
حج وزار ورأى المعالما
وقيد الرحلة فيما أبهما[١]

وعلى الرغم من اختفاء نصوص الرحلة اليوم فإننا ما نزال نتطلع إلى الحصول عليها، وكما قلت في مناسبة مماثلة فإن اقتناع الخبير بوجود البترول في الحقل لا يتوقف على رؤية ضخه بالفعل!!

---

(١) أبو زيدان : الإتحاف، طبعة ثانية، تقديم د. التازي، طبعة ثانية، ج٣، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

الحضيكي ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م

توجد مخطوطة لهذه الرحلة بالخزانة العامة للرباط رقم د/٢/٩٩٦ ضمن مجموع ورقة ١٠/أ-٢٩/أ، كما توجد نسخ منها في الخزانة الملكية بالرباط[(١)]، وصاحبها هو الشيخ مَحمد (بفتح الميم) ابن أحمد بن عبدالله السوسي الجزولي اللكوسي ثم الإيسي.

وقد ولد الشيخ الحضيكي سنة ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م وتوفي سنة ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م، رحل في طلب العلم وكاتب من لم يلقه في المشرق والمغرب، ويستغرب الإنسان إذا طالع «طبقاته» وكناشته التي تضم إجازات مشايخه المشارقة والمغاربة. يعد شيخ البلاد السوسية وأستاذها.

وقد كان في صدر تآليفه الرحلة الحجازية، وقد حج سنة ١١٥٢هـ/ ١٧٤٠م.

ويهمنا في هذه الرحلة أن نلخص حديثه عن الذين لقيهم في سفره لأداء مناسك الحج، ذلك السفر الذي لم يكن يخطر له على البال على الرغم من شدة شوقه إلى زيارة تلك الديار لولا قريب له سدد له النفقة ... وهكذا نجده يأخذ طريقه إلى أن نجده في وادي طوى بمكة المكرمة.

وبعد أن أدى واجبه في البيت الحرام، وقف قليلاً عند هذه المدينة مكة، ليتحدث عنها، وعن المشاهد والقبور والأمكنة المجاورة للمدينة مستحضراً نصوص القرآن والحديث وأقوال الفقهاء، متخلصاً إلى تحليل بعض الأحاديث ومدى صحتها على نحو ما فعل حين أورد الحديث النبوي المتعلق بالحجر الأسود[(٢)]...

وقد عُني الحضيكي في هذه الرحلة بتقديم الكثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية

---

(١) د. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م. د. التازي: رحلة الإسحاقي، مطبعة فضالة ١٩٧٦م، ص٣٩، تعليق ٢، فهارس الخزانة الحسنية، طبعة جديدة ١، ص ٥٣٦، ٥٣٧.
المختار السوسي: المعسول ٢، ص٣٠٢. سوس العالمة ١٩٣، فهرس الفهارس للشيخ الكتاني، الترغي: فهارس علماء المغرب، ص٤٠٨: دعوة الحق، يونيو ٢٠٠٢م.

(٢) د. عباس الجراري: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، بحث قدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية، كلية الآداب، جامعة الرياض، مصدر سابق. مجلة المناهل المغربية، العدد ١٠.

للأماكن التي زارها، ولفت النظر إلى بعض الملاحظات الاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن المادة الفقهية التعليمية التي قدمها[1] . . .

فهو عند حديثه عن (نمرة) يقول: إنها حد عرفة من جهة مكة .. وهو في جميع الأماكن التي مر منها الركب مهتم بقضية الماء، وهي ـ كما نعلم ـ قضية حيوية بالنسبة إلى الحاج.

وقد تحدث عن قبور الشهداء والصحابة وأزواج النبي عليه الصلاة والسلام، وعن المساجد والبقاع على نحو ما فعل السابقون، وكان من تلك المزارات البيت الذي يقال: إنه مولد النبي ﷺ مروراً بمنزل السيدة خديجة ... ودار الأرقم ... ومسجد بأعلى مكة، ومسجد آخر في الموقع نفسه يعرف بمسجد الجن ... ومسجد ثالث كذلك هناك يقال له مسجد الشجرة، ثم مسجد يسميه أهل مكة مسجد عبدالصمد بن علي؛ لأنه هو الذي بناه، ثم مسجد على يمين الموقف، غير مسجد عرفة الذي يصلي فيه الإمام، ثم مسجد الكبش بمنى، ومسجد على جبل أبي قبيس يقال له: مسجد إبراهيم باسم بعضهم، ومسجد عند سوق يحمل اسم سوق الغنم، ثم مسجد العقبة، ثم مسجد ذي طوى، ثم مسجد الجعرانة حيث أحرم النبي ﷺ، ومسجد التنعيم الذي أحرمت منه عائشة بأمره عليه الصلاة والسلام، ثم جبل حراء وجبل ثور. . .

ويتضح ميل صاحب الرحلة إلى تقديم بعض المعلومات التي كنا نعرفها مثل قوله عن المسجد الحرام: إنه كان صغيراً، ولم يكن عليه جدار، وكانت الدور محدقة به، وبين الدور أبواب يدخل منها الناس، فضاق المسجد على المصلين، فاشترى عمر بن الخطاب دوراً فهدمها، ثم أحاط عليه جداراً قصيراً، ثم وسع المسجد عثمان بن عفان بعد أن اشترى من قوم أرضهم، ثم زاد فيه عبدالله بن الزبير بعد أن اشترى دوراً كذلك فأدخلها في المسجد، ثم زاد المنصور في شقه الشامي، ثم كانت زيادة المهدي، قال: وكانت الكعبة في جانب من المسجد فأحب أن تكون وسطاً فاشترى دوراً ووسطها، وكان أول من جلب إليه أساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف هو الوليد بن عبد الملك.

---

(١) د. عباس الجراري: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، بحث قدِّم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية، كلية الآداب، جامعة الرياض، مصدر سابق.

وشبيه بهذا قوله في منبر الرسول عليه السلام: وأما منبره ﷺ فقد احترق في جملة ما احترق بالمسجد سنة أربع وخمسين وستمئة، وقد أخذ ما بقي من أعواده فصنعت منها أمشاط للتبرك بها. والمنبر الموجود الآن ـ يقول الحضيكي ـ ليست له فضيلة منبره ﷺ، ولو أن فضل هذا الجديد عظيم لكونه يوجد ضمن البقعة الشريفة.

وقد كان وصفه لغار ثور على نحو ما تردد في الرحلات المعروفة من أن له بابين... أما الجانب الاقتصادي في الرحلة عند الحضيكي فتبدو فيه بعض الملاحظات المهمة التي انتبه إليها ولفت إليها الأنظار كقضية العملة المستعملة وضرورة تحويلها إلى ذهب، وكبعض السلع القابلة للتبادل والمقايضة، وفي هذا يقول ناصحاً للحاج: وعليك أن تصرف دراهمك بالذهب؛ فإنه هناك أرخص سواء أكان ذلك تبراً أو مسكوكاً ... وفي ذلك فائدتان:

الأولى: أن الذهب يروج في كل بلد أمامك، وتصيب به غرضك حيث كنت وكيف شئت! بخلاف هذه الدراهم الإسماعيلية[1]، فرواجها إنما يكون في المغرب! فإذا خرجت منه فلا تروج إلا ببخس!!

الفائدة الثانية: أنك إذا صرفتها ذهباً، تبراً أو مسكوكاً، خف عليك حمله، تشده إلى بطنك أو تعلقه على جنبك، فلا يثقلك إذ من أهم الأمور أن تصاحب نفقتك ولا تفارقها طرفة عين في الحركات والسكنات مخافة السراق، وتدفع الذهب معه أيضاً في بلاد المشرق بأكثر مما أخذته به هنا.

ولك أيضاً أن تصحب معك العطرية: الكحل والشب والكبريت والمشط والمرآة والجلود المدبوغة: الحمر والصفر، والنعال، فإنك ستلقى العرب رجالاً ونساء يسألون عن ذلك ومعهم اللحم والخضر والفواكه والسمن واللبن وغير ذلك يدفعونه في العطرية، ولا تنال غرضك منهم إلا بها ...

وهكذا نقرأ في خطاب الحضيكي أساليب أخرى لم نعتدها في الرحلات الأخرى.

ويتحدث الحضيكي عن أسواق منى وليالي منى مما يدخل في هذا الجانب

---

(١) يقصد إلى العملة المغربية، ولا تنس أن الحضيكي يتحدث أيام حفيد السلطان مولاي إسماعيل.

الاقتصادي، فيذكر أن الحجاج في منى - بعد أن ينحروا ويفيضوا - يعرضون من الزينة والحلي والحلل وأنواع الملابس ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، من نسيج اليمن والعراقين (عراق العرب وعراق العجم) والهند والروم وخراسان، ويعرضون أنواع الطيب بمختلف أنواعه مما تهب به الريح من كل جانب يفوح به الهواء! هذا إلى أنواع السلع ونفائسها التي تبرز للتجارة بأصنافها، فيا لذلك الموسم العظيم والمربح الكبير الجسيم من بركة عظيمة ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾(1).

والرحلة بعد هذا غنية بالارتسامات الاجتماعية على نحو شهادته في أهل مكة بأنهم أهل كرم وجود، وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة، وأن ألوانهم إلى الأدمة ناشرة، ظهرت فيهم سمة المجاورة، وعلتهم محاسن الكعبة. وهو يخالف بهذا ارتسامات حجاج آخرين ممن التقوا مكيين من نمط آخر!!

وكعادة معظم الحجاج عندما يجدون أنفسهم في ذلك الفضاء وعندما يشعرون بارتجاج نفوسهم، فإننا رأينا الحضيكي - منذ البداية - يتحدث عن مشاعر الحجاج وقد خلعوا المخيط واتخذوا المآزر والنعال بعد التنظيف والاغتسال، واستأنسوا بالتلبية والابتهال من طول الوحشة والأوجال، وركبوا - وقد استهل الهلال - على الرواحل والجلال... وازدحموا للتجول والانتقال، وأهلوا بالحج على الجبال مقبلين على مواطن الخيرات والأعمال، بقاع تحط فيها الأوزار والأثقال، وترفع فيها الأكف إلى الله مولانا المتعال ... حيث يرعى المولى الجليل عبده الحقير بالغفران والكمال، في مهبط الرحمة أم القرى وحرم الله ذي الإكرام والجلال، سبحانه من إله بلا مثال...

---

(1) المخطوطة، ص ٢٠.

الورثيلاني ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م

هذه رحلة حجازية تحمل عنوان «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» والمشهورة بالرحلة الورثيلانية (نسبة إلى قبيلة قرب بجاية)، وهي للشيخ الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني المتوفى سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م، وقد تمت الرحلة سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٦م، وقد نشرها الأستاذ الراحل محمد بن العربي بن أبي شنب ولم يقدَّر لي أن أقف عليها إلا في مكتبة مؤسسة التراث الإسلامي بلندن (الفرقان) بمناسبة زيارتي لها أواخر أكتوبر عام ٢٠٠٢م[١].

وسنقف مع مؤلفها بمكة المكرمة لنقف على الجديد في الرحلة بالنسبة إلى ما مر من رحلات مغربية سابقة.

وكان من الملاحظات البارزة في الرحلة الورثيلانية، وخاصة بهذه البقاع المقدسة، أن الشيخ الورثيلاني ظل مشدوداً إلى من سبقه من أصحاب الرحلات ابتداء من الإمام أبي سالم العياشي والشيخ أحمد بن ناصر، وهكذا نجده يفسح المجال واسعاً لما سبق ذكره من لدن هؤلاء.

ومع ذلك، فإننا، رغبة في توفر الفائدة، سنصحبه في زيارته لمكة التي «لم تغادر في النفس ترحة، وأعادت عن الجفون كل قرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق، غير أن سرورها بالوصول إليها خفَّف بعض الألم، بل قد زال التعب والنصب، كأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا من منحه الله تلك النعمة».

إلى أن يحكي أنه دخل من باب بني شيبة، فأفاض الله عليه من جوده كرامة وهيبة.

وهنا ردد ما قاله شيخه سيدي أحمد بن ناصر: «فشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام، وقد تدلت أستاره، وأشرقت أنواره، وقد شمر البرقع عن أسافله حتى لا

---

(١) طبعة الجزائر ١٩٠٨م، وأعيد طبعها عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م بعناية معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، جمهورية ألمانيا الاتحادية. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص ١٦٢-١٦٣.

يكاد الطائف يناله بأنامله ».

ثم ينقل عن الإمام أبي سالم أبياته الثلاثة المعروفة حول تشمير كسوة الكعبة...

ويطوف بالبيت سبع (طوفات) على حد تعبيره، ولم يبال بالازدحام، والمورد العذب كثير الزحام ... إلى آخر نص العياشي ...

وبعد أن يخبرنا بأنه خيَّم بوادي سيدي أبي طالب تحت أبي قبيس قبل أن يكتري داراً لسكناه ... يعود ليتحدث عن الزحمة العظيمة من الرجال والنساء، ويذكر أن معه جماعة كثيرة تكاد ألاَّ تحصى، يطوف بهم يعلمهم كيفية الطواف الذي يبتدئ من الحجر الأسود ... « ولما رأى أهل مكة فعلي ذلك تغيروا، وقالوا: ألم تعلم أن أهل مكة لا ينتظرون إلا هذا الموسم، وقالوا: طف لنفسك واترك الناس، فقلت: أنا أطوف بهم وأعلمهم، وأنتم خذوا الأجرة منهم.. »!

ولم يفتأ الشيخ الورثيلاني يشكو من الحرّ العظيم الذي كان يسود آنذاك (أواسط مايو ١٧٦٦م).

وهنا يردد ملتمس العياشي في أن يبقى المسعى بعيداً عن السوق التجاري ... ويذكر أن النساء المصاحبات لركبه طفن طواف القدوم بالليل.

ثم ارتحل إلى منى في اليوم الثامن من ذي الحجة (١٨ مايو)، فانفصلنا عن مكة في ازدحام شديد ... وبعض الأركاب من المصري والشامي والعراقي والمغربي لم يرحل حتى إلى نصف الليل أو الثلث الأول منه ....

ووصلنا ضحى إلى مسجد نمرة حيث تم الجمع بين الظهرين فيه بالقصر ... واشتد الحر بحيث لا يقدر أحد أن يضع رجله على الأرض عند الضحى ... وأخبر عن رجل ضرير ورد عليه، كان فقيهاً عالماً يحفظ أكثر الشراح، وهو مالكي من جزيرة العرب، أعني البحرين، يقول الورثيلاني، ولما سأله عن مذهب أهلها، قال: أكثرهم مالكيون... ويتحدث مرة أخرى عن الحر فيقول: إن العرق يسيل علينا فلا نرى أحداً إلا وكادت روحه أن تزهق!

وصلينا خلف الإمام، ونوينا القصر، وصلى هو بالتمام....

ويعود للنقل عما ذكره شيخه في الرحلة الناصرية بما نال وفد الله من الطرب والفرح، ونسيان العناء والترح ... ذاكراً القصيدة الهائية التي طالما اقتبس منها الرحالون التي مطلعها (١):

وما زال وفد الله يقصد مكة
إلى أن بدا البيت العتيق وركناه

الأبيات...

ويتابع نقله عن الناصري الذي اجتمع بمسجد الخيف بالشيخ محمد أكرم ابن الشيخ عبدالرحمن مفتي الهند، الذي قال عنه: إنه رجل عالم له تأليف على رجال البخاري.

كان الشيخ الورثيلاني يتنقل من نقل إلى آخر ليزيد الأمر توثيقاً على ما يبدو، ويعود إلى القصيدة السابقة ليكملها بقوله:

فكم حامد! ذاكر! كم مسبح
وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه!
فظل حجيج الله لليل واقفاً
فقيل: «انفروا»، فالكل منكم قبلناه

إلى أن يذكر أنه عند طواف الإفاضة: وجدنا البيت مفتوحاً، والناس على ظهره يكسونه، ويحكي على نحو ما حكاه شيخه المذكور أنه عرض له الأخ الحاج بوعزة المراكشي الذي حثه على دخول البيت العتيق، فامتنع تأدباً إلى أن أدخله أمير الحاج المصري إبراهيم أبو شنب ... وإنما يدخله من تكلف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء ..!

ويعود للنقل من أبي سالم حول نوازل فقهية معلقاً عليها بما علق به الشيخ ...

ومن الغريب أن نجده ينقل حرفياً ما قرأناه سالفاً في رحلة الشيخ من أنه لما فرغ من الطواف وتوابعه جلس للاستراحة في أخريات المسجد، واشترى خبزاً وسمناً وعسلاً فأكله قبل أن يرجع لمنى. !! ويتحدث عن امتلاء الطرقات باللحم ... وما ينفك ناقلاً عن الإمام أبي سالم الذي ـ كما أسلفنا ـ بقي مرجعاً لمعظم الذين توفروا على رحلته من

---

(١) لم أهتدِ لصاحب القصيدة التي لا أستبعد أنها للشيخ أحمد بن ناصر.

أمثال الشيخ ابن ناصر ....

ويتحدث عن سوق منى وبركته ... وعن لياليها وما يتم فيها من تظاهرات ومواسم، وفي الحديث عن التنعيم يذكر ما سبق أن ذكره الشيخ من أن إنساناً وطئ على بنصر رجله اليسرى ولا يظنها إلا انكسرت، فتمم الطواف وهو يحجل، وتذكر قول الشاعر:

هل أنت إلا أصبع دميت

وفي سبيل الله ما لقيت!!

ويعود إلى القصيدة التي عند أحمد بن ناصر:

وردتْ إلى البيت الحرام وفودنا

تحنُّ له كالطير حنَّ لمأواه!

وبعد هذا يتخلص لذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة ... معتمداً على ما ذكره أبو سالم في كل ما قاله وما علق به وما انتقده كذلك، من غير أن تفوته قصة الحاج الذي انفرد عن أصحابه فتعرض للمتاعب والمشكلات مردداً قولة أبي سالم: «والانفراد عن الناس لا سيما في المفازات والمغارات البعيدة عن العمران لا يقوى عليه إلا من أيده روح القدس»!

و"ينعطف" الشيخ الورثيلاني مرة أخرى إلى ما كان بصدده، فيحكي عن مسجد نمرة، ومكان الوقوف، حيث أصاب الناس شدة الحر والوهج حتى كاد أن يذهب بالروح والمهج.... لكنه عوض الوقوف على الناقة وقف على بغلته يتبعه في ذلك سيدي أحمد الطيب، وسيدي أحمد بن حمود، وسيدي محمد الشريف الطرابلسي ... وتمكن من الوصول إلى الخطيب في عرفات الذي ابتسم في وجهه ... نعم يقول الشيخ: وجدنا قلوبنا في ذلك المحل، وشاهدنا فيه أمراً عظيماً لا يمكن التعبير عنه ...

ويذكر أن شيخه أحمد بن ناصر ذكر أن بطن محسر هو وادي النار إلى آخر النص...

"وينعطف" مرة أخرى إلى منى ليتحدث عن الجمرات التي رماها، كما قال شيخنا، بالتكبير إلخ ....

ويرجع إلى الكعبة ليدخل البيت العتيق مرة أخرى راوياً عن عائشة رضي الله عنها:

«عجباً للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف؟!»... ينقل عن الناصري بالحرف.

و"ينعطف" مرة أخرى إلى الحديث عن أسواق منى[1].

ويتحدث الشيخ بدوره عن الخوف من اللصوص، ويشكو الفساد والظلم من الأشراف وغيرهم من المتنفذين ... ولقد قتلوا صاحب أخينا سيدي محمد بن قسوم الريغي على شربة ماء!

ويروي أنه دخل على سلطان مكة (مساعد بن سعيد)[2] في داره بمنى حول بعض الإبل التي نهبت، فلما عرف السلطان أنه من أهل العلم احترمه ووعده بإرجاع الإبل، ويؤكد الشيخ أن السلطان اسمه مساعد، بينما كان السلطان في الحجة الأولى مسعود، معلقاً على هذا بقوله: نعم الحج قد كاد أن يكون ساقطاً بسبب الظلم من الولاة وأصحابهم والعرب والشيالين الذين زادوا في الارتياش للظلام...

و"ينعطف" مرة أخرى إلى ذكر العمرة من التنعيم ويقول: لله در شيخنا، ويردد مرة أخرى بعض القصيدة الهائية:

وردت إلى البيت الحرام وفودنا
تحن له كالطير حنَّ لمأواه

ويختم بذكر ما نقله عن شيخه المذكور من المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها مكرراً ما ذكره الشيخ أبو سالم عن الدار التي ولد فيها النبي ﷺ.

ثم يذكر من لقيهم شيخه في الحرم المكي من الأئمة: المخيلي، والبصري، وتاج الدين، ثم يتحدث عمن أجاز أحمد بن ناصر بمكة طالباً منا أن نرجع إلى ذلك في الرحلة..!

وفي (تتمته) ذكر من أخذ عليه شيخه سيدي أحمد بن ناصر، حيث نجد الورثيلاني

(١) يلاحظ أن الأستاذ الباحث الدكتور محمد بن أبي شنب ما ينفك في بعض الهوامش يحاول أن يرمم نص الرحلة الورثيلانية مقارنة مع ما في رحلة الناصري.

(٢) تولى مساعد بعد وفاة أخيه مسعود في ٢/٤/١١٦٥هـ، ومدة ولايته نحو سبع سنين. السباعي: تاريخ مكة، ص٤٣٠ - ٤٣١، مصدر سابق.

يعدّهم بالكامل معرّفاً بهم وبمتعلقاتهم نقلاً كذلك عن الرحلة الناصرية . . .

ولا ينهي هذا الموضوع دون أن "ينعطف" إلى الأماكن التي ينبغي زيارتها بمكة زيادة على ما تقدم، غير مهمل تعليق أبي سالم عما رواه عن أهل العلم بمكة بما في ذلك قبة أبي طالب السالفة الذكر . . .

وأخيراً لم يفته هو الآخر الحديث عن مزايا (حمير جدة) التي يضرب المغاربة المثل بها في الجري والنشاط، ويختم الحديث برائيه الإمام أبي علي اليوسي رضي الله عنه وأرضاه، التي يقول في مطلعها:

أحجاج بيت الله سيروا وأبشروا
بما لم ينله رائح ومبكّرُ
وطيروا عجالى فوق أجنحة القطا
وأجنحة الشوق المبرّح أطيرُ!

الأمير المولى علي ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م
وحديث المصاهرة بين حكام المغرب وحكام الحجاز

هذه رحلةٌ جماعية حجازية من نوع خاص، كانت برئاسة الأمير المولى علي الابن الأكبر للسلطان سيدي محمد بن عبدالله وخليفته وولي عهده المتوفى سنة ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م.

نقول: إنها من نوع خاص؛ لأنها لم تقتصر على أداء المناسك من طواف وسعي ووقوف بعرفة ... ولكنها كانت تصحب معها أميرتين جليلتين هما كريمتا العاهل المغربي، زُفت كبراهما لسلطان مكة الشريف مساعد بن سعيد، وزفت صغراهما للابن الأمير سرور الذي نعلم عن طموحه ومركزه ونشاطه ومنشآته ومنجزاته ...

والمهم عندنا في هذه الرحلة أنها تؤكد ما رددناه مراراً من أن تاريخ الحجاز يظل ناقصاً ما لم يُبحث فيه عما يكمله في الجهات الأخرى من العالم الإسلامي، وخاصة بلاد المغرب ...

وها نحن أولاء أمام حدث كبير أشارت إليه المراسلات الفرنسية المعاصرة، أكثر من هذا تتحدث عنه تقارير التاريخ الدبلوماسي العثماني، علاوةً على المصادر المغربية، لكنه (أي هذا الحدث) لم يجد له صدى في مؤلفات التاريخ المحلي الخاص بالحجاز من التي اهتمت بتاريخ أمراء البلد الحرام، وخاصةً الشريف سرور، المتوفى يوم ١٨ / ٤ / ١٢٠٢هـ الموافق ٢٧ يناير ١٧٨٨م.

لقد ورد في نصوص تلك الرسائل والتقارير التي كان يرفعها إلى بلاده القنصل الفرنسي لوي دُو شينيي الحديث عن الجَسْر الذي كان يربط بين المغرب والحجاز، عبر الإسكندرية على سفنٍ فرنسية مثلاً ... وخاصةً في موسم الحج حيث كانت الغرفة التجارية الفرنسية بمرسيليا تستفيد من ذلك الجسر الذي كنا نستغرب من حركته وتنظيمه وتهافت الحجاج عليه ...

وقد كانت من تلك المراسلات الفرنسيةِ التي سجلت الوصول إلى (ينبع) مراسلة في

صيف سنة ١١٩٣هـ / ١٧٨٠م.

وفيها حديثٌ عن مصاهرة العاهل المغربي لشريف مكة، وحديث عن أمراء (ينبع) التي يكتبها التقرير، هكذا: YAMBU أو YAMBOL.

لقد ظهرت هذه المذكّرات في تأليف القنصل شينيي المطبوع بباريز منذ عام ١٧٨٧م، ونحن ما نزال نغط في منامنا، ولا نعرف للمطابع أثراً في ربوعنا(١)!!

وأتى مصدرٌ عثماني معاصر مخطوط يتحدث عن مصاهرة ملك المغرب مع سلطان الحجاز، أو بالتدقيق مصاهرة الملك محمد الثالث مع الشريف سرور...

ويتعلق الأمر بما ورد في التقرير السري الذي رفعه السفير التركي إسماعيل أفندي إلى السلطان عبد الحميد بعد عودة السفير من مهمته بالمغرب، وهو يحمل تاريخ ١٥ ربيع الأول ١٢٠١هـ / ٥ يناير ١٧٨٧م. وكان قصده أن ينبه الباب العالي على شعبية العاهل المغربي ونفوذه، بل وخطره على الوجود العثماني في شمال إفريقية وفي أقطار الحجاز وفي الحرمين الشريفين وما يتبعهما كذلك(٢)...

ومع هذين المصدرين الفرنسي والعثماني نقرأ عن هذا الحدث السعيد في مصدر مغربي يؤرخ للعصر الأول من الدولة العلوية، ويتعلق الأمر بمخطوطٍ معاصرٍ للمؤرخ المغربي محمد بن عبدالسلام المشهور بالضُّعَيِّف (١٢٣٣هـ / ١٨١٨م) (تصغير ضعيف)، وهو يذكر سلطان مكة أعزها الله... ويقول: إن العاهل المغربي سيدي محمد بن عبدالله (محمد الثالث) أهدى له بنتين من كريماته: واحدة له، والثانية لولده، فتوفيت واحدة بمكة، والأخرى هي شقيقة الأمير المولى اليزيد، وكانت هي لالة حبيبة التي أعادها الأمير المولى اليزيد إلى بلادها المغرب بعد وفاة زوجها الشريف سرور(٣).

---

(1) Recherches historiques sur les maures et histoire de lempire de Maris 1787. T. 3.P. 465. Pierre Grillon: les corresponces du consul. Luis chenier T. 2. P. 815. Etc.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٩، ص ٥٥، مطبعة فضالة، المحمدية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(٣) تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، نشر دار المأثورات، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٩٣، البحث العلمي، ٢٨ مايو ١٩٧٧م، ص ٢٨٦.

وقد جاء في مخطوطة للمؤرخ المغربي المعروف أبي القاسم الزياني (ت١٢٤١هـ / ١٨٨٣م) في كتابه «الروضة السليمانية» بالحرف:

«وفي عام اثنين وثمانين ومئة وألف (١٧٦٩م) وجَّه السلطان ولده الكبير مولاي علياً وأخاه عبد السلام صغيراً للحج، وأصحبه هدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين ... ومالاً كثيراً يفرق على أشراف الحجاز، وجوائز العلماء والنقباء وأهل الوظائف بمكة والمدينة، ووجَّه معهم من وجوه أهل المغرب وأولاد أمراء القبائل وجملة من خدامه وأصحاب أشغاله بالخيول الموسومة والسلاح الشاكّ ما تحدث به أهل المشرق دهراً، ومعهم كان زفاف ابنة السلطان مع أختها لسلطان مكة الشريف سرور.. مع الركب النبوي، وكان في جهازها ما يزيد على المائة ألف دينار من الذهب والياقوت والجوهر، وكان يومُ دخولها لمكة المشرفة مهرجاناً عظيماً حضره عامَّةُ أهل الموسم»[١].

وقد ورد في كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري النّص الكامل المتعلق بهذا الحدث[٢] ممهداً له هكذا: «ولما كان سلطان مكة الشريف سرور - رحمه الله - بالمحل الذي أكرمه الله بلداً ومحتداً رغب السلطان سيدي محمد - رحمه الله - في مصاهرته، وسمحتْ نفسه ببذل كريمته ...

وهكذا فلما أحلت سنة اثنتين وثمانين ومئة وألف[٣]، وعزم ركب الحاج المغربي على السفر إلى الحجاز، بعث معهم السلطان المذكور ابنته، وزفها إلى بعلها المذكور، وبعث ولده الأكبر وخليفته الأشهر المولى علياً لأداء فريضة الحج، ومعه شقيقه المولى عبد السلام صغيراً دون بلوغ إلى آخر ما ورد عند المؤرخين السابقين».

تعمدت ذكر نقل الزياني بكامله والضُّعَيِّف بكامله لإبراز أهمية الحَدَث الذي تحدث

---

(١) مخطوطة الخزانة الحسنية، ورقة ٣٨٤، مع شكرنا للأستاذ محافظ الخزانة الدكتور أحمد بينبين.

(٢) الاستقصا، طبع دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦م، ج ٨، ص ٣٤.

(٣) هكذا ورد تاريخ هذا الحدث في المصادر المغربية، ويتأكد لدي أن هناك خطأ في النسخ وقع للمصدر الأول فاقتفى الأثر سائر الباقين، ولعل الصواب عام ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م، وهو ما تعضده المراسلة الدبلوماسية الفرنسية والتقرير العثماني ... بل وتؤيده ترجمة حياة الشريف سرور الذي كان في التاريخ المثبت عند المؤرخين المغاربة .. كان ما يزال ناعم الأظفار.

به ـ كما قرأنا ـ أهل المشرق دهراً، والذي كان يوم دخوله إلى مكة يوماً مشهوداً تناقلت حديثه الركبان من سائر الآفاق!

ويأتي بعد هؤلاء المؤرخين مصدر مغربي رابع هو كتاب «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس...» تأليف النقيب ابن زيدان(١).

هذا المصدر أيضاً يؤكد أن الملك محمد الثالث وجه ولده الأكبر أبا الحسن علياً صحبة الأميرات إلى آخر الأخبار التي قرأناها ...

ويدخل في إطار هذه التحركات المتوالية نحو المشرق ما يقف عليه في سجلات الحوالات الحبسية (أي حجج الوقف) من مبالغَ ضخمةٍ وسخيةٍ موجهة إلى رجال الحكم في الحرمين بل وإلى سائر الجهات بالمنطقة على نحو ما نجده في هذه العقود الموثقة التي نقدمها ضمن هذه الأوراق...

ونريد بعد هذا تأكيد أننا لم نجد ذكراً لهذا الحدث في التوايخ المتداولة للحجاز من التي نتوفر عليها(٢)، وهو ما يؤكد أن المصادر المشرقية لا تعي دور مصادر التاريخ المغربي في كتابة تاريخ المشرق، وعلى الخصوص دور الرحلة المغربية في التأريخ للحجاز.

ولا نشك في أن الأميرة المغربية لالة حبيبة كانت تشارك زوجها السلطان سرور في التنقلات التي كان يقوم بها إلى المدينة وإلى ينبع وإلى الطائف، كما تشاركه في الاحتفالات الكبرى التي كان يقيمها الشريف سرور، وخاصة الحفل العظيم الذي أقامه في قلعة أجياد بمناسبة ختان أولاده وأولاد أخيه الذي استمر سبعة عشر يوماً، وشاركت فيه سائر طبقات الشعب بطبولهم ومزاميرهم، فقد ظل القصر مفتوحاً في وجه الجميع،

(١) الإتحاف، طبعة ثانية ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، تقديم: د. التازي، مطبعة إيديال، الدار البيضاء ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ج ٣، ص ١٦٧، ٢٢٦، ٣٥٧.

(٢) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، تأليف شيخ الإسلام السيد أحمد بن زيني دحلان، طبعة أولى، مصر ١٣٠٥، ص٢٠٧ فما بعدها. تاريخ مكة، تأليف أحمد السباعي، طبعة سابعة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام، جمع وتعليق عبدالفتاح راوه المكي، الطائف ١٩٨٦م.

وأمر فيه السلطان سرور عند آخر يوم للاحتفال باستعراضٍ عام مشى فيه الخيالة والجند في موكبٍ كبير تتقدمه المدافع.

ويذكر الأستاذ السباعي مؤرخ مكة أن هذا الاستعراض كان أول استعراض بهذا الحجم يجري بمكة...

ولم يكفِ الشريف سرور كل ذلك، فدعا النساء من الحضر والبادية إلى احتفالٍ عام غنَّت فيه المغنيات(١)، ومدت فيه الموائد، ووزعت الهدايا والملابس الفاخرة ...

وأخيراً، نرى من المفيد أن نذكّر بما سيرد بعد نحو من قرنين من الزمن عندما وقف رئيس الركب المغربي القاضي سكيرج يذكّر الشريفَ حسين بن علي بهذا الحدث التاريخي الكبير؛ إذ استمعنا إلى جواب الشريف حسين وهو يؤكد أمر المصاهرة.

وهكذا، فعندما تقدم القاضي بخطابه أمام الشريف حسين "مذكراً" أنه يحمل من سلطان المغرب المولى يوسف بن الحسن التهنئة لسلطان مكة مجدداً الروابط الودية فيما سلف لسلفه الطاهر مع سلفكم الطاهر من المصاهرة... قال الشريف حسين عن هذه الجملة المتعلقة بالمصاهرة التي كانت بين الأسرتين الطاهرتين: «إنه يعرفها حق المعرفة؛ لأن واسطة عقدها إحدى جداته الطاهرات، وإنه يقدر حق هذا الارتباط قدره(٢) ...».

---

(١) نعتقد أن لعبة الزير المعروفة في ينبع كانت حاضرة في احتفالات مكة ... يراجع تأليف (نسب حرب)، تأليف عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للتوزيع، طبعة ثالثة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٢) الورقة ٩٠ من المخطوطة التي حصلنا على صورة منها بفضل أسرة القاضي سكيرج رحمه الله.

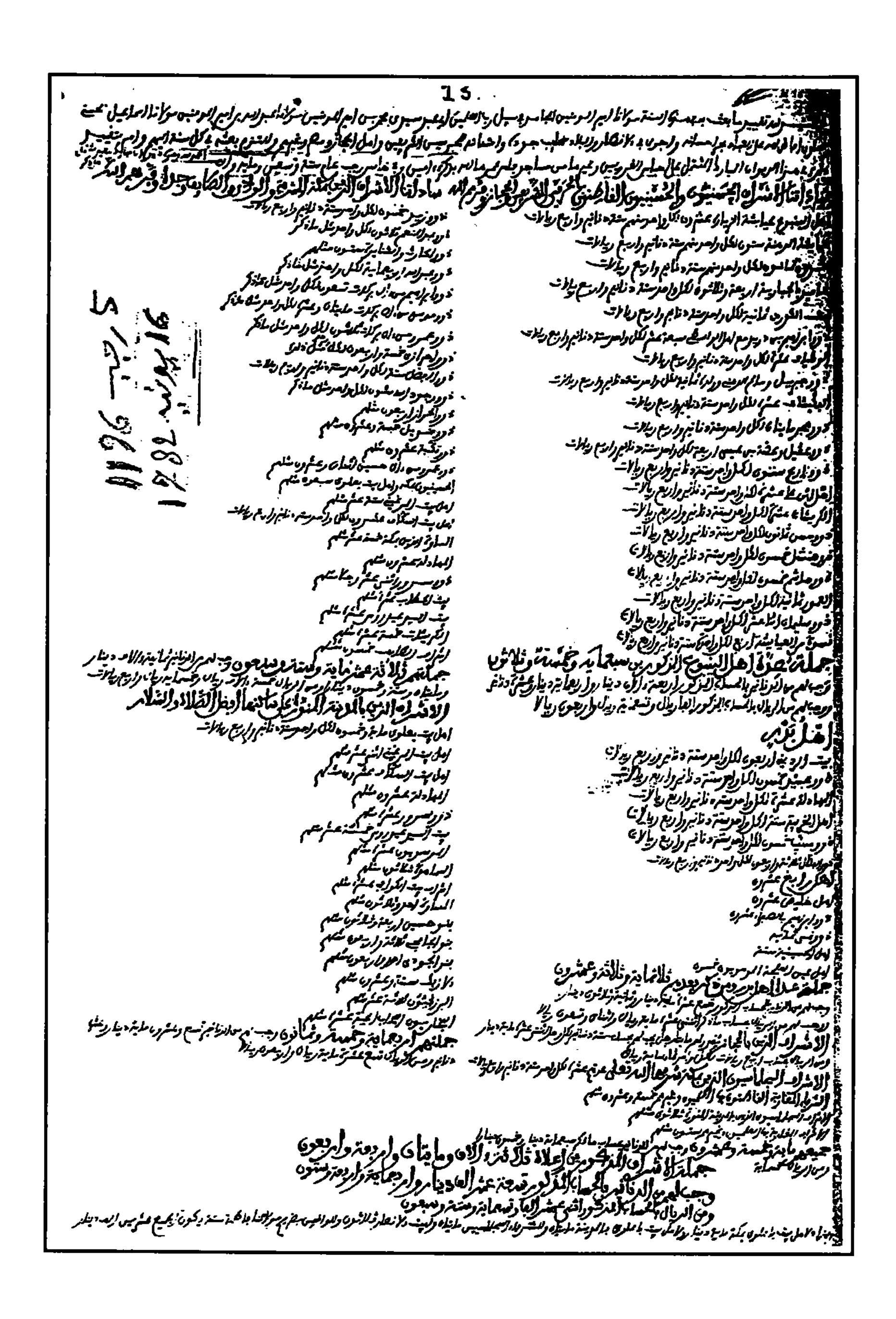
Départ de Moulay Yézid pour La Mecque

Les princes Moulay Yézid et Moulay Abderrahman, qui avaient été arrêtés en février et mars et traités avec quelque rigueur, furent relâchés par ordre de l'empereur dans le courant de juin. Ce souverain, dans l'espérance d'adoucir le caractère fougueux du premier de ces princes, a pris le parti de l'envoyer par terre à La Mecque, avec sa mère, un de ses frères et deux de ses jeunes sœurs, que l'empereur se propose de marier avec des princes de Yambol [1], ses parents (le père de Moulay Ismaïl était un chérif de cette famille). Ce prince, avec une suite nombreuse et de riches présents, est parti de Miquenés dans le mois de juillet pour ce voyage religieux.

[illegible]

[illegible]

نص المراسلة الفرنسية، وجانب من التقرير العثماني، وإحدى صفحات مخطوطة الزياني حول مصاهرة سلطان المغرب لسلطان مكة



نموذج من لائحة الجهات التي تصلها الهبات المغربية

جملة الريال المذكور أعلاه تسعة عشر ألف وسبعماية وثمانون

المدينة المنورة وغيرها

أهل الزوايا

جملة المال الذي بعثه مولانا المنصور لمن ذكر أعلاه وحوله على حساب صرف الريال ماية ألف ريال واربعماية ريال وثلاث وستون ريالا

نموذج آخر من لائحة الجهات التي تصلها الهبات المغربية

العيني ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م

هذه رحلة حجازية لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم المسكدادي التوماناري ثم العيني المتوفى سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م، الذي نعته الشيخ المختار السوسي في موسوعته «المعسول»(١) بالعلامة الفائق الكبير القدر .... من أعظم الحريصين على الاستفادة والإفادة ... له عدة تآليف ... كانت له رحلته المخطوطة إلى الحجاز، وهي - يقول صاحب المعسول - من كبريات الرحلة الحجازية السوسية، حذا فيها حذو ما صنعه الشيخ أبو سالم العياشي (١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م)، وأبو العباس أحوزاي (١١٢٧هـ / ١٧١٥م)، والشيخ أحمد بن ناصر (١١٢٩هـ / ١٧١٧م)، وأبو مدين الدرعي الروداني (١١٥٧هـ / ١٧٤٣م) .... في رحلاتهم المشهورات. آراؤه الفقهية كثيرة ومعروفة في (معهد أكلو) القريب من تيزنيت الذي سعدتُ بزيارته ...

كان يتوفر على إجازة من أستاذه الكبير محمد بن محمد الواسخيني، عن إمام الحرمين في وقته إبراهيم الكردي، عن شيخه عبدالله الدهوري، عن الشيخ قطب الدين النهروالي، إلخ ...

وتفصح رحلته الحجازية عن همته العلمية، ولو أنها مع الأسف مبتورة، لكن ما يوجد منها يكشف عن سعة معرفة الشيخ العيني، وقد لخصها أبو عبدالله محمد بن مسعود المعدري البونعماني، ثم قام الأستاذ المختار السوسي كذلك باختصار ما يوجد فيها.

وتبتدئ الرحلة بالإشارة إلى أوراق تشتمل على رحلته لحج بيت الله الحرام، يذكر فيها المراحل التي اجتازها، والفوائد التي استفادها من خلال سفره.

ويتضح من الصفحات الأولى من الرحلة أن الرجل كان متأثراً إلى حد كبير بما كتبه قبله أبو سالم العياشي، وأبو العباس أحوزاي، وأحمد بن ناصر، وأبو مدين على ما أسلفنا.

وهكذا نجد أن العيني ما ينفك يقتبس من نصوصهم بالحرف .... ولكنه يستأثر

---

(١) المختار السوسي: المعسول، ج ١٣، ص ٢٨٣، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.

أحياناً ببعض الفوائد التي يحتاج إليها بعض المريدين والقاصدين يحشرها في بعض المرويات والمنقبيات.

لقد ودع إخواناً له في (العين) و(تومانار) وخرج من مدينة الصويرة في جمادى الأولى عام ١١٩٨هـ، إلى أن وصل إلى شالة (الرباط) حيث مدفن السلطان الأكحل.... ثم مكناس وفاس حيث زار ضريح الفاتح إدريس، على نحو ما زار ضريح الإمام ابن العربي[١] ... وتعرّف هناك إلى أبي زيد عبدالرحمن بن عبد القادر بوخريص الذي كان هو قاضي الركب النبوي، ويستمر في طريقه نحو الشرق، فينقل ـ كما أشرنا ـ المعلومات التي أوردها أسلافه عن وضع عين ماضي في الغرب الأوسط ... وأحيانا ينقل عن بعضهم عبر بعضهم الآخر، فهو ينقل عن العياشي بواسطة رحلة أبي مدين ...

وقد ظهر أن الشيخ العيني صاحب الرحلة ركب البحر من جربة إلى الإسكندرية في مركب للنصارى من غير تعيين جنسيتهم على العادة، وبهذه المناسبة ينتقد وضع تلك المراكب لعدم مبالاتها بأمور النظافة والطهارة، ويضرب مثلاً لهذا الإهمال أنه كان في المركب خنزير يمشي بين الحجاج! وينجس ممرات المركب! كما ينتقد طريقة ذكاة ثور كان أعطاه قائد جربة للحجاج فصعد به مركب المسؤولين (النصارى) إلى حيث ذبحه القامرة على طريقتهم التي تخالف الشرع..! وهذا ما جعله يندم على ركوبه المركب، وهنا يتوسل إلى الله، ويذكر القطعة الشعرية التي يقول مطلعها:

سهرت أعين، ونامت عيون
لأمور تكون أو لا تكون
إن رباً كفاك بالأمس ما كا
ن سيكفيك عندما سيكون!

ويمرون على جزر سكنها النصارى (الكريك) ـ (اليونان) الذين كانوا تحت ذمة السلطان التركماني ...

---

(١) ظل ضريح الإمام أبي بكر بن العربي سفير يوسف بن تاشفين إلى المستظهر العباسي ببغداد مزاراً للأمراء والعلماء ورجال الفضل إلى عصرنا الحاضر.

وبعد أن يذكر بعض ما يقع بين الركاب والمسافرين من تشنجات ومعاكسات يخبر بأنه وصل إلى الإسكندرية .... حيث قام بزيارة بعض مشاهدها مثل ضريح المرسي ... وابن عطاء الله العمري .... ولم يخلُ حديثه عن (القهوة) و(الدخان) على نحو ما لاحظه أسلافه من ذي قبل ...

وقد لاحظ الذين اهتموا برحلة العيني أن جديده قليل بالنسبة إلى رحلة العياشي مثلاً، ولهذا فإن الرحلة العياشية تبقى هي المرجع الأساسي لكل هذه الرحلات الحجازية التي زخر بها القرن الثاني عشر مما أشرنا إليه في بداية الحديث.

والمهم القول: إن الضائع في الرحلة كان نسخة طبق الأصل لما حرر العياشي وأمثاله على ما يتوقعه كل الذين تحدثوا عن العيني(١).

---

(١) المختار السوسي: المعسول، ج ١٣، ص٣٠٠.

ابن عمار ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م

هذه الرحلة إلى الحجاز تمت سنة ١١٦٦هـ / ١٧٥٣م، جاور صاحبها بمكة إلى ما بعد ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م، ويتعلق الأمر بأحمد بن عباس بن عبدالرحمن بن عمار الجزائري الذي ورد في ترجمته أنه مهتم بالتاريخ(١)، وأن رحلته المتحدث عنها طبع قسم منها، وهي الحقيقة التي تؤكدها النسخة المخطوطة التي حصلنا عليها بفضل مساعدة ثمينة من معالي الأستاذ الطيب بلعيز وزير التشغيل والتضامن الوطني بالجمهورية الجزائرية(٢)، كما تؤكدها النسخة المطبوعة التي وقفنا عليها في مكتبة مؤسسة علال الفاسي بالرباط(٣)...

والمخطوطة موضوع الحديث يوجد أصلها بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم ٢٧٥٧ وتحمل عنوان «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب».

وقد رتبها على مقدمة، وغرض مقصود، وخاتمة. فأما المقدمة ففي ذكر ما أنتجه العزم على الارتحال، وأما الغرض ففيما يحدثه السفر من الذهاب إلى الإياب وحط الرحال، وأما الخاتمة ففيما نشأ عن ذلك بعد السكون ...

وتتحدث المقدمة عن الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قيل معنى (ومن كفر) أي من لم يحج، وعبر عنه بالكفر تغليظاً كقوله ﷺ: «من ترك الصلاة فهو كافر» ...

---

(١) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧١م، ص٣١ – ٣٢.

(٢) نشكر سعادة الزميل الدكتور بوعلام السايح سفير الجمهورية الجزائرية على عمله لالتقائي مع السيد الوزير في بيته يوم ٢٣ رمضان ١٤٢٣هـ / ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢م.

(٣) نغتنم هذه الفرصة لنجدد الشكر للزميل العزيز الأستاذ عبد الرحمن الحريشي مدير المؤسسة على ما قام به من جهد في ترميم النسخة المخطوطة والربط بينها وبين المطبوعة الموجودة بالمؤسسة، وهو الأمر الذي جعلنا نصل إلى السر الذي يكمن وراء اختفاء بعض الورقات من المخطوطة، والذي لم يكن ـ في نظرنا ـ غير تجنب المبالغات في علاج بعض القضايا الثانوية.

وفي معرض التنويه بمن وطئت أقدامه مكة من الحجاج والعمّار، وأن ذلك من شأنه أن يضفي على الحال هناك أردية الشرف والوقار، في معرض ذلك استدل بأبيات مجنون بني عامر:

رأى المجنون في البيداء كلباً
فجر عليه للإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه
وقالوا: لِمَ منحت الكلب ذيلا
فقال: دعوا الملام فإن عيني
رأته مرة في حي ليلى!!

ومن هنا تخلص لذكر زيارة قبر النبي ﷺ التي - كما رأينا - في عنوان الكتاب «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب» يخصصها بالذكر ...

«... واعلم أني عزمت على الرحلة إلى الحجاز عزماً نسختها حقيقة المجاز أوائل سنة ست وستين ومئة وألف (١٧٥٢ - ١٧٥٣م)».

ويمضي ابن عمار في التعبير عن أشواقه بكل ما تأتي له من قافية ... وتحدث عن عادة أهل الجزائر: إذا دخل ربيع الأول انبرى من أدبائها وشعرائها من ينظم القصائد المديحيات والموشحات النبويات، يلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبة، ويقرؤونها بالأصوات المطربة ... وأنه لما استهل هذا الشهر الشريف من هذه السنة أنشأ قصيدة هذا مطلعها:

يا نسيماً بات من زهر الربا
يقتفي الركبان
احملن مني سلاماً طيباً
لأهيل المكان

وهي قطعة طويلة الذيل ...

ويعود للقول بأن له من هذا النمط وغيره من التوشيح والقريض قصائد شتى في مدح النبي ﷺ ضمنها بطن ديوانه ... وبعد أن يلاحظ أن الشعر القريض في هذا الغرض ما

أنزره وأقله في هذا العصر والذي قبله! يؤكد أن مقدم الجماعة في هذا الباب هما عاشقا الجناب المحمدي: البوصيري وابن الفارض...

وبهذه المناسبة يورد بعض مولدياته التي تطرب وتروق، وتبهر الشمس عند الشروق:

نلت المرام * بالله حادي القطار * قف لي بتلك الديار * واقر السلام

وهي كذلك طويلة عريضة أتى بعدها بقوله يتشوق إلى أرض الحجاز:

الركب نحو الحبيب قد سارا

يود شوقاً إليه لو طارا!

ويذكر بعد هذا اسم علم من الأعلام في باب القصائد المولدية: سحبان البلاغة، وقس البداعة أبي عبدالله محمد العربي بن محمد الشهير بابن علي، الذي أثبت له ابن عمار ما يرشف رحيقاً وينشق مسكاً سحيقاً[1].

هاج الغرام * بالله طاوي القفار * عرج بذاك المزار * حيث الكلوم!

وهو يفيد أنه ترجم لابن علي هذا في تأليفه «لواء النصر في فضلاء العصر»، ولم يتردد ابن عمار في إعادة ذكرها هنا على طولها ... وقد ضمنها مراسلات بينه وبين المترجم الذي يذكر عنه - وهذا مهم - أن الأديب المغربي الكاتب أبا زيد عبدالرحمن الجامعي الفاسي ذكره في رحلته[2] عندما ذكر الجزائر، ونعته بمحيي طريقة لسان الدين بن الخطيب ذي القدر العلي ابن عبد الله بن محمد بن محمد المعروف بابن علي، وبعد استطراد طويل عريض عاد ليذكرنا بعادة احتفال أهل الجزائر بموسم مولد النبي ﷺ واتخاذه عيداً من أعياد الإسلام تشريفاً وتعظيماً لليوم الذي ظهر فيه نور الإسلام (ص٩٣ من المخطوط).

ومن هنا يتخلص لموضوع الاحتفال بالمولد النبوي في دار الإسلام، ونحن نعلم أن المغرب في العهد الأول للإسلام: عصر الأدارسة والمرابطين والموحدين لم يكن يعرف من

---

(١) هو محمد العربي بن محمد بن علي بن محمد المهدي الشهير بابن علي، نشأ بالجزائر العاصمة، وهو ابن محمد بن علي صاحب «مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر». عادل نويهض، الجزائر، ص١٦١ - ١٦٢- ١٦٨، مصدر سابق.

(٢) محمد المنوني: عبدالرحمن الجامعي الفاسي حامل راية الأدب على مستوى المغرب الكبير، مجلة (دعوة الحق)، السنة ١٦، عدد ٤-٥ مزدوج، ١٩٧٤م، ص ٧٧-٨٩. المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج ٣، ص ٢٤٤.

أعياد الإسلام غير الفطر والأضحى حتى كانت أيام بني مرين[1].

وإذا كان علينا أن نعرف عن صلة هذا التأليف بالرحلة إلى الحرمين الشريفين فإن الصلة تتجلى في أن ابن عمار يتوجه بالعتاب واللوم للمشرفين على الحكم بمكة والمدينة على عهده من الذين يغضون الطرف عما يجري في الحرمين من بدع منكرة بمناسبة الاحتفال بذكر مولد الرسول الأكرم سواء بمكة أو بالمدينة . . .

لقد اختار المؤلف أن يعالج في رحلته الحجازية موضوعاً اعتاد الرحالون أن يسلكوه من وصف المناسك والمراحل . . . وهذا نمط من الأنماط التي كان علينا أن نقف على نموذج صادق من نماذجها . . .

لقد ركز الرحالة الذي قلنا : إنه كان من عداد المجاورين، ركز في البدع التي شاهدها في عرفات، وفي المسجد الحرام بمكة، والمسجد النبوي بالمدينة، وخاصة التي تتصل باختلاط النساء بالرجال في تلك الأماكن المقدسة التي كان ينبغي أن تبقى بعيدة عن التبرج والتزين بأفضل الحلي . . . وقد تتبع ابن عمار هذه المخالفات ليس فقط أيام موسم الحج، ولكن كذلك في الأيام التي تصادف عيد المولد النبوي الذي نصب ابن عمار نفسه للدفاع طويلاً عن شرعيته، ونحن نذكر مرة أخرى أن عيد المولد النبوي عيد طارئ على الغرب الإسلامي[2].

وقد تتبع ابن عمار كذلك الأيام التي تصادف الإسراء والمعراج وما يظهر فيها من مخالفات وتجاوزات . . . تتصل بالاختلاط وبالإسراف في استعمال المشاعل وإسراج الأضواء.

وقد اعتمد ابن عمار في حملته على ما نقله عن شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي المكي (المتوفى سنة أربع وسبعين وتسعمئة ٩٧٤هـ) في تأليفه «إتمام النعمة الكبرى على العالم بمولد سيد ولد آدم»[3].

---

(١) د. التازي، لماذا عيد المولد النبوي في الغرب الإسلامي؟ مجلة (دعوة الحق)، العدد ٢٧٧، جمادى الأولى ١٤١٠هـ / ديسمبر ١٩٨٩م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البغدادي، هدية العارفين، طبع إستانبول، ج ١، ص١٤٦، سنة ١٩٥١م، مكتبة المثنى - بغداد.

قال نقلاً عن ابن حجر المذكور: يجب صون مجالس المواليد ونحوها من القبائح والرذائل والشنائع التي صدرت من الناس مقترنة بعمل المولد، ولا سيما بمكة والمدينة، منها اختلاط النساء بالرجال في المسجد الحرام والمسجد النبوي، وتزينهن بأحسن الحلي والحلل، وتطيبهن بأطيب الطيب، اختلاطاً فاحشاً، بحيث يقع في تلك الليالي من المفاسد والقبائح ما تصم عنه الآذان، ويقول الموفق: يا ليت ذلك ما كان[1]!!

قال: ومنها نصب الشموع وإيقادها والقمر في سلطانه، وقد شنع النووي على ما يفعله الحجاج لليلة عرفة من الوقود فيها أتم تشنيع! ولا شك أن ما يجرى في ليلة المولد بالحرمين أقبح وأشنع!!

قال: وأكثر الناس لا يمنعون النساء من الإشراف والتطلع على الرجال ونظرهن إليهم، وذلك قبيح؛ لأنه محرم على معتمد مذهبنا، ومكروه على مقابله...

وقد جعل أئمتنا من الأعذار المانعة من وجوب الاستجابة إلى وليمة العرس، جعلوا من ذلك توقع إشراف النساء على الرجال..!

قال: ولقد وقع بمكة أن كثيراً من علماء المذاهب الأربعة قاموا أشد القيام، وانتصروا أشد الانتصار في منع النساء من الخروج من بيوتهن إلى المسجد الحرام بالكلية؛ لما اشتهر عنهن من قبائح تصدر عنهن حتى في المسجد، لكن آخرين عارضوا ... فزادت تلك القبائح وطمت، واستباح أولئك الفسقة أعراض المتمسكين بالسنة ...

قال ابن عمار: وقد وقع بالمدينة نظير ذلك، فسعيت في منع اختلاط النساء بالرجال في ليالي المولد والمعراج وموسم سيدنا حمزة وموسم الحج، فعارضني جمع ممن العلم في عمائمهم دون قلوبهم! وأغروا بي السفهاء حتى إنهم سعوا في قتلي!!

وبعد حملات من هذا النوع يعود لذكر البدع التي كان يعتقد أنها حَرِيَّةٌ بالمنع، فيذكر منها استعمال المشامع والمجامر المصنوعة من الفضة، معتقدين أن ذلك من تعظيم

(١) يحرص السلف على ألا تضيع فضيلة على حساب أخرى، إن الحج مجموعة من الفضائل وليست مجرد حركات.

سبح وصلِّ وطف بمكة زائراً * سبعين لا سبعاً فلست بناسكِ
جهل الديانة من إذا عرضت له * أطماعه لم يُلْفَ بالمتماسكِ!!

النبي ﷺ، وهو جهل عظيم، فإن تعظيمه إنما هو في تعظيم شرعه القويم.

ويستمر ابن عمار في تعداد البدع التي ترتكب في الحرمين بمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي داعياً إلى أن تقتصر الاحتفالات على أن يجمعوا أهل الصلاح والتالين للقرآن والذاكرين ويطعموا الطعام ويتصدقوا على المساكين ... ويأمروا من ينشد لهم شيئاً من المدائح النبوية المتعلقة بالحث على الأخلاق الكريمة مما يحرك الإنسان على فعل الخيرات، والكف عن البدع والمنكرات.

وينقل ابن عمار عن أبي عبدالله بن الحاج في كتابه «المدخل»(١) حول التنبيه على ما أحدثه الناس من البدع والأهواء في الموالد ولياليها، مكرراً الإشادة بآراء ابن حجر المكي الهيثمي السالف الذكر ...

ونظراً لانشغال ابن عمار بأمر هذا الاختلاط الذي يقع بعرفات ومنى والمطاف وغير ذلك ، والذي لم يجعل أحداً من العلماء يمنع تلك العبادات لأجله، فإنه - أي ابن عمار - يعود إلى الاقتصار على مناشدة المؤمنين والمؤمنات بأن يحافظوا على دينهم، «فكل مأمور بترك الطيب والزينة وسائر دواعي الإثارة» ... وهنا يذكِّر بالسر في منع حج المرأة بغير محرم...

ويعود إلى جانب هذه المناشدة بتبرير إظهار الأفراح والتجمل بأحسن الملابس واستعمال الطيب وتحسين الهيئة اهتبالاً لمثل تلك المناسبات: عيد المولد وما شابهه.

ويتلخص بعد هذا إلى تخصيص فصل كامل للاحتفالات بالمولد وما قيل فيها من لدن العلماء سواء بالمغرب أو المشرق مذكراً بما قاله أبو العباس العزفي صاحب سبتة، وما قاله علامة الدنيا ابن مرزوق الخطيب(٢)...

أكثر من هذا تخلص لطرح السؤال حول ما إذا كانت ليلة المولد النبوي أفضل من ليلة القدر، مستدلاً مرة أخرى بأقوال ابن حجر الهيثمي المكي في أن الاحتفال بليلة عيد المولد تعدّ بالنسبة إلى المسلم ليلة لا تعادلها ليلة من ليالي العمر!

---

(١) المدخل لابن الحاج الفاسي، ج٢، ص٢، طبع دار الحديث جوار الأزهر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(٢) د. التازي، لماذا عيد المولد النبوي في الغرب الإسلامي؟ مصدر سابق.

صفحات تتلوها صفحات ... كانت غير موجودة في مخطوطة الرحلة التي حصلنا عليها من الجزائر، لكنها موجودة في النسخة المطبوعة، وهذا ما يحمل على التساؤل عن سبب فقدانها في المخطوطة، وهل كان الداعي لذلك هو الاختصار أم أن هناك سبباً آخر يتجلى في تجنب المبالغات التي أشرنا إليها في بداية هذا الحديث؟!

ومن المفيد أن نذكر مع هذا أن ابن عمار ـ وهو يعنون رحلته بزيارة الحبيب كما أسلفنا ـ يأتي بالنص الكامل للقصيدة اللامية التي نظمها الشيخ أبو محمد الشقراطسي التوزري باعتبارها كما يقول من القصائد العظام، وكان الرحالة العبدري السالف الذكر أورد كذلك نصها في رحلته الحجازية المعروفة:

الحمد لله باعث الرسل
هدى بأحمد منا أحمد السبل
خير البرية من بدو ومن حضر
وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

أوردت كل هذا عن رحلة ابن عمار لأذكر مرة أخرى بأنه كان يقصد بكل ما ذكره ودعا إليه أن تجري المناسك على أحسن الطرق وأفضل السبل، ولأذكر كذلك بأن ابن عمار ـ إلى جانب كونه كاتب رحلة ـ أديب كبير لم يستطع أن يحمي نفسه، وهو يتحدث عن الرحلة إلى الحجاز، مما يكنه ويكنه كل مسلم من حب للرسول ﷺ، ومن هنا كان حديثه المستفيض عن المولديات، ومن هنا وجد نفسه في مجالس السلطان أبي حمو (تلمسان) الذي كان من كثرة احتفائه بمولد الرسول يخصص الليالي الغراء للتعبير عن الفرحة العارمة، ويستدعي لها كبار الرجال وأصحاب المناصب ... حيث تحضر المباخر والمرشات، وحيث تعرض للعموم بمناسبة عيد المولد خزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة الفائقة الصبغة، وبأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحه، إلى آخر الحديث عن الساعة الأسطورة التي كانت محل الأشعار عام ستين وسبعمئة على ما هو معروف في التاريخ الحضاري لدار السلام(١).

---

(١) د. التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٧، ص٨، تعليق ١، رقم الإيداع القانوني ٢٥/ ١٩٨٦، مطابع فضالة ـ المحمدية.

أحمد بن حجر المكي في الزواجر والنعمة الكبرى يجب صون مجالس المولد ونحوها من البدع
والقبائح والشنائع التي صارت من الناس مقترنة بعمل الموالد ولا سيما بمكة التي
والمدينة منها اختلاط النساء بالرجال في المسجد الحرام وفي المسجد النبوي
وتزينهن بأحسن الحلي والحلل وتطيبهن بأطيب الطيب اختلاطا فاحشا بحيث
يقع في تلك الليالي من المفاسد والقبائح ما تصم عنه الآذان ويعرف المؤمن بنتن
ذلك ما كان، ومنها إيقاد الشموع وإيقادها والتغني في سلطانه وقد شنع
النووي على ما يفعله الحجاج ليلة عرفة من الوقود فيها أتم تشنيع ولا شك أن ما يفعله
... بأخس من ذلك وأشنع قال وأكثر الناس لا يمنعون النساء من الخروج
والتطلع على الرجال ونظرهم إليهم وذلك قبيح لأنه محرم على معتمد مذهبنا ومن ترك
على معتمد بلده ذاك ذكر شهوة ولا فتنة ولا حرج في النظر والوقع من النساء في الموالد
كثيرا ما يترتب عليه الشهوة والفتنة من الانبساط بنظر النساء إلى الرجال ونظرهم إليهن
المترتب غالبا على الإشراف عليهم ونظرهن إليهم حرام على الأصح عندنا وإن لم يكن شهوة
ولا خشية فتنة وقد جعل الهيتمي والأعزال الأنعة ووجوب الحجاب وبين العرف
الشرائف النساء بالولي لمرأة أو أهل على الرجال بل ولو قيل حرم على من علم أن امرأة تنظر
إليه لم يبعد لأن الإعانة على المعصية معصية انتهى كلام ابن حجر بحروفه وهو نفيس
جدا قال ولقد وقع بمكة أن كثيرا من علماء المذاهب الأربعة قاموا أشد القيام
وانتصروا أشد الانتصار في منع النساء من الخروج من بيوتهن إلى المسجد الحرام بالكلية
لما اشتهر عنهن من قبائح تصدر منهن حتى في المسجد وقعد بعضهم آخرون فتعصبوا
لأمراء الفسقة ومن في قلبه زيغ وهوى إلى نصرة الباطل وإبقاء تلك القبائح على ما
كانت عليه بل زادت وطمت وانتشرت وعمت واستباح أولئك الفسقة أعراض الحجيج
بالخطا والسب **قلت** وقد وقع بالمدينة نظير ذلك فسعيت في منع اختلاط
النساء بالرجال في ليالي المولد والمعراج وموسم سيدنا حمزة وموسم الحج مع بعض
جمع ممن العلم في عمائمهم دون قلوبهم وأغروا السفهاء والفسقة حتى إنهم
سعوا في قتلي مرارا بأنواع من السعي ولم يزل الأمر إلى الآن والله المستعان
قلت ومنها استعمال الشمع والحمائل المصنوعة من الفضة

إحدى صفحات مخطوطة رحلة ابن عمار

ابن عثمان ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م

هذه رحلة حجازية من نوع جديد ومع شخصية جديدة معروفة في العالم الدبلوماسي بالمشرق وبأوربا وأمريكا كذلك.

لقد سفر ابن عثمان لمليكه محمد بن عبدالله (محمد الثالث) الذي - كما نعلم - كان صحب جدته الأميرة خناثة إلى مكة في موسم سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣١م ... كان سفيراً له سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م لدى العاهل الإسباني كارلوس الثالث، وعن هذه السفارة ألف كتابه «الإكسير في فك الأسير».

ولم يلبث أن عين سفيراً مرة أخرى في مالطة ونابولي، وهي السفارة التي خصها بكتابه «البدر السافر في افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر».

وبعد هاتين السفارتين قام بسفارة من نوع آخر، وبهذه المناسبة أتيح له أن يؤدي مناسك الحج ويؤلف كتابه: «إحراز المعلى والرقيب...». ويتعلق الأمر برحلته إلى القسطنطينية العظمى في رجب سنة ١٢٠١هـ / مايو ١٧٨٧م لإبلاغ السلطان عبدالحميد خان أسباب اعتباره للمبعوث التركي إسماعيل أفندي شخصاً غير مرغوب فيه[١].

وقد استمر ابن عثمان يعمل في البلاط الملكي بعد وفاة الملك محمد الثالث سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٩٠م وتنصيب ولده المولى اليزيد؛ حيث عمل سفيراً أيضاً لهذا السلطان الذي أرسله إلى العاهل الإسباني الملك كارلوس الرابع، وبعد وفاة اليزيد عمل ابن عثمان في بلاط أخيه المولى سليمان الذي بويع في رجب سنة ١٢٠٦هـ / مارس ١٧٩٢م.

وفي هذه الفترة أصبح ابن عثمان وزيراً للخارجية بكل ما تحمله هذه الصفة من معنى، وهنا برز ذكره أكثر ما يكون البروز على الصعيد الدولي، فكان له اتصال أيضاً بالإدارة الأمريكية ... إلى أن أدركه أجله في أحداث الطاعون الذي ضرب البلاد نحو

(١) الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني، تحقيق عبدالكريم الفيلالي، مطبعة الرباط ١٩٦٧م، ص٨٢، ٨٣، ٨٤ د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٩ ص٣٤، ٣٥، ٣٦.

المحرم سنة ١٢١٤هـ / يوليو ١٨٠٠م[١].

وقد اخترنا الحديث عن هذه الرحلة؛ لأنها تحتوي على عدد من الخاصيات، فهي أولاً ـ وكما أشرنا ـ رحلة حجازية قام بها برعاية الدولة العثمانية وحمايتها سفير مغربي معروف بصدقه ودقة ملاحظاته.

وهي ثانياً تصادف تاريخاً مهماً ١٢٠٢هـ / ١٧٨٨م يعتبر مؤشراً إلى ما كان ينتظر المنطقة من تحولات أدت في النهاية إلى أن استقر التنافس بين الجهات على «خدمة» الأماكن المقدسة... وثالثاً فقد اشتملت الرحلة على بعض المعلومات التي خلت منها الرحلات السابقة، وخاصة المعلومات المتعلقة ببعض القادة العثمانيين الذين لم يعودوا منضبطين إزاء رؤسائهم.

وأخيراً فإن الرحلة تكشف عن جانب من التدرج الذي عاشته المنطقة أيام العاهل المغربي الملك محمد الثالث الذي كان يعاصر السلطان عبدالحميد خان، والشريف سرور أمير مكة.

وهكذا فنحن مع رحلة الأديب والفقيه والوزير والسفير: محمد بن عثمان، وهي تحمل عنواناً طويلاً على هذا النحو:

إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب[٢].

لقد التقى ابن عثمان وهو في طريقه إلى مكة المكرمة الركب المصري والركب المغربي حيث تسلم بعض المكاتيب الموجهة إليه من لدن العاهل المغربي الملك محمد بن عبدالله علاوة على رسائل الأهل ... ويخبرنا ابن عثمان أن الركب المصري كان يضم في صدر ما يضمه الأمير المغربي المولى اليزيد بن الملك محمد بن عبد الله الذي يتأكد لي أنه ورد ليصحب أخته الأميرة ... التي كانت في عصمة السلطان سرور بن مساعد الذي وافته المنية في ١٨ ربيع الآخر من هذا العام ١٢٠٢هـ.

---

(١) الاستقصا ج ٨، ص ١٠٦.

(٢) توجد نسختان من الرحلة بالخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط تحت رقم ٥٢٦٤ ورقم ١٢٣٠٧. انظر د. التازي في كتابه: القدس والخليل في الرحلات المغربية، منشورات الإيسيسكو ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص٢٥ وما بعدها.

لقد وصل ابن عثمان إلى ظاهر مكة[١] المشرفة عند الضحى، وكان هو اليوم السابع من ذي الحجة سنة ١٢٠٢هـ الذي كان يوافق ٧ سبتمبر من عام ١٧٨٨م. ويلاحظ منذ البداية أن ابن عثمان كان يستعمل الساعة التي كانت حديثة الظهور، وإنما يتوفر عليها الخاصة من الناس، فهو يقول مثلاً: وصلنا بعد ثلاث عشرة ساعة ... وهذا شيء جديد بالنسبة إلى بعض الرحلات التي مررنا بها ومرت بنا...

نزلنا الخيام واغتسلنا للطواف؛ لأنه لم يمكن لنا الاغتسال بذي طوى لعدم مرورنا عليها، وتوجهنا إلى البيت، ودخلنا على باب السلام، وهنا يفتح ابن عثمان قوسين لينبه على حقيقة تاريخية، يقول: وليس هو باب السلام الذي كان يدعى باب بني شيبة؛ لأن هذا الباب أصبح في داخل المسجد اليوم، وهو باب المسجد القديم، وهو في مقابلة المقام وباب البيت، وهو الذي ينبغي الدخول منه، وهو اليوم مقوس بالبناء في موضعه القديم علامة عليه، وأما باب السلام الذي يسمى الآن باب السلام فهو أحد أبواب المسجد المزيدة، وليس هو في مقابلة باب البيت فهو منحرف عنه بعض الانحراف، وباب المسجد الذي هو في مقابلة بابه الداخلي هو باب النبي ﷺ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يأتي من تلك الناحية؛ لأن داره كانت في زقاق الحجر وهو في تلك الناحية[٢].

فطفنا بالبيت طواف القدوم، وصلينا ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم، ودعونا عند الملتزم بما نرجو إليه قبوله، وخرجنا من باب الصفا، فسعينا بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم رجعنا إلى البيت الحرام، فقعدنا به نتبرك بمشاهدة الكعبة، وبعثنا بعض أصحابنا ليكتري لنا داراً لنزولنا، فهيأها لنا، وانتقلنا من الخيام إليها، ومن منة الله أنها كانت قريبة من المسجد الحرام، وقد حضر خطبة اليوم السابع بالبيت الحرام، وهي إحدى خطب الحج.

ومن الغد، وهو يوم التروية، خرج الناس من مكة قاصدين عرفات، ولم ينزلوا بمنى ولم يبيتوا بها، فقد أميتت هذه السنة، وصار الناس في هذا الزمان يخرجون من مكة اليوم الثامن، ويروحون إلى عرفات وينزلون في موضع الوقوف، فسرنا كذلك، ووصلنا

---

(١) المخطوطة، ص٢٢٩.

(٢) هذه معلومات في منتهى الدقة، وهكذا يلاحظ أن باب بني شيبة الذي تحدث عنه يختفي اليوم.

إلى الخيام بعد العشاء. بين مكة وعرفات نحو أربع ساعات أوخمس، فبتنا بالخيام وبتنا بعرفات، وقد عمر هنالك سوق عظيم، خرج الناس من مكة بجميع المأكولات والمشروبات والأمتعة وغيرها، والأعناب والرمان من الطائف وجميع الفواكه. وعند الزوال توجه الناس إلى مسجد نمرة، وقد خلفناه من ورائنا لكونه في طرف الحرم، ونحن تجاوزناه إلى عرفات، وهي في الحل.

فخطب الخطيب، وهذه هي الخطبة الثانية من خطب الحج التي حضرتها، وجمع الناس فيه بين الظهرين.

وهذا المسجد أفسدته الأعراب فتدخل إليه بمواشيها! وأعدوه مقيلاً لهم ... فكان المسجد ملآن ببعر الغنم، وهو كبير، فسقفه ثلاث بلاطات وباقيه فضاء عارٍ من السقف.

ورجع الناس إلى الخيام، وبعد العصر بهنيهة ركب الناس ووقفوا، فمن وجد فسحة قرب من الجبل، ومن لم يجد فسحة وقف بمكانه، وصعد الخطيب على ناقته إلى الجبل واستمر في خطبته إلى أن أغربت الشمس و«دفع» الناس من عرفات.

وتقدم وزير الشام بمحمله وعسكره وطبوله، وكذا باي مصر بمحمله وعساكره وطبوله تنقر، والمزامير تزمر، والعسكر يخرج المدافع، وكل واحد من الفريقين يجتهد في أن يتقدم على الآخر، وسبق أمير الشام فتقدم بمحمله وعساكره، وتبعه أمير مصر كذلك، والحجاج من ورائهم. واستمروا كذلك بعد أن مررنا بين المأزمين، وهما بناءان؛ أحدهما عن يمين الطريق، والآخر عن اليسار إلى أن وصلوا إلى المزدلفة.

ونزلنا بها بغير خيام؛ لأن الخيام تقدموا بها إلى منى، فلما حططنا بالمزدلفة، وقد وصلناها بعد العشاء، صلينا بها العشاءين جمعاً وقصراً للأخيرة، والتقطنا جمار العقبة منها وبتنا بها.

ولما طلع الفجر صلينا الصبح لأول وقتها، وسرنا بغلس إلى المشعر الحرام فرجعنا إليه، لأننا خلفناه وراءنا فهو في آخر المزدلفة، فوقفنا به للدعاء إلى الإسفار، ثم رجعنا عن أدراجنا إلى أن وصلنا الخيام بمنى، وتماديت على المسير إلى العقبة فرميت الجمار، ثم رجعنا إلى الخيام، ثم ذبحنا شاة ترتبت علينا من فدية؛ لكوني لما أحرمت أبقيت رأسي

مستوراً خشية من أذى الحر! ثم حلقنا وتوجهنا إلى مكة من فورنا في ثياب إحرامنا فطفنا طواف الإفاضة، ثم رجعنا إلى منى فبتنا بها، ومن الغد رمينا الجمار الثلاث الأولى التي تلي مسجد منى، والثانية التي في الشرق، وختمنا بالعقبة، ثم رجعنا إلى الخيام، وفي الغد رمينا الجمار أيضاً، كما تقدم، وتعجلنا في المسير إلى مكة، بل وتعجل الناس كلهم، ولم يبت أحد ليلة الرابع بمنى.

وقد أحييت سنة التحصيب أيضاً، فلم ينزل به أي المحقب (المحصب) أحد.

وفي الليلتين اللتين بتنا فيهما بمنى كان يقع بالليل مهرجان عظيم، حيث يوقد أمير الشام مصابيح كبيرة على كيفية مخصوصة وترتيب عجيب، ويرفعها على أعمدة طوال. وكذلك يفعل أمير مصر وسلطان مكة، ويبيتون ليلتهم كلها يرمون بالمحاريق، أهل الشام يرمون لناحية مصر، وأهل مصر يرمون لناحية أهل الشام، فتنشأ هناك فرجة عظيمة.

ثم بعد ذلك توجهنا للإتيان بالعمرة، فأحرمنا بها من وادي التنعيم، وهنالك بركة معدة للماء لكن بها بعض خراب فليس بها ماء اليوم، وبإزائها مسجد، فدخلنا إليه وأحرمنا منه، ثم أتينا إلى مكة فطفنا، ثم خرجنا إلى المسعى فسعينا وحلقنا، ولله الحمد وله المن.

وبقينا بعد ذلك في مدة مقامنا بمكة ملازمين البيت والصلاة فيه والطواف والوضوء من زمزم والشرب منه إلى أن أذن الناس بالرحيل، وسألت عن كدا لأخرج منه، فلم يعرفه من كان حاضراً معنا! إلا أنه ذهب بي إلى أحد أبواب المسجد في الناحية التي من وراء البيت، وقال: من هذا الباب يخرج المودع، فظننت أنه ذلك، وهو مناسب لكون الدخول من أمام، وهذا الباب الذي يخرج منه من وراء، فخرجنا وقلوبنا متبصرة، ومن الفراق متحسرة.

ثم قصدنا بيوتنا فوجدنا المحامل للركوب موجودة، فركبناها وسرنا إلى الخيام، وقد كانت في موضع يقال له: الشيخ محمود، على نحو ساعة من مكة...

وقد رأى ابن عثمان المكناسي أن عليه أن يقدم لنا نبذة من المسجد الحرام والزيادة فيه عبر الأزمان ... وهكذا يقول عنه: إنه من أكبر مساجد الإسلام وأعظمها، ولسنا ـ يقول ابن عثمان ـ نعني المسجد الحرام القديم وحده فذاك صغير جداً، وحده ظاهر بوسط

المسجد، وهو على المطاف، وإنما قصدنا المسجد الحرام على الكيفية التي هو عليها الآن من الزيادة والتوسعة، فطوله من المشرق إلى المغرب إحدى وأربعون قوساً مرفوعة على أعمدة الرخام، وفي عرضه ثمان وعشرون قوساً كذلك، عرض كل قوس خمس عشرة قدماً ونصف، وعرض العمود قدم ونصف، وبعضها ثلاث أقدام، تساوي مساحة طوله بتقريب سبعمئة قدم وخمس أقدام، وعرضه أربعمئة قدم وست وسبعون قدماً[1] تقريباً أيضاً ... وسقفه ثلاث بلاطات فقط دائرة به من الجهات الأربع، ووسطه براح متسع جداً، وعدد أبوابه نحو الأربعين. أخبرني بذلك بعض أهلها، وفي وسط البراح بيت الله الحرام.

والمهم عندنا في هذا النص أنه أول نص في الرحلات الحجازية التي مرت بنا يذكر القدم معياراً من معايير القياس، فقد مرت بنا "الأذرع والأشبار"، لكن القدم نقرؤه أول مرة عند ابن عثمان كما قرأنا "الساعة" عوض اليوم والليلة والمراحل والمناهل والمقاهي كذلك!

ولقد صادف مقام ابن عثمان بمكة الذي استمر إلى اليوم السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٢٠٢هـ صادف على ما يتأكد لي فتناً داخلية واضطربات خطيرة، لذلك نراه يعتذر عن عدم "استيعابه" للزيارات ... فقد قطع عنها - يقول ابن عثمان - ما ليس يرسم في حساب، ومنع من الإتيان بها شوائب فتنة عريقة الانتساب، ومن طلب من الأيام دوام الصفا فقد أخطأ في نظره وهفا، لكن الدهر تارة يهش وتارة يهر! فلما فاتنا ذلك القصد بما عرض من الصد جبرناه بالملازمة في البيت الذي هو المطلوب معتكفين على طواف ودعاء جابر كسر القلوب، حتى تعين السفر ونفرنا مع ركب حجاج الشام إذ نفر، ورجعنا أدراجنا نفري المعالم والمجاهل ونحوم على المنازل حتى وصلنا إلى طيبة.

ولقد كان ابن عثمان فعلاً يتحدث عما نعته "بالفتنة العريقة الانتساب"، وهي الفتنة التي أشار إليها أحمد محمد السباعي في تأليفه: «تاريخ مكة»[1] بوفاة سرور بن مساعد سلطان مكة يوم ١٨ ربيع الآخر عام ١٢٠٢هـ عن عمر لم يتجاوز خمساً وثلاثين سنة بعد أن حكم مكة نحو خمس عشرة سنة ونصف السنة، بعد ذلك آل الأمر إلى

---

(١) المقاسات نفسها التي سيقدمها الزياني معاصر ابن عثمان في الترجمانة الكبرى، ص١٨٢.

أخيه غالب الذي وصله تأييد السلطنة من العثمانيين ... لكن الذي حصل أن بعض إخوته ثاروا عليه مستنجدين ببعض القبائل من هذيل اليمن والشام فأطاعوهم، فمضوا بهم إلى جبال المفجر بجوار منى.

وقد بلغت أخبارهم السلطان غالباً فخرج إلى مكة يوم ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٠٢هـ، واستطاع أن يهزمهم، فسارت جموعهم إلى الطائف، فهزمهم وكيله في الطائف، فاجتمعوا في واد بالقرب من العتيق، واستأنفوا مسيرهم إلى مكة، فبرز إلى الأبطح للقائهم، وبعد مناوشات دامت عدة أيام استطاع أن يهزمهم، فتفرقوا بالقرب من الطائف ... ثم استأنفوا سيرهم إلى مكة، فعسكروا في وادي النعمان من يوم ٢٤ من ذي الحجة سنة ١٢٠٢هـ.

ورأى السلطان غالب أن يحسم الشر بدعوتهم إلى الصلح، فندب لهم القاضي الشرعي في هيئة من كبار علماء مكة وأشرافها فاتصلوا بالمخالفين، وعرضوا ذلك عليهم فقبلوا منه بشروط رضيها السلطان، وبذلك تم الصلح بين الفريقين، وعاد المغاضبون إلى مكة فاحتفل بهم في مكة، وبذلك استقر الأمر لغالب.

بهذه الصفحة يشرح السباعي: ما أجمله المكناسي في كلمته القصيرة الدالة "الفتنة العريقة الانتساب"، وهو ما يؤكد ما وردنا كثيراً من أن تاريخ الحجاز يرتبط بتاريخ الرحلات المغربية إلى الحرمين الشريفين، والعكس صحيح ...

ونرى من المفيد أن نختم رحلة المكناسي بالإشارة إلى الأرجوزة الطويلة التي نظمها استجابة لطلب بعض الإخوان من الطلبة الملازمين له في موضوع المناسك على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه ...

بلغ الرجز إلى القريب من ثلاثمئة بيت!! ابتدأها هكذا:

قال محمد هو ابن عثمان

الحمد لله الرؤوف الرحمان

(١) مطبوعات نادي مكة الثقافي، طبعة سادسة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٤٤٨. وبهذه المناسبة أُجدِّد الشكر للأستاذة هالة التواتي التي أهدت إليَّ تاليف الأستاذ السباعي.

فعلم الإنسان ما لم يعلم
من فضله علّمنا بالقلم

إلى أن يقول:

سميته نور الضيا الوهاج
على دلالة مريد الحاج
الحج فرض مرة في العمر
خلاف في تأخيره أو فور

تحدث في هذه الأرجوزة عن أركان الحج، ويتخلص لوصف ما على الحاج أن يقوم به من أعمال، وما أن يؤديه من هدي إذا أخل بالمطلوب فيه.

ويبين للقراء ما يتصل بالحج إذا كان إفراداً أو تمتعاً أو قراناً:

وإن ترد حجك بالتمتعِ
فافعل كما أصفه لك وعِ
فأتِ بعمرة على الكمالِ
أحرم بحجك على التوالي

وهي وثيقة فقهية ممتازة على المذهب المالكي ختمها بالتوسل إلى الله والتضرع إليه:

لا تحرمنْ عبداً أتاك طامعا
من جاهك السامي ملاذاً شافعا
من أرض مغرب غريب الدار
ذا فاقة وكثرة انكسار
واختم لنا الختم الذي ترضاه
موفقاً لنا لمقتضاه

ويذكرنا هذا الرجز بأرجوزة سابقة رفيعة المستوى قدمناها للشيخ ابن عاشر ١٠٤٠هـ/ ١٦٣١م لأحد الحجاج المغاربة المعروفين من الذين حفظنا نظمهم ونحن في المدارس الأولية من مدينة فاس المحروسة.



ابن عثمان

الفاسي ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م

هذه رحلة حجازية لأبي العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الشيخ عبدالقادر الفاسي الفهري المتوفى سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م، وقد قام بها سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٧م، كنتُ وقفتُ عليها بفاس عند مالكها الزميل الراحل الأستاذ محمد العابد الفاسي، وأنا أقوم بتحقيق القسم المتعلق بليبيا من رحْلة الإسحاقي(١).

وتوجد منها مقتطفات قليلة بخط محمد بن عبدالله المراكشي بكناشةٍ بالخزانة العامة رقم ٨٨ من صفحة ١٦٤ إلى ١٨١.

وقد وصفها د. محمد الفاسي، رحمه الله، (دعوة الحق عدد ٤ من السنة الثانية، يناير ١٩٥٩م) مؤكداً أن للرحلة نسخة في خزانة البلدية بالإسكندرية، وفي مكتبة أحمد تيمور باشا. وقد أُخبرت بأن النسخة التي كنت وقفت عليها بفاس ضاعت! ومن حسن حظي أن أحصل على صورة من النسخة المحفوظة بالإسكندرية بفضل مساعدة ثمينة من أستاذنا وزميلنا العزيز الدكتور أحمد مختار العبادي الذي أجدد الشكر له بهذه المناسبة(٢).

وهي تبتدئ هكذا: خرجنا من الحضرة الفاسية بعد صلاة ظهر يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الثانية عام أحد عشر ومائتين ثنتين وألف، ووافق اليوم الرابع من ديسمبر العجمي، وخرج شيخ الركب صحبة نجل مولانا المنصور بالله ... وصحبة أخيه وجماعة الحجاج ضحى اليوم المذكور ...

وهو ينقل عن الرَّحالة ابن بطوطة استيلاء النصارى على طرابلس (ص١٥)، كما ينقل أحياناً عن العياشي وعن الزبادي المنالي كذلك...

---

(١) د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي ١١٤٣هـ / ١٧٣١م، مطبعة فضالة المغرب ١٩٧٦م، ص ٤١ تعليق ١.

(٢) وصلتني المخطوطة وأنا أتلقى العلاج في مستشفى ابن سينا بالرباط على أثر أزمة صدرية حادة (١٠ مارس ٢٠٠٣م)، ولما تماثلت كانت المخطوطة سلوتي طوال فترة النقاهة، فالحمد لله على أفضاله وألطافه.

وهو يؤكد في هذه الرحلة أنه في يوم الأربعاء (الثامن من صفر عام ١٢١٢هـ) توفي نجل مولانا المنصور بالله مولانا أحمد وقت العصر، ودفن هناك بوسط مقبرة، وقد خرج من مكة المشرفة مريضاً بالبطن، واستمر به ذلك إلى أن توفي (ص٦٠). وهو يخبرنا كذلك أنه وقف في طرابلس على نسخة فريدة لصحيح البخاري بخط الحافظ الصدفي على ما نقرؤه مفصلاً في رحلة ابن عبدالسلام الناصري المتوفى بعده[1] ...

ويبدأ الفاسي حديثه عن مكة بذكر مسجد التنعيم الذي يتم فيه الإحرام بالنسبة للمعتمرين؛ حيث يتحدث عن الأصل في اتخاذ هذه المواقع منطلقاً للإحرام ... وقبل أن يبدأ الفصل المخصص لدخوله مكة يأتي ببيتين من الشعر لقائل لم يذكر اسمه:

وفدتُ بذلّي على ماجدٍ
وإنّيَ من زللي ذو احتشام
نزلتُ على أكرم الأكرمين
وليس يخيب نزيل الكرام!

قال: ويدخل الحاج إلى مكة راكباً أو ماشياً، كما استظهره الأجهوري، وصحح الشافعية المشي.

ويبتدئ الفاسي الفصل المتعلق بمكة بالنقل عن «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي الذي يروي عن النبي ﷺ قوله: «إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه في كل سنة مئة ألف، فإن نقصوا أكملهم الله بالملائكة...» إلى آخر الأثر.

وهو يخبرنا أنه نزل بمكة المشرفة عند الشروق يوم السبت سابع ذي الحجة سنة ١٢١١هـ(٣ يونيو ١٧٩٧م)، وذهب إلى الطواف، فلما أشرف على الكعبة استحضر قول أبي الفضل الجوهري:

قلتُ للقلب إذ تراءى لعيني
رسمُ دار لهم وهاج اشتياقي

---

(١) د. التازي: صحيح الإمام البخاري بخط الحافظ الصدفي شيخ ابن سعادة، مجلة دعوة الحق، مارس ١٩٧٣م. مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ١٩، ج ١، مايو ١٩٧٣م. صحيح الإمام البخاري بخط الصدفي، بحث ألقي في المهرجان الدولي للبخاري - سمرقند، أغسطس ١٩٧٤م. مجلة البحث العلمي بالمغرب عدد ٢٤ المحرم ١٣٩٥هـ / يناير ١٩٧٥م.

هذه دارُهم وأنت محب

ما احتباس الدموع في الآماق

حل عقد الدموع واحلل رباها

واهجر النوم واقض حقَّ التلاقي

فالمعاني للصب فيها مغان

فهي تدعي مصارع العشاق!

وطاف طواف القدوم، وركع ركعتين خلْف مقام إبراهيم، قال في الإحياء: من طاف بالبيت أسبوعاً وصلى ركعتين فله من الأجر ثلاثون رقية، وخرج للصفا والمرة وسعى، وأكثر من شرب ماء زمزم ... وفيه يقول (يعني عبدالمجيد المنالي الزبادي (١١٦٣هـ / ١٧٥٠م) في قصيدته، وقد كان نبه على أنه اتخذ من هذه القصيدة الرائية دليلاً له يرشده إلى مناسك الحج، قال:

وانزل من المعلاة وادخل بلدةً

في العالم العلوي لها أنوار

بلد شريف بالمناسك مجدهُ

مرت على تعظيمه الأعصار

ما زاغ فيه زائغ إلا غدا

داء له أو غاله الإعصار

حنَّت له حُبًّا قلوب أسلمت

وعنت له من عزّه الأمصار

واقصد لبيت الله من باب السلا

م تلُحْ لك الأنوار والأسرار

بيت له الشرف المؤثل والسنا

وله العلا والمجد والإيثار

سَلّمْ وكبّرْ والثم الحجر الذي

في ركنه الشرقي يا زُوَّارا!

فإذا غُلبت فضع يمينك واستلم
كبّر فقط إنْ صدك الإكثار
وانْو الطواف لقادم حتماً ودُرْ
بالبيت بالتسبيح وهو يسار
وارمل إذا طفت القدوم ثلاثة
ولتمش باقيَهُ عداك العار
يمنيّه المس ما مررت وأسودا
قَبّلْه، إن لم يحصل الإضرار
فإذا أتيت بسبعةٍ فاقصد إلى
خلف المقام وصلّ فهو شعار
واخرج إلى باب الصفا ولْتعْلُها
كبِّر وهلل وادع فيها جؤار
ولْتسع منه لمروةٍ واخبب لدى
بطن المسيل فإنه المختار
واجعل بمروة ما فعلن على الصفا
واستوف سبعاً عدها الأبرار
فالسعي بينهما بسبعٍ واجب
ما إن له بدل ولا أعذار

وقد ساعدت الفاسي خفة الازدحام على تقبيل الحجر الأسود، فكان كلما أراد تقبيله تمكن من ذلك من غير كلفة ولا مشقة، فيقبله مصوتاً مستحضراً في ذلك قول القائل(١):

وقالوا: إذا قبلت وجْنة من تَهْوَى
فلا تُسمعنْ صوتاً ولا تعلن النجوى
فقلت: ومَن يملك شفاها مشوقة
إذا ظفرت يوماً بغايتها القصوى

(١) الأبيات لمحب الدين الطبري: مواهب الجليل ج ٣، ص ١٠٨.

وهل ينفع التقبيل إلا مصوّتا!

وهل يبرد الأحشا سوى الجهر بالشكوى؟!

وبعد حديث عن الحجر الأسود بما نعرفه من مرويات عن ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وكذا عمر بن الخطاب عندما قبل الحجر الأسود وقال: أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك..!

وقد حفلت رحلة الفاسي بعدد من "اللطائف"؛ بمعنى أنه يستطرد بذكر بعض القضايا، ويجعل ذلك تحت عنوان (لطيفة).

وهكذا يذكر (لطيفة) يضمنها نقلاً عن «الاكتفاء» للكلاعي حول بدء خلق هذا البيت الحرام... وبدء خلق الركن... قبل أن يأتي بنقلٍ مماثل عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري من حديث عبد الصمد بن جعفل عن وهب بن منبه... حول أول بيت وضع للناس.

وقد أردف هذه (اللطيفة) بلطيفة أخرى حول استحباب الإكثار من شرب ماء زمزم، وعما ورد حول (ماء زمزم لما شرب له ...) في مختلف النصوص.

وتخلص بعد اللطيفتين إلى (بشارة) تحدث فيها عما منّ الله به عليه من دخول مقام سيدنا إبراهيم الذي قال الله فيه: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ...﴾.

ويحكي بهذه المناسبة عن الفرصة التي مكنته من هذه الزيارة، فيذكر أنه لما عزم على الرحيل من مكة إلى جبل عرفة يوم ثامن ذي الحجة الذي هو يوم التروية بعث إليه شيخ الركب المغربي، فقدم عليه ووجده داخل المقام صحبة الأمير ... نجل سلطان المغرب ...

دخلت وزرته وتمسحت به، وشربت هناك ماء زمزم من أثر القدمين بداخله... ودعا الله هنالك شاكراً للذين أتاحوا له هذه الفرصة... وقد رحل عشية اليوم المذكور قاصداً جبل عرفة.

ويعلل الفاسي أسباب الرحلة لعرفة مباشرة دون أن يقصد منى، يعلل ذلك بمخافة أن يكون الشهر خرج ناقصاً، قال: وكثيراً ما يحدث ذلك فيتشوش على الناس أمرهم، وهكذا يقفون في اليوم الثامن والتاسع.

قال: وبتنا هنالك بعرفة، ومن الغد، وهو يوم الاثنين التاسع من الشهر (٥ يونيو ١٧٩٧م)، اغتسلوا بعد الزوال على جهة الاستحباب وصلوا الظهر والعصر جمعاً بأذان

وإقامة لكل صلاة، ووقفوا راكبين، والإمام يدعو والناس يجيبونه . . .

وبعد (لطيفةٍ) أخرى عن فضل الوقوف بعرفة نقلاً عن كتاب «الإحياء» يتحدث عن نفرهم بعد الغروب للمزدلفة، حيث قام بما يقوم به الحجاج إلى أن يذهب لمكة لطواف الإفاضة . . . حيث وجد شريف مكة السلطان غالباً يعلق أستار الكعبة على العادة . . . ويرجع لمنى بعد أن تضلع من ماء زمزم . . . وهنا يعود للاسترشاد برائية المنالي الزبادي التي كان - كما أسلفنا - يصحبها معه كدليل:

واسمع لخطبة سابع، وانزل منى
في ثامن، وبها المبيت أجار
واقصد إلى عرفات تاسع شهرنا
فيه إلى عَرض العباد يشار
وانزل بنمرة، واستمع قرب الزوا
ل لخطبة تزكو بها الأبرار
واجمع به الظهرين أول وقته
وقفوا لساق الجد يا زوّار
وادعوا الإله وسبحوه وكبروا
فله تعالى العز والإكبار
ولتطلبوا غفران كل ذنوبكم
فهو الكريم وإنه الغفَّار
ولتحمدوه وعظموه وهللوا
فلربنا التوقير والتعذار
ولترسلوا العبرات من وجناتكم
فصنيعكم بدموعكم ينهار
فإذا توارتْ بالحجاب فبادروا
جمعاً وتكثر منكم الأذكار
واحطط بمزدلفة اجمعنّ وبت بها
ولتحيها وبها تعدّ جمار

والصبح صلِّ بها وغلّس راجلاً
وبمشعر قف أو يرى الإسفار
واذكر به مولاك، وادع، واسرعن
في الوادي حيث له تضاف النَّار!
وانزل بخيف منى تنل كل المنى
بضيافة كم نيلت الأوطار
ولترم جمرة عقبة، وانحر وسرْ
للبيت بعد الحلق يا ضَيْطار![1]
وطف الإفاضة فهو ركن ما له
بدل، ولا يكفيك الإنهار
والآن قد أحللت، فافعلْ ما تشا
مما نفى الإحرام لا الإنذار
والظهرَ صلِّ بمكة أو في منى
لكن تبيت بها كما الأكوار

ويوالي وصفه لما قام به من رمي الجمرات في الأوقات المطلوبة مستدلاً مرة أخرى بشعر المنالي الزبادي:

إثر الزوال ارم الجمار ثلاثها
كلاً بسبع عزت الأحجار!

ومن المهم أن نسمع أيضاً في رحلة الفاسي هذه عن المهرجان العظيم الذين تشهده ليالي منى بهذه المناسبة؛ حيث يتبارى الركبان المصري والشامي في إخراج البارود إلى جانب عسكر السلطان الشريف غالب... تارة بالمدافع وتارة بالمحارق التي تكون على أصناف، وهنا نقرأ عما يسمى اليوم بالشهب الاصطناعية... إذ يقول الفاسي بأسلوبه: «تارة تخرج جماعة من المحارق على صورة فرس مسرج مركوب، وتارة على صورة المحمل، مع ما انضم لذلك من وقد المصابيح التي لا تحصى كثرة. وبالجملة فهي - يقول الفاسي - ليلة

(١) الضيطار: العظيم من الرجال.

عظيمة لا أظن أنه يقع ذلك في غير ليلة منى، فهي ليلة معلومة مشهورة تشد الرحال لفرجتها، وتعمر فيها الأسواق بالسلع النفيسة والمأكولات وغير ذلك»[1].

ويتخلص الفاسي لذكر أن جميع الحجاج رحلوا بعد الزوال بعد إنهاء رمي الجمرات الثلاثة على نحو ما سبق «حرفاً بحرف ووصفاً بوصف» على حد تعبيره. وبعد أن تبرك بزيارة المكان الذي نزلت فيه سورة المرسلات وهو قريب من مسجد الخيف يعود إلى مكة ضمن الحجاج الذين لم ينزل أحد منهم بالمحصَّب على ما هو المندوب، فإن هذه العادة أميتت منذ أزمان وخاصة بالنسبة إلى من يتعجل... وهنا يعود إلى رائية المنالي الزبادي:

ومن الغد افعل مثل ذا وتعجلَنْ
إن شئت أو بتْ والمبيت نجار
إن بت فافعل في الزوال كما مَضَى
واذهب لمكة في المحصَّب جار

ويقوم الفاسي بأداء العمرة انطلاقاً من التنعيم يوم ١٤ من ذي الحجة بعد أن اغتسل بزمزم .. وبعد هذا قام - وهو في مكة - بزيارة بعض المشاهد التي اعتاد الحجاج أن يتبركوا بها ... على نحو ما يأمر به المنالي في قوله:

فإذا حططت بها الرحال فسرْ إلى الـ
تنعيم تغسل عنده الأوضار
احرم هناك بعمرة وتجردنْ
كالحج، لبِّ وطفْ كما يختار
ولتسع بين المروتين بذلّةٍ
واحلق وللنسكين منك غزار
والبيت لازم للطواف وللصلا
ة ورؤية لا تلهك الأستار
والحِجْر أنزله مثابة جوفه
إن صدك الرؤساء والأُمَّار

---

[1] نغتنم هذه الفرصة لنجدد الدعوة إلى إحياء ليالي منى كطريق يجمع بين الثقافة والدين والسياحة.

مقدار ستة أذرع من جوفه
صحت به للناسك الأخبار
ولتكثرن من ماء زمزم شارباً
متضلعاً فيه لك الأوطار
ولتدع ربك عند ملتزم، كذا
عند الحطيم تحطم الأوزار
ثم اشهدن تلك المشاهد كلها
إن ساعدتْ بحضورها الأقدار

وبعد هذا الشعر أتى الفاسي أيضاً بما يسميه (بشارة)؛ إذ تحدث عما أنعم الله به عليه - مرة أخرى - من دخوله إلى بيت الله الحرام يوم الأحد ١٥ ذي الحجة، عندما كان الثلث الأخير من الليل، وفتح البيت العتيق لغرض، حيث بادر الفاسي إلى زمزم فأسبغ وضوءه، وطلب من الشيبيين الموكلين بالمفتاح أن يأذنوا له بالدخول، فأجابوه لذلك ورحبوا به، ودخل وصلى إلى جوانبه الأربع، وتمسح بسائر جدرانه، ودعا الله بما حضر في الوقت ... وهنا تذكر قول السيدة عائشة: «يا عجبا للمرء كيف يرفع بصره قِبَل السقف؟! لِيدَعْ ذلك إجلالاً لله وإعظاماً له! دخل رسول الله الكعبة فما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها...».

ويختم حديثه هذا بلطيفة أخيرة حول دلالات المناسك ومغزاها عند بعض العارفين من أمثال الإمام الشاطبي.

وقبل أن يرحل عن مكة ضحى يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة قام بطواف الوداع على جهة الاستحباب قبل طلوع الفجر، ودعى الله عند الملتزم والحطيم، وشرب من ماء زمزم وتضلع منه، بل ونقله معه اقتداءً بالرسول الأكرم الذي كان يفعل ذلك.

فإذا عزمت على الخروج فودّعن
بيت الإله ودمعك المدرار
واخرج من اسفلها إلى الوادي وسر
متن الطريق وربُّنا السَّتار

الشريف العباسي ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م[1]

هذه رحلة حجازية من نوع غريب، وجاءت غرابتها في أن صاحبها الذي يحمل في وثائق رحلته اسم علي باي العباسي هو في الواقع مسيحي واسمه الحقيقي دومينكو باديا.

لقد انصب اهتمام أوربا على الحجاز بعد ظهور الحركة الوهابية التي أحدثت في المنطقة تغييراً على مختلف الصعد، هذا التغيير الذي واكبته أحداث عسكرية كان لها صدى في المجتمعات الأوربية ودولها.

ومن هنا أخذت منطقة الحجاز تلفت أكثر فأكثر نظر الرحالين الأوربيين ليتوافدوا ويقوموا بجمع المعلومات التي تتصل بالنواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للمنطقة.

وقد كان في طليعة هؤلاء الرحالين الرحالة الإسباني دومينكو باديا إي ليبليش (Domingo Badia y Leblich) الذي قام بالمغامرة لحساب إسبانيا.

وقد استطاع هذا الرجل أن يتقن عمله فيتجشم عملية ختان في لندن بواسطة بعض اليهود! وقام أولاً بزيارة للمملكة المغربية، سجل له فيه تاريخاً لا ينسى[2]!!

ثم قصد مكة لأداء فريضة الحج قبل أن يعود إلى مدريد، ويخطط لرحلة حجازية أخرى لحساب فرنسا، توفي في أثنائها، ودفن في حصن البلقاء بالأردن..!

ويهمنا من هذه الرحلة أن نتتبع باختصار شديد خطوات "الحاج" العباسي! وهو يقوم بالمناسك بمكة وما جاورها، بل وفي قلب البيت العتيق لنأخذ فكرة عن وجهة نظر الآخرين حول الأجواء التي عاش فيها أمثال ابن جبير وابن بطوطة والعياشي إلى آخر اللائحة... ثم لنعرف - وهذا مهم - طريق معالجته الحديث عن موقع مكة، بخلاف ما كان يتحدث به الرحالون السابقون الذين كانوا يهملون مثلاً الحديث عن خطوط الطول

(١) يلاحظ هنا تعمدنا إثبات تاريخ الزيارة وليس تاريخ وفاة الكاتب الذي هو ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م، وذلك لتسهيل المقارنة والمفارقة مع الرحلات الإسلامية المقاربة لهذا التاريخ.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٩، ص ١٣٠، مصدر سابق.

والعرض... وكانوا يعبرون أحياناً عن الرطوبة - إن هم تحدثوا عنها - بالوخم مثلاً... وكانوا لا يهتمون بعدد السكان في القواعد الحجازية، ولا بعدد الحجاج في كل سنة... إلخ.

ونحن نعتمد في هذا العرض على دراسة موثقة أوردها الزميل الدكتور عبد الحفيظ حمان من كلية الآداب بتطوان[1]، فماذا عن مكة عند العباسي؟

يقدم دومينكو باديا صورتين في وصفه لمكة التي وصلها يوم ١٤ ذي القعدة سنة ١٢٢١هـ / ٢٣ يناير ١٨٠٧م: الصورة الأولى تهتم بالجانب الطبيعي والإداري للمدينة من ناحية موقعها الجغرافي وطبوغرافيتها وجبالها ومناخها، والسلطة الموجودة بها والحاكمة فيها، وغير ذلك، والصورة الثانية تهتم بالجانب الديني لمكة، حيث يصف جميع مرافقها الدينية من الكعبة وبئر زمزم والصفا والمروة وغيرها من أماكن العبادة التي يتم فيها أداء مناسك الحج.

الجانب الطبيعي والإداري لمكة: أول ما يستهل به وصف مكة هو تحديد موقعها الجغرافي من ناحية خطوط الطول والعرض، فموقعها - حسب تقديراته - في خطوط الطول هو ٣٧ْ/ ٥٤، وفي خطوط العرض هو ٢١ْ /٢٨، ثم يصف موقعها الطبوغرافي قائلاً:

تقع مدينة مكة في وادٍ يبلغ عرضه معدل خمس وخمسين ومئة قامة، على خط ملتوٍ يتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي بين الجبال. وبالتالي، فإن المدينة التي تتبع التواءات الوادي تأخذ شكلاً غير منظم، كما أن المنازل المبنية على مساحة الوادي أو على منحدر الجبال تساهم في هذا الشكل.

وفي هذا الوصف يتكلم دومينكو باديا - في موضع آخر - عن مناخ مكة، فيصفه بأنه مناخ لاهب محرق، ولا يرجع سبب ذلك إلى خطوط العرض فقط، ولكن بالأخص إلى الموقع الجغرافي للمدينة التي تقع وسط الجبال، فيشبهها بـ «مقلاة تحت الفرن العاكس للحرارة». ونتيجة لهذا المناخ الحار - يقول باديا - فإن الجو في مكة يكون جافاً دائماً. وطول مقامي بها لاحظت أن الرياح تهب دائماً من الجنوب الغربي... والسماء تكون

(١) نشرت هذه الدراسة في مجلة التاريخ العربي العدد الثالث والعشرين صيف ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص ٢٩-٦٥.

بالتعاقب صافية وغائمة، كما في البلاد المعتدلة، غير أنني لم ألاحظ تقلبات مفاجئة في درجات الحرارة والرطوبة، كما لاحظتها في مدينة جدة.

ومن انعكاسات هذا المناخ ظاهرة الجفاف والقحط بمكة التي يتكلم عنها قائلاً:

نتيجة لهذا المناخ السائد بهذه البلدة، لا يمكن العثور تقريباً على أية نباتات حول المدينة أو في الجبال المحيطة بها... فلا يمكن العثور في مكة على أي شكل من الحدائق أو المراعي الخضراء، وإنما فقط الرمل والأحجار التي تجود بها الطبيعة لسكان هذا البلد، كما لا يتمكن هؤلاء من زرع أية حبوب، نظراً للأرض القاحلة التي لا تستجيب لمتطلبات الفلاحة.

إضافة إلى هذه العناصر المكونة للجانب الطبيعي، يتحدث دومينكو باديا عن جبال مكة من ناحية تكوينها الجيولوجي والمعدني، ومن ناحية طبوغرافيتها. وبهذا الصدد يقول:

تتكون جبال مكة من نضيد بلوري مع بعض الفتوحات أو الأحجار ذات الشكل القرني. وكل شيء في هذا البلد هو عبارة أو نتيجة للبلور. فالرمل ما هو إلا بقايا البلور أو الكوارتز، وكذلك الأحجار الأخرى التي تتشكل في مختلف الجبال ما هي إلا طبقات تكونت بالصدفة. ويبقى البلور أو الكوارتز المكون والقاعدة الأساسية لها.

وقلب المدينة الذي تتوسطه الكعبة محاط بأربعة جبال أساسية، هي: «جبل (أبو قبيس) في الشرق، وجبل أجياد في الجنوب، وجبل عمر في الغرب، وجبل هندي في الشمال».

وعلى هامش هذا الوصف الطبيعي لمكة، يتطرق الرحالة باديا إلى وصف المنازل والدور الموجودة بالمدينة. وفي هذا الجانب يقدم لنا صورتين متناقضتين: الأولى يقول فيها ما يأتي:

غرف المنازل المخصصة للسكنى متناسقة جداً في طولها وعرضها وارتفاعها. علاوة على الشبابيك الكبيرة والشرف، فإنها تتوفر على صفٍّ ثانٍ من النوافذ الصغيرة الحجم، كما يحيط بالغرفة رف هو عبارة عن مستودع لأغراض مختلفة.

وجمال هذه المنازل يشهد على الإشراق والأبهة القديمة لمكة، والسكان لهم مصالح كبيرة في الحفاظ على رونقها لجلب الحجاج؛ لأن مدخول الكراء هو أحد المصادر الأساسية المكونة لمعيشتهم.

والصورة الثانية القاتمة يقدمها لنا في موضع آخر، حيث يقول:

ما يناهز ثلثي منازل مكة تجدها خاوية، والجزء الكبير من الأخرى التي يقطنها الناس تجد داخلها منهاراً بالرغم من متانة بنائها، أما واجهاتها فتظهر في حالة جيدة، وذلك من أجل جلب الحجاج، وبالرغم من ذلك، فإنه نظراً لعدم الاعتناء والإصلاح الجيد فإن هذه المنازل تنهار ولا تشيد أخرى جديدة في محلها، فإنني لم أر في المدينة أي بناء جديد ما عدا واحداً ما زال في طور الإنجاز بطريقة بطيئة جداً.

ويختم قوله بتشاؤم كبير يعبر عنه بقوله: «إذا استمرت الحالة على هذا المنوال فإنه في غضون قرن واحد ستتقلص المدينة إلى عشر ما هي موجودة عليه حالياً».

النظام الإداري والسياسي: وإذا تساءلنا عن نظام الإدارة بمدينة مكة والحكم السياسي فيها، فإننا نجد (باديا) قد يركز بصفة أساسية في شخصية الشريف غالب الذي التقاه في منزله، وأجرى معه حواراً حول هويته وأوضاع أوربا. ومن خلال هذا الحوار استطاع باديا أن يكسب ثقة شريف مكة ونقيب الأشراف، أي الشخصيات الحاكمة والفاعلة في مدينة مكة. وبعد ذلك يتعرض باديا لوصف شخصية الشريف غالب بقوله:

ويظهر لي أن سن الشريف يبلغ ستاً وثلاثين إلى أربعين سنة، عيناه واسعتان وجميلتان، ذو لحية عادية وبدانة ظاهرة، ومع ذلك فإنه يتوفر على نشاط وحيوية. لباسه يتكون من قفطان خارجي وآخر داخلي مشدود في وسطه حزام: شال أو قماش كشميري، بينما يجعل شالاً آخر من النوع نفسه (كشميري) يتخذه عمامة، كانت له وسادة كبيرة من ورائه وأخرى بجانبه، وثالثة أصغر شيئاً ما أمامه يتوكأ عليها مراراً.

وفي موضع آخر يصف لنا هذه الشخصية بقوله: «شريف مكة رجل نبيه وذكي، سياسي وشجاع، غير أنه ما دام لا يتوفر على أي ثقافة، ويستسلم كلياً لشهواته،

ويتصرف حسب هواه، فإنه يتحول أحياناً إلى شخص أناني ». وهنا يحرص (باديا) على تسجيل "النقط السوداء" المتمثلة في مظاهر الاستبداد التي تطبع شخصية الشريف غالب بن مساعد تجاه عامة الناس والحجاج، فيقول ما يأتي:

إنه لا يترك أي شكل من الكيد لا يمارسه على السكان وعلى الأجانب أو الحجاج، فروح السلب والنهب التي تطبعه لا يسلم منها حتى أعز أصدقائه وخدامه المخلصين عندما يقرر سلبهم بعض المبالغ...! أما الضرائب التي يفرضها على التجارة وعلى السكان فإنها مجحفة جداً، وكل يوم يعمل على الزيادة فيها مخترعاً مبررات وقضايا جديدة من أجل الرفع من مداخيله... وعلاوة على هذه الضرائب المجحفة التي تنهك التجارة فإنه يضايق التجار، ويضع العراقيل أمام المضاربات؛ لأنه يتحكم في قسط كبير من التجارة في البحر الأحمر بواسطة سفنه. وأمام هذه الوضعية فإن التجار يعانون الشيء الكثير... وأما الإنجليز، فإنه يعتبرهم أحسن أصدقائه؛ نظراً لما يوفرونه له من تسهيلات، وما يجنيه من مصالح في التجارة مع الهند.

ويؤكد لنا مرة أخرى أن الشريف هو الحاكم الفعلي لمكة: « حاكم مكة حالياً هو الشريف غالب بن الشريف مساعد. وقد تسلمت أسرته حكم البلد الحرام ومنطقة الحجار ».

وفيما يخص الوضعية السياسية في مكة، فإن باديا عندما زار منطقة الحجاز وجد السلطان سعوداً يعمل على تثبيت دعائم حكمه في الجزيرة العربية، وينفصل عن التبعية لحكم الدولة العثمانية، ولذلك نجد باديا يتكلم على مرحلتين في النظام السياسي الذي عرفته مكة في هذه الفترة الدقيقة التي كان باديا موجوداً بها. فعن المرحلة الأولى يقول:

عند وصولي، كانت السلطة في مكة بيد الشريف غالب الذي يعترف بالسلطان العثماني في القسطنطينية ويخضع لتبعيته... والسلطان العثماني يرسل ممثله الباشا الحاكم في جدة، غير أن هذا الحاكم الأخير يقضي جل وقته مع شريف مكة دون أن يمارس أدنى سلطة.

كما أن السلطان يرسل على رأس كل سنة القضاة إلى مكة وجدة والمدينة لممارسة

القضاء. غير أنه لم يكن في استطاعتهم التدخل في الشؤون الإدارية التي تبقى حكراً على الشريف الذي يتفرد في الحكم بصفته سلطاناً مستقلاً بواسطة أعوانه.

وفيما يخص المرحلة الثانية الموازية من الحكم السياسي الذي عرفته مكة ومنطقة الحجاز، فإن باديا يبتدئ الكلام بقوله:

وفي ٢٦ فبراير ١٨٠٧م (١٨ ذي الحجة ١٢٢١هـ)، وبأمر من السلطان سعود، تم الإعلان في كل المواقع والأماكن العامة بأنه في الغد بعد الظهر يجب على كل الحجاج وكل الجنود الأتراك والمغاربة التابعين للشريف أن يغادروا مكة ويذهبوا خارج الجزيرة العربية، وكذلك الباشا العثماني لجدة والقضاة الأقدمون والجدد في مكة والمدينة والمدن الأخرى، بحيث لا ينبغي أن يظل أي عثماني في البلاد، كما تم نزع سلاح الشريف والقضاء على سلطته، وتحولت السلطة القضائية إلى يد الوهابيين[١].

ويزيد باديا في توضيح هذه الأحداث والتغييرات السياسية بقوله:

وفي ليلة ٢٦ و٢٧ فبراير (بعد موسم الحج) غادر كل الجنود الأتراك مدينة جدة.. وفي الليلة التالية تحول خمسون ومئتان من الجنود الزنج لخدمة السلطان سعود. كما غادر الكل البلاد في يوم ٢٨، فاتجه السلطان سعود نحو المدينة برفقة جنوده لترسيم قضاته... وهكذا انتهت هذه الثورة السياسية دون إراقة الدماء.

وصف المرافق الدينية لمكة:

وقد اهتم الفصل السادس عشر من كتاب باديا بكل المرافق الدينية الموجودة في بيت الله التي تشكل الأماكن الأساسية لأداء مناسك الحج، بداية من الكعبة ومقام إبراهيم ونهاية بالصفا والمروة. وأعطى لها وصفا دقيقاً من ناحية الموقع والشكل والمقاييس والتفسيرات الدينية المرتبطة بها. كما تطرق إلى الكلام على أبواب الحرم، وخصوصاً

---

(١) ورد في مصادر تاريخ مكة: «وحج هذا العام ١٢٢١هـ المحمل الشامي والمصري، فاعترض السعوديون على أمر المحامل، ونبهوا أمراءها ألا يعودوا بعد عامهم هذا...» خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، تأليف زيني دحلان.

أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ٥٠٢.

باب السلام، ووصف ساحة الكعبة ومنبر خطبة الجمعة والأعمدة النحاسية والقناديل الموجودة في المسجد، ولم يغفل حتى الحديث عن أسراب طيور الحمام التي تملأ سماء الكعبة.

الكعبة: تطرق باديا في معرض حديثه عن الكعبة إلى الوصف الدقيق للمظهر الخارجي والداخلي لها، فعن الوصف الخارجي يقول:

الكعبة أو بيت الله هي عبارة عن صرح رباعي الشكل غير متساوٍ في أضلاعه وزواياه، بحيث إن تصميمه يعطي شكل مربع منحرف، غير أن ارتفاع مبناه والنسيج الأسود الذي يغطيه يخفيان هذا التفاوت، ويمنحانه هيئة مربع حقيقي.

ثم انتقل إلى وصف نوعية الصخور المكونة لبناء الكعبة، كما حاول التدقيق في مقاييس الكعبة من ناحية أضلاعها وارتفاعها واتجاهاتها. ثم تطرق إلى وصف الحجر الأسود ونوعه ومقاييسه غير غافل عن التفسير الديني المرتبط بهذا الحجر.

وبخصوص المظهر الداخلي للكعبة، تطرق إلى الوصف الدقيق لها فقال: «في الجزء الداخلي للكعبة نجد قاعة واحدة، في وسطها عمودان قطر كل منهما قدمان (ما يناهز ٦٥ سم) يحملان السقف الذي لم يستطع باديا معاينة شكله؛ لأنه مغطى بنسيج رفيع... يعلو الجدران، والأعمدة من فوقها إلى علو خمسة أقدام من الأرض». ويسترسل في وصف الكسوة الداخلية للكعبة قائلاً: «هذا النسيج هو من الحرير الوردي المرصع بورود منسوجة من الفضة ومبطن بنسيج آخر أبيض. ولا يمكن تبديل هذا النسيج إلا بعد وصول خليفة عثماني جديد إلى الحكم، وهو الذي يقوم بتغييره وإرسال نسيج جديد بديل له».

أما عن الكسوة الخارجية للكعبة، فيقول باديا:

إن بيت الله مغطى بأكمله من الخارج بنسيج أسود يسمى "ثوب الكعبة"، معلق من السطح ومثبت في الأسفل بواسطة حبال مربوطة في خواتم نحاسية موضوعة حول القاعدة، وفي كل سنة يجدد هذا الثوب، إذ يؤتى به من القاهرة. ومن هذه المدينة كذلك يرسل الستار الرفيع المطرز بالذهب والفضة والمخصص لغطاء باب الكعبة. وعند

ثلثي ارتفاع ثوب الكعبة نجد رباطاً ـ يُدعى الحزام ـ مطرزاً بالذهب، وعليه كتابات تتكرر في كل الجوانب الأربعة، ويتم تغيير الثوب الجديد في كل موسم، وأثناء ذلك لا يرسل كلياً، بل يرفع أسفله في احتفال موكبي، ويظل معلقاً بالسطح.

مقام إبراهيم: ثم ينتقل الرحالة باديا إلى وصف مقام إبراهيم وموضعه وشكله ومقاييسه، فيقول في ذلك:

مقام إبراهيم هو عبارة عن صورة مهد متوازي الأضلاع أمام وسط الحائط الموجود فيه باب الكعبة، ويبعد عنه بنحو أربع وثلاثين قدماً (ما يعادل: ١١ متراً و٢٢ سم) طوله اثنتا عشرة قدماً وتسع بوصات (ما يعادل ٤ أمتار و٢٠ سم)، وعرضه سبع أقدام وثماني بوصات (ما يعادل مترين و٥٢ سم)، وسقفه مدعم بستة أعمدة تكاد تفوق قامة الرجل.

بئر زمزم: أما بئر زمزم، فقد وصف شكله وكيفية جلب الماء من البئر، وحدد موقعه، وبصفة عامة رسم لنا لوحة عن شكله في مطلع القرن التاسع عشر، فقال فيه:

يقع بئر زمزم على بعد خمسين قدماً ونصف القدم (ما يعادل: ١٦ متراً و٦٧ سم) من الجهة الشرقية للحجر الأسود. قطره يناهز سبع أقدام وثماني بوصات، وعمقه ست وخمسون قدماً حتى سطح الماء (ما يعادل: ١٨ متراً و٤٨ سم)، مثابته من الرخام الأبيض الرفيع الجيد.

الصفا والمروة: وعند حديثه عن الصفا والمروة يحدد موقع كل منهما ويصف الشكل الذي كانت عليه في هذه الفترة، فعن الصفا يقول:

تقع الصفا في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد أمام الباب الذي يحمل الاسم نفسه وفي قدم الجبل المسمى جبل (أبو قبيس...)، وعند نهاية طريق قصيرة وواسعة تصل إلى تل الصفا يوجد رواق مكون من ثلاث أقواس مدعم بثلاثة أعمدة ضخمة، تصعد إليه عبر أربع درجات وهو الموضع الذي يرتل فيه الحاج الدعوات الخاصة بالصفا.

أما المروة، فيقول عنها:

تبعد شيئاً ما عن المسجد من الجهة الشمالية. وعند نهاية الطريق التي تصل إلى

المروة يوجد رصيف بلغ خمساً وعشرين إلى ثلاثين قدماً مربعة (ما يعادل : ٨ أمتار) يحيط به من ثلاث جهات حائط كبير، وهو الموضع الذي يقرأ فيه الحاج الدعوات الخاصة بالمروة.

وكما ذكرنا سالفاً، فإن الرحالة (باديا) وصف جميع المرافق الدينية الموجودة في الحرم المكي، وفي الصفحة ٣٧١ من كتابه نجد جرداً كاملاً لأبواب الحرم من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية والغربية، غير أنه خص بالحديث والوصف باب السلام، فوصف شكله وحدد موقعه ومقاييسه.

الحياة المدنية في مكة: تعتبر الصفحات التي خصصها (باديا) في كتابه للحديث عن مناسك الحج في مكة أكثر الصفحات إثارة. فقد وصف جميع المناسك انطلاقاً من الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، ومروراً بوصف الطريق إلى منى ومزدلفة ومناسك الحج في عرفات ورجم الشيطان.

ومن هذه الصفحات نستخرج موضوعين تطرق إليهما الرحالة وركز فيهما في متن رحلته. يعبر الأول عن الثقة التي اكتسبها (باديا) لدى الأوساط الحاكمة في مكة والتي مكنته من الولوج إلى داخل الكعبة والمشاركة في غسلها وإحرامها. ويعبر الموضوع الثاني عن مشاعره وهو يؤدي مناسك الحج في عرفات. ولأهمية الموضوعين ندرجهما بتفاصيلهما كما عبر عنهما باديا.

فعن غسل الكعبة يرسم لنا الصورة الآتية بقوله :

في يوم الاثنين ٢٩ يناير ١٨٠٧م/ ٢٠ من شهر ذي القعدة ١٢٢١هـ، تم غسل الكعبة حسب المراسيم التالية : بعد ساعتين من شروق الشمس وصل الشريف (غالب) إلى الكعبة مصحوباً بثلاثين شخصية واثني عشر من الحراس : قسم من الزنوج، وقسم من العرب. وكان باب الكعبة قد فتح من قبل، وأحاط به حشد كبير من الناس، إلا أن السلالم لم يتم وضعها بعد.

وبعد أن تسلق الشريف أكتاف البعض ورؤوس الآخرين، ولج إلى داخل الكعبة مع رؤساء القبائل الرئيسيين، وأراد الآخرون القيام بالشيء نفسه، إلا أن الحراس الزنوج

منعوهم من الدخول بضربهم بالعصي والقصب. أما أنا ـ يقول باديا ـ فقد مكثت بعيداً عن الباب حتى أتجنب هذا الحشد الهائل، غير أن رئيس الزمازمة، بعدما تلقى أوامر الشريف، أشار إليَّ لكي أتقدم، ولكن كيف أستطيع اختراق آلاف الأشخاص الموجودين أمامي؟

كل الزمازمة في مكة تقدموا بقربهم المملوءة، وأخذوا يمررونها من يد إلى أخرى حتى تصل إلى حراس باب الكعبة الزنوج، كما فعلوا الشيء نفسه بعدد كبير من المكانس الصغيرة المكونة من أوراق النخيل.

فأخذ الزنوج يلقون بالماء على أرض الحجرة المبلطة بالرخام، وكذلك ماء الورد، فيسيل هذا الماء من ثقب موجود في عتبة الباب، فيتلقفه المؤمنون بكل لهفة، ونظراً لعدم كفاية الماء أمام هذه اللهفة الكبيرة، بالإضافة إلى أن الحشود الأخرى كانت ترفع صوتها طالبة قدراً من هذا الماء للشرب أو الاستحمام، فقد أخذ الحراس الزنوج يلقون الماء بوفرة على هذه الجموع إما بواسطة الأقداح أو بأيديهم. وقد أوصلوا إليَّ جرة صغيرة وقدحاً، فشربت ما استطعت، وأفرغت الباقي على بدني؛ لأن الماء، بالرغم من أنه وسخ جدا (كذا)، فإن فيه نعمة ربانية، بالإضافة إلى أنه معطر بماء الورد. بعد ذلك، بذلت جهداً للاقتراب، فحملني عدة أشخاص على رؤوسهم حتى وصلت إلى الباب، فساعدني الحراس الزنوج على الدخول.

في الداخل وجدت الشريف (غالب) يكنس بنفسه الحجرة. وفور دخولي خلع لي الحراس عباءتي وقدموا لي رزمة من المكانس الصغيرة، فأخذت بعضها في كل يد. في اللحظة نفسها ألقوا كثيراً من الماء على البلاط وبدأت أكنس الأرض بكل إيمان بالرغم من أنها كانت نظيفة تلمع كالمرآة. وأثناء هذه العملية كان الشريف يؤدي الصلاة بعد انتهائه من الكنس وتطييب الكعبة.

بعد ذلك، سلموا لي طاساً فضياً مملوءاً بعجينة مصنوعة بنشارة خشب الصندل ومدلكة بعطر الورد. نشرت هذه العجينة على القسم الأسفل من الحائط المغشى بالرخام، ثم أعطوا لي بعد ذلك قطعة من خشب العود (القماري) الذي أحرقته في

موقد كبير حتى تتعطر الحجرة، بعدها ناداني الشريف بـ "خادم بيت الله الحرام"، وتلقيت التهاني من كل الحاضرين.

أما عن النقطة الثانية التي يتحدث فيها عن مناسك الحج بجبل عرفات، فقد ترك الحماسة تغزوه في هذا الوصف، وفاضت مشاعره، وتجاوز الدور الذي يمثله، فوصف هذه المناسك بقوله:

لا يمكن أن تتصور فكرة التأثر العظيم الذي يقدمه الحج للمسلمين إلا على جبل عرفات: جماهير غفيرة من كل الشعوب والأمم والألوان، جاؤوا من أقصى أنحاء المعمورة متجاوزين آلاف المخاطر، ومتاعب ومعاناة لا حدّ لها، لكي يعبدوا الله الواحد جميعاً، سكان القوقاز يمدون يد الصداقة إلى الحبشي أو الزنجي من غينيا، والهندي والفارسي يتآخيان مع البربري والمغربي، يتلاقون جميعاً كأنهم إخوة، أو أفراد من العائلة نفسها، توحد بينهم رابطة الدين، وتتحدث أغلبيتهم - أو يتفاهمون على الأقل - باللغة نفسها، وهي اللغة العربية المقدسة. وليست هناك عبادة مثل الحج تقدم للحواس مشهداً أكثر روعة، وأقوى تأثيراً، وأسمى جلالاً... وهنا لا توجد طبقة واسطة بين العبد وخالقه ولا طبقة متميزة عن الأخرى، الناس جميعاً سواسية أمام الله، والجميع يدركون أن عملهم هو الذي يقربهم إلى الخلق أو يبعدهم عنه، ولن تستطيع أي قوة، مهما كانت، أن تغير هذه السنة الإلهية.

وعلى هامش هذا الوصف الديني لم يَنْسَ (باديا) وصف جبل عرفات من حيث شكله وتكوينه الجيولوجي فيقول:

جبل عرفات هو عبارة عن صخرة من (الجرانيت) كباقي الجبال المجاورة له، ارتفاعه يناهز خمسين ومئة قدم (ما يعادل: ٥٠ متراً)، يقع عند قدم جبل أكثر ارتفاعاً في الجهة الجنوبية الشرقية من هضبة، يتم الصعود إليه عبر أدراج: قسم منها منحوت في الحجر، وقسم آخر مبني.

التجديد لدى الحركة الوهابية: قبل إنهاء هذا العنصر الخاص بالحياة الدينية، تجدر الإشارة إلى أن باديا قد تعرض في كتابه للحديث عن الوهابيين ومبادئهم الدينية

والحملات العسكرية التي قاموا بها، والإصلاحات الدينية التي جاؤوا بها، معتمداً في ذلك ـ كما صرح بنفسه ـ على مصدرين هما: أولاً الرواية الشفوية من طرف بعض الوهابيين أنفسهم ومن بعض سكان البلاد، وثانياً الملاحظات التي سجلها من خلال الأحداث التي كان شاهداً عليها.

فحسب باديا أن تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه قضت على الزنادقة والسحرة، والمهرجانات الدينية التي كانت تسهم مادياً في رفاهية سكان مكة والمدينة. والوهابيون لا يرفضون استخدام المسبحة والتدخين وزيارة الأولياء فحسب، بل هدموا المقابر والأضرحة والمساجد التي أقيمت تشريفاً لأصحابها، وهم يمنعون أيضاً تقديس شخص النبي على ما يقوله (ج٤، ص ٤٤٤).

وعندما كان يؤدي مناسك الحج في مكة صادف مجيء طائفة من الوهابيين للقيام بفريضة الحج. وكانوا حليقي الرؤوس، شبه عراة، مدججين بالسلاح، فأحدثوا الرعب في السكان(١). ولكن ما إن أتيحت الفرصة لباديا كي يتصل بهم ويتعرف إليهم حتى اكتشف فيهم مجموعة من الفضائل والصفات الطيبة أعظم مما وجده عند بقية العرب. ونتركه يسجل ذلك بنفسه قائلاً: «لا يسرقون أبداً، سواء بالقوة أو عن طريق الخديعة، أوفياء لرؤسائهم، يتحملون كل ألوان المعاناة، ويتبعون قادتهم ولو إلى آخر الدنيا، لا يتراجعون أمام أي خطر أو صعوبة».

ولكنه يرى، بعد أن تأمل موقفهم وعقيدتهم جيداً، أن مثلهم الأعلى الديني والاجتماعي سوف يلقى معارضة قوية تحول دون انتشاره في المناطق الأكثر غنى وتقدماً، لتشدده وصرامته واصطدامه مع العادات والتقاليد التي دأبت عليها الشعوب الإسلامية الأخرى. ويقول بهذا الصدد ما يأتي: «إذا لم يخفف الوهابيون قليلاً من تشددهم في المبادئ التي يؤمنون بها، فيبدو لي أن من المستحيل أن تنتشر الوهابية في بلاد أخرى أبعد من هذه الصحراء».

الحياة الاقتصادية في مكة: تتنوع قيمة المعلومات التي أوردها (باديا) حول الحياة

---

(١) السباعي: تاريخ مكة، ص ٥٠٢.

الاقتصادية في مكة من نشاط إلى آخر.

الفلاحة: إذا استثنينا التفاصيل التي ذكرها (باديا) حول المناخ من رياح وحرارة، فإن معلوماته في هذا الميدان تبقى محصورة فيما يأتي:

الثروة الزراعية: ويمكن تلخيصها في الأقوات والمعيشة التي تتوفر عليها أسواق مكة. وقد قال عنها باديا:

ثمنها مرتفع ما عدا لحم الخروف... الدواجن قليلة والبيض كذلك، ويستورد القمح، أو بالأحرى الدقيق، من مصر، والخضر والأرز من الهند، ونأتي بالخضر من مدينة الطائف، بعض القمح أقل جودة من الذي يأتي من مصر. أما الزبدة التي نحفظها في القرب والأوعية فهي تشبه نظيرتها في كل البلاد، غير أنها تكون دائماً ذائبة كالزيت؛ نظراً لشدة الحرارة.

كما يشير إلى أثمان السلع. وبهذا الصدد يعطينا لائحة حول بعض هذه السلع وأثمانها في الفترة التي كان موجوداً بها في مكة.

وفي موضع آخر يتكلم عن اللحم وبعض المواد الغذائية والخضر الأخرى بقوله:

إن اللحم الذي نأكله في مكة ليست له قيمة تذكر، فبالرغم من أن الخرفان كبيرة، فإنها هزيلة. والسمك لا يكاد يوجد، بالرغم من أن البحر لا يبعد كثيراً عن مكة. أما الخضر التي تأتي بها من الطائف ومن بعض المواضع القريبة، فتشمل البصل واللفت والخيار والبقول والكبر[1] وشكلاً من السلاطة له أوراق تسمى الكراث.

والماء الموجود في مكة ـ إلى جانب زمزم ـ يقول عنه: «الماء العذب الذي يجلب باستمرار من الجبال القريبة، ومن منى على ظهر الجمال، ذو جودة عالية. وبالرغم من أن ماء الآبار أجاج شيئاً ما وثقيل، فإنه صالح للشرب كماء زمزم».

الثروة الحيوانية: أما الثروة الحيوانية التي وقف عليها (باديا) في مكة، فتتمثل بالخصوص في الخيول والحمير والجمال. فعن الأولى ينفي وجود الخيول العربية الأصيلة

---

(١) يسميه المغاربة الكبار، حبوب صغيرة تنقع في الخل، تتناول كمقبل من المقبلات، وهي ثمر لنبات شائك كالسدرة.

باستثناء القليل منها، يوجد في حوزة شريف مكة وبعض الخواص. وما عدا هذه الخيول التي وصفها بالقوة والسرعة والجمال، فإنه يتكلم عن الأخرى التي رآها بقوله: «هي بشعة في منظرها وغليظة». ولم يفته أن يشير إلى المعاملة القاسية التي تتعرض لها هذه الحيوانات من قبل ركابها «الذين يستعملون شكيمة صلبة جداً، مما يسبب نزيفاً في أفواه هذه الحيوانات». ويرجع سبب قلة الخيول في مكة إلى المناخ الصحراوي القاسي وجفاف الطبيعة. أما عن الحمير، فبالرغم من قلتها في مكة، فقد لاحظ (باديا) جودتها. وهي الحقيقة التي تذكرنا فيما نقلناه مراراً عن (حمير جدة)، وأنها كانت مضرب المثل عند المغاربة... في النشاط والجودة.

والملاحظ أن رحالتنا أولى اهتماماً خاصاً بالجمال. ويرجع ذلك إلى كثرتها في مكة المكرمة كباقي أنحاء الجزيرة العربية؛ نظراً لطبيعة المناخ. وعن هذا الحيوان يستعمل تعبيراً خاصاً بقوله: «الجمل، وهو الحيوان الوحيد الصالح للصحراء، يعتبر هبة إلهية للسكان الذين يسافرون في هذه المناطق المزعجة بحرارتها». ومن ثم يسأل عن مصير الجزيرة العربية لولا وجود هذه الثروة الحيوانية، كما يسأل عن أي قوة بشرية تستطيع تحمل العدد الهائل من الحجاج عند ذهابهم إلى جبل عرفات لولا المساعدة التي تقدمها هذه الحيوانات الغالية!

وبعد ذلك، يشير إلى المعاملة الحسنة التي يعامل بها الجمال من طرف أصحابها. غير أن هؤلاء، في نظره، يستغلونها إلى آخر رمق حتى تموت بهذا العبء.

وإلى جانب هذه الثروة الحيوانية الممثلة في الخيول والحمير والجمال يذكر (باديا) وجود نوع ممتاز من الأبقار في مكة: «لا يوجد في رأسها أي قرن، وعلى ظهرها سنام، وهي تصلح للركوب وحمل الأثقال وتستطيع السفر بسرعة وخفة، كما أنها تجود بلبن وافر».

وقد لاحظ وجود أبقار وعجول صغيرة الحجم شبيهة بالتي رآها بالمغرب، كما يذكر وجود نوع من الماعز «جميلة الشكل وكبيرة بعض الكبر في حجمها».

التجارة: لاحظ باديا أن مكة تقع وسط الصحراء، وأن هذا الوضع أرغمها منذ أزمان سحيقة على أن تفرض نفسها بقوة العقيدة الدينية. وأهلها يعيشون بالخصوص من الأموال التي يحصلون عليها خلال أشهر الحج، مما يسمح لهم بأن يعيشوا منها بقية

العام. فإلى جانب هذا الرواج التجاري الذي تعرفه مكة المكرمة لوقت معين بفضل تلك العقيدة، ذكر باديا وجود أنشطة أخرى بالمدينة.

الأسواق العمومية: وعن هذه الأنشطة يقول:

لا توجد في مكة أماكن خاصة بالأسواق العمومية. فهذه الأخيرة تقام على طول الشوارع الرئيسة، ويمكن القول: إن الشارع الرئيس في وسط المدينة هو عبارة عن سوق دائم يمتد من طرف المدينة إلى الطرف الآخر، يقف بعض الباعة في أكواخ مصنوعة من العصي والحصير المنسوج من القصب، وآخرون يقفون تحت نوع من المظلات الكبيرة المدعمة بثلاث عصي تجتمع في وسطها.

وعن كيفية تزويد هذه الأسواق ونوعية الأنشطة الموجودة بها يقول باديا:

هذه الأسواق مزودة جيداً بما تحتاجه من أقوات، ومن كل نوع من السلع الضخمة، وتكون غاصة بالجماهير في كل أوقات النهار، وبالأخص عند موسم الحج. وإلى جانب ذلك، نجد أصحاب المطاعم وأصحاب الحلويات، بالإضافة إلى مبيضي القصدير والإسكافيين وبعض الحرفيين والصناع.

وفي موضع آخر يقول: «نجد كذلك في هذه الأسواق كل المنتوجات الطبيعية والصناعية المستوردة من الهند ومن إيران. وكان بجانب مسكني صفان من المحلات الخاصة ببيع أنواع العطور».

الحرف والأعمال: إلى جانب بعض الحرف التي ذكرها باديا آنفاً، فإنه ينفي وجود صنّاع في مكة قادرين على صنع أقفال أو مفاتيح، «فكل الأبواب مقفلة بمفاتيح بدائية من الخشب وكذلك الصناديق المستوردة من أوربا».

أما الأخفاف، فإنها تستورد من القسطنطينية ومن مصر؛ «لأنه في مكة لا يصنع إلا النعال من الخشب أو الجلد غير المدبوغ». كما ينفي (باديا) وجود صنّاع للأسلحة في مكة قادرين على صنع لولب أو تبديل قطعة من البلاتين لبندقية أوربية. فصناع الأسلحة الذين وقف عليهم في مكة «لا يعرفون إلا صنع البنادق البدائية ذات الفتيلة، والسكاكين المقوسة (الخناجر)، والرماح المستعملة في هذه البلاد». ويسترسل في

وصف ورشاتهم وكيفية عملهم بقوله:

أما عن محلات عملهم، فإنهم يقيمونها لحظة وجودهم في مكان معين. أما أدواتهم، فهي عبارة عن ثقب يحفرونه في الأرض ليتخذوه فرناً، قطعة أو قطعتان من جلد الماعز يحركها الصانع أمام الموقد على شكل مكان الكير أي المنفاخ، ورقتان من أوراق النخيل أو ثلاث وأربع من العصي هي التي تستخدم على شكل جدران وسقف للمحل الذي يغيرون مكانه كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

كما يتحدث (باديا) عن وجود «مبيضين للنحاس (الصفارين)، إلا أن هذه الآنية تأتي من الخارج، كما يوجد صناع للصفيح يصنعون أنواعاً من الأوعية التي يستعملها الحجاج لحمل مياه زمزم».

المقاييس والمكاييل والنقود: نعرف من خلال حياة باديا أنه اشتغل منذ بداية حياته في الجهاز المالي، وهذا ما أهّله لكسب معرفة بالمفاهيم المالية والحياة التجارية بصفة عامة. وبالفعل فقد وظف هذه المعرفة المالية في رصد مجموع جوانب النشاط التجاري في كل بلد أو مدينة يزورها. وقد حظيت مدينة مكة بحديثه عن هذه الأنشطة ابتداء من المقاييس والمكاييل وانتهاء إلى النقود.

وبخصوص المكاييل والمقاييس، أوضح أنها تشبه تلك الموجودة في مصر غير أنه يذكر أنها غير دقيقة المقياس.

أما النقود فهي نفسها الموجودة في مصر، ويتحدث عن وجود "العملة الإسبانية" التي تصل قيمتها في العمليات التجارية إلى خمسة قروش تركية، أما عند الصرف فتساوي أربعة قروش ونصف فقط.

وقد كانت الملاحظة الأساسية التي سجلها في هذا الميدان بمكة، هي: «وجود نقود كل البلدان، والصرافون الجالسون في الأسواق العمومية أمام مكتبهم وبجانبهم ميزان صغير يشتغلون طول النهار في صرف النقود وتبديلها».

المبادلات التجارية: في هذا الجانب ذكر باديا أن التجارة في مكة تعتمد على القوافل التي تأتي أيام موسم الحج. وإلى جانب ذلك تتمثل هذه المبادلات في جلب

السلع الأوروبية من جدة التي تأتي عن طريق مصر والبحر الأحمر. ويسترسل باديا في ذكر هذه المبادلات قائلاً: «ومن الميناء نفسه (جدة) تجلب مكة البضائع من الهند واليمن، وخاصة البن، كما أن القوافل الآتية من دمشق والبصرة ومصر واليمن تحمل باقي المواد وتقوم بالمبادلات».

الحياة الثقافية والاجتماعية في مكة المكرمة:

الميدان الثقافي: في هذا العنصر سرعان ما نجد (باديا) ينسى دوره في مكة ويمسي أوربياً مثقفاً عالماً، يحمل حملة شنعاء على ميدان العلوم في مدينة مكة قائلاً:

العلوم في مكة مفقودة ومنعدمة كالفنون، وكل ثقافة السكان تنحصر في قراءة القرآن وكتابته... ومنذ الصغر يتلقى الناس مبادئ الصلاة وكيفية أداء مناسك الحج حتى يتمكنوا في وقت مبكر من كسب الأموال وربحها في خدمتهم مرشدين للحجاج.

ويستدل على كلامه بأنه رأى أطفالاً صغاراً يبلغون سن الخامسة أو السادسة يشتغلون في هذه الحرفة يحملهم الحجاج على أكتافهم: «وهؤلاء - يعني الحجاج - يرددون وراء الأطفال الأدعية التي يرتلونها كلمة تلو الأخرى بصوت حاد، وفي الوقت نفسه يطلع الحجاج على المناسك الأخرى عبر هؤلاء الصغار الذين يوجهون الكبار فيها».

وعند حديثه عن التعليم والقراءة يدشن كلامه بهجوم عنيف قائلاً:

في مكة لا توجد مدارس منظمة سوى تلك التي يتعلم فيها القراءة والكتابة. وفيما عدا ذلك، هناك بعض الفقهاء أو العلماء الذين يجلسون عند أبواب الحرم استرواحاً أو رغبة في الافتخار أو طمعاً في مكافأة... إذ يأخذون في التلاوة بأعلى أصواتهم لجلب الناس حتى يتجمهروا حول أحدهم في حلقة، فيقوم هذا العالم بالشرح أو الدعاء حسب ما يستطيع، ويذهب ويعود متى شاء.

وفي سياق هاته الحملة يختتم قوله حول ميدان القراءة قائلاً: «هذه هي أنواع وسائل القراء والتدريس التي نجدها في المدينة المقدسة... ولذلك نستخلص مما سبق أن سكان مكة يعيشون في جهالة جهلاء أكثر من غيرهم».

الميدان الاجتماعي: وحول هذا الموضوع يرسم (باديا) لوحة أنثربولوجية عن سكان مكة، فيصف شكلهم ويتكلم عن نساء الحواضر وشكلهن ولباسهن، وكذلك على نساء البادية ولباسهن وطريقة عيشهن. ثم يتكلم بصفة عامة عن لباس سكان المدينة وعن لباس البدو، كما يتعرض للحديث عن احتفالات الزواج، ومراسم دفن الأموات.

فيرسم عن سكان مكة صورة بشعة لبنيتهم الجسمانية التي يصفها بالضعف والهزال. غير أنه بهذا الصدد نجده يخلط بين سكان البلد وخدام المسجد الحرام الذين شبههم بهياكل جسمية تسير.

أما عدد ساكنة مكة، فقد عرف ـ حسب تفسيراته ـ نقصاً كبيراً عما كان عليه من قبل، ويقدره في هذه الفترة بما يناهز ستة عشر إلى سبعة عشر ألف نسمة.

ويستهل حديثه عن نساء مكة بقوله: «النساء في مكة ينعمن بالحرية أكثر من غيرهن في المدن الإسلامية الأخرى»، غير أنه لا يكشف لنا أين تتجلى مظاهر هذه الحرية، وإنما اقتصر على ذكر أسباب غير موضوعية لهذه الظاهرة تنحصر في كون الفقر والبؤس اللذين يعيش فيهما السكان جعلهم لا يولون الاهتمام بالنساء.

ويعطي عن لباس النساء وصفاً تفصيلياً، فيرسم لوحة عن مظهرهن في هذه الفترة، وقد جاء هذا الوصف كالآتي: «تستر النساء وجوههن، كما في مصر، بقطعة من الثوب به فتحتان للعينين. وهاتان الفتحتان كبيرتان إلى درجة أنه يمكن رؤية نصف أوجههن منهما. وأغلب النساء تترك وجهها مكشوفاً. وكل النساء تلبس حجاباً عليه خطوط زرقاء وبيضاء طولاً وعرضاً». وبعد انتهائه من وصف اللباس، يصف مظهرهن وجمالهن بصورة تبعث على الاشمئزاز، وهي تخالف ما قرأناه مثلاً عند الرحالة ابن بطوطة.

ثم ينتقل إلى الحديث عن النساء البدويات اللائي لم يعطنا وصفاً تفصيلياً عن لباسهن إلا ما كان من هذا الوصف الذي يقول فيه: «النساء البدويات، وحتى اللائي يعتبرن من الفئة الغنية، ليس لهن من اللباس إلا قميص من ثوب أزرق، ويضعن ستاراً على وجوههن، وحجاباً كبيراً أسود من الصوف، وخواتم وأساور وبعض الحلي الأخرى».

وبصفة عامة، فإن (باديا) عند حديثه عن نساء مكة سواء اللائي يقطنَّ الحاضرة أو

البادية يرسم لنا لوحة يصف فيها اللباس والمظهر والعادات والتقاليد وطريقة العيش والمركز الاجتماعي الذي تحظى به النساء في المجتمع المكي.

ومن هذا الوصف يخرج باستنتاج مضمونه أن لموقع مكة الجغرافي وسط الصحاري، وتدهور التجارة فيها لكونها لا تتوفر على موارد أخرى، أثراً في الناحية الاجتماعية جعل السكان يعيشون في بؤس وشقاء. وهو يصف هذه الحالة بقوله:

كل السكان تقريباً لا يتوفرون على لباس جيد، يعيشون في خيام أو أكواخ بلا أثاث سوى قصعة من الخشب، وفي بعض الأحيان قدر من المعدن وجرة وأوعية موضوعة على الأرض وحصير يتخذونه فراشاً، ورحى لطحن الحبوب، وقربة أو قربتين لتخزين الماء.

وبين هذه الفئات الاجتماعية المزرية لا ينفي (باديا) وجود فئة محظوظة يقول عنها: «ومع ذلك، نجد بينهم شخصيات غنية في ملبسها الذي يتكون من أثواب الهند وأنسجة كشميرية أو إيرانية».

ويسجل (باديا)، في وصفه المطول للسكان وحالتهم الاجتماعية، ملاحظة تكمن في التسليح العام للسكان. فما عدا خدام المسجد الحرام وبعض التجار فإن «كل السكان تجدهم مسلحين دائماً. والأسلحة المتداولة بينهم تتمثل في الخنجر والرماح الطويلة والحربة والهراوة. ونلاحظ وجود البنادق، إلا أن عددها قليل جداً». وهذه الأسلحة يضع (باديا) وصفاً دقيقاً لكل منها على حدة.

وفي هذا الميدان الاجتماعي لم يغفل باديا التطرق إلى ذكر احتفالات الأعراس، ومراسيم الجنائز ودفن الأموات. فأما الاحتفالات، فإنه لم يصف أياً منها، وذلك لأنه لم يشهدها، وإنما اكتفى بتسجيل المعلومات التي تلقاها من عند بعض الأشخاص الذين أخبروه بأن مراسيم الزواج والميلاد لا تقام لها حفلات في مكة كما تقدم في بعض البلاد الإسلامية، أما عن الجنائز ودفن الأموات فيذكر أنه شاهد بعضها، إذ يصلى عليها في (المسجد الحرام) وتدفن خارج المدينة دون إقامة أية مراسيم.

تلكم الرحلة العباسية كما وردت بتحليل الزميل الدكتور الأستاذ حمان الذي نجدد الشكر له والتقدير.



علي باي العباسي

الأمير المولى عبد السلام ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م

رحلة أمير ضرير هو المولى عبد السلام ابن السلطان سيدي محمد ابن السلطان المولى عبد الله (محمد الثالث).

تقع الرحلة في جزء وسط، وكانت بخزانة النقيب ابن زيدان قبل أن تصير إلى الخزانة الملكية وتحمل فيها رقم ١٢٩٩٢.

لقد قام الأمير المذكور بعدة حجات، وحمل في آخرها مبالغ ضخمة من المال إلى السادات أشراف مكة والمدينة، وهكذا فحسب وثيقة بتوقيع السلطان محمد بن عبد الله تحمل تاريخ ٥ رمضان ١٢٠٣هـ / ٢٨ مايو ١٧٨٩م نجده يهدي للحرمين خمسة آلاف سبيكة من الذهب، زنة كل سبيكة مئة دينار... وكان هذا المال مما كان رتبه العاهل المغربي على دولتي الدانمارك والبندقية، وخصص هذا المال لمن سكن الحجاز والحرمين... لما يتوقعه من جهادهم[١].

هذا إلى ألف سبيكة أخرى بتاريخ أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٠٤هـ / ١٧ يناير ١٧٩٠م حسبما نجده مفصلاً في السجل: الذي يعين فيه القسمة الأولى[٢] من المبلغ للسادة الشرفاء أهل المدينة المنورة، وأن بينه وبين المدينة مرحلة واحدة، مئتان من السبائك.

ويعين القسمة الثانية للسادة الشرفاء أهل مكة والوادي (وادي فاطمة) وجدة والطائف مئتان من السبائك.

ويعين القسمة الثالثة للسادة الشرفاء أهل ينبع النحل وأهل ينبع البحر مئتان من السبائك.

ويعين القسمة الرابعة للسادة الشرفاء أهل بدر ورابغ وخليص والصفراء والحديدة والحسينية وعين عجلان وبقية أشراف الحجاز عن آخرهم، مئتان من السبائك أيضاً.

والقسمة الخالصة لأهل المدينة المنورة خصوصاً وعموماً من غير الأشراف وأهل الرباطات والرواقات ومَنْ له وظيف[٣] مئتان من السبائك.

(١) ابن زيدان: الدرر الفاخرة، المطبعة الاقتصادية، الرباط ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م، ص ٥٤.

(٢) ابن زيدان: الإتحاف، ج ٣، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٣) يعني بالوظيف: الشغل الذي يقوم به المكلفون في إطار الحرم الشريف.

ومن المهم في هذا السجل أن تقرأ أن الاستفادة منه ممنوعة على الرافضة الذين يبغضون الشيخين!!

كما أنه من المهم أن نقرأ في السجل المذكور أنه لا حقَّ للشريف أمير مكة في توزيع هذه المبالغ على أهل المدينة المنورة.. وإنما يوزعه أمين المدينة... لأن شريف مكة نهب من مال هدية شرفاء اليمن ستة عشر ألف مطبوع في العام الماضي!!

والأهم في هذه الوثيقة أنها تحتوي على أربعة فصول تتناول شرح طريقة التوزيع التي اختارها العاهل المغربي؛ لأنها إذا طبقت في هذه السنة فتسهل في السنين التي بعدها، وبها ينقطع الخصام بين السادات الأشراف.

وتنص الوثيقة في آخرها - وهذا كذلك مهم - على أن ملك المغرب يخصص لبيت الله الحرام ألف بندقي للفقهاء والطلبة.

والوثيقة تضيف إلى هذا ما يفيد أن المغرب كان يوجه كل سنة إلى شريف مكة ألف مثقال برسم التوزيع على مصالح الحرم، علاوة على ما يخصص له هو من المال والتحف.

هذا الأمير الضرير هو الذي قام بحجة سابقة سنة ١١٨٥هـ / ١٧٧٢م، وحمل معه عشرة آلاف ضبلون... وهو الذي نقدم اليوم ملخصاً لرحلته.

لقد كنت حريصاً على تقديم هذه الرحلة؛ لأنها أول رحلة، على ما نعرف، يمليها أعمى على الناسخ، فكنت أريد أن أعرف عن مدى تأثره بالمشاهد المقدسة، وكيف يؤدي ذلك بتعبيره عن مشاعره... وسنبقى معه بمكة المشرفة وما حواليها... لا سيما وهي تتضمن معلومات عن عمرانية غير مسبوقة واجتماعية وسياسية.

قال بعد أن ودَّع الديار المصرية التي وصلها في السادس عشر من شوال عام خمسة وثمانين ومائة وألف (٢١ يناير ١٧٧٢م).

«... لقد بالغ محمد علي بك بلوط (حاكم مصر)[١] في إكرامنا غاية إلى أن وجهنا إلى الحرم الشريف، وتركناه مع أبي الذهب[٢] على حالتهما التي وجدناهما عليها.

---

(١) محمد علي الذي ثار على الحكم العثماني.

(٢) القصد إلى محمد بك أبي الذهب الذي كان مملوكاً لمحمد علي بك بلوط الذي أرسله لفتح بلاد الشام.

فلما بلغنا المسجد الحرام، وذاك يوم الأربعاء لستٍّ من ذي الحجة سنة خمس وثمانين ومئة وألف (١١ مارس ١٧٧٢م)، دخلنا من باب السلام من الناحية الشرقية، وهو باب عظيم من الحجر المنحوت، وعن يمينه وشماله دكاكين التجار الذين يبيعون الطيب والتسابيح وغير ذلك، والسوق ممتد إلى الباب الأدنى الموالي للمسجد، فدخلنا وطفنا طواف القدوم ببيت الله الحرام، وهو في وسط صحن المسجد، يحيط بأطراف البيت الشريف الرخام الأنيق، والمنبر بإزاء مقام إبراهيم من رخام، وله باب ظريف محكم الصنعة والإتقان، ودفتاه من النحاس المخرم بالتسطير من عمل العجم، وهذا المنبر بعثه قايتباي إلى المسجد الحرام. والحِجر (بكسر الحاء) المنسوب لسيدنا إسماعيل مفروش بالمرمر الملون عن جنوب البيت، يقابل مقام الحنفي، ويطوفون (كذا) الناس به من جملة البيت، والجنوب الغربي من البيت يقابل مقام المالكية.

ومن الجهة اليمنى مقام الحنفي، ويقابل الحجر الأسعد مقام الشافعي وهو فوق قبة زمزم.

والحجر (الأسعد) على ارتفاع قامة من الأرض... وبقي إلى الآن فيه أثر الكسر الذي كسره القرمطي، فلما أعيد جعلوا له حلقة من الفضة، والصقوا بعضه ببعض، وينبغي لمن طاف عند وصوله إلى الحجر أن يطمئن لئلاً يمر داخل الشاذروان، قال خليل في مختصره: « وخروج كل البدن عن الشاذروان »؛ لأن من طاف داخله يبطل طوافه.

وهذا المسجد له بلاطات كثيرة مفروشة بالحجر المنحوت، وصحنه محصب بالرمل، وقرب البيت مفروش به أيضاً، والذي يليه مفروش بالرخام الأبيض، والمسجد مقبيّ بالحجر، وشرفاته أيضاً كذلك، وفيه زيادات، زيادة من جهة باب السلام، وزيادة بغرب دار السعادة[١] من الناحية الغربية في باب الصفا... ثم لما قضينا الطواف خرجنا إلى السعي بين الصفا والمروة، فوقفنا على الصفا حتى نظرنا البيت[٢]، وسرنا إلى المروة، وبينهما سوق كبير ممتد من الصفا إلى المروة. وفي وسط المسعى بطن المسيل الذي أمر الشارع بالخب فيه، وهو معلم عندهم بمرمزتين مكتوبتين، والصفا مثل القبة أيضاً، وهي

(١) عن دار السعادة: يراجع تاريخ مكة للسباعي، ص ٤٣١.

(٢) الضرير يتكلم.

أكبر من المروة، فلما قضينا الطواف والسعي سرنا إلى الدار التي أنزلنا فيها الشريف أحمد سعيد[1]، وهي بباب الزيادة الشرقي.

وهيأ لنا أيضاً مدرسة الشريفة[2] الصالحة بنت السلطان مساعد ابن السلطان سعيد.

وهذه المدرسة مشرفة على البيت الشريف، وهي التي نزل بها أبو الذهب حين قدم مكة.

وأقمنا بمكة يوم الأربعاء والخميس، ويوم حضرنا الصلاة بالمسجد وصلينا العصر فيه أيضاً، وخرجنا إلى منى فصلينا المغرب فيها، وانصرفنا إلى عرفة فوصلنا إليها بعد العشاء، فبتنا تلك الليلة بها، فلما كانت صلاة الظهر من الغد حضرنا الخطبة بجامع النمرة، وهو مسجد عظيم له ثلاث بلاطات من الناحية الغربية محصب بالرمل، فصلينا به الظهر والعصر جمعاً، ثم صعدنا إلى الجبل فوقفنا به، ثم طلع الخطيب إلى الأعلى بالصخيرة وهو راكب على ناقة بيضاء واللواء السلطاني بين يديه، والخرقة البيضاء في يده أيضاً، فوقف بالموضع المذكور وشرع في الخطبة، وكلما وصل إلى موضع التلبية أشار بالخرقة فيلبون (كذا) الناس كلهم.

وهذا على خلاف مذهب المالكية، فإن مذهب غيره لا يقطعون التلبية إلا إذا طافوا طواف الإفاضة.

فلما كان وقت العصر حضر الموقف باشا الشام بمحمله، وأمير الركب المصري إذ ذاك مريض، فناب عنه في الوقوف مع المحمل أخوه عبد الرحمن.

فوقفنا بذلك المحل العظيم هنيهة بعد الغروب، ثم انصرفنا إلى المزدلفة فجمعنا بها العشاء والمغرب، وبتنا إلى الصباح بها، ثم انصرفنا إلى المشعر الحرام فوقفنا به إلى الإسفار، وانصرفنا منه مسرعين في بطن وادي النار، فبلغنا وادي منى، وهذا الوادي بين جبلين قريباً من مكة، وبها جامع عظيم بصومعته محصب بالرمل، وقرب المسجد سوق

---

(١) السباعي: تاريخ مكة، ص ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٠. رواه المكي: أمراء البلد الحرام، ص ٣١٥. يجدد الشكر للأستاذة هالة التواتي.

(٢) لم أهتد في المصادر التي أتوفر عليها إلى معرفة المزيد عن هذه المدرسة التي ذكرها الأمير الضرير منسوبة إلى هذه الشريفة الصالحة.

كبيرة لا يعمر إلا في أيام الموسم، وعن يمين السوق ويساره قصور مشرفة البناء، محكمة الإتقان، لها سراجيب تنظر إلى السوق وإلى الموضع الذي ينزل به الحاج: فالشامي ينزل عن يمينه والمصري عن يساره.

ثم رمينا جمرة العقبة في ذلك اليوم بأحجار سقناها من مزدلفة، قدر الفولة.

ثم لما رمينا الجمرات ونحرنا هدينا وحلقنا رؤوسنا ولبسنا ثيابنا سرنا إلى مكة، فلما وصلنا دخلنا المسجد، وطفنا بالبيت طواف الإفاضة، ووجدنا أمير الحاج المصري قد خرج من البيت.

وفي ذلك اليوم يكسون البيت الحرام بالكسوة الجديدة، بينما يوزع الشرفاء المكيون الكسوة القديمة بينهم.

ثم رجعنا إلى منى فأقمنا بها ثلاثة أيام لرمي الجمار، فلما انقضت تلك الأيام دخلنا إلى مكة، فأقمنا بها ستة عشر يوماً.

وفي هذه المدة توفي خليل باي أمير الركب المصري بعد الرجوع من عرفة، وطافوا بجنازته بالبيت العتيق، وصلوا عليه هنالك على مذهب الحنفية من أن الصلاة على الميت في المسجد جائزة، ودفن بباب ضريح السيدة خديجة وعوضه أخوه عبد الرحمن (السالف الذكر).

وزرنا بمكة من قبور الصحابة... مولاتنا خديجة وسيدتنا أسماء بنت أبي بكر وولدها عبد الله بن الزبير... وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبي طالب المكي(١)، وزرنا أيضاً قبر مولاتنا ميمونة بنت زمعة(٢).

ثم لما قضينا بعض الأوطار من ذلك المقام، وأدينا مناسكنا على التمام، بلغنا قبل خروجنا من مكة خروج أبي الذهب على علي باي، ومسيره إلى فرضة بالصعيد، فبقينا في شك من ذلك، وكان خروج أبي الذهب على محمد علي باي عندنا من المحال!!

ثم ارتحلنا منها (مكة) قاصدين المدينة المنورة... فلما حللنا بها كان ذلك في سابع

(١) عن أبي طالب المكي تراجع رحلة العياشي.

(٢) وردت هكذا، والمقصودة هي ميمونة بنت الحارث. انظر: الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج٥، ص ٥٤-٥٥.

المحرم ضحوة النهار... وخرج لملاقاتنا عسكر المدينة... ودخلناها مع المحمل الشامي في موكب عظيم... ودخلنا إلى المسجد النبوي... وفتح لنا علي أغا صاحب الحرم النبوي (الحجرة الشريفة) فدخلناها كما دخلنا قبل ذلك إلى البيت الحرام بمكة، لله الحمد وله الشكر على هذه النعمة التي لا يحصى فضلها.

وأنزلنا الأغا المذكور بدار تسمى (دار العشرة)، وتنسب إلى السيدة رملة بنت الحارث التي كان النبي ﷺ ينزل عندها الوفود، وجدارها ملتصق بجدار المسجد وبينه وبينها وبين الحجرة الشريفة شباك من حديد.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الأمير المولى عبد السلام

الأمير المولى إبراهيم ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م

هذه رحلة من نوع جديد، فهي رحلة حاج لكنها في الوقت ذاته سفارة من ملك المغرب السلطان المولى سليمان إلى الإمام سعود الأول، فهي إذن علاوة على طابعها الديني تسجِّل أول اتصال للمغرب بالمملكة العربية السعودية.

والطريف في هذه الرحلة أنها - وإن لم تدوَّن في كتب التاريخ كرحلة - تناثرت أخبارها ومضامينها في أكثر من مصدر للتاريخ المغربي والمشرقي... فقد قرأنا الإخبار بها عن طريق ترجمة الأمير إبراهيم، كما قرأناه عن طريق الترجمات التي قدمت للشخصيات العلمية البارزة التي رافقت الأمير إلى الحج والتي كانت تحمل معها رسائل نثرية وشعرية جواباً عن رسالة الإمام الواصلة إلى البلاط الملكي بالمغرب، علاوة على أخبار بعض الرحالين الذين تزامن وجودهم بالمشرق مع ظهور الحركة الوهابية بالحجاز، وعلاوة كذلك على بعض التآليف التي ظهرت سواء بالحجاز أو المغرب حول الحركة المذكورة[١]، وكانت جميعها تعكس - في نظرنا - وجهاً للنشاط العلمي الكثيف الذي صاحب الدعوة السلفية في المشرق أو المغرب.

وهكذا نتعرف فضاء جديداً في دنيا الرحلات الحجازية بما يحتويه من أجواء دينية، ومناقشات علمية، وحوار بين المذاهب.

ولعل من المفيد أن نؤكد، في البداية، أن المملكة المغربية (المغرب الأقصى) ظلت الجهة الوحيدة التي لم يستطع العثمانيون تركيعها على الرغم مما بذلوه - طوال أكثر من ثلاثة قرون - من محاولات متوالية. وأكثر من هذا أن المغرب الأقصى كان لا ينظر بعين الرضا للوجود العثماني في غير الأراضي التركية، بمعنى أنه كان لا يعترف بوجودهم في تلك البقاع الأخرى، وهذا ما يفسره اتصالاته بتلك البقاع دونما استئذان مسبق.

(١) كتاب السباعي حول (تاريخ مكة) ص ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤. وانظر إلى جانب هذا رحلة علي باي العباسي ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م. رحلة أبي العلاء المرسي.

ومن هنا لم يكن غريباً علينا أن نجد هذا المغرب الأقصى يتتبع الحركات المتوالية للوجود العثماني في مختلف جهات الشرق، ولا سيما الحرمين الشريفين، وأعتقد أن الإمام سعوداً (الأول) كان يعرف جيداً عن هذا الوضع في المملكة المغربية كجهة استعصت على النفوذ العثماني، ولها موقفها الخاص في القضايا الدولية.

ومن هنا وجدنا وفادة من الدولة السعودية الأولى بالديار المغربية، وبمدينة فاس العاصمة، حيث كان يقيم العاهل المغربي السلطان المولى سليمان المعروف سلفاً بمواقفه من الأفكار التي تقوم عليها الحركة الوهابية المسندة من لدن الإمام سعود بن عبد العزيز، هذه الوفادة تحمل رسالة إلى العاهل المغربي أورد نصها الكامل المؤرخ المعاصر للحدث أبو القاسم الزياني في «الترجمانة الكبرى»(١).

لم يكن هناك أحد يجهل أن هذا السلطان هو ابن للسلطان سيدي محمد بن عبدالله (محمد الثالث) الذي كان يتعاطف مع مذهب الإمام أحمد بن حنبل على ما هو معروف.

لقد عرف السلطان المولى سليمان بخطبته التاريخية المعروفة التي توجه بها إلى الشعب المغربي والتي كانت ترتكز أساساً على محاربة البدع ومناهضة الشعوذة: «إننا نغار من استيلاء الشيطان ببدعه عليكم... فطهروا من دنس البدعة إيمانكم، اتركوا عنكم بدع المواسم التي أنتم بها متلبسون...»، فهل فعل الرسول ﷺ لحمزة عمه سيد الشهداء موسماً؟ وهل فعل أبو بكر لسيد هذه الأمة موسماً؟ إلى آخر ما جاء في الخطبة(٢).

وإذا كانت المصادر تخذلنا حول أسماء الشخصيات الوافدة على مدينة فاس من الإمام سعود الكبير، فإن المصادر المغربية كانت حريصة على ذكر العلماء والكتاب الذين عهد إليهم بإعداد الجواب السليماني.

---

(١) تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، وزارة الأنباء، الرباط، ص ٣٢٤، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

(٢) ابن منصور: صدى الحركة الإصلاحية السعودية بالمغرب، بحث قدم للمؤتمر الذي أقيم بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة ٢٤-٢٨ يناير ١٩٩٩م، ص ٤٧ فما بعدها.

وهكذا نجد اسم أبي الفيض الشيخ الأديب حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م الذي تتحدث المصادر كذلك عن رحلته إلى المشرق وحجه وزيارته... بل وأنه رجع بعلم غزيز وفضل كثير، وأن الشيخ مرتضى الحسيني شارح الإحياء والقاموس أجازه إجازة عامة(١)، سجلنا له قصيدة ميمية طويلة تتضمن أهداف الرحلة والحديث عن درب الحجاز وبعض محطاته، وتذكر الإمام سعود وخطاب السلطان سليمان له على ما سنرى... وقد تقلد ابن الحاج عدة وظائف سامية قبل أن يعزل نفسه ويتفرغ للتدريس.

وقد ورد في كتاب «الاستقصا» للناصري أن السلطان المولى سليمان أرسل ابنه إلى الحجاز مع الركب البنيوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال وإبراز الأخبية بظاهر البلد، وقرع الطبول وإظهار الزينة، وكانت الملوك تعتني بذلك وتختار له أصناف الناس، مثل العلماء والأعتاب والتجار والقاضي وشيخ الركب، وغير ذلك مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما... فوجه السلطان ولده المذكور في جماعة من علماء المغرب وأعيانه مثل الفقيه أبي العباس ابن كيران.. والفقيه الشريف المولى الأمين بن جعفر الحسني الرتبي، والفقيه العلامة الشهير أبي عبد الله محمد العربي الساحلي، وغيرهم من علماء المغرب وشيوخه(٢).

ولا شك أن حج الأمير إلى جانب هذا الحشد الحافل تم على نحو حج جدته الأميرة خناثة، وعلى المنهاج نفسه الذي تقدم عند الحديث عن رحلة الإسحاقي.

لقد كانت الرسالة السعودية دعوة صريحة لترك البدع والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يجعل منا شيعاً وفرقاً، وكانت دعوة سعود إلى التوحيد وتخصيص الله جل جلاله بالعبادة والاستغاثة والشفاعة، وليس الأموات الذين يعدّ التوجه إليهم من قبيل الشرك بالله! وتذكر الرسالة في الأخير أن مثل هذه الأفكار أغضبت «الذين كانوا يحكمون البلاد»، في إشارة للعثمانيين الذين كانوا يتغاضون عن أصحاب تلك البدع في سبيل

---

(١) الكتاني: سلوة الأنفاس، ج٣، ص ٤-٥.

(٢) الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦م، ج٧، ص ١٢٠ فما بعدها.

ألاّ تثير عليهم مشكلات.

وتجمع المصادر المغربية على أن السلطان المولى سليمان، وهو من عرفنا ثقافة وحصافة رأي، قام بجمع علماء المغرب، وبخاصة علماء فاس، ووضع أمامهم الرسالة السعودية التي نالت منهم اهتماماً كبيراً انتهى إلى أمر السلطان لهم بتحرير جوابين للأمير سعود: الأول نثراً، والثاني شعراً. وسنلاحظ أن الرسالتين كتبتا بمداد واحد(١)، وتحملان معاً أفكاراً واحدة على ما نقف عليه في النص الكامل لهما المحفوظ في بطون الكتب.

وتتجلى الفكرة الأولى والأساسية في أن السلطان المولى سليمان كان على تجاوب تام مع أفكار الإمام سعود بن عبد العزيز بن عبدالله، فهو في مختلف مقاطع الرسالتين يثني على مبادرة الإمام وجهده وجراته على منع المنكر والبدع، وعمله العظيم من أجل تمهيد الطريق لحج بيت الله... وإلى جانب هذا لن يفتأ في كلتا الرسالتين يسند الإمام ويدعو له بالمزيد من التوفيق.

ومن المهم أن نجد العاهل المغربي يؤكد للأمير سعود في الرسالتين أن والده (محمداً الثالث) كان من أنصار الإمام أحمد بن حنبل، بمعنى أنهما لا يختلفان في المرجعية.

وإلى جانب هذه المناصرة التي نقرؤها في غضون الرسالتين أولاً ووسطاً ونهاية، إلى جانب هذه المناصرة اشتملت الرسالتان على ما يمكن أن نسميه «طلب تفسيرات حول بعض الجزئيات مما لم يكن واضحاً عند الجانب المغربي، مما ورد عن بعض الناقلين ممن كانوا يقولون: إن الوهابيين «يستحلون أموال ودماء المخالفين لهم»!!

وهكذا يتأكد لديَّ أن الأخبار كانت وصلت المغرب أيضاً عن طريق التأليف الذي حرره الشيخ محمد بن محمد بن محمد العربي بن عبد السلام البناني الفاسي المكي، مفتي المالكية المتوفى في ربيع الآخر سنة ١٢٤٥هـ / أكتوبر ١٨٢٩م... هذا التأليف الذي وقفتُ عليه مع شرحه في سراييفو... والذي يتضمن انتقاد «عبد العزيز الوهابي صاحب الدرعية الذي أرسل في سنة عشر ومئتين وألف جماعة من علمائه إلى علماء

(١) هذا يعني أنه لا دخل للشيخ الطيب بن كيران الذي نعرف موقفه من الحركة الوهابية، الإعلام ٢، ص٤٣.

مكة... حيث كتبت الأجوبة إلى عبدالعزيز»[١].

ولقد اكتمل الحوار بصفة جيدة عندما تم استقبال الإمام سعود للأمير المغربي المولى إبراهيم الذي كان على قسط كبير من المعرفة والاطلاع، وهو الذي كانت تسند إليه المهام المدنية والعسكرية على ما نقرؤه في المصادر المغربية[٢].

ونفضل أن نلخص ما ورد من مصدر مغربي أصيل وقريب من الحدث، ذلك هو التأليف المغربي الذي يحمل اسم «الجيش العرمرم» الذي ألفه محمد بن أحمد بن أكنسوس السوسي المراكشي المتوفى سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م.

والمهم في هذا المصدر المعاصر أنه كان يؤكد ارتسامات الوفد المغربي عن سلوك الأمير سعود الكبير كرجل دولة وكقائد كبير للحركة الإصلاحية... يقول التأليف: حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولى إبراهيم في تلك الحجة، مثل الفقيه العلامة القاضي السيد محمد بن إبراهيم الزداغي الأصل المراكشي النشأة[٣]، والفقيه العلامة القاضي أبي العباس ابن كيران الفاسي[٤]، والشريف سيدي الأمين بن جعفر الحسني الرتبي، والفقيه المؤقت السيد عبد الخالق الوديي، حدث كل واحد منهم أنهم ما رأوا من السلطان سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة، وأن ما شاهدوا منه ومن أتباعه كان في غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام: من صلاة وطهارة وصيام ونهي عن المناكر المحرمة وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بهما جهاراً بلا إنكار!

---

(١) عثرت على نسخة مخطوطة لهذا التأليف مع شرحه من لدن محمد عطا الله شيخ جامع السلطان أحمد الغازي، وهي تقع مع شرحها في اثنتين وخمسين صفحة، وهي تحمل طابع كتبخانة خسرو بك سراي... واحتفظ بنسخة منها. انظر ص ٥٠٤ من فهرس المكتبة المذكورة. ورأى أن وجود مثل هذا التأليف في جهة محكومة من لدن العثمانيين يؤكد اهتمامهم بما يجري في الحرمين من الحركة المناوئة لهم. الكتاني: الفهارس، ج ١، ص ١٦٣.

(٢) د. التازي: سفارة السلطان مولاي سليمان لدى الإمام سعود بن عبد العزيز، ١٢٢٦هـ / ١٨١١م، مجلة دارة الملك عبدالعزيز.

(٣) العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٧م، ج٢، ص ٢٦-٥٧، ج٦، ص ١٧٠-١٧٢.

(٤) شيخ الإسلام الطيب بن كيران المتوفى سنة ١٢٢٩م، أستاذ السلطان مولاي سليمان، السلوة، ج٣، ص ٣.

وذكروا أن حاله كحال أي أحد من الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس، وأنه لما اجتمع بالشريف الخليفة المولى إبراهيم أظهر لهم التعظيم الواجب لأهل البيت الشريف، وجلس الأمير سعود مع الأمير إبراهيم كجلوس أصحابه مع خاصة المولى إبراهيم.

وكان الذي تولى الكلام مع الأمير سعود هو القاضي ابن إبراهيم الزداغي، وكان من جملة ما قال الأمير سعود للوفد المغربي: إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فأي شيء رأيتمونا خالفناه من السنة؟ وأي شيء سمعتموه عنا قبل رؤيتكم لنا؟

فقال له القاضي المذكور: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوي.

فقال لهم: معاذ الله! إنما نقول كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، فهل في هذا مخالفة؟ فقالوا: لا، وبمثل هذا نقول نحن أيضاً!

ثم قال له القاضي: وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي وإخوانه من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، في قبورهم. فلما سمع ذكر النبي ﷺ ارتعد ورفع صوته بالصلاة والتسليم عليه، وقال: معاذ الله تعالى، بل نقول: إنه ﷺ حي في قبره وكذلك غيره من الأنبياء... حياة فوق حياة الشهداء.

ثم قال له القاضي: وبلغنا أنكم تمنعون من زيارة قبره ﷺ وزيارة الأموات قاطبة مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها.

فقال له الإمام سعود: «معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا، وهل منعناكم أنتم منها لما عرفنا أنكم تعرفون كيفية الزيارة وآدابها، وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية، ويطلبون من الأموات أن تقضي لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلا الربوبية، وإنما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى، وتذكار مصير الزائر إلى ما صار إليه المزور، ثم يدعو إليه بالمغفرة، ويتشفع به إلى الله تعالى، ويسأل الله تعالى المنفرد بالإعطاء والمنع، تجاه ذلك الميت، إن كان ممن يليق أن يتشفع به، هذا قول إمامنا أحمد ابن حنبل رضي الله عنه، ولما كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى منعناهم

سداً للذريعة، فأي مخالفة في هذا القدر؟

هذا ما حدَّث به أولئك المذكورون، وسمعنا ذلك من بعضهم جماعة، ثم سألنا الباقي أفراداً فاتفق خبرهم على ذلك».

هذا ما ورد في النص المعاصر لهذه الوفادة، ويعدّ أصدق شهادة تحدثت عن هذه السفارة الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات المغربية السعودية، وهو النص الذي اعتمد الناصري في كتاب «الاستقصا»[١].

وإذا أضفنا إلى هذه النصوص العربية ما ورد في المصادر البريطانية التي تحدثت عن عودة الأمير المولى إبراهيم إلى طنجة، ولم تهمل انطباعاته عن مهمته، فإننا سنجد أنفسنا أمام وثيقة كاملة عن هذه المهمة الدينية والدبلوماسية التي ربطت أول مرة، كما أشرنا، بين ملوك المغرب وملوك الحجاز.

والآن وقد أخذنا فكرة عن الرسالة السعودية وفكرة عن الجواب النثري... نحاول أن نقدم مضامين الرسالة الشعرية.

وهكذا نجد أنها بدورها تقوم على محورين اثنين: الأول احتواؤها على مدح كبير للملك سعود الكبير... أخلاقه وسيرته بين الناس، وعمله على بناء الدولة وبسط الأمن لتمكين المؤمنين من القيام بشعائر دينهم، لقد ذكره باسمه سعود أكثر من عشر مرات.

وإلى جانب هذا المحور المهم الذي تكرر ضمن القصيدة بما يتبعه من الدعاء للإمام سعود بالمزيد من التوفيق والمجازاة بالإحسان لما قام به نيابة عن المسلمين في تلك البقاع... أقول: إلى جانب ذلك فإن السلطان سليمان ـ حسبما نجده في القصيدة التي تحمل اسمه ـ يقف إلى جانب الإمام ويشاطره الرأي في ضرورة مقاومة البدع، والسير على نهج السلف الصالح... لكن المولى سليمان، وهو المعروف باشتغاله بالنوازل الفقهية، كان يسائل الملك سعود حول بعض الإشاعات التي بلغت إلى العاهل المغربي من بعض "الأكارع" كما نعتهم... فيما يتصل بالموقف من زيارة القبور ما دام الهدف

---

(١) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٨، ص ١١٩، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦م.

هو التذكر والتأمل في المصير... وكذا بالموقف من البناء على الأموات ما دام الهدف هو تنبيه الناس إلى ما كان عليه بعضهم من سلوك حسن وذكر طيب.

وجدناه، وهو يناقش الإمام سعود ويحاوره، يصحب حواره بالدعاء للإمام، وأن يرفع إليه الرغبة في أن يزوده الإمام ذاته بما هو في حاجة إليه من نصح لا يستغني عنه كما لا يستغني العطشان عن الماء الزلال.

وبتتبع غضون الرسالتين معاً، وخاصة الرسالة الشعرية، نجد أن العاهل المغربي كان في قمة المجاملة والمكايسة والأدب مع الإمام سعود الذي ظل مصدقاً موقراً محترماً في سائر السطور. وقد تأكد لنا أن الإشاعات التي وصلت إلى المغرب كانت إشاعات لا تستند إلى أساس، بدليل أن الموقف كان واحداً من مختلف التساؤلات التي قرأنا عنها، مما يؤكد من جهة أخرى أن بعض الذين علقوا على مضامين الرسالة السليمانية للعاهل السعودي لم يكونوا على دراية بتلك المضامين.

وتشير القصيدة المذكورة أيضاً إلى عدد من الأحداث التي عرفها العصر النبوي وما بعده من العصور... هذا إلى محطات مهمة مر بها الفكر الإسلامي... مثل قضية خلق القرآن، ومدى صواب الحكم أو عدم صوابه بقتل المسلم الذي يحمل أفكاراً لا يراها الآخرون بالمنظار نفسه، مما سنترك الفرصة للقارئ لتتبعه من خلال قراءته الجديدة للقصيدة التي لا تخلو ـ وهذا واجب أن يقال ـ من بعض التجاوزات التي لاحظناها على الشعر، وخاصة ما يتصل بالاكتفاء البديعي.

ولنقرأ أخيراً بعض أبياتها التي بلغت ستة وتسعين ومئة بيت:

حقّ الهناء لكم جيران ذي سلم
وبارق واللوا والبان والعلم

قد سدتم أنفساً يا أهل كاظمة
وساكني المنحنى والواد والأضم

هل المقدس غير واد فاطمة
وهل طوى غير ذي طوى من الحرم

أراك يا وادي الأراك مــقـــتطعــاً
من جنـة الخلـد في وهـم وفـي نـسـم
وكـــيـف لا ورســـول الله تـربتــه
هــنــاك زاريــة بــالمـسـك والــزهــم
لا طيـب يعـظم تـرباً ضم أعـظمـــه
طوبى لمســـتنشق منه وملتـــثم
عليـه أزكى صـلاة الله مـا وفـدت
حــجــاج بيت له جـاؤوه كـالجـمم
وعنه عــادوا بأوجــه مــبــيــضــة
في رحــمـة الله مـا تخـاف من نقم
لا شيء يمنع من حج ومــعـــتــمـــر
وزورة تـكـمـل المامـــول من حـــرم
إذا غـدا درب الحـجـاز اليـوم سـالكه
أهنـا وآمن من لحـــامـــة الحــــرم
قـد لاح فـيـهـا سـعـود مـاحـيـاً بدعـاً
قـد أحـدثـتـهـا ملوك العـرب والعـجم
سـعـود، بعـد سـلام الله، شـاك من
غــرب يـســيــر لشـرق ضـائع النسم
هذا كـتــاب إليك من مــحب أتى
إذ مـــا تسنى له تخـــاطب بفـم
وإنه من سليــمـــان، وإنه باسـ
ـم الله، لا زلت باسم الله أي ســمي
اعلم، وقـيـت الردى، بقـيت بدر هدى
لبـــوســـاً أي ردا من السنا العـــمم

إن قمت فينا بأمر لم يقم أحد
به فجوزيت ما يجزاه ذو نعم
بقطع أهل الحراب بالحجاز بأن
يقتلوا أو يصلبوا بلا رحم!
أو أن تقطع أيديهم وأرجلهم
من الخلاف، أو أن ينفوا من أرضهم
حتى جرى الماء في عود الحجاز لأن
طلعت بسعد سعود غير ملتثم
وأنبت نور الإيمان أي متسم؟
وافتر زهر الأماني أي مبتسم
لا زال متسماً بالأمن مبتسماً
باليمن مرتسماً، بالحسن لم يذم
وقد حيينا بما أفنيت من بدع
كانت قذى بعيون الدين لم يرم
وكانت السنة البيضاء معطلة
بها، وكان بها الإسلام لم يقم
فأصبحت وهي شمس غير آفلة
نوراً وقد قام إسلام على قدم
وتم حج لذي حج ومعتمر
لذي اعتمار بلا ضعف ولا سقم
وقد بنيت على سد الذرائع ما
تقول، وهو بناء الأصبحي[1] حم
وقال أهل الأصول والفروع به
على اختلاف، والاختلاف من رحم

(١) يقصد بالأصبحي الإمام مالك رحمه الله.

المعسكري ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م

هذه رحلة لمحمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي الجليلي المعسكري الجزائري، الملقب بوراس، من المؤرخين العلماء، نعته الكتاني في فهرس الفهارس بأنه "حافظ المغرب الأوسط" ... وحتى نعرف مصداقيته حول ما يرويه في رحلته الحجازية سنة ١٢٢٦هـ نذكر هنا قصة حكاها عنه مفتي وهران الشيخ الحبيب بن عبد المالك المغربي الأصل: شكك جماعة من تلامذة المعسكري في قوة حافظته وكأنهم اتهموه بالاختلاق، فركبوا اسماً نطق كل واحد منهم بحرف منه، وجعلوه اسماً لملك، وسألوا الشيخ عنه فأملى لهم ترجمته وسيرته وأعماله، فاتفقوا على أن الشيخ كاذب، ولما طالت المدة وقف أحدهم على الاسم والسيرة في كتابٍ تاريخي على نحو ما كان أملاه الشيخ أبو راس عليهم، فعلموا أن الشيخ صادق، وأنهم مقصرون في حقّه!! وهذه حالة كبار العلماء مع القاصرين والجاهلين(١)!

قال صاحب فهرس الفهارس: «وله رحلة ذكر فيها من لقي ووقائعه معهم».

ويذكر الأستاذ المنوني أن لأبي راس تأليفاً يحمل عنوان (فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته)، قال: وهو ترجمة ذاتية له صنفها في خمسة أبواب، وزع بينها الحديث بتوسع عن ابتداء أمره وشيوخه ورحلاته بالمشرق وغيره، ثم أجوبته ومؤلفاته(٢).

وهو مخطوط بالخزانة العامة رقم ٢٢٦٣/ك.

قال الشيخ المعسكري من جملة ما قال ص ٩٥-٩٦:

... ثم رحلت إلى أم القُرى ذات المكارم والقِرَى، التي لا يقر لها تناس؛ لأنها أول بيت وضع للناس، درة السلك النضيد، وبيت انتهى إليه القصيد، ذات النعم المفعمة السجال، ميدان السعادة الرحب الكمال، وأغراض الإسلام مقابلة الابتداء لتوقيتها

(١) فهرس الفهارس، الأول، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج٢، ص ٤٣، رقم ٧٥٢.

والاستعجال والخوارق العجيبة مخيلات في الرؤية والارتحال، ذات المقر الأشرف الذي فضل إكمال الدين محله، وكبر في بئر زمزم فقيض إسماعيل، عليه السلام، نهله وعله، وطابت أرجاؤه لما استمد من ريحانتي الجنة أصله، فوقف بأركان البيت المعمور التي بالمكارم عدت، والأرض من تحتها مدت، فاجتمعت بعلمائها وفقهائها كالعلامة الدارك السيد عبد المالك الحنفي المفتي الشامي القلعي حسبما هو في إجازته لي... وكنت قرأت عليه نبذةً من الحديث ونبذة من الكنز وشيئاً في التفسير من سورة النور وأجازني بالباقي.

وكذا مفتي الشافعية ابن شيخنا السيد عبد الغني وطالت مجالستي، ومنحني مع مفتي المالكية الفقيه السيد الحسين المغربي وغير ذلك ممن ضمه مسجد مكة المشرفة، مأوى الرائح والغادي، الذي قال فيه: سواء العاكف فيه والبادي، والبيت العظيم، للإسلام مبتدأ الوحي من الملك العلام، ومنها كان الإسراء بالنبي عليه الصلاة والسلام، الحرم الأمين الباكّ للطغاة والمجرمين.

وقد اجتمعت بها بالشيخ الكبير الصوفي الشهير العلامة العامل القدوة الحية الفهامة الجامع بين العلم والعمل، مجمعاً على فضله ودينه أستاذاً مقنعاً ذا تحقيق، ثاقب الذهن جيد البحث، مشاركاً في العلوم فاضلاً صحيح النقل كامل العقل، شيخنا السيد عبدالرحمن التادلي المقرئ، له الباع الواسع في طريق القوم واللغة، ذو فضل وتخلق وتواضع وحسن خلق وجميل عِشرة، أخذ من الشيخ السمّان وغيره، وجاور بالحرمين الشريفين حتى توفي، قرأت عليه شرح العارف بالله ابن عباد على الحِكم بمكة المشرفة سنة خمس ومئتين وألف، وختمناه في الحِجْر تحت ميزاب الرحمة قراءة وتحقيقاً وتدقيقاً، رحمه الله.

ولما ذهبت للحج سنة ست وعشرين لقيت علماء الوهابية الشيخ علي تاسعهم، فتناظرنا في صلاة القَصْر، وقراءة دلائل الخيرات والتسبيح بالسبحة، وهدم مشاهد الأولياء، فرجعوا عن البعض بالاستدلال بالنصوص العظيمة العميمة، وظني أنهم حنابلة المذهب، فتذاكرنا في قصْر الصلاة، فقال: إن الإمام أحمد بن حنبل عنده نية إقامة أربعة أيام تقطع حكم السفر، فقالوا: عندنا القصر لا ينقطع ما دام السفر، فعلمت أنهم خارجون من المذاهب الأربعة في الفروع، وأما في العقائد فهم على ما عليه الإمام أحمد،

ألا ترى أن الحافظ الذهبي والمزني والبرزلي شافعية في الفروع، حنابلة في المعتقد، بخلاف شيخهم ابن تَيمية (بفتح التاء) فإنه حنفي الفروع والاعتقاد[١]، قال: ثم رحلتُ لطيبة... ولقيت بها علماء أجلاء من كل قطر ومصر.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة المعسكري

(١) هنا طرة على المخطوط تقول: إن ما ذكر عن ابن تيمية خطأ فاحش، فإن ابن تيمية على مذهب نفسه غير مقلد ولا يقول بالتقليد.

الناصري ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م

هذا هو الحافظ المحدث محمد بن عبد السلام الناصري، له الرحلة الناصرية الكبرى، دوّن فيها أخبار رحلته الحجازية الأولى سنة ١١٩٦هـ / ١٧٨٢م، توجد منها عدة نسخ مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، وقد لخصها ابن إبراهيم في كتابه «الأعلام» (ج٦، ص١٩٧-٢١٧).

وله كذلك الرحلة الحجازية الصغرى دوّنها عن حجته سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٧م ضمنها الكثير من الفوائد العلمية والتاريخية والأدبية[١].

وفي حديثه عن الرحلة الأولى التي غادر فيها الزاوية الناصرية يوم ٣ جمادى الآخرة ١١٩٦هـ (١٨ مايو ١٧٨٢م)... عقد فصلاً خاصاً بدخوله إلى مكة أشرف البلاد، ومسقط رأس أشرف العباد.

لقد دخلها ضحى السادس من ذي الحجة (١٧ نوفمبر ١٧٨٢م) بفرحةٍ تكاد تطير منها القلوب، فانجلى ما كان خيم بها من الأحزان والكروب، كيف ونحن بحرم جعله الله تعالى مكفراً لما سلف من الذنوب، ماحياً للأوزار والخطايا فضلاً منه سبحانه، فله الحمد بدءاً وعوداً ما طلعت شمس ولها غروب، بلدة أقسم بها الحق سبحانه وتعالى في كتابه في موضعين، فقال: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾، ما على وجه الأرض بقعة سواها يجب على كل قادر السعي إليها والطواف بالبيت الذي فيها، موضع شرع تقبيله واستلامه، وقبلة كل ناسك وإمامه، فسبحان من جعل أفئدة من الناس تهوي إليه، وجذب إليه من القلوب فانعطفت بحذافيرها إليه:

محاسنه هيولي كل جنس
ومغناطيس أفئدة الرجال!

فكلما وقفت عليه ازددت اشتياقاً، ومهما ارتحلت عنه ازددت تولهاً واحتراقاً:

---

(١) المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م، ج٢، ص ٥٠-٥١، رقم ٧٦٤-٧٦٥.

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها

حتى يعود إليها الطرف مشتاقا!

فلله كم لها من قتيلٍ وجريح وسليب! وكم أنفق على وصالها من الأموال والأرواح وهجران حبيب، من فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان والبعيد والقريب، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمعاطب والمثالب، وهو يستلذ كل ذلك ويستطيبه، ويعده نزهة رياض تضوع منها طيبه، وهذا سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾، فأقسم بالله يميناً غير كاذبة ما حرم سكناه غير ذي البضاعة المزجاة من الناس قاطبة.

وبعد أن يورد الناصري قطعة شعرية لامية من اثني عشر بيتاً في المعنى نفسه يعود إلى النثر ليكمل ما ابتدأ به من مشاعر وهو يجد نفسه في مكة وأمام الكعبة:

«فيا له من روض عاطر، وزهر تفتق عن أكمامه فيح المسك الذافر، ما كيد بسوء في الحديث والقديم إلا ونودي على صاحبه من أهل القبلة أو من سكان الجحيم، ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾، ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**﴾، وماذا أقول في مدحه والأقلام قد وقفت، والألسن عن وصفه قد عجزت فوجمت، كيف وقد تولى مدحه البارئ، فكيف يأتي علي غيره من بارع أو قارئ...».

لقد تعمدت الإتيان بكل هذه المقدمة لإبراز الفكرة التي طالما رددناها، وهي معرفة كيف يعبر الحاج عن مشاعره وهو يجد نفسه أمام هذه البقاع الطاهرة؟

ويستمر الناصري في الحديث عن الكعبة والحجر الأسود والطواف وما بعده من العبادات من صلاة وسعي... ويذكر أنه نزل بدار السمان على باب الندوة المزيدة في المسجد، ويدعى باب الزيادة في زمنه(١).

ويذكر حضوره ضحوة السابع من ذي الحجة خطبة المناسك بالمسجد الحرام، ويصف

(١) مخطوطة الخزانة الحسنية رقم ٥٦٥٨، ص ٢٢٤. فهارس الخزانة الحسنية، ج١، ص ٥٤١، المطبعة الملكية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

الخطيب بأنه حنفي المذهب «وله ببعض أبعاض جزئيات العلم إلمام»!!

ثم يصف خروجه في اليوم الثامن إلى منى التي لم يستطع المبيت بها - رغم أنه سنة - لانعدام الأمن. قال: ولا يبيت بها إلا المغاربة إن كانوا أقوياء في الدفاع عن أنفسهم. ثم يذكر مسيره[1] إلى عرفة وعدم تمكنه من سماع الخطيب في مسجد نمرة، وأنه لم يصلِّ خلفه؛ لأنه حنفي يتم الصلاتين، والمؤلف ومن معه من المغاربة جمعوا بين الظهرين، ويصف سوق عرفة بأنه أرخص سعراً من غيره في بلاد الحجاز، ويصف موقفه ومن معه راكبين أسفل موقف النبي ﷺ عند الصخرات، وهو موقف الإمام اليوم، وأن الإمام شرع في التذكير، فيقول: «ثم يممنا الموقف فوقفنا راكبين أسفل موقف النبي ﷺ عند الصخرات، وهو موقف الإمام اليوم، فشرع في التذكير وهو حنفي طاعن في السن ترجى له البركة، وجعل يخلله بالتلبية، فكلما أراد أن يلبي أشار بطرف ثوبه إلى الناس ليلبوا، فانقلبت بدعة فصار غالب مَنْ في الموسم يشير عند التلبية بطرف ثوبه أو ردائه، وربما اعتقد العامة أن الإشارة في ذلك بالثوب من السنة، وما يدرى أنها بدعة والناس عنها في سعة»!.

ثم يصف الموقف والنفر إلى المزدلفة والمبيت، والسير إلى منى، ورمي الجمرات، والحلق والذبح والإفاضة، ولا يفوته أن يذكر أنه اعتراه بمكة - بعد الإفاضة - مرض من انتفاخ رأسه، وهياج الصفراء والحمى، فما عوفي إلا بعد أيام.

ثم يورد فصلاً بعنوان «خاتمة تشتمل على المحتاج إليه من أخبار مكة والبيت والمسجد وما حواه، وما في داخلها أو في خارجها من المشاهد، وذكر من اجتمعنا به على سبيل الاختصار»، فيورد أسماء مكة ووصفها وحدودها، وينقل عن «شفاء الغرام» للفاسي و«الإعلام» للقطبي وغيرهما نصوصاً كثيرة، فيقول في صفة مكة: وهي مدينة لا يراها القاصد إليها حتى يشرف عليها، مستطيلة كبيرة، ذات شعاب، لها مبتدأ ونهاية، فمبدؤها المعلاة، ومنتهاها من جانب جدة الشبيكة، ومن جانب اليمن قرب مولد سيدنا (...) رضي الله عنه، وعرضها من وجه جبل يقال له جِزَلّ (بكسر الجيم

(١) انظر ملخص رحلتي ابن عبد السلام، تحقيق حمد الجاسر، نشر دار الرفاعي، الرياض، ص ١٢٦-١٢٧.

وفتح الزاي وتشديد اللام)، سمي بذلك لأن طائفة من الحبوش يقيمون به ويسمون بهذا الاسم، يلعبون فيه بالطبل، وينتهي عرضها إلى أكثر من نصف جبل أبي قبيس، تسع من الخلائق خصوصاً أيام الموسم ما لا يحصيهم إلا الله، في بطن واد مقدس، والجبال محدقة بها كالسور لها، ولها في القـ... في شرقيها يعرف بباب المعلاة؛ لأنه من أعلاها، وهو لناحية الشرق، وسور في جهة الغرب يعرف بسور باب شبيكة، وسور في جهة اليمن وهو الجنوب، ويعرف بسور باب اليمن، ولم يبق لها سور، أينما جئتها تدخلها من الجهات الثلاث، ثم لا يمكن السلوك إليها من الجبال إلا منها.

ويقول عن المياه: وبها آبار كثيرة غالبها مسبل، وبرك مسبلة، منها المعروفة بالشامي والمصري، وهما في الغاية من الكبر والإتقان، وحمامات، وعين جارية عذبة، أجرتها إليها من عرفة في قنوات متقنة زبيدة زوجة الرشيد[1] ثم تعطلت منذ أزمان، فكانت تتضرر في الموسم من قلة الماء، ثم أصلحها الأمير سرور في وقتنا هذا، فكثر الماء بها، جزاه الله خيراً، ومع ذلك فلا بد وخصوصاً في أيام الموسم من شراء الماء حتى للشرب وللوضوء والطعام وغيرها إلا في مواضع قليلة لمن يعرفها.

ثم تحدث الناصري عن إمارة مكة في عهده فقال:

وعمالتها اليوم من خارج جدة والطائف ومر الظهران، وما كان بالقرب منها هو الذي في إيالة أميرها، وقد كانت إيالتها من قبل أوسع من هذا.

وأعراب الحجاز اليوم غالبهم لا تنالهم الأحكام الشرعية من ناحية من ولي الحرمين وأمير مكة، وهو الحاكم غالباً على أهل المدينة المنورة، وفي سنتنا هذه وقعت نائرة بينه وبينهم حتى توجه إليهم في جيش فحاربهم وأخلى قلعة المدينة، ووقع فيها نهب وهتك، ومع ذلك لم ينقادوا له، ولا أقاموا له وزناً، وحجة الأمير عليهم أنهم يتحزبون عليه بمن والاهم من الأعراب فنكثوا بيعته بعد أن دخلوا فيها، ثم إن الله تعالى ندب السلطان عبد الحميد العثماني فأخمد الفتنة بينهم، وبعث ابن أمير الركب الشامي

(١) زبيدة أجرت عينها إلى مكة من حنين، أما العين التي أجرتها من عرفة فقد أوصلتها إلى منى، وبعده بيسير وقف العمل لصلابة الصخر، ولم تجر إلى مكة إلا بعد عهد زبيدة بقرون.

حاكماً على المدينة، فعند ذلك تخلى عنها أمير مكة!

وبعد أن يذكر اختلاف العلماء في بيع دور مكة وإجارتها[1]، يذكر حدود الحرم من المدينة أربعة أميال أو خمسة للتنعيم، ومن العراق ثمانية للمقطع، ومن عرفة تسعة، ومن جدة لآخر الحديبية، ومن علامته أن يقف سيل الحرم دونه، ثم نقد هذا الأخير، ثم ذكر أنصاب الحرم وأول من وضعها، ثم أحاديث في فضل مكة، وتعرض للتفضيل بينها وبين المدينة، وأشار إلى اختلاف العلماء في ذلك.

ويتعرض للمجاورة بمكة وأن بعض العلماء كرهها، ويورد الخبر المأثور: «كان عمر - رضي الله عنه - يدور على الحاج بعد قضاء النسك، ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل العراق عراقكم، فإنه أبقى لحرمة ربكم في قلوبكم».

وقال بعض السلف: كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به. كما قيل:

وكم من بعيد الدار نال مراده
وكم من قريب الدار مات كئيبا

وينتقل إلى الحديث عن المسجد الحرام وعمارته في العصور المختلفة نقلاً عن الأزرقي والقطبي، وينقل في كلامه عن المسعى: «ومما يناسب ما ذكر من التعدي على المسعى ما وقع في دولة الجراكسة في سلطنة الملك الأشرف قايتباي المحمودي، سامحه الله، وملخصه أن تاجراً أرسله قايتباي إلى مكة اسمه محمد بن عمر بن الزمن الخواجا يتعاطى له تجارة، ويعمر له مدرسة وجانباً من الحرم والحجر وجوف الكعبة، فكان من جوره وحبه للجاه أن كان بين الميلين ميضأة أمر بعملها السلطان الملك الأشرف شعبان ابن الناصر حسن بن قلاوون، وكانت في مقابلة باب علي، تحدها من الشرق بيوت الناس، ومن الغرب المسعى الشريف، ومن الجنوب مسيل وادي إبراهيم، ومن الشمال دار سيدنا العباس - رضي الله عنه - الذي هو الآن رباط يسكنه الفقراء، فهدم الخواجا الميضأة

(١) يراجع ما أسلفناه عند الحديث عن رحلة الإسحاقي (١١٥٠هـ / ١٧٣٧م) حيث وضع مشكل شراء دار المغرب.

المذكورة، وهدم من جانب المسعى مقدار ثلاثة أذرع وحفر أمامه ليبني بها رباطاً يسكنه الفقراء، فمنعه من ذلك قاضي القضاة بمكة برهان الدين إبراهيم بن علي بن ظهيرة، فلم يمتنع من ذلك، فجمع القاضي جماعة وافرة من علماء المذاهب الأربعة، وأنكروا ذلك، وقالوا للظالم في وجهه: إن عرض المسعى كان خمسة وثلاثين ذراعاً، وأحضروا النقل من تاريخ الفاكهي، وذرعوا من ركن المسجد إلى المحل الذي وضع فيه الظالم المذكور بنيانه، فكان سبعة وعشرين ذراعاً، ومع ذلك لم ينته، فكتب من بمكة من العلماء خطوطهم بمنعه، ووجهوها إلى السلطان قايتباي، وكان للجراكسة تعصب فيمن يلوذ بهم ولو كان على باطل، فلما وصل ذلك انتصر لخادمه فكتب له يمضي على عمله، فبناه رباطاً وبنى في جانبه داراً وحفر الميضأة وجعل في جانبها مطبخاً فيه ما يفرق على الفقراء، ووقف على ذلك دوراً بمكة ومزارع بمصر، واستمر ذلك مدة إلى أن انقطع حتى بيعت الدور والديار. وقايتباي وخادمه من أحسن الجراكسة عقلاً وديناً، ومع ذلك صدر منهم هذا الفعل المحرم الذي قام الإجماع على تحريمه.

وبعد أن فصل الناصري الحديث عن المسجد الحرام وما له من أبواب، وذكر مساحته قال: «ومن المؤكد التعرض لوصف البيت والمقام وزمزم وقبة الشراب، ومقامات الأئمة الأربعة وباب بني شيبة»، ثم يورد آثاراً وأحاديث عن بناء البيت وعن الحجر الأسود، ويفصل المرات التي بني فيها البيت، وآخرها سنة أربعين وألف. وينقل أخبار العمارة الأخيرة عن «بعض التقاييد المنسوبة للأسدي».

ويتبع ذلك بذكر مساحة الكعبة: طولها من الركن اليماني إلى الحِجْر ـ بكسر الحاء ـ نحو عشرين ذراعاً، وعرضها من اليماني إلى الحجر الأسود نحو خمسة وعشرين ذراعاً، وهي طويلة، مرتفعة جداً إلى السماء، وتكاد أن تكون صومعة متوسطة، بل ربما كانت أطول من مئذنات المشارقة، خصوصاً الحرمين، عكس مآذن المغاربة فهي في الغاية من الطول، وقد ذكروا أن ارتفاعها في السماء ثلاثون ذراعاً، وقيل: سبعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع، وعرض جدارها ذراعان، وعرض الباب أربعة أذرع، وارتفاع الباب وطوله في

السماء ستة أذرع وعشرة أصابع، وهي كلها مبنية بالحجارة المنحوتة السوداء، تميل إلى الزرقة، وعبارة العبدري: ولون بنائها إلى الحمرة مع دكنة يسيرة[١]، وأرضها من داخل كالمطاف كلها مرخمة برخام ملون وكذا جدرانها، والحِجْر ـ بكسر الحاء ـ كذلك.

وقال ابن عبد السلام الناصري في الرحلة الكبرى:

وصفتها من داخلها حسبما شاهدت ذلك لما دخلت ليلاً في جماعة من الفضلاء بعد جهد جهيد وإعطاء ما تيسر من الدراهم! إنها بيت قريب من التربيع نقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السلم نحو ثلاثة أذرع، يصعد منه إلى السطح، وعدد درجها ثمان وثلاثون درجة، ولهذا السلم باب صغير لا يظهر للداخل إلا إن فتح الباب، وأرضها مفروشة بالرخام الملون، وقد كسي منها السقف والحيطان بكسوة مخالفة للخارجة في اللون، فإن الخارجة سوداء كلها والداخلة بيضاء في حمرة، وفيها مصابيح معلقة بعضها ذهب وبعضها بلار صافي ملون لازوردي، ولها ثلاثة أعمدة من خشب مصطفة في وسطها، ما بين جهة الحجر ومقابلها من جهة اليمين هو طولها، وكل من الأعمدة الثلاثة قد سمر عليه ألواح من حديد من أسفله مقدار وقفة، يحكي أن الأعمدة من العود الهندي، ولم أره في تاريخ معتمد.

ويقابلك وأنت داخل علامة في الجدار جعلت دليلاً على الباب القديم، وبينها وبين الركن اليماني (المستجار)، وهو معدود من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء كالملتزم، وهو يقابله من الجهة الشرقية عند زلاج الباب مما يلي ركن الحجر الأسود من داخل نحو صندوقة صغيرة يجعل السادن فيها المفتاح إن دخل من فضة، يريها الناس للتبرك، ويأخذ على ذلك عطاء شاهدت ذلك، والخشب الذي عليها اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدهما رأسه على حد السلم وهو أقرب الجدار إليها، وليس بينه وبينه إلا مقدار ما يصلى فيه، والثاني بينه وبين الباب، والثالث عند الباب، ولها

---

(١) عبارة العبدري: (ص ١٧٨ من الرحلة المغربية): ولونه (أي من الحجر) إلى الحمرة مع دكنة يسيرة، وارتفاعها في السماء كما ذكروا ثلاثون ذراعاً... وبعد هذا بياض عند العبدري ربما كان الكلام فيه يتعلق بالمسعى.

سقفان؛ أحدهما فوق الآخر، وبينهما درجة، وفوق السقف طاقات أربع للضوء نافذة إلى أسفلها، وسقفها الأعلى مما يلي السماء مرخم برخام أبيض، وبابها من ظاهر مصفح بصفائح من فضة مموهة بالذهب، وعتبتها العليا مطلية بالفضة، وإن وقف المتوسط من الناس في المطاف تحت الباب ومد يده جداً ربما وصلت العتبة السفلى.

وميزابها من عود عليه صفائح الذهب، وهو يصب في الحِجْر (بكسر الحاء).

وفي موضعها (أي الكعبة) ـ قال العبدري ـ فيه يسير نتوء يتبين للمتأمل[1]. قلت: ولم أر الآن شيئاً من ذلك، وإنما المطاف الدائر بها معه انخفاض عن باقي الصحن، ولعله غُيِّر بعد زمان العبدري، والله أعلم.

وقد أسأنا الأدب فأمعنا النظر والقصد الوقوف على الحقيقة؛ إذ لا دليل أقوى من المشاهدة.

وذكر كسوة الكعبة، ووصف الحِجْر والحَجَر الأسود، وحاول أن يعرف الحفرة التي بين الباب وبين الحجر. قال: «سألت عنها بعض علماء مكة ممن لقيته بها، فلم يشف لي غليلاً بذلك». وأورد من كتاب «الخميس» لحسين بن محمد بن الحسين، ومن تاريخ الفاسي حولها نقولاً يعقبها تساؤلات، وقال عن عرض الحِجْر: (نحو ثلاثة الأذرع، وتدويره من داخله ثمان وثلاثون ذراعاً حسبما حررت ذلك).

ثم يصف ما يحدث عند دخول الكعبة من الفوضى فيقول:

واعلم أن البيت في غير أيام الموسم إن أريد دخوله ينصب له سلم، وفي أيامي رأيتها فتحت مراراً ولا أراهم من الازدحام نصبوا سلماً، وإنما يتكلف الأول الصعود على ظهر غيره فيمد يده لمن تحته، وتراهم يتزاحمون ويتحينون أوقات فراغ المسجد كجوف الليل، ومع ذلك لا يخلو عن زحمة وقلة احترام، فترى الرجال يتساقطون ويتقاتلون على ذلك، وربما سالت الدماء، وربما اختلط النساء بالرجال حتى يتساقط الذكر على الأنثى والأنثى على الذكر! ويلتف بعضهم لبعض، وأعظم من ذلك ما يقع عند الركنين اليمانيين، فقلما يتمكن أحد كل التمكن منهما، وأفضى بهم إلى البدعة الشنيعة، فيقطعون

---

(١) ص ١٧٨ من الرحلة: وفي موضعها يسير نتوء يبين للمتأمل.

الأوقات بلثمهما ولمسهما خصوصاً الأسود حتى إن خلا تشم منه بعض العفونات من الأيدي والأفواه. وقد وقع مثل هذا في زمن العبدري وزاد: قد أسقطوا بجهلهم وجفائهم حرمته.

ويعجب بالنظافة في الحرم فبعد أن يورد قول العبدري: منهم من لم يبال بالبصاق وقتل القمل في المسجد وإلقاء الوسخ في داخله. قال العبدري: وقد دخلت مسجد دار الندوة فوجدته ملآن من الأوساخ والقمامات، ووجدت فيه أناساً يشتغلون بأعمالهم من سائر الصناعات(١). يعقب على هذا بقوله: قلت: وما ذكره من البصاق والقمل في دار الندوة لم نر منه شيئاً، وكل ذلك اليوم في الغاية من النظافة، خصوصاً المطاف ترى السدنة من العبيد المعروفين بالأغوات يكنسون كل صبيحة مع ظهور الضوء، وهم في غاية السكينة والوقار والعفاف عن المسألة عكس الذين بالحجرة النبوية.

ثم يتحدث عن مقام إبراهيم بتوسع نقلاً عن الأزرقي وغيره ويصف بئر زمزم، ولكنه يستاء مما يشاهد داخل قبتها: «تراهم يغتسلون بمآزرهم، يعطي مريد الغسل للسقائين، وهم واقفون على التنور، وهم جماعة دواوين فيصبون عليه، دلواً أو دلوين أو ما أراد على حسب عطائه! حتى يشفي غليله، وهم مع ذلك لا يراعون لها حرمة، فيتشاجرون على الماء، ويأخذ أحدهم الدلو فيصبه على نفسه بثيابه! حتى وقعوا في تلويث المكان الشريف، لاسيما وهي زمزم في وسط أفضل المساجد. فيجب تنزيه المسجد عن قاذوراتهم ولغطهم ورفع أصواتهم وخصوماتهم». قال تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾. قال الحافظ ابن كثير في «تاريخه»: وذكر عن عبد المطلب أنه لما حفر زمزم قال: اللهم إني لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حل وبل، وذلك أنه جعل لها موضعين: حوضاً للشرب، وحوضاً للوضوء، فعند ذلك قال: لا أحلها لمغتسل، لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه. وبل بلغة حمير مباح. قال العبدري: ويتقولون في ذلك أشياء ما لها وجود مثل زيادة الماء في ليلة الجمعة(٢)، وهو أمر مشهور عندهم، وقد ذكر

---

(١) رحلة العبدري (ص ١٧٥-١٧٦).

(٢) المصدر السابق.

ابن جبير في «رحلته» أنه قاسه في ليلة الجمعة وهم يتقاتلون عليه وقت زيادته بزعمهم فوجده على حاله، وبودي لو أتاح الله محتسباً يذيقهم النكال، فإن حرم الله تعالى أولى المواضع بالهيبة ولزوم السكينة.

ويذكر ما بداخل المسجد من الأبنية: «وبإزاء قبة زمزم قبة الشراب، وهي سقاية الحاج، ويسقى منها للناس في رمضان، ويجري إليها الماء في قناة تحت الأرض من قبة زمزم، وبإزائها بيت صغير هو مخزن الكعبة، وليس في المسجد أبنية سوى هذه»، قاله العبدري. ويعقب على ذلك بقوله: «قلت: وفيه في صحنه مقامات الأئمة الأربعة للصلاة، ولا يقال حدثت بعد زمانه؛ لأنها حدثت في زمان الإمام ابن الحاجب بالإسكندرية، فأجاب بأن غاية ما يقال فيها أنها بمنزلة تعدُّد المساجد، ولا يقال على مذهب المالكية: إن فيها إعادة الجماعة بعد الراتب إلى غير ذلك مما وقع التهويش به التشويش على الناس[1]، وقد رأيت بمكة تأليفاً في ذلك لبعض علماء العصر من المالكية».

ويذكر باب بني شيبة القديم، والأبواب الأخرى، وما حول المطاف، وكيفية إنارة المسجد، ويتحدث عن الصفا والمروة، ومما قال: «وأما المروة فبنيت أدراجاً، وفوقها دكان كبير، والواقف بها لا يستقبل القبلة، يبقى المسجد لصوب اليمين، وبإزائها الحلاقون، فليست بذاك في النظافة لما يقع عندها من اجتماع الناس للحلق بعد النسك، فيكثر الشعث، بل وربما وجدت النجاسة في المسعى، بل لا تكاد تفارقه من الآدمي وغيره»!

ثم يورد فصلاً (في ذكر محال المناسك خارج مكة) يبدؤه بوصف الطريق منها إلى عرفة.

ثم يتحدث عن حد المزدلفة... ثم حدود عرفة... ثم منى... ومسجد الخيف وبقية آثارها... ثم آثار مكة، وقد ختم مذكراً بالحديث عن العلماء بمكة فيذكر من لقيه بها.

ويقول: إن مكة اليوم ليس بها مَنْ يُرجع إليه في المعضلات! ولا من يصلح للتمثيل

(١) لم يبق اليوم أثر لهذا التهويش والتشويش والحمد لله.

بين يديه، وقديماً في زمن المحب الطبري قال العبدري: ضعف العلم في هذه البلاد لضعف العيش بها، والناس مع الدنيا وصاحبها!!

وأما المالكية فلم أر بها بعد البحث إلا المجاورين منهم، وأولاهم بالتقديم الشيخ أبو زيد، وله ممارسة بالعربية واللغة والقراءة وغيرها، أوقفني على حواشٍ على «القاموس» في نحو ست كراريس، ومحصلها التشنيع عليه في الرد على الجوهري، وتكلم معه المحشي في نحو ثلاثمئة مسألة، وغالبها نقل من أصله، وقد وهبني منها نسخة، تقبل الله تعالى منه، وشكر سعيه، يقول الناصري.

ثم قال: ومنهم الشيخ المنيس يعرف هناك بالتونسي، وهو في الحقيقة الزواوي، اجتمعت به وذهب بي لبيته، وأضافني في جماعة من الفضلاء، وله ممارسة ما بفقه مالك.

قال: وأما الحنفية (فهم) كالشافعية، فلهم اليد الطولى في الحرمين الشريفين في الطلبة وغيرهم، ومنهم الأئمة والقضاة والمفتون، ولم ألق إذ ذاك بعد البحث مَنْ يصلح للأخذ عنه!

وأما الحنابلة فما أضعف مذهبهم في مصر والحرمين! وأكثرهم اليوم بالشام وفيما وراء النهر، وغالبهم - على ما يحكى - أهل عقائد فاسدة فيما بين رافضي وغيره[1]، ولم ألق بمكة منهم إلا إمام مقامهم وهو الشيخ علي، فهو يدعي معرفة فقه ابن حنبل ويفتي في مذهبه من غير منازع له:

خلت الديار فسدت غير مسوّد

ومن الشقاء تفردي بالسؤدد!

وبعد هذا تحدث عن بعض الكتب النادرة التي وقف عليها متخلصاً إلى القول بأن بعض هذه المخطوطات اشتري لأميرنا، نصره الله، فجيء به إليه.

أما عن رحلته الثانية سنة ١٢١١هـ (١٧٩٧م)... فقد كان برفقة الأمير المولى موسى شقيق العاهل المغربي المولى سليمان، وابن العاهل الأمير المولى أحمد... وكان صحبة

---

(١) يلاحظ أن الناصري صدر ما نسب إلى الحنابلة بعبارة (على ما يحكى)، فخرج بها من تبعة وصفهم بما هم منه براء، فعقائدهم هي عقائد أهل السنة والجماعة، وهم أبعد أصحاب المذاهب عن الرفض (وما آفة الأخبار إلا رواتها)، قاله حمد الجاسر.

جماعة وافرة كما يقول: وكانت الرحلة بالفعل صغيرة.. تحتوي على الجواب عن بعض النوازل التي تقع، ويبدو لي أنها كانت بمثابة دليل مختصر يستعين به مرافقوه(١).

ولنسُقْ ـ على سبيل المثال ـ هذه الفقرات التي لا تخلو من إشارات وهو يستعمل فيها أسلوب خطاب غيره: فإذا كان اليوم الثامن من ذي الحجة، فاخرج من مكة إلى منى قدر ما تدرك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وبت بها حتى يطلع الصبح وتشرق الشمس، وانوِ بالإقامة بها السنة، ثم اخرج بعد طلوع الشمس من يوم عرفة وأنت تعاود التلبية في ذلك كله حتى تنتهي إلى نمرة، وتنزل بها، ودم على تلبيتك حتى إذا زالت الشمس في يوم عرفة فقم واغتسل وانو به المستحب، ثم اقطع التلبية، وارجع مع الإمام إلى عرفة، فصل معه الظهر ركعتين والعصر ركعتين في أول الزوال، ثم قف مع الإمام إلى غروب الشمس، فإذا تعبت فاجلس، وأكثر من الدعاء والصلاة على النبي ﷺ، قال: لا تستظل بشيء(٢)، واغتنم بركة ذلك الموقف في ذلك اليوم، فانفر مع الإمام بعد المغرب فادفع معه حتى تبلغ مزدلفة، وابق هنا حتى تصلي الصبح في أول وقته، ثم قف بالمشعر الحرام حتى يقرب طلوع الشمس، تكبر وتدعو وأنت مستقبل القبلة وانو به وبمبيت مزدلفة السنة، ثم انصرف إلى منى، وأسرع ببطن محسر، وانو به الفضيلة، ثم انصرف إلى منى حتى تأتي جمرة العقبة، وارمها بسبع حصيات تنوي بها السنة، والتقطها من منزلك بمزدلفة، ثم اذبح عيدك إن كان معك، واحلق رأسك، وانو به السنة، ثم انصرف من حينك إلى مكة وطف طواف الإفاضة على الصفة المتقدمة.

هكذا نرى أن أسلوب الرحلة يختلف تماماً عن الأولى، وأنها لا تتعدى أن تكون شبه دليل مختصر على ما قلناه.

ونرى من المهم في الأخير أن نشير إلى اكتشاف علمي جليل لابن عبدالسلام الناصري هذا، ويتعلق الأمر بوقوفه على نسخة فريدة من صحيح الإمام البخاري في

---

(١) الإعلام للمراكشي، ج٦، ص ٢١٧. المخطوطة رقم ١٢١، الخزانة الحسنية السالفة الذكر، ص ٥٣٩. د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، طبعة فضالة عام ١٩٧٦م، ص ٤٠، تعليق ٢، ص ٤١، تعليق ١.

(٢) يلاحظ أن اليوم يوافق خامس يونيو.

مجلد واحد بخط الحافظ أبي علي حسن الصدفي كتب بتاريخ ٥٠٨هـ / ١١١٤م؛ أي: قبل أن يستشهد في ربيع الأول سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م، حيث نجد الناصري يتفاوض مع صاحبها الحاج أحمد بوطبل الذي كان حصل عليها في إستانبول بثمن تافه.

يقول الناصري في كتابه «المزايا» لما تكلم على نسخة البخاري اليونينية التي كانت معتمدة في الزاوية الناصرية: لقد بذلت لصاحب المخطوط صرة ذهب، فأبى من بيعه، وبقي ضائعاً في ذلك القطر، ثم حملتني الغيرة على العلم والمحبة فيه أن أبلغت خبره لإمامنا المنصور بالله أبي الربيع المولى سليمان... فوجه إلى صاحبه حسبما شابهني به ألف مثقال... فوعده بأنه سيقدم به إلى حضرته... وما منعه فتنة الترك فيما بين تونس والجزائر... ثم لما طال الأمر أعاد الملك الكتب بذلك، وإلى الآن لم يظفر به.

ولقد داعبته ذات يوم فتحدثت إليه في شأن المخطوطة المذكورة، وماذا لمبلغ خبر هذه المعلومة؟ فوعدني أنه إن ظفر به فإنه ينسخ فرعاً منه ويعطيني أحدهما على اختياري[١].

---

(١) انظر الكناش رقم ٨٨ بالخزانة العامة بالرباط بقلم محمد بن عبدالله المراكشي، ص ١٧٣.. راجع (فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات)، المطبعة الجديدة بالطالعة، فاس ١٣٤٦هـ، ص ١١٠-١١١، ج٢، ص ١١٢-١١٣، تأليف الشيخ عبد الحي الكتاني.

د. التازي: صحيح الإمام البخاري بخط الحافظ الصدفي شيخ ابن سعادة، دعوة الحق، مارس ١٩٧٣م، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ١٩، ج١، مايو ١٩٧٣م. صحيح البخاري بخط الصدفي بحث ألقي في مهرجان البخاري بسمرقند في أغسطس عام ١٩٧٤م، مجلة البحث العلمي بالمغرب عدد ٢٤، المحرم ١٣٩٥هـ / يناير ١٩٧٥م. وانظر مجلة معهد المخطوطات العربية التي نشرت بياناً من الشيخ ابن عاشور الأديب، رحم الله الجميع.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الناصري

رحلتا الزياني ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م

هاتان رحلتان حجازيتان كذلك؛ إحداهما تمت سنة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٤م، والثانية سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م، وقد جمع المؤلف في تاليفه (الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً) جمع فيها الحديث عن الرحلتين معاً إلى جانب الإشارة إلى رحلة سابقة مع والده[١].

لقد أدى أبو القاسم الزياني حجه انطلاقاً من إستانبول التي كان يعرفها عندما كان سفيراً بها للمغرب. ولكن بعيداً عن البروتوكول باستثناء التوصية التي حصل عليها من السلطان العثماني إلى أمين الصرة سليمان أفندي الذي كان يرافق ركب الحاج العثماني هذا العام.

كان أبو القاسم، كسلفه السفير ابن عثمان، يحدد المسافات بالساعات، وهكذا فإنه يحدثنا أنه خرج من رابغ على نية القيام بالحج إفراداً، ثم وصل إلى (قديد) بعد اثنتي عشرة ساعة، ومنه إلى (خليص) في اثنتي عشرة ساعة، إلى أن يصل لظاهر مكة المشرفة، حيث اغتسل وقصد البيت الحرام للطواف[٢]، ودخل من باب السلام على نحو ما فعل السابقون... وعندما كان يتحدث عن طول المسجد الحرام وعرضه فكأنه قرأ رحلة سلفه ابن عثمان!

ويذكر أبو القاسم أنه لما عاد من عرفة إلى منى نزل بمحل بعيد عن الناس، فما شعر إلا والقباب تضرب بجنبه، والخيول والخدم تنزل، فسأل عن ذلك، فقيل له: إن هذه القباب قباب الوزير الأعظم يوسف باشا الذي قدم من إستانبول والياً بجدة والحجاز، أتى مع الركب الشامي ليحج ويعود إلى مقر عمله في جدة.

---

(١) الترجمانة الكبرى للزياني، تحقيق: د. عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء، المغرب، مطبعة فضالة، المغرب، ص ١٥١-١٩٠-٢٥٧.

(٢) الترجمانة الكبرى، ص ١٨٨.

وهنا يحكي الزياني من منى قصة طريفة مما يجري عادة بين الحجاج في أوقات فراغهم، فيها الكثير من الفوائد عن أحوال المنطقة، وعن مصدر النفوذ بها، وعن الموظفين السامين، عندما تتبدل مواقعهم السياسية بسبب وفاة ملوك كانوا يشغلونهم مثلاً... فيصبحون ناقمين على أوضاعهم الجديدة مستصغرين من أصبح اليوم يملأ وظائفهم السابقة غير مؤمنين بأن لكل وقت دولةً ورجالاً!!

يقول الزياني: كان هذا الوزير وزيراً للسلطان عبد الحميد أيام سفارة الزياني لإستانبول، وكان لي معه خلة ومصافاة، فقلت لا بدَّ لي من السلام عليه... فلما قصدته قام من مجلسه وصافحني وأجلسني بجانبه، ونادى على ترجمانه، وهو إلى الآن لم يتذكرني!

وسأل الترجمان: من أي بلاد يكون هذا الشيخ؟ فأجبته: لعلك نسيتني! أنا أبو القاسم الزياني الذي والذي... وهنا قام الوزير قائماً وقبض يدي وعانقني... وأشار إلى القوم فخرجوا... ولم يبق إلا الترجمان، فجلسنا قال: أين السلطان عبد الحميد؟ وأين السلطان سيدي محمد بن عبد الله؟ تركونا أيتاماً! والله لبطن الأرض أحب من ظهرها! فلقد ظهرت علامات قيام الساعة!! لقد ذهب أهل المروءة والدين! وتصدر الأحداث والسفهاء وأطراف الناس!

وقد قال الوزير العثماني السابق للسفير المغربي السابق: لقد طلبت أداء الفريضة... ففهم السلطان سليم (وقد كان خلف عمه عبد الحميد)، فهم مني كراهية المقام بالدولة، وأجابني لغرضي فولاني جدة والحجاز لحرب الشقي الوهابي (كذا)!!

وهكذا نسمع أول إشارة سنة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٤م عن قلق تركيا من جهاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أجل التخلص من الوجود التركي بالمنطقة(١).

وقد طلب الوزير السابق من السفير السابق: كيف حالكم مع بيعة اليزيد ابن ملككم السابق؟ فأجبته: لا تسألني عن حالنا وما لقينا بعد موت والدنا (السلطان)..!

(١) سنقرأ عن بعثة السلطان المولى سليمان برئاسة ابنه المولى إبراهيم إلى الحجاز جواباً عن الرسالة التي بعث بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى سلطان المغرب. د. التازي: سفارة المولى سليمان لدى الملك سعود، مجلة دارة الملك عبد العزيز.

لقد مرضنا حتى قطعنا اليأس من الحياة، وأدركتنا العناية بولاية ولده الثالث مولاي سليمان، فإنه من أهل الدين والعدل والعفاف، بينما أخوه الثاني (هشام) قام عليه بمراكش، لكنه لن يتم أمره، ولا بد أن تجتمع كلمة أهل المغرب على السلطان مولاي سليمان لعلمه ودينه.

واستمر أبو القاسم يقول، وهو في منى بعيد عن السلطة: وقد حضرت سفرة غذائه فأكلنا، ولما أردت القيام قال لي: سألتك بحقي عليك ألا تنقطع عني، فأجبته: « هذا مغربي بجنبك...! يعني أن المغاربة أوفياء، فقام معي إلى باب (الوثاق) حتى رأى محلي ورجع. وفي الليل نادى بنفسه عليّ فسهرت معه إلى آخر الليل.

وبعد هذا نجد أبا القاسم الزياني يتفرغ لذكر مدن الجزيرة العربية إلى أن يعود للموضوع فيقول: ولما فرغنا من مناسك الحج والعمرة، اكترينا الإبل من عند آغا المغاربة (رئيسهم)... وترافق معنا القاضي عبد الحليم الذي جاء مع الركب معيّناً قاضياً لمصر من لدن إستانبول مع ركب الشامي.

ولما حج انقلب مع الحاج المصري إلى مصر.

وبعد أن يستطرد بالحديث المثير والمهم عن الشيخ إبراهيم الدمياطي الذي كان حج معه سنة ١٢٠٨هـ عابراً من دمياط إلى كندية (Candie)، الميناء الرئيس لجزيرة أقريطش (كريت)[١]. بعد ذلك تحدث عن مقامه بمصر، فوصف الإسكندرية، وتحدث عن المنار وعمود السواري متخلصاً إلى ذكر عجائب الدنيا... ثم يتحدث عن احتفال أهل مصر بخروج المحمل الذي يحمل كسوة الكعبة المشرفة والذي يخرج خروجه الأول منذ شهر شوال عندما يؤتى بالكسوة من دار الصنعة، حيث تضرب (خيمة كبرى) على باب القلعة فيحضر الأعيان كلهم والولاة والأمراء والحكام والقاضي، كل واحد مع أتباعه، ولكل واحد مجلس معلوم.

ويعود أبو القاسم الزياني إلى خروج المحمل الكبير من القاهرة إلى مكة خرجته الأخيرة من اليوم الحادي والعشرين من شوال... ويصف اجتماع الجماهير لحضور هذا اليوم

---

(١) د. التازي: سفارة ابن عثمان إلى مالطة، بحث قُدِّم لأكاديمية المملكة المغربية ضمن أحاديث الخميس.

الذي هو من أيام الزينة، إذ يجتمع الناس له من أطراف البلد، ويؤتى بالكسوة من موضع خياطتها (المشهد الحسيني)[1].

ولم يفت أبا القاسم الزياني أن يتحدث عن حضور "الفول المصري" الذي يحمل مع الركب المتوجه إلى مكة المكرمة، وهكذا نجده يتحدث عن نصب أراحٍ متعددة في أيام الموسم لتدشيش الفول، يديرها الرجال بأيديهم رغم كبرها، وقد أعطاهم الله قوة على ذلك، يطحن الرجلان أرادب متعددة في يوم واحد، فيكون هناك صُبر من الفول المدشش[2]، كل صبرة تزيد على المائة أردب. ومن هناك يكيل غالب الحجاج فولهم ويعمرونه في غرائرهم ويمكنونه للحمالين فيذهبون به.

ويتحدث أبو القاسم عن حجة له أخرى، فيذكر أنه دخل من باب السلام، وأنه أقام بمكة إلى اليوم السابع، حيث كان يجتمع -وهذا مهم في نشاطه العلمي- ببعض السادة من فقهاء مكة، حيث أقبل عليهم رجل أعجمي (من فارس) صاحب وجاهة متجمل بزي الفقهاء، لسانه بالعربية فيه لكنة، وابتدأنا -بعد السلام- بالسؤال عن تاليف كان بينهم، فقيل له: إنه كتاب «النقابة» للإمام السيوطي[3]... فأخذ الدفتر وفتحه وقال: الله أكبر، لله الحمد، ما جئت إلا بسبب هذا أباحثكم عن مسائل خطرت ببالي. يا إخواني، ما معنى الله؟

ويجد الزياني نفسه يناقش أحد الذين يتمذهبون بمذهب المعتزلة... فيقول: نحمد الله على أن المغرب بعيد عن هؤلاء المبتدعة... وأن الوظائف الدينية فيه لا تباع ولا

---

(١) الترجمانة الكبرى ص ١٥١-٢١٤. فاطمة خليل: الرحلة في الأدب المغربي، بحث لنيل دكتوراه، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، سنة ١٤٠٧-١٤٠٨هـ / ١٩٨٧-١٩٨٨م.

(٢) نسمع إخوتنا في مصر يقولون: (فول مدمس)، فهل حرّفه أبو القاسم إلى فول مدشش، أم أن العكس هو الذي حصل؟ وبالمناسبة أذكر أنني كنت أجد المتعة في تناول هذا الفول عند الإفطار في رمضان بالمسجد الحرام. د. التازي: عائد من أول بيت وضع للناس، جريدة العلم المغربية، عدد ١٢، شوال ١٤٢١هـ / ٧ يناير ٢٠٠١م.

(٣) يحمل هذا التاليف كذلك اسم «الأصول المهمة في علوم جمة»، وقد طبع قسم منه بالأستانة سنة ١٣٠٢هـ، ثم طبع كاملاً بفاس المغرب سنة ١٣١٧هـ. أحمد الشرقاوي إقبال، مكتبة الجلال السيوطي، دار المغرب، ص ٣٧١، الرباط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

تشترى، كما هو الشأن ببلاد المشرق!! وبعد أن ينتقد سلوك الشريف سعد من آل نمي إزاء أحد قضاة الحرمين الشريفين ينوه بعدل كسرى أنو شروان...!

ويخبرنا أبو القاسم أن مما وقف عليه بمكة المكرمة من الكتب الغريبة في التاريخ ما كان السلطان قايتباي وقفه في تمام السبعمئة، وهو كتاب جعله مؤلفه في سبعين جزءاً، كل جزء تناول عشرة أعوام، قال: وهو كتاب حافل جامع لم يدع فيه شاذة ولا فاذة مما تتشوق إليه النفوس من علم التاريخ إلا أودعها فيه مع الاختصار، فكأنما جعلت له الدنيا في صعيد واحد، وقد قيّد من بعض أجزائه بعض المعلومات.

وعلى الرغم من تحرياته حول هذا التأليف فإنني لم أعثر له على أثر.

لكن الذي لفت نظرنا ـ ويجب أن نقول هذا ونحن نتحدث عن الرحلات ـ أن الزياني ينقل نصاً من هذا التأليف عمن سماه ابن جرير الكلبي، ولم يكن هذا في الواقع إلا ابن جُزي الكلبي ناسخ رحلة ابن بطوطة، وكانت الرحلة تحتوي على مضمون هذه المعلومات(١).

وقد كان مما نقله الزياني حديث عن أكبر ملوك الدنيا... عن بلاد بلغار والتجارة البكماء(٢)... وعن بلاد السند بما فيها المدينة التي مسخ الله أهلها... إلخ.

ومن العجب أن أبا القاسم الزياني يقول، فيما يزعم أنه نقله عن البلوي، أن السلطان أبا عنان عاتب ابن بطوطة على عدم قدومه عليه فور وصوله إلى فاس... وهو الأمر الذي يدل على أنه اطلع على رحلة ابن بطوطة، وعرف ما فيها عن ملوك الدنيا وبلاد بلغار والتجارة البكماء... إلخ، لكنه لم يشر إلى رحلة ابن بطوطة وكأنها لا تكون، ولله في خلقه شؤون(٣)!!

وبعد "إفادة" أبي القاسم عن التأليف الذي حبسه قايتباي على مكتبة المسجد الحرام... يعود إلى رحلته الحجازية ليفيدنا أنه لما دخل مكة قادماً من جدة، دخل

(١) رحلة ابن بطوطة، تقديم وتحقيق: د. عبدالهادي التازي، المجلد الأول ٣٩٨، المجلد الثالث ٣١، ص ٢٦، ٢٧، ٤٠، ٤١، ٤٦.

(٢) رحلة ابن بطوطة الجزء ١، ص ٩، تعليق ٢، ج٣، ص ٨٠، ٨١، تعليق ١٣٠.

(٣) الترجمانة الكبرى، ص ٥٨١.

المسجد لطواف القدوم والسعي؛ حيث لقي أحد المغاربة الذين كانوا يعرفونه بالاسم والكنية عندما كان الزياني والياً على مدينة العرايش... وعرف أبو القاسم أن هذا المغربي مجاور يستوطن مكة، وهو متزوج بها... وقد عرض على الزياني أن يستقر في بيته القريب من الحرم.

ويقول الزياني: إنه لما أراد الشخوص لعرفة ـ لهذه المرة ـ طلب منه صاحب البيت أن يتوجه في صحبته فأنعم عليه بذلك، وأوصاه أن يكتري الإبل ومحملاً خشبياً، فأتى له بالإبل والمحمل الخشبي ليشتركا معاً في ركوبه؛ أحدهما من جهة، والآخر في الجهة المقابلة على نحو ما نعرفه في مثل هذه المحامل.

وكان زميلي ـ يقول الزياني ـ كثير اللحم فرجح بي في الطريق، ومال المحمل وحصلت لي منه مشقة لا أنساها، وكذا للجمل ولربه أيضاً. ولما بلغنا أرض عرفة ونزلنا غاب عني، وما رأيته إلى أن رجعنا يوم طواف الإفاضة...

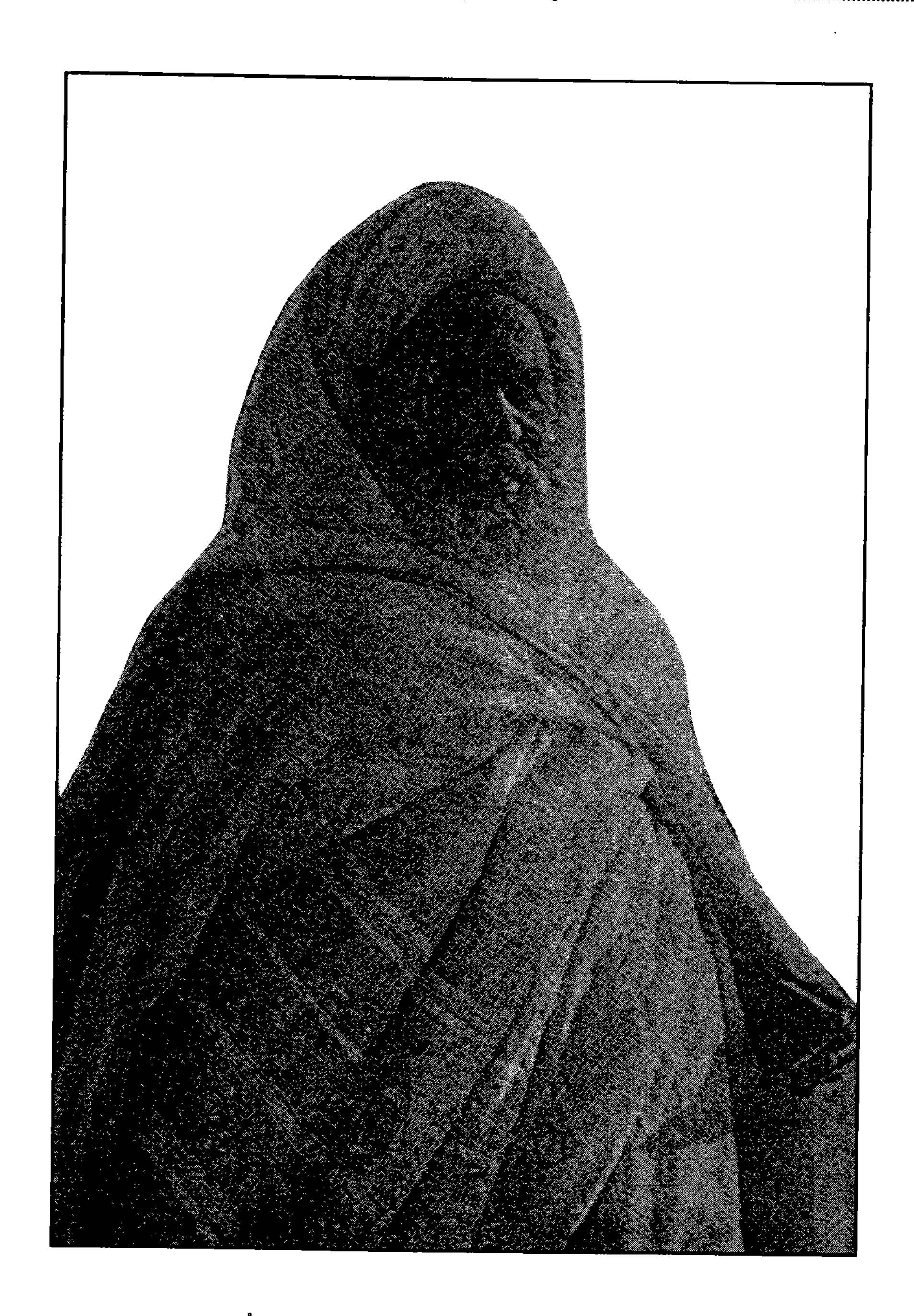
وقد تبين أن زميله كان ينتقد أمراء الحاج: المصري والشامي والعراقي والهندي والسندي واليمني، فقد كان له منهم وظيف يتسلمه كل موسم... كان ذلك رزقه طوال السنة... ويحكي أبو القاسم أن هذا الرفيق ذكره عند أمير الحاج الشامي أحمد الجزار الذي سأله عمن أتى هذه السنة من المغاربة.

ويغتنمها الزياني فرصة ليخصص بعض حديثه عن هذا القائد الشهير المعروف وقت ذاك الذي يقول عنه أبو القاسم: إنه كان يزعم أنه المهدي المنتظر.

وقد أقام الزياني بمكة إلى أن تهيأ الركب المصري؛ حيث توجه القائد المذكور إلى المدينة المنورة... ثم إلى القدس والخليل[1].

---

(١) د. التازي: القدس والخليل في الرحلات المغربية، طبعة الأيسيسكو سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص ٥٣، مصدر سابق.



صورة تقريبية لأبي القاسم الزياني حسب الوصف الذي عُرف به

الحيوني ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م

كاتب هذه الرحلة محمد الحنفي ابن أبي بكر الحيوني، نسبة لقصر بني حيون الواقع في الضفة الغربية لنهر درعة بواحة لكتاوة[١] . . .

يظهر أن الرحلة كانت في البداية عبارة عن رسائل يبعثها الحيوني إلى شيخ القبيلة محمد البشري الذي ساعده مادياً على القيام بالرحلة، والذي كان الحيوني يلقبه في رسائله بسعد الدين، ثم لم يلبث أن دونها في كتاب على حدة، وهي رحلة فريدة من نوعها من حيث الأسلوب العفوي، وعدم تقليد سابقيه .. ومن حيث المعلومات التي اختار الحيوني تقديمها لقارئه «حسبما طرق سمعه وشاهده رؤيا عين»[٢].

وعلى الرغم من أن الحيوني لم يحدد تاريخ رحلته إلا أنه من خلال ذكره لكلمة الليالي التي تعني عند المغاربة فترة معينة من السنة، ومن خلال إفادته التاريخية أن الرحلة تمت بعد اتفاقية لندن في ١٨ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ / ١٥ يوليو ١٨٤١م. وبالنظر إلى ما قمنا به من تتبع مصادفة وقفة عرفة ليوم الجمعة، ومن خلال ذكره بعض الأعلام الشخصية، أمسى عندي من المؤكد أنه قام بحجته سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م قبل أن يلتحق بمصر التي اختارها للمجاورة بالأزهر الشريف؛ حيث تمكن بعد أن استقر به الأمر من تدوين رحلته التي استعمل فيه بعض الكلمات المصرية . . .

ومن غير أن نتتبع الحيوني في سائر خطواته التي ابتدأها على متن مركب في مدينة آسفي إلى الإسكندرية . . . فإننا سنكتفي بالحديث عن مقامه بمكة، وانطباعاته عن أهلها، وما صادفه في الموسم من وباء ماحق . . . علاوة على سوق العبيد قبل أن يمنع سنة ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م.

---

(١) د. هاشم العلوي القاسمي: بلاد الحجاز والحرمين الشريفين. مجلة دعوة الحق، ديسمبر ١٩٩٩م. د. أحمد البوزيدي: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية بمكة والمدينة، دعوة الحق، يناير ٢٠٠١م.

(٢) قام بالرحلة صحبة ركب الشيخ بوبكر بن علي الناصري المتوفى سنة ١٢٨١هـ. العباس بن إبراهيم: الإعلام، ج ٨، ص ٣٢٨.

وفي الفصل الذي خصّصه لما شاهده في الوشن[١]، قال: إنهم لما وصلوه وجدوا أن الركب المصري خرج منه، ووجدوا أن الماء فيه قليل ... وهناك أخذوا يشترون الماء من العربان أهل الحجاز ...

وهنا أخذ يتحدث عن الوباء[٢]: فترى الرجل فوق جمله فلا تشعر به حتى يسقط من فوقه، فمات الأول والثاني والثالث ... فطارت العقول يا سعد الدين للحناجر ... ويبس الريق في أفواه الرجال ... وكان بإزائي في المطرح رجل من (الألواح)، وهي بين فزان وسيوة، معه أهله وبنته التي ماتت، ورجل من سفيان مات، وهو الذي اكترى لهم الإبل قبل أن يموت هو بدوره وتتبعه زوجة الألواحي! لقد دق طبل شيخ الركب ليعلن الوفاة!! وفي اليوم الموالي أثناء الفطور سقط آخر ... ولما كثر الموت رجفت القلوب، واشتدّ الهول، وأخبروا أن الطاعون منتشر بمكة وهم في طريقهم إليها ... الأمر الذي شوشهم ... وكان الرجال يشدون بالحبال فوق الإبل حتى وصلوا إلى ينبع ...

وهنا يقدم معلومات سياسية جد مهمة عن هذا البلد الموجود بشط بحر القلزم: «ووجدنا العسكر قائماً به وهو للسلطان (العثماني) لا لمحمد باشا؛ إذ تمام حكومته (الوشن)، ومنه لمكة لا كلام له فيه، وكان فيما مضى هو الحاكم للجميع، ولكن لما اصطلح مع السلطان شرط عليه أن يخرج من الحجاز وامتثل».

وبعد معلومات مفيدة عن ينبع[٣] ... يصل إلى رابغ، وقد فقد كذلك أقواماً آخرين ... مات ثلث الركب، مات ثلاثون ما بين نساء ورجال، ووقعت الفتنة بين الناس .. سارت الركبان والموت تطلب آثارهم إلى أن وصلوا مكة ...!

---

(١) الوشن: يكتبه الحيوني الوشن بالنون، موقع جغرافي على الحدود ... انظر مصادر الأسماء الجغرافية المصرية.

(٢) يتأكد لدي أن هذا الوباء لا صلة له بوباء سنة ١٢٤٦هـ ولا بوباء سنة ١٢٨٨هـ، ولكنه وباء آخر كان مما خفي عن الذين أرَّخو للحجاز .. انظر تاريخ مكة للسباعي ... وقد سمت بعض المصادر البريطانية هذا الوباء بالكوليرا.

(٣) كانت هذه المعلومات مما يهم زميلنا الراحل الشيخ حمد الجاسر، وكان يتطلع إلى الحصول عليها لولا أجله المحتوم، رحمه الله رحمة واسعة، وأثابه على ما قدمه من عطاء في موضوع التأريخ للديار الحجازية.

وفي رابغ وجدوا عسكراً من عسكر السلطان (العثماني) بخيله وآلاته الحربية، وذلك لأجل خوف العربان، وفيه دار المخزن (يعني الحكومة) والمدافع في بروجها، وفيه العرب كثير فلا ترى أحداً منهم إلا وهو مشمر، والحزام على بطنه، وخنجره على سرته أيضاً تحت الحزام، ويد الخنجر لناحية اليد اليسرى ماشين في الحزازيم والقشاشيب ... الخباءات على كل نوع: الأبيض والأصفر والأسود والأحمر، والإبل كل جمل لا ينافي أن يساوي اثنين من جمالنا!

وبعد أن يتحدث عن إحرامه من رابغ .. وأخذه الطريق ليلاً على ضوء المشاعل الكبيرة ... وحكايته عن عزة الماء والشجار عليه حتى الموت ..! يتحدث عن اشتياق الناس إلى رؤية مكة ... فمن راكب ومن راجل والتلبية لا تنقطع ... ووجدنا بخليص النخيل الجيد على زي نخيل بلدنا..! ويصف سير الجمال الحثيث تكاد أرجلها تسبق أيديها رافعة رؤوسها للسماء، وكأن ما بيننا من الحب والشوق لبيت الله أصابها! فلا ترى أحداً ينظر وراءه أبداً، وإنما الناس كلهم مشغوفون بلقاء مكة الكريمة ... مع أن الموت ما زال يلاحقهم تابعاً لهم، فكل يوم يدفنون الموتى، ومع ذلك لم يؤثر ذلك فينا شيئاً، وذلك من أجل الشوق والنية البالغة في بيت الله ...!

وفي وادي فاطمة تعرض أهل مكة للركبان بالفواكه والتمر واللحم والخبز وأنواع الأطعمة، وسلطان مكة الشريف محمد بن عون بعث خيولاً وبغالاً. والخيول مسرجات وعليها الديباج الطيب، كل سرج يتشحط كالنار، تراه أحمر بالذهب المصفى ينير ضوؤه كأنه شعار النار ... صنعة العجائب من الحرير الملون احتفاء بالركب الشامي الذي يستعد لدخول مكة السعيدة ... فوالله، يا سعد الدين، لو حضرت ذلك لتعجبت مما وقع للركبان من الفرح والنشاط والسرور ... وقام أهل مكة مع الركبان، فمتى وقفت على جماعة تلقتك بالتلبية: لبيك اللهم لبيك، ثم ترد أنت عليهم ... فلا تعرف، يا سعد الدين، شامياً من مغربي ولا مكي ... وهكذا، دخلنا مكة المشرفة عند طلوع الفجر ونحن على ظهور الإبل راكبين، ومن كان ماشياً أخذ بذيل، يعني جمل صاحبه، واهتزت مكة بالأصوات، وفاحت على وجوه السادة الحجاج بالروائح الطيبات، بعد أن

جاوزوا العمرة القديمة (الجعرانة) ... ثم منها للعمرة الجديدة (التنعيم) حيث وجدوا الخدام يحملون القناديل مشعلات فيها...

وكلما ازددنا نحو مكة ازداد علينا الحر والعياذ بالله، فالليل بارد أشد البرد، والنهار سخون أشد وأشد! وهكذا حتى وصلنا البيت الحرام، ومع أن زمان حجنا في الليالي[١] فلو وقع حجنا في الصيف ما أظن كيف ترى السلامة!

من أجل ذلك، ترى أن أهل الحجاز لا يلبسون في الغالب ما خلا الحزائم، وتبقى ضلوعهم عارية، وكل واحد منهم على رأسه خمار كالمرأة، لكن فيه تفصيل: فمنهم من يجعله سبنية[٢] حرير أحمر، وهو الغالب، ومنهم من يجعل السبنية أولاً على رأسه ثم عليها العمامة، ومنهم من يعكس بأن يجعل العمامة أولاً، ثم يلقي عليها السبنية الحريرية كما قلنا، ومنهم من يتخمر بخرقة الصوف، ومنهم من يلبس (الملف) والكتان، ومنهم غير ذلك.

وكل واحد بيده عود على هيئة كركوت، رأسه منحنٍ، وكل واحد خنجره على بطنه على ما أسلفنا ... ونساؤها كنساء الفلاحين يلبسن القشاشيب المصبوغات، إما خضراء أو سوداء، ومنهن من تجعل خرصاً من نحاس وفضة في أنفها للناحية اليمنى أو للناحية اليسرى تجعلها في خنفرتها (كذا !).

ومن هنا نخلص إلى أداء شهادة بأسلوبه العفوي البسيط عن سحنة أهل الحجاز، قال: أزعم أنه لا أحد على وجه الأرض شرقاً ولا غرباً أعطي بارقة ونوراً وصفاوة الخد مثل أهل الحجاز الذين يسكنون الحرمين ومن حواليهم من الأعراب، فلا ترى أحداً منهم إلا وأحبه قلبك من أجل الحسن والبارقة والصفاوة والصقالة التي أعطوها، فمتى وقف أحد منهم مع غيره إلا وترى نوره أغلب وأفضل من صاحبه..!

ويعلل الحيوني ذلك بأن المكان موطن مهبط الوحي وبزوغ الرسول ومنشؤه وأجداده

---

(١) الليالي تقع بين ١٢ ديسمبر الفلاحي و٢٠ يناير، يعني بين ٢٥ ديسمبر و٧ يناير/ كانون الثاني بالحساب الكريكوري.

(٢) السبنية: قطعة من قماش كانت المرأة بالمغرب تستر بها شعر رأسها، والنسبة إلى سبن موقع في ضواحي بغداد كانت تنسب إليه الخمر، واللفظ شائع بالمغرب، وقد جاء من مفردات ابن بطوطة في رحلته.

وأصوله وفروعه. ويخاطب صاحبه في المغرب قائلاً: «فوالله، يا سعد الدين، ما على ظهر الأرض نظير لهم إلا أن يكونوا أولاد دليم (بالمغرب) بوالاتن، لا يكون من يضاهيهم منهم، والله أعلم، وأما غيرهم من أهل المدن والبوادي فلا».

وبعد هذه الشهادة يخصص الحيوني باباً بكامله للحديث عن مكة المشرفة وما وقع له فيها من المحاسن، وهكذا فبعد أن ينتقد من سبقه من الرحالين الذين لم يكونوا صادقين في إيراد الأخبار على حقيقتها: «فمن مغفل وذاهل، ومن ناظر لحاله وما يتعلق به، وأحوال الحجاج مختلفة». وعلى الرغم من أنه لم يقم بمكة إلا ثمانية أيام (بس)؛ أي فقط، فإنه كان حاضر الذهن والبال، عينه تنظر، ولسانه يسأل، على ما ينقله لصاحبه في المغرب سعد الدين الذي يخاطبه بقطعة شعر يقول في أولها:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح

فأنت كما نثني وفوق الذي نثني!!

كما يوجه أبياتاً لوالد سعد الدين يقول في أولها:

إذا كان صرف الدهر فرّق بيننا

فإني على ما تعلمون مقيم!

ثم يذكر أنهم دخلوا مكة فرحين مسرورين بعد أن مروا ببئر طوى، حيث اغتسلوا، كما يقول ابن عاشر ... كانوا يعتمدون على فتى من مكة يدلهم على طرق مكة من مطرح إلى مطرح، وهم في غاية الشوق والفرح حتى وصلوا البيت العتيق، ودخلوا من باب السلام ... فلما وقفوا على الكعبة وجفت القلوب وسكت الركب واصفرّت الألوان، وفاضت الدموع شوقاً ومحبة..

وطافوا وسلموا على الحجر الأسعد بين ازدحام الخلق بين أسود وأحمر! وعبيد مكة واقفون على رؤوس الناس والأسواط بأيديهم فمن رام التعنّت ضربوه!

ويصف الكعبة وكسوتها وبابها، قال: والمسجد عريان لا فراش له، ومع ذلك ترى له "بشبشة" لا ترى لغيره أبداً، ومحاريب الأئمة الأربعة دائرة به ... وسمعت مؤذناً يؤذن في محراب الشافعي هو والله ثم والله ما سمعت أذناي ولا رأيت أصلح وأفصح منه

صوتاً، وأشهى نغمة، وأطرب صيغةً منه، فمتى قال: الله أكبر، خضعت رقاب الخلائق وأطرقت بآذانها تلذذاً لما يخرج من فيه، والمعطي الله لا غيره!!

وسلم الكعبة بإزائها لها دروج وعجلات، فمن أراد الدخول إلى الكعبة حركوه فيذهب إلى داخلها..

ويتحدث عن زمزم والحطيم والملتزم مستدلاً بقول ابن عاشر مرة أخرى ...

ومن الطريف أن نقرأ في مذكرات الحيوني أن الحمام في المسجد كثير، وقد رآه مراراً يطير فوقها: «ومن زعم أن الحمام لا يطير فوق الكعبة فلا يعمل بمقتضى قوله! لكونه - أي الحيوني - تحقق ذلك بالمشاهدة! وكأنه يرد على من روى أن الطير لا يحلق فوق البيت العتيق ابتداء من ابن جبير!!».

وقد أخبر أن شريف مكة محمد بن عون بنى لنفسه داراً في ناحية المعلّى تزيد على أربعين قنطاراً، وله خيول وجيش من العرب يتبعه هو وابنه، والنجائب تنقاد بين أيديهم، وسروجها كلها ذهب ولحومها كذلك ... ولا يد فوق يده في الحجاز، هو أميره بإذن من السلطان (العثماني)، وباسمه يخطبون...

ويعود إلى الوباء فيذكر أن الريح هب فقامت الموت في الخلائق تحصدهم كحصد الشعير، فلا ترى إلا الجنائز يأتون بها للبيت الحرام ... فيصلون عليها و"يشيلونها" للمقابر ... بعد أن يأذن الشريف كتابة بدفنها(١)..! فعلى أية مقبرة مررت إلا وتنظر الحفارين فيها مشتغلين بالحفر وآخرين بالدفن!! فلا يقع بصرك أماماً وخلفاً أو يميناً أو سائراً إلا على الجنائز عياذاً بالله ... ولا يقدر أحد أن يخطو خطوة إلا مع صاحبه خوف أن يصاب فيطيح في الطريق!!

وما رأيت أكثر من أهل مكة مالاً، فمتى مررت على قوم منهم إلا وتجد بين أيديهم كومة من المال بين ريال وذهب (ودواوين).

ويحدث عن السوق التي كانت بين الصفا والمروة ... والبيع سائر والإبل والحمير والخيل ... والزحام الكثير بين المشعرين.

---

(١) ظاهرة حضارية يجب تسجيلها.

ويتحدث عن سوق العطور التي تباع فيها أنواع الروائح من مسك وغالية، ومما لا أعرف من تلك الأنواع!

وهنا تباع إماء الحبش قال: ورأيتهم في هذا السوق ... أما الفائقات الجمال فقد أدخلوهن في "مطرح" داخل السوق، وأما المتوسطات ففي الخارج، وجعلوا على وجه كل واحدة شربية حمراء وينظر المشتري ما أحب ..! لهن عيون تبارك الله أحسن الخالقين !! فلا ترى إحداهن إلا وكأن عيونها كأعين ظباء.. سود واسعة، لكن الغالب عليهن الحمرة التي تميل إلى البياض، ولهن شعر أسود .. فيهن جمال موصوف، وقيمة الغالية منهن، على حسب قول المشترين، مئتا ريال، ثم مئة ونصف وهكذا.

أما العبيد الحبش، فوالله - يقول الحيوني - إن الإنسان ليستحيي أن يقول: هذا عبد، لما أودع الله فيهم من الحسن وجمال الصورة، إنهم أكثر جمالاً من الإناث ...

وأما الإماء السودانيات فلا ازدحام عليهن ... لأنهم بإزاء الحبشيات كأنهن خادمات بينهن فرق كثير...

وبعد هذه المعلومات يتخلص الرحالة للحديث عن المشاهد التي زارها ... مسقط رأس النبي عليه السلام ... وبيت السيدة خديجة الكبرى ...

ويتطرق الحاج الحيوني إلى موضوع طالما كان محلاً للنزاع والخلاف مطلع شهر ذي الحجة ثم يوم الوقفة بعرفة، والحجاج عادة يرغبون في أن تصادف الوقفة يوم الجمعة نظراً لما ورد في شأنها ... «وقامت الفتن بين أكابر مكة: مع الشريف محمد بن عون والركب الشامي، والركب المصري، فالأركاب قالت: الوقفة يوم الجمعة، والشريف ابن عون قال: الوقفة يوم السبت».

لم يلبث الرحالة أن سمع المدفع ينطلق من قصر الشريف معلناً أن الوقفة يوم الجمعة...

وهكذا انتقلت الأركاب إلى عرفات عبر المزدلفة التي تحتضن المسجد الذي ذكره الله في كتابه باسم المشعر الحرام ... ثم عرفات بعد المرور بين المأزمين ...

ويبدو أن الحيوني تذكر بعض المعلومات التي نسي ذكرها وهو يتحدث عن الإماء

وعن سوق مكة، وهكذا نجده يقول: إنه رأى رجلاً من قبيلة (سباع) المغربية يشتري حبشية سداسية بخمسين أو ستين ريالاً.

قال: والكتان في مكة على مختلف الألوان، ويأتي من السند والهند، وبر النصارى، وبر الأتراك ... وقلوب العربان كلها تهوى مكة، وأناسها أجمل ما يكون عليهم مسحة وبريق خصصهم الله بهما كما أسلفنا.

وعندما ذكر الهنود قال: إن الإنجليز أخذهم فهم الآن تحت دولته، والعياذ بالله! قال: ثم أخذ الإنجليز أيضاً مواطن في اليمن حتى لم يبق بينه وبين مكة إلا خمسة عشر يوماً أو أقل، قال: والحاصل أن النصارى فاضوا في المشرق والمغرب وطلعت دولتهم، والله يعصمنا من البلاء!! فلا ترى مسلماً في المشرق يقدر أن يرد الكلام على النصراني أبداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

بعد هذا يعود إلى عرفات ليقول: إنه جبل صغير جداً، وفوقه برجة مبنية فيه، مبيضة بالجير، وفيه محراب ... وفيه عين زبيدة دائرة به ... ودارت الأركاب بالجبل، تمد عينيك يميناً وشمالاً فلا ترى إلا القياطين والخيام ... وتحولت مكة كلها للجبل ... وذهبنا إلى مسجد نمرة ... وقام الخطيب وخطب للجمعة، وجمعوا بين الصلاتين ... وأخذ الحجاج في الدعاء لأنفسهم، ولم ينس الحيوني الدعاء لصاحبه (سعد الدين) الذي تشخصه بذاته مع والده في ذلك المقام...

ويحكي الحيوني عن حادثة غريبة وقعت في هذا اليوم الجمعة، أن الخطيب لم يحضر، وما زالوا ينتظرونه حتى غربت الشمس!!

وفي اليوم الموالي عادوا للمسجد المذكور، حيث وقفوا مرة أخرى فوق ظهور الإبل، والإمام يخطب، والناس يدعون الله إلى أن غربت الشمس.

وهكذا نلاحظ أن في الحجاج من اقتنع بأن الوقفة إنما كانت يوم السبت، وليس الجمعة، فوقع الجمع بين الرأيين تفادياً للفتنة التي أشرنا إليها من قبل...

وعاد الناس إلى المزدلفة والمدفع يدوي ... وكل ركب بطبله، والركب الشامي مع المصري يتنافسان بضرب المدافع، والحراقيات تطيش في السماء، والشريف يميل للركب

المصري، ولم نترك في الجبل إلا الموتى الذين تسلط علهم الطاعون فتركهم صرعى!

ومن المزدلفة التقطوا أحجار رمي جمرة العقبة الكبرى ... ورحلت الأركاب وسارت لمنى، وصلوا العيد ونحر من نحر وذبح من ذبح، أما أنا - يقول الحيوني - فما نحرت وما ذبحت!!

ويتحدث عن نزوله لمكة لطواف الإفاضة وما تبع ذلك، قبل أن يعود إلى منى والموت كالحصاد ... ولقيت ركب التواتي، وكله مضروب بالوباء!!

ولم يسلم الحيوني الذي كان يعيش في خضم هذه المشاهد المفزعة، لم يسلم من أعراض المرض فقد تحرك بطنه في تلك الليلة. وكلما تقدم الوقت ازداد وجعه ..! وأمسى على حال إنما يتمناها المسلم للنصراني على حد تعبيره!!

ويودع الرحالة مكة في اتجاه المدينة وهو على هذا الحال بين يأس ورجاء، وفي ظروف كانوا يتعرضون فيها لقطاع طريق لا يرحمون، استولوا على بعض إبل الركب إلى جانب انشغال الناس بالحرارة والعطش، وانشغال آخرين بدفن الموتى الذين يسقطون كل يوم.

تلك كانت ملخصات لما ورد في هذه الرحلة الحجازية الفريدة التي حررها مؤلفها بعد أن استقر به الحال في مصر التي اختفى فيها أثره، فلم نعرف شيئاً حتى الآن عن تاريخ وفاته؛ ولذلك أثبتنا في صدر هذا العرض تاريخ قيامه بمناسك الحج ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م.

في الغرب الماء تارة بعد يوم وتارة بعد يومين والحجيج يمشون بالمكشر والما

[illegible]

هكذا حتى وصلنا الوشل [illegible]

[illegible]

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الحيوني

ابن بابا التيجاني ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م

هذه الرحلة للشيخ التيجاني بن باب أو بابا « العالم الأوحد الذي أغار ذكره وأنجد »، المتوفى بالمدينة المنورة أوائل العشرة التي بعد الستين ومئتين وألف.

أخذ التيجاني عن والده ابن بابا، وعن والدته العالمة خديجة بنت المختار بن عثمان.

وقد توجه إلى المشرق وهو في عنفوان الشباب، ونزل من مراكش إلى الجديدة؛ حيث ركب البحر إلى طنجة، لكنه قرر ألاّ يحج بحراً؛ نظراً لما أصابه من ميد شديد! وهكذا عاد ليأخذ طريقه براً عام ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م.

والمهم أن نذكر هنا أنه سجل رحلة التزم فيها ذكر من لقيه من الأعلام في وجهته لبيت الله الحرام، وابتدأ بأشياخه الذين قرأ عليهم، كوالده ووالدته وغيرهما. رآها ـ أي الرحلة ـ عنده أحمد بن الأمين الشنقيطي صاحب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط(١) وقد كمل منها ـ كما يقول الأستاذ ابن الأمين ـ مجلداً قبل أن يصل إلى البلاد المشرقية... ومعنى هذا أن المجلد الثاني كان يعنى بوجود التيجاني في الحجاز بالحرمين الشريفين؛ حيث نرى أن موقفه بعرفة صادف الجمعة (٢١ يناير). ويخبرنا صاحب الوسيط أن العلامة المغربي عبدالجليل برادة المجاور بالمدينة المنورة الذي كان يتوفر على نحو خمس لغات يلقن بها تلامذته الواردين على الحرمين الشريفين من كل حدب وصوب حدَّثه بأن الرحالة التيجاني أقام بالمدينة سنة تزوج فيها إحدى بنات أهل المدينة ... ومن المعلوم أنه كان لشنقيط ركب مهم على نحو ركب سجلماسة ومراكش وفاس، وقد كان الركب يصل أحياناً إلى خمسة آلاف حاج على الرغم من بعد الشقة وقلة الوسائل(٢).

---

(١) أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط. طبعة ثانية، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م، ص ٣٤، ٦٩، ٧٠، ٧١.

(٢) الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٧٨م، ص ١١٠ ـ ١١٣. د. محمد المختار ولد باه: الشعر والشعراء في موريتانيا، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م.

ابن طوير الجنة ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م

هذه رحلة تحمل عنوان (المنى والمنة لجامعها ومنشئها الطالب أحمد المصطفى ابن طوير الجنة)، وهو الشيخ الشنقيطي التيشيتي الواداني المتوفي سنة ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م، وقد استغرق في رحلته قرابة خمس سنوات من سنة ١٢٤٥ إلى سنة ١٢٥٠ هجرية، ومر خلالها بالمغرب ذهاباً وإياباً على عادة معظم الحجاج الواردين من الصحراء أو بلاد السودان، فكانت فرصة ليتحدث الرحالة عن المغرب أيام السلطان أبي زيد عبد الرحمن ابن هشام الذي استقبله وأركبه من العرائش إلى الإسكندرية؛ حيث سافر من سويس إلى ينبع البحر مقدماً الزيارة ... ومن المدينة سافر إلى مكة فوصلها يوم سادس ذي الحجة ١٢٤٥هـ (٢٩ مايو ١٨٣٠م) ليقوم بالمناسك من وقف عرفات والمزدلفة ومنى...

والمهم أن نشير إلى أن حديث الشيخ أحمد عن المناسك كان حديثاً في إطناب وتفصيل مع إشارات إلى التاريخ والفقه والحديث والتفسير تتعلق بالأعمال المطلوبة شرعاً من الحاج ...

ولا بد أن نشير إلى شخصية مهمة من أساتذة رحالتنا المذكور، وهو العلامة النحرير الشيخ سيدي عبدالله ابن الحاج إبراهيم ابن الإمام محنض أحمد العلوي ... الذي استقدمه الملك محمد بن عبدالله (محمد الثالث)، وأوفده إلى الديار المقدسة على ما أسلفنا عند الحديث عن مصاهرة ملوك المغرب لملوك الحجاز ... وقد تحدث عن الرحلة باختصار العباس بن إبراهيم في تأليف الإعلام[١]، ثم الأستاذ عبد القادر زمامة في مجلة «البحث العلمي»[٢]، وقد قام زميلنا الأستاذ البريطاني هـ. ت. تُوريس الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية التابع لجامعة لندن بتحقيق الرحلة وترجمتها إلى اللغة الإنجليزية تحت عنوان:

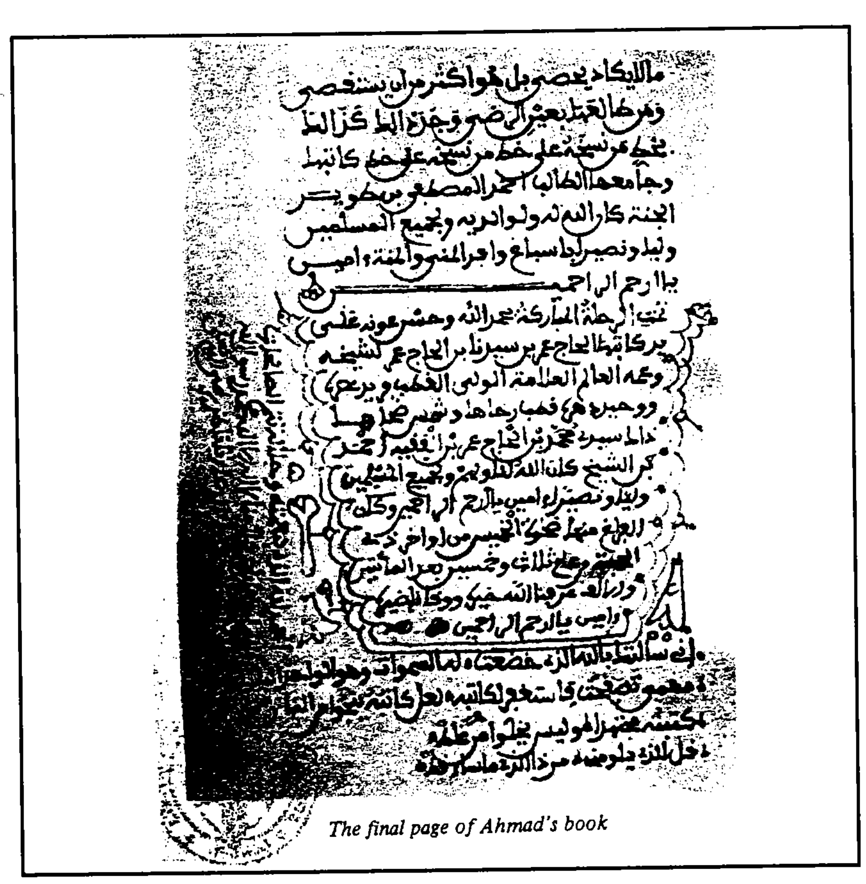
---

(١) الإعلام، المطبعة الملكية، ١٩٧٥م، ج ٣، ص٢٦٠ - ٢٦٢.

(٢) العدد ٢٨، ص٢٩١- ٣٠٤، سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م.

The Pilgrimage of Ahmad Son of the Little Bird of Paradise

وعنه أخذنا صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة عند زيارتنا للمعهد المذكور في أواخر عام ٢٠٠٢م ... وقد علق على هذه الترجمة الزميل د. أبو القاسم سعد الله في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق(١)، ثم الزميل الأستاذ الدكتور محمد المنصور كلخة في مجلة المناهل(٢)، وأخيراً قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بتحقيقها، وقد صدرت عن المؤسسة الوطنية بالجزائر.



The final page of Ahmad's book

الصفحة الأخيرة من مخطوطة رحلة ابن طوير الجنة

(١) ج٣، مجلد ٢٤، ص ٦٨٥ - ٦٩٣.

(٢) العدد ١٧، ص٣٩٢ - ٣٩٨، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

أبو العلاء إدريس ١٢٢٥هـ / ١٨٠٩م
١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م
١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م

نحن أمام رحلة أو رحلات لكاتب لا نعرف عنه إلا أن اسمه إدريس، وأن له مخطوطة تحمل عنوان: «الابتسام عن دولة ابن هشام»(١).

ومع أن أحداً ممن اهتموا بالرحلات الحجازية لم يتحدث عن أبي العلاء إدريس كرحالة، ولا عن مخطوطته كمصدر، إلا أننا وجدنا في هذه المخطوطة معلومات ثرية عن رحلة الرجل الأولى سنة ١٢٢٥هـ والثانية سنة ١٢٣٨هـ والثالثة ١٢٦٦هـ عندما كان يقيم بمصر بضع سنوات، وما تبع ذلك من اتصالات بالعلماء في مكة، وزيارات لبعض هؤلاء العلماء المشارقة إلى المملكة المغربية حيث عقدوا لهم مجالس علم بالمغرب ...

وهكذا نقرأ في المخطوطة من المعلومات ما يتعلق بالأمر الذي وصل من إستانبول - سنة ست وعشرين ومئتين وألف / ١٨١١م - إلى محمد علي يأمره بالمسير إلى الحرمين لقتال الأمير سعود الوهابي، حيث يحاول مؤلف الرحلة تقديم الأمير سعود حسبما سمع من أهل محمد علي... إنه كان يضرب الناس إذا رآهم يقرؤون (دلائل الخيرات)! وكان أصحابه لا يسمحون لأحد بزيارة قبر النبي ﷺ، وإن وجدوا أحداً ضربوه إذا كان آفاقياً... قال المؤلف: ومن ذلك ما وقع لوالدنا - رحمه الله - في سنة خمس وعشرين ومئتين وألف / ١٨٠٩م، وكنت معه، لقد وقف والدي يشتري من عطار شيئاً، فتخالفا فيما بينهما في أمر، فقال والدي لصاحب الحانوت: يا هذا صلِّ على النبي ...! فضربه رجل من الوهابية كان واقفاً يسمع بعصا على ظهره! وقال له: يا مشرك، تقول: صلِّ على النبي. فجاءنا الوالد مذعوراً خائفاً على نفسه بسبب الضربة، فما استطعنا بعد

---

(١) د. التازي: حول مخطوطة «الابتسام عن دولة ابن هشام»، مجلة المناهل المغربية، عدد ٣٦، يوليو ١٩٨٧م.

ذلك أن نظهر في المدينة خوفاً من الوهابية... قال: وكان الأمير سعود ينهى الناس عن شرب الدخان وحلق اللحى..!

ومن جهة أخرى فقد قال الرحالة معلقاً على تواضع الأمير سعود: إنه لم يمكن مهتماً بمظاهر الملك والحكم والسلطة، ولم يكن (سعود) يفعل شيئاً من هذا الناموس الذي كوّن للملوك، فإذا رأيته ظننت أنه واحد من قومه، قال: وكان الوهابيون أشد بغضاً للأتراك.

ويعود لتتبع حملة جيش محمد علي ضد الوهابيين الذين هزموا الجند المصري بقيادة الأمير أحمد طوسون، وهذا الأمر الذي دعا محمد علي إلى تعزيز الحملة بابنه إبراهيم؛ حيث انحصر الوهابيون في "الدرعية" لمدة ثلاث سنين إلى أن تم الصلح فدخلها الأتراك وهدموا أسوارها[١].

حديث طويل عن الحركة الوهابية إلى ترحيل الرئيس المضايفي لمصر، ويختم بالتعليق على أحد الشيوخ التونسيين بالجامع الأزهر، ويسمى أبا الحسن علي الميلي، الذي نراه يحمل حملة عنيفة على الشيخ حمدون بن الحاج[٢] بسبب قصيدته في مدح الأمير سعود الوهابي... وكان سبب القصيدة - يقول المؤلف - أن أبا إسحاق المولى إبراهيم ابن السلطان مولانا سليمان لما أراد التوجه لأرض المشرق بنية الحج ظهر لأبيه أمير المؤمنين أن يوجه معه كتاباً يستعطف فيه الوهابي؛ لأنه كان أمير مكة في ذلك الوقت، وخاف أن يمنع ولده من الوقوف بعرفة (كذا!).. فلما كتب له الكتاب بعث معه قصيدة يمدحه بها[٣].

ولم يفت أبا العلاء إدريس أن يتحدث في موضع آخر عن الشيوخ الذين لقيهم بمكة، وهذا عنصر يهمنا كذلك ونحن نتحدث عن انطباعات الرحالة المغاربة عن مكة المكرمة.

---

(١) خصص المؤلف حيزاً كبيراً في كتابه «الابتسام» للحديث عن أصل الحركة الوهابية وأنصارها وأنهارها ومعاركها ضد الأتراك، انظر صفحات ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠. د. التازي: حول مخطوطة الابتسام السالفة الذكر.

(٢) تراجع رحلة المولى إبراهيم (١٢٣٤ / ١٨١٩).

(٣) عرف عن السلطان المولى سليمان أنه كان يشجع الشعراء، وقد منح الشيخ إبراهيم الرياحي مئة دبلون DOBLON على ما تقوله مخطوطة الابتسام، (ص٥٢) من المخطوطة.

لقد اغتنم أبو العلاء الفرصة وهو بالحرمين الشريفين أن يعطي لمعلوماته طابع المصداقية وصحة الرواية وعلو السند، ومن هنا وجدناه يبحث عن مجالس العلم هناك.

وهكذا يفسح المجال ليقول عن نفسه: وأدركت بمكة - شرفها الله - العلامة الشيخ محمد صالح، كان فقيهاً شافعياً، وكان إمامنا ببيت الله الحرام، وكان ممن يشار لهم بكمال الدين وتمام المروءة ورفيع الهمة والدؤوب على العبادة، نحيل الجسم ضعيف الصوت، وكنت أحضر مجلسه في الحرم المكي بين العشائين، وكان يقرئ الناس صحيح البخاري رواية...

قال أبو العلاء: ومن علماء مكة المشاهير الشيخ عبدالحميد سراج، وكان أديباً مشاركاً فصيحاً، له تعبير في القراءة أحسن تعبير. وحضرت مجلسه في قراءة التفسير فما رأيت أفصح منه، وكانت له يد عند أمراء مكة ...

ويهتم أبو العلاء إدريس بموضوع الشرافة وحكم الأشراف بمكة، فيتحدث عنه في موضعين اثنين[1]. عن الاضطرابات التي شهدها الأشراف في أثناء الأربعينيات، لقد اتفقوا على ألا يتفقوا!

وهنا نقرأ عن فصول محزنة في تاريخ مكة مما أشار إليه معظم الذين تناولوا تاريخ مكة في هذا العهد[2]، ولكنهم لم يتناولوه بالتفصيل الذي تناوله به أبو العلاء إدريس في تأليفه «الابتسام». وهكذا فإن هذا المؤلف قال: وفي أيامه (محمد علي) انقرضت دولة ذوي زيد، وهم أشراف مكة الذين كانوا بها ملوكاً، وآخرهم عبدالمطلب بن غالب، تولى بعد ابن عمه يحيى بن سرور مدة يسيرة، ثم قامت عليه الفتنة فقاتل حتى غلب وفر هارباً لدار الخلافة، فهو فيها إلى الآن. يقول صاحب الابتسام: وذلك سنة ست وأربعين ومئتين وألف (١٨٣١ - ١٨٣٢م)..

وكان قبله ابن عمه الشريف يحيى بن سرور، كان هو المتولي مكة، شرفها الله، فقامت عليه أشراف مكة، وأشراف اليمن، ومن تبعهم من الأعراب، وتقاتل الفريقان

---

(١) المخطوط، ص ٦٢ - ٩٨.

(١) نذكر على سبيل المثال السباعي في تاريخ مكة ص ٥١٦.

بداخل مكة وخارجها ... وسبب قيامهم أنهم حقدوا عليه، وأضمروا له السوء في صدورهم لما قتل ابن عمه شنبر بداخل المسجد الحرام(١) ...

ويحكي أبو العلاء كسبب لذلك كلمة قالها شنبر مخاطباً ابن عمه عندما كانا يتكلمان ذات يوم وتراجعا في الحديث، فقال له شنبر: (يا ابن منكوحة الدرج!) ومعناه يا ابن الأمة التي شأنها أن يطأها سيدها في الدرج، فلما سمع منه هذه المقالة توغر قلبه، وجعل يرصده وينتظر الانفراد به من إخوانه وأبناء عمه؛ لأنه كان من أعيان الأشراف(٢).

واستولى محمد علي على أرض الحجاز أقصاها وأدناها ... فلم يبق له منازع ولا معارض، وغلب على أعرابه بالسياسة، فمن استحق القتل تحيّل عليه وضرب عنقه! ومن استحق الإكرام أكرمه، إلى آخر النص الذي استوعب منطقة نفوذ محمد علي...

وتسنح لمؤلفنا فرصة للرحلة إلى مكة من أجل أداء مناسك الحج عندما كان مقيماً في مصر من أجل الدراسة حيث راح صحبة شيخه.

وهكذا تتحدث المخطوطة عن اغتنامه الفرصة سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م لقصد بيت الله الحرام مرة ثانية، وهنا ستسنح له الفرصة أن يتعرف إلى شخصية مغربية علمية سياسية كبرى كانت تعيش بمكة على ذلك العهد ... ويتعلق الأمر بالشيخ الشهير أحمد بن إدريس، وهو من (مزورة) على مقربة من مدينة العرائش، وأمسى له أتباع كثيرون في اليمن والسودان(٣).

قال أبو العلاء:

ثم إني سافرت إلى مكة سنة ثمان وثلاثين ومئتين وألف حاجاً، فقدر الله باجتماعنا على الفاضل الخير العابد الناسك الحافظ المحدث أبي العباس الشيخ سيدي أحمد بن إدريس، أصله من المغرب... من ميسور(٤). ثم انتقل إلى مكة (١٢١٤هـ) واستوطنها

(١) تاريخ مكة: مصدر سابق، ص ٥١٥ - ٥١٧.

(٢) المخطوط رقم ٦٢ - ٦٣، ص ٩٨.

(٣) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٩، ص ٥٧.

(٤) يقول أبو العلاء: إن الشيخ أحمد بن إدريس من ميسور، بينما البحث العلمي يثبت أن أصله من (مزورة) على مقربة من مدينة العرائش. انظر أوفاهي OFAHEY لندن.

(نحو ثلاثين سنة) وانتشر أتباعه في اليمن والسودان، وكان مسموع الكلمة، وانتقل في آخر عمره إلى اليمن سنة (١٢٤٦هـ).

كان ابن إدريس يجلس في المسجد الحرام بعد صلاة الجمعة، فيجتمع الناس عليه، يستمعون منه الحديث والوعظ، وكان يفتي الناس بالرأي، ولا يقلد واحداً من الأئمة الأربعة، إذا سئل عن حكم قال: قال رسول الله ﷺ . . .

قال أبو العلاء: تلاقيت معه في جماعة من أهل فاس من بيته بأعلى مكة[١] . . .

وكان من اهتمامات أبي العلاء في هذه المرة فيما يتصل بالحرم المكي تسجيله لحريق شب في أستار الكعبة المشرفة بعد النزول من عرفات هذه السنة؛ ثمان وثلاثين ومئتين وألف، بسبب شمعة كانت موضوعة على عتبة باب الكعبة عند صلاة العشاء بعد نزول الناس من عرفات والوقت في عز الحرارة (أغسطس ١٨٢٣م).

وبعد عودة أبي العلاء إدريس من هذه الحجة استمر مقيماً بالمغرب؛ حيث كان يزاول وظيفة كاتب في بلاط السلطان أبي زيد المولى عبدالرحمن، ولكن مع ذلك ظل على صلة بالحجاز متتبعاً أخباره، ومن هنا وجدناه يردد أصداء الوباء العظيم الذي شاهدته مكة سنة ست وأربعين ومئتين وألف أيام الموسم؛ حيث مات خلق كثير، ويقول مفسراً للوباء: وهو ريح ما رأى الناس مثله ولا سمعوا به، قاتل من حينه، ويسمونه عندنا في المغرب بأسماء (الكوليرا)! والريح الأصفر، وبوقليب، قال: ويسميه أهل الحجاز باللطف، والشوطة، إذا أصاب الرجل تغيّر لونه، واسودّ جفن عينيه، وجعل يتقيأ من أعلى، ويسيل من أسفل، ومن الناس من يشتكي مع ما ذكر وجع رجليه، ويموت في الحين، وحدث عندنا بفاس سنة خمسين ومئتين وألف (١٨٣٤- ١٨٣٥م)[٢].

وكان من أخبار مكة بالمغرب الأقصى ما حكاه أبو العلاء هذا في «الابتسام» عن ورود ضيوف من مكة على العاهل المغربي السلطان المولى أبي زيد عبدالرحمن، ويتعلق

---

(١) أفاض في الترجمة للشيخ ابن إدريس، انظر ص ٦٨ - ٦٩ من المخطوط. ومن المعلوم أنه توفي سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م. الزركلي: الأعلام، ج١، ص٩٠.

(2) Dr. Renaud: Rechercles sur les epn dimre du maroc Flespss.

الأمر بأبي الربيع سليمان بن محمد الشيبي القرشي المكي الذي نعته أبو العلاء إدريس ببواب بيت الله الحرام، فأقام في عز وإكرام سنتين كاملتين قبل أن ينتقل إلى طنجة ويقيم بها أربعة وعشرين يوماً حيث أدركه أجله هناك، رحمه الله ...

قال: ومن الذين وردوا على المغرب من الديار المشرقية العلامة أبو عبدالله الشيخ محمد صالح البخاري الذي عرفته مجالس مكة كذلك، جاء إلى المغرب صحبة زوجته، فأقام بالمغرب بفاس سنة ... وانتفع الناس بعلمه كثيراً، واستقبله السلطان المولى عبدالرحمن في بستانه الكبير المعروف بجنان أبي الجنود، وكان هذا البستان يفصل بين فاس القديمة وفاس الجديدة[1].

ولم يلبث أن قرر أبو العلاء أن يقوم برحلة ثالثة إلى المشرق سنة ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م. لقد أصبح ميالاً إلى الزهد والعبادة، خصوصاً «لما خالط سواد الشيب بياض المشيب، وأسرع الوهن في العراقيب[2]، وتدانى البعيد، وتوالت عيوب الكبر في مزيد، تاقت النفس لمربع تحطم فيه الذنوب، وتناثر فيه العيوب، حيث نزل الوحي من علام الغيوب، واختارت مجاورة من يؤمن جاره، ولا تخذل أنصاره، وهو رب الأرباب، ومعتق الرقاب، وميسر الحساب، وما يذكر إلا أولو الألباب، هجرت لأجله الأوكار، ونبذت ورائي جميع الأوطار! وتخليت عن خدمة ملك الأرض ملتجئاً لجناب ملك الملوك في الطول والعرض، فلما نازعني في ذلك فكري، فارقت وكري، وما أغرني من سرني، ولا أخرني من أكرمني، ولا ساءني من سامني، ولا ضامني من لامني، ولا عابني من عاتبني، ولا ضرني من صدمني، ولا ندمت على ما هدمت، ولا فهت بما سمعت، ولا أثرت على من أحببت، فإلى باب الله قلبي وجهت، وبرحابه نزلت، وعليه في أموري توكلت، وبحبله اعتصمت، وبعزه تعززت، وعليه بأثقالي حططت، لعلمي أنه لا يخيب راجيه، ولا يكل من توكل عليه، فسبحت في البراري، ونسيت أنسي وقراري، وعلق قلبي بقراري،

---

(١) كان البستان محروساً بالجنود، فعرف باسم جنان أبي الجنود، ومن هنا سمي الباب المعروف لفاس بأبي الجنود الذي تحرفه العامة إلى بوجلود!

(٢) المخطوطة، ص ٢٦٨.

وتمثلت بقول الحريري في مقاماته:

وقلت ألائمي أقصر فإني
سأختار المقام على المقام!!
وأنفق ما جمعت بأرض جمع
وأسلو بالحطيم عن الحطام!!

ولما عزمت على الانتقال من فاس، وكنت أخا إفلاس ومنزع وسواس، فقلت: وليي الله الذي يتولى من يتولاه، فلا أحذر الفقر، ولا أواخي من يحذرني منه ولو في سماء المجد استقر، الشيطان يعدنا بالفقر، ويوقعنا في الزلل، والله يرزقنا من حيث لا نحتسب، فعليه نتوكل ...».

وبعد أن يخبرنا بأنه خرج من فاس يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ست وستين يتحدث عن المحطات التي أخذ يسلكها، إلى أن وصل إلى طنجة بعد سبعة أيام، إلى أن ركبوا في سفينة إنجليزية ... إلى أن وصلوا للإسكندرية ... أكثر أرض الله عمارة ... ثم إلى مصر القاهرة؛ حيث يتحدث عن مشيدات المرحوم محمد علي باشا، التي يهتم بإتمامها ابنه عباس باشا... لقد أقام بمصر شهرين كاملين، لكنه لم يتمكن من الاجتماع بأحد من العلماء إلا مع الشيخ محمد عليش... وفي آخر شوال توجهوا للسويس التي كانت تعيش حالة فزع وخوف بسبب الوباء الذي أصاب البلاد ... ثم يسر الله الركوب في البحر فركبوا من ترعة السوس[1] في ساعية من السواعي فيها من الحجاج أربعمئة أو تزيد ...

ويخبرنا أنه نظراً لكونه لا يطيق البقاء على الإحرام طويلاً فإنه تمتع بالعمرة، وكان دخولهم لمكة يوم الخميس سابع وعشرين من شهر ذي القعدة ١٢٦٦هـ ...

وشمل الفزع سائر الناس لسماعهم بخبر الوباء بمصر، وتأخر الكثير عن الوقوف بعرفة..! وكان الوقوف يصادف الثلاثاء (١٥ أكتوبر ١٨٥٠م) والموت يدب في الناس، ولكنهم لم يشعروا به لانشغالهم بالوقوف! فلما حلوا بمنى شاع الموت فيهم شيوعاً كثيراً

---

(١) المخطوطة، ص ٢٧٣.

... واختل النظام واشتغلوا بدفن موتاهم! وكانوا يتخوفون من الخروج من أماكنهم لرمي الجمار!! ومكث الناس يوم النحر وثانيه، وارتحلت الركاب في اليوم الثالث، وكان يوم جمعة .. والناس يموتون في طرق منى فلا يجدون من يواريهم!!.

وبعد جواره بالمدينة طوال سنة قصد مكة - شرفها الله - ودخلها يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ١٢٦٧هـ، وكان حاكم مكة آنئذ هو عبد المطلب بن غالب(١) من ذوي زيد الذي دخل مكة ماشياً وطاف وسعى ... ثم أزال الفضة التي كانت بالحجر الأسود، وجعل مكانها ذهباً، وبيض قبة زمزم، ولون السواري المحيطة بالمطاف بالألوان(٢).

ولما قدمت مكة أنشدت أبياتاً بعثت بها للشيخ سيدي محمد السنوسي:

يا مرشداً ألف العبادة والتقى
ومداوياً يأتيه كل عليل
ومشيداً ركن السيادة والهدى
بوظائف التكبير والتهليل
وإذا أتيت لبابه نلت المنى
أبداً تفوز وتهتدي بدليل

وأخيراً، نذكر من غريب معلومات أبي العلاء إدريس عن مكة المكرمة أنه تحدث عن ظاهرة طبيعية لم أقرأ عنها في مصدر من المصادر، ويتعلق الأمر بخسوف في القمر ... وذلك يوم الجمعة سادس عشر من صفر من سنة سبع وستين...

قال أبو العلاء: وبعد صلاة المغرب من يوم الجمعة انكسف البدر قدر النصف أو أزيد، واستمر كذلك نحو الساعتين، ثم انجلى الخسوف، وعندما عاين الناس ذلك فزعوا للصلاة، وأذن المؤذنون على المنارات، وكانوا يقولون: الصلاة جامعة، فصعد الخطيب على المنبر بعد أن صلى ركعتين بقيامين وركوعين ثم خطب(٣)....

(١) تلاحظ خروم في نص المخطوطة.
(٢) السباعي: تاريخ مكة، ص ٥١٧.
(٣) المخطوطة، ص ٢٧٨.

العيون وبات في بدمعه لمراكشة فلما اقلع نزل بها والضيافة والاكرام
وقدم لدار الامارة فتلاقى مع السلطان وبعث له اولاده الزيارة
واكرم عشر صفر وتوجه لبلده وذا السنة الثلاث وستين

ذكر رحلتنا الى المشرق الرحلة الثالثة

وبعد لما انقضت سواة الشباب بحلول المشيب
واسرع الرحيل في العراقيب وتراني التعبير وتوالت
عيوب الكبر في مزيد تامت النفس لربح تحكم مبدا الذنوب وتدارك
مبدا العيوب حيث نزل الوحي من علام الغيوب واختارت
مجاورة من بها من جاره ولتنزل انصاره ومهوى الاحباب
ومعتق الرقاب ومبسر الحساب وما يذكر الا اولوا الالباب
هجرت لاجله الاوكار وتركت ورائي جميع الاوطان وتخليت
عن خدمة ملك الارض الى الملك ملتجئا بحماء ملك الملوك
في الطول والعرض فلما نازعني في ذلك منكر فارقت وكري وما
غرني من سرني ولا اخرني من اكرمني ولا سائني من ساءني
ولا اقامني من لامني ولا عاتبني من عاتبني ولا صرفني من صرفني
ولا قومت على ما عزمت ولا اهتممت بما سمعت ولا اثرت على من
احببت فالى باب الله قلبي وجهت وبرحابه نزلت
وعليه في اموري توكلت وبحبله اعتصمت وبعزه تعززت
وعليه بارتغابي عطفت لعلمي انه لا يخيب راجيه ولا يكل
من توكل عليه فمن ينعت في البرار ونسيت اتساع وقرار
وعلى قلبي يغار ولما عزمت على الانفصال من فاس

وتمثلت بقول الحريري في مقاماته بقوله
وقلت لا لمن اودعه سرا خفت المعلم ما المغرم
وانعى ما جرحت بادر جرحي واسلوا ما لحنيم المقام

وقد

إحدى صفحات مخطوطة رحلة أبي العلاء إدريس

أنجال السلطان مولاي عبدالرحمن ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

لقد شهد موسم الحج لسنة ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م رحلة من نوع كان مثيراً للانتباه، تحدثت عنه عدة مصادر عربية وأجنبية كذلك، ويتعلق الأمر بحجة أبناء السلطان المولى عبدالرحمن التي عرفنا عنها في رحلة الغيغائي الآتية الذكر، وكانت بمنزلة تغطية معاصرة لهذه الحجة بما تضمنته من معلومات عن الأفراد وعن الأماكن التي تمت زيارتها على نحو ما قرأنا عنها في كتاب «الجيش العرمرم» تأليف أكنسوس، وفي كتاب «الاستقصا» تأليف الناصري، علاوة على المصادر البريطانية التي تحدثت عن مساعدة بريطانيا في نقل الأمراء إلى جدة. لقد كان العاهل طلب من بريطانيا بعد الاتفاقية البريطانية المغربية أن تعدّ له سفينة لتنقل أنجاله مع الوفد المغربي الكبير الذي كان يصحبهم ... وهكذا جعلت السفينة (H.M.S. VULURE) تحت تصرف المغرب حيث أبحرت يوم الأول من شوال (١٥ مايو).

قد كان الحديث عن هذه الرحلة يستحق هذا الاهتمام؛ وذلك لما احتف به من تطورات لم نقرأها في الرحلات السابقة.

وهكذا يقول أكنسوس:

وكان ركوب الأمراء من طنجة في مراكب الإنجليز، فلما بلغوا إلى الإسكندرية تلقاهم صاحب مصر بغاية الفرح والسرور، وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهاها، وأبهجها وأشهاها، حيث أشرف بنفسه على زيارتهم لكل المعالم التي تعلقت رغبتهم بزيارتها... قبل أن يأخذوا طريقهم عبر بحر القلزم إلى جدة؛ حيث قصدوا مكة وقضوا مناسكهم وشفوا غلتهم من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة من الطواف بالبيت الحرام والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة... وزيارة المشاهد المباركة...

كما نجد الناصري يقول:

وفي سنة أربع وسبعين ومئتين وألف بعث السلطان المولى عبدالرحمن أولاده إلى الحجاز بقصد قضاء فريضة الحج، وهم المولى علي وإبراهيم وعبدالله وجعفر وابن عمهم

المولى أبو بكر بن عبدالواحد بن محمد بن عبدالله . . .

وقد بالغ السلطان المذكور في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم مثله لإخوانهم الذين حجوا قبلهم، لا من الأموال ولا من الرجال ولا من الأدوات والمراكب والمرافق العديدة[1].

وقد بعث معهم من الأموال شيئاً كثيراً لأشراف الحرمين، ولخواص معينين من الفقهاء والمجاورين . . .

ووجه معهم أكابر التجار[2] والأمناء العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم، مثل الحاج محمد بن الحاج أحمد الرزيني التطواني، والحاج محمد بن جنان البارودي التلمساني، وبعث معهم قاضي مكناسة الفقيه العلامة السيد المهدي ابن الطالب بنسودة المري الفاسي، وأخاه الفقيه العلامة السيد أحمد في جملة الفقهاء الذين يعلّمون الأمراء.

ويقول الناصري في «الاستقصا»: إن العاهل المغربي أخبر الأمين الرزيني أن المال الذي عينه للنفقة على الأمراء المذكورين هي أموال جمعت من حلال، بعضها من الأصول التي كان يمتلكها السلطان بتافيلالت، وبعضها من غيرها مما هو حلال.

ومن الطريف أن نقرأ عن الرسالة الطويلة المكتوبة التي وجهها الملك إلى أبنائه والتي تتضمن كثيراً من الحكم والنصائح العملية التي يحتاجون إليها، وهي تحمل تاريخ ٦ رمضان ١٢٧٤هـ / ٢٠ إبريل ١٨٥٨م.

«اقدروا قدر هذه الوجهة التي قصدتموها، واعرفوا حق هذه العبادة التي يممتموها، فتوجهوا لها بحسن النية . . . وأخوكم مولاي عبدالله أكبركم فكونوا عند إشارته . . . ومنذ نوينا توجيهكم لهذه الوجهة السعيدة ونحن نجيل الفكر فيمن نوجهه معكم، حتى وقع اختيارنا على الحاج محمد الرزيني . . . فكونوا له بمنزلة الأبناء البررة، وليكن لكم بمنزلة الوالد . . .

وقد آزرناه بالحاج ابن جنان البارودي . . . وآثرناكم على أنفسنا بالفقيه السيد المهدي

(١) ج٩، ص ٧١، ٧٢، مطبعة الدار البيضاء، ١٩٥٦م.

(٢) أذكر أن الجد الحاج محمد التازي كان ضمن كبار التجار الذين صحبوا هذا الركب. الإعلام للعباس بن إبراهيم، ج٧، ص٦٧.

ابن سودة الذي يتوجه معه أخوه ... فأوفوا كل واحد منهم قسطه ومستحقه».

وبعد أن أوصى الملك أبناءه بالانكباب على الدراسة وعدم تضييع الوقت... نبههم على الإقبال على دراسة مناسك الحج... مشيراً انتباههم إلى مصدر مهم من مصادر الرحلة الحجازية المغربية، وهو المرشد المعين لابن عاشر السالف الذكر (١٠٤٠هـ / ١٦٣١م).

وهو يوصي كذلك بالحاشية التي تصحبهم: «وكل من توجه معكم من الأصحاب والأتباع والدايات فهو في رعايتكم، فعلّموهم أمر دينهم ومناسك حجهم، وخاطبوهم على قدر ما يفهمون ... وهشوا وبشوا لملاقاة الناس ... وما زال الناس يذكرون هناك أخاكم مولاي سليمان[1] ويدعون له في تلك الأماكن الشريفة لما رأوا من حسن بشره».

وإذا كان الغيغائي لم يتمكن من الوقوف على كل تفصيلات تحركات الوفد الأميري، فإن هناك مصادر مغربية عنيت بقضية مهمة تتصل بقرار السلطان المولى عبدالرحمن باقتناء عقار يحبسه في مكة والمدينة ...

ولصلة هذا الموضوع بالشأن المكي، فإننا نرى من التوثيق الجيد أن نفصل الكلام عن هذا الوقف الجديد، ولا سيما وقد سبق لنا نظيره في حجة الأميرة خناثة أم السلطان المولى عبد الله وجدة الملك محمد الثالث (١١٥٠هـ / ١٧٣٧م).

لقد كان مما ورد في الرسالة السابقة الموجهة من السلطان المولى عبدالرحمن لأبنائه وهم يأخذون طريقهم إلى مكة:

«واعلموا أننا عيَّنَّا عشرين ألف ريال بقصد أن يشتري بها الرزيني حبساً في سبيل الله: عشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً بمكة، وعشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً بالمدينة ... رجاء أن يبقى أجر ذلك جارياً منتفعاً به».

ومن خلال الوثائق المغربية وقفنا على عقد الشراء والوقف ... وعلى طابع قاضي مكة المشرفة في ذلك العهد السيد أحمد عزت، وقد تم هذا فعلاً قبل أن يغادر الوفد إلى

(١) يشير أبو العلاء في مخطوطه «الابتسام» ص ٩٩ إلى الرحلة الحجازية التي كان فيها الأميران المولى سليمان والمولى الرشيد عام ١٢٦٥هـ بمعية الأمين محمد بن البدوي برادة والفقيه محمد بن علي الإنكنافي الحاحائي، تراجع وثائق الرزيني رقم ١٤١.

المدينة ... وقد حضر مراسم العقد الحاج سعيد جسوس قنصلنا في جبل طارق وكان مصاحباً للركب.

ولأهمية العقد من الناحية التوثيقية والفقهية والاجتماعية والاقتصادية فإننا نورد نصه كاملاً نقلاً عن كتاب (الإتحاف) للمؤرخ ابن زيدان[1].

الحمد لله عز شأناً، هذه حجة صحيحة شرعية، ووثيقة محررة مرعية، صدرت بمحكمة مكة المكرمة البهية، دامت آمنة محروسة محمية، بين يدي نائب مولانا فخر قضاة الإسلام، كمال ولاة الأنام، قاموس البلاغة نبراس الإفهام، محرر القضايا والأحكام يومئذ ببلد الله الحرام، الراجي لطف ربه الخفي، الحاكم الشرعي الحنفي، الواضع خطه وخاتمة الكريمين أعلاه، دام فضله ومجده وعلاه، مضمونها حضر إلى المجلس الشريف الشرعي، ومحفل الدين المنيف المرعي، المكرم والحاج محمد بن الحاج أحمد الرزيني المغربي في شراء المبيع الآتي ذكره فيه بطريق وكالته عن الجناب الشريف المحترم السيد السلطان الأمجد مولاي الشريف السلطان عبدالرحمن بن المرحوم السلطان هشام سلطان المغرب، الثابتة وكالته عنه في شراء الدار الآتية، وأن يوقفها عنه في الوكالة عنه المفوضة المطلقة وقفاً صحيحاً شرعياً يصرف ريعه على الآتي ذكرهم أدناه بشروطه الآتية، وذلك بين يدي نائب مولانا الحاكم الشرعي الموما إليه أعلاه ثبوتاً شرعياً بطريقه الشرعي المطابق للوجه الشرعي بشهادة المكرمين الحاج سعيد جسوس بن أحمد المغربي والحاج علي بن حسن المغربي، وحضر لحضوره في البيع المكرم صالح بن الشيخ عبدالغني بن الشيخ أحمد عبد الغني غب حضورهما وثبوت الوكالة المذكورة فيما ذكر الثبوت الشرعي.

اشترى المكرم الحاج محمد بن أحمد الرزيني الوكيل المذكور بطريق وكالته المفوضة المذكور عن موكله مولاي الشريف السلطان عبدالرحمن المشار إليه بمال موكله لموكله دون مال غيره من بائعه الحاضر معه صالح عبد الغني المزبور، فباعه ما ذكر أنه له وفي ملكه وحوزه وباقٍ تحت تصرفه إلى حين صدور هذا البيع منه فيه الآيل إليه بالشراء

---

(١) ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج٥، ص ١٢٦، طبعة ثانية، إيديال الدار البيضاء، تقديم د. عبد الهادي التازي.

الشرعي بموجب حجة شرعية بيده، أعني ما باعه كامل الدار الكائنة بمكة المشرفة بحارة الشامية المشتملة على مساكن علوية وسفلية ومرافق ومنافع وحقوق شرعية وحوش، وذلك بسفح جبل الهندي، ويحد كامل هذه الدار ويحيط بها بجميع ما اشتملت عليه حدود أربعة: شرقاً السكة النافذة المصمدة إلى علو جبل الهندي، وفيها باب الدار، وغرباً جبل الهندي المذكور، وشمالاً ملك ورثة الشيخ محمد سعيد بن العطار، ويميناً وقف المرحوم الشيخ إبراهيم بن ياسين الجناحي، وتمام الحد السكة المصعدة إلى علو الجبل المذكور، وفيها باب الحوش، بما لهذه الدار المبيعة المذكورة من الحق والحقوق والسفح والفسوح والمرافق والمنافع والأرض والبناء ومجاري الماء والطرق والاستطراقات، وكل ما يعد ويحسب من جملتها وينسب إليها شرعاً، المعلوم ذلك عند كل من المتبايعين المذكورين العلم الشرعي النافي للجهالة شرعاً اشتراءً صحيحاً شرعياً وبيعاً صريحاً مرعياً بيعاً باتاً ... حازماً جازماً لازماً ثابتاً، لا عدة فيه ولا مثنوية، مستوفياً لجميع شرائطه الشرعية، ومصوغاته المحررة المرعية، لا قول فيه يبطله، ولا شرط ولا خيار يفسده، بل وقع على أتم البيوعات الشرعية وأكملها، صدر بين المتبايعين المذكورين بصريحي الإيجاب والقبول الشرعيين بثمن قدره وجملته من الريالات السنكو ألفان ريالاً سنكياً، وسبعمئة ريال سنكي وخمسون ريالاً سنكياً ثمناً حلاً مسلّماً جميعه من يد المشتري المذكور، بيد البائع صالح عبد الغني المزبور حسب إقراره بقبض ذلك واعترافه الإقرار والاعتراف الشرعيين، وأذن هذا البائع المذكور لهذا المشتري الوكيل المزبور في قبض وتسلم كامل الدار المحدودة المبيعة المذكورة وقبضها وتسلمها منه لموكله مولانا السلطان عبدالرحمن المذكور، وحازها له حوز مثلها خالية عن الموانع المبطلة والشواغل المفسدة لصحة هذا البيع والقبض والتسليم والاستلام، فبموجب ذلك صارت الدار المبيعة المحدودة المذكورة ملكاً مطلقاً من أملاك المشترى له مولاي الشريف السلطان عبدالرحمن المذكور، وحقاً صرفاً من حقوقه يتصرف في ذلك تصرف الملاك في أملاكهم، وذوي الحقوق في حقوقهم، من غير معارض له في ذلك ولا منازع، ولا رافع ليده ولا مدافع، وضمان الدرك له على البائع المذكور حيث يجب له عليه شرعاً، وقد صح وثبت جميع

ما ذكر لدى نائب مولانا الحاكم الشرعي المومأ إليه أعلاه ثبوتاً صحيحاً شرعياً، وأجاز هذا البيع ونفذه وأمضاه، وأوجب العمل بمقتضاه، والله الهادي.

وقد كان من أخبار هذه الرحلة التي طيرت للسلطان ابن زيد المولى عبدالرحمن وفاة ابنين من أبنائه الذين أرسلهم إلى الحج، وهما المولى إبراهيم الذي توفي بمكة قبل وقوف عرفة، والمولى جعفر الذي أدركه أجله بالمدينة ودفن بالبقيع...

ومن المفيد أن نقرأ في جواب العاهل للأمين الرزيني هذه العبارات: «... وقد علمنا وفاة ولدينا ومن ذكر معهما، لله ما أخذ وله ما أعطى، إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله الذي أكرمنا بأن جعل بضعة منا في تينك البقعتين الكريمتين: حرمه وحرم رسوله اللذين يتمنى المؤمن لنفسه أن يكون في أحدهما، فقد صبرنا واحتسبنا، وحمدنا الله واسترجعنا، وما عند الله خير للأبرار»(1).

---

(1) كان الخطاب مؤرخاً بأول ربيع النبوي ١٢٧٥هـ...

ونحن مدينون في وثائق هذا الملف للدكتورة الأستاذة نادية الرزيني التي تفضلت فأطلعتنا على منجم من الوثائق التي يحتفظ بها بيت الرزيني، وهي بحاجة إلى دراسة مستفيضة وعناية زائدة، وذلك لما تضمه من معلومات قيمة عن فترة دقيقة من تاريخ المغرب.

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم



خديمنا الأرضى الحاج محمد الرزيني وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد أصحبكم الله
الحفظ والسلامة وبلغكم في هذه الوجهة السعيدة غاية الأمل والكرامة واعلم أنا أقمناك في هذا الأمر الذي
كلفناك به مقام أنفسنا وجعلناك للأولاد أصلحهم الله أبا وهم لك أبناء وقد أوصيناهم بذلك ونوصيك بهم
ومثلك لا يحتاج لوصية لأنك تعرف ما هنالك وقد تقدم ونسأل الله لكم التوفيق والإعانة وأن يفتح لكم أبواب
الخير والسعادة واعلم أن ولدنا مولاي عبد الله هو أكبرهم وقد أمرناهم أن يكونوا عند إشارته ورسمنا
سعيد إشارة هو الواسطة بينك وبينهم وقد بعثنا لكم ما تصحبون من المال للصدقات والصلات وقد أمرنا
السيد الجيلاني [illegible] بقدر ما بعثنا لكم الآن في تطوان وطنجة وكتبنا للحاج أحمد الحداد والطالب محمد الخطيب
بذلك فأما الصلات فعملكم فيه على قانون [illegible] الذي دفع لكم أولا ونسخة من زمام الحاج محمد بن البرود بزيادة
ما توجه مع الشرفاء المرة الأخرى إلا إن اقتضى الحال الزيادة أو النقصان في بعض الأمور فيرى الحاضر ما لا يراه
الغائب لأن كل وقت له حكم يخصه وأما الصلات التي تفرق بمكة والمدينة وينبع ومصر والإسكندرية
فعملكم فيها على قانون الزمام المذكور من غير زيادة ولا نقصان [illegible] كل من في الزمام لا يخلو
ومن كان منهم مستحقا بعينه من عالم أو غيره ولا زال في قيد الحياة فيدفع له نصيبه مثل المرة الأخرى ومن مات
منهم من خلفه في مقامه فيدفع له نصيبه حتى تستوفوا جميع ذلك على ما عين لكل محل وأما ما يجعل حبسا في
سبيل الله فقد عينا له عشرين ألف ريال اجعلوا عشرة آلاف منها بمكة وعشرة آلاف بالمدينة ولكم النظر فيما
يناسب للوقف بحيث تبقى منفعته جارية وأجره ثابتا إن شاء الله فإن الحاضر بصير بما لا يخطر لكم وإن رأيتم
فيه المصلحة والمنفعة الجارية فافعلوا غير أن ما تجعلونه بالمدينة المنورة عينوا منه قدرا معلوما لمن يكون
يستعمل كل صباح عددا من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويهديها لقبره الشريف بحسب النيابة عنا بحيث
يقول هذه هدية من فلان بن فلان وأما الهدايا فقد ذهب معكم وعينا له أربعة من الخيل مع سروجها الأربعة
التي أقيمت بفاس بحيث تصلونها إن شاء الله وبعثنا له مع سيف الذهب وأما سيف الفضة فقد بعثنا
[illegible] مع الحوائج والسطارج لكم النظر فيه فمن رأيتم يستحق شيئا منها فادفعوه
له ومن جملتهم شريف مكة وباشاتها وباشا المدينة فلكم النظر فيما تدفعونه لكل واحد من ذلك من [illegible]
والنصارى بحسب ما يظهر لكم فيه الصواب وقد سلم خديمنا الحاج بوجنان البارودي بمثل ما أوصلناك به
أصحبكم الله السلامة ذهابا وإيابا والسلام في 7 رمضان المعظم عام 1275

نص رسالة السلطان المولى عبد الرحمن إلى أبنائه وهم يتوجهون إلى مكة

الحمد لله تقييد ما أنعم به مولانا أيده الله وأعزه بمكة المشرفة على العلماء بها وأرباب وظائف الحرم الشريف على يد [illegible] الحاج محمد بن [illegible] تقبل الله [illegible] وجعله لديه في الدار الآخرة في 25 القعدة عام 1274

MS. 145

العلماء

مفتي الحنفية السيد محمد الكتبي
رئيس المؤذنين الشيخ جمال
مفتي الشافعية السيد محمد الحبشي
مفتي المالكية الشيخ حسين
الشيخ صديق كمال
الشيخ إبراهيم بن ظهيرة
السيد أحمد بن ظهيرة
السيد حسين ميرغني
إبراهيم أمين [illegible]
الشيخ إبراهيم [illegible]
السيد محمد الكتبي
السيد أحمد دحلان
أحمد أمين داغستاني
السيد عبد الله [illegible]
الشيخ محمد عبد الرسول
الشيخ عبد الله [illegible]
الشيخ عبد القادر [illegible]
السيد محمد [illegible]
الشيخ أبو بكر بسيوني
السيد أسعد المؤذن
الشيخ يوسف [illegible]
السيد أحمد [illegible]
الشيخ أحمد [illegible]
عيسى بن محمد [illegible]
السيد حسين [illegible]
الشيخ محمد جان الله
الشيخ عبد العزيز [illegible]
عبد الرحمن أمين
حسن أمين داغستاني
[illegible] أمين داغستاني
قاسم أمين داغستاني
علي أمين داغستاني
محمد أمين [illegible]
[illegible] أمين [illegible]
الشيخ حسن [illegible]
عبد الله أمين [illegible]

الشيخ علي المراح
السيد محمد طاهر [illegible]
السيد محمد بن صالح
الشيخ [illegible] العباسي
الشيخ محمد سعيد [illegible]
الشيخ إبراهيم [illegible]
الشيخ صلاح [illegible]
الشيخ محمد [illegible]
الشيخ عبد الله [illegible]
الشيخ عامر [illegible]
الشيخ صالح [illegible]
الشيخ عبد الوهاب [illegible]
الشيخ سليمان [illegible]
الشيخ محمد بن سليمان
الشيخ محمد جليل
الشيخ محمد [illegible]
الشيخ محمد أبو [illegible]
الشيخ محمد [illegible]
الشيخ محمد [illegible]
الشيخ [illegible] السليماني
الشيخ مصطفى [illegible]
الشيخ علي [illegible]
الشيخ عبد الوهاب [illegible]
الشيخ محمد [illegible]
الشيخ [illegible]
الشيخ منصور [illegible]
مصطفى أمين [illegible]
حسن أمين [illegible]
عبد الرحمن أمين داغستاني
عبد الله أمين [illegible]
سليمان أمين [illegible]
الشيخ أحمد عبد ربه
الشيخ [illegible] أمين [illegible]
الشيخ [illegible]
الشيخ [illegible] عبد الغفور

قائمة بأسماء علماء مكة وأرباب وظائف الحرم الشريف ممن شملتهم منح السلطان المولى عبدالرحمن

الغيغائي ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

صاحب هذه الرحلة هو أبو عبدالله محمد بن مبارك بن علي بن أحمد الغيغائي الأصل، الوريكي الدار، العمري النسب، حسبما يوجد في مقدمة المخطوط[١] . وهي رحلة «حافلة» بالمعلومات التاريخية والسياسية والاجتماعية والفقهية[٢] . . .

وقد استعصى عليَّ الوقوف على ترجمة لصاحب الرحلة الذي يمكن أن نعرف عنه الكثير من خلال الرحلة نفسها على نحو ما كان الأمر بالنسبة إلى ابن بطوطة مثلاً . . .

والمهم أن نعرف أن هذه الرحلة التي تحتوي على مقدمة وأربعة أبواب تتحدث عن أن صاحبها الغيغائي . . . وبعد حديثه عن السلطان المولى عبدالرحمن الذي تقلّد الحكم بوصية من عمه السلطان المولى سليمان، أخبرنا بأنه أخذ طريقه بواسطة باخرة أجنبية، نعتقد أنها إنجليزية، وأنه حجز في (قامرتها)[٣]، مع الأحبة من ميناء الصويرة، دار الجهاد والاجتهاد، حيث كان معه أمير من بني عم السلطان من مدينة سجلماسة، وقائدان من عبدة إلى جانب تاجرين من أهل تطوان . . . حيث أخذتهم السفينة إلى طنجة لتحمل حجاجاً آخرين . . .

وبدايةً أذكر أن الغيغائي يتوفر على روحٍ مرحة وظلّ خفيف، فهو ينكت، ويقدم النصح، ويصف البشر والحجر. ومن الطريف أن نجد الغيغائي يوصي بإنفاق الدراهم عند السفر طلباً للراحة وإمتاع النفس، وقد ردد مراراً فائدة الدرهم في مثل هذه المناسبات:

إن الدراهم في المواطن كلها
تكسو الرجال مهابة وجمالا

---

(١) مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، رقم ج٩٨، ومصورة على شريط رقم ١٢ . د. التازي: ليبيا لدى الرحالة المغاربة، ص٤١، تعليق ٢ .

(٢) يتاكد لدي أنه له صلة بمحمد بن مبارك المتوفى سنة ١٣٢٨هـ، والمترجم في الإعلام للعباس بن إبراهيم. ج٧، ص ٢٦٨ .

(٣) القامرة كلمة إسبانية Camara يعني بها المكان الممتاز من المركب الذي يسميه ابن بطوطة (المصرية) .

وهي الكلام لمن أراد فصاحةً

وهي السيوف لمن أراد قتالا!!

وهو يوصي الحجاج بأن يصحبوا معهم أفخر الثياب ... إن الناس يحترمون حسن المظاهر حتى يمكنهم أن يغيروا ملابسهم بين الفترة والأخرى ... وأصحاب المركب يحترمون المسافر النظيف ... ويتجلى من حديث الغيغائي في مقدمة الرحلة أنه رجل عارف بالأحوال متطلع إلى شرح ما جدّ في العالم، وخاصة في وسائل النقل ... ولم ينس أن يعود للحث على تجنب التقتير والبخل والشح !!

ومن طنجة تحركت الباخرة بهم عشية الأربعاء ثامن رمضان سنة ١٢٧٤هـ / ٢١ إبريل ١٨٥٨م، أي قبل ركب الأمراء أنجال السلطان المولى عبدالرحمن الذي كان عليه أن يتحرك فيما بعد ...

وقد كان الغيغائي ... ولو أنه كان على متن مركب آخر، مهتماً بأخبار الركب الأميري، ومن هنا قرأنا في الرحلة عن الأحوال المناخية في مكة التي تعرضت لوباء سمته المصادر المغربية «بفساد الهواء والوخم»، وسمته المصادر البريطانية باسمه الحقيقي: الكوليرا.

لقد كان هذا الوباء كارثةً في تلك الديار، وكان سبباً في موت كثير من حجاج الآفاق؛ حيث مات من أعضاء الوفد جملة من الناس، ومات من أولاد العاهل المغربي اثنان: المولى إبراهيم، والمولى جعفر، توفي الأول بمكة، والثاني بالمدينة، وهذا ما تؤكده المصادر البريطانية(١).

إضافة إلى هذا الحدث الذي يعطي صورة عما كان يجري في بعض مواسم الحج من أوبئة تحصد مئات الحجاج ... تحدثت المصادر المغربية، وخاصة الغيغائي(٢) ومن تبعه، عن عمليات سطو من بعض عتاة العرب في الطريق الفاصلة بين المدينة وينبع ... حيث لقي الوفد مشقةً عظيمة كادت تأتي على آخرهم!

لقد كانت البلاد تعيش آنئذ أيام نامق باشا الذي عرفت أيامه حادثة خطيرة أدت إلى

(١) مخطوطة الخزانة العامة رقم ج ٩٨ ورقة ٢٢٧.

(2) P. G. Rogers. A History of Anglo- Moroccan Relations to 1900 London, Foreign and Common Weal TP. Office P. 167 - 168.

فوضى كان يستغلها رعاع الناس، وكان ذلك بسبب حادثة عارضة أشارت إليها الرحلة وفصلتها مصادر تاريخ الحجاز ... وذلك أن تاجراً في جدة اسمه صالح جوهر كان يملك مركباً في البحر، وكان يرفع على سارية المركب علَم إنجلترا، فأراد في أحد الأيام أن يبدله بعلم الأتراك، وكبر ذلك على القنصل البريطاني الذي قام بنفسه بإنزال العلم العثماني ... هذا الأمر عدّه المسلمون إهانة لهم فقتلوا القنصل وعدداً من الأجانب! وهنا راجت الإشاعات في طول البلاد وعرضها، وكان ما كان(١).

وفي تعقب الغيغائي لرحلة أنجال الملك نجده، وهو يخبرنا بنزوله بجدة يوم ١٤ ذي القعدة ١٢٧٤هـ بعد «جوازه على رابغ ذي الخير السابغ»؛ حيث أحرموا منه على نية الحج، وكانوا أحرموا أيضاً بالعمرة لوسع أيام الحج وكثرة الحر (٢٦ يونيو ١٨٥٨م)، قال: وبهذا أحرم الشرفاء، يعني الأمراء، والفقيه ابن سودة الفاسي... قال: والتقينا بهذه المدينة مع الشرفاء أولاد مولاي عبدالرحمن المنصور سلطان المغرب والأسد الهصور، وهم أربعة سنذكرهم إن شاء الله بعد خروجنا من المدينة أو عندها ...

وقد ركبوا على الهوادج، وخرجوا من جدة عشية الأربعاء ومعهم الفقيه ابن سودة والحاج محمد الرزيني التطواني، ولما حُملوا على الهوادج، وسارت بهم الجمال وهم على التخوت قاصدين أحسن البيوت، جعل الفقيه صاحبهم يفرق (يوزع) الدراهم على الناس ... مغاربة ومشارقة(٢)..

ومن المفيد أن نظل إلى جانب الغيغائي ونتسمع إلى أدائه الطريف البسيط، وهو يعطي فكرة عما يتحمله الحاج قبل الوصول إلى مكة ..«ثم كرينا الأجمال لحمل الأثقال والماعون للانتقال، وكرينا نحن الحمر الصباحية - فلا صبحها الله! - وكراؤها بثلاثة ريال ونصف الريال الكبير، وسميت الحمر بالصباحية؛ لأنها تصبح بمكة، تركبها من جدة عشية وتصبح قبل طلوع الشمس، وقد تردد ذكرها عن بعض الحجاج المغاربة..

لكن هذه الحمر نوصي بترك ركوبها من أجل عذابها. فهي تجري مثل الغزلان، وتطير

(١) تاريخ مكة، تأليف أحمد السباعي، ص ١٣٤- ١٣٥، مصدر سابق.

(٢) مخطوطة الرحلة الورقات: ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨.

بك مثل الحصان على طول الليل، مثل الريح أو السيل، وليس لك راحة ولا استراحة ... وسوقتها مثلها في الجري ... ولولا القهاوي في الطريق لما تركوك تأكل حتى السويق! ولا تجلس إلا هنيّة في كل قهوة، والقهاوي ثمانية.

وكم من واحدٍ لم يثبت على الحمار وطاح وانكسر!!. وإذا وصلوا إلى نصف الطريق وقفوا ساعة، وسقوا الحمير وعلفوها، وقاموا يجرون إلى مكة المشرفة.

وهكذا أصبحنا بمكة يوم السبت قبل طلوع الشمس ... ودخلناها من كُدًا.

وركب صاحبنا سيدي محمد المرابط على حمار ومشينا نحن على أقدامنا ... وصعدنا داعين مصلِّين على خير ولد عدنان، حتى جزنا بين الجبل والجبل ومررنا بالمقبرة المشرفة بالحُجُون ودعونا لأهلها ... وهبطنا على بطحاء مكة المشرفة ووجدناها في غاية العمارة أسواقاً ومنارة وطرقاً ومشارع ... وشربنا من مائها البارد بالأبطح ضحى النهار.

وقبل أن يفيدنا أنه اكترى المنزل بثمانية عشر ريالاً كباراً، وأن هذا المنزل كان يتوفر على سطح للمنام فيه من أجل الحر، وأن أصحابه الآخرين نزلوا بظاهر مكة في الخيام؛ لأن البيوت غالية الأثمان لا سيما والحجاج كثير في هذا العام ... لقد كان معظمهم من اليمن والترك ومن الفلاحين. أقول: قبل هذا يقوم الغيغائي بوصفٍ لما قام به من مناسك، وما كان يشعر به من إحساس وهو يجد نفسه في هذا المقام ... ونحن نورد هذا للتدليل على الأثر العظيم الذي تتركه هذه الفريضة في المسلم أينما كان موقعه، وكيفما كان انتماؤه. وللتذكير، فإن هذا الرجل وارد على هذه الديار من قمم الجبال النائية البعيدة عن ديار العرب ولغتها وأدبها...

قال: وتقدمنا نريد المسجد الحرام ورؤية البيت المبارك المعظم، والقلوب تشتاقه، والجوارح يستريح بها شغفه واشتياقه، فمررنا له حامدين، وأسرعنا إليه راغبين وشاكرين.

ودخلنا من باب السلام المعروف بباب بني شيبة لدخوله عليه السلام منه، فأشرفنا على البيت المعظم، والمقام الأرفع المكرم المحترم، والقلوب تخفق وتخشع، والعين تنظر وتنعم وتدمع، والجواريح لانت بالحمد والشكر، وقرت لمولاها - تعالى - بالنعمة والمنة والفضل والشكر، وعلمت أنها ما وصلت إلى هذا المحل بشيء منها إلا بقوة وعون ربها..!

ورأينا المسجد الحرام وعمارته، والبيت المعظم ورفعته، ونوره وجماله وبهاءه وهيبته، وتشريفه وتعظيمه ومحبته، فليس إلا ناظر متفكر في حرمته، وطائف مبتهل متضرع إلى الله ومتوسل به وبشفاعته، وساجد راكع خاضع متمرغ ساكب عبرته، ومنعم بصره وبصيرته في شهود كرامة الله وقربه ورفع دعائه دون حجاب مانع قربه وأنسه وحضور حضرته، فهم شاكرون حامدون، وشاهدون فضله ورحمته، ومقرون بأن كل فضل عنده تعالى تكرمة ورحمة ونوال وجود ونعمة، لا يستحقونه بأعمالهم، ولا يحيطون به بأركانهم، ونسمع الأصوات بالدعاء والبكاء كالمدرار، والحمد والشكر والطلب والاستغفار.

ثم تقدمنا إلى الحجر الأسود واستلمناه إذ هو تحية هذا المسجد للقادم، وطفنا طواف القدوم، وصلينا خلف المقام، ودعونا الله عند الملتزم، وهو ما بين الحجر الأسود وباب البيت، وخرجنا إلى السعي، وسعينا بين الصفا والمروة، وحلقنا رؤوسنا، وحللنا من الإحرام، إذ العمرة تمت، وبقي الهدي لأجل التمتع..

ورجعنا إلى البيت المعظم والنظر إليه، والتفكير فيه عند الجلوس إليه، فسبحان من شرف الكعبة البيت الحرام بالإجلال والإعظام، واصطفاها وحماها، وجعل حماها مباحاً لمن حام حول حماها، وحرماً آمناً لمن دخل عليه ووفى ما عليه حين وافاها، وجعله وجهةً وقبلة لمن واجهها، وأراد عنده جاها، وهي التي هاجر منها الحبيب حين هاجر، وما هاجرها ولا هو قلاها.!!

هكذا بهذه العواطف المتأججة يعتصر الغيغائي ما يتوفر عليه من تعبير ليبلغ للناس في أقصى المغارب صورةً عن أول بيت وضع للناس. وقد خصص الرحالة الباب الرابع من رحلته للحديث عن فضل مكة بما تُعرف من أوصاف سابقة. ويذكر استطرادات فقهية مفيدة طوال تنقُّله في منى وعرفات والمزدلفة ...

وهو يذكر أنه انتقل بعد هذا إلى المدينة، وودع مكة يوم الأربعاء الثاني من المحرم ١٢٧٥هـ (١٨ أغسطس ١٨٥٨م)، وخرج قبله في الأربعاء الأول (١١ أغسطس) أولاد السلطان... وهم مولاي عبدالله، ومولاي علي، وذلك أنهم سافروا بأربعة أولاد، ومات مولاي إبراهيم بمكة قبل وقوف عرفة، رحمه الله، ومات مولاي جعفر بالمدينة، ودفن بالبقيع...

العوادج وخرجوا من جدة عشية الاربعاء ومعهم الفقيه المذكور والحاج محمد الزريبي
الطرابلسي وقد حملوا على العوادج وصارت الجمال وهم على المخنوق فامه بين لحمر
البيوت وجعل الفقيه صاحبهم يعطي الدراهم للناس لانه جعل جعلوا له من عند
ركوبهم معاونة وشارفة والركوب من موضع الحاج في مبيعه بين ديار جدة ثم
كرينا الجمال لحمل الاثقال والسعود والاصحاب للانتقال وكرينا لنحو
الحمر الصباحية فلا جبتها الله وكراؤها بثلاثة ريال ونصف الريال الكبير
وسميت الحمر الصباحية لانها تصبح بمكة تركبها من جدة عشية وتصبح قبل طلوع
الشمس بمكة وهذه الحمر نوع بشر لمركوبها من اجل عدة اسباب السبب وهذه الحمر
تجري مثل الغزال ولكن تعييك مثل الحصان على طول الليل مثل الريح او السيل وليس
لها راحة ولا استراحة حتى تنزل عن ظهرها وسوقتها شاطرون في الجري ولا
يعطلون في الطريق ما تركوها ولا تأكل حتى الغروب ولا تقبل الا قبيلة في كل
قبيلة والقبائل قبائل في كل ربعة قبائل واذا ركبت ضرب بيده الحمار
فيطير من تحتك فكم واحد لم يثبت وطاح وانكسر واذا وصلوا الى حادة نصف
ويبقوا ساعة ويسقوا الحمير ويعلفوها بعض العلف وقدموا يجرون المكة
المشرفة وصبحنا بها يوم السبت قبل طلوع الشمس وطلعنا بذي طوى حتى استرحنا
واغتسلنا وفرشنا ودخلنا مكة المشرفة من كداء والحجون وهو السنة
وسألت عن هذه الكيفية الفقيه النحرير وقلت له هل من هنا دخل النبي
صلى الله عليه يوم فتح مكة ام كيف الحكمة فقال انه جبر بالدخول منها واما
بعد والعلو مكانها فاذا دخلها الانسان يدخلها ساجدا الا انها اعلا
ولم يسووا لها السهل واذا خرج منها يخرج من اسفلها نزيد اسفل

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الغيغائي

ابن الشيخ سيدي ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

لم تكن رحلة التيجاني الشنقيطي الأخيرة التي تركت لها صدى في المكتبة المغربية، ولكن هناك رحلة تمت أيام السلطان المولى عبدالرحمن الذي استقبل صاحبها بحفاوة هو ومن معه، وأمن له الرحلة عبر البحر، ونعتقد أن ذلك تم مع السفينة التي أقلت الغيغائي.

ويتعلق الأمر برحلة العلامة الأديب سيدي محمد ابن الشيخ سيدي (من أولاد أبيير) الذي نجد له قصيدة نونية طويلة تناول فيها من جملة ما تناول تعلُّق قلبه بـ"هوى الحرمين أشرف موطنين" الذي أمَّه على متن المطايا...

... على باب السلامين مسلمات
بتطواف وسعي عاجلين
ببيت الله ملمس كل حاج
تعالى الله عن كيف وأين
حِمى إن أمَّه لاج وراج
يكونا آمنين وغانمين
إلى خيف المحصب رائحات
بكل أشم ضاحي الوجنتين
وتغدو بالشروق مبادرات
بنا أجلي نعام جافلين
من التعريف[١] مسياً صادرات
يخدن منكبات المأزَمين

(١) التعريف يقصد به الوقوف بعرفة، ومسياً: ظرف متعلق بصادرات؛ أي صادرات وقت المساء بناء على أنه من الظهر.

ومن جمع يسرن مغلسات
لوقفة ساعة بالمشعرين
ببطن محسر متراميات
لأولى الجمر دون الأخرين
وترجع إن أفاضت لابثات
ثلاث ليائل أو ليلتين
وللبيت العتيق مودعات
قد ارتاحت لإحدى الراحتين
وأخرى لم تكن لتنال إلا
مرور محل إحدى الهجرتين
إليها من كُدًى يهبطن صبْحاً
هبوط السيل بين القنّتين(١)

لقد كان من ضمن الركب ابن أبي الشيكر (بكاف معقودة). وقد أدرك الموت ولد الشيخ سيدي بين مكة وجدة بعد أداء الفريضة، قال صاحب الوسيط: وقد عثرنا على بيتين قالهما لإبراهيم القاضي أمير ينبع وضواحيها، وكان تلقى الركب بما ينبغي:

يا قاصداً بطحاءَ مكة يرتجي
نيل الطواف ببيتها المرفوع
لا تخش من ينبوع حاجك غورة
ما دام إبراهيم بالينبوع!

(١) الوسيط ص ٥٥، ٢٤١، ٢٤٣، ٤٦١.

العلمي الوزاني ابن حسون ١٢٨٠هـ / ١٨٦٤م

تحمل هذه الرحلة عنوان: "الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية"، وهي لأحمد ابن العربي بن حنيني الحسني المعروف بابن حسون.

وقد قام بالرحلة إلى الديار المقدسة سنة ١٢٦٩هـ / ١٨٥٢م رفقة زمرة من الأشراف أهل وزان، على رأسهم الشريف الشهير الحاج عبدالسلام، وابن عمه محمد بن عبد الجبار ابن علي الوزاني ... وقد نزلوا في ذهابهم بمرسيليا، وعند إيابهم دخلوا الجزائر ووهران...

ولا نتوفر على تاريخ مضبوط لوفاة صاحب الرحلة، وإنما نعلم أنه كان حياً بعد سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٤م.

وقد استهلها بقوله:

نحمدك يا من أوجب وحرم، ومنح من شاء من فيض وحرم ... وفرض حج بيته الحرام، على المستطيع من الأنام.

وبعد، فلما منّ ذو الجلال والإكرام برفقه ملاذ الخاص والعام أبي محمد عبدالسلام نجل الشيخ العربي بن علي ابن أبي العباس أحمد بن عبد الله الشريف العلمي، وابن عمه محمد بن عبد الجبار بن علي، لأداء الفرض الخامس من أركان الإسلام ...

وهذه الرحلة تحمل في الخزانة العامة في المغرب رقم ١٠١٢ك ضمن مجموع، لكن الموجود منها قطعة من أولها من صفحة ٥٢ – ١١٠ من المجموع ... «رحلة - يقول زمامة: إن صاحبها أطلق فيها لقلمه العنان، وسجل شؤوناً وشجوناً ومعلومات غريبة تفسر بعض الغوامض»(١).

وبعد معاناة في البحث عن النص الكامل للرحلة التي قيل: إنها آلت إلى مكتبة الأمير المولى عبدالله بالشراء من ورثة الأستاذ ابن الماحي الإدريسي ... بعد ذلك قادتني

(١) عبدالقادر زمامة، مجلة البحث العلمي، عدد ١٧، سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م. ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج١١، ص ٣٥١. المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١١، صفحة ١١٦، رقم ٩٧٢.

إشارة فيما كتبه زميلنا الراحل الشيخ حمد الجاسر[١] الذي كان يتحلب ـ رحمه الله ـ على العثور عليها، قادتني إلى تتبع المعالم، حتى وقفت عليها، وعلى مقربة مني في (مؤسسة علال الفاسي) ضمن المخطوطات التي آلت إليه ـ رحمه الله ـ من ابن عمه الشيخ عبدالحفيظ ... وإني لأشكر بهذه المناسبة د. عبدالرحمن الحريشي مدير المؤسسة على مساعدته الثمينة للاستفادة من الرحلة، وتقديمها إلى القراء، وخاصة منها ما يتصل بمكة المكرمة[٢]...

لقد ابتدأت الرحلة ـ كالعادة عند بعض الرحالة ـ بالحديث عن السفر وفوائده وآدابه وخاصة منها ما يتصل بالتحلي بالصبر على ما يصدر من الرفاق ...

ومن هذه الديباجة نعرف أن الرحلة جمعت من الاستطرادات والنوازل الفقهية والفوائد اللغوية الشيء الكثير إلى جانب الذيول التاريخية والجغرافية، أضف إلى كل هذا الهوامش التي حررت على جانب الصفحات، وهي مكتوبة بخطوط متعددة، مغايرة للنص، وهذا ما يدل على أن المطلعين عليها كانوا من الكثرة ومن تعدد النزعات بالقدر الكافي، فماذا عن جديد الرحلة فيما يتصل بمقام الشريف الوزاني بمكة؟

بعد زيارة في جُدّة (بضم الجيم) لقبر أمنا حواء التي يجزم ابن خلكان بأن قبرها هناك على ما ذكره في ترجمة الشاعر ابن قلانس، وفي ترجمة أخرى ... بعد ذلك يخبرنا بأنه في عشية يوم الاثنين (٢٣ من ذي القعدة / ٢٩ يوليو) توجهوا لمكة[٣]، والمسافة التي بين جدة ومكة كلها قهاوٍ يستريح فيها الإنسان على نحو ما بين مصر وسويس، وما بين مكة والطائف، وبين المزدلفة ومنى وعرفات.

لقد دخلوا مكة من كدا اقتداء بفعل الرسول ﷺ ... إلى أنْ وصلنا لبيوت مكة، فذكرنا بعض الدعاء الوارد في ذلك، وسلكنا المسجد من باب السلام، فلاح لنا البيت والمقام، فاتينا الكعبة المشرفة وتقدمنا للطواف، فطفنا طواف القدوم، وزالت عنا جميع

(١) رحلات حمد الجاسر، ج١، ص٦٢-٦٦.

(٢) الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علال الفاسي، ج١، ص٢٧٣، رقم ٤٧٤، عدد ٣٤٦١، تاليف عبدالرحمن الحريشي مدير المؤسسة، شارع الإمام مالك، الرباط.

(٣) ورقة ٢٦ من مخطوطة مؤسسة علال الفاسي.

الهموم، جاعلين البيت عن يسارنا كما هي السنة في ذلك ...

وهنا يغرق الشريف الوزاني في الحديث عن السر في أن يكون البيت الحرام عن اليسار، وليس عن اليمين ...

ورملنا في الأشواط الثلاثة الأولى لقوله ﷺ: «رحم الله عبداً أظهر لهم من نفسه قوة ...». وبعد أن يأتي بسبب ورود الحديث يذكر أنهم صلوا ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم، وخرجوا للسعي بين الصفا والمروة، فسعوا سبعة أشواط، وهنا أيضا يفتح حديثاً عن السر في اختيار الأعداد الوترية، وليس الزوجية ...

أي شيء يكون في الأرض جمعاً
كطواف القدوم والسعي أحلى؟
والتزام الستور والدمع يجري
من سرور، وكعبة الله تجلى
رفعت برقع الجمال، وقالت
ألف سهل بالزائرين وأهلا!

قال: ولما دخلنا المسجد، ووقع بصرنا على الكعبة المشرفة خامرنا من السرور ما لا يخطر على بال، ونلنا من الحبور ما لا يكيف ولا يقال، ولسان مقالنا يحييها ويمجدها، ولسان حالنا يعظها وينشدها:

مرحباً، مرحباً وأهلاً وسهلا
بعروس على المحبين تجلى
لبست خلعة الجمال وراقت
سلبت للمشوق قلباً وعقلا
قد هجرنا الديار والأهل شوقاً
وقطعنا القفار وعراً وسهلا
وأتينا شعثاً وغبراً نلبي
ودموع الأشواق تزداد هطلا

ثم بعنا النفوس بيع سماح!
وعلمنا بأن وصلك أغلى
كم مشوق قد رام منك وصالاً
قبل موت فلم ينل منك وصلا!
تحت ظل الأراك أضحى طريحاً
باكي العين من حماك محلا
عاقه حظه فعاد حزيناً
وزمان السرور عنه تولى
قد عفا الله عنكم وحماكم
برضاكم وزادكم منه فضلا
فاشكروا الله إذ دعاكم إليها
وأعاد العسير يا قوم سهلا
بادروا الآن بالطواف وقوموا
قد صفا الوقت والحبيب تجلى

وبعد هذا تصدى الوزاني لتعداد أبواب المسجد الحرام معلقاً على اسم كل باب من الأبواب، ولماذا سمي بهذا الاسم أو ذاك. وعن عدد الخطباء في المسجد الحرام ذكر الوزاني أن بعضهم أخبره بأن عددهم ينيف على السبعين، وأن لكل مذهب من المذاهب الأربعة خطباءه الذين يتناوبون على الخطبة ...

وفي حديثه عن ارتفاع الكعبة ومراحل بنائها وما مرت به من تطورات، يعتمد على السهيلي في تأليفه «الروض الأُنُف» ... وعلى «سيرة ابن هشام» عن ابن إسحاق، ويتحدث عن سفينة تجار الروم التي أرست بجدة، وحملت منها الأخشاب إلى مكة حسبما سبق أن ذكرناه في أكثر من مصدر. ويروي الوزاني عن الطبري وأهل السير ما قالوه عن المقاسات شبراً شبراً ... وما قالوه عن بعض المواقع: الملتزم والحجر الأسود والحطيم...

وينقل ابن حسون الوزاني عن رحلة ابن رشيد السالف الذكر عن الشيخ أبي البركات

شعبان الصوفي بسنده عن الأصمعي نص بعض الأدعية التي يتوسل بها في ذلك المقام، لكنه استدرك بأن بعض الأقطاب، لكثر انقطاعهم إلى الله، يستحقون أن تطوف الكعبة بهم:

كل قطب يطوف بالبيت سبعاً

وأنا البيت طائف بخيامي!

ولم يفت الوزاني أن يفسر معنى كلمة (كل) بأنها على نحو قولهم: (كل بني تميم يحملون الصخرة العظيمة...) بمعنى أن هناك تكاملاً بين مخلوقات الله ...

وتتناول طرة هنا موضوعاً تناولته رحلة الإسحاقي السالف الذكر حول دور مكة، هل هي متملكة لأهل مكة، أو أن من حق الغريب عنها أن يتصرف بالشراء والكراء ... وهنا يأتي ذكر الأئمة أبي حنيفة والشافعي ومالك، وهنا نسمع أيضاً عن اجتهاد المفسرين في فهم قول الله تعالى: ﴿**وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**﴾.

ثم يذكر الوزاني أن الله أكرمه بالنزول في دار اكتروها مجاورة للحرم الشريف عن يمين الداخل للحرم من باب القطبي الذي كان ذكره في عداد الأبواب، تظهر لنا من خلال شباكها الخشبي وبعض شراجبها الكعبة والمنبر والمقام، كما يظهر المحراب الحنفي والشافعي والمالكي، وجبلا الصفا والمروة وأبو قبيس، وذلك ـ يقول الشريف الوزاني ـ من فضل الله علينا، ومن إكرامه لأولاد نبيه الذين في سلك رفقتهم قد انتظمنا!

ويحكي أنه طوال مقامه بمكة المشرفة كان يتردد على بئر زمزم فيغسل ويتوضأ ويشرب من مائها... وكانوا يشربون من مائها حتى تنتفخ بطونهم ويخافون من ذلك، ثم يأتي أحد الزمازمة بماء يعرضه عليهم فلا يردونه ويشربونه ولا يضرهم ...

وبعد أن يحكي مقولة للشيخ زروق عن ماء زمزم يسجل أنه توجد على البئر قبة جيدة، وفوقه على القبة المذكورة محراب الإمام الشافعي، وعلى باب القبة مكتوب:

هنيئاً لسلطان البسيطة والبر

عبد الحميد البر نجل المكارم

ونصـــر له أيضـــاً وفــتح ورفـــعـــة
بتـــجـــديد عـــز المآثر المتـــقـــادم

حـــفـــيـــرة إبراهيم يوم ابن هاجـــر
وركـــضـــة جـــبـــريل على عـــهـــد آدم

وهنا ينقل حول زمزم نصاً طويلاً من سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق . . .

ومن المهم أن نجد الوزاني - وقد وصل إلى مكة قبيل موسم الحج - يخصص حيزاً من رحلته للحديث عن الحركة الثقافية والعلمية في مكة المكرمة . وهنا يذكر أنه في ضحوة يوم الخميس السادس والعشرين من ذي القعدة (١٢٦٤هـ / أول أغسطس ١٨٨٣م) حضر مجلس العالم الدراكة المحدث الشيخ أحمد بن زيني دحلان المكي (ت ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م) الشافعي فوجده يقرئ صحيح الإمام مسلم . . . بشرح الإمام النووي، فأخذ عنه الصحيح المذكور، وصحيح البخاري، وموطأ مالك، وشمائل الترمذي وجامعه، والشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض . . وقد حصل الوزاني على إجازات الشيخ أحمد دحلان وحملها إلى المغرب؛ حيث أخذ يبني عليها عندما يجيز هو الآخرين . . . وهو يذكر سند هذه الإجازات عن صحيح مسلم، وصحيح البخاري، وموطأ مالك، والشمائل، والشفاء . . .

وبعد أن يعلق على بعض ما جاء في هذه الإجازات ضبطاً وتصحيحاً يذكر أن الشيخ دحلان كتب بخط يده مستجيباً لملتمس الوزاني في الإجازة، وهو يحليه بهذه النعوت : العالم الفاضل الهمام الكامل مولانا الشيخ أحمد بن العربي الوزاني . . . ويوصيه بما يوصي به نفسه تقواها وعدم اتباع غيها وهواها . . . وألاّ ينساه بصالح دعائه في خلواته وجلواته . . . ويختم الإجازة بذكر التاريخ : « وقد وافق تحرير ذلك خامس ذي الحجة عام ستين بعد المائتين والألف من هجرة من له مزيد الشرف » .

وقد رفع الوزاني نسب الشيخ دحلان إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني، ثم إلى علي بن أبي طالب وفاطمة البتول على نحو ما كتبه الشيخ دحلان مع بياض في بعض الأعلام[1] .

---

(١) ورقة ٣٦ من المخطوطات .

وهنا يأتي الوزاني بسلسة من الأسئلة التي ألقاها على الشيخ أحمد دحلان مع جواب هذا الأخير عنها وتعليقات الوزاني عليها، بل ويذكر أنه وهو في طريق العودة سأل الشيخ محمد عليش عن رأيه حول بعض الأجوبة ... كما سأل عنها عندما وصل إلى فاس الشيخ محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الفاسي[1].

وكان الأمر يتعلق بالاستدلال على وجوب الحج بآية: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...**﴾، ونظرية الأصوليين حول استعمال المشترك في معنييه[2]..

وقد دفع الفضول بابن حسون الوزاني إلى أن يسأل الشيخ أحمد دحلان عن مؤلفاته، خصوصاً وقد تعرف إلى سعة علمه ... فكان جواب الشيخ أحمد دحلان أن له حاشية على قطر الندى لابن هشام، وإلى الآن (١٢٦٩ هجرية) لم تتم، وقال: والذي صرفني عن التأليف أني رأيت أن القراءة مع الطلبة أفضل وأولى بالوقت !![3]

وإلى جانب الشيخ دحلان يذكر الوزاني أنه عند ليلة الجمعة لسبع وعشرين خلت من ذي القعدة الحرام حضر بين العشاءين مجلس الشيخ الجمال في التفسير، حيث صادفه يقرأ في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ...**﴾، فجعل الوزاني يحضر مجلسه كل ليلة إلى أن قطعه عن القراءة الخروج إلى عرفات، فوقف عند قوله تعالى: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**﴾ ... وهنا يسجل الوزاني ما أثار انتباهه مما أتى به الشيخ الجمال موثقاً له معلقاً عليه في أكثر من ثلاث صفحات.

ولا شك أن مثل هذه المجالس العلمية مما يعبر عن الجو العلمي الذي كانت عليه مكة المكرمة في أثناء مواسم الحج.

---

(١) يتأكد لي أن القصد إلى شيخ الجماعة بفاس العلامة محمد بن عبدالرحمن الفيلالي الحجرتي الذي كان يحضر مجلسه من الفقهاء الكثير، ومن الطلبة الجم الغفير ... عرضت عليه المناصب فلم يقبلها مفضلاً مجالسه العلمية، توفي يوم الجمعة ١٧ من المحرم ١٢٧٥هـ. الكتاني، السلوة، ج١١، ص٢٠٧. د. التازي، تاريخ جامع القرويين بفاس، ج ٣، ص٨١٢.

(٢) الورقة ٣٧ من المخطوط.

(٣) كان سن الشيخ دحلان على ما ذكره للوزاني ٣٨ عاماً، ومن هنا نعرف أن تآليفه اللاحقة كانت بعد هذا العمر.

وبعد هذا يأخذ ابن حسون الوزاني في تعداد المشاهد التي زاروها بمكة: قبور العلماء بالمعلى من مشارقة ومغاربة: الشيخ أبي السعود، الشيخ العبادي، الشيخ التواتي، الشيخ محمد صالح، العارف عثمان المرغني تلميذ أحمد بن إدريس المغربي ... إلى قبور أخرى للصحابة ولمن كانت لهم صلة بالرسول عليه السلام ممن ذكروا في الرحلات السابقة، وهو في كل هذا يجرد قلمه للتعليق والإضافات المفيدة ... وكان مما رأى نقله قطعة شعرية دالية وجدها جوار ضريح السيدة آمنة أم الرسول عليه الصلوات.

ويأتي بعد هذا دور المساجد التي زارها: مسجد الجن، ومسجد الراية، ثم الجبال المحيطة بمكة ناقلاً عن العياشي والناصري وغيرهما ...

ويفيد أن دليله في التعرف إلى تلك الأماكن الشيخ عثمان ابن الشيخ المدرس عبدالرحمن الحريري المكي أصلاً الحنفي مذهباً، والشيخ أحمد بن جعفر البصراوي الأصل المكي المنشأ والدار... فلهذين الشيخين معرفة تامة بمكة وأماكنها وأهلها، وبمناسك الحج والأدعية الواردة عن الأشياخ.

ويعود الوزاني لمذكرته حول الحج فيذكر أنه في يوم الأحد سابع ذي الحجة منّ الله عليهم بدخول البيت العتيق؛ لأن دخوله مطلوب وأمر مرغوب فيه ومندوب، مستدلاً بنص الشيخ خليل المالكي ... هناك صلوا ست ركعات لثلاث جهات جاعلين باب البيت خلف ظهورهم، وتبركوا بأعمدته وأركانه هي السنة .. وكانت مناسبة ليتحدث عن أدب زيارة البيت العتيق بما عرفناه ... وهنا استطرد يذكر ما يمكن أن يندرج تحت قوله تعالى: ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ...﴾ وذكر منها بعض ما قاله جملة الرحالين وأنكره بعضهم، مثل أن الطيور لا تعلو البيت الحرام ...

ويعود الوزاني إلى مذكرات من الرحلة فيذكر أنه في يوم الاثنين ثامن ذي الحجة خرجوا من مكة متوجهين إلى عرفات، فنزلوا بمنى ... وبعد الاستراحة ركبوا متوجهين إلى عرفات، وتركوا المبيت بمنى اعتماداً على ما أفتى به بعض العلماء المتأخرين من ترك المبيت بها خوف فوات الوقوف بعرفة إن ظهر أن ذلك اليوم هو يوم عرفة، وعليه جرى عمل المتأخرين اليوم. ونزلوا بعرفات عند المغرب فباتوا بها تلك الليلة وأقاموا بها بالغد

إلى أن تحقق الغروب ودفع الإمام فدفعنا معه، ثم إن الفطر يوم عرفة للحاج هو السنة؛ لأنه أعون له على الدعاء والذكر بخلاف غير الحاج فسنته الصوم، كما هو معلوم.

ولا بد أن يجد الوزاني الفرصة للحديث المفصل عن كلمة عرفات لغوياً ونحوياً وجغرافياً . . .

ويستمر الوزاني في حديثه عن الحج ليقول: إن عمل الناس جرى أيضاً هذه الأيام وقبلها على ترك النزول بنمرة، فينزلون من أول الأمر بمحل الوقوف تقليلاً للتعب، ودفعاً للنصب.

وبعد أن يتحدث قليلاً عن أن ماء عرفة غزير، وأن السيدة التي أجرته إلى عرفات ـ على ما يقال ـ هي زبيدة، ومن هناك يدخل لمكة، وعين زبيدة معروفة بمكة، وعليها المدار.

بعد ذلك يرجع إلى الحديث عن المزدلفة دون أن يكلف نفسه الحديث عن الوقفة التي صادفت يوم الأربعاء . . . والحديث عن الخطيب . . . وهو إجحاف نستغربه من الكاتب الوزاني الذي عودنا على الاستطرادات والتعليقات. . .

لقد انتقل مباشرة للحديث عن المزدلفة التي لاحظ أنها تسمّى على صيغة الجمع، وصلى المغرب والعشاء جمعاً وقصراً امتثالاً للسنة، وباتوا هناك إلى أن طلع الفجر . . . وبعد الصلاة ركبوا ووقفوا بالمشعر الحرام للدعاء إلى أن أسفر النهار واتضح، ثم ارتحلوا فوصلوا إلى منى ونزلوا بها . . .، ثم رموا جمرة العقبة سبع حصيات. وهنا أيضاً يأتي بأقوال الفقهاء حول المطلوب من الحاج في يوم النحر هذا، ما له وما عليه. وبعد أن حلقوا وذبحوا قصدوا مكة لطواف الإفاضة الذي هو أحد الأركان الأربعة . . .

ثم رجعوا في الحين للمبيت بمنى لياليها للجمرات، وهنا تبركوا بزيارة المآثر التي بها؛ حيث ينقل عن الإمام أبي سالم العياشي وعن رحلة الناصري، قال: ورأيت على جانب محراب المسجد بيتين هذا نصهما:

نزلنا ها هنا ثم ارتحلنا

كذا الدنيا نزول وارتحال

يظن المرء في الدنيا خلود

خلود المرء في الدنيا محال!!

وبعد حديث عن السر الذي جعل من منى مكاناً لهذا الحشد من الحجاج، وأنها كفضاء تسع ما يأتيها من الأركاب بما يتبع ذلك من النحر، وما يترتب على ذلك من الفرث والدم واللحم والجلود، على ما حدثه به بعض الثقات العارفين من أهل مكة.

وقد رجعوا إلى مكة عشية السبت رابع النحر بعد رمي الجمرات لكونهم لم يكونوا من المتعجلين.

ما كان أهنا وأحلى حجة حصلت

لنا فنلنا الذي نرجوه من أمل

رحنا إلى عرفات والذنوب على

ظهورنا فحططناها على الجبل!!

ويبدي الوزاني ابتهاجه وفرحته بأن موسم الحج جمعه بعدد كبير من العلماء سواء منهم المغاربة والمشارقة من الذين لقيهم بالحرم الشريف وبعرفة ومنى وغيرها من الأماكن السعيدة..

ويتحدث بعد هذا عن قيام الجماعة يوم الاثنين ١٦ من ذي الحجة بأداء سنة العمرة حيث انطلقوا من التنعيم، ولو أن الجعرانة أولى، كما يقول خليل ...

وهنا يجد الفرصة للحديث عما ورد حول العمرة من آثار ...

ويختم تحركاته يوم الجمعة ١٩ من ذي الحجة بطواف الوداع: «وأكبادنا من ألم فراق البيت في انصداع، وكيف لا تنفطر قلوب المحبين عند فراق المحبوب، أم كيف لا تنسجم عبرات العاشقين عند مباينة المطلوب؟!».

التامراوي ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م

صاحب هذه الرحلة هو محمد بن محمد بن محمد ... التامراوي الإدريسي ... علامة كبير من سوس، حج واستورد كتباً كثيرة من المشرق خاصة، ويتوفر على إجازات من العلماء المشارقة، توفي نحو سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م، وقد ظفر شيخنا الراحل المختار السوسي برحلته إلى الحج التي كانت سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م، ونحن نلخص هنا ما جاء منها عن مكة منبهين على أن أسلوب الحديث عن هذه الرحالة يتميز بالاختصار والتركيز في المهم مما كان يريد أن يقوله، كل ذلك في صراحة وبساطة وتواضع[١]...

« ... فدخلنا مكة - شرفها الله - ليلة الخميس الثالث من ذي الحجة[٢] (٢٨ يونيو) فتهيأنا لطواف القدوم ضحى يوم الخميس، فطفنا وسعينا بفضل الله، ولما دخلنا للطواف من باب السلام حصلت لنا هيبة عظيمة، ولا ندري كيف نفعل لولا الشريف المكي الذي معنا وعلمنا، وطاف وسعى بنا، وعلمنا المناسك، وجمعنا له ما تيسر من الصدقة بعد الفراغ من السعي، فمكثنا في مكة بفرح وسرور لا يعلم قدره إلا الله.

ثم خرجنا للوقوف يوم التروية فنزلنا بمنى، وصليت فيها الظهر والعصر، فزرنا جامعها وهو مسجد الخيف ...».

وهنا ينقل عن رحلة أخرى: رحلة العالم المدرس محمد بن أحمد نزيل أيسي، ينقل عنه معلومات عن طول مسجد الخيف وعرضه ، وعن قبته المثمنة، حيث كان فسطاط النبي ﷺ قبل أن تبنى القبة.

«فخرجنا من منى، ولم نبت فيها، وبتنا بعرفة ليلته؛ لأن منى لم يبت فيها إلا قليل ممن لم يتعلق بالبهائم، والسنة المبيت فيها، لكنها نسيت، بل جل الناس لا ينزلون فيها ولو ساعة! بل يمرون بها لعرفة، حيث يفضلون النزول ...»

---

(١) محمد المختار السوسي: المعسول، ج ٨، ص ١٩٧ - ٢١٣، طبع بمطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٣.

فلما قرب زمان يوم الأربعاء التاسع من ذي الحجة باتفاق الناس أنه عرفة تهيأنا للوقوف بالغسل، فسرت إلى مسجد نمرة للصلاة، ولم يذهب إلا القليل من أهل الموقف، وبينها وبين موضع الوقوف مسافة، وكنت غير راكب أسير في رمل حار، وقد كادت روحي تخرج لشدة الحرارة من الضعف الكثير! (بداية يوليو)، فصلينا فيها الظهرين بالجمع، في أول الزوال بعد خطبة الإمام، صلى الإمام بالناس بالكمال من غير قصر، وهو حنفي، فلما رأيت ذلك علمت أنه غير مالكي؛ إذ السنة عندنا الجمع والقصر لغير أهل عرفة.

وكذا لم أسمع الأذان، فلما صلينا وزرناها رجعنا إلى موضع النزول في عرفة فمكثنا إلى قرب العصر، فرحلنا وركبنا، فوقفنا قرب الإمام الخطيب تحت مصرف الماء الذي بكدية عرفة، وهو فوق بناء موضع وقوفه ﷺ، وهو راكب على جمل عظيم مزين بأنواع الحلل ... أو ناقة، وبيده الكتاب الذي فيه الخطبة، وشرع في الخطبة، والناس في التأمين والتلبية والدعاء إلى غروب الشمس.

وترى الناس من كل جهة، بارك الله في أمة سيدنا محمد! فاندفع من الناس بعد الغروب، وبقيت واقفاً مع بعض أهل المغرب إلى أن نزل الإمام، ومرّ علينا ومكثت يسيراً بعد[1]، حتى تحقق الوقوف هنيّة بعد الغروب الذي هو الركن عندنا، والوقوف نهاراً ليس بركن، بل واجب ينجبر بالدم عندنا، وكنت واقفاً على جمل اكتريته مع رفيقي الأستاذ سيدي محمد البعقيلي أعجلي[2]، فسرنا إلى مزدلفة في زحام عظيم، وفرح كثير، وطفق الأمراء في إخراج المدافع والأنفاض، وقد كان الافتخار بين أمراء مصر والشام بالقوة والشدة وكثرة العدد والأموال، إلا أن الشامي أكثر قوة وعدداً ومالاً ومدافع، وأحنى على مساكين الحجاج!

وأخذوا في إخراج المدافع إلى مزدلفة، فلما نزلت فيها صليت العشاءين جمعاً وقصراً للعشاء، وبتنا فيها عند المسجد إلى صلاة الصبح، فغلسنا وسرنا إلى منى، ووقف الخطيب مع جل الناس للدعاء عند مسجد مزدلفة، إذ مزدلفة كلها مشعر، بيد أني لم أقف ...

---

(١) المعسول، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن علي بن أحمد أعجلي، المتوفى سنة ١٢٧١هـ، وقد ترجمه مطولاً في المعسول الجزء الخامس، ص ٢٩٢ - ٢٩٩.

لتعجيل جل الناس، بل دعونا في مقابلة الإمام، فسرنا لمنى من غير انتظار له، فلما[1] وصلنا رمينا جمرة العقبة، ثم نزلنا بقرب من أهل منى، فذبحنا، فذهبنا إلى مكة لطواف الإفاضة، فطفنا وكملت أركان الحج وتم، والحمد لله على هذه النعمة العظمى.

وألفيت البيت الحرام مفتوحاً، فدخلته بفضل الله مع نحو من خمسة عشر من رفاقي، وألبست حللاً وثياباً نفيسة مزينة مطيبة مطهرة، كما نص الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾، وهي تكسى في كل عام في عيد الأضحى، وينزل ما عليها من الثياب ويقطع ويباع للحجاج، وفي جواز ذلك خلاف بين الأمة، ويأتون بذلك لبلادهم تبركاً.

ورجعنا لمنى فبتنا فيها ليلتين للرمي، فرمينا اليومين بعد العيد، وعجلنا فقفلنا فيها يوم السبت بعد الرمي؛ لأن الناس كلهم عجلوا على ما قيل.

فنزلنا خارج مكة بالمحصب حيث المقبرة، فصليت فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وزرت في مقبرة أهل مكة خصوصاً أم المؤمنين خديجة أم فاطمة الزهراء.

ثم دخلنا مكة بعد العشاء ومكثنا فيها فأتينا بالعمرة من التنعيم بعد تمام الحج، وزرت مسجدها.

ومكثنا في مكة إلى يوم الأحد الموفي عشرين من ذي الحجة، حيث عزمنا على السفر والقفول إلى المدينة، فبرزنا خارجها بذي طوى بعد طواف الوداع، فنزلنا فيه حتى اجتمع ركب أهل المغرب والركب التواتي، فقفلنا يوم الأربعاء مع الركب المغربي بعد أن زرت ما تيسر من المزارات..

ومن الطريف أن نقرأ في هذه الرحلة عن التامراوي أنه تلقى إجازة من شيخه الفقيه النحرير محمد الحبيب بن عبد القادر الفيلالي أصلاً المجاور هناك والملازم للحرمين الشريفين، وأن الشيخ المذكور ناوله نظمه العجيب الغريب الذي يعرف به قدره في اصطلاح القاموس، المسمى «الأنفس المانوس» الذي لم يسمع به شيخنا المختار السوسي.

ونختتم بما لاحظه التامراوي من شيوع عادة التدخين في المشرق، لا فرق بين رجال ونساء ... وقد كانت مفاجأته أكثر عندما لاحظ أن مجلس القضاء ذاته يشهد الناس وهم يدخنون وكأن طابة عندهم قوت من الأقوات!!

---

(١) المعسول، ج ٨، ص ٢٠٥.

. ابن البشير ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م(١)

لا بد أننا ما نزال نذكر الحديث عن الحاج الشريف العباسي ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م، وهنا سنقدم نمطاً آخر مما قد يدخل في ذلك الإطار، ويتعلق الأمر بجيْل - جيرفي كورتلمون Gervais Courtellemont الذي أمسى يحمل في الجواز اسم عبدالله بن البشير، ووجدناه بدوره يقوم عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م بما يمكن أن نسميه "عمرة"(٢)!!

لقد قيل عن هذا "المعتمر" أنه اعتنق الإسلام، كما تحدثوا عن إشكاليات الختان على نحو ما قالوا: إن كتاباته كانت جيدة عن المسلمين، ويفهم من بعض المحققين أن الرجل غامض... لقد كان الهدف الذي يرمي إليه الحاكم الفرنسي العام للجزائر آنذاك جيل كامبون J. Cambon هو وقف هجرة الجزائريين، ومحاربة نفوذ الجامعة الإسلامية الذي أخذ يتعاظم بعد تبني السلطان عبد الحميد الثاني لأفكار جمال الدين الأفغاني في محاربة النفوذ الأجنبي، وهكذا حمل جيرفي كورتلمون استفتاء إلى علماء الحرم المكي ليحصل منهم على جواب يقضي بأن الهجرة حرام ما دام الحكم الفرنسي لم يمس المسلمين في عقيدتهم..! إذ نرى أن الحيلة انطلت على من وافق على الفتوى من علماء الحرم...!!

والمهم في حديثنا عن هذا "المعتمر" أنه كان ثاني فرنسي يدخل مكة بعد ليون روش Leon Roche الذي دخلها قبل نصف قرن! مولَعاً بالتصوير؛ إذ نجد له بضعاً وثلاثين صورة، فيها منظر لمكة مأخوذ من أعلى جبل أبي قبيس، وفيها بيوتُ مكة وملابس أهل الحجاز، وقصر الشريف على طريق منى، والمرأة في مكة والحجر الأسود إلخ..

لقد وصل ابن البشير إلى مكة بمساعدة الحاج أكلي الذي كان أدى فريضة الحج قبل

---

(١) نلاحظ أننا تعمدنا هنا إثبات تاريخ الزيارة، وليس تاريخ وفاة الكاتب الذي هو ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م، وذلك لتسهيل المقارنة والمفارقة مع الرحلات الإسلامية المقاربة لهذا التاريخ.

(٢) د. أبو القاسم سعد الله: فرنسيان في الحجاز، مجلة المنهل (السعودية)، أغسطس ١٩٩٦م. رحلتي إلى مكة ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٤م للفرنسي جيل جيرفي كورتلمون، قرأها وترجم منها وعلق عليها د. محمد خير البقاعي، مجلة «العرب»، الرياض، إبريل - مايو - يونيو - يوليو ٢٠٠٢م.

هذا التاريخ، ونحن نعتمد في هذه الإفادات على ما نشره الزميلان الباحثان قبلنا د. أبو القاسم سعد الله، ود. محمد خير البقاعي في مجلة (المنهل) ومجلة (العرب) السعوديتين، كما نبهنا عليه في أول تعليقٍ لنا بالهامش.

وبداية يتحدث كورتلمون عن وسائل النقل المتوافرة بين جدة ومكة المكرمة، فيذكر أن أسرعها وأنشطها حمير جدة التي كم سمعنا عنها من خلال كتابات الرحالين المغاربة حتى لَضربت الأمثال بها في الدارجة المغربية على ما قلناه عند الحديث عن رحلة السيد أحمد بن ناصر.

لقد كانت الحمير أسرع من الجمال في قطع مسافة الـ ٨٧ كيلومتراً الفاصلة بين جدة ومكة المكرمة. إن السرعة في قطع الطريق مطلوبة بسبب كثرة البدو الذين يسلبون قوافل الحجاج. ويتحدث كورتلمون عن وصوله إلى مكة المكرمة، ويقول: إنه كان وصولاً مفاجئاً؛ لأنها تقع بين جبلين متقاربين، ولم يعلم بالوصول إليها ـ كما يقول ـ إلا عندما وطئت قدمه أول شوراعها. ويذكر أيضاً اسم مطوفه عبدالرحمن بوشناق، مطوف المغاربة. ويتحدث عن الحرم المكي، وعن الكعبة المشرفة، ويصحح الخطأ الذي كان يبدو أنه شائع في فرنسا حينذاك من أن الكعبة هي قبر النبي ﷺ، ويؤكد أن قبره في المدينة المنورة، ويورد قول المطوف: «لا تظننّ يا أخي أن عليك أن تعبد هذا الحجر، أو ذلك الحرير، أو الذهب الذي يغطيها، أنت هنا في محور الأرض، كل المسلمين في أنحاء الأرض يتجهون بصلواتهم إلى هذا المكان ليصعد ثوابها من هنا إلى السماء مباشرة، أنت أقرب ما يكون إلى الله، تلك هي القضية كلها». ونعلم أيضاً أن المدعو أحمد بوشناق، وهو قريب المطوف، أخذ بيد كورتلمون ليطوف به سبع مرات حول الكعبة، وليمكنه من تقبيل الحجر الأسود، ثم يذهب به بعد ذلك للسعي بين الصفا والمروة، ثم يصف بعد ذلك المشاعر المختلفة التي كانت تنتابه في هذه التجربة الفريدة. ويصف أيضا الصلاة في الحرم، والأضواء التي تنار فيه عند حلول الظلام. ويصف بيوت مكة المكرمة، وعادة النوم على السطوح في ليالي مكة الرائعة. ويذكر لنا الأشخاص الذين قابلهم عدا المطوف، مثل عبدالواحد، وهو من أصل مغربي، متزوج من هندية وله ثلاثة

أطفال، وكان يرافق كورتلمون في جولاته الطويلة في أحياء المدينة المقدسة، وهو الذي ذهب به إلى منى، وبرفقته استطاع أن يلتقط بعض الصور بآلة التصوير التي كان يخفيها بمهارة في طيات سجادة الصلاة، التي كان كورتلمون يحملها على كتفه، شأنه، كما يقول، شأن كل الناس في مكة المكرمة. ويروي لنا قصة المنظر العام الذي التقطه هو من أعلى جبل أبي قبيس، فيقول:

«إن البانُورَاما المؤلفة من اللوحات الخمس، التي عدت بها من تلك الرحلة الخطيرة، وهي أولى الصور التي التقطت للمدينة كلها، لهي أكثر بلاغة من أي وصف، وتسمح بكل دقة بتقدير أهمية العاصمة الدينية للإسلام». ويقدر كورتلمون سكان مكة المكرمة في ذلك الوقت بـ ١٠٠ ألف نسمة، ٧٥٪ منهم من الهنود. ويتحدث أيضاً عن الدرويش الجزائري، وهذا لقب عرف به أحد الحمالين الجزائريين، الذين ساقتهم الأقدار إلى مكة المكرمة، وهو يقضي جل وقته في الحرم المكي، في التأمل والصلاة، ويأكل على موائد الذين يدعونه من الأصدقاء الذين يفعلون ذلك بطيبة خاطر للطف الرجل وحسن مظهره ومخبره. ويتحدث أيضاً عن سوق الصاغة، وعما يلقاه المرء من تعبٍ في شراء الذهب بسبب الطقوس المتبعة في وزن الذهب، وتقدير سعره لدى شيخ الصاغة الذي لا يمكن بيع أي قطعة حلي دون العودة إليه، وكل ذلك ـ كما يقول كورتلمون ـ يتطلب الصبر والتجلد. ويتحدث أيضاً عن الجمال الخضر التي تأتي في كل ليلة إلى مكة المكرمة تحمل أهل التقى من موتى المسلمين من كل أنحاء العالم، كما تحمل من مكة رفات غير المستحقين الدّفن بها إلى بلد بعيد، حتى يحين يوم العقاب أو الغفران. ويتحدث كورتلمون عن الشيخ عبود[1] مفتي المالكية، ويصفه «بأنه يحب رواية الحكايات

[1] القصد إلى الشيخ محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسين، مفتي المالكية بمكة المكرمة، ولد في عصر يوم الأحد من شهر رجب سنة ١٢٧٥هـ في مكة المكرمة، فأحاطه والده برعايته، ورباه تربية إسلامية، نبغ في علوم الدين واللغة، مما أهله لتولي منصب الإفتاء بعد والده على مذهب الإمام مالك في الحرم المكي الشريف. وكان الشريف عون ناقماً عليه متربصاً به، ونفاه مع جماعة إلى اليمن، وأقام بدبي فترة طويلة، ثم عاد إلى مكة المكرمة متنكراً، وظل متخفياً حتى وفاة الشريف عون سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م. توفي محمد عابد سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م. انظر ترجمته في كتاب عمر عبد الجبار: سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع الهجري، ط٢، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ص١٣٢-١٤٣.

والقصص والأشعار حباً جماً، ويروي عنه قصة الملك الهندي الذي جاء إلى الحج أيام الشريف عبدالمطلب[1] - رحمه الله - برفقة أسرته وخدمه، وحمل معه ثروة ضخمة، كي يقيم إقامة دائمة بمكة المكرمة، ويموت فيها ويدفن في مقبرة (المعلاة)، لعل الله يغفر له ما اقترفه من ذنوب في حق رعيته، ولكن (الشريف) عبد المطلب أنبه، وأخبره أن موته في مكة المكرمة ودفنه فيها لا يغير من أمره شيئاً، وقال له: «اذهب هذا المساء لتنام وحدك في مقبرة (المعلاة) على حصير بسيط، ثم عد إليّ غداً، وقصّ عليّ ما تراه في الحلم». ونفذ الملك الهندي ما طلب منه عبد المطلب، ورأى في منامه أشباحاً بشرية تتحرك غير واضحة المعالم حول الجمال العجيبة التي تحمل أحمالاً ثقيلة.

إنها الجمال الخضر التي تحدثنا عنها قبل قليل، ويروي له الشيخ عبود قصة أخرى عن الفتى الموريسكي الذي أحب أميرةً إسبانية أسلمت على يديه، ثم فرق والدها بينها وبين حبيبها، فماتت من الجوى، ودفنت في بلاد الروم. ولما أراد الفتى أن ينبش قبرها ليسترد أسورة كان قدمها لها لتظل تلك الأسورة عنده ذكرى، هناك كانت تنتظره مفاجأة هائلة، لقد اكتشف أن جثتها ليست في القبر، وإنما فيه جثة شيخ بدوي تلتمع في يديه سبحة ثمينة، فأخذ السبحة، وبعد معاناة كبيرة، وسفر طويل، يصل الفتى إلى مكة المكرمة، أملاً في أن يموت بعد أن فقد كل من يحب. ولما وصل وصلى في الكعبة خرج يجوب الشوارع والسبحة في يديه، وإذا بفتى يصرخ في وجهه: «من أين لك هذه السبحة أيها التعيس؟ ليس لها مثيل في العالم، وكانت رغبة والدي أن تدفن معه في مقبرة المعلاة، لقد سرقتها من قبره يا نباش القبور!». ويذكر الفتى أنه عثر على السبحة في بلاد الروم، ويروي لهم قصته الحزينة بالتفصيل، فحملوه إلى القاضي، الذي قرر أن يفتح قبر الشيخ في (المعلاة) لاستجلاء حقيقة الأمر. ولما فعلوا وجدوا في القبر جثة الفتاة العذراء، والأسورة تلتمع في ذراعها، لقد قامت الجمال الخضر بمهمتها!!

---

(١) لعل القصد إلى الشريف عبد المطلب بن غالب الذي تولى أوائل سنة ١٢٤٣هـ بتكليف من الوالي أحمد باشا، لكن لكون محمد علي باشا لم يصادق على توليته عمل عبد المطلب على إجلاء الجيش المصري من مكة واستقلال مكة. السباعي: تاريخ مكة.

ثم ينتقل للحديث عن المنازل في مكة المكرمة، وعن ندرة الأشجار والخضرة فيها، ويذكر أن للشريف الأكبر[1] ثلاثة قصور فيها؛ أحدها تهدمَ منذ وقت قريب بفعل حريق شب فيه، وثانيها، وهو أقدمها وأجملها، يقع في الشارع الرئيسي على بعد حوالي ٥٠٠ متر عن الحرم، وعمارته ـ حسب كورتلمون ـ رائعة الجمال، وفيه مشربيات قديمة مصنوعة بمهارة تذكّر بالأسلوب الفينيقي. أما القصر الثالث فهو عبارة عن منزل ريفي، يقع في أقصى شمال المدينة، على الطريق إلى منى.

ويتحدث عن قصر الوالي التركي، والي مكة المكرمة والحجاز، وهو يمثل السلطة السياسية، ويقول: إنه متاخم للحرم المكي بالقرب من الصفا، وبالقرب منه تقع المطبعة الوطنية في مكة المكرمة، التي تطبع فيها الكتب الدينية والفقهية والتاريخية التي يقرها رجال الدين.

وقد كان كورتلمون خلال وجوده في مكة المكرمة خائفاً من أن يكتشف الناس حقيقة أمره فيعدونه جاسوساً، وربما لقي حتفه؛ لأنه لن يجد من ينقذه، كما أنقذ الشريف الأكبر ليون روش قبله، يقول: «إن خطر القبض عليّ بتهمة التجسس كان خطراً حقيقياً، ولكنني كنت أواجه من يسألونني عن هذا الأمر بحجة كانت هي سلاحي الذي أشهره مراراً وتكراراً، كنت أقول: لو كانت لدي نية خبيثة أخفيها لعمدت إلى الاستفادة من موسم الحج للاختفاء بين حشود الحجاج، ولم يكن لأحد أن يلاحظني في وسط الأجانب من كل الأجناس والبلاد».

ثم يقول: «ولكنه، وعلى الرغم من ذلك، لفت صديقي مفتي المالكية الشيخ عبود نظري إلى أنه ينبغي علي أن أغتبط للموقف المتساهل كل التساهل الذي تنهجه السلطات هذه الأيام مع الأجانب الذين يرغبون في الإقامة في مكة المكرمة في غير موسم الحج». وخاطبه الشيخ عبود قائلاً: «كان الأمر في الماضي مختلفاً، فمنذ سبع أو ثماني سنوات كانت السطات تُخلي المدينة من الأجانب بانتهاء موسم الحج الرسمي». واسترسل كورتلمون بعد ذلك في الحديث عن مفتي المالكية هذا فيقول: فتجرأت يوماً

(١) القصد إلى عون الرفيق باشا ابن محمد عبدالمعين المتوفى سنة ١٣٢٣هـ.

وسألته عن أصل اللغة العربية، وقلت له: يزعم علماؤنا أن الكتابة العربية تنحدر في بعض جوانبها من العبرية. فردّ عليّ ساخطاً: أيّ دجل هذا؟ إن لدينا في المكتبة مخطوطات قديمة تعود إلى فجر التاريخ، قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ بزمن طويل، ولما أعربت له عن رغبتي الشديدة في رؤية إحدى تلك المخطوطات لأنظر فيها، أجاب الشيخ عبود: إن رؤية تلك المخطوطات ليس بالشيء اليسير، وإنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية إحضار إحداها أو مرافقة كورتلمون إلى المكتبة التي تحفظ فيها، على الرغم من الثقة التي تبدو فيما قاله له. يقول الشيخ عبود مخاطباً كورتلمون: «لقد نفذت بصيرتي إلى مخبرك، وأنا أثق في صدقك، ولكنني لست إلا عبداً بسيطاً من عباد الله، ولا أستطيع أن أفعل لك كل ما أتمناه لك من خير ...». ويقول كورتلمون: «ثم سألني بعد ذلك: هل رأيت النقش الحجري الموجود على طريق منى؟ فأجبته بنعم، على يسار الطريق، على مسافة يسيرة من مدخل القرية، ولكنه نقش كوفي متأخر، وليس له في نظري أي أهمية علمية، فأجابني: لقد كانت هناك فيما مضى على الطريق إلى عرفات نقوش كتابية مزينة برسوم تحتوي وجوهاً بشرية تعود إلى ما قبل الإسلام ...».

ويثبت كورتلمون زيارته للبقاع المقدسة في رسالة بالعربية مع ترجمتها الفرنسية من الشيخ عبود إلى مفتي المالكية في الجزائر، ويدعى ابن زاكور، وهي مؤرخة في ٧ ربيع الآخر ١٣١٢هـ.

وقد غادر كورتلمون مكة المكرمة بعد أن زار كلَّ ما يود زيارته من أماكن الحج، وغادرها ممتطياً حماراً، شأنه في ذلك شأن الحاج أكلي وبعض المسافرين الذين كانوا أصدقاء للحاج أكلي.

تلك قصة زيارة عبدالله بن البشير إلى مكة، ونترك للقارئ التعليق على العناصر التي تضمنتها مذكراته.

ابن كيران ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م

هذه رحلة تحمل عنوان: «الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية»، وهي لأحد علماء فاس الأستاذ محمد الطيب بن أبي بكر ابن الشيخ الطيب بن كيران، والشهير برسالته حول الدعوة الوهابية التي ألفها بأمر من السلطان المولى سليمان في جواب هذا الأخير عن رسالة الأمير سعود الكبير، على ما سنرى في رحلة الأمير المولى إبراهيم بن سليمان.

وقد توفي ابن كيران صاحب الرحلة سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م.

وقد كتبها عن رحلته التي تمت عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م بصحبة جماعة من الأشراف الوزانيين، وكان منهم الحاج عبدالجبار بن محمد بن عبد الجبار بن علي بن أحمد الوزاني.

وهي منشورة بالمطبعة الحجرية عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م بتصحيح مؤلفها في حجم متوسط من أربع وثمانين صفحة، ومعلوم أن الحديث عن المناسك يعني الحديث عن المسجد الحرام والكعبة والصفا والمروة ومنى وعرفات[١]، وقد فات ذكرها على صاحب معجم المطبوعات.

---

(١) ابن سودة، ص ٣٥٤.

المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ص ٨١٩، ٨٢٠، ٩٧٣، ١٠٦٨.

السنوسي التونسي ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م

هذه رحلة محمد السنوسي الذي أحرز شهادة جامعة الزيتونة سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م، وأصبح من موظفي الدولة التونسية[١]... فلم يلبث أن تلقى إذناً يحمل تاريخ ٢٢ جمادى الأولى ١٢٩٩هـ (١١ أبريل ١٨٨٢م) بالتوجه إلى الحج على خطاب يحمل توقيع محمد الصادق باشا، وهذا نصه:

«... سرحنا الفاضل الشيخ سي محمد السنوسي للسفر من حلق الوادي لحج بيت الله الحرام بلا مصرف...».

ولم تبتدئ الرحلة إلا يوم ٨ رجب سنة ١٢٩٩هـ (٢٥ مايو ١٨٨١م)، وكانت عبر أوروبا... ولم يصل إلى مكة المشرفة حتى فجر يوم الثلاثاء ٢٨ من ذي القعدة ١٣٠٠هـ/ ٣٠ سبتمبر ١٨٨٣م عبر ميناء جدة[٢].

ابتدأ الشيخ السنوسي حديثه عن مكة بالكلام عن أم القرى التي بها كعبة العرب، ومحل حكومتهم العظمى، ومقر أشرافهم مذكراً بأن تسمية مكة آتية من أنها قليلة الماء، وأنها تسمى كذلك (المعطشة) إلى آخر الأسماء التي اختارها.

وهنا يستطرد الشيخ بذكر تاريخ مكة، وهل فتحت عنوة أم صلحاً؟ ويستمر في الحديث عن تاريخ بناء الكعبة، وتولي قصي بن كلاب الكعبة وسدانتها... إلى الحديث عن تعظيمها، وتحليتها بصفائح الذهب والكسوة... ثم يأخذ في ذكر الحركات التي قام بها، وهكذا، فبعد أداء فريضة الصبح التزم السير راجلاً حافياً محرماً يلبي داعياً متوسلاً.

وتلقانا المطوفون - يقول السنوسي - فأعلمتهم بأن مرادي الدخول على طريق كداء، فأخبروني أنه لم يبق طريقاً مسلوكاً، وأن طريق القوافل ربما هو الطريق المسلوك، فطلبت

---

(١) طبعت الرحلة بتحقيق علي الشنوفي ثلاثة أجزاء، نشر الشركة التونسية للتوزيع ١٣٩٦هـ / ١٩٦٧م.

(٢) جزء ثالث صفحة ٨٥ من المخطوطة، ص ١٦٥، ١٧٧ من المطبوعة.

الاستقلال بالسير على طريق كداء، وانفردت فيه مع المطوف حسن صباغ[1].

ودخلنا المسجد الحرام من باب السلام، وأدينا سنة الله هنالك بطواف القدوم ومستتبعاته، ولقد رأيت المطوفين يحملون القادمين على المناسك بمقدار معرفتهم هم لها مع انهم لا تبعد حالتهم عن الجهل حتى إني كنت مضطبعاً[2] في ثوب الإحرام فتجاسر المطوف عند شروعه في الطواف وأخذ ثوبه وستر به كتفي، كما رأيت غيره يفعل مع غيري، وبعد فراغه من عمله أرجعت الاضطباع، وأمرته بالشروع في الطواف!

ثم بعد الفراغ أعلم الشيخ السنوسي مطوفه بحكم المسألة من الناحية الفقهية... ثم إن المطوف دعا إليه أفراداً من المسجد عند حجر إبراهيم، وذكر أن موضوعهم تلقي الصدقات من ذاك المسجد الحرام من الوافدين، فصرح للمطوف ولأولئك الأفراد بكراهة الصدقة داخل المسجد في مذهب المالكية..!

واشتغل السنوسي بتأجير البيت المناسب له مع مقدار نفقته اليومية، ومع تحديد نوع الطعام الذي يتناوله مع مراعاة الحمية... وهذا ما جعل مقامه بمكة في كمال الراحة..

وبعد أن يسوق قصيدة عينية له ضمنها منازل المسير، وأول المناسك، وأسماء المشاعر، يخبرنا أنه كان من المحظوظين الذين دعوا لحضور غسل الكعبة في صبيحة يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ (١ أكتوبر ١٨٨٣م)، فحضر الشريف عبدالله، وعثمان نوري باشا والي الحجاز والسيد الشيبي وقاضي مكة السابق وقاضيها الجديد وبعض الأفراد من خاصة الوافدين، وقد ائتزر أولئك الموظفون بطيالسة من الكشمير، وابتدأ العمل جناب الشريف، وكنت ـ يقول السنوسي ـ من الخادمين في ذلك الغسل إلى منتهاه، والمنة لله، وصليت داخل الكعبة للجهات الأربع ثم صليت للجهات التي بينها، فصليت لثماني جهات، وأعددت ذلك من سعادة الحياة.

وينتقل إلى الحديث عن النشاط العلمي بمكة المكرمة، وهذا مهم، فيذكر أن الحرم

---

(١) من المعلوم ان هناك فرقاً بين كَداء بفتح الكاف والمد كسماء وهو الثنية العليا التي دخل منها رسول الله مكة، وهناك كُدي (بضم الكاف)، وهو الثنية السفلى التي خرج منها ﷺ.

(٢) اضطبع المرء: أبدى أحد ضبعيه (الضبع وسط العضد)، ادخل الرداء تحت أبطه الأيمن وغطى به الأيسر.

المكي يحتضن كثيراً من العلماء، يقرؤون دروس الفقه والتوحيد والنحو... ومن المبتدئين من يقرأ مناسك الحج. وقد صادف الشيخ السنوسي أن مفتي مكة العلامة الشيخ أحمد دحلان كان يقرأ تفسير البيضاوي بعد صلاة الصبح، ويحضر درسه كبار العلماء، وبعد انفصالهم عن درسه يتوزعون على جهات المسجد الحرام للتدريس بها، فتخرج من بحر دروسه تلك الجداول التي تستمر بقية اليوم في أداء واجبها، كما يقول السنوسي.

وقد أفادنا هذا الرحالة أن طريقة التدريس بمكة لم تكن تختلف عنها في بلاده: يقوم الشيخ بعرض المسألة أولاً، ثم تطبيقها على الكتاب الذي بيده. ويختم هذه الفقرة بالإفادة أن كثيراً من علماء مكة وأدبائها يشتغلون بالتجارة ويتخذون للعلم حصة من بياض يومهم على حد تعبيره. ويختتم بالإشارة إلى شيخ كان له صيت بمكة آنئذ وهو رحمة الله الهندي الذي رأى في الترجمة له[1] ما يؤدي صورة عن الجو العلمي بمكة، بل وعن الوافدين عليها، والذين يتمتعون بالجوار فيها، ممن أصبحوا قبساً لنشر العلم والفضيلة بتلك البقاع.

إن والد الشيخ رحمة الله الهندي هو خليل الرحمن الهاشمي من ذرية عثمان بن عفان... ينتسب إلى (كيرالة) قرب دهلي... وتنقل إلى (لكنو) فدرس بها... ولما ظهر في البلاد الهندية من القسيسين الإنجليز الذين كان يسعون إلى إفساد عقائد العوام بالمنشورات الموزعة مجاناً، تصدى الشيخ رحمة الله إلى إطفاء تلك الشرارات بما ألفه من رسائل، ثم طلب المناظرة مع أكبر قسيسيهم في مجلس تم في رجب سنة سبعين ومئتين وألف (أبريل ١٨٥٤م).

وكان موضوع المناظرة هو المسائل الخمس المتنازع عليها بين المسيحيين والمسلمين: التحريف، والنسخ، والتثليث، وحقيقة القرآن، ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

وظهر الشيخ رحمة الله، وخرج إلى مكة فاقترح عليه الشيخ دحلان أن يترجم إلى اللسان العربي ما يتعلق بالمباحث الخمسة من الكتب التي ألفت بالفارسية والهندية،

---

(١) ترجم له في خاتمة الجزء الثالث من الكتاب، ص ٦١-٦٢... إلخ. وليس في أثناء حديثه عن مكة في الجزء الثاني.

فكان تاليفه المعنون: «إظهار الحق»(١).

وقرر أن يقصد الأستانة ليعرف بكتابه، لكن "السياسة" كانت وراء عدم المبالاة، وحينئذ عاد إلى مكة على حال تشبه ما نسميه اليوم باللجوء السياسي؛ لأن مكة فعلاً قد جعلها الله مثابة للناس وأمناً.

وقد حضر السنوسي امتحان طلبة العلم في مكة يوم ٢٩ من ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ / ١٢ أكتوبر ١٨٨٢م في مجلس مولانا (رحمة الله)، كان ذلك في المدرسة التي تحمل اسم (الخندريسة) في سوق الليل... وكان التلميذ الممتحن هو الشيخ عبدالله بن حسين الدهلوي... الذي ناقشه العلماء الحاضرون، فأجاد في جميع الأسئلة - يحكي السنوسي - ثم حضر تلميذ آخر، إلخ..(٢).

وعندما يتحدث السنوسي عن رواج سوق التجارة بمكة تسترعي انتباهه ظاهرة ذكرتني بما قرأته مكتوباً في (نور فولك) على أن القصر الخاص للرئيس الأمريكي الأسبق جيفرسون الذي حذر الزائرين للمخازن التجارية بقصد شراء بضاعة معينة من ألاّ تغريهم الأسعار المخفضة لبضاعات أخرى فيقتنونها بدلاً مما كانوا يبحثون عنه أساساً... وهكذا يقتنون بضاعة لم يكونوا في حاجة إليها، فتبقى في ركن من أركان البيت، ولا يبقى لهم من المال ما يشترون ما هم في حاجة إليه!!

قال السنوسي: لقد رأيت من الواردين للحج تهافتاً على شراء ما لا يحتاجون إليه متعللين فقط بأنهم وجدوا الأسعار نازلة!! وهكذا يفرطون فيما بين أيديهم من المال يعوضونه بتلك البضاعات التي لا تغني في حالة السفر شيئاً!

وحدث أن فشا المرض - يقول السنوسي - وضربت (الكرنتينة) فلم يجد بعض أولئك ما يسددون به واجباتهم، فأخذوا يستنجدون، وفيهم من تردد على بعض القنصليات التي تحمي بلادهم!!(٣).

ومن المهم أن نعرف أن الدولة التونسية - كما يقول السنوسي - عمدت إلى اشتراط

(١) السنوسي: الرحلة الحجازية، ج٣، ص ٦١-٦٢ من المخطوط.

(٢) الجزء الثالث، ص ١٠٨.

(٣) السنوسي، ج٢، ص ١٧٨.

تسلمها (ضماناً) لمن يريد الذهاب للحج حتى لا يتعرض الحجاج للتطلب في الخارج!!

وبعد أن يذكر زيارته لغار حراء يؤكد أنه في اليوم الثامن من ذي الحجة خرج عشية إلى عرفات وأقام اليوم التاسع وجزءاً من ليلة العاشر، حيث تمم فريضة الحج بذلك الموقف الأعظم.

وهناك في عرفة وردت الأخبار مؤذنة بقدوم الشريف عون الرفيق من الأستانة متولياً إمارة مكة التي كان أخوه عبد الله يمارسها.

وتمت جميع المناسك صبيحة عيد الأضحى، حيث اجتمعت حشود الوافدين في أفخر الخيام لابسين جميل الثياب بعد فك الإحرام، مظهرين المسرة بما تفضل به عليهم رب الأنام.

وبعد أن يتعرض لأسباب ظهور المرض الذي يستدعي الكرنتينة والذي يعزوه إلى سوء التغذية، وكثرة القاذورات، وحرّ المكان، يعود إلى الحديث عن المواكب التي شهدها، فيذكر أن أعظمها موكب شريف مكة الذي يجلس لتقبل تحيات العيد من الخاصة والعامة بملابسه الرسمية، وحضور الطبول العربية، وحوله مواقف الموظفين وأصحاب الرتب، ومجلس لجلوس الأشراف والعلماء، قال: ولقد دخلت على الشريف عون الرفيق، فظهر الموكب، وبعد تقديم التهنئة وتقبيل يده الشريفة أمرني بالجلوس هنالك، ودخل الواردون على اختلاف طبقاتهم، ثم خرجت لزيارة أخيه الشريف عبدالله وغيره من الأشراف.

ويأتي السنوسيّ باستطراد جد مفيد عن إمارة مكة وتاريخها من عهد الرسول ﷺ إلى الشريف عون... مختتماً هذا الاستطراد هكذا:

أما أخبار هؤلاء الأشراف في إمارتهم، وإطلاقها وتقييدها إلى أن آلت إلى الانقياد إلى سلطة آل عثمان، فهي ضمن تواريخ مكة ودولة الإسلام لا تشذّ عمن يتتبع تراجم أولئك الأعلام!!

وقد قام السنوسي بمدح شريف مكة بقصيدة ميمية تلاها على مسامع الأمير الذي كان يستعيد منه بعض الأبيات.

كانت القصيدة واحدة من عيون القصائد التي اهتدى بها الشريف، والتي جعلت لها مراتب على عادة اعتناء عرب الحجاز بمقام الشعر على حد تعبير السنوسي الذي يثبت بعض هذه القصائد.

ولا يغفل المؤلف عن ذكر رد فعل تسمية الشريف عون التي تلقاها أخوه عبد الله بالسرور؛ وذلك لكون تسمية الإمارة غابت عنهم مدة بخروجها من بيتهم بولاية ابن عمهم الأبعد الشريف عبد المطلب.

ويلاحظ السنوسي أن أهل مكة كانوا مرتاحين مع الشريف عبد الله أكثر منهم مع الشريف عون لما يتسم به عون من شدة وحدة!! وهذا الأمر يفسره إلقاء القبض على كبير بني شيبة لمجرد أنه كان للشريف عبد المطلب السالف الذكر... علاوة على شدته مع العلماء.

ولعل مضايقة كبير بني شيبة من قبل الشريف عون نبهت السنوسي إلى تخصيص فصل طويل عن سدنة الكعبة: بني شيبة منذ عهد الرسول ﷺ إلى عهد السنوسي؛ حيث يقدم لنا (شجرة) حررها أحد علماء مكة بأمر من السلطان عبد الحميد[1].

وقد أخذ رحالتنا في التأهب لمغادرة مكة، وهنا نلاحظ أن احتفالات ولاية الشريف من جهة، وأن ظهور الأمراض من جهة أخرى، يعطلان خروج القوافل. وعلى كل حال، فقد رافق السنوسي قاضي المدينة الجديد عصمت أفندي في قافلة يتزعمها أحد الرجال يحمل اسم مساعد، وهكذا تعجلوا الخروج إلى ظاهر مكة، وهناك قابل الشريف عبد الله لأداء تحية الوداع... وقد أوصى به خيراً، فكان في ذلك السفر مستريحاً آمناً.

وهكذا غادر مكة في اتجاه المدينة عشية يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة الحرام، حيث نزلوا بخارج مكة في موقع يحمل اسم فهد المعروف بالشهداء جوار ضريح سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومع أنه غادر مكة لكنه بين الفينة والأخرى يسترجع ذاكرته ليتحدث عن "مقامته" التي أنشأها عن بلد معان، وبمناسبة ما تضمنته المقامة المعانية من لطائف اللغات عاد إلى

---

(١) السنوسي، الرحلة ٢، ص ٢٠١.

الحديث عن اعتناء علماء الحجاز باللغات الأخرى غير العربية، وأكثرها عندهم اللسان التركي الذي هو لسان الدولة العلية، واللسان الفارسي لكمال امتزاجه باللسان التركي، واللسان الهندي لكثرة الوافدين من الهند، واللسان الحبشي، ولسان أهل جاوة... علاوة على اللسان العربي الأصلي في جزيرة العرب.

وهنا يعود إلى القول: ومن علماء الحجاز من يدرس الكتب العالية، وهذا برهان عظيم على تقلبهم في فنون العرفان، وكل لسان بإنسان... قال: وغير خفي أن الحجاز كعبة الأمة الإسلامية... يحجون إليها من كل فج عميق، فيخالطهم ساكنو الحجاز مخالطة تفضي على كل طائفة بمعرفة لسان من يخالطونهم، وهذه أوفر داعية لحفظ الألسن وتعلم اللغات.

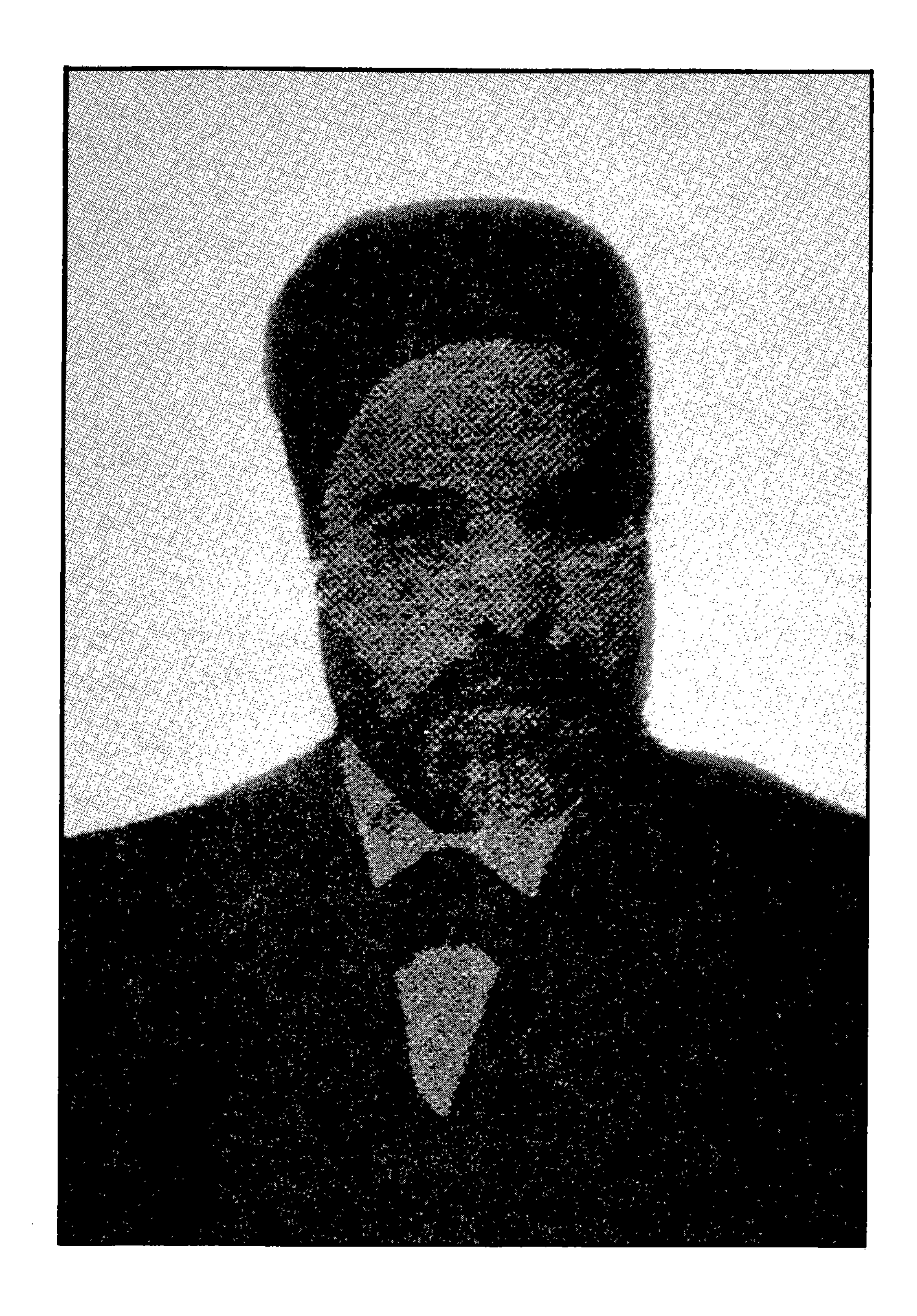
وهذا ما يفسر لنا حرص السنوسي هذا على إظهاره في جزئه الثالث من الترجمة لبعض العلماء الأعلام من المجاورين من أمثال الأفندي عبد الجليل برادة المغربي الأصل الذي كان يلقن تلامذته بخمس لغات[1]... وفي مجلس هذا تعرف السنوسي إلى علامة كبير بالمغرب هو القاضي مولاي إدريس بن عبد الهادي العلوي في حجته الثانية سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م[2]. ويتحدث لنا مرة أخرى، وهذا مهم جداً، عن الحالة العلمية بالحجاز، ليلاحظ أن العلماء كانوا محرومين من أموال الدولة! فلا جراية لهم، وليس لواحد منهم معاش من أموال المسلمين.

كانت رحلة السنوسي من أمتع الرحلات الحجازية تنوعاً وجدة وصدقاً وثراء.

---

(١) السنوسي، الرحلة، ص ١٣١.

(٢) يراجع حديثنا عن الشيخ إدريس بن عبد الهادي العلوي.



الشيخ محمد بن عثمان السنوسي

الإلغي ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م

هذه رحلة لأبي الحسن علي الإلغي، وهي من الرحلات التي عالجت الموضوع بالشعر على نحو ما قام به سابقون ولاحقون... وكان مما حدانا إلى محاولة اكتشاف الجديد في هذه الرحلة أن ابن صاحبها أديب كبير، وعالم متمكن، هو الشيخ المختار الذي ساعدنا على تقديم رحلة والده في تأليف يحمل عنوان: «أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد»(١)، الذي كان يمزج الحديث عن الحج بالحديث عن تاريخ بعض المواقع الجغرافية.

وقد كان يهمنا أن نعرف انطباعات ذلك الوالد الذي قام بحجته سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م انطلاقاً من سوس، وبالذات من إيليغ ذات التاريخ المجيد المعروف، وقد غادرها يوم الاثنين ١٧ شعبان (٢٩ أبريل ١٨٨٨م)، حيث امتطى متن السفينة من ميناء الصويرة... ثم إلى طنجة ثم إلى الإسكندرية ثم إلى جدة إلى أن وصلوا إلى هضاب مكة، حيث يعبر الحاج علي السوسي عما كان يخالجه من مشاعر وهو يرى الحشود التي تنتمي إلى كل جهة من جهات الدنيا، وقد فلحوا بالفرحة وهم أمام هذا البيت الذي طالما توجهوا إليه، واشتاقوا لرؤيته.. لقد اختلطت المواقف على الواردين:

ودهشـــة الوصـــال للألبـــاب
مـعـروفـة عند ذوي الأحبـاب(٢)

وربما يأتي البكا لدى الفـــرح
كما يجي الضحك في وقت الترح

مـا كل مـا كـان يقـال، لا ولا
مـا كل مـا قـد قـيل يلقى في الملا!

---

(١) طبع بمطبعة النجاح، الدار البيضاء، سنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.

(٢) ص ٦١ من الرحلة.

وذاك بيت ربي المفضل
حللت منه عند خير منزل
فهو وإن يشد بطين وحجر
شرفه الله بسر استتر...
مثل ابن آدم أصلهم تراب
لكن ما فيهم من أعجب العجاب!!
وإنما الأرواح بالأشباح
وإنما الأشباح بالأرواح

* * *

نزلت قرب المسجد الحرامِ
فكنت في المورد مثل الظامي
يحدوني الشوق إلى الطوافِ
والورد من ما زمزم الشافي
وبعدما أتممت سعياً سرت
إلى مقام الخل فاستدرت
والبيت يكسى كسوة الديباج
تجيء من مصر مع الحجاج
والليل في المسجد كالنهار!
كأن نار السرج من أنوار!
وبعد أن طفت خرجت للصفا
ومروة أطلب في ذاك الصفا...

وكان من جديد رحلة الحاج علي السوسي إخباره عن وجود أنصار الطريقة الشاذلية بمكة المكرمة، بل وبالمسجد الحرام الذي كان لها فيه حضور فاعل ومنتظم، وهذه معلومة لها دلالتها لا سيما مع ما نعرفه من مناوئة لهؤلاء القوم هناك.

إن كل القرائن كانت تدل على أن الحاج علي السوسي كان شاذلياً، فقد وجد نفسه بين أهله وذويه في زاوية للشاذلية تحتضنها ربوع مكة، ولم ينس الحاج علي أن يذكر أن الفضل في تأسيس الزاوية هناك يرجع للشيخ العربي الدرقاوي «الذي يغسل النفوس من المساوي...»، كان حديثه عن هذه الطريقة وأنصارها حديثاً لافتاً للنظر:

وفي الحرام حضرة للشاذلي
معمورة الأبكار والأصائلِ
فغابت الكعبة في الشهود
فما لها من بعد من وجود!
كأننا بغيرها من غير ما
فرق لدى استغراق قلب فاعلما!
لازمت أصحاب الإمام الشاذلي
وهم لباب نخبة أماثلِ
فليس لي إلا المبيت عندهم
والقلب والكف أصابا رفدهم!
فهم يبيتون على الأذكار
إلى طلوع الشمس في النهار!
قاموا إلى الطواف، هذا دأبهم
فضلهم على سواهم ربهم

وبعد شعر طويل عن الشاذلية يعود ليخبرنا بأنه أقام بمكة أربعين يوماً، وكان يتمنى أن تكون أربعين سنة! ويتحدث عن يوم الوقوف بعرفة وما سيره في جدة بين الحجاج:

وقد وقفنا يومنا في الجمعه
والخير حقاً كله قد جمعه
مع اختلاف الناس في يوم الوقوف
وفي اختلاف دائماً كل الحتوف!!

ثم أعدت وقفتي للاحتياط
أنا وكل من إليَّ قد يناط

وقد تحدث الحاج علي عن المرض الذي ألم به مما لم يعرف اسمه وسببه من غير أن يغفل عن ذكر أثر شرب الشاي في شفائه... كما تحدث عن شقيقه عبد الله الذي أدركته الوفاة:

أصابنا مع طلوع عرفه
وقبله لم نَكُ ممن عرفه
ثمت دام بعده أياما
يلم بي آونة لماما
وكنت قد دخلت مكة على
شرب لزمزم دواماً علا
ثم ملأت كل ما أمكن لي
من الأواني حيطة للقفلِ!
وبعدما بلغ سيله[1] الزبى
شربت ما تركته مما مضى
من الأتاي، فوجدته دوا
فانتعش الجسم به لما ارتوى!
فكم وكم رغبنا الأحباب
في شربه إن حضر الشراب

ولم ينس زيارته لمشاهد مكة التي اعتدنا أن نقرأ عن زيارتها من طرف الحجاج:

وزرت كل تلكم المشاهد
ما بين صادر وبين وارد

وقد اهتم الحاج علي بقضية الأمن في البلاد، وذكر أن السلطة تجوب الأطراف لفض

---

(١) القصد إلى المرض الذي اشتد بالشيخ علي.

ما عساه يحدث من نزاع محتمل:

هذا وجند الملك الخليفة
مدبر المملكة الشريفة
يكسر ما بين الحجيج جدا
صبره دون النزاع سدا!

وتحضر ساعات الفراق ومغادرة مكة يوم الاثنين ١٩ من ذي الحجة سنة ١٣٠٥هـ / (٢٧ أغسطس ١٨٨٨م)، ونسمعه يقول:

ثمت فارقت وأعيني ترى
رغماً على أنفي سنا أم القرى
خرجت من مكة في الاثنين
(يط)[1] لحجة بغير منّ

(١) يعني بكلمة (يط) عدد ١٩ بمقتضى رموز (الأبجدية).

الشيخ ماء العينين ١٣٢٨هـ / ١٩١١م

هي رحلة وصلتنا أصداؤها عما سيرويه العلامة ابن العتيق في الرحلة المعينية الآتية الذكر... فلقد ذكر أنها طبعت على الحجر بمدينة فاس غير أنه لم يبق لها أثر(١)... ولكنه نقل عنها عدداً من المقاطع، خاصة ما يتعلق بمكة المكرمة. وهكذا، فبعد حديث ابن العتيق عن ذرع الكعبة بالقدم علق على معلوماته بقوله: وبعض هذا ما ذكره شيخنا الشيخ ماء العينين في رحلته، ولو أنه يخالفه بيسير، مشيراً إلى معلومات الأزرقي في «أخبار مكة»... ثم أورد نص ما قاله شيخه... إلى أن قال: انتهى كلام شيخنا الشيخ ماء العينين.

ثم نقل عنه كذلك مقطعاً حول عدد ما في المسجد من الأساطين والقناديل والمرقوم على لباس الكعبة، وفوائد ماء زمزم نقلاً عن كتاب وجده بمكة لم ير مثله قط اسمه «البحر العميق في أخبار بيت الله العتيق» لابن الضياء الصاغاني المكي.

كما نقل عن الرحلة ما يتعلق بمقام الحنفي ومقام المالكي ومقام الحنبلي ومقام الشافعي.. أكثر من هذا ينقل عنه حول بعض المرقوم على لباس الكعبة الشريفة، فيقول من جملة ما يقول: وأما من جهة الشمال فليس المكتوب عليها إلا كلاماً عن السلاطين! كل من كانت له الولاية يكتب على اللباس زمن خلافته: على عهد مولانا السلطان فلان بن فلان حتى يعد كثيراً من أجداده، والسلطان الآن في عام حجنا الذي هو عام أربعة وسبعين بعد المائتين وألف هو عبد المجيد بن محمود خان.

ومن الطريف أن نقرأ عن حكاية الشيخ ماء العينين مع النفر الذين صادفهم بمكة من الحجاج الأفاقيين... اجتمع بهم عند الكيزان الموضوعة في الحرم... سمع ابن العتيق الحكاية منه ورآها بخطه، وهي تبتدئ هكذا: مما وقع لي زمنه بمكة المشرفة، وهو عام أربعة وسبعين بعد المئتين والألف أني قمت بعد صلاة المغرب لأجدد الوضوء من الكيزان

---

(١) الرحلة المعينية، ص ١٢٩ وما بعدها، تعليق ٢.

الموضوعة في الحرم للشرب من زمزم والوضوء، فلما أتيت لبعضها وجدت عنده رجلاً حينما جلست، فسلمت عليه فرد عليَّ السلام، واشتغلت أنا وهو بالوضوء، فإذا برجل آخر سلم علينا فرددت أنا عليه السلام، وإذا بآخر سلم علينا فرددت أيضاً عليه السلام، فاشتغلنا بالوضوء فلما أكملناه سلمت عليهم أيضاً جميعاً، والتفتّ على الأخير الذي جاءنا، وقلت له: يا أخي من أي بلد أنت؟ فقال: أنا من ناحية الشمال، وبلادنا ليس وراءها إلا سد يأجوج ومأجوج! فنحن في حد بلاد المسلمين من تلك الناحية. فقلت: كم المسافة دونكم؟ فقال لي: نحن بلادنا صعبة، ودونها الجبال والبحور، من جاء منها من جهة المشرق تكون المسافة عليه أربعة أشهر ونحوها، ومن جاء من جهة المغرب تكون ستة أشهر ونحو ذلك. فقلت له: ومن حذاءكم من أهل التجارات؟ فقال لي: تأتينا الأتراك بتجارات على التيوس الفحول المعز؛ لأن بلادنا من صعوبة جبالها لا يسير فيها من المواشي إلا تيوس المعز. فاعتبرت والتفت إلى الذي جاءنا قبله، وقلت له: يا أخي، من أي بلاد أنت؟ قال: أنا من بلاد المطلع، فقلت له: ما المطلع؟ فقال: مطلع الشمس؛ لأنا في موضع ما وراءه إلا الجبال التي تطلع منها الشمس. قال: فنحن في حد المسلمين والعمارة من تلك الناحية، فقلت له: كم المسافة دونكم؟ فقال: إن كان براً فعام، وإلا فستة أشهر أو سبعة ونحو ذلك. فاعتبرت والتفت إلى الأول الذي وجدته جلس قبلي، وقلت له: يا أخي، من أي بلاد أنت؟ فقال: أنا من أقصى بلاد اليمين، بلادنا ما وراءها إلا بلاد الصين، فنحن في حد بلاد المسلمين من تلك الناحية. فقلت له: كم المسافة دونكم؟ فقال لي: أما براً فنحو عشرة أشهر أو تسعة، وأما بحراً فحسب التيسير، من ستة أشهر ونحوها. فقلت لهم: لم يبق إلا صاحبكم، أعني نفسي. فإني من أقصى بلاد الغرب، والمسافة بيننا مع الحرم الشريف إذا كانت براً فعام أو قريب منه، وإن كانت بحراً فحسب التيسير، والأغلب ستة أشهر ونحوها، أو قريب منها كما وقع لي. وسألت كل واحد منهم عن زمن الربيع عندهم ومجيء الأمطار، فإذا صاحب اليمين والمطلع دهر الربيع عندهما فصل الخريف وما قاربه من الصيف، وذلك حال بلادنا التي هي الحوض ونحوه. أما صاحب الشمال، فدهر الربيع عنده فصل الشتاء وما قاربه من فصل الربيع.

وسألتهم عما يتصارفون به في بلادهم، فقالوا كلهم: إن التصارف عندهم بالدنانير والدراهم. وسألتهم كلهم: هل بلادهم فيها السلاطين، أو هي مستقيمة بلا سلاطين؟ فقالوا كلهم: إن بلادهم فيها السلاطين ولا تستقيم دونهم! فقلت: إن بلادنا لا يعرف أهلها ديناراً ولا درهماً. فاعتبروا غاية، وقالوا لي: بما التصارف عندكم؟ فقلت لهم: بالأنعام والأثواب والعبيد ونحو ذلك. فتعجبوا غاية التعجب. وقلت لهم أيضاً: إن بلادنا لا سلطان فيها، وأهلها مستقيمون غاية، وإنما يكون للقبيلة منها رئيس تأوي إليه في بعض أمورها[1]، والناس مستقيمة على ذلك، وأهل علم كثير. فتعجبوا من هذين الأمرين غاية، وقالوا لي: إنهم يعرفون في الحديث: إن من أحق الناس بالأمان قوماً لا يعرفون ديناراً ولا درهماً! وما كنا نظن أنه موجود في الدنيا. فقلت لهم: نعم، هم أهل بلادنا، يعيش أحدهم العمر الطويل ولا يرى ديناراً ولا درهماً، ولا عرفه إلا إذا كان من أهل العلم؛ فإنه يقرؤه في العلم. فلما قلت لهم ذلك كأنهم رأوا الفضل لبلادنا وأهلها على بلادهم وأهلهم بذلك!.

ومن أغرب الأشياء أنهم جميعاً أعاجم، وليس فيهم أحد يعرف لغة الآخر، ولا يعرفون لغتي التي هي الحسانية، ولكنهم كلهم أهل علم، وكلهم خبير باللسان العربي، وأنا ما تكلمت لهم إلا به، ولم يتكلم منهم بعض لبعض غيري، غفر الله لي، وكلهم غير صاحب الشمال قال لي: إن بلاده فيها الأنعام، ومن الغريب عندي أنا لم يأتنا شخص واحد غيرنا، فالتفت إليهم وقلت لهم: أعلمتم أن الله قادر على أن يجمعنا ليوم لا ريب فيه؟! فقالوا كلهم: نعم، نعم، فقلت: الدعاء. فرفعنا أيدينا، فدعوت وأمنوا على دعائي. والتفت إليهم، فإذا هم جميعاً متقاربون في السن، كل واحد منهم في

(١) ليس المقصود في هذه الإشارة أن الصحراء المغربية لم تكن تابعة للسلطة المغربية، وإنما المقصود منها ضعف السلطة المركزية في هذه الجهة النائية من المملكة المغربية، وارتباطها بسلاطين المغرب عن طريق مجموعة من الشيوخ والرؤساء الذين يمثلون المخزن بها. وقد كانت هذه الظاهرة عامة في كثير من جهات المغرب وغيره قبل الحماية، في الأطلس المتوسط وبلاد الريف وتافيلالت، وغيرها. ومع ذلك فقد كانت تعرف الأمن والاستقرار، وهذا هو المقصود في هذا السياق. وقد كان الشيخ ماء العينين نفسه يمثل ملوك المغرب في الصحراء بظهائر سلطانية معروفة.

أحسن الفتوة. فقمنا، ولم أر منهم واحداً إلى الآن بعد ذلك المجلس (في البيت الحرام)، نرجو الله أن يغفر لنا بالتمام، والسلام.

لقد تعمدت إيراد هذه الحكاية على ما فيها من طول؛ لأنها تعطي فكرة عما يجري في المسجد الحرام من أحاديث، وما يعقد فيه من مجالس، ثم إن الحكاية تتضمن كثيراً من المعلومات التي تحتاج إلى دراسة وتمحيص، خصوصاً أن تاريخ الرحلة يقترن بتاريخ تمت فيه رحلتان شهيرتان: أولاهما رحلة الشيخ الغيغائي الوارد كذلك من أقصى الجنوب المغربي، ثانيتهما رحلة أبناء السلطان المولى عبد الرحمن، وكلتا الرحلتين لا نجد فيهما أية إشارة لركب الشيخ ماء العينين لا من قريب ولا من بعيد.

السرغيني العمراني ١٣٢٩هـ / ١٩١١م

هذه رحلة للشيخ "عبد السلام محمد بن المعطي السرغيني المراكشي العمراني نسباً الكتاني مشربا"، ينتسب إلى السادة العمرانيين النازلين بدادس ببلد القبلة، ثم جاء أسلافه إلى بلد السراغنة بتاساوت من الشط الشرقي مما يلي مدينة دمنات(١).

وفي التقريظ الذي حرره الشيخ عبد الحي الكتاني يزكي فيه الرحلة الحجازية التي قام بها القاضي أحمد الهواري الآتية الذكر(٢)، قدم الكتاني مسرداً لعدد من الرحلات التراثية السابقة، وجاء في هذا التقريظ ذكر رحلة السرغيني هذه، وقد قال عنها: «وهي في المكتبة الكتانية منقولة من خط مؤلفها».

وبما أن الخزانة الكتانية آلت إلى الخزانة العامة، فإنها أصبحت ضمن مجموع يحمل رقم ١٠١٢ ص ١١١ ... وعلى الرغم من أن الرحلة تحمل عنواناً عند الأستاذ المنوني ربما كان يفيد أنها تتعلق بخصوصيات شيخه محمد بن عبد الكبير الكتاني الذي رافقه تلميذه السرغيني إلى مكة، لكن الرحلة تقدم لنا معلومات مهمة عن الحرمين الشريفين، بل وعن العالم الإسلامي، كما تقدم لنا مذكرات شخصية عن النشاط العلمي لمؤلف الرحلة ذاته. ومن حسن الحظ أن البتر الذي لحق الرحلة لم يمس منطقة مكة التي هي محور حديثنا في هذا التصنيف.

لقد تمت الرحلة الحجازية سنة ١٣٢١هـ / ١٩٠٤م على ما يذكره السرغيني في المقدمة، وابتدأت منذ يوم الجمعة ١٩ ربيع الآخر (١٥ يوليو ١٩٠٣م) لتمتد طوال سنة تقريباً.

---

(١) الكتاني: فهرس الفهارس، ج١، ص ٢٨٦. العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية ١٩٧٧م، ج٧، ص ٤٩، وما بعدها. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج٢، ص ١٠٩، رقم ٩٤٩.

(٢) دليل الحج والسياحة تأليف أحمد بن محمد الهواري، طبعة أولى، المطبعة الرسمية، الرباط ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م، ص ٢٩٦. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج٢، ص ١٦١.

وهو يتحدث عن إحرامه بأنهم «ملتحفون بأردية تشبه الأكفان»، إشعاراً بأن كل من عليها فانٍ[1]... لم يزعجنا من البحر أمواجه، ولا من البر اعوجاجه، ولا من الليل اعتلاجه، فارقنا في رضاك المألوف، وأملنا معروفك يا معروف بالمعروف قبل كل معروف. ثم عدلنا إلى بئر طوى، فاغتسلنا منه اقتداء بمن لا ينطق عن الهوى، فدخلنا مكة المشرفة (رجب ١٣٢١هـ) من تلك الثنية، اتباعاً للآثار النبوية، وتقدمنا للمسجد الحرام، ودخلناه من باب السلام.

فلما لاح المسجد الحرام لأبصارنا، نسينا ما قد طرقنا من الأكدار في أسفارنا، وحمدنا شقة النوى، وأنشدنا "فألقت عصاها واستقر بها النوى"، وقصدنا الكعبة للطواف... فطفنا طواف العمرة على التمام، وصلينا ركعتين خلف المقام.

كان مطوفهم الفقيه عبد المعطي الحريري الذي نال قسطاً من ثناء السرغيني العمراني. وقد توزعوا السكن، فنزل شيخه ببيت جوار الكعبة بأربعين إبرة، واكترى هو مع رفيقيه محلاً بثلاث لويز وربع لويز.

قال: وفي يوم الأحد ٢٦ رجب (١٨ أكتوبر ١٩٠٣م) احتفل أهل مكة احتفالاً كبيراً بليلة المعراج، ويسمون ذلك عيداً يقدمون فيه من الأطعمة والحلاوات، ويلبسون الثياب الفاخرة مثل ما يصنع عندنا بمراكش ليلة السابع والعشرين من رمضان، وبعد العشاء بسطت الفرش بناحية من المسجد، وصفت الشموع، وأطلقت البخور، وحضر وجوه الناس وأعيان البلد من الأشراف والعلماء وأهل الدولة... وصعد عالم فوق منبر هناك... وقرأ قصة المعراج متخيراً فيها رواية الإمام مسلم، واختتم بالدعاء للسلطان (العثماني عبد الحميد)، وللشريف والي مكة[2] بخير، ثم أوتي بماء زمزم وفيه سكر فسقي الحاضرون وطيبوا وبخروا، وتفرق المجلس. ثم ذهبنا للكعبة المكرمة وقد فتحت في وجوهنا، فوقفنا

---

(١) يذكرني هذا التعبير بما ورد ضمن قصيدة هائية طويلة أوردها السيد أحمد بن ناصر في رحلته السالفة الذكر، وهو يقول فيها من جملة ما يقول:

وسرنا كأموات لففنا جسومنا
بأكفاننا كل دليل لمولاه!!

(٢) كان السلطان العثماني عبد الحميد، وكان شريف مكة وقتها هو عون الرفيق بن محمد بن عبد المعين بن عون المتوفى بالطائف في جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ. السباعي: أخبار مكة، ص ٥٥٠ وما بعدها.

مع الحاضرين وسدنتها بداخلها... يجمرونها ويطيبونها، ووقف خطيب بعتبتها ودعا للسلطان بخير.

وبعد حديثه عن القيام بزياراتهم لبعض مشاهد مكة يسوق قصيدة طويلة حائية الروي أنشأها أخوه المولى علي:

حي الذي حن حول الركب إذ راحا
سكران لكنه لم يشرب الراحا!

قال: ثم أقمنا بمكة المشرفة إقامة مستهام ظفر بعش الغرام! فكان أداء فروضنا وأذكارنا ونفلنا بالمسجد الحرام، مكثرين من شرب ماء زمزم والتضرع والابتهال إلى حضرة ذي العزة والجلال.

ومن الطريف أن نسمع عن تحول المسجد الحرام إلى حلقات للدرس، حيث يكلف الشيخ الكتاني رفاقه من العلماء بإلقاء دروسهم، كل حسب تخصصه... حيث رأينا العلامة الشاعر المولى علي يتصدى لتدريس الشفاء بين العشاءين، ورأينا الفقيه سيدي محمد الصالح العمراني يتعهد بتدريس التوحيد صباحاً بجوهرة اللقاني، ورأينا صاحب هذه الرحلة نفسه يتولى تدريس الشمائل للترمذي بعد صلاة العصر.

قال: ومن عجيب الاتفاق استجابة الله جل وعلا لأهل مكة الذين كانوا يتوسلون إلى الله أن يمدهم بالمطر... حيث هرع الناس إلى ما تحت الميزاب ليكرموا من غيث الله.

ويتحدث الرحالة عن أجواء البيت الحرام منذ إهلال شهر رمضان، فيذكر في صدر ما يذكر أن الشيخ الكتاني افتتح درساً لتفسير القرآن من أوله إلى آل عمران بالبيضاوي قبل أن يدخل ليلة السادس عشر من رمضان إلى خلوة الاعتكاف بالمسجد الحرام.

ويتحدث الرحالة عن رسالة إلى الشيخ الكتاني وردت عليه من شقيقه الشيخ عبد الحي... كما يتحدث عن الفقير أحمد بناني، والحاج المكي بنيس[1].

---

(١) ادركت الحاج المكي هذا وكان ابنه يدرس معنا في المدرسة الإسلامية للفقيه الزجراجي، وقد اعتاد الحاج المكي أن يوقظ بتكبيرته أهل الحي عند صلاة الصبح وهو في طريقه إلى المسجد، وقد أشرت إليه في مذكراتي التي تتحدث عن أيام طلبي العلم وصحوتي للدرس مع نداء الحاج المكي الذي كان يسكن بيتاً في حومة كرنيز... القريبة من الزاوية الكتانية بساباط القرادين... الإعلام: المراكشي، ج٦، ص ٣٢٩.

وبعد حديث عما أعقب (خلوة الاعتكاف) من استطرادات قال: وفي ليلة ٢٧ رمضان ختم الفقيه السيد أحمد المختار، وقد كان عين أول الشهر للتراويح، فاحتفل أعيان مكة بذلك الختم وحضر أشرافها وعلماؤها وأعيانها وأغوات الحرم، وجاؤوا بحسك متعددة مزينة الشمع فكان المجلس مشهوداً.

وقد كان من نشاط الجماعة المغربية أن قصدوا يوم رابع شوال بيت العالم العامل سيدي الحسن بن علي الحبشي لطلب الإجازة.

وبعد حديث عن محاورة جرت بين الشيخ وبعض الطلبة من حضرموت وبخارى حول ابن عربي الحاتمي ومقولاته بما تبع ذلك من استطرادات، يخبرنا الكاتب بأن الحظ حالفه مرة أخرى ليدخل يوم ٦ شوال البيت العتيق، «وقد فتح على حين غفلة، وكان قريباً منه»؛ حيث ظل نحو ثلث الساعة، ودعا الله بأركانه الأربعة... وتمسح بمواقع قدمي الرسول عليه الصلاة والسلام.

ويعود العمراني لنشاطه العلمي، فيذكر أنه في هذا اليوم أجازه إمام الحنفية العلامة سيدي عبد الله وهي تحت يده، وأجازه بثبت سيدي أحمد دحلان، كما أنه في هذا اليوم اجتمع بالرجل المتبحر السيد (تفعل الحق بن عبد الله الهندي)... شيخ يأكل من كسب يده، وكلما فضل له وقت نزل للحرم ودرس فيه، وغالب تدريسه في الفقه والحديث، وهو يسكن بعوالي مكة... وقد اجتمع به في منزل سيدي عبد الله الهندي.

ويتحدث عن زياراتهم لمشاهد مكة: غار حراء، وينقل عن رحلة أبي سالم العياشي... وفي يوم الأربعاء ١٩ شوال لبوا دعوة الفقيه المدرس بالحرم سيدي المختار الجاوي... وفي هذا اليوم دخلوا البيت العتيق وقد فتح لهم مرة أخرى... واجتمع في اليوم الموالي برجل يزعم مشيخة الطريقة الفرغانية... وفي غده وهو يوم الجمعة ٢١ شوال حضروا جميعاً مجلساً علمياً في التصوف للشيخ عقده في المسجد الحرام بين العشاءين. وهنا يسمع ذكراً للشاذلي في الحزب الكبير... وذكراً للشيخ عبدالعزيز الدباغ، وعبد السلام جسوس، وكتابه: «الرصاصة المطفية في جوف أهل المخفية»، وابن عربي الحاتمي وكتابه «الشقائق النعمانية في الدولة العثمانية»(١).

(١) وقفت على مخطوطة لهذا التأليف في مكتبة بلدية الإسكندرية بمساعدة زميلي الأستاذ العيادي.

ويذكر السرغيني أنه في هذا اليوم الجمعة التقى مع الفقيه العلامة سيدي محمد بن جعفر الكتاني عند بعض الأحبة من أهل فاس، حيث يحكي عن جلسة إنشاد قصيدة ابن الفارض العينية:

وكل مقام في هواها سلكته

وما قطعتني فيه عنها المقاطع!

ومن الطريف أن نسمع في هذه الرحلة صدى للعلامة المغربي الذي ينعت بعلامة الحجاز عبد الجليل برادة الذي كان يحسن التدريس بخمس لغات، والذي استوفاه حقه الرحالة التونسي السنوسي الذي تحدثنا عنه في هذا التصنيف.

وقد طاف على الناس طائف بهي المنظر، بكؤوس من الأتاي والسكر والعنبر، ووقع النقاش حول كلمة (المنفسح) الواردة في ديوان البحتري، حيث تم استشهاد الشريف سيدي علي بقول أبي نواس:

أهلاً بشمس مدام من يدي قمر

تكامل الحسن فيه فهو تياه

كأن خمرتها إذ قام يمزجها

من خده اعتصرت أو من ثناياه

في وجهه كل ريحان تفوح له

منا قلوب وأبصار وتهواه

النرجس الغض عيناه وطرته

منفسح، وجبين الورد خداه[1]

وهكذا نجد أن مجالس مكة في موسم الحج لا تخلو هي الأخرى من إطراف وإتحاف.

في انتظار موسم الحج يظل رحالتنا السرغيني العمراني مع صحبه في زياراتهم لمشاهد مكة، فيزورون مقبرة السيدة خديجة، ويتمتعون مرة أخرى بدخول البيت العتيق فيشاركون مع الحاضرين في غسل الكعبة يوم ٢٦ ويوم ٢٨ من ذي القعدة.

---

(١) لم أجد أثراً لهذه الأبيات فيما بين يديَّ وأيدي زملائي من دواوين أبي نواس.

وفي أثناء ذلك الانتظار أيضاً... اهتم السرغيني بالفرق الميقاتي بين مكة ومراكش، وأنه ثلاث ساعات واثنتا عشرة دقيقة... كما اهتم بمواصلة البحث عن الرجال والعلماء والشيوخ، فتعرف إلى شيخ الطريقة الحدادية سيدي حسين بن محمد بن حسين الحبشي الحضرمي منشأ، المكي مقاماً، الحنفي مذهباً.

وذهب عنده صحبة الشيخ إلى منزله حيث تبادلوا الإجازات... ثم تردد هو والحاج على مجالس سيدي حسين، وحضرا بعض مجالسه في سنن النسائي، وأخرى في التفسير بين العشاءين بسرد تفسير الجلالين... وأخرى حول الشربيني وروح البيان، وأخرى في القطر لابن هشام، وأخرى في مناسك الحج على المذهب الحنفي والرسالة العجلونية في ذكر أربعين حديثاً من أوائل أربعين كتاباً من كتب الصحيح.

وقد أجازه الشيخ الحبشي بخط يده في الحديث والتفسير والفقه والأصول وسائر العلوم الإسلامية.

وكان ممن أخذ عنهم سيدي عبد الله الهندي الذي تبادل السرغيني الإجازة معه؛ إذ ورد نص إجازة الهندي في الرحلة التي نتحدث عنها.

وكان ممن سمع منهم بمكة شيخ العلماء بالحرم الشريف سيدي محمد سعيد بابصيل... وقد حضر مجلسه في التفسير، وتجاذبا أذيال المذاكرة معه مراراً على حد تعبير السرغيني الذي يخبرنا بأنه تلقى كذلك إجازة بابصيل إجازة تامة.

وكان ممن تعرف إليهم بمكة مفتي الأحناف بها العلامة سيدي عبد الله بن الحنفي الذي تبادل معه الأخذ والإجازة كذلك.

وكذا العالم المحدث سيدي عبد الستار الهندي الذي لم ير السرغيني العمراني أجمع منه للأسانيد والمسلسلات، والذي كان ـ وهو مهم ـ معنياً بالتقييد حول سائر أقطار الدنيا عن الحجاج حين ورودهم للحج.

ومن العلماء الذين اتصل بهم سيدي عبد الله زيني ابن شيخ الإسلام سيدي أحمد دحلان، الذي قرأ عليه السرغيني تأليف شيخه سيدي الخياط المسمى «الباكورة الجنية في الأعمال الحبية»، وهنا يروي السرغيني العمراني عن عبد الله هذا وأخيه حسن معلومات مهمة عن زنجبار وكابل... مما يؤكد تنوع موضوعات مجالس مكة التي كانت

بالفعل أرض ميعاد.

هذا إلى طائفة من المتصوفة و"السيّاح" الذين عددهم السرغيني العمراني واحداً بعد الآخر. وكان من هؤلاء "السيّاح" الشريف سيدي محمد الحيحي الذين فارق بلاده حاجاً قبل ٢٤ سنة!

ويعود بعد هذا التقرير عن النشاط العلمي بمكة في هذه الفترة، يعود ليقدم لنا مذكراته العادية عن موسم الحج.

قال: وفي يوم التروية أحرمنا من البيت الحرام... ووصلنا إلى منى بقصد المبيت، وصلاة خمس صلوات، ولما صلوا الصبح ذهبوا ملبين إلى عرفات، ولما وصلوا لبطن عرنة مالوا لمسجد نمرة، وصلوا فيه ركعتين وتقدموا، ولم ينتظروا الإمام لصلاة الظهرين معه جميعاً؛ لأنه حنفي يكملها أربعاً، ونحن نقصر للسنة، يقول السرغيني المالكي المذهب.

وجللت الأرض بالفساطيط مد البصر، فكان يوماً مشهوداً، ومن مواسم الخيرات معدوداً، واليوم يوم جمعة (٢٦ فبراير ١٩٠٤م).

واغتسلنا قرب الزوال... وصلينا الظهرين جمعاً وقصراً... فلما وصل وقت العصر... صعدنا الجبل واقفين متضرعين داعين مبتهلين باكين، وبعد الغروب بربع ساعة أفاضوا من عرفات مقبلين على الذكر... ووصلا إلى المزدلفة بعد الشفق حيث جمعوا بين العشاءين... وبعد صلاة الصبح نهضوا، ولما وصلوا إلى المشعر الحرام أقبلوا على الذكر، ثم دفعوا لمنى حيث قاموا برمي جمرة العقبة... قبل أن يحلقوا... ثم قصدوا مكة لطواف الإفاضة.. إلخ.

ويشتكي الرحالة السرغيني من البدو والخوف المرجف منهم... كما يتحدث عن تصرف الحمالين الذين يطالبون بتعجيل تسعة وتسعين في المئة، وتكون النتيجة أن الواحد الباقي لا يشجعهم على الوفاء بتعهدهم!

ولما عزموا على وداع مكة التزموا مع الركب الشامي[1]، ثم طافوا طواف الوداع بعد

(١) لا بد أن نذكر هنا أن الركب المصري في هذا الموسم ١٣٢١هـ / ١٩٠٤م كان برئاسة إبراهيم رفعت باشا صاحب كتاب مرآة الحرمين، الذي يعدّ موسوعة بالنسبة إلى الحاج والحج.

العشاء من يوم ٢٣ من ذي الحجة... وقد كان مما سمعه في هذه الأثناء أن الحجاج الذين يؤخرون زيارة المدينة على الحج يعانقهم الرسول، وأن الذين يقدمون زيارة المدينة يصافحهم فقط!!

وبعد المغرب نادى المنادي من قِبَل أمير الركب الباشا عبد الرحمن: ألا وإن النهوض قبل الفجر... وإنه لا يوجد ماء في رحلة الغد فتزودوا بنقل الماء.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة العمراني

الولاتي ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م

هذه رحلة حجازية لأبي عبد الله محمد يحيى بن محمد المختار الشنقيطي الولاتي المتوفى سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م، درس فيها بتوسع مجريات رحلته للحج والزيارة، فجاءت في مجلدة من حجم صغير، وهي مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، في شريط يحمل رقم ٣٧٣[١]، وتحمل عنوان: «رحلة حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام».

خرج ابن المختار من بلد ولاتة في ٧ رجب سنة ١٣١١هـ، وقد تضمنت الرحلة ذكر المنازل التي مر بها المؤلف، ووصف ما صادفه من إكرام أهلها، وقيّد مساجلاته مع بعض الذين اجتمع بهم في البلدان التي عرج عليها، كما ذكر لقياه مع العاهل المغربي السلطان المولى عبد العزيز عند الذهاب والإياب مع التنويه بعطف وزيره أحمد بن موسى، وتتخلل ذلك عدة أجوبة عن مسائل في مختلف الموضوعات ألقيت عليه في أثناء بيانها، أمثال:

جواب عن جواز الصلاة في مسجد جديد مع وجود العتيق.

أجوبة بالحرمين الشريفين عن مسائل مختلفة في الفقه والتفسير.

جواب بالإسكندرية عن وحدة الوجود لدى الصوفية.

جواب عن الفرق بين علمي الظاهر والباطن وأن ما يسمى بالكشف والإلهام لا يعتبر شرعاً.

جواب لأهل تونس في عدم ثبوت رؤية الهلال بالتلغراف.

أجوبة مختلفة حول القيام لدى تلاوة المولد النبوي أو للتسليم على شخص.. إلخ.

جواب بالرباط عما يذكره المتصوفة من مراتب الأولياء كالأبدال والأوتاد.

جواب حول تقديم الذبائح لأهل القبور رغبة في قضاء الحوائج.

جواب عن أحوال متصوفة زمانه وإنكاره على أعمالهم المنافية للشرع!

أجوبة في تندوف عن مسائل فقهية وحول علم الكلام والتعريف بالفلسفة.

جواب عن التفاضل بين سكك الفضة، وهل ذلك من الربا؟

---

(١) الشريط رقم ٣٧٣، الخزانة العامة، الرباط، قسم المخطوطات.

ابن عبد الهادي ١٣٣١هـ / ١٩١٣م

هذه رحلة لأبي العلاء المولى إدريس المشهور بذكر والده: ابن عبد الهادي[١] بن عبد الله بن التهامي الحسني العلوي الشاكري ثم الفاسي المتوفى سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م.

وهي عن حجته الأولى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م وتوجد منها مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١١١٥/د في مجموع من ورقة ١١٢/ب إلى ورقة ١٢٣/ب، كما توجد منها نسخة تحت رقم ١٠٤ ج، وتوجد منها نسخة بالخزانة الحسنية تحت رقم ١١٥٠٩.

ثم أعاد الحج سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م، حيث لقيه في المحرم سنة ١٣٠٠هـ / نوفمبر ١٨٨٢م محمد السنوسي التونسي الذي أورد ترجمته في رحلته السالفة الذكر ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، وقال: إنه اجتمع به أولاً في بيت العلامة المغربي الأصل الأفندي عبد الجليل برادة... ونعته بحسن الأخلاق والمعاملة ولطف الشمائل والتضلع في الفقه والأدب والمشاركة في العلوم... وأنه صاحبه ليلة عاشوراء (١٣٠٠هـ / نوفمبر ١٨٨٢م) عندما وقفوا جميعاً على الآثار النبوية ومراسم المسجد النبوي في أواسط الليل.

ويخبرنا السنوسي أن الشيخ ابن عبد الهادي قدم للمدينة مع الركب الشامي، ولكنه عاد بمعية الركب المصري، وأنه لما بلغ مصر وصلته المكاتيب بتعيينه قاضياً بحضرة فاس[٢].

وقد أدركه أجله بالمدينة المنورة في رحلةٍ لاحقةٍ سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٣م[٣]، كان

---

(١) د. التازي: تاريخ جامع القرويين، ج٣، ص ٨١١، مطبعة دار الكتاب اللبناني ١٩٧٢م.

(٢) يذكر السنوسي أن ابن عبد الهادي عين قاضياً مكان القاضي الشهير مولاي محمد المدغري.

الرحلة الحجازية للشيخ محمد بن عثمان السنوسي، الجزء الثالث، ص ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، الشركة التونسية للتوزيع، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م. د. التازي: تاريخ جامع القرويين، طبعة لبنان، ١٩٧٢م، ج٣، ص ٨١٤.

(٣) ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج١، ص ١٤٢. ابن زيدان، الإتحاف، ج٥، ص ٣٥٢.

معه فيها أبو عبد الله محمد الصديق الأمراني رفيقه في الحج، وهو الذي كان معه حتى أقبر.

ومن المهم أن ننبه هنا على أن زميلنا الراحل الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ عقَّب على بعض المصادر المغربية التي تذكر أن الرحلة تمت سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م)، ويؤكد، ومعه الحق في ذلك، أن الرحلة تمت سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م بدليل ما جاء في مقدمة الرحلة: «في يوم الأحد الثالث عشر من رمضان سنة ثلاث وثمانين ومئتين... خرجتُ من محروسة فاس... صانها الله من كل باس».

وقد قرأنا عند تصفح الرحلة المذكورة: «وسِرنا من السويس[1] إلى ينبوع البحر أربعمئة ميل وثمانين ميلاً، ووصلنا ينبوع البحر يوم الأحد رابع ذي القعدة الحرام (١٠ مارس ١٨٦٧م)، ونزلنا بدار الشيخ إبراهيم عواد، وهو القاضي وقتئذ على شاطئ البحر، ونعمت البلدة، ولا زالت بها المآثر الأولى... وخرجنا من ينبوع البحر بعدما أقمنا به خمسة أيام في انتظار الإبل، وكان في الركب خمسمئة نفر...». وبعد أن يتحدث عن مشكلات الأمن ومضايقات اللصوص وقطاع الطرق يعلن عن فرحته عندما وصلوا سالمين مسرورين فائزين غانمين، لله الحمد والشكر على بلوغ المأمول.

وقد كان مما ورد في الورقة رقم ١٥:

«ومن الغد توجهنا، وهو يوم التروية، لمنى وبتنا بها، ثم بعد طلوع الشمس توجهنا لمسجد نمرة، وصلينا به الظهر والعصر جمعاً، ثم توجهنا للموقف ودفعنا منه بعد غروب الشمس، وبتنا بالمزدلفة، وأخذنا منها الحصيات السبع... ودعونا الله بالمشعر الحرام إلى الإسفار، ثم توجهنا لمنى، ثم ذهبنا لرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس، ثم نحرنا، ثم حلقنا، ثم توجهنا لمكة شرفها الله وطفنا طواف الإفاضة ثم رجعنا إلى منى وأقمنا بها إلى آخر أيام التشريق، ونفرنا بعد رمي الجمار، وصلينا الظهر بمسجد (إنا أعطيناك الكوثر)، ونزلنا بالمحصَّب، وتبركنا بمسجد الإجابة هناك، وفي يوم النفر الأول تبركنا بمآثر منى، وأولها مسجد العَشرة، وهو المعروف ببيعة العقبة... وكان ذلك بحضور الفقيه النزيه سيدي عبد الرحمن الحريري... ثم تبركنا بمقام الخليل، وطفنا طواف الوداع وسافرنا ليلة الأحد السادس عشر من ذي الحجة الحرام».

(١) صفحة ١٠ من المخطوط.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة ابن عبد الهادي العلوي

السبعي ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م

هذه الرحلة لأبي العباس أحمد بن محمد بن الحسن العمراني الحسني السبعي؛ نسبة إلى دويرة السبع بسجلماسة (تافيلالت) المتوفى سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م، وقد كتبها مؤلفها عن حجته سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٣م.

وتوجد الرحلة بخط المؤلف بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٢٩٠٨، وهي تبتدئ هكذا:

يقول العبد الراجي عفو مولاه ومغفرته أحمد بن محمد بن الحسن السبعي عامله الله بالوفاء الذي هو أهله، وقبل على كل حال معذرته، وكمل له كل المرام.

توادعت مع أهل دويرة السبع - حفظهم الله - في ضحى الأربعاء تاسع شوال وأواسط إبريل(١) من عام عشرة وثلاثمئة وألف.

وهو يذكر أنه انتقل من جدة إلى مكة على متن حمر فارهة بالغة الغاية في السرعة، في عنقها ناقوس على نحو ما يعلق على المعيز... وقد دخل مكة المشرفة قبل طلوع فجر الثلاثاء، يقصد يوم ٢١ من ذي القعدة (٦ يونيو)، فتعرض لهم المطوف وأعوانه واسمه سيدي علي ابن داود، وهو ينتسب للشرفاء العلويين، وهو الذي نفعهم في كراء دار النزول؛ حيث عقد لهم الكراء في تلك الدار بأربعة عشر ريالاً هم والشرفاء المصاحبون له في الركب.

ويذكر السبعي أن مما اتفق لهم أن اليوم الذي خرج فيه من دويرة السبع وعشية اليوم الذي دخل "فيه" مكة تعرض الجراد لهم!!

وقد طافوا طواف القدوم، وسعوا قبل أن يصلوا صلاة العصر من يوم الثلاثاء، قال: وكان الوقت شديد الحر (٦ يونيو)، بات أكثرهم في ليلة الأربعاء بالمسجد الحرام، وفي صبيحة الخميس الموالي كذلك رأى فيه بعض الطلبة يجتمعون على فقيه، وبيد كل واحد منهم كتاب مكتوب الوسط والحواشي بالمطبعة، وهو يتذكر معهم في مناسك

(١) يلاحظ أن السبعي كان يقصد إلى شهر إبريل الفلاحي، وليس إلى إبريل كريكوار الذي كان يصادف ٢٦ إبريل ١٨٩٣م.

الحج فيه، ونسبة الأقوال فيه لكتب وأئمة لم تعهد عند نسبه لابن السبعي وأصحابه اللهم إلا نقلاً واحداً نسبه فيه لأبي القاسم.

ولما قربت الخطبة يوم الجمعة (٩ يونيو) جعل الناس يتسابقون إلى الأطراف المسقفة من المسجد الحرام، ونحن - يقول السبعي - وجدناها عند دخولنا ممتلئة فجاوزناها إلى الأطراف العارية من المسجد فأعاننا الله على الصلاة هنالك...!

قال: وصليت في المسجد الحرام الصبح يوم السبت خلف الإمام المالكي. وقد لاحظ السبعي أن الإمام المذكور قرأ في الفاتحة عوض ملك يوم الدين كما يتلوها المغاربة مالك بإثبات الألف على ما قرأ به الكسائي وعاصم وغيرهما... كما أنه لاحظ أن الإمام لا يقف على الوقف المعهود عند المغاربة... ثم يذكر أنه كان يصلي خلف إمام شافعي يصلي أول الوقت، ويصلي معه الرجل فيجعل القنوت بعد الرفع من الركوع، وكانوا يتبعونه فيه في المحل لا في اللفظ ولا في الكيفية، ويشرح معنى هذه الكلمات مضيفاً إلى قوله: ويؤمّن الجميع جهراً بعد استكمال الإمام الفاتحة... وأشهر الأقوال عندنا - يقول السبعي - الكراهة، إلى آخر ما أورده من نظريات فقهية حول الموضوع.

إلى أن قال: وفي يوم الخميس أول الشهر (ذي الحجة / ١٥ يونيو) على ما سمعنا ممن أبصر الهلال بجبل أبي قبيس، ألبسوا الكعبة المشرفة كتاناً أبيض فوق غطائها المعهود، نحو الربع من أسفلها، وعند المساء أوقدوا المصابيح الكثيرة في كل صومعة من الصوامع وهي سبع... واستمر ذلك الضوء من أول الليلة أي ليلة الجمعة إلى أواخرها.

وقع لنا - من شدة الحر - في السعي ما وقع لغيرنا!

وهنا تطوع السبعي بذكر نظر الشرع فيما يتصل بأداء الواجبات في شدة الحر... وقال: واعلم أن شدة الحر في مثل هذه الأوقات والمجال المحرقة تكون من الأعذار المسقطة لوجوب الجمعة لمن ضعفت قواه عنها؛ لأن من القواعد التي بني عليها الفقه أن المشقة تجلب التيسير كما في السبكي[1].

---

(١) نقل السبكي هذه المقولة التي تعدّ قاعدة أساسية من قواعد الدين، نقلها عن القاضي الحسين. انظر بحثنا الخاص بهذه القاعدة في مجلة كلية الشريعة بفاس.

ويستمر السبعي في تعزيز هذه القاعدة الفقهية العظيمة محتجاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾... مضيفاً إلى الحر الشديد الازدحام الشديد..!

ولا تنس أن الشيخ السبعي ذكر قبيل هذا أنه ثقل عليه الخروج، واستمر ملتجئاً إلى مظان البرود وشرب الماء، لفرط الحرارة.

ويعود إلى وصف المسجد الحرام على هذا العهد، فيذكر أن سقائف المسجد الحرام التي يتسابق إليها الناس يوم الجمعة ثلاثة صفوف من السواري، في كل صف مئة وعشرون سارية.

وبعد أن يذكر ما لحق بعض الرفقة من إصابات أدت إلى استشهادهم، يذكر أنه تناول صباح يوم الأحد رابع ذي الحجة شراب ماء نقع فيه تمر هندي، فوجد له أثراً في تبريد الحرارة وتسكين العطش، ويذكر أن ذلك من خصائصه.

قال: وفي ليلة الاثنين رأيت هناك رحى تجرها البهائم للاستعانة بها في الطحن، وأخبرني غير واحد أنها كثيرة هناك.

ويخبرنا السبعي بأن لأهل هذه النواحي اعتناء كبيراً بالقهوة ومحالها، كما أن لهم انكباباً على شرب الدخان..!

ويلاحظ تعدد اللغات في أوساط الحجاج، فيقول: إن الحجاج من غير أهل مغربنا سواء كان عربياً أو عجمياً لهم لغات ولهجات لا تفهم غالباً إلا بواسطة..! وكان مما رآه السبعي نوع من الطير الغريب يلوذ بجدران المسجد الحرام لما يجده فيه من الأمن هنالك، وهو يذكر في هذا السياق أنه لم يشاهد بمكة بعوضاً، وأن الذباب فيها قليل.!!

ويعود السبعي إلى المناسك، فيذكر أن يوم الأربعاء الذي هو السابع من ذي الحجة هو اليوم الذي تستحب فيه الخطبة التي تخصص لذكر صفة الحج. وهنا يجد الفرصة لاستحضار ما يتوافر لديه من معلومات عن الموضوع في مصادر الفقه المالكي التي يعرفها ذاكراً متن ابن عاشر السالف الذكر الذي يقول في أرجوزته: «وخطبة السابع تأتي للصفة».

ولكنه يعترف مرة أخرى بأنه لم يتمكن من الالتحاق بالمسجد دائماً، فقد كان يلازم

محله لشدة الحرارة، يضاف إلى هذا الحر الازدحام الكثير الذي كان يحول دون الوصول إلى المحلات المقصودة للعبادة!

وقد ارتحلوا ليلة الخميس الثامن من الشهر، فنزلوا بمنى آخر الليل، وقد أعانه الله على المشي إليها على قدميه، أما عرفة فكان عليه أن يركب الجمل... ويقدم وصفاً لمنى معتمداً على من سبقه من المؤلفين.

والسبعي في هذه الأثناء لم ينس الحديث عما يتعرض له الحجاج أحياناً من نهب وسرقة وقطع طريق من طرف فجار تلك النواحي!! ملاحظاً في الوقت ذاته أن مثل هذه التجاوزات لا تكون بين الحجاج أنفسهم، ولكنها تجاوزات من بعض المحترفين للنهب!!.

ولما لم يكن من معتاده أن يرى في المغرب البقر المسنم، فقد نص على أنه رأى هذا النوع من البقر في منى.

ويعتذر عن الانتقال لعرفة في النهار لتعسره مع شدة الحر.. وإنما وصلوها ليلاً.

وفي صباح يوم الجمعة، وهو التاسع الواقع فيه الموسم، ألح علينا بعض الشرفاء بالصعود إلى رأس الجبل فأسعفناه... لكن وقعنا في مشقة الزحام، وضل بذلك بعض ممن كان في رفقتنا.

وقد رأيت في رأس الجبل قرداً عند بعض الناس يعرضه للفرجة واللعب به... وهنا عبر عن وجهة نظره في أن مثل هذا الصنيع يمنع لما في ذلك من تعذيب الحيوان في هذا الحر!

قال: وقد اشتدت الحرارة في منتصف يوم عرفة، ومنعنا من التصرف، فلم نقدم لنمرة، ولم نستمع للخطبتين مع الإمام، وإنما وقفنا بمحلنا. قال: وهذا بخلاف الليلة الماضية، فقد اشتد فيها البرد بهذا الجبل المبارك!!

ونفروا بعد المغرب إلى المزدلفة، حيث يحكي عما كابدوه من المشقة في الوصول إلى منى من بين الجبال... ولم يرموا الجمرة إلا بعد العصر وبمشقة شديدة... وأما الهدي الذي هو سنة الحاج كسنة الأضحية فلم يتيسر لنا تحصله!!.

كل هذا يحكيه السبعي وبين يديه مصادر الفقه المالكي التي تذكر الحلول لكل النوازل! علاوة على ما يذكره هو مما ألفه من نظم حول الموضوع مقارنة مع ما في مختصر خليل والمرشد المعين لابن عاشر السالف الذكر.

وكان مما سجله السبعي في مذكراته ما عاشه من مشاهد كانت تترتب عادة على الذبائح التي يرمى بها في الطرقات، قال: وفي يوم الاثنين الذي هو ثالث العيد ظهرت الرائحة من الأنعام المهداة من إبل وغيرها، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، ومن أجزائها ورؤوسها وأحشائها وجلودها، ولشدة الحرارة أسرع تغيرها، وانتشرت رائحتها وكثر مع ذلك المرض والموت! فهربت الناس بمكة بمرضاهم في حر شديد، وهلك خلق كثير من أهل مكة وغيرهم!!

وبعد أن قام يوم الثلاثاء الذي هو آخر أيام التشريق بطواف الإفاضة اشتدت الحرارة التي شلته عن التصرف. والطريف في هذه المذكرات أن يحكي عن استعجال المركب الفرنسي الذي كان سيحملهم بواسطة برقية أبلغت لهم بمكة. قال: وفي يوم الأربعاء ذكر أن الفرانصيص وجه الخطابات في السلك بالتعجيل لملاقاة مراكب كرائهم، وذكر الأمر بالتعجيل عن حاكم البلد أيضاً: الشريف عون الرفيق باشا.

وبعد حديثه عن قيامه بسنة العمرة من التنعيم... لم يخف أنه في الجمعة الموالية ذهب للصلاة بالمسجد الحرام، لكنه عجز عن الصلاة خارج السقائف فعاد لبيته ليصلي وحده ويستسلم لنوم طويل.

وقد أصبح يفضل النوم بالزقاق طلباً للهواء! وبهذه المناسبة يذكر أن أزقة مكة تمتلئ قيضاً بالكلاب... ومع ذلك فقد قيض لها من يخفي نجاستها! ويجمع روثها حفاظاً على طهارة الموقع!!. وأخيراً يحكي السبعي عن أن الذين كانوا يؤجرون لهم بيت الكراء أخرجوهم من الدار بالرغم من أن المدة المتفق عليها لم تنته بعد، وحاولوا الاعتراض، لكنهم أخبروهم بأن أصحاب البيت من الجند والعسكر ولا سبيل لمراجعتهم فيما يقررون!!.

يضاف إلى هذا قلة الحمالين الذين ينقلون الحجاج إلى خارج مكة، إلى المدينة

المنورة... حيث طال تشوق الناس إليها وعمت الحيرة سائر العائدين! وحتى الذين دفعوا أموالهم مسبقاً لم يجدوا أمامهم أهل الأعشار الذين التزموا بنقلهم... واضطر الناس إلى اكتراء حمالين آخرين يحملونهم إلى جدة؛ حيث يوجد مركب الفرانصيص. وقد وجد السبعي هذا المركب أضيق ما يكون لاكتظاظه مع كثرة الحجاج... وكان الحجاج يطلعون أمتعتهم إليه من الأفلاك التي توصل إليه بواسطة الحبال، وليس بأيديهم عبر السلم كعادة المراكب.

وفي خضم هذه المحن يحكي السبعي عن أنه رأى معزتين مع جدي في رفقة أحد المسافرين إلى جدة، وأن للحيوانات الثلاثة آذاناً كبيرة تقرب كل أذن من ذراع، فكانت كالمنديل تحت الرأس، فسبحان الله العلي الحكيم.

بهذه الكلمات يختتم السبعي حديثه عن زيارة مكة المكرمة.

و[illegible] سافرنا مع الجماليين بعد أن أعطوا الأمناء الباقي [illegible]
عن كل جمل ووجدنا في جهة أسفل المدينة عن قريب عمارة أخرى
كثيرة ولازلنا نجد عمارة عمارة بعد عمارة في أخصام وغيرها مع
مطابيع توقد وسلك في الخشب وتلتقي الجير من الإبل إلى أن أصبحنا
يوم الاثنين في عمارة أخصام كثيرة يقال لها حادة وفيها مسجد
وما شاء الله من النخل وساقية ماء فنزلنا في الأخصام واشتد
علينا الحر هنالك فهرب بعض الحجاج إلى ذلك النخل وجعلوا
ينغمسون في الماء ورأيت كيزانا كبارا مختلفة ملازمة نحو تسع
[illegible] الماء لا تكاد تجارفه ومن جملة من لقينا هنالك حاجا
من بسكرة فأخبرنا أنهم ركبوا في الركب بالعير وسبع مائة وأخبرنا أخ
من [illegible] الجزائر أنهم ركبوا فيه بما يزيد على الألف وست مائة وأخبرنا
من زواوة أخبروا أنهم ركبوا بالعير وثلاث مائة وأخبرنا آخرون من [illegible]
الإبل التي أخبروا بعده كثير وفي آخر اليوم ارتحلنا ولازلنا نلقى
الإبل وكثيرا من الحمير العارضة البالغة الغاية في السمن بالركب
فتصبح بمكة مع ما في الكريو من كثرة الرمال التي يصعب فيه
المشي كما ألفيناها في الليلة قبلها ولم يكن وعنا الجمال سوى
في النزول إلى الفلاة في هاتين الليلتين إلا بمشقة عظيمة وهذه
الإبل معروفة ولا تعرف الآن إلا أن أهلها يجمعون بينها بالحبال
لئلا تختلط أو تفر وتلك [illegible] خضر العروق وفي عنقها ناقوس يسمع
بقربها كما رأينا ذلك عند بعض العرب بمليلية وجدة ودخلنا
مدينة المشرحة قبل طلوع فجر الثلاثاء فتعرف بنا المكودي وأعوانه
واسمه سيدي علي داود وينتسب للشرفاء العلويين
وقد كان ركب معنا من التنزعتي وتواعدنا على ذلك فإن نزلوا في متسع
[illegible]

إحدى صفحات مخطوطة رحلة السبعي

الكتاني بن جعفر ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م

هذا الشيخ هو محمد بن جعفر بن إدريس الإدريسي الحسني الكتاني الفاسي، صاحب الأبحاث المفيدة التي نذكر من بينها ونحن نتحدث في موضوع الرحلات الحجازية المغربية فتواه العظيمة التي كانت نتيجة استمزاج السلطان المولى عبد العزيز لرأي علماء فاس ومراكش سنة ١٣١٤هـ / ٩٦-١٨٩٧م حول المنع من سفر الحجاج توقياً من الوباء والمضايقات الأجنبية(١).

وكان من تأليفه موسوعته التي اشتهر بها: «سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس لمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس». وكان مما يهمنا رحلته بعنوان: (الرحلة السامية للإسكندرية والحجاز ومصر والبلاد الشامية).

رحل إلى الحجاز أول مرة بقصد الحج سنة ١٣٢١هـ / ١٩٠٤م(٢)، وحج ثانية سنة

(١) كان من أخطر القضايا التي واجهتها المملكة المغربية في أثناء القرن الرابع عشر الهجري / القرن التاسع عشر الميلادي، إنشاء المجلس الصحي الدولي بطنجة بحجة الحفاظ على الصحة في العاصمة الدبلوماسية للمغرب، لكن المجلس لم يلبث أن أخذ يستصدر القرارات ضد السفن العائدة بالحجاج، وقد أثارت هذه القرارات قلق المغرب لعلمه بشدة وقعها على الرأي العام المحافظ... وتجدر الإشارة إلى أن هذا المجلس قرر تكثيف إجراءاته الوقائية بعيد وباء الكوليرا الذي تسرب إلى المغرب عن طريق الحجاز سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م، حيث اتجه التفكير إلى أن يجعل من (جزيرة الصويرة) محجراً صحياً للمغرب، ولم يلبث الوزير الأول المغربي (باحماد) أن قام بإبلاغ الممثل البريطاني نيكلسون Nicolson خلال سفارته إلى مراكش ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م بعزم الحكومة المغربية على إشعار الشركات الملاحية بمنع نقل الحجاج المغاربة إلى الديار الحجازية. وأمام مواصلة المجلس لمطالبه، قام العاهل المغربي باستصدار فتوى من العلماء حول الموضوع... وكان في صدر هذه الفتاوى فتوى الشيخ محمد بن جعفر الكتاني. سلوة الأنفاس، ج٢، ص ٢١٥-٢١٨. فهرس الفهارس، ج١، ص ٣٨٨-٣٩١. محمد أمين البزاز: المجلس الصحي الدولي بالمغرب، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب، الرباط، ص ١٣٤، ١٥٤.

(٢) ذكر القاضي سكيرج في ترجمته للشيخ محمد بن جعفر الكتاني ما يأتي: تفاوضت معه مرة وأنا مقيم بطنجة عند مروره بها في هجرته الأولى من المغرب، وذكرت له القوة التي شاهدتها في إحدى الباخرات الحربية الأجنبية، فعزم عليَّ ألاَّ أحدث بذلك أحداً خشية دخول الفشل في القلوب عند محاربة من خرج عن الحدود، وفاته ـ رضي الله عنه ـ أن الناس لو علموا ذلك ما ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة بمقاومة=

١٣٢٥/١٩٠٨م ليحج ثالثة سنة ١٣٢٨هـ/١٩١١م؛ ليجاور بالمدينة وليعود إلى بلاده ويدركه أجله بفاس سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م، أخذ عن عدد من المشايخ هناك، أمثال: حبيب الرحمن الهندي المدني، وأبي العباس أحمد بن إسماعيل البرزنجي، والشيخ فالح ابن محمد الظاهري المهنوي، وحسين بن محمد بن حسين الحبشي الباعلوي المكي، ومحمد سعيد بابصيل اليمني المكي، والشهاب أحمد الحضراوي المكي والشيخ عبدالله القدومي النابلسي، وغيرهم من أمثال: السيد العارف أحمد بن حسن العطاس الضرير لقيه بمكة، والسيد عيدروس بن حسن بن أحمد العيدروس الحضرموتي لقيه كذلك بمكة.

وقد قام بتدوين رحلته المشار إليها تلميذه ومرافقه محمد بن أحمد الحسني العلمي الفاسي، وتوجد المخطوطة في الخزانة العامة بمجموع تحت رقم ١٠١٢، وهي الرابعة فيه صفحة ٢١٣-٢٨٠[١].

= من ليس لهم قوة على مدافعته، والمدافعة بغير المقاتلة بما هو أعظم من قبيل إلقاء الناس أنفسهم في التهلكة المنهيّ عنه شرعاً. قال سكيرج: وما أراه في هذه النظرة إلا من قبيل الملامتية!!.

(١) محمد بن جعفر الكتاني: نصيحة أهل الإسلام، تقديم د. محمد إبراهيم الكتاني، تحقيق د. إدريس الكتاني، الرباط، رقم الإيداع القانوني ٤٣٧/ ١٩٨٩.

محمد الناصر الكتاني: فهرس سلوة الأنفاس... جمع وترتيب الخزانة العامة للكتب والمستندات، الرباط، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

د. التازي: تاريخ جامع القرويين، ج٣، ص ٨١، طبعة ثانية، دار النشر المعرفة، الرباط، ٢٠٠٠م.

د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج١٠، ص ١٦٠-١٦١. د. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص ١١٧، رقم ٩٧٧. د. عبد العزيز التمسماني خلوق: الملحق الثقافي للعلم ٢٧ نوفمبر ١٩٨١م.

اتلاف من يغرقه * قال بعضهم ما من مغرور لمن ركب البحر * ويعلو حتى يغمر
معالم الولاية * إن أشد ما أخاف ... انه من أسلم * وما ... من الجمع عليهما
بين الإسلام * وإنه من الفروض العينية * على كل من له استطاعة من البرية *
قال تعالى ولله على الناس حج * وقال عليه السلام بني الإسلام على خمس *
وقال الحج من البيت دعامة من دعائم الإسلام * وقال الإسلام ثمانية أسهم
وذكر منها حج البيت وقال من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا
عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وقال يقول الله عز وجل إن عبدا أصححت له
جسمه وأوسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أعوام ولا يفد إلي لمحروم وقال
لو أن الناس تركوا زيارة هذا البيت عاما واحدا ما أمطروا وفي رواية ما أنظروا
أي ما أخر العذاب عنهم * ومما يعلم أيضا أن من جملة الاستطاعة وجود ما
يكفي من النفقة * والأمن على النفس والمال والدين * ومن أن يتعرض له ما يفعل
من ودائع أو يشين * وأنه متى تعذرت بعض الوجوه والاعتبار * وتعلقه غير من بعض
الأحكام * بأن علم أو غلب على الظن مع تغيرها تأديته إلى مكروه كره أو إلى حرام
منع * أو عرف تأديته إلى واجب منها فرض وشرع * ومن المعلوم في هذه الأزمان
الأخيرة * تأديته بالنسبة لغالب العوام إلى محرمات كثيرة * منها ومن
أشهرها تلبس كثير منهم عند جريان بعض الحج عليه بما هو من الكفر أو زيادة إلى
البدع * ومنها تضييع الصلوات * والجهل بأحكام كثير مما يعرض في السفر من العبادات
* ومنها الركوب في مراكب الكفار الحربيين والكفار المعترين * حيث يعلم أنه
في أحكامهم بالإهانة عليه * وأنه يتوصل من شيء من الأذى وبالفعل إليه * وأنه
بأن شيء ذلك * فهذا الآية حيث نزاع هنالك * فقال الأجهوري في شرح مختصر
ما نصه وأما ركوبه في مراكب النصارى التي الراكب فيها تحت حكمهم فلا يجوز
ركوبه لغير واجب * وقال بعضهم إن تعذر جريان أحكامهم عليه حرم ركوبه في مراكبهم
وأولى يمتنع ذلك بقولنا بالكراهة والتحريم * وقال الشيخ أبو العباس القباب
أكثر الأشياخ على التكفير بما ينال منه فإن كان يؤدي إلى أن يكره على ما هو لهم
أو إذلال الإسلام لم يجز إلا كرها فإن يسر الغزو لم يجز به العادة في مراكبهم *
وقال الشيخ زروق في شرحه لحزب البحر لما تكلم على ركوب البحر وأنه ممنوع في خمسة

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الكتاني للفاسي

البلغيثي ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م

هذا علامة جليل أديب كبير هو الرحالة الشيخ أحمد بن النقيب المأمون البلغيثي الذي ننصح بمراجعة مؤلفاته القيمة، سواء منها المطبوع والمخطوط؛ لنعرف مكانة الرجل الاجتماعية والعلمية، ومدى جرأته على تناول مختلف الموضوعات من دين ومذاهب وأخلاق وتصوف واقتصاد، وجنس كذلك... بحيث إنه كان كما يقال: «سيوطي زمانه»!

ويكفي أن نذكر منها «كتاب الابتهاج» في مجلدين، شرح فيهما قصيدة الأديب المساري حول آداب الأستاذ والتلميذ وكيفية إلقاء الدروس العلمية مع التعريف بالمهم من الفنون العلمية والأدبية والأخلاقية والرياضية.

كما نذكر منها كتابه «تشنيف الأسماع في أسماء الجماع وما يلائمه من مستلذات السماع»، وهو كتاب ثري بمفرداته اللغوية التي تجاوزت الثلاثمائة.

كما نذكر أخيراً منها مما لم يطبع «بيان الخسارة في بضاعة من يحط من مقام التجارة».

حج ثلاث مرات، كانت الأولى سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١١م، وكانت الثانية سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، بينما كانت الحجة الثالثة سنة ١٣٤٥هـ / يونيو ١٩٢٧م. وعن هذه الحجة دون رحلته بعنوان (النحلة الموهوبة النجازية في الرحلة الميمونة الحجازية)، نظمها شعراً في ٥٧٤ بيتاً من الرجز، وبرهن بذلك على أن القصيدة قادرة على معالجة كل الموضوعات، كما برهن على أن للشعر دوره الكبير في ترسيخ المعلومة التاريخية وترويجها.

ويهمنا في هذه الأرجوزة أن نعرف حديث البلغيثي عندما وصل مكة، لكن نرى من الفائدة أن نشير إلى بعض الومضات في الرحلة قبل أن يصل مكة، خصوصاً وقد حدثت في ظروف كانت تعدّ ظروف تحول بالنسبة إلى مغربنا من جهة، وبالنسبة إلى نجد والحجاز من جهة أخرى!.

لقد غادر البلغيثي مدينته فاس يوم الخميس ١١ شوال سنة ١٣٤٥هـ / ١٤ إبريل ١٩٢٧م لنلتقي به بعد سياحة علمية قادته إلى باريز حيث اجتمع بالعاهل المغربي السابق المولى عبد الحفيظ، وكان في عيون الأدباء والعلماء، قبل أن يصل إلى جدة صباح السبت ثالث ذي الحجة / (٦ يونيو).

كنا محاذين حمى الميقات
بقول أهل الثبت والثقات
عند العشا من نفس ذاك اليوم
والموج يرمي نحونا بعوم
وقد أتينا بالذي طلبنا
به، لدى الإحرام إذ قربنا
وضج كل الناس بالتلبية
في حالة من الهدى مرضية
والقوم بين خاشع وخاضع
وراغب وراهب وطامع
والكل يستبشر بالقبول
من ربنا إذ منَّ بالوصول
في ضحوة السبت وصلنا جدةْ
والقرب يذكي في الفؤاد وجدهْ
ومن صباح غدنا نهضنا
يسوقنا الشوق لما قصدنا
نؤم بيت الله خاشعينا
ولجلال الله خاضعينا
كنا به في ظهر يوم الأحد
مبتهلين للكريم الأحد!

ووافق الرابع من ذي الحجة

لله ما أوضحها محجة

قمنا بما حتم من شعائر

يوم دخولنا بعزم مائر

كذاك في الباقي من الأيام

قمنا بكلٍّ أحسن القيام

من كل ما نصه في المناسك

للحج والعمرة كل ناسك

وقد رجونا الله إذ دعانا

وللإجابة له هدانا

أن يستجيب كل ما دعونا

به، وأن يمنح ما رجونا

لنا وللأحباب إذ أوصونا

وبوصاتهم لنا وفينا

فإنه برّ كريم، جلّ أن

يمنع عبداً جاءه ليطمئن

وقد صادف البلغيثي يوم دخوله المسجد الحرام حرارة زائدة (رابع ذي الحجة / ٦ يونيو) أثرت في نشاطه، فتوقف عن الطواف وما تبعه، واتخذ من ماء زمزم دواء له يقتصر عليه إلى أن استرجع نشاطه، وعاد إلى تتميم مناسكه، غير مهمل - وهذا مهم - الاتصال برجال مكة وعلمائها وأئمتها يفيد ويستفيد، وهذا ما يعبر عنه في هذه الأبيات:

نعم وفي يوم الدخول حل بي

بسبب الحر الشديد اللهبِ

بعض انحراف زائد لم أستطع

له الطواف والذي له تبع

فكنت من شربي لماء زمزم
مستكثراً مستشفياً من ألم
مع اعتقادي أن "ماءه لما"
كما أتى به الحديث معلما
فكان ما رجوت من شفاء
وأصبح المانع ذا انتفاء
فقمت غدوة غد في حال
كأنني نشطت من عقال
قصدنا بيت الله للطواف
والسعي في تجرد الأعطاف
وكم لقينا من إمام كامل
وعالم برٍّ تقي عامل
أيام كنا بجوار الله
يمنحنا الفضل بلا تناه...!

ونأسف للبتر أو لما نعتقده حذفا مقصودا الذي شعرنا به هنا؛ حيث سقطت صفحتان على الأقل، نفترض أنهما تتعلقان بالتنقل إلى منى وعرفات والمزدلفة ورمي الجمرات وطواف الإفاضة، كما نعتقد أنه تحدث عن معلومات أخرى غير المناسك.

وقد رجعت إلى الأصول المخطوطة للأرجوزة في المكتبة الصبيحية بمدينة سلا؛ لما أعرفه سلفاً عن العلاقات الحميمية بين مؤسس المكتبة الباشا الصبيحي وبين البلغيثي... أقول: رجعت إلى الأصول لأقف على "البتر"، ووقفت حتى على شرحها الذي كان المرحوم البلغيثي شرع فيه... فاكتشفت أنه حذف متعمداً، وأن البلغيثي صادف ظروفاً سياسية خاصة حملته على ترك الكلام عن فترة المخاطر هاته!!

وهكذا أمسيت على مثل اليقين أن الصفحتين تعرضتا إلى جانب الشعائر المعروفة إلى الأحداث التي كانت تعرفها المنطقة في هذا الموسم، لقد كانت الحجة تصادف ظروف

انتقال الحكم في مكة ونواحيها من جهة إلى جهة[1]... فقد تنازل الشريف علي بن الحسين عن الحكم... وتعهد السلطان عبد العزيز بن سعود بأن يمنح العفو عن الأسرى مقابل أن يسلم جند الشريف علي جميع أسلحتهم. وهكذا غادر الشريف جدة يوم ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤هـ (٢٢ ديسمبر ١٩٢٥م)... ولا يخفى ما يحدث في مثل هذه الظروف من عمليات لعودة استتباب الأمن واحتواء كل الحركات المتطرفة لما كان يعرف بحركة الإخوان الذين قاموا ضد ظهور التليفون والتلغراف والسيارة.

لقد افترضت أن الشيخ البلغيثي أشار إلى تلك الأحداث... وذكر بعض الأسماء، وربما كان الرجل، وهو على ما نعلم من الشخصيات الرسمية والمحترمة النابهة... ربما كان يحمل رسائل توصية إلى شخصيات كانت عنه مشغولة أو مجهولة!!... ومن هنا عمد إلى الاستغناء عن ذكر ما ليس فيه فائدة، وهو مع ذلك أعطانا فكرة عن طريق هذا البياض بما يتبعه من إشارات وتلميحات عما يجري في الجهة.

لقد وقع تصرف مقصود في الأرجوزة عندما حذفت منها جل الأبيات... ليس فقط عندما كان البلغيثي في مكة، ولكن كذلك عندما كان بمصر... فقد روى نجله الأستاذ عبد الملك عند ترجمته لوالده أبياتاً من الأرجوزة فقالها في القاهرة، لكن هذه الأبيات لا تؤخذ في الأرجوزة التي بين أيدينا!![2].

وهكذا انتقل الشيخ بعد البتر الذي سمعنا عنه بمكة، والذي لم ينتبه له أحد ممن اهتموا بإنتاجه[3]، انتقل فجأة إلى موضوع "التعجيل" بتعجيل العودة، فيذكر أن رفاقه في الحج ظهر لهم أن يعجلوا لوجهة نظر عندهم خاصة كانوا فيها مخطئين، وندموا على ذلك مشيراً إلى أنه فضل أن يبقى بمكة في أمن وأمان إلى زوال المانع الذي يصفه برموز

---

(١) فاسيلييف: تاريخ العربية السعودية، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦م، ص ٣٢١. تاريخ مكة من أقدم العصور إلى اليوم، تأليف أحمد السباعي، ص ٦٥٨، مصدر سابق.

(٢) د. عبدالله الصالح العثيمين: معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ص ٢٨١.

(٣) القصد إلى الدراسة التي قدمها الباحث محمد العلمي لنيل دبلوم الدراسات العليا... حول البلغيثي، من جامعة محمد الثالث في الثمانينيات بفاس.

كنا نأمل أن نجد شرحها في التأليف الذي وعد به، لكن قلم الشيخ ـ رحمه الله ـ وقف وهو يحكي عن استقباله لبعض الشخصيات بمصر، ويقول بالحرف: «وممن زارنا بها (مصر) الشيخ محمد مخلوف حسنين المالكي، وممن زارنا أيضاً». هنا وبخط قلم ولده الأستاذ عبد الملك هذه الجملة: وقف قلم والدنا رحمه الله فلم يتم هذا الشرح المفيد ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م. قلت عبد الهادي التازي: إن الاسم الصحيح في النص هو محمد خالد حسنين المتوفى سنة ١٣٧١هـ. الأركلي، ج٦، ص ٣٤٥.

ثم بدا للرفقة التي معي
تعجيلهم عن قلق للمرجعِ
على وجوه لم تكن حسن نظر
فلم أوافقهم على هذا النظر
فكان عقبى أمرهم ندامةْ
لكنها آلت إلى سلامةْ!
ثم بقيت بعدهم بمكة
ممتعاً ممنعاً من ركة
إلى زوال المانع المكدر
من دفع غرم مجحف مخسر

وهو بعد أداء المناسك يعود إلى جدة برفقة من أهل مدينة رباط الفتح ومدينة فاس من الذين لم يتعجلوا وفضلوا البقاء، فتم لنا اللطف. والطريف أنه يخبرنا أنه غادر مكة إلى جدة عن طريق السيارة التي يسميها (تومobيل) يوم ٢٦ من ذي الحجة (٢٨ يونيو).

ثم قصدت جدة في رفقة
ذوي رباط الفتح نعم الرفقة!
وفيهم اثنان من الأولى هما
من أهل فاس حمدا أمرهما!
حيث تخيروا البقاء معنا
فكان لطف الله يغشى جمعنا

كان خروجنا إلى جدة في
سيارة بحسن سير تقتفي
وذلك في السادس والعشرينا
من شهر ذي الحجة مستبينا!
من بعدها ودعنا أحباب
من بيننا طاشت لهم ألباب
كلهم يود عن كرامةْ
أن لو أطلنا بينهم إقامةْ
لما استفادوا من علوم كانت
لهم أهم مقصد إذ بانت
وقبلنا نحن بتوديع الحرم
وكعبة الله العظيم في صرم
وقد رجونا الله في العود إلى
تلك المعاهد معاهد العلا

ومن المهم جداً ـ بعد الذي قدمناه عن الصفحتين المبتورتين أو المحذوفتين، وبعد تمكنه من زيارته للمدينة المنورة في أحسن الظروف ـ أن نسمع عن شهادة يقدمها الشيخ البلغيثي عن الحالة الأمنية في البلاد متحفظاً في الوقت ذاته إزاء الأشياء الأخرى التي أعتقد أنه يقصد بها ما ينقل عن أخذ الملك عبد العزيز بن سعود بزمام الأمر في سائر البلاد بعد استيلائه على الحجاز عام ١٩٢٤م.

لنقرأ هذه الأبيات من الأرجوزة على أن نعود للمناظرة التي تمت في ـ بلاد الشام ـ بينه وبين معتمد الحكومة النجدية الحجازية، قال:

هذا وأما حالة الحجاز
فالأمن عم كل ما مجاز
بحالة لم تمض قط في زمن
سبحان من سخرها بذا الزمن

ومـا سـوى ذا أمـره لـلـه

يفـعـل مـا يشـا بغـيـر تاه

يضـيـق عن بيـانه النظام

والشـرح بالشـرح له لمام

وغـاية القـول على الإجـمـال

مـغـتـبطاً في صـالح الأعـمـال

من يرم الحج يجـده أحـمـدا

ومـا لنا إلا اتبـاع أحـمـدا!!

وكما قلنا، فإن الشيخ البلغيثي بقدر ما اغتبط بالأمن الذي لم يسبق أن عرفته الحجاز قبل هذا التاريخ فإنه مع ذلك ـ وهو رجل متمسك بالفقه الذي يعرفه ـ نجده وهو ببلاد الشام التي أقام بها سبعة وأربعين يوماً يقول:

ومن خـلالهـا جـرت مـذاكـرةْ

أشـبـه شيء هي بالمـناظرةْ

مع الأديب الألمعي المعـتـمـد

لملك الحـجـاز في تلك البلد

كـان إليـهـا سـبب لطيف

والشـرح بالشـرح له تعـريف

سلم مـا أسـمـعـتـه وعـرفـه

والحق مـسـمـوع لدى من أنصـفـه

وذاك مـن فـوائد الإقـامـةْ

بالشـام في حـفـلاتهـا المقـامـةْ

لـله أيام تـقـضـت دارجـةْ

(أسـرع من نكـاح أم خـارجـةْ)!!

وإذا كان الشيخ لم يحدد تاريخ اليوم الذي جرت فيه هذه المذاكرة أو المناظرة، فإن ما

دوّنه ولده في ترجمته لوالده يثبت، نقلاً عن مذكرات والده، أن ذلك تم يوم الثلاثاء ١١ صفر سنة ١٣٤٦هـ، وكان حول "الوهابية" التي أصبحت لها الكلمة في سائر أطراف البلاد.

لقد استدعى المعتمد المذكور أستاذنا لمحله في جملة من أعيان العلماء... وقد خصت هذه الجلسة بتقييد بقلم الأستاذ محمد الكامل القصار الدمشقي، يقول في أولها بعد البسملة والحمد له:

وبعد فيقول محمد الكامل القصاب الدمشقي، غفر الله له: وقفنا في يوم الثلاثاء ١١ صفر سنة ١٣٤٦هـ للاجتماع بالأستاذ الفاضل سيدي أحمد بن المأمون البلغيثي مع صديقنا الفاضل الشيخ ياسين الرواف معتمد الحكومة النجدية... الحجازية وتجاذبنا أطراف الحديث... وكنا معجبين بسعة علم الأستاذ ومعرفته بشتى العلوم والفنون إلى أن مضت مدة أعقبها موعد سابق لدى الأستاذ كان سبباً لختام المجلس الذي عقد في دارنا ذلك اليوم، ثم دعا صديقنا المعتمد الأستاذ الفاضل لداره لعقد الاجتماع في اليوم التالي إتماماً لمباحث حال عن إتمامها قصر الوقت على سعته، وتفضّل فلبّى الأستاذ الدعوة، وكنت ممن حظي بشرف زيارته، وصحبته في الجلسة الثانية أيضاً مع الصديق المعتمد.

وهكذا نرى أنه كان لهذه الرحلة المغربية الحجازية لون خاص قصدنا إبرازه لنعرف عن لقطة فريدة من اللقطات التي تتصل بمكة وتاريخها الاجتماعي والحضاري، مما لم نره ضمن الرحلات السابقة واللاحقة: فترة انتقال الحكم بصفة نهائية من شريف مكة إلى السلطان عبد العزيز الذي جلس على كرسي المملكة التي سنراها تحمل ابتداء من هذا التاريخ اسم المملكة العربية السعودية.

مؤلف مجهول ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م

هذه رحلة فريدة من نوعها، وقد نسبت خطأً إلى الشيخ أحمد بن المأمون البلغيثي في فهرست المؤسسة السعودية بالدار البيضاء بعنوان: الرحلة الحجازية الميمونة، بينما عنوانها الحقيقي هو: «القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الأقصى»، ولا نعرف عن صاحبها اسماً ولا نسباً، إلا أن له شقيقاً عزيزاً عليه مميزاً لديه ودعه عند الذهاب واستقبله عند الإياب، ويحمل هذا الأخ اسم الحاج المكي[(١)].

لقد غادر مدينة فاس إلى ميناء طنجة يوم الأربعاء ليلاً بتاريخ سادس ذي القعدة الحرام عام اثنين وخمسين وثلاثمئة وألف (٢١ فبراير ١٩٣٤م)[(٢)].

رحلة مفيدة بما تضمنته من معلومات عن المحطات التي أرست بها السفينة، حيث نقرأ عن القاهرة بما تحتضنه من مشاهد... ونكتشف معه مخطوطاً مهماً بدار الكتب المصرية بعنوان: «العز والمنافع للمجاهدة في سبيل الله بالمدافع»، الذي ألفه بالإفرنجية الرايس إبراهيم الأندلسي، وعزبه أحمد بن الحجري المعروف تحت اسم أفوقاي السالف الذكر.

نزلنا بئر طوى واغتسلنا وفقاً للشريعة، وبقينا ثمة حتى بزوغ شمس ذلك النهار الذي هو الاثنين تاريخ ٢٦ من ذي القعدة (١٢ مارس ١٩٣٤م).

دخلنا البلد الأمين مهبط الوحي والأسرار ومسقط رأس النبي المصطفى المختار، الذي تطأطئ فيه رؤوس الملوك الأعاظم، ويأمن في حرمته كل شيء حتى الحمائم، بيت الله الحرام الذي تفد الوفود لبابه خاضعين، وعلى أعتابه لعزة الوجود معبرين، وإنابة إليه متبتلين خاضعين، قائلين: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾، التي قيل فيها:

---

(١) المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج٣، منشورات كلية الآداب بالرباط، تقديم العميد سعيدي سعيد العلوي، طبعة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص ٦٢، رقم المرجع ١٧٣٩.

(٢) بما أننا لا نتعرف إلى اسم الكاتب ولا إلى تاريخ وفاته فقد اكتفينا بتسجيل سنة حجه.

أمكة، تفديك النفوس الكرائم
ولا برحت تنهل فيك الغمائم
وكفت أكف السوء عنك وبلغت
مناها قلوب كي تراك حوائم
فإنك بيت الله والحرم الذي
لعزته ذل الملوك الأعاظم
عليك سلام الله ما طاف طائف
بكعبتك العليا وما هام حائم!

وبعد حلولنا المناط بالسعادة والإكرام، قصدنا المقصود بالذات بيت الله الحرام نمشي على خضوع وخشوع واستحياء، تجللنا المهابة وتعظيم رب العباد والأرض والسماء حتى إذ وقعت على ذلك البيت الشريف أنظارنا، ووطئت البيت بأجنحة الشرف أفكارنا، طفنا به طواف القدوم بعد دخوله من باب السلام، كما نص عليه العلماء والأعلام، وقطع الأشواط المعلومة، وتقبيل الحجر الأسود والركن اليماني، وصلاة ركعتين والدعاء بما تقضيه حالة من يعلم أنه واقف بباب من لا يرد سائلاً، ولا يخيب آملاً، الذي لا يحجبه حجاب، ولا يقف دون بابه بواب، تقبل الله منا ذلك بحسن القبول، وبلغنا المنى والسول، إنه خير من مدت له يد السول، وأفضل من يرجى منه النوال، وجميع الابتهالات والدعوات بالملتزم بين الباب والحجر الأسعد.

ومن هناك ذهبنا لمحل نزولنا، وهي دار من الحضارة والتمدن بالمكان المكين، ذات طبقات أربع، حتى أخذنا للراحة نصيباً وافراً، وخرجنا للتجول في شوارع المدينة وأسواقها، وتسريح النظر في أبنيتها ونظامها، فما هي إلا غادة تجر ذيول الفخار على البلاد والأمصار، وتتيه على من عداها من الديار والأقطار، وجميع أبنيتها ذات طبقات ثلاث وأربع يلوح عليها رونق وبهاء، ويكسوها الحسن من أرديته أجمل رداء، لا يخفى أن موقعها الطبيعي هو ببلاد الحجاز، وسمي الحجاز حجازاً لكونه حاجزاً بين نجد وتهامة، وهي بلاد جبلية جرداء، ولها من الجداول والعيون والآبار ما تحصل به الكفاية، ومكة

المكرمة هي قاعدة البلاد وعاصمة المملكة.

ويقرب منها الطائف على مسافة قريبة نحو (بياض) طيب المناخ، كثير البساتين والأشجار والعيون والجداول، موقع الطائف شرقي مكة.

وبمكة جبل حراء والغار الذي كان يتعبد به سيد المرسلين، مع جبل ثور الذي به الغار الذي كان يتعبد به ﷺ مع صديقه أبي بكر رضي الله عنه(1).

وعلى الجملة، فمملكة الحجاز مملكة مصحوبة بالبركة، تجبى إليها الأرزاق من أطراف المسكونة؛ أي الممالك الإسلامية، وتعيش بما شاء الله أن تعيش به من الموارد في ظل القناعة والعافية والنعم المتوالية، وكفاهم فخاراً أنهم في جوار بيت الله الحرام مطمح الخاص والعام، فليهنؤوا بذاك الجوار! وليقروا أعيناً بما أهلوا له بمحض الاختيار! أما أيامنا التي قضيناها بتلك الديار المأنوسة، المحوطة بالعناية الربانية المحروسة، كلها عامرة بالقربات والصلوات والدعوات وصادق التوجهات، وكنا نكرع من لذيذ شراب بئر زمزم والمرات العديدة؛ إذ ماء زمزم لما شرب له، واغتسلنا منه بالمحل المقارب مقام إبراهيم ثمة، وكانت دعوتنا التي ندعو الله بها عند الشراب في كل يوم: اللهم إنا نسألك علماً نافعاً، ويقيناً صادقاً، وشفاء من كل داء. ويوم الجمعة سابع ذي حجة أحرمت الكعبة.

وبعد صلاة الجمعة انهالت السماء بأمطار غزيرة، لم ير الراؤون مثلها حتى كان ميزاب الكعبة المذهب الواقع جهة الركن الشامي يرسل المياه التي تبهت الناظرين. وذلك الماء آت من سطح الكعبة، وللغبطة في التيمن والتبرك به جاءت الأفواج من الناس تزدحم على مصب تلك المياه معرضين إليه أبدانهم ورؤوسهم، ومن لم يقدر على الازدحام أتوه بأواني ملأى بالماء المذكور، وهو في المسجد يصبوها عليه أو على جزء من ذاته، نفع الله المسلمين بصالح مقاصدهم آمين.

وفي يوم السبت ثامن ذي الحجة ركبنا السيارة قاصدين منى، وبتنا فيها ليلتها، ويوم الأحد ٩ منه، وهو يوم الوقوف بعرفات، توجهنا لمسجد نمرة، واغتسلنا به من ماء بئر

(1) المقصود جبل النور وبه غار حراء، وجبل ثور الذي اختبأ في غاره رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند هجرتهما إلى المدينة المنورة.

ثمة، ودخلنا المسجد وصلينا فيه الظهر والعصر جمعاً بعد الخطبة بمشاركة ابن السعود عبد العزيز ملك الحجاز في حرسه العسكري المسلح.

وبعد ذلك صعدنا الجبل وأعظم بها من ساعة، ويا لها من ساعة! احتشدت لها الخلائق على اختلاف ألوانها، وتنوع أجناسها، وتباين لغاتها، وتنائي أقطارها ما بين مشرقي ومغربي، إفريقي وآسيوي، وهندي وصيني، وغير ذلك مما لا يعد كثرة، ولا يحصى عدة ما بين صغير وكبير، رجال ونساء ضاجين بالتلبية والدعاء سابقين لأداء الواجبات، سابلين العبارات، رافعين الأصوات مقيمين نغام الدين في أكمل معناه، وتجليته في أجمل مجلاه، نابذين كل ما دون ذلك من الأغراض، معرضين عنه بكل وجوه الإعراض، ولا إبهام في أن وقوفنا بعرفات يذكرنا الوقوف بين يدي الله ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا**﴾، وقد شرعه المشرع للاجتماع المتضمن التعارف والتآلف والإخاء والتآزر وتمتين العلائق وتجديد الإخاء مع كل مسلم تجمعنا به جامعة الدين، وتربطنا به الملة بحبلها المتين، وكيف لا وربنا العلي الكبير يقول في كتابه للتحذير والتنبيه: ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾، ورسوله ﷺ يقول: «كونوا عباد الله إخواناً، وعلى الدين أعواناً، والمؤمن للمؤمن كالذات الواحدة إذا اشتكى بعضها اشتكى كلها».

نعلم من هذا أن جميع العبادات المشروعة لنا من صلاة وصيام وزكاة وحج فيها مصالح عائدة علينا في مجتمعنا الحيوي ومآلنا، فالأجدر بنا أن نجعل نصب أعيننا هذه الغايات، فلا تقف نفوسنا عند حد محدود، بل تكون تواقة لا تقنعها غاية تصل إليها من صلاة وصيام وغير ذلك، بل تكون شديدة الحرص على الحقيقة لا تقنعها ظواهر الأمور، فتلك بمثابة القشور، ولولا اعتمادنا على رحمة أرحم الراحمين لقلنا: وأسفاه على لب الدين، نسأله الله سبحانه بوجهه الكريم أن يبصرنا بغوامض الأسرار، وينهج بنا نهج الهداية النافع في دار القرار.

هذا وقد بقينا على حالنا مبتهلين داعين متضرعين إلى أن غربت الشمس، ثم نزلنا قاصدين المزدلفة، صلينا بها المغرب والعشاء والصبح، والتقطنا بها الجمرات السبع لرمي

العقبة. وكل منا صرَّ على جمراته، وقفنا بعد صلاة الصبح بالمشعر الحرام، وذكرنا الله وسألناه خير سؤال لنا ولإخواننا ولأولادنا ولجميع المسلمين ما نرجو ببركته العاجل والآجل إلى أن بزغت الشمس فرجعنا إلى منى وتوجهنا إلى العقبة، فرمينا الجمار، ورجعنا للدار التي كنا اكتريناها لنزولنا مدة الإقامة، وبعد الاستراحة ركبنا ورجعنا لمكة، وقصدنا بيت الله وطفنا طواف الإفاضة بعدما ذبحنا ذبائحنا بمنى، وبعد طواف الإفاضة المذكور تم حجنا الذي نرجو أن يكون مبروراً، وحلّ لنا كل شيء من الممنوع علينا قبل، وتوجهنا إلى مزين فحلقنا وقلمنا. وبعد ذلك رجعنا لمنى لتكميل ما بقي من الرجم.

وفي يوم السبت خامس عشر ذي الحجة (موافق ٢١ مارس) نهضنا من مكة ليلاً بعدما طفنا طواف الوداع، وبعدما ذهب بعض الحجاج إلى العمرة فأتوا بها، وركبنا السيارة قاصدين مدينة من تشد له الرحال، أفضل الخلائق على التفصيل والإجمال سيدنا رسول الله ﷺ.

البحر وبالزنبيل يخرج تنصب بالبحر ويطلع في بعض أحيانا نحو الليل بسبب
يبيت على البحر كان رجال الصيد فهم الزوارق جرا يعلمونه وركب البحر في [illegible]
بأنه يكون يتشمع كلما أصبح البحر بسجان من خلف الحلفا وخرج الجزائر
وربطنا على كثير من عباده إذ أخذنا في ذكر مجلسنا عاليا لطيف ولبثنا
أحكاما ودائع البحر وبين لنا بسطه تفصيلا فقال عن [illegible] ولنذكر منه
بعد الأمر وحملنا هم في البحر والبحر ورزقنا هم الرهبات ووعظنا هم على كثير
من خلفنا تفصيلا من أجل ما نظفنا أجله بعثنا على دار الكتب وعلى ما
بوجه [illegible] حملت ما بها عدة مطبوعات كبار كتابهم وهيئة منها الزمان
للسلطان الأمير بتاريخ الأول سنة ثمانمائة وأربعة وعشرين [illegible]
ثمانمائة زاهر وأربعين ثم كتاب تيسير العين والمنابع للجماهرة في [illegible]
بالترتيب إليه بالأباء ونحو [illegible] بن إبراهيم بن محمود الزركي [illegible] الأندلسي
ومعه إلى العام بيت في مجلد [illegible] والكتاب عند [illegible] الأفرنسي
يشتمل على [illegible] بأسماء شيخ فقط وكانت في [illegible] والأول منه [illegible]
[illegible] مسلم ابن كثير بسنة 19 [illegible] الإمام [illegible] بن الزبير
على 86 [illegible] بن عتبة على 90 [illegible] مع الأمير [illegible]
[illegible] رحمه الله رحلة [illegible] أنا أحسن [illegible] والكبير
للانفصال أما سعيد [illegible] ثم وجب علينا بعد [illegible]
ولا [illegible] زيارة [illegible] الكبرى [illegible] بنفسه [illegible]
بين [illegible] عتيقة جملة النبي صلى الله عليه
وسلم [illegible] على بن جعفر وإلى هنا ارتحلنا [illegible] وإلى [illegible]
واطلعنا على [illegible] يوم الثلاثاء 20 شعبان متكئين [illegible] ثم
في كم لقينا بهم [illegible] الزوار [illegible] لنا رطبا [illegible] رجلا
يتلو القرآن ووصلنا في يومنا [illegible]

إحدى صفحات مخطوطة رحلة المؤلف المجهول

دِنيَة الرباطي ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م

مؤلف هذه الرحلة هو محمد بن علي بن أحمد دنية الأندلسي الرباطي المتوفى سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م. وقد عرفت له عدة تآليف، منها: «مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط...»، وتأليف عن جدّه بعنوان: «النسمات الندية من نشر ترجمة الإمام أبي العباس دنية»(١)، وتأليف ثالث هو هذه الرحلة التي نقدمها اليوم، وهي تحمل عنوان: «نشر الأعلام بإتمام المرام في ذكر مراحلنا من مصر والحجاز والشام»، وقد حج سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م(٢).

وقد سلك الفقيه دنية أسلوباً خاصاً في كتابة هذه الرحلة، فقد رتبها على مقاصد ثمانية: المقصد الأول في ابتداء سفره من مدينة الرباط بحراً يوم ثاني شوال ١٣٢٧هـ (١٧ أكتوبر ١٩٠٩م) إلى طنجة؛ حيث أخذ طريقه البحري إلى الإسكندرية. المقصد الثاني والثالث والرابع زيارته لمصر ومعالمها، وما لفت نظره من مظاهر الحياة فيها. والمقصد الخامس يتناول الإقلاع من مصر في اتجاه جدة التي وصلها بعد ضحى الأربعاء ١١ من ذي القعدة (١٤ نوفمبر ١٩٠٩م)، وبدوره يتحدث عن قبر أمنا حواء بجدة نقلاً عن القاضي ابن خلكان، كما قاله مَنْ سلف!.

وقد وصل إلى مكة في منتصف ذي القعدة (١٨ نوفمبر) متحدثاً عن الجمال والشقادف والحرارة كذلك... وجدوا في استقبالهم بعض السادة الحريريين الذين قدموا لهم قرى أم القرى قبل أن يقصدوا البيت الحرام الذي دخلوه كما هي العادة من باب السلام.

---

(١) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص ٥٥، ٥٨، ٢٣٢، ٣٥٧، ٣٦٨، رقم ١٢٦٥ - ١٢٩٨. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج ٢، ص ٢١١، رقم ١٢٦٥، ص ٢٢٢، رقم ١٢٩٨.

(٢) نغتنم هذه الفرصة لنتقدم بالشكر الجزيل للزميل الأستاذ مصطفى الجوهري الذي استجاب لرغبتي في تيسير نسخة من المخطوطة كانت بخط السيد محمد بن محمد الأزرق. عبد الإله الفاسي: دنية معلمة المغرب، ج١٢، ص ١٠٨٩.

« ... وقد كثرت أشواقنا وعظمت الهيبة، فشاهدنا ـ ولله الحمد ـ الكعبة، وبدا لنا بديع جمالها، ورفعت الأستار، ونادت بلسان حالها: مرحباً بكم وأهلاً أيها الزوار، فلكم البشرى والسعادة دنيا وآخرة:

وقالت: دونكم قربي تملوا
تروا بجنابها عزاً وجاها
فأين يصاب مثل عروس جنسي
وما في الكون معشوق سواها
وقد سعدت عيون قد رأتها
وقد شقيت عيون لا تراها!

وبمجرد ما وقع بصري على البيت اغرورقت عيناي بالدموع فبكيت، وقد ذكر الثعالبي في ثمار القلوب أن من خصائص المسجد الحرام أنه لا يراه أحد ممن لم يكن يراه إلا ضحك أو بكى، ولله در القائل:

وانظر عروس البيت يجلى حسنها
للناظرين ولذ بها مستعصما
فهي التي ظهرت فضائلها فلا
تخفى، وهل يخفى قمر السما
لم يلقها الإنسان إلا باكياً
فرحاً بها أو ضاحكاً متبسما
والنور من أرجائها لا يختفي
أبداً وإن جن الظلام وأعتما

ولما أشرف أبو الفضل الجوهري على الكعبة أنشد:

قلت للقلب إذ تراءى لعيني
رسم دار لهم وهاج اشتياقي
هذه دارهم وأنت محب
ما بقاء الدموع في الآماق

حلّ عقد الدموع، واحلل رباها
واهجر النوم! واقض حق الفراق!!
فالمغاني للصب فيها معان
فهي تدعى مصارع العشاق!!

ويذكر الفقيه دنية أنه نوى طواف العمرة، وابتدأ تقبيل الحجر الأسعد حتى إذا انتهى من الطواف والسعي حلق وتحلل.

ونجد الفقيه ـ وقد غمرته الفرحة ـ يتساءل: هل هو في يقظة أو منام؟! ويستأنس في هذا الشعور بما نظمه الشيخ العاملي قبله.

وبعد هذا يتفرغ للحديث عن مكة فيفرد عدة فصول لذلك:

الفصل الأول: الحجر الأسعد... ويذكر أن الأديب المغربي أحمد بن المأمون البلغيثي ألغز فيه بما أجاب عنه الفقيه دنية، ويستمر في الحديث عن سيد الأحجار هذا.

الفصل الثاني: الطواف: أصله وحديث الناس عنه، ناقلاً عن الرحالة ابن بطوطة وعن الفقهاء.

الفصل الثالث: زمزم معتمداً على قول الشيخ خليل: وكثرة شرب ماء زمزم... وقد أطال في هذا الفصل بما نقله سابقوه وما علق به هو على ما قالوه... مستحضراً كذلك ما ورد من أشعار القوم حول التضلع من ماء زمزم... وعن فضائلها.

وكان مما ذكره أن الشيخ ابن عرفة سئل: لم كان زمزم أفضل المياه وهو مع ذلك غير مستعذب؟ فأجاب على البديهة بقوله: ليكون شربه تعبداً لا تلذذاً!.

قال: وفوق زمزم غرفة صغيرة يجلس بها مؤقت الحرم، ويؤذن بها رئيس المؤذنين، ويسمع بها من يسمع خلف أئمة الشافعية في الصلوات الخمس.

ويذكر أنه توجد بالقرب من زمزم سقاية العباس، وهي حوض كبير يملأ بالماء بواسطة بعض القنوات من زمزم ليشرب منه الحجاج، ناقلاً عن ابن بطوطة قوله في رحلته: ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس.

الفصل الرابع: المواضع التي يستجاب الدعاء فيها، ويذكر في صدرها الملتزم (ما بين

باب الكعبة وركن الحجر الأسود)، والحطيم: ما بين البيت العتيق ومقام إبراهيم... وحجر إسماعيل أسفل الميزاب، وما خلف مقام إبراهيم، ومنها عند زمزم.

وهنا ذكر مزاراته التي كان منها دار الندوة التي هي الآن مصلى الإمام الحنفي، وقد كانت مستقلة، حيث كانت محل الحديث والاجتماع، وقبلة المصلى نحو الحجر والميزاب.

ويقابله من الجانب الآخر مصلى الحنبلي، وهو مواجه لما بين الحجر الأسود والركن اليماني... وأما مصلى الشافعي فخلف مقام إبراهيم من الجهة الشرقية.

ويقابله من الجهة الأخرى؛ أي الغربية، مقام المالكي وقبلته ما بين الركن اليماني والحجر إلى الباب المسدود، وهي قبلة المغرب.

وكل هذه المقامات (الأربعة) وراء المطاف عدا الشافعي في أيام الموسم حيث يقف الإمام قرب باب الكعبة.

ويتحدث الفقيه دنية عن كيفية ترتيب الأئمة في الصلاة على عهده مقارناً بما كان الحال عليه في عهد ابن بطوطة الذي ينقل نصه معلقاً على هذا بقوله: « فلعل الكيفية كانت تتغير بتغير الأوقات لأسباب تقتضي ذلك... ».

ومن الطريف أن نجد دنية يتطوع بذكر السبب الداعي إلى ترتيب هؤلاء الأئمة واحداً بعد واحد، متخلصاً لمسألة تعدد الصلاة الواحدة في المسجد الحرام... غير متردد في كشف تدخل سياسة الحاكمين في أمر هذا الترتيب، وهو - أي الفقيه دنية - ينقل في أمر تلك المقامات عن رحلة محمد بن عبد السلام الناصري السابقة الذكر مذيلاً ذلك بذكر بعض الفروع الفقهية التي يشير بعضها إلى أن تعدد "المقامات" في المسجد الحرام يعتبر بمثابة تعدد المساجد... وما رآه المسلمون حسناً فهو حسن.

ويرجع الفقيه دنية لموضوع مكة فيفيد أنهم زاروا خزانة الكتب التي بالحرم قرب باب السلام، وأن نوافذها تطل على الكعبة، وقد وقف فيها على عدة كتب، ولاحظ أن الخزانة مفروشة ومعدة لمن أراد أن يطالع أو ينسخ.

وبعد أن يتحدث عن أشهر أبواب المسجد يذكر أن له ستة منابر، أربعة في زواياه الأربع، وواحد عند باب الندوة، وواحد في مدرسة قايتباي المتصلة بجدار المسجد.

الفصل الخامس: ويخصص هذا الفصل لمزارات مكة التي يذكر أنها؛ أي مكة، كلها مزارات: البيت الأول للنبي ﷺ ومولده، ودار الأرقم... وجبل أبي قبيس... والمعلاة بما تحتضنه من مقابر لمشاهير الرجال والنساء حسبما أوقفه على تلك المزارات السادة المطوفون، وأهل مكة أدرى بشعابها!!

ويتخلص دنية بعد هذا للحملة على بعض المطوفين العوام محذراً من جهلهم بالمناسك، وناصحاً بالاعتماد على رجال العلم.

وقد شاهدت بعضهم يتقدم كالإمام يردد الدعاء والحجاج وراءه يرددون ما يقوله بلغط كثير!

ولا يخفى اشتباكه مع بعض المطوفين فيما ينبغي أن يكون عليه سلوكهم، ولكنهم؛ أي المطوفين، لا يأبهون بتنبيهاته!!

ومن اللافت للنظر في رحلة الفقيه دنية أنه يقترح على سلطان المغرب أن يوجه رفقة الحجاج المغاربة عالم فقيه يصحبهم ليعتمدوا عليه في أمور مناسكهم(١).

ويخشى الفقيه دنية أن يفهم من كلامه إساءة لأهل مكة، فيقول مستدركاً وهذا مهم أيضاً:

«وإياك أن تسيء الظن بي في جانب أهل مكة... فإني أعتقد أن لهم الفضل الكبير... محاسنهم جمة، وأخلاقهم حسنة، يؤثرون الضعفاء على أنفسهم، ويكثرون الطيب، والسواك بعيدان الأراك، ويكتحلون كثيراً، وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة...».

ويصل الفقيه إلى المقصد السادس في تأليفه، وهو يوزعه على فصول خمسة:

الفصل الأول: حديث عن أخبار الكعبة التي يقول: إن بابها فتح لهم في اليوم السادس والعشرين من ذي القعدة لغسلها، وغسلت، وأتى شريف مكة(٢) وبعض

(١) ص ٨٣، المخطوطة التي تفضل بها علينا الأستاذ مصطفى الجوهري الذي يجدد له الشكر.

(٢) القصد إلى الشريف علي بن عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون الذي نصب بعد وفاة الشريف عون في جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ، نصب وكيلاً إلى أن تصدر الأوامر من الأستانة التي وافقت على تأصيل علي بن عبد الله في شعبان على الرغم من أن المرسوم لم يصل إلا في أوائل سنة ١٣٢٧هـ. أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ١٥٧.

أمرائه وصاروا يتناولون بأنفسهم غسل أرض داخل الكعبة.

وقد دفع الفضول بالفقيه المغربي إلى أن يسأل الشيخ محمد بن علي بن حسين الأزهري المالكي عن وجه تخصيصهم هذا اليوم بالذات لفتح الكعبة، فلم يفده بشيء، قال: ولعل ذلك لأجل ما يؤثر من أن الحجر أنزل في خامس وعشرين ذي القعدة... ولذلك كان يوماً من الأيام المرغب في صومها على ما نقرؤه في المقنع[1]، فلعلهم جعلوا فتح الكعبة في اليوم الذي يليه.

ويتحدث الفقيه بعد هذه الملاحظة عن أن العادة جرت عندهم على تشمير أستار غطاء الكعبة إلى نحو قامة ونصف من جميع الجهات الأربع، وجعلوا محل ذلك إزاراً أبيض... وقد ذكر له أن القصد من التشمير صيانة الأستار من أيدي الناس الذين يجرؤ بعضهم على أن يأخذوا منها شيئاً!!

الفصل الثاني: في أسماء لمكة... وكان من اللطائف التي ذكرها أنه فسر قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فسرها بأن الثمرات لا تقتصر على الماديات فقط، ولكنها تتجاوز ذلك إلى المعنويات، بمعنى أن مكة لا تخلو من أفاضل العلماء والنبغاء وأهل الفضل يقصدونها ويستوطنون بها.

الفصل الثالث: في خصائص مكة... وقد ذكر منها ما قاله ابن خلدون في المقدمة: «وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظم البيت الحرام، والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر... وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به، وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة، ومكاناً للعبادة، وفرض فيه شعائر الحج ومناسكه، وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره؛ حيث منع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم، وأوجب على داخله أن يتجرد من

---

(١) يقول ابن مقرع في نظمه المقنع:

في صوم ثالث المحرم ارغب — وحاء حجة، وكز رجب
وكه قعدة ويوم عرفهْ — ونصف شعبان روى ذو المعرفهْ

المحيط إلا بإزار يستره، وحمى العائذ به والراتع في مسارحه من مواقع الآفات، فلا يرام فيه خائف، ولا يصاد له وحش، ولا يحتطب له شجر»[1].

الفصل الرابع: وبعد أن أكد أن الدعاء بمكة مستجاب على ما جرَّبه هو، عندما توجه إلى الله أن يشفيه من المرض الذي ألم به، بعد ذلك يتخلص للحديث عن أنه لما خطب إمام المسجد الحرام خطبة اليوم السابع (يوم الزينة) تهيؤوا للإحرام بالحج فاغتسل ولبس ثياب الإحرام... ثم خرج لمنى، وبقي فيها (يوم التروية)، وصاروا يقصرون الصلاة الرباعية مراعاة للسنة. قال: وهو قصر نسك لا قصر سفر.

وباتوا بمنى ليلة التاسع كما هو السنة على الرغم من أنها أميتت في هذه الأزمان، ثم انتقلوا في اليوم التاسع لعرفة وكان يوم الأربعاء.

ذهبوا إليها مارين على المزدلفة... وصلوها قرب الزوال حيث صادف ذلك نزول مطر (٢٢ ديسمبر).

ويقدم الفقيه دنية معلومات عن عرفة التي قال عنها: إنها اسم زمان ومكان معاً... بسيط يقع في آخره جبل الرحمة وهو موقف الناس، حيث وجدوا سوقاً هناك لبيع المواد الغذائية... ووصلوا إلى الصخرات وتجولوا بذلك الجبل، ورأوا هناك سواقي مبنية يمر بها ماء العين الداخلة إلى مكة، وتسمى عين زبيدة، وكانت أتت بها من بعيد.

ووجدها الفقيه دنية فرصة للإشادة بأعمال هذه السيدة الفضلى التي يذكرها الناس إلى اليوم مردداً شهادة ابن الجوزي.

وبعد صلاة الظهر والعصر تهيؤوا بعد للوقوف والدعاء... ولم يفتأ الفقيه معلقاً ومستشهداً ومفسراً لما ينقله وهو في هذا الموقف العظيم الذي لا يوجد له نظير في الدنيا.

قال: ولا شيء في الكون يعادل فرح الإنسان وقت وقوفه عشية يوم عرفة، وهو يجتمع مع جميع الحجاج، ولو شاهدت ـ أخي ـ تلك الحال وأربابها الذين اختلفت أصواتهم بالتضرع والابتهال، فمنهم باك على ذنب أسلفه، ومنهم نادم على وعد

---

(١) يلاحظ أن ابن خلدون تحدث عن مكة في مقدمته بما اكتفى به عن ذكره عند حجته على ما أشرنا إليه سابقاً.

أخلفه، ومنهم متذكر لخير صنعه، ومنهم متفكر فيما سلف من عمره الذي ضيعه، لشاهدت مشهداً عظيماً يجل عن الصفة، وموقفاً جليلاً طوبى لمن وقفه!.

ولما حان الغروب صارت المدافع تخرج إيذاناً بوصول وقت الوقوف... ووقف الناس قليلاً، ثم نفر الإمام والناس بعده إلى المزدلفة، ونفرنا كذلك، ومررنا بين المأزمين.

وقد وصلوا إلى المزدلفة بعيد العشاء... وبعدما صلوا الصبح، والتقطوا الحصيات السبع لرمي العقبة حيث ركبوا الجمال ووقفوا بالمشعر الحرام (المزدلفة)؛ للدعاء والتكبير والتهليل.

ثم دفعوا لمنى، وأسرعوا ببطن محسر... ورموا جمرة العقبة حيث تم التحلل الأصغر وذبحوا هديهم وحلقوا.

ويقول الفقيه: إنه لم يذهب في ذلك اليوم لمكة لطواف الإفاضة لما كان يشعر به من تعب، وهنا كانت له فرصة الاجتماع بالمربي المغربي الشيخ محمد البوعزاوي(١).

وغداة يوم الجمعة اليوم الثاني عشر (٢٤ ديسمبر) قصد مكة لطواف الإفاضة، وخرج للمسعى(٢)... حيث يجد الفرصة ليتحدث عن السوق الذي كان يشوش على الساعين ويضايقهم وظل محل شكوى منذ قرون..!!

وكان من الفوائد التي اختار أن يذكِّر القراء بها هنا أن الحجاج أيام الجاهلية كانوا يطوفون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، وأن المرأة كذلك كانت أيضاً تطوف عريانة، وهذا ما يعبر عنه هذا البيت الشعري المشهور:

اليوم يبدو بعضه أو كله
فما بدا منه فلا أحله!!

وقد أبطل المشرع الأكبر عليه الصلوات هذه العادة الجاهلية.

وقد بقي الفقيه بمكة إلى أن صلى الجمعة قبل أن يعود إلى منى حيث رمى الجمرات

---

(١) توفي الشيخ البوعزاوي سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م.

(٢) نرى أن الفقيه يقوم بالسعي؛ لأنه حج متمتعاً... ولو أنه حج مفرداً أو مقرناً لما احتاج إلى السعي على ما هو معروف.

وزار مسجد الخيف الذي تحدث عن قبته المثمنة[١] الشكل التي توجد بوسط المسجد.

وبعد الحديث عن ليالي منى بما عرف عنها من احتفالات ومسليات يعود الفقيه إلى مكة يوم ثالث العيد حيث أتم المناسك، وقد تعلق الفقيه بإيراد قصيدة لامية للعلامة محمد بن عبد السلام بناني في مناسك الحج تبتدئ بهذا البيت:

يا شـــفـــيع الورى عليك صـــلاة

وســـــلام ورحـــــمــــــة تتـــــوالى

ولا ينسى الفقيه أن يتحدث عن كسوة الكعبة التي وجد عند عودته إلى مكة أنها تجددت؛ حيث وصلت مع الركب المصري كسوة جديدة، وهي كسابقتها المزالة سوداء من الحرير، عليها نور مشرق، وفي أعلاها طرزت بالصقلي آية: ﴿**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ...**﴾.

وليس المهم هذا، ولكن المهم أن الفقيه اكتشف أن بعض القطع من الكسوة القديمة معروضة للبيع، وأنه اشترى منها! وهو يطرح بهذه المناسبة سؤالاً فقهياً حول الاتّجار في قطع هذه الكسوة! وكان من الممتع أن نقرأ في الرحلة حديثاً عن آراء العلماء حول الموضوع.

الفصل الخامس: خصَّصه لوداع مكة يوم الخميس بتاريخ ١٧ ذي الحجة بعد طواف الوداع، وهو هنا يعرب عما كان يحس به من ألم الفراق، وكثرة البكاء، وشدة التأثر.

وفـــــارقـــــهـــــا علـى رغـم وإنـي

أغـــــــادر عـنـدهـا والـلـه روحـي!!

وقبل أن نودع رحلة الفقيه دنية نلاحظ أنه - وقد غادر مكة - ظل متتبعاً أخبارها.

ومن هنا نجده - وقد وصل إلى ينبع - يردد صدى الخبر الذي وصله عن السيل الذي اجتاح البيت الحرام يوم الثالث والعشرين من ذي الحجة، والذي بلغ معه الماء إلى المصابيح[٢]، وصار الناس يطوفون سباحة، حيث وقع السؤال عن هذا الطواف من الناحية الفقهية!! وهذا ما تؤكده الصور الملتقطة للحرم المكي وقتئذ[٣].

---

(١) هندسة "القبة المثمنة" سواء في المسجد الأقصى أو مسجد الخيف هي التي كانت - على ما يبدو - وراء اختيار بعض "المعلمين" المغاربة لجعل بعض صوامع المساجد على شكل مثمن عوض الشكل المربع المعروف قديماً ببلادنا.

(٢) السباعي: تاريخ المغرب، ص ٥٩٣.

(٣) الطواف سباحة معلومة رددها عدد من الرحالين، ولا أتصور شخصياً كيف يتم هذا.

وبلغ الطول بنا أن لا نعبأ بممنوعات الإحرام وخصوصا إذا
اعترى المرض ولم يسعنا إلا ارتكابنا المحظور ودين الله يسر ما جعل
عليكم في الدين من حرج ○ ووصلنا لمكة عشية وكانت المسافة
بينها وبين جدة نحو عشر ساعات وفي الطريقين بين جدة ومكة
فيها [illegible] ○ وقد استقبلنا بمكة بعض السادات
الحرميين وطلبنا في الذهاب معه لبيته لنضع به رحلنا فأبى
إلا [illegible] على العادة ولما خففنا على رحلنا ولم يكن هنالك ما [illegible]
إليه النفس غير أنه [illegible] بنا في الحين بقصد لنا فندق [illegible]
الفندق. وبعدما قمنا ولبسنا. وتوضأنا. خرجنا قاصدين البيت
الحرام فدخلنا من باب السلام. [illegible] شيبة. وقد [illegible]
أشواقنا وعظمت الهيبة. بينما نحن [illegible] الكعبة.
وتبدى لنا بديع جمالها. وزينت الأستار. ونادت بلسان
حالها. مرحبا بكم وأهلا أيها الزوار. فلكم البشرى والسعادة
دنيا وأخرى.

وقالت دونكم [illegible] ○ [illegible]
[illegible] ○ وملء الكون [illegible]
وقد سعدت عيون قد رأتها ○ وقد شقيت عيون لا تراها

وبمجرد ما وقع بصري على البيت [illegible] عيناي بالدموع وبكيت
وتذكرت [illegible] القلوب [illegible]
[illegible] لم يكن [illegible] ولله [illegible]
وانظر [illegible] مستعصيا

إحدى صفحات مخطوطة رحلة دنية الرباطي

الغسال ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م

هذه رحلة حجازية تحمل عنوان: «الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية»، وهي لأبي علي الحاج الحسن ابن الحاج محمد الغسال الطنجي المتوفى سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م[1].

وقد قام الغسال بأداء فريضة الحج سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٨م، قبل أن يقوم بمهمة دبلوماسية في بريطانيا.

وقد كان من جديد هذه الرحلة أنها تمت عبر السفينة بعد فتح قناة السويس ١٢ شعبان سنة ١٢٨٦هـ / ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م[2]، وقد حكى فيها عن المعاناة التي يلقاها الحجاج المغاربة من جراء (المحجر الصحي) الذي كان كارثة حقيقية بالنسبة للمسلمين وخاصة عند جبل الطور [3]، وهذا ما دفع بالمسؤولين المغاربة إلى القول بسقوط الحج عن أهل المغرب ما دام يلحق الإهانات الفظيعة بالمسلمين...

لقد بدأ الغسال بزيارة المدينة المنورة، ومنها أخذ الطريق إلى مكة المكرمة.

«... وعند طلوع فجر يوم الأربعاء (٢٩ من ذي القعدة / ٢ إبريل)، نزلنا بوادي

---

(١) الرحلة مخطوطة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٤٩٦، من ورقة ٥ إلى ورقة ٢٤. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج ٢، ص ٢٣٨، رقم ١٣٧٢.

(٢) كان الغسال على ما يبدو في صدر الرحالين الذين استفادوا من قناة السويس التي فتحت، قال: وأهم ما في هذه المدينة (السويس) مرساها الصناعية وبقربها الخليج الجامع بين البحرين الأبيض والأحمر... وهو يصف (الترعة) بأن بعض جهاتها ضيق كأنه وادٍ من الأودية، بحيث لا يجتاز فيها إلا مركب واحد، وفيها أماكن معدة لوقوف المراكب إذا عرضتها مراكب أخرى، ولذلك يجعلون علامات على أعمدة مرتفعة في البر يميناً وشمالاً مرقوماً على رأسها مقدار عمق كل موضع بحسبه، ليعمل رؤساء المراكب بمقتضاها عند دخولهم إليها، وكذلك نصبوا على شاطئها دياراً مشيدة للتلغراف والعسة.

(٣) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ١٠، ص٧٥، ٧٦، ١٧٤، ٧٧٢، رقم الإيداع القانوني ٢٥ / ١٩٨٦. مجلة البحث العلمي ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، د. عبدالعزيز التمسماني خلوق، العدد الثقافي لجريدة العلم - ٢٧ نوفمبر ١٩٨١م، ص ١٦٠ - ١٦١. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج ٢، ص ٣٥٧.

فاطمة ـ يقول الغسال ـ وعند الساعة التاسعة ارتحلنا منها ونحن نلبي ... ولما قربنا إلى مكة المشرفة طلعت سحابة عظيمة، ونزل علينا مطر غزير، ولم يزل يصب علينا إلى أن دخلنا مكة المعظمة ...

ولما دنت بيوتها تركنا التلبية، وبعد صلاة العصر من يومنا هذا دخلنا مكة ـ شرفها الله تعالى ـ من باب المعلى أحد أبوابها الثلاثة ...

ولما وقع بصرنا على البيت المعظم صرنا ندعو بما نرجو الله قبوله مع استحضار الخضوع والتذلل والخضوع، كما هو المستحب.

وتلقانا المطوف الفاضل سيدي محمد حفيد الشيخ دحلان الشهير ... وكان نزولنا تلك الليلة بداره حتى تيسر محل النزول، ولما حلت النافلة بعد صلاة المغرب قصدنا المسجد فرحين مسرورين، ودخلنا البيت الحرام من باب بني شيبة ...

وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تشريفاً وتعظيماً، فسبحان من خصها بالتشريف والتكريم، وجعل بها المهابة والتعظيم.

وهنا يذكر الغسال شروعه في طواف القدوم بعد استلامه الحجر الأسود وتقبيله وجعل البيت عن يساره على ما هو الواجب ... ويدعو الله عند الملتزم، ثم يبالغ في الكرع من ماء زمزم ... ويصف قيامه بالسعي بين الصفا والمروة ..

بعد هذا يخبرنا بأنه نزل في دار بجوار سوق الشامية قبل أن يستأنف عبادته بالتلبية والطواف ليلاً؛ لأن الطواف بالنهار ـ يقول الغسال ـ كالمتعذر من شدة الحر (أواخر إبريل).

وقد استهل عليه ذو الحجة (بمكة المشرفة الجمعة ٢٢ إبريل)، ولهذا يحمد الله مرة أخرى الذي شرفه بالوفادة على البيت الكريم، وجعله ممن بلغته دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفتح عيونه بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد المعظم والحجر الكريم، ويتحدث عن اليوم السابع من ذي الحجة الذي كان يصادف يوم الخميس ٢٨ إبريل، يوم الزينة؛ حيث كان من المعتاد أن يتقدم الخطيب بعد الظهر لإلقاء خطبة واحدة يفتح بها موسم الحج، ويلقن الناس واجباتهم، وأتى بعد هذا يوم التروية حيث يتهيأ الناس للخروج إلى

منى ... وقد قدم أصحابه إلى عرفة بعد صلاة الجمعة ليهيِّئوا موقفاً قريباً من الإمام .. بعد أن أعطاهم علامة ينصبونها على رأس الخيمة التي ينصبونها تميزاً لها عن غيرها ..

وبعد صلاة المغرب من هذا اليوم الثامن ركب الحمار وخرج إلى منى التي وصلها بعد ساعة ونصف الساعة صحبة الجماعة؛ حيث نزلوا بدار اكتروها باثنتين وعشرين إيرة، وهي بتقريبٍ نصف ريال.

ولم يقض الليل في منى ولو أنه مستحب لتعذر ذلك، قال: بل كثير من سنن الحج أميتت، ولله الأمر من قبل ومن بعد!! ووصلوا إلى المزدلفة، ومنها إلى مسجد نمرة، ومنها إلى الخيمة المعدة...

وتحدث عن الخطبتين اللتين جلس الخطيب بينهما، كان الخطيب يعلِّم الناس بقية مناسكهم...

وتهيأ الغسال للوقوف بعرفة وكان يوم السبت (٣٠ إبريل) ... والوقوف أفضل من القعود ... والواجب الحضور ولو مضطجعاً ... ووقوف الإمام عند العصر إنما هو للدعاء لا للخطبة؛ لأن هذه تكون عند الزوال بمسجد نمرة على ما ذكر ...

وبعد نحو هنيّة من الغروب، نحو نصف الساعة، أفاض الإمام والناس من عرفة، «وكان موقفاً تقشعر منه الجلود من خشية الله، لاتجاه عباد الله إليه حسبما أمرهم به، وكانت الأرض تموج بالخلائق ضارعين لبارئهم فمن حادٍ يحدو، ومن داعٍ يدعو».

وعادوا في ازدحام شديد لكثرة الناس ومروا بين المأزمين ... إلى المزدلفة على أن يتوجهوا بعد صلاة الصبح الموالي لرمي جمرة العقبة ... ولما وصلوا إلى بطن محسر، وهو وادي النار، أسرعوا في المشي. ويعترف الغسال بأنه وجَّه هديه إلى مكة حيث ذبح هناك، قال: وأما ما يذبح بمنى فلا ينتفع بلحمه بل تلقى تلك الذبائح كلها في حفرة مملوءة بالجير بأمر رسمي...!

وطاف طواف الإفاضة ... وحل له كل شيء، ورجع إلى منى لتتميم المطلوب منه مما يتصل بالجمرات: الأولى والوسطى ثم جمرة العقبة ... قبل أن يعودوا إلى مكة يوم الثلاثاء ثالث العيد (١٢ ذي الحجة / ٣ مايو).

وقد صلى الجمعة (١٥ ذي الحجة) بالمسجد الحرام، حيث استمع إلى الخطيب وهو يحض الحجاج على الرجوع إلى أوطانهم . . .

وبعد صلاة المغرب من يوم الجمعة قام بأداء مناسك العمرة من التنعيم على ما هو معروف . . .

بعد هذا يتفرغ الحاج الغسال لوصف مكة، فيقول بتحديده الجديد الذي لم يسبقه إليه أحد من الرحالين المسلمين: «إنها تقع في درجة العرض الواحدة والعشرين وثلاثين دقيقة، وإن طولها على ما يقول ابن الدقام[١] في زيجه نحو تسع وعشرين درجة.

ويؤكد أن الطائف هو معتمد مكة فيما يجلب إليها من خيرات . . . ويؤكد أن أكثر ما يباع في أسواق مكة من سلع الهنود . . . ويوجد خارج مكة عدد من البساتين للأشراف . . . وينتقل من الحديث عن المسجد الحرام إلى الأغوات (الأحابيش) الذين يقومون على صيانة الحرم الشريف . . . وعن مراكزهم حسب درجاتهم، على نسق ما يوجد في الحرم النبوي . . .

ثم يذكر بعض مشاهد مكة ابتداءً من جبل أبي قبيس المشرف على المسجد الحرام، وانتهاءً بقبر وزيرة سيد المرسلين السيدة خديجة . . .

وقد خصص فقرات عطرة للحديث عن أهل مكة كما وجدهم على عهده:

«وأما أهل مكة المشرفة، فإن لهم ظرفاً ونظافة في الملابس، وأكثر ملابسهم البياض، يستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون، ويستعملون السواك بعيدان الأراك الأخضر. . . ».

وبعد حديث عن عين زبيدة وكسوة الكعبة ومناراتها ومصابيحها . . . وعن الألعاب النارية والمحارق التي تجري بمنى احتفالاً بالموسم، وبحضور أمراء الأركاب: الشامي والمصري وكبراء الجند بلباسهم الرسمي وهم وقوف حول شريف مكة الذي نعتقد أنه عون الرفيق[٢]، حيث تخلع على الشريف الحلّة التي ينعم بها عليه السلطان العثماني كل سنة، وهي سوداء مطرزة بالصقلي كما يعبر المغاربة، يعني بخيوط من ذهب.

---

(١) لم أهتدِ إلى القصد من صاحب هذا الزيج من بين الأسماء الواردة في كشف الظنون.

(٢) توفي عون الرفيق سنة ١٣٢٤هـ بعد ولاية دامت نحو ٢٤ سنة.

لقد أقاموا بمكة عشرين يوماً كاملاً إلى أن ودعوها يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة (١٠ مايو). والله أعلم بحالنا من فراق تلك المواطن الشريفة والرحاب المنيفة يقول الحاج الغسال.

ومن الطريف أن نقرأ مرة أخرى عن إشادة الحاج المغربي بفعالية ونشاط (حمير جدة) التي أصبحت، كما أسلفنا، مضرب المثل حتى في المغرب يطلقونها على النشيط الحركة السريع!!.

ونذكر في الختام أن من أبرز الشخصيات المشرقية التي تعرف إليها وعرف بها العلامة أبا عبدالله محمد بن أبي طالب وابن عمه محمد مرتضي .. وكذا سيوطي زمانه يوسف بن إسماعيل النبهاني أفندي، ومفتي الحنفية الشيخ عبدالباسط الفاخوري، والشاعر مصطفى نحا أفندي، والوجيه عبدالقادر قباني صاحب جريدة (ثمرة الفنون)، والشيخ أحمد طبارة حسن أفندي، وحضرة محمد باشا أفندي القسطنطيني.

لقد كان الغسال ذا حاسة وطنية إسلامية مرهفة، ولهذا فإن مشاعره لم تكن لتخفى على قارئ الرحلة وهو يسمع الغسال يقول عن مدينة الجزائر: "أعادها الله دار الإسلام"، ويقول عن مليلية: إنها مدينة مستعمرة من لدن الإسبان.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الغسال

الجعايدي ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م

هذه رحلة للكاتب إدريس بن محمد الجعايدي، تبتدئ هكذا: الحمد لله الذي ألهمنا طريق الحق واليقين، وهدانا لحج بيت الله الحرام وزيارة سيد المرسلين ... وقد قام بالحج سنة ١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م. نشرت تباعاً في جريدة "السعادة" عامي ١٣٤٨هـ و١٣٤٩هـ وفيها مخطوطة بالخزانة العلمية الصبيحية: ٤٧٥، ٥٩ صفحة بخط المؤلف(١).

وقد ركب الباخرة من طنجة إلى مصر ثم إلى جدة ... ثم المدينة المنورة التي غادرها مع رفاقه ليلة السبت ٢٨ من ذي القعدة سنة ١٣٤٨هـ (٢٦ إبريل ١٩٣٠م) مع رتل من السيارات يزيد عددها على المئتين ... والطريق آمن مطروق لا تنقطع منه السيارات ولا كذلك الإبل ليلاً ولا نهاراً.

وقد وجد الحكومة آخذة في تعبيد الطريق ... وما كادت الشمس أن تزول عن كبد السماء حتى بدت لنا ـ يقول الكاتب ـ مباني مكة المكرمة، فوجدنا في نفسنا نشاطاً ... وإقداماً، وبدت على وجوهنا علامات السرور والبشر، وحمدنا الله سبحانه على سلامة الوصول، ولهجنا بالتلبية والصلاة على خير البرية.

وقد وجدوا المطوفين في انتظارهم وعلى استعداد تام؛ حيث دلوا الحجاج على بئر طوى فاغتسلوا به قبل أن يدخلوا إلى مكة من ناحية كَداء، كسماء، وهم في أتم الفرح والسرور آمنين مطمئنين ...

ودخلوا المسجد الحرام حيث أدوا واجب الطواف والسعي قبل أن يحلقوا ويتحللوا من العمرة، أما الذين أحرموا بالحج فقد بقوا على إحرامهم ... وقصدوا بعد ذلك بيت المطوف السيد الحسين الحريري من آل الحريري المعروفين عند المغاربة بالذكر الحسن خلفاً عن سلف ...

وفي اليوم الموالي انتقلوا إلى البيت الذي سيقيمون فيه حتى نهاية الموسم، وذلك

(١) المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج ٢، ص٢٣٦، رقم ١٣٧٣.

بمساعدة المطوف. ويخبرنا الكاتب الجعايدي أن متوسط كراء البيوت بمكة يبلغ هذا العام عشرة جنيهات إنجليزية، قال: وتوجد محلات يبلغ كراؤها مئة جنيه، وعلق على هذا قائلاً: وربما كان هذا الثمن يساوي قيمة المنزل كله!.

قال: ودرجة الحرارة في هذه الأيام معتدلة عما كنا نسمعه ... وتبلغ وسط النهار ٣٣ْ تزيد قليلاً أو تنقص (٢٨ إبريل)، وهكذا ولأول مرة نسمع عن تحديد الحرارة بالدرجات، وليس مجرد الكلام العائم.

وقد خصص المؤلف حيزاً من الرحلة للحديث عن مكة على ذلك العهد. وقد سجل أن بلدية مكة اهتمت بتوسيع شوارع المدينة وتنظيفها طبق النظام الحديث، ولهذا فإن طريقها فسيحة نظيفة قابلة للتحسين والتنظيم، وأكبر شارع فيها هو الممتد من الغرب إلى الشرق فالشمال، ويبدأ غرباً بحي جرول، ويتصل بعد مسافة قليلة بحارة الباب، ثم ينحدر شرقاً ويسمى بالشبيكة، ثم ينعطف جوار الحرم المكي ويسمى حينئذ بالسوق، وفيه محلات مهمة وبناءات عديدة كدار البريد والتلغراف ودور الحكومة الحجازية التجارية ودار النيابة العامة والخارجية الحجازية، ورياسة المالية والمحاسبة الداخلية، وقلم المطبوعات، وإدارة الأمن العام، والمصارف.

وجميع هذه الإدارات يديرها مديرون حازمون من النجديين والحجازيين، ويعاونهم في أعمالهم جماعة من شباب نجد والحجاز وسوريا ومصر. وقرب هذا الشارع تكية الأوقاف المصرية تفرق الصدقات على الفقراء، ولها أطباء وصيدليات لصرف الأدوية ومعالجة الضعفاء مجاناً، وهي بجانب دار النيابة العامة، وقربها يمتد شارع جياد، وهو أطيب شوارع مكة هواء وموقعاً.

وبه دار المؤتمر الإسلامي في نفس إدارة صحيفة (الإصلاح)، وهي صحيفة دينية أخلاقية علمية يتولى إدارتها وتحريرها فضيلة الأستاذ الشيخ محمد حامد الفقي أحد علماء الأزهر الشريف، وله معاونون من خيرة أدباء الحجاز، وتصدر مرتين في الشهر، وغرضها نشر الدين الصحيح ومحاربة البدع والمنكرات، وبه أيضاً مكتب إدارة جريدة أم القرى، ومطبعتها، ومديرية المعارف العامة، والمصنع الذي أسسه الملك لصنع كسوة

الكعبة المشرفة، والمعهد العلمي السعودي الإسلامي الذي أسسه جلالة الملك وأعدَّه رئيسه الأستاذ المصلح الشيخ حافظ وهبة مستشار الحكومة الحجازية لإخراج المعلمين، فيدرسون فيه علم التوحيد والتفسير والفقه والحديث والنحو والصرف والإملاء والخطابة والإنشاء واللغة الإنجليزية. ويتولى التدريس في هذا المعهد جماعة من الحجاز ومصر...

وبهذا الشارع؛ أي شارع جياد، يوجد المستوصف المغربي الإفريقي وهو عبارة عن دار فسيحة بها بيوت نظيفة وعدة طبقات يقصدها المغاربة وكافة محميي الدولة الفرنسية، فيجدون فيها غاية راحتهم وأمنيتهم، ومن أراد النزول بها فله ذلك، وبيوتها مفروشة وفيها الماء العذب البارد وكل ما يطلبه الإنسان من أمور الراحة. ولقد قصدناها، واقتبلنا بها نائب قنصل الحكومة الفرنسية بجدة الطيب الأخلاق السيد محمد بن قاسم الجزائري بغاية المجاملة والترحيب وأنسنا به مدة، وطلب منا أن نكرر الزيارة للمستوصف المعد لراحة المغاربة وإخوانهم، ووجدنا هناك عدة أفاضل من المغرب والجزائر وتونس والشام مقيمين به على غاية ما يكون من الراحة.

ومن شارع جياد يتجه المار إلى شارع المسعى بين الصفا والمروة عن يمين البيت الحرام، والصفا عبارة عن مكان مرتفع عن الأرض بخمس درجات، وكان في الزمان الماضي جبلاً يقف عليه الحاج مستقبلاً رافعاً يديه، ذاكراً الله تعالى داعياً خاشعاً مكبراً، ثم ينحدر منه ذاهباً إلى المروة في انتهاء الشارع، وهي عبارة عن مصطبة مرتفعة بخمس درجات، فيصعدها الحاج ويفعل فيها مثل ما فعل في الصفا حتى يتم سبعة أشواط. ومن شارع المسعى تبتدئ طريق مسقوفة، بها محلات تجارية كثيرة تباع فيها أصناف السلع والمأكولات والتحف والهدايا التي يأخذها الحاج معه إلى وطنه، ومنها إلى سوق الجودرية، وبه تباع الثياب وأدوات المنزل والأقمشة وجميع البضائع، وفي ملتقى هذا الشارع ثكنة للشرطة، وبباب السلام تباع الكتب التي ترد من الخارج، وتوجد هنا دكاكين كبيرة للتحف وبيع الكحل والمكاحل المزخرفة وغيرها من الأشياء التي تباع للحجاج.

وفي شارع المسعى مدرسة ابتدائية أميرية تسمى (مدرسة المسعى)، وبه حارة الشامية الوحيدة التي تباع فيها الأقمشة والمنسوجات الواردة من الهند ومصر وسوريا،

وعدد وافر من كبار التجار يستوردون البضائع من أوربا مباشرة. ومن شارع المسعى يصل المار إلى شارع القشاشية حيث توجد (مدرسة الفلاح) التي تدرس فيها العلوم الدينية والعربية والعلوم الحديثة واللغة الإنجليزية، وبها ٨٠٠ تلميذ، وقد أسسها الشيخ المثري محمد علي زينل عام (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م)، وجميع مصارفها ينفقها من ماله، وله مدرسة أخرى بجدة، وأعمال كثيرة في سبيل الخير والإحسان.

وفي هذه السنة أرسل ثلاثين تلميذاً إلى الهند بقصد التخصص في العلوم الزمنية، وخصص لكل واحد منهم ستة جنيهات شهرية، كما أرسلت الحكومة السعودية خمسة وعشرين تلميذاً لمصر للتخصص في العلوم العصرية والصنائع الحديثة.

ويوجد قرب مدرسة الفلاح منزل الأمير فيصل ابن جلالة الملك ونائبه بمكة، وهو منزل كبير به عدة طبقات على الطراز العربي القديم، وبه يقيم الأمير المذكور، وبأحد أجنحته المحكمة المستعجلة. ويمتد شارع (القشاشية) إلى شارع شعب عامر؛ حيث يوجد مخزن لسيارات الحكومة، ويستمر ممتداً إلى المعابدة ماراً بالحلقة، وهي سوق تباع فيه الخضر والفواكه التي ترد من الطائف، وبقرب هذا السوق مصنع كبير للثلج والمثلجات. ويمتد هذا الشارع حتى يصل إلى مقبرة المعلاة، وهي المقبرة الوحيدة لدفن الموتى، وبها قبور عدة للصحابة والعلماء رضوان الله عليهم. وقد حطمت الحكومة جميع قبابها وأبنيتها المشيدة، ولم تبق فيها أدنى قبة[١].

وتمتد الطريق إلى المعابدة، وهي نهاية مكة من ناحية منى، وقبل أن يصل المار إلى منتهى الطريق يمر بقصر حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز، وهو قصر فخم به حجرات فسيحة، مفروشة بفاخر الرياش، تضيئه الثريات الكهربائية، وبه مراوح كهربائية تديرها آلة خصوصية تولد الكهرباء وتصنع الثلج، ويقيم به جلالته منذ إقامته بمكة، وبالقصر عدد وافر من آلات التلغراف والتليفون، كي يتصل جلالة الملك بجميع دوائر الحكومة في جميع أنحاء مملكته[٢].

---

(١) يراجع تأليف فاسيلييف: تاريخ العربية السعودية، موسكو ١٩٨٦م، ص٣٩٣ - ٣٢٤.

(٢) لا بد أننا نذكر حركة (الإخوان) ضد التليفون والتلغراف، ونذكر كذلك رد فعل الملك عبدالعزيز.

وبمكة المعظمة شوارع أخرى فسيحة نظيفة، مملوءة بأصناف البضائع والمأكولات المتنوعة والأدوات المنزلية والفواكه المحفوظة والحلويات المثلجة الجاوية (من جاوة) والهندية، ومحلات عديدة لشراء المبردات والحلويات المثلجة، وبالجملة، فمدينة مكة المكرمة من المدن المهمة العظيمة في العالم تجارة وعمارة.

والمسجد الحرام وسطها تحيط به بأسواقها ودورها من جميع جوانبه نحو ٤٠ باباً ومنارات مشيدة. أما وصف ما اشتمل عليه ذلك الحرم الآمن من الآثارات العظيمة، والمقامات الفخمة، فلا يسعنا ذكره في هذه العجالة، وسنأتي على تفصيل ذلك في غير هذا إن شاء الله.

استقبال مكة لجلالة الملك عبدالعزيز بن السعود

قد اعتاد جلالة الملك عبدالعزيز بن السعود أن يشد رحلته كل سنة من الرياض إلى مكة المكرمة في هذا الإبان بقصد الحج واستقبال وفود الحجاج والتعرف بهم، ومنذ دخلنا مكة أواخر ذي القعدة، وهي تستعد لاستقبال جلالة ملكها بتزيين أسواقها وشوارعها بالأضواء ونصب السرادقات وأقواس النصر وأعلام الزينة، وقد كانت رحلة جلالته من الرياض إلى مكة في هذا العام (١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م) تختلف عما كانت عليه في الأعوام السابقة من حيث الترتيب والنظام والفخامة، فقد تألف موكبه هذه السنة من ٣٠٠ سيارة، وأمر الملك أن تسير السيارات مفرزة مفرزة؛ تسهيلاً للسير ومنعاً للغبار والازدحام، فسارت أول مفرزة تقل حضرات الأمراء وبعض أفراد العائلة المالكة، ثم مفرزة أخرى تقل باقي أفراد العائلة المالكة، وفي مقدمتها الأمير سعود والأمير خالد ابنا جلالة الملك، ثم مفرزة تقل جلالة الملك مع حاشيته وبعض حرسه وبمعيته أخو جنابه الأمير عبدالله وغيره من الأمراء، ثم مفرزة تقل الأمير محمد أكبر إخوة جلالة الملك وبعض أفراد الأسرة ورجال الحاشية، وفي مؤخرة الموكب الأمير محمد نجل جلالة الملك للإشراف على تأمين سير القافلة.

وكان خروج الملك من الرياض يوم الخميس ٢٥ من ذي القعدة ووصوله لمكة مساء الأربعاء فاتح ذي الحجة (٣٠ إبريل)، فوجد في انتظاره جماهير كثيرة من الموظفين

والأهالي والحجاج حيَّت جلالته بباب القصر العامر كتائب الجند والشرطة، وبعدما أخذ قسطاً من الراحة بسرايته ذهب للحرم وطاف وسعى ثم عاد لقصره بين صفوف جنده وحرسه، ومنذ وصول جلالة الملك إلى مكة والاحتفالات الشيقة تقام فرحاً بقدومه.

ومساء الجمعة أقيمت في دار وكالة المالية العامة مأدبة عشاء كانت في غاية الترتيب والجمال، دُعي إليها جلالة الملك مع أعيان مكة ووفود الحجاج على اختلافهم، كان جلالة الملك يستقبل الزائرين ببشاشة ومجاملة، وألقى خطبة نفيسة كان لها تأثير عظيم في النفوس، بيّن فيها مبدأه الوحيد وشعاره الذي هو إخلاص العبادة لله وإعلاء كلمة التوحيد، وتطهير الدين الإسلامي من أدران الخرافات التي علقت به وهو بريء منها. فتلقى جميع الحاضرين الخطبة الملكية بمزيد الاعتبار والإكبار، ثم دخل جلالته مع جميع الحاضرين لقاعة الطعام، وكانت مزدانة بأفخر الزينات، ووضع على الموائد ما لذ وطاب من الحلويات والفواكه والمآكل، فجلس جلالته في كرسي المائدة وعن يمينه وشماله أركان الحكومة وكبار المدعوين وغيرهم، ولما انتهى الجميع من الطعام عاد جلالته لقاعة الاستقبال، وأديرت القهوة العربية على الحاضرين، ثم تقدم بعض العلماء والشعراء من الحجاز ومصر والهند وألقوا عدة خطب وقصائد تلقاها جلالة الملك بمزيد الاعتبار، ثم انصرف الجميع للسلام، وعادت جلالته الكريمة إلى قصره العام، ومساء الأحد ٥ ذي الحجة (٤ مايو) أعد جلالته مأدبة عشاء كبرى بالقصر الملوكي الفخم بالمعابدة، وكان عدد المدعوين خمسمئة نفر ونيف من أعيان الحجاج وعلمائهم وأعيان مكة، وكانت الحفلة بالغة حد الوصف والرونق، وكان جلالة الملك وأصحاب السمو الأمراء يتحدثون مع الضيوف بأحاديث عذبة، ثم دخل الجميع لقاعة الأكل، فتوزع المدعوون على موائد كبيرة حفَّها ما لذ وطاب من المأكولات والحلويات والفواكه، وبعد أن أكلوا هنيئاً مريئاً ذهبوا إلى قاعة الاستقبال الكبرى على سطح القصر، حيث تناولوا القهوة العربية البديعة الشكل، وكان جلالة الملك يحدث ضيوفه ويرحب بهم بعبارات عذبة، وألقى بعض علماء مصر والشعراء خطباً وقصائد نفيسة نالت غاية الاستحسان من جلالة الملك والحضور.

وفي الساعة العاشرة ليلاً غادر المدعوون القصر الملوكي لاهجين بجود جلالته الملك وكرمه داعين لجنابه الكريم بالنصر والتأييد.

هذا وقد رأينا عدة ذوات من الكبراء والعظماء في الاحتفالات الملوكية وتعرفنا بهم، كما حضر الاحتفال الأخير العلامة مفتي الديار المصرية سابقاً الشيخ محمد بخيت نزيل مصر والقادم لمكة أخيراً بقصد الحج، وكان موضع تجلة واعتبار من جلالة الملك، كما اجتمعنا بعدة مشايخ من أهل مكة وحضرنا دروسهم وتبركنا بهم، وزرنا الشيخ الشريف أحمد السنوسي(١) نزيل مكة، وهو موضع اعتناء جلالة الملك.

ويتحدث الكاتب عن بعض الحجاج المغاربة الذين صادفهم هناك من أمثال القائد العيادي الرحماني وحاشيته التي كان فيها الشيخ أحمد الشنقيطي، والشريف محمد ابن الطاهر البلغيتي، وباشا صفرو السابق الحاج اليعموري، وقائد الزراهنة الحاج قاسم الأمغاصي، والمنشدان: محمد العلمي وأحمد زويتن، والحاج عبدالسلام حصار السلاوي، والفقيه الفاطمي ابن سليمان، والأديب عبدالله بن سودة الفاسي، والعدل عبدالقادر ابن العلامة إبراهيم التادلي الرباطي، والأجلّ سيدي الحاج محمد بن فارس حجي السلاوي، إلى آخر اللائحة الطويلة التي تعطي فكرة عن تعلق المغاربة بمكة ...

هذا علاوة على من تعرف إليهم أيضاً من علماء الجزائر وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر والشام والسودان والحبشة والعجم والهند وجاوة.

ثم يقول الكاتب: أصبحنا بمكة في يوم الثلاثاء سابع ذي الحجة متم عام ١٣٤٨هـ (٦ مايو)، وبينما الحجاج في شك وارتياب من شأن استهلال شهر ذي الحجة، والبعض يقول: إنه استهل يوم الثلاثاء (٢٩ إبريل) والبعض يدعي الأربعاء (٣٠ إبريل)؛ إذ نادى المنادي من قِبَل الحكومة السعودية بأنه ثبت لديها استهلال شهر ذي الحجة يوم الأربعاء، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٧ ذي الحجة (٦ مايو)، فخطب الإمام خطبة بعد الظهر بالحرم المكي وفق العادة، ومنذ ذلك الحين والناس تخرج أفواجاً أفواجاً إلى منى وعرفة، فالبعض على الجمال، والبعض على الشقادف، والبعض على الحمر أو على العربات الخشبية التي

(١) لا بد أن نرجع إلى تراجم هؤلاء الأعلام في مظانها لنعرف مركزهم في دار الإسلام آنذاك.

تجرها الحمير والبغال، ومن الحجاج من خرج راجلاً، ولقد صارت زحمة عظيمة بمكة، وضاقت شوارعها بسبب ازدحام الجمال والشقادف.

ويوم الأربعاء ٨ ذي الحجة (٧مايو) خرجنا لمنى على الشقادف بعدما اغتسلنا وتجردنا وأحرمنا بالحج من البيت الحرام، والمسافة بين مكة ومنى نحو ٥ كليو مترات، وطريقها متسع لا بأس به، وهي توجد شرقي مكة، والسنة أن يبيت الحاج بمنى ليلة عرفة، ويصلي بها الفجر، ويخرج إلى عرفة صباح اليوم التاسع من ذي الحجة، غير أن السواد الأعظم من الحجاج يذهبون مباشرة من مكة إلى عرفة في اليوم السابع والثامن من دون أن يعرجوا على منى، بل ودون أن يصلوا ظهر يوم التاسع وعصره بمسجد نمرة. وكل هذا مخالف للسنة، والحقيقة أنه لا عذر للناس في تركهم هذه السنة إلا جهلهم بها، وتكاسل المطوفين وتهاونهم مع اعتماد جل الحجاج عليهم في كل أعمالهم!!.

ولذلك يقول الكاتب الجعايدي: أنشأت الحكومة الحالية مدرسة لتعليم المطوفين المناسك حتى لا يقصر الحجاج في شيء من أفعال الحج.

وفي منى يوجد مسجد الخيف الذي كان النبي ﷺ يصلي فيه أيام الحج، وبها إدارة للصحة تلاحظ الشؤون الصحية أيام الحج، وتقوم بما يحتاج إليه مرضى الحجاج من علاج ودواء.

وبأول منى على يسار الآتي من مكة جمرة العقبة، وهي حائط من الحجر ارتفاعه نحو ٣ أمتار، وعرضه نحو المترين. وبمنى أربعة شوارع: اثنان قديمان، واثنان أحدثا هذه السنة؛ حرصاً على عدم ازدحام الشقادف والجمال، وبها دكاكين وأسواق لبيع جميع أصناف المأكولات، وتوجد بها أيضاً عدة بناءات ودور عديدة ينزل فيها الحجاج يكترونها من أربابها الذين لا يشغلونها إلا في موسم الحج، وكراء أوسط البيوت يساوي ٢٠ جنيهاً ... وأهل منى يقولون: إن (مَنْ أراد الغنى فليشترِ بيتاً بمنى)! لأن كراءها أعظم من ثمن قيمتها! وبها محل للتلغراف يصدر الأخبار لجميع الأقطار، والكلمة الواحدة للمغرب يعطى عنها عشرون قرشاً حجازياً، أي نحو ١٦ فرنكاً. وشوارعها كلها كهربائية، وكذلك الطريق التي بينها وبين مكة والمجج الذي تربط منى بعرفة كله مشاعيل للضوء الحجري ومنارات عديدة.

وفي صباح يوم تاسع ذي الحجة قصدنا عرفة مارين بوادي محسر بالمزدلفة فوادي عرنة فمسجد نمرة، وبه صحن كبير في وسطه بئر يستقي منها الحجاج، وهو غير مسقوف ويصلي به الحجاج مع الإمام الظهر والعصر قبل ذهابهم لعرفة، ويخطب الخطيب خطبة يبين فيها أحكام الموقف وهذا من السنّة، ولكن الكثيرين من الحجاج تناسوها حتى صار لا يقيم هذه السنّة إلا قليلون. وفي شمال هذا المسجد يرى الإنسان العلمين، وهما عمودان من البناء بعيدان بعضهما عن بعض وقد أقيما في الفضاء للدلالة على حدود عرفة من الغرب.

وإذ ذاك يدخل الحجاج ساحة عرفة، وهي سهل متسع جداً في أحد طرفيه صخرة عظيمة تسمى بجبل الرحمة، وقد قسمت الحكومة السعودية موضع عرفة إلى أقسام هندسية، وخصصت لكل مطوف جزءاً منها لإقامة خيام لحجاجه حتى يمكن لهؤلاء أن يستدلوا على محلاتهم ولا يتيهوا عنها إذا خرجوا لقضاء أغراضهم.

وقد تم الوقوف بعرفة يوم الخميس على أحسن حال، وكانت وطأة الأمراض خفيفة والحمد لله، واليوم ليس شديد الحرارة فضلاً من الله سبحانه، وبعد المغرب تفرقنا من عرفة في ازدحام عظيم إلى أن بلغنا المزدلفة، فحططنا بها رحالنا، وجمعنا بها المغرب والعشاء وتعشينا واسترحنا بها، ثم قصدنا منى فوصلناها منتصف الليل، وبتنا بالدار المعدة لنا على أحسن حال والحمد لله.

وفي صبيحة الغد الذي هو يوم العيد الأكبر رمينا جمرة العقبة التي يقع بها التحلّل الأصغر، ثم نحرنا هدينا، وقصدنا مكة فطفنا طواف الإفاضة، وسعينا سعي الحج، ثم حلقنا، ثم لبسنا ثيابنا واسترحنا يوم العيد بمكة. في العشية رجعنا لمنزلنا بمنى فبتنا به ليلتين، ورمينا الجمرات في ذينك اليومين، وتعجلنا في الدخول لمكة عشية يوم ثالث العيد وثاني أيام التشريق، فدخلنا مكة بسلامة وعافية، أما أجرة الركوب لعرفة ذهاباً وإياباً فهي ثلاثة جنيهات للحمار، وأربعة لراكب العربات، وجنيهان لراكب الشقدف، وجنيه ونصف لراكب الجمل بدون شقدف.

وتستلم الحكومة السعودية من ذلك الكراء أكثر من نصفه، ورجال الحكومة خاصة ذهبوا لعرفة على السيارات ولم ترخص لأي أحد من الحجاج أن يتوجه على السيارة!

ولما دخلنا مكة صرنا ننتظر صدور الإذن من الحكومة للحجاج بالسفر، ويوم ١٥ ذي الحجة صدر هذا الإذن بالسفر لقاصدي المدينة فقط، ولم يؤذن بالسفر إلى جدة حتى ١٧ ذي الحجة، فاكترينا من مكة إلى جدة بجنيه وثلث صحبة بعض السيارات بواسطة المطوف. وفي صباح يوم الجمعة ١٧ منه خرجنا لبئر طوى حيث محل ركوب السيارات، فلم نجد سيارات لدى الشركة المكلفة بالحجاج، وحصل لنا ضجر عظيم وقلق مع أرباب السيارات، واشتكينا على رجال الحكومة فأمرتنا بزيادة نصف جنيه للواحد لتهيّئ لنا السيارات، فأدّينا تلك الزيادة ظلماً وعدواناً!! وحضرت السيارات فوقع عليها ازدحام شديد، واشتباك كبير من جميع الحجاج، وما ركبنا حتى حصلت لنا مشقة عظيمة، وقد بلغت درجة الحرارة في ذلك اليوم ٤٦ درجة والعياذ بالله.

وكان خروجنا من مكة ظهر يوم الجمعة المذكور متضجرين من أفعال أرباب السيارات وتهاونهم، ومن عدم اهتمام الحكومة بأمر ركوب الحجاج وشد عضدهم، مع أنها تتسلم من كل حاج نحو ١٤ جنيهاً في ضريبة ركوبه ونزوله وإقامته وغير ذلك. وفي عشية اليوم نفسه وصلنا لثغر جدة بخير وسلامة.

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الجعايدي

المنبهي ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م

هذه رحلة حجازية مغربية تمت سنة ١٣٢١هـ / ١٩٠٤م لم يحررها صاحبها، ولكنها سجلت في رحلة حجازية مصرية معاصرة.

ويتعلق الأمر برحلة المهدي بن العربي المنبهي وزير الحربية في المملكة المغربية الذي تحدث عن رحلته اللواء إبراهيم رفعت باشا مؤلف كتاب(مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية، والحج مشاعره الدينية)[١].

يحكي هذا اللواء أنه صباح الثلاثاء ٢٩ من ذي القعدة عام ١٣٢١هـ / ١٦ فبراير ١٩٠٤م سار موكبه من جدة إلى مكة فوصلوها في الساعة العاشرة من اليوم نفسه، وكان بصحبة ركبه خمسة آلاف جمل بعضها للحجاج، وبعضها للتجار.

قال: وممن صحبونا في طريقنا من جدة إلى مكة وزير حربية مراكش وأهله وحشمه، وكنت أمرت وأنا بمصر بمقابلة دولته لي مرتين في محل نزوله بشبرا، حيث بلغته توصية سمو الخديوي المعظم عليه في حله وترحاله. وسنعرف أن حاشية الوزير كانت تضم الشيخ (قاسم) وكيل الوزير والشيخ شعيب الدكالي والشيخ أحمد الجابي وابنه عبدالرحمن.

لقد كان المسؤولون الكبار في المغرب يجدون في أداء فريضة الحج وسيلة أحياناً للتخلص من وضعية ما! ونعتقد أن الوزير المنبهي كان من هذا القبيل على نحو ما كان من وزير آخر سابق: عبدالسلام التازي (١٣١٨هـ / ١٩٠٠م)[٢].

وهكذا فبعد تحريره مدينة تازة من قبضة الثائر المعروف بوحمارة أعرب المنبهي عن رغبته في الحج ... وغادر مدينة فاس يوم عيدالفطر الاثنين ١٣٢١هـ / ٢١ ديسمبر ١٩٠٣م تحت مطر وابل إلى طنجة[٣].

---

(١) الجزء الثاني، ص٥٥، الرحلة الثالثة ١٣٢١هـ / ١٩٠٤م.

(٢) د. التازي: رسائل مخزنية، مطبعة أكدال، الرباط ١٩٧٩م، ص ٦٤-٩٥.

(٣) المختار السوسي، المعسول، ج ٢٠، ص٤٥-٤٦. ابن زيدان: الإتحاف، ج ١، ص ٤٠٥. أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج ١، ص ٣٤٧.

ويحكي صاحب مرآة الحرمين أنه بعد زيارة للشريف عون الرفيق في يوم رابع ذي الحجة نظم زيارة لغار حراء الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل البعثة، وأنه كان في هذه الزيارة مصحوباً بوزير حربية مراكش، وكان معهم من الجند حوالي مئة ما بين راجل وراكب؛ حيث قام الوزير المغربي بتغذية كل هؤلاء الجند، وقدم لهم العيش والجبن والزيتون والبطيخ والتمر والجوز.

وفي الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ من نفس اليوم استعرض الوالي العثماني الجيش التركي أمام الوزير المغربي، ثم أقام الوالي حفل عشاء في السراي حيث استمر السمر حتى الساعة الثالثة بعد المغرب.

وفي السابع من ذي الحجة وصل كتاب من الوالي يخبر بأنه ثبت أن أول ذي الحجة يوم الخميس، وأن الوقفة ستكون يوم الجمعة (٢٦ فبراير).

وفي يوم الخميس ثامن ذي الحجة تحركوا من مكة في اتجاه منى بعد طواف القدوم بما يتضمنه من ترتيبات ... وبعد السعي بين الصفا والمروة.

وبعد الاستراحة بمنى توجهوا للمزدلفة فإلى العلمين الأولين، ثم العلمين الآخرين، ثم جبل الرحمة حيث أتموا نهارهم، وباتوا ليلة التاسع في عرفة ... وفي ظهره توجهوا لمسجد نمرة وجمعوا فيه مع الإمام بين الظهر والعصر جمع تقديم، ثم وقفوا بميدان عرفة تحت جبل الرحمة، وامتد الوقوف إلى غروب يوم الجمعة.

وبعد هذا نفروا إلى مزدلفة، وباتوا بها ليلة العاشر، وفي الصباح وقفوا بالمشعر الحرام، وسمعوا الخطبة هناك، ثم ساروا إلى منى حيث رموا جمرة العقبة، وحلقوا وذبحوا.

وفي طريقهم إلى مكة بعد تحركهم من منى تذكروا قول الرسول ﷺ عند مرجعه من منى: «فنزلنا إن شاء الله بخيف بني كنانة» ... وهو المحصب والأبطح وهو شعب أبي طالب الذي آوى إليه بنو هاشم مع رسول الله لما تحالفت عليهم قريش وكتبوا الصحيفة»[١].

ومن هنا توجهوا إلى مكة لطواف الإفاضة، ثم رجعوا في يومهم إلى منى لرمي باقي الجمار.

---

(١) مرآة الحرمين، ج ٢، ص ٦٢-٦٣.

وفي يوم الاثنين ١٢ ذي الحجة (٢٩ فبراير) غادروا منى إلى مكة حيث وضعوا المحمل داخل المسجد الحرام كما هو المعتاد.

وبعد حملة عنيفة على الشريف عون الرفيق الذي سمته بعض الصحف بالفرعون، وكان ذلك في أعقاب ما تعرض له بعض الحجاج هذا العام من عدوان على يد العربان ... بعد هذا يحكي صاحب مرآة الحرمين عن المصاعب التي اعترضتهم في سبيل أن يقوموا بزيارة الضريح النبوي إلى أن سمحت الأقدار بالسفر من ينبع إلى المدينة على الطريق المعروفة بطريق الطريف.

وهنا يتحدث عن المرحلة الأولى من ينبع البحر إلى ينبع النخل، فيذكر أنهم تحركوا من ينبع البحر يوم الأحد ١٧ من المحرم سنة ١٣٢٢هـ / ٣١ أبريل ١٩٠٤م ... في الساعة الثالثة العربية، وساروا في ميدان فسيح مستوية أرضه إلى الساعة الحادية عشرة حيث دخلوا بين الجبال، وبعد المغرب بساعتين ونصف وصلوا ينبع النخل.

وهنا قال معلقاً متذكراً المثل العربي القائل: «لكل شيء من اسمه نصيب»: ولها أي لينبع النخل من معنى اسمها نصيب! فإن النخل بها كثير، وعيون الماء العذب بها نابعة متفجرة.

ثم رجع صاحب المرآة ليتحدث عن باقي رحلة الوزير المغربي المنبهي هكذا:

وقد رافق المحمل في سفره السيد المهدي وزير الحربية الذي عرفناه في سفرنا كبير المروءة، وعظيم الهمة، وجميل الإحسان ... لقد أعطى أمير بلاد جهينة (التي تقع ينبع النخل فيها)[(١)] خمسمئة ريال ليوزعها على العربان، ووزع بمكة على فقرائها وذوي الحاجة فيها الصدقات الكثيرة، ومن الطريف أن نعرف من خلال إفادات صاحب مرآة الحرمين أن الوزير المنبهي عهد إلى المحدث الشيخ صاحب شعيب الدكالي أن يشتري

---

(١) ذكرتني هذه المعلومة في زيارتي لينبع النخل من بلدة جهينة يوم السبت ١٩ / ٢ / ٢٠٠٠م حيث كانت لنا قعدة في بستان يحده شجر الثغام (ZEDAIRE) الذي وقفت عليه أول مرة مع السادة د. عبدالرحيم الزلباني، والأخ مشعل العياشي ـ رحمه الله ـ في سفح جبل رضوى على بعد من ضريح الحسن المثنى، مجلة (المجلة)، العدد ١٠١٩، ٢٢-٢٨ / ٨ / ١٩٩٩م، وكالة المغرب العربي للأنباء، لوماتان ١٩ / ٢ / ٢٠٠٠م، الشرق الأوسط، ٢٠ فبراير ٢٠٠٠م.

عقاراً بمكة بقصد الوقف على فقراء الحرمين ... ومن جهة أخرى فلكي يقدم صاحب الكتاب «مرآة الحرمين» الوزير المغربي كشجاع مغوار ... قال: وكان إذا بلغه دنو الأعراب من ركب المحمل، يقول لخادمه: هات العود يا ولد ...! يعني فرسه، فيمتطيه بسرعة ليمنع عن المحمل عاديات الأعراب!

وكثيراً ما سار مع كشافتنا بعساكره المسلحين! وكان عوده (فرسه) يتسلق الجبال بسرعة ومهارة، وكذلك ينزل منها بسرعة ومهارة.

وقد أهدى الوزير المذكور هدايا قيمة من الجواهر النفيسة لكل من الشريف عون الرفيق ووالي الحجاز أحمد راتب باشا. وكذلك أهدى لي - يقول صاحب مرآة الحرمين - ولضباط المحمل ساعات فضية وعلب دخان! وكذلك فقد أهدى أهل بيته لأهل بيتي ساعات ذهبية يدوية.

وكثيراً ما تناولنا الطعام والشراب معاً، وكانت أدوات الشاي عند الوزير من المعدن الأبيض والأكواب من البلور (البلار) المذهب. قال: وقد صاحبنا الوزير ثلاثة أشهر لم نر منه فيها إلا خلقاً طيباً، وعملاً صالحاً، ونفساً كريمة أبية سباقة إلى الخير.

ويعتز صاحب المرآة بإهداء الوزير إياه صورة له باسمه بعد أن أمهرها بتوقيعه الذي يحمل اسمه: المهدي بن العربي المنبهي، كما يحمل تاريخ ١٧ ربيع الأول ١٣٢٢هـ (فاتح يونيو ١٩٠٤م).

وقد كان الوزير في كل محطة ننزل فيها تحاط خيامه بدائرة (أفراك) من الخفراء بين كل واحد وآخر بعض الأمتار، وللخفراء رئيس مغربي يمر عليهم واحداً واحداً حاملاً مصباحاً بيده، فإذا وقف أمام أحدهم خاطبه بقول: "أجب"، فيجاوبه الخفير بصوت عالٍ وألفاظ مغربية بقوله: (يا جاه النبي)! فيتركه إلى خفير آخر يفعل معه كما فعل مع الأول، وهكذا يستمر دائراً حول هاته الدائرة طوال الليل.

ولقد زرنا - يقول صاحب مرآة الحرمين - أمير الركب في ليلة فأخبرنا بحادثة غريبة، وهي أن قائد القوة العسكرية العثمانية التركي أتى إلى خيام الوزير المنبهي صبيحة يوم من الأيام ودخل عليه بلا سلام، وتناول كرسياً جلس عليه، وقال للوزير:

إن رجالكم منعوني من النوم طوال الليل، ولقد قضيت ليلتي في أرق ... سمعت منهم ألفاظاً لم أفهمها، وكشفت في القاموس لعلي أجد فيه ألفاظ الخفراء، فلم أعثر فيه على تفسير كلمة، وأخيراً طرحت القاموس وأصغيت لهم ففهمت من كلامهم جملة لا ينبغي لهم أن يذكروها في المستقبل خصوصاً وأنتم في بلاد الدولة العلية!! فقال له الوزير: وما هي هذه الجملة؟ فقال: أما كنتم تستبدلون قولكم: (ياشا الإنجليز) بكلمة: (ياشا عبدالحميد)! فقال له الوزير: ومن الذي قال: ياشا الإنجليز؟ ! قال: خفراؤكم! فأجابه الوزير: لقد أخطأ سمعك، إنهم لا يقولون إلا (يا جاه النبي)، وإن عدم تحري أذنك لحقيقة ندائهم هو الذي أحدث لك هذا الأرق، فخجل الأمير وانصرف.

وفي أثناء هذه الرحلة يتردد استعمال اسم (بقسماط)، وهو نوع من الخبز المحمر المجمر الذي يستعمل عادة في الأسفار الطويلة، كذلك يسميه إخواننا في مصر، وهو يحمل في المغرب اسم "البجماط".

ولقد احتفل بمقدم الركب إلى المدينة المنورة يوم ٢٦ من المحرم ١٣٢٢هـ / ١٢ إبريل ١٩٠٤م.

وقد كانت عودة الوزير المغربي من المدينة عن الطريق المعروفة بطريق الطريف سالفة الذكر، وعلل ذلك صاحب المرآة «بوجود وزير حربية مراكش مع الركب؛ لأن العربان يطمعون في ماله، ويعاكسون الركب المصري لينالوا من فيضه» على حد تعبير صاحب المرآة، وقد وصلوا إلى ينبع النخل يوم ١٥ صفر ١٣٢٢هـ / أول مايو ١٩٠٤م.

ونحن مدينون للواء إبراهيم رفعت بهذه المعلومات، مقدِّرين جهده في الحفاظ على من كان تحت رعايته مضحياً براحته من أجل أن يقوم الناس بواجبهم ... من مبدأ رحلتهم البرية إلى أن عادوا إلى باخرة (الرحمانية)، ويتأكد أن ذلك الجهد من لدن اللواء هو الذي كان وراء أريحية الوزير المغربي الذي أهدى اللواء المذكور وهو على متن الرحمانية بين ينبع والطور طائفة من الهدايا، كان منها بندقية موزر، وجراب من الجلد توضع به الذخيرة له علاقة حريرية، إلى جانب ساعة فضية.

ويذكر صاحب المرآة أن نجل الوزير السيد عبدالرحمن الذي لم تزد سنه على تسع

سنوات قال له باللهجة المغربية: « هادي المكحلة حق جدي احرص عليها بزاف » .

لقد احتفظ صاحب المرآة بذكرى طيبة لأصدقائه المغاربة، ولذلك فإنه يجدد في تأليفه المذكور عواطفه إزاءهم، ويذكر أنهم كاتبوه جميعاً، ويذكر اسم المهدي الذي كاتبه عدة مرات، وكانت فيها مكاتبة من طنجة بتاريخ ١٥ رمضان ١٣٢٢هـ / ٢٣ نوفمبر ١٩٠٤م مع إهدائه صورته وصورة نجله، كما يذكر أحمد الجابي، والشيخ أبو شعيب الدكالي، والحاج قاسم.



وزير حربية مراكش ووكيله

التميمي القيرواني ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م

هذه رحلة لمفتي القيروان محمد بن صالح الجودي التميمي القيرواني ... وقد قام بها في موسم سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٣م[١] ...

وهكذا بلغ التميمي مكة ظهر الأربعاء سادس ذي الحجة سنة ١٣٣١هـ / ٥ نوفمبر ١٩١٣م، واستأجر منزلاً علوياً على مقربة من حمَّام العمرة بسبعين فرنكاً.

وفي عشية الجمعة ١٨ / ١٢ / ١٣٣١هـ اكترى خيمةً وجمالاً، كل جمل بعشرين فرنكاً، وسافر إلى عرفات فبات بها ليلة السبت، وهنا يتعرض لذكر حادثة وقعت له ... وكثيراً ما تحدث من غير أن نجد مزيد اهتمامٍ بها مع أنها من مستلزمات الرفقة في بعض الأحيان ... قال: وتلف ابننا أحمد فبحثنا عنه ليلاً فلم نجده لكبر الجبل وكثرة النازلين فيه، وأخيراً بعد البحث سلمت الأمر لله، وبت متقلباً على الجمر بما أن الحرامية كثيرون بالجبل! ولا يؤمن منهم القتل؛ لأن القتل عندهم أقرب شيء يكون! ولكن في صبيحة غد يوم السبت أتانا به جماعة من السواحلية الذين صاحبونا في (الفابور) السفينة، ذكروا أنهم وجدوه صباحاً، وأخبر أنه لما تلف بات يطوف من مكانٍ إلى مكان إلى أن لقيه السواحلية، فحمدنا الله على ذلك.

وعند عصر يوم السبت (٩ ذي الحجة ١٣٣١هـ / ٨ نوفمبر ١٩١٣م) أقبل الإمام بمكان بالجبل يسمى (الصخيرة)، وهو عبارة عن حوطة بها محراب، قيل: هو الموضع الذي خطب فيه الرسول ﷺ في حجه، فخطب الإمام راكباً على ناقة، ومعه ناقة أخرى

---

(١) نغتنم هذه الفرصة لنتقدم بالشكر الجزيل للمشرفين على إصدار مجلة (العرب) في حلتها الجديدة، وعلى رأسهم أسرة الفقيد العزيز وزميلنا الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب ... لقد أتحفوني بالمقالات التسع التي دبجتها يراعة أستاذنا الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - حول رحلة التميمي القيرواني المنشورة في (العرب) عام ١٤٠٢هـ التي كان الشيخ أحمد حصل عليها بمساعدة زميلنا الدكتور الأستاذ إبراهيم شبوح الأمين العام لأكاديمية مؤسسة آل البيت.

مجلَّلة ليس عليها راكب[١]. قيل هي: الهدي الذي قدمه الإمام (وهو الشيخ عبدالله سراج مفتي الحنفية)، بل قاضي زمانه؛ إذ العادة أن الخطيب هو القاضي.

وكانت هناك ناقة ثالثة عليها راكب يحمل سحابة (مظلة شمسية) يظلل بها الإمام، إلى جانب ناقة رائعة ركبها أحد الأتراك، قيل: إنه باشا المحمل الشامي.

وشرع الإمام في الخطبة من العصر إلى أن غربت الشمس، وكثيراً ما كان يلبي الإمام ويشير للحجاج بالتلبية، فيلبون مثل التكبير في خطبة العيد.

وقد أفادنا هذا الرحالة القيرواني بأنه صادف في هذا اليوم بجبل عرفة سلطان المغرب السابق المولى عبدالحفيظ ابن السلطان الحسن، الذي وقف إلى جنب الإمام راجلاً محرماً كباقي الحجاج الآخرين.

وبعد أن تحدث الإمام الخطيب عن النَّفر والانصراف من عرفات إلى المزدلفة التي لم يتيسر له المبيت بها، لكنه قضى الليل بمنى وقام برمي الجمرة، وطواف الإفاضة، ثم الرجوع إلى منى، وتحدث عن الاحتفال العظيم بمنى يوم العيد والأيام بعده بحضور الأركاب الثلاثة فيها، وهي الركب الشامي والركب المصري والركب العجمي، يعني الفارسي والتركي، والمدافع تطلق بعد كل ربع ساعة، وفي أوقات الصلوات بكثرة لا تحصى من الأركاب الثلاثة، وانتصب أوطاق (أوثاق، خيام) عدة من أرفع ما يكون، يسع الواحد منها ما ينيف على مئتي نفس: أحدها لوالي مكة العسكري، وأمامه وثاق عسكر نظامي، والوثاق الثاني لسلطان فاس المولى عبدالحفيظ[٢]، وأمامه أيضاً عسكر نظامي، وحذوه وثاق السيد الشريف حاكم مكة الشريف الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون[٣]، ومع الشريف حراسه من البدو، ولهم لباس مخصوص رفيع بكيفية متميزة، وله سلطة كبرى.

---

(١) شرح التميمي القصد من وصف الناقة (المجللة)، وأنها ليس عليها راكب، ونذكر بالمناسبة أن الرحالة ابن بطوطة يستعمل لهذا المعنى كلمة المجنوبة.

(٢) انظر الصفحة ٣٨ من كتاب نصيحة أهل الإسلام، تاليف محمد بن جعفر الكتاني، تقديم د. إبراهيم الكتاني، تحقيق د. إدريس الكتاني، مكتبة بدر، الإيداع القانوني ٤٣١٧/ ١٩٨٩.

(٣) أحمد السباعي: تاريخ مكة، مطبوعات نادي مكة الثقافي، طبعة سادسة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٤٩٧.

وكانت الموسيقى تصدح بألحانها المختلفة إذ كلٌّ بلد له اصطلاح في الطرب.

ويلاحظ القيرواني التميمي أن سلطان المغرب ابتهج ابتهاجاً كبيراً، قالوا: إنه لم يقع مثل هذا الابتهاج لباشا مصر حين حج.

قال: وأعجب ما وقع في أيام منى أن اثنين من البدو ثبت عليهما جُرْم السرقة، قيل: إن أحدهما اختطف بوكاً (محفظة) فيها مئة وخمسون جنيهاً بمنى عند زحمة رمية العقبة، ولما عثر عليه وأوثق وجد عنده مئة جنيه فقط، فسئل عن الخمسين الباقية، فأجاب أنه ابتلعها!! فأُحضر له حكيم سقاه دواءً مسهلاً حتى أخرجها من أسفله!! فحكم عليهما الشريف بقطع أيديهما فقطعت.

ويذكر التميمي أن هذا الصنيع وقع منه موقعاً حسناً؛ حيث إنه شاهد قيام الحد الشرعي الذي انعدم العمل به منذ أزمان في جهاتٍ أخرى!!.

كما بلغنا - يقول التميمي - أنه قطع في ذلك اليوم لسارق يداه معاً، وقتل آخر ثبت عليه قتل النفس.

ويفيد التميمي أن عدد الحجاج لهذا العام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م بلغ على ما عدّه شيخ المطوفين ستمئة ألف نفس وثمانية وتسعين نفساً. ويدقق التميمي قائلاً: وهذا العدد هو الذي ورد بالبحر على طريق المطوفين، خلاف (فابورين) مركبين عيق أصحابهما عن الحج، وكانوا من أهل الهند. ويضيف إلى هذا معلومةً أخرى تلك أنه لم يقع في هذا الموسم مرض ولا كثرة موت.

وقد ذكر التميمي عودته إلى مكة ووصف الحرم وما بداخله، كالمطاف والحِجر (بكسر الحاء وتسكين الجيم) والحَجَر الأسود، ومقام إبراهيم وبئر زمزم، وما للحرم من أبواب، وذكر أنه في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة صلى فريضة الجمعة في الحرم، قال: وخطب الخطيب خطبة تتضمن تمام الحج والتحريض على زيارة المدينة المنورة، فأثرت في النفوس تأثيراً عجيباً... ولاحظ أن الخطيب كان يلقي خطبته من غير ورقة.

وقد كان مما سجله التميمي في مذكراته أنه بعد صلاة الجمعة قصد هو والسيد العربي بسيس، والسيد بلقاسم شيخ الطريق القادرية بنفطة، وولده الشيخ البحري

التونسي، قصدوا جميعاً بيت شريف مكة بداره، قال: وتلقانا بأحسن قبول، وفرح بنا، وأعلمه السيد العربي بأني من أهل القيروان ومن مشايخ الإفتاء فيها، فشملتني عنايته، وأثنى على القيروان، وذكر ما كان فيها من العلماء والصلحاء والصحابة رضوان الله عليهم، حتى كأنه من القيروان! ورأيت منه لطفاً عظيماً، وقدم لنا القهوة المعنبرة، وفرح بنا وأثنى خيراً ... ثم أورد الحديث الذي دار بينه وبين الشريف الحسين، وذكر أن الشيخ بلقاسم سرد قصيدة في الثناء على الشريف، وأن هذا الشريف أشار عليهم بالذهاب لزيارة المدينة عن طريق الدرب الطويل، وحسن لهم ذلك خشية البقاء في (ينبع) في انتظار الإبل التي تحمل الناس من الينبع ... علاوةً على غلاء السعر بالينبع وقلة الماء، ولو أن كلاً من الطريقين مأمون يؤكد الشريف الحسين.

وقد ودع الشيخ التميمي مكة يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة في اتجاه المدينة المنورة بدءاً من أول مرحلة: وادي فاطمة.

الصفحة الأولى من مخطوطة رحلة التميمي القيرواني

التوزاني الميضاري ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م

هذه مذكرات كتبها عالم فاضل جليل محمد ابن الحاج ميمون بن الطاهر ... ابن الشيخ الوليشكي الأصل التوزاني الميضاري المنشأ، كان من علماء جامعة القرويين بفاس من شمال المغرب : من الناظور، وتحديداً من ميضار، رام في رحلته إلى الاختصار، لكنها ملأى بالمعلومات الطريفة عن مكة ومحيطها(١).

غادر بلاده يوم ثاني شوال سنة ١٣٤٧هـ / ١٤ مارس ١٩٢٩م ... وقصد الديار المقدسة بعد أن حصل على جواز سفر من الحماية الإسبانية بمليلية، ومن الحماية الفرنسية بوجدة ... وأخذ السفينة من تونس إلى جدة.

لقد وصل إلى مكة يوم الجمعة فاتح ذي الحجة ١٣٤٧هـ (١٠ مايو ١٩٢٩م)؛ حيث كانت إقامته بحارة المسفلة الواقعة أسفل بيت الله الحرام في قلب مكة، وكان مطوفه عبداللطيف الكردي.

ودخلوا من باب السلام على ما هو المطلوب ... ويأخذ الميضاري في وصف مرافق الكعبة بما يعرف ... مردداً بعض الأدعية التي اعتاد المطوفون تلقينها للناس، وكانت الملاحظة الأولى التي أثارت انتباهه، وهي مهمة، هي وجود إمام واحد بالحرم الشريف عوض أربعة أئمة ... كان الناس يصلون الوقت الواحد أربع فرق كل حسب مذهبه، أما الآن - يقول الشيخ التوزاني - فإن الجميع يصلي خلف إمام واحد سواء أكان المصلي مالكياً أو شافعياً أو حنفياً، فمن حضر منهم يصلي بالناس ما عدا الصبح والمغرب فيؤم فيهما إمام حنبلي من أهل دائرة السلطان عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود، ومذهبه في الفروع مذهب الحنابلة، أما مذهبه في التوحيد فمذهب الإمام محمد بن عبدالوهاب، كما أخبرنا السيد المدني العلوي.

وبعد حديثه عن طواف القدوم والسعي ... يعود إلى الحديث عن مقر الإقامة بمكة،

---

(١) طبعت الرحلة بتحقيق ابنه الدكتور عبدالله عاصم... دار النشر المغربية، مارس ١٩٩٦م، الدار البيضاء.

وكان بدار السيد عبدالرحمن بن محسن البلخي ابن عم المطوف، وهما معاً شريفان منحدران من موسى الكاظم.

لقد كان المنزل يتوفر على دار للوضوء، وكان على مقربة من مسجد جديد ذي صومعة بناه رجل من الهند.

وقد تحدث عن أن رب المنزل طلب إليهم كقيمة لكراء عشر (ليرات: لويزات)[1] ... لكنهم اتفقوا في النهاية على أربع لويزات وستة ريالات سعودية.

ويتجدد طواف الشيخ التوزاني وسعيه ونسكه ... مذكراً بأنه كان يقضي النهار كله في محل الإقامة لشدة الحر، بينما يخصص الليل والصباح الباكر لبيت الله الحرام.

وفي تعليقه على ماء زمزم قال: إنه مخصوص بالمؤمنين، أما المنافقون فلا يستطيعون التضلع منه!!.

وقد قدم لنا نظرة عامة على الحرم المكي: عدد سواريه ... وأبوابه، ومناراته قبل الرحيل إلى منى يوم الخميس سابع ذي الحجة (١٦ مايو)، وهنا قد لاحظ اختفاء عادة أخرى، ذلك أنه لم يجد خطيباً يرشد الحجاج لما يجب عليهم، وكان ذلك يجري يوم سابع ذي الحجة.

ومن الطريف أن نجد الشيخ التوزاني يتحدث عن استعداداته الشخصية لإعداد الخيمة التي يحتمي بها عند نقله إلى منى وعرفات، وهكذا يذكر أنه اشترى نسيجاً صالحاً لإقامة الخيمة، وأعواداً وأوتاراً بخمسة ريالات سعودية، وهو ما يعادل نصف لويزة إنجليزية؛ لأن هذه تساوي عشرة ريالات سعودية، بينما تساوي سبعة ريالات إسبانية إلا فرنكاً أو ما شابهه.

وقد اكترى جملين بثمانية وعشرين ريالاً وقرشين لكل جمل ... وقبل الفجر من صباح الجمعة ثامن ذي الحجة انطلقوا في اتجاه منى التي وصلوها بعد طلوع الشمس حيث أقاموا طوال اليوم... وهناك - يقول الشيخ التوزاني - وقع موت كبير من الحجاج، وأخبرهم المطوف أنه عندما ينتشر المرض يموت في اليوم الواحد ألفان فأكثر في منى.

---

(١) اللويزة الواحدة تعادل ١٠ ريالات سعودية.

وقد ركب الشيخ إلى عرفة يوم تاسع ذي الحجة دون أن يستطيع أحد المشي في النهار لشدة الحر (١٨ مايو)، ومع ذلك فقد دوى الرعد ونزل المطر. وفي رأس جبل عرفات يوجد جنود يمنعون الناس من الاقتراب منه؛ لأنه ليس محل الوقوف.

وقد اغتسلوا في خيمتهم واحداً بعد الآخر، وعند الزوال أدوا صلاة الظهر والعصر مجتمعين، وبعد العصر نودي على الناس للوقوف ... قال: وكان بعض الحجاج يدور ويتكور على الأرض من شدة الحرارة، وأصيب عدد كبير منهم بالمرض...

ذكروا من المعلومات التي رواها الشيخ أنه توجد في أسفل جبل عرفات ساقية ماء مبنية بالبناء المتقن محيطة بالجبل، قائلاً: إن أول من أجرى هذه الساقية السيدة زبيدة بنت جعفر المنصور وزوجة هارون الرشيد ... أجرت هذا الماء من مسافة بعيدة من جبال شاهقات وأرض حجارات من عيون وادي النعمان مع البناء الوثيق، حتى قيل: إنه من عمل الجن!

ويصل هذا الماء ـ يقول الشيخ ـ إلى المزدلفة ... ثم إلى جبل خلف منى، ثم ينصب في بئر عظيم مطوية بأحجار تسمى (بئر زبيدة).

ولما أكملت ذلك جاء المباشرون للعمل وفي أيديهم لائحة بمبالغ الأموال المصروفة، وكانت في قصرها الذي يشرف على دجلة ... فأخذت الأوراق ورمتها في الماء قائلة: تركنا الحساب ليوم الحساب.!!

ونفروا بعد مغرب اليوم التاسع إلى المزدلفة في زحام كبير ... ولم تخلُ هذه التنقلات من منغصات، فقد سقط سنان للشيخ نتيجة لاصطدامه مع القشب الذي على ظهر البعير.

هذا إلى تعرضه للمرض بسبب تناوله "الماء الأصفر الحلو" يقصد ما يعرف اليوم باسم الليموناندة، وعجلوا للرحيل فامتطوا الجمال ورجموا ـ على ظهرها ـ في مشقة عظيمة. إن الحاج التوزاني لم يصل إلى مقر إقامته بمكة المكرمة إلا بعد الغروب، وفي تعب عظيم.

وهكذا تأخر قيام الجماعة إلى اليوم الرابع من عيد الأضحى (١٣ ذي الحجة)، حيث اغتسلوا ولبسوا ثياب الإحرام بقصد القيام بسنة العمرة مع مطوفهم الذي اكترى لذلك

حماراً بريال واحد ذهاباً وإياباً إلى التنعيم ... ورجعوا ليلاً فطافوا وسعوا، إن معظم الحجاج يشتكون من الحمى التي تفشت في الحجاج.

وقد غادروا مكة يوم السبت ٢٣ من ذي الحجة بعد إقامة بلغت اثنين وعشرين يوماً كان فيها منكباً على التضلع من ماء زمزم الذي أصبح له في بعض الأيام بمثابة الطعام على حد قوله.

وأمام إلحاح المطوف عليهم في أن يخففوا مما كان عندهم من زاد ومتاع قاموا ببيع كل ذلك بسوم عشرين قرشاً للّلكة؛ أي الكيلو بلهجتهم.

وأخذوا عربة تنقلهم إلى موقف السيارات التي ستنطلق بهم إلى جدة... لكن السائق ضَلَّ طريقه، وبسبب ذلك انفصل بعض الرفاق عن بعض! ووجد الشيخ نفسه مع قوم غير الذين كان يألفهم بالأمس ... والخير كان فيما وقع! فإن رفقة الأعراب - يقول التوزاني - كانت أفضل لنا من إخواننا الأمازيغ؛ لأن الصبر في هؤلاء قليل! والزحام الفاحش كثير منهم، بينما هؤلاء الأعراب كانوا في غاية الوداعة والتأدب.

العياشي سكيرج ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م

لكي نعرف موقع هذه الرحلة من تاريخ مكة على الخصوص علينا أن نرجع إلى تاريخ الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة بعد الحرب العالمية عندما توجهت الأطماع إلى توزيع "تركتها" بين إنجلترا وفرنسا!

وقد كان عليَّ أن أرجع إلى المصادر الأجنبية التي كانت دقيقة جداً فيما يتصل بموضوع الرحلة المكية موضوع حديثنا(١).

لقد أصبحت فرنسا تهيمن على المغرب بمقتضى اتفاقية الحماية (٣٠ مارس ١٩١٢م/ ١١ ربيع الآخر ١٣٣٠هـ). ونتيجة هذا كان لهذه للرحلة المكية أيضاً هدف سياسي يهم أولاً وبالذات مصالح فرنسا في الديار المشرقية.

لقد كان القاضي سكيرج يحمل رسالة إلى أمير مكة الشريف حسين بن علي الذي كان يقاوم بقايا العثمانيين ... قبل أن يظهر الملك عبدالعزيز على المنطقة كلها.

ومن هنا فإن لهذه الرحلة موقعاً مهماً في تاريخ مكة في تلك الفترة التي ظهر فيها التنافس على أشده بين فرنسا وإنجلترا.

لقد أقام أعضاء الرحلة في جدة بمنزل الفاضل محمد أفندي نصيف وكيل شريف مكة بالمدينة المذكورة قبل أن ينطلق الركب نحو مكة يتقدمه الأمير محسن بن منصور نائب الشريف والكل في إحرام.

---

(1) Remi Brodiez: La France Au Hedjaz Août 1916 - Août 1920. Mémoire de Maîtrise Préparé Sous La Directrice de Prof. Duroselle Année 1971-1972. Pierre Herve: (Sous - Lieutenant): I'intervention Militaire Française Au Moyen Orient 1916- 1919: "les Malaises D'une Alliance" Mémoire Présenté Sous La Direction Du Lieutenant - Colonel Guelton Et Mr Forcade.

وأغتنم هذه الفرصة لأجدد شكري للجنرال ريمي بروديز Rèmi Brodiez وللجنرال أ. باك A. Bach ورئيس الأرشيف العسكري Saint Vencennnes.

وقبل أن يدخل القاضي ورفاقه المسجد الحرام حضر يوم الاثنين ٢٧ من ذي القعدة عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م (٢٥ سبتمبر) تظاهرة نظمت لاستقبال البعثة خطب فيها نقيب السادة بمكة الشيخ محمد بن علوي السقاف الذي أشاد بالنهضة العربية التي تغلبت على التورانيين الملحدين.

ثم ارتجل الشيخ عبدالملك الخطيب كلمة أشاد فيها بالوفود التي وردت لهذه البقاع بمساعدة دولة فرنسا التي تتعاطف مع حركة الشريف.

ثم نهض الشيخ عبدالمحسن الصحاف ليلقي خطابه حول الموضوع مشيداً بالوفود الواردة وبالصداقة الفرنسية، وارتجل رئيس الوفد المغربي السيد عبدالقادر بن غبريط الذي شجب طبعاً ما يقوم به الترك داعياً إلى إنقاذ المسلمين، مؤكداً أن الأمة الفرنسية مرتاحة للعمل الذي قام به سيادة الشريف.

وبعد هذا قصد الوفد بيت الله الحرام، فدخلنا - يقول سكيرج - من باب السلام لشرف ذلك المقام، وطفنا بالبيت المرفوع طواف القدوم، وتشرفنا بتقبيل ذلك الحجر الأسعد ... وقد أخذنا الحال[1] عند مقابلة البيت من الباب، ودهشنا من عظيم الوجد الذي خامرنا في ذلك الوقت، بما لم نكن معتادين له مما قضينا به من أنفسنا كمال الإعجاب! ثم خرجنا من باب الصفا بعد صلاة ركعتي الطواف بمقام إبراهيم ... وسعينا بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وكان مطوفنا هو الشيخ عبدالوهاب خوقير ... بقي في مساعدتنا إلى أن أتممنا الحج والعمرة.

كان نزول الوفد بمنزل الشيخ أحمد باناجة أحد أهل الثروة ... وهو وكيل المالية في حكومة الشريف حسين بن علي، تفصل بين الدار وبين المسجد الحرام محجة السعي، وكانت غالب غرفها مشرفة على المسجد ... الأمر الذي حرك شاعرية القاضي ... وهناك في هذا البيت تقاطر أعيان مكة للسلام على أعضاء الوفد المغربي ... ويشعر القاضي بالمتعة وهو يتضلع من ماء زمزم الذي يغتنم الفرصة ليتحدث عنه وعما ورد فيه من تآليف، ويذكر بالمناسبة كتاباً للشيخ محمد بن إدريس القادري تحت عنوان: «إزالة

---

(١) تعبير مغربي يعني أننا (غبنا عن العالم الحاضر)، بمعنى أنه نسي ما كان يدور من حواليه أو شيء هكذا.

الدهش والوله عن المتحير في صحة حديث ماء زمزم لما شرب له».

ويصف البئر كما كان في ذلك التاريخ، كما يصف الزائرين له والعملة الذين عهد إليهم بمساعدة المترددين على زمزم ... من غير أن يغفل دور "البقشيش" في قضاء الأغراض. !! وهنا يبذل القاضي النصح للحاج أن يكون سمحاً كريماً رفيقاً ليناً إزاء عباد الله.

ويذكر في جملة من زوار البعثة الشيخ فؤاد الخطيب مؤسس جريدة القبلة التي صدر أول عدد منها يوم الاثنين ١٥ شوال من عام الحج ١٣٣٤هـ / ١٥ أغسطس ١٩٣٤م، حيث اطلع القاضي على ما ورد عن الوفد المغربي مما اهتم به الرئيس ابن غبريط، وقد كان من العبارات التي وردت في الجريدة مما حفظه القاضي:

«إن العرب لا يقاتلون الترك، وإنما يحاربون حزباً طاغياً ختم الله على قلبه..».

لقد أهمل الاتحاديون الأتراك البلاد المقدسة وتركوها خالية العمران حتى لا يبقى في أذهان المسلمين إلا صورة القسطنطينية العظمى!! وحتى لا يكون للعرب شأن ولا قدر ولو في صميم بلادهم.. إن العرب فائزون وحسبهم أنهم طهروا البلاد من الأرجاس الاتحادية ... وأنهم شعب يعترف بالجميل ... ولذلك فهو يشهد للحلفاء بالفضل ولا سيما عنايتهم بالمسلمين منذ العهد القديم ... وإن كل عربي يعتز بجلالة الشريف الحسين بن علي ... الذي يجعل على عاتقيه شرف عشرين مليوناً من العرب إلى آخر الكلام الذي لم يسمع مثله قط في رحاب مكة قبل هذا اليوم.

وقد سجل القاضي قصيدة ميمية طويلة لصاحب تلك الرسالة المهيجة:

يا أهل جنكيز! إن تثقلْ مظالمهم
على الشعوب فقد كانت لهم نعما!

فالظلم أيقظ منهم كل ذي سنة
ما كان ينهض لولا أنه ظلما!!

وفي مساء هذا اليوم ركبت البعثة الخيول، وقصدوا سراي الشريف بقصد السلام عليه تخفرهم جماعة من أصحاب الشرطة في زيهم المشرقي الجميل، وعلى رؤوسهم

عصابة من حرير ووسطهم حزام نظمت به القراطيس وهم حاملون للمكاحل ... إلى أن وصلوا للسراي حيث تلقاهم الشريف بكامل الترحيب ... وجلسوا لحضرته سويعات قبل الاستئذان في الانصراف؛ حيث بقي الرئيس ابن غبريط مع الشريف حسين للحديث في شأن مأمورية البعثة ... وانفصلوا على موعد ثانٍ للعلاقات الرسمية ولرد زيارته للبعثة المغربية بمحل إقامتها.

وعاد الرئيس يحكي للبعثة عما تم بينه وبين الشريف من حديث ... وفي أثناء هذا كان أفراد البعثة يفوزون بالصلاة في الحرم الشريف غالب الأوقات ... كما يفوزون بالطواف والتملي برؤية البيت العتيق والمقام العظيم.

وقد أصبح يوم الثلاثاء ٢٨ من ذي القعدة فظلوا فيه طول النهار في كمال وانشراح حيث زارهم في المساء أعضاء المجلس البلدي يتقدمهم رئيسهم السيد يوسف القصاب الذي سلمه القاضي رسالة من الوزير المغربي للعدل الشيخ أبي شعيب الدكالي(١) ... وتكلف رئيسنا بالحديث عما تقوم به الحماية الفرنسية من المحافظة على الشعائر الدينية والعوائد الجارية ... قال: إن المدارس القديمة عامرة بطلبة علوم الدين، والمدارس الحديثة يقصدها طلبة العلوم العصرية ... وتعجبوا مما كان يشيعه الأعداء (الفتيان العثمانيون) عن هذه الدولة (الفرنسية)، وأنها كانت تمنع الناس من الحج، وأنها تهدم المساجد! وتحمي آكلي رمضان! كلام طويل حول الحرب العالمية مما يؤكد أن البعثة ... كما قلنا كانت ذات هدف سياسي قبل أن تكون لأداء المناسك!! لقد قضوا ليلة الأربعاء ٢٩ من ذي القعدة (٢٧ سبتمبر) وهم ينظرون الأنوار صاعدة في أفق هذا الحرم الشريف مما يؤكد أن عصر الشموع والمصابيح الزيتية ولّى إلى غير رجعة.

وقد كان يوم الأربعاء ٢٩ من ذي القعدة هو المخصص للملاقاة الرسمية مع الشريف حسين بن علي وتقديم الهدايا المرفوعة إليه، وبعد أن تم الاتفاق على مراسيم اللقاء...

هكذا ركبوا صباحاً حيث استقبلهم الشريف بدار الإمارة، ووقف إلى جانبه الأيمن

(١) نعيد إلى الذاكرة أن الشيخ أبا شعيب هذا هو الذي عهد إليه المهدي المنبهي وزير الحربية المغربية سنة ١٣٢١هـ / ١٩٠٤م باقتناء عقار بمكة قصد تحبيسه على الفقراء.

رئيس البعثة وأعضاؤها، ووقف على اليسار الأعيان الأعلام: محمد صالح الشيبي (صاحب مفتاح باب الكعبة) ... والشيخ عبدالله الزواوي مفتي الشافعية، والشيخ عابد بن حسين مفتي المالكية، والشيخ محمد بن علوي السقاف وكيل نقيب السادة، والشيخ عبدالله أبو الخير وكيل رئيس الخطباء في المسجد الحرام، والشيخ محمد أمين مدير الحرم الشريف، والشيخ أحمد باناجة، والشيخ يوسف القطان رئيس البلدية.

وهنا ألقى ابن غبريط رئيس البعثة خطابه الرسمي الذي أشاد فيه بالشريف حسين، وحمل على (حزب فتيان الترك) الذين استحوذ عليهم الشيطان، وفتكوا بالأجلة الأحرار مثل عائلة الأمير عبدالقادر الجزائري.

وقد أجابه الشريف بخطبة أشاد فيها بالحلفاء من الدول الخارجية شاكراً لملك المغرب وباي تونس اهتمامهما بنهضته.

وبعده قدم الرئيس ابن غبريط الشيخ الشاذلي العقبي نائب باي تونس الذي ألقى بدوره خطابه قبل أن يقوم الرئيس بتقديم القاضي سكيرج الذي ألقى خطاباً أمره بإلقائه ملك المغرب السلطان المولى يوسف ابن السلطان الحسن، وفيه يهنّئ الشريف بالاستقلال التام.

والطريف في الخطاب أنه يعيد إلى الذاكرة قضية المصاهرة التي كانت بين العاهل المغربي الملك محمد الثالث والشريف سرور التي أشرنا إليها في رحلة ابن عثمان ... إلى جانب هذا يطلب النظر في سير الأوقاف المغربية على الحرمين على أساس عقد يبرم بين الجهتين(١).

وقد نوه الشريف حسين بالمصاهرة التي قال: إنه يعرف عنها حق المعرفة لدى واسطة عقدها إحدى جداته الطاهرات، وإنه يقدر حق هذا الارتباط قدره، وطلب إلى القاضي أن يرفع تحياته لملك المغرب، وأن يقبّل جبينه بالنيابة عن جلالته، وتقدم الشريف إلى القاضي، وأخذ رأسه، وقبّله بين عينيه!

وبعد أن قدم الرئيس بقية أعضاء البعثة من جزائريين وتونسيين وسنغاليين استأذن

---

(١) لا ننسى ان ملوك المغرب ظلوا حريصين دوماً على أن يحبسوا أوقافاً على مكة وعلى المدينة تضمن العيش للمحتاجين والفقراء على ما أسلفنا.

الشريف في أن يلقي القاضي أمامه القصيدة البائية التي كان هيأها:

ولولاك حج الناس ما انحل بابه!
وأبّد ركن الدين منسدل الحجب
ورام قناة الترك ترك طريقه
بما أحجبوه في النواحي من الحرب!

وقد علق الشريف على ذكر الترك مؤكداً أنه لا يحارب الترك، وإنما فئة استلمت زمام الحكم لا تجعل لها من الدين ولا من القانون ولا من المروءة وازعاً.. فأجابه الرئيس ابن غبريط: إن فتيان الترك استولى عليهم الألمان بما يبثه فيهم من غرور الأماني ... وبعد استراحة قليلة استأذن الرئيس في فتح بعض الصناديق المحتوية على الهدايا المقدمة التي كان منها مما قدمته فرنسا ساعة بديعة الشكل غريبة الاختراع في صورة دراعة حربية تتحرك مدافعها بحركة دواليب الأوقات، وتصدع بطلقات عدد الساعات الحاضر وقتها.

وكانت هدية العاهل المغربي خنجراً مذهباً مع عقد مرصّع بالحجر الحر الثمين إلى آخر اللائحة الطويلة التي انتهت بالاستئذان في الانصراف... وقد زود الشريف حسين الوفد المغربي ببياناته حول حركته التي ضمنها مآخذه على جمعية الاتحاد التي بلغت في الجرأة على الله أن طالبت بإلغاء مضمون الآية: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ**﴾، وقد بلغ من أمر جمال باشا المتحكم في الشام أن شرع خدمة النساء المسلمات لأعضاء النادي الذي أنشئ هناك!!

وتعود البعثة إلى مقرها بمكة حيث تتهيأ لاستقبال الشريف الذي جاء بقصد رد الزيارة التي تمت بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء المذكور.

وأصبحوا يوم الخميس ٣٠ من ذي القعدة (٢٨ سبتمبر) منشغلين بأمر يوم الوقفة بعرفات، لكن الهلال لم يظهر، فمن الناس مَنْ يقول: إن هناك خللاً وقع في رصد الأهلة السابقة ... حديث طويل عند الحجاج طوال الأزمان على ما أسلفناه في الرحلات السابقة، يتفرغ له القاضي بما كان يتوفر عليه من زاد فقهي كبير.

وقد انشغل القاضي بأمر الحجاج المغاربة الذين أتوا بوسائلهم الخاصة، وكان عددهم يناهز السبعمئة حاج، يتحدث عن إيوائهم وإسراع بعضهم إلى البيت الحرام.

والمهم أن نعرف أن البعثة المغربية الرسمية أصبحت يوم الجمعة الموالي (٢٩ سبتمبر) في المسجد الحرام الذي غص بالطائفين والعاكفين والركع ... وطاف المسجد بما فيه ... إنها تنتظر من صاحبه جلالة الشريف الدخول للبيت العتيق والقيام معه بغسله.

وقد حضر الشريف مخفوراً بعبيد المسجد الحرام، وفتح البيت، وصعد الشريف ورئيس الوفد مع بقية الأعضاء ... ودخلت القاضي الخشية، ولكنه قوي الرجاء، وأصلح النية في الدخول لهذا البيت الذي دخله سيد الأنبياء ... وصلى في أركانه الأربعة، ودلَّهم الشريف على موضع كان الرسول يصلي فيه ...

ثم شرعوا في غسل البيت الشريف، وكان الأمير يباشر للكنس مع الرئيس، وكان القاضي ممن يصب ماء زمزم وماء الزهور الطيبة العاطرة، والناس من أسفل الباب يتبركون بما ينزل من الغسالة.

« ... وقد رأينا من داخل البيت تزليج أرضه وجدرانه بالزليج القديم والرخام الفخم، وهناك خطوط منقوشة ومرسومة، ولم أمعن فيها النظر لهيبة الجلال مع أن الغير تكفل بنقلها، فقد أطلعنا ـ يقول القاضي ـ في "الرحلة الحجازية" على ذلك مع زيادة اعتناء في وصف الحرم الشريف داخلاً وخارجاً، طولاً وعرضاً ومساحة، بتحقيق لا مزيد عليه[١]، هذا علاوة على نصيحة رفيقنا في الرحلة الكمندان الجزائري شريف وهو عالم جليل وباحث كبير[٢].

وبعد الطواف بالبيت استودعوا الشريف قبل أن يحضروا معه أيضاً صلاة الجمعة بمقصورته الخاصة بجانب الحرم الشريف من ناحية باب الصفا.

وبعد الصلاة تذاكر الشريف مع الوفد في كون الشهر لم يظهر هلاله حتى الآن، وأنه

(١) القصد إلى كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا الذي كان أميراً للركب المصري سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠١م، ١٣٢٠هـ / ١٩٠٣م، ١٣٢١هـ / ١٩٠٤م، ١٣٢٥هـ / ١٩٠٨م.

(٢) ترجمة القاضي سكيرج للكمندان الشريف سانت كادي ترجمة جيدة، ونعته بالتضلع من علم الفلسفة مع المعرفة بعلم الهندسة. ص ٤٤ من النسخة الخاصة المرقومة.

إذا ثبت لديه فإنه يعلمهم بذلك.

وانفض الجمع بعد أن دارت عليهم القهوة المشرقية ... لقد كانوا يلازمون منزلهم الذي يرون منه معظم البيت الحرام ... كانوا يتجنبون الخروج لازدحام الضعفاء على كل واحد منا ليطلب البقشيش، وكنا نشفق من حال جلهم، نتألم لما هم عليه من الضعف وحال المجاعة التي مرت عليهم أيام الحصار يقول القاضي الذي يستنكر مرة أخرى القسوة على هؤلاء السائلين، مذكراً بأن الآية الشريفة: ﴿**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ**﴾ نزلت بمكة!!

وفي يوم السبت قام بعض الحجاج المغاربة القادمين بزيارة البعثة المغربية التي كانت تقوم بواجبها في الترحيب والتكريم.

ولم يفت القاضي أن يذكر في صدر الزائرين باشا مدينة سلا العلامة محمد بن الطيب الصبيحي، وكان من الزوار كذلك الشيخ السيد علي الثغراوي قاضي سلا؛ حيث جرى الحديث حول ما إذا وقع الغلط في يوم الوقوف بعرفة ... إن موضوع الساعة بالنسبة للحجاج هو هذا!

وبعيداً عن مناسك الحج يخبرنا القاضي أنه في يوم الأحد كان موعد وصول الفاتحين لمدينة الطائف من يد العثمانين برئاسة الشريف عبدالله نجل شريف مكة، فكان يوماً مشهوداً وصفته جريدة (القبلة) آنذاك.

وفي يوم الاثنين خرج القاضي لزيارة بعض المشاهد في مكة: الدار التي يقال: إن النبي ولد بها[1] ... ثم مولد الإمام علي كرم الله وجهه، إلى آخر المزارات التي يقول: إنه لم يكملها لوعكة ألمت به ... وقد كانت البعثة على موعد يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة مع المأدبة التي أقامها الشريف لأعضاء البعثة، وحضرها بدار الإمارة أهل الحل والعقد.

وقد اتسعت مائدة الطعام التي لم ير القاضي مثلها عرضاً وطولاً؛ حيث وسعت نحو المئة من المدعوين ... وكانت صحون الطعام تتجاوز الأربعمئة ... وقد تنوعت

---

(١) فاسيلييف: مصدر سابق.

الحلويات والمشروبات، كل هذا والموسيقى تصدع بنغمات وألحان يتخللها النشيد الوطني العربي، والدفوف والمزامر تجاوبها برنات محركة للنفوس.

وبعد الفراغ أدوا مع الشريف صلاة المغرب قبل أن يعودوا إلى دار الضيافة.

ولما كان يوم الأربعاء سادس ذي الحجة ... سمعنا المنادي ينادي بأن الوقفة على جبل عرفة هي يوم السبت، ومن هنا تأكد للناس أنهم يعيشون معاً اليوم السادس من الشهر.

وأصبح يوم الخميس السابع من ذي الحجة حيث غص المسجد الحرام بعد الزوال بالناس على اختلاف الأجناس، وهم محرمون لسماع الخطيب الذي جرت العادة غالباً أن يصعد المنبر اليوم ليرشد الناس لما عليه هم يقبلون ... وقد أجاد في خطبته وأفاد على ما يقول القاضي، ولو أنه لم يحضر.

وقد رافق القاضي الرئيس لزيارة المدرسة الأميرية مع بعض أعضاء الوفد ... حيث حضر حفلة أقامتها المدرسة لتكريم التلامذة المتفوقين ... حيث ارتجل التلميذ عبداللطيف نجل الشيخ علي مالكي وكيل المعارف كلمة أمام المدعوين، وكان ذلك بداية الحفلة قبل توزيع الجوائز.

وكان اليوم الموالي: الجمعة هو الثامن من يوم التروية ... الشوارع غاصة بالركائب والهوادج، والمطايا حافلة بالحجاج في طريقهم إلى عرفات، وقد فرشت كسوة الكعبة بصحن المسجد الحرام، وعبيد الحرم واقفون يحيطون بالمكلفين بخياطتها، وقد صعد فوق البيت بعض الخدمة لستر الجهة التي كمل تخييطها.

وبعد أداء صلاة الجمعة والعصر بالمسجد الحرام ركب الوفد صحبة مولانا الشريف في موكب في غاية الأبهة، والأهالي مزدحمون لرؤية الشريف وبجانبه الأمير عبدالله، وهكذا أخذوا طريقهم نحو المعلى شمالاً، فطريق منى شرقاً، قاصدين وادي عرفة، والرئيس مع الكمندان شريف في عربة خصوصية.

ويصف البنايات الواقعة على الطريق بمنى ... ويقصدون المزدلفة، وبها أتموا الليل حتى مطلع الفجر ... ومن هناك قصدوا جبل عرفات ... لقد استغرق سيرهم نحو

الست سوايع إلى أن وصلوا إلى الصواوين المنصوبة بوادي عرفات، هناك نزلوا بجوار صيوان الأمير عبدالله الذي كان يجاور صيوان الشريف حسين، كانت ليلة عامرة بالأذكار ولا تسمع إلا الدعاء الذي تردد الجبال صداه.

وأصبح يوم عرفة، وهو يوم السبت تاسع ذي الحجة ... وكل الناس يحمدون الله الذي منَّ عليهم بالوقوف على هذا الجبل الذي وقف عليه الأنبياء والأولياء.

وقد ظل ضجيج الملبين والداعين طول النهار إلى صلاة العصر، وبعد ذلك أقبل خطيب عرفة راكباً ناقته والناس من حوله، فصعد صخرة في صدر جبل الرحمة ترى من البعد في بياض فطفق الناس يجتمعون حوله ... وقد قدر الواقفون بالجبل في هذا العام بثلاثين ألف نسمة.

وطفق الخطيب في موقفه يعلم الناس مناسك حجهم، وما بقي لهم من تلك المناسك بعد النزول من الجبل ... ملبياً المرة بعد الأخرى ... ويشير القريب من الخطيب للبعيد بمناديل في أيديهم ليشاركوهم في التلبية والتكبير ... وقبل الغروب بنحو ساعة ركبنا صحبة مولانا - يقول القاضي - وقصدنا جبل الرحمة فصعدنا إلى قرب الصخرات الناتئة ... وهناك وقف المحمل المصري في موكبه الخاص وقد اصطفت الضباط والجنود النظامية المصرية والعربية، فرساناً وركباناً ومشاة أمام الواقفين، والكل محرم في صعيد واحد يناجون ربهم في السر والعلن ... وقد تساوى هناك الشريف والمشروف، والمجهول والمعروف، والجليل والحقير.

وهناك أطلقت المدافع طلقات متعددة، إشعاراً بوصول الشريف للموقف، وصدحت الموسيقى المصرية والعربية بالتحيات، واستأنف الخطيب خطبته بالدعاء والتلبية، وكانت الشمس عندئذ في المغيب، والحجيج كله واقف يدعو ويلبي حتى غربت الشمس، وأتم الخطيب خطبته ونزل مع المحمل والمدافع تصدع بطلقات السرور، والموسيقى تصدح بنغمات الحبور، والناس آخذون بالنفر من عرفات إلى المزدلفة، والمحمل المصري في ضخامة وازدهار، وكان بعض الأعراب يطلق في بعض الأحيان طلقات في الفضاء إظهاراً للفرحة. لكن الأمير عبدالله كان ينذر أولئك بعدم العودة لذلك خشية أن يصاب أحد بسوء.

وبعد ساعتين وصلوا المزدلفة بعد المرور بالمأزمين ... حيث جمعوا حصيات الرجم، وبات الناس في الدعاء إلى أن صلوا صبح يوم الأحد، وهو يوم العيد ... فساروا صحبة الشريف حتى وقفوا عند المشعر الحرام بالمزدلفة فوقف الجميع للدعاء إلى الإسفار، ثم دفع الجميع في المسير قاصدين منى ... حيث رمينا سبع حصيات، وهناك ذبحنا الأضحية، وحلقنا، وقصدنا البيت الحرام بمكة فوصلنا إليه صحبة سيدنا الشريف.

فطفنا طواف الإفاضة، وسعينا بين الصفا والمروة، فتم حجنا، وقصدنا منزلنا بعد أن صلينا سنّة العيد بالحرم الشريف.

وبعد صلاة العصر ركبنا مع الشريف وخرجنا لمنى بقصد المبيت هناك وإتمام رمي الجمرات في اليومين التاليين.

وفي يوم الاثنين ١١ ذي الحجة قصد الوفد المغربي صحبة رئيسه لتهنئة حسين الشريف بالعيد السعيد، ثم قصدوا ابنه الأمير عبدالله.

وهناك وأمام الشريف حسين استأذن الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وألقى خطبة بين فيها فضيلة العرب وما كانوا عليه من رفعة الشأن... إلى أن تخلص لذكر الأسباب التي دعت الشريف حسين إلى هذه النهضة المحمودة ... وهو الأمر الذي شكره عليه الشريف وأثنى عليه.

وانفض هذا الجمع ورجع الوفد المغربي إلى صيوانه ... ولم يلبث الشريف أن قام بزيارة الصيوان الذي يقيم فيه الوفد المغربي، وكان بمعيته نجله الشريف عبدالله ... وبعد صلاة العصر ركبوا مع الشريف حيث رموا الجمرات، ورجعوا إلى المبيت بهذه السرادقات المضروبة.

وفي اليوم الموالي (الثلاثاء ١٢ ذي الحجة) كان يوماً توالت علينا فيه الزيارات، كما قمنا نحن كذلك رفقة الرئيس بزيارة بعض ذوي المراتب المرموقة، وخاصة كبار ضباط المحمل المصري حيث رددت الموسيقى تكريماً لنا.

وقد عاد القاضي إلى زيارة بعض الأماكن مما اعتاد الحجاج زيارتها: غار المرسلات، الذي يقال: إن سورة المرسلات نزلت فيه ... ثم مسجد الكوثر ومغارة إبراهيم.. إلخ.

وبعد صلاة العصر ركبوا صحبة الشريف حيث قصدوا الجمرات الثلاث فرموا كل واحدة سبع حصيات، والطريق غاصة بالمتوجهين لمكة من الهوادج والركائب والمشاة بعدما تقدم الركب المصري في زيه المرونق، والموسيقى تصدح، وموكب مولانا محتف بالجيش الحجازي حتى لاحت لنا مكة التي وصلناها مع الغروب.

ولما كان من مهمة القاضي إنشاء وقف مغربي على الحرم الشريف على ما سلف، فقد تم اجتماعه بوكيل الأوقاف الشيخ محمد الأمين حول إمكانية إنشاء دار للمغرب يأوي إليها الضعفاء المنقطعون والحجاج المحتاجون.

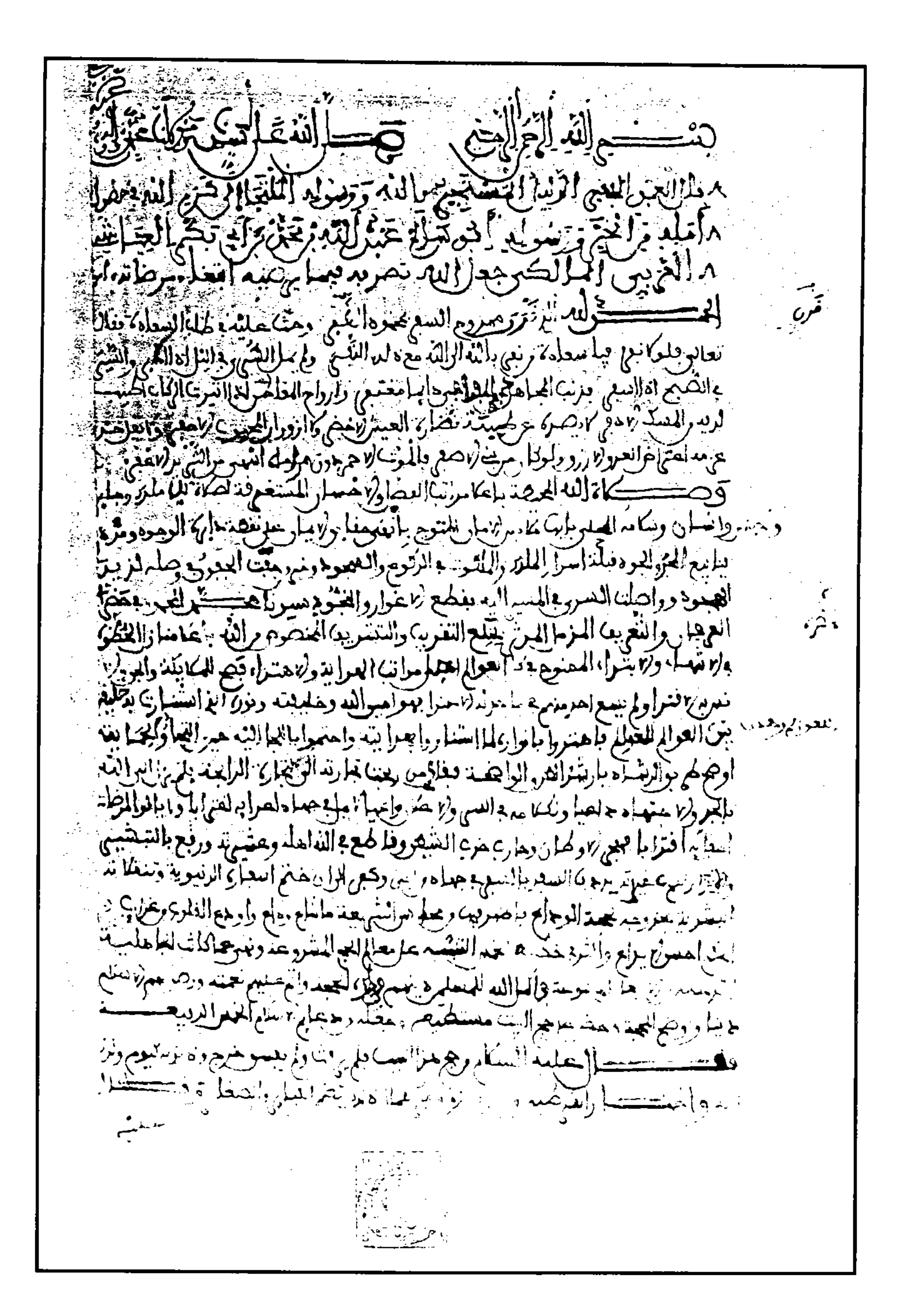
وقد قضى الوفد يوم الخميس في التبضع، وقد صلوا الجمعة بالحرم اليوم الرابع عشر من ذي الحجة حيث ملأ الناس فضاء المسجد الشريف.

واجتمع الوفد بالرئيس يوم السبت لترتيب أمر السفر ... حيث ذهب أعضاء الوفد بكامله، صحبة الرئيس، لتوديع الشريف الذي تلقاهم بما عهدوه فيه من دماثة أخلاق، وقد حملنا جزيل سلامه لموفدنا ... وهنا استوصاه الرئيس ابن غبريط خيراً بالسادة الباقين هنا ... وكان القصد إلى الآخرين الذين وردوا مع الفيلق العسكري الفرنسي المغربي لتقديم العون للشريف ضد مناوئيه ... الكمندان شريف، والقبطان سعد، والقبطان رحو، واليوتنان لحلو.

وعندما عاد القاضي إلى المنزل ورد عليه مبعوث من الشريف حسين يحمل جواباً مكتوباً للعاهل المغربي على رسالته التي كان القاضي حملها للشريف، مصحوباً على الخصوص بقطعة من كسوة الحرم الشريف.

وبعد طواف الوداع، وصلاة العصر بالحرم الشريف، والتضلع من ماء زمزم ارتحل الوفد صحبة المولى عبدالله نجل الشريف حسين الذي كان ينتظرهم خارج مكة، خرج بنفسه ليودع الوفد المغربي بصحبة جماعة من الأعيان، وأعضاء البلدية، ووجهاء مكة.

ذلك ملخص الرحلة المكية للقاضي سكيرج، وهي كما رأينا تقدم لنا معلومات جديدة عما كنا اعتدناه في الرحلات السابقة، وتسهم في التعرف إلى فترة مهمة من تاريخ مكة خفيت على كثير ممن يهتمون بتاريخ أم القرى.

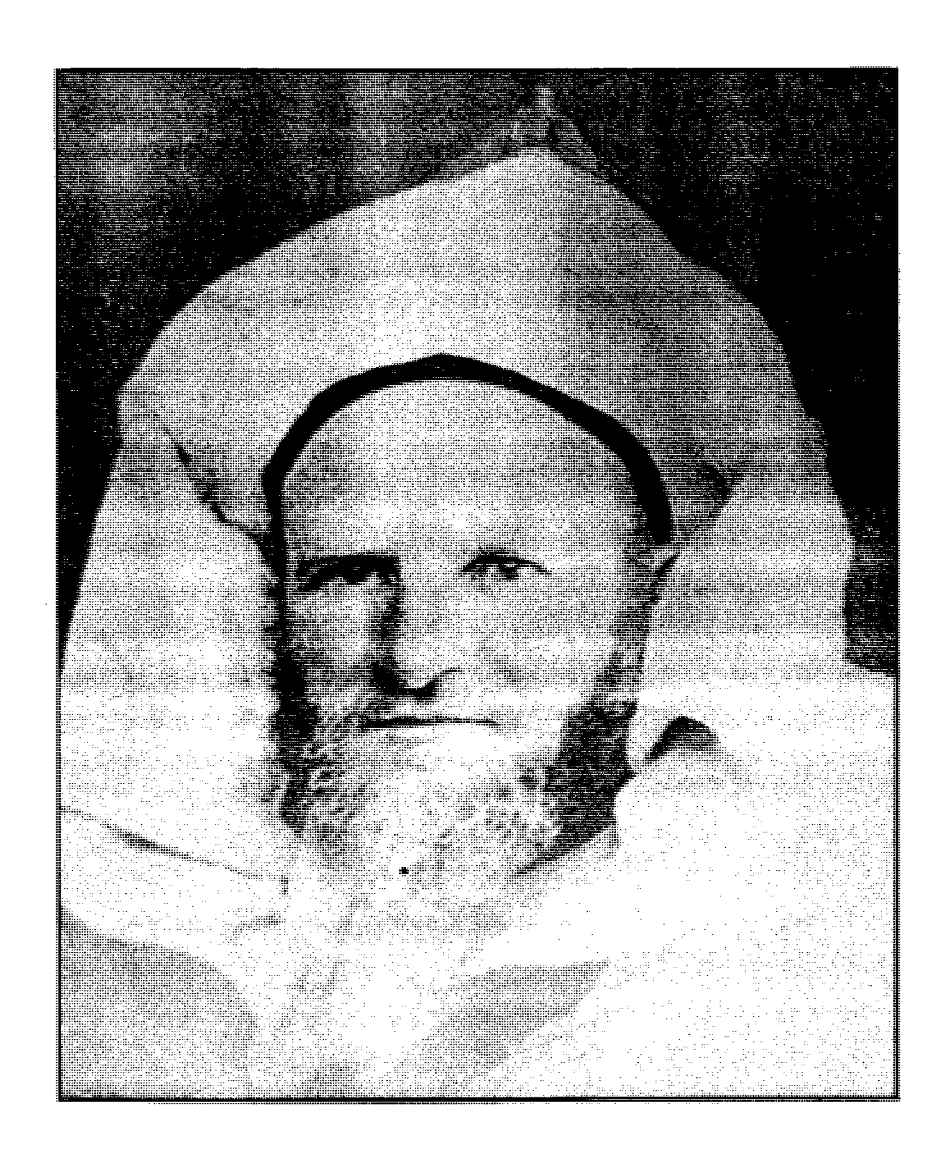


بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

قال العبد الفقير الراجي المستجير بالله ورسوله الملتجي إلى حرم الله وحرم

أمينه من الخلق ورسوله أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي

الصفحة الأولى من مخطوطة رحلة العياشي سكيرج



العياشي سكيرج

القاضي السائح ١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م

هذه رحلة حجازية لشيخنا العلامة القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد السلام السائح المتوفى سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م، وقد اختار، رحمه الله، لعنوانها "لمحة البصر على البلاد المقدسة".

لقد عشت مع هذا الشيخ الجليل ردحاً من الزمن، وهو الذي أمضى عقد زواجي قبل أن يتوفاه الله بسنتين ... ولما أعرفه من طول باعه، وقوة عارضته، فقد كنت أتوقع أن تكون رحلته فائضة، وأعتقد أن ضيق الوقت وتحمل الشيخ أعباء مسؤولية الركب الذي كان يترأسه حالاً دون التوسع، ولعل الشيخ شعر نفسه بواقع هذا الإيجاز، لذلك نجده يختار للرحلة عنوان: «لمحة البصر على البلاد المقدسة» فهي لمحة بصر فعلاً(١).

الجديد في هذه الرحلة الحجازية التي تمت سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م أنها تمت عبر القطار من المغرب إلى الجزائر، ثم أخذ المركب من الجزائر.

وقد كان الركب يتألف، علاوة على القاضي السائح، من الشيخ المختار السوسي، والأستاذ المختار السنتيسي، وبعض علماء شنقيط، والفقيه الحجوجي أحد علماء فاس، وهذا ما يفسر لنا السبب الذي جعل من الباخرة مدرسة عائمة تعكف على تلقين الحجاج ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ... وكان شيخنا السائح يعرف عما قام به سلفه القاضي الرهوني التطواني عندما حج سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م عندما حول السفينة إلى مدرسة على ما سنقرأ.

كنت أشعر بسرور كبير وأنا أتتبع مذكرات أستاذي القاضي السائح؛ لأني أعرفه جيداً، وأعرف عن المحطات التي كنت أقدّر أنها تثيره وتحركه ... والرحلة - إلى جانب

(١) نشكر للأستاذ الدكتور الزميل محمد قرقزان جهده الكبير في سبيل نشر هذه الرحلة سنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، متمنين أن يستمر في إحياء أعمال هذا الشيخ الذي لا أرى مسوّغاً إطلاقاً في الانشغال عن الاهتمام بما خلف من أعمال جليلة. رقم الإيداع القانوني ٦١٨ / ١٩٩٥، مجلة المنهل السعودية، نوفمبر ٢٠٠٢م.

هذا ـ تسجيل لبعض الأحداث السياسية والاجتماعية والعلمية، فكانت بالنسبة إلى رحلتي بعد ثماني عشرة سنة بمنزلة التمهيد لما سيكون بعد أن شاع استعمال الطائرات في مثل هذه الرحلات.

لقد كان في صدر ما أثار انتباهه إقبال معظم أهل الحجاز على التدخين، وقد كان التدخين في المغرب إلى عهد قريب مما يخل بالمروءة!

والأمر الثاني مما أثار انتباهه ذلك الخلاف الهائل في مداخل الشهور بين المغرب والمشرق، يومان كاملان فرق أمر غير معقول.

لقد بادر القاضي بالخروج من جدة إلى مكة ليلة الأربعاء خامس ذي الحجة عندهم (٢١ أكتوبر)، حيث امتطوا متن سيارة خاصة، وواصلوا السير إلى البلد الأمين ... ويذكر القاضي أنهم اقترحوا على السائق أن يعرج بهم على بئر طوى، فانقاد وما كاد، فاغتسل به من قدر على الاغتسال، بعد أن بذلوا للسائق من البقشيش ما أرضاه !!

وقد تخللوا شوارع مكة المكرمة بالسيارة، وهي مكتظة بالجمال! بينما السائق يغتاظ ويصيح قائلاً: «هذه بلد الجمال لا بلد السيارات!!»، وقد انتهوا إلى الرباط المغربي بأجياد (جياد)، حيث أعدّ لهم النزول كسائر التونسيين والجزائريين.

ويستطرد القاضي استطراداً مهماً بالنسبة إلينا، فيذكر أن هذا الرباط مبني من أوقاف الحرمين، وبه مرافق وبيوت للحجاج، قال: وتخترقه عين زبيدة[١]. وبمجرد إيداعهم الأمتعة نزلوا إلى المسجد الحرام للطواف.

ويخبرنا القاضي أن المطوف الشيخ عبدالرحيم الحريري سأله عندما اقترب من المسجد الحرام: بم أحرم؟ فأخبره بأنه أحرم بالعمرة ... ثم أدخله إلى المسجد من باب السلام.

قال: ولما وقع بصرنا على البيت الحرام بادرنا إلى التضرع والدعاء؛ لأن الدعاء مستجاب عند رؤيته، ثم شرعنا في الطواف، فقبلنا الحجر الأسود، ولقينا بجانبه

(١) هذا هو الرباط الذي نزلناه سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م ضمن أعضاء الوفد المغربي الرسمي.

د. التازي: التحليق إلى البيت العتيق، نشر دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، الإيداع: ٤٠٨٥ / ٢٢.

حارسين سعوديين لتنظيم أمر الزيارات.

وعندما أتممنا الطواف وصلينا الركعتين لمقام إبراهيم، خرجنا إلى المسعى من باب الصفا بعد أن قبل الحجر الأسود من استطاع، وعندما أتممنا السعي تحللنا من العمرة، أخذت بعض شعر رأسي عملاً بمذهب الإمام الشافعي، وكان معنا بعض الشباب ممن يُعنى بتوفير شعره، وكان أحرم بالعمرة مثلنا، فأفتيتهم أن يقصروا وهو في حقهم أفضل.

في رحاب الملك عبدالعزيز آل سعود:

ومن الغد، وهو يوم الأربعاء سادس ذي الحجة (٢٢ أكتوبر)، دعاهم الملك عبدالعزيز لحفلة استقبال بعد صلاة الظهر في قصره بالمحصب، فدخلنا أولاً قاعة الانتظار، ثم دخلنا عليه وحوله حاشية متقلدون السيوف، تلمع من أعينهم الشهامة والعزة العربية، فقام الملك لاستقبالهم، وأجلس القاضي عن يمينه، فأول شيء أبلغه الرئيس السائح سلام الملك المحبوب، وأبدى له عواطفه الطيبة، وهنا قدم القاضي الرسالة التي أمره العاهل المغربي برفعها إلى الملك عبدالعزيز، ويهمنا هنا أن نأتي بنصها لا سيما وهي تصادف ظروفاً سياسية مغربية فرنسية خاصة:

«إلى حضرة الأخ الهمام سليل الأمراء العظام الحائزين من الفضائل أسناها، ومن مراتب العز أعلاها، المحلى بكل وصف محمود، جلالة الملك أبي فارس عبدالعزيز آل سعود، دامت شموس سعده في إشراق، وكواكب مجده في انتظام واتساق، وبعد حمد الله تعالى الذي هيأ للتعارف أسبابه، وفتح للتوادد أبوابه، وتمم برابطة الإسلام والعروبة نصابه، فجعل المؤمنين إخواناً، وألف بين قلوبهم ليزدادوا إيماناً، وتقديم تحية يتجدد بالتواصل عهدها، ويلمع بالمحبة عقدها، وسلام تام يذكيه الشوق لبيت الله الحرام، الدين والمحافظة على شريعة النبي الكريم، والاهتمام بتسهيل سبل الحج على المسلمين، فطالما روت لنا الأنباء ما لجلالتكم من باهر المآثر، وعظيم المزايا والمفاخر في صيانة دعائم الدين، والمحافظة على شريعة النبي الكريم، والاهتمام بتسهيل سبل الحج على المسلمين، ليؤدوا فريضتهم، ويشهدوا منافع لهم. وبكل سرور نعبر لإخوتكم عن ابتهاجنا بجليل أعمالكم، وحميد مقاصدكم، زاد الله في معناكم، وأخصب بفضله "رياض" مرعاكم.

هذا، وبمناسبة سفر رعايانا حجاج المغرب الأقصى لتلك البقاع الطاهرة، أوفدنا لحضرتكم السامية أحد كبار العلماء بمملكتنا المغربية، قاضي عاصمتنا الفاسية الفقيه العلامة المتضلع السيد محمد السائح بصفته رئيساً للوفد المغربي المؤلف من ستة أعضاء من سراة مملكتنا، وقلدناه فخر النيابة عنا في إبلاغ جلالتكم أسمى عواطفنا، وخالص مودتنا، مع ما نتمناه لشخصكم السعيد من الهناء والعمر المديد.

فالمؤمل أن يحظى منكم بمزيد التقدير والعناية، والاعتبار والرعاية، ووجهنا معه نصيباً من المال منه ما هو معين للحرمين، ومنه ما كلفناه بتوزيعه على فقراء البلدين، جعل الله ذلك من متقبل الأعمال، وكان لنا ولكم في الحال والمآل. ونلتمس من إخوتكم الدعاء لنا تجاه البيت الحرام والملتزم والمقام، أبقاكم المولى في عز لا تفنى ملابسه، ولا يحيد عن المجد والسؤدد مُلابسه، وعلى إخوتكم السلام التام في البدء والتمام.

صدر بمدينة رباط الفتح عاصمة المغرب الأقصى في ثامن عشر ذي القعدة الحرام عام خمسة وستين وثلاث مئة وألف».

وفي أعقاب ذلك ألقى القاضي خطابه التاريخي بين يدي العاهل السعودي، وقد قال فيه على الخصوص ما يلي:

«يا جلالة الملك المعظم، إن قلوب المسلمين أجمعين لدائمة الاتجاه إلى بيت الله الحرام، يغمرها الإيمان، وتشرق عليها أنوار العقيدة، ﴿**رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾، وإن في استقبال ذلك البيت المعظم كل صلاة لإعلاناً بوحدة الاتجاه، وإلهاباً بتلك الوحدة الدينية المتغلغلة في القلوب، ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾، حتى إذا قرع الأذان موعد الحج قرع القلوب أيضاً، فثاروا إليه من كل صوب، وطارت قلوبهم إليه خفاقة، ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**﴾.

وإن هذا الشعور ليكون اتحاداً وثيقاً بين الشعوب الإسلامية جمعاء، ووحدة روحية سامية بعيدة التأثير في المشاعر والعقول. وإن هذا الحفل العظيم الذي يضم بين جوانبه

شعوباً مختلفة تخضع كلها لذلك الكتاب السماوي المقدس الذي نزل على خاتم النبيين ﷺ، آخر كتاب وأبلغه، ليؤدي إلى الإنسانية أسمى معاني السلام، وأدق معنى الأخوة والاتحاد.

تلاه ذلك الإمام الذي وقف نفسه على خدمة بلاده، وكان لها ابناً باراً مخلصاً، كما كان ملكاً محبوباً من شعبه الوفي، بل ومن لدن الأمم العربية جمعاء.

يا جلالة الملك، إن بين ملكنا المحبوب وبين هذه الجزيرة المقدسة روابط متينة يستحيل انفصامها. وكفى أن أجداد سيدنا الأشراف الطاهرين من مدينة ينبع، تلك المدينة التي نحتفظ لها بمكانة كبرى في تاريخنا المغربي.

ولقد كانت دولتنا الشريفة تعمل من قديم على ربط هذه العلائق وتمتين عراها من حين إلى آخر، كما يشهد بذلك تاريخها المجيد.

ولقد كان عهد المولى سليمان من أعظم السنين مظهراً لتلك الصلات، حيث اندفع صدى عقيدتكم الإصلاحية إلى المغرب، فقام للدعوة إليه بنشراته، وعلى أعواد المنابر.

وإن سيدنا أمير المؤمنين - أعلى الله علاه - ليقتفي أثر أسلافه الكرام في تمتين هذه الروابط، وتغذية تلك الوشائج، والدعوة إلى أصول الدين المتينة، والعقائد السليمة الصحيحة.

وفي الختام، إني أضرع إلى الله سبحانه بين هذه المشاعر المقدسة، وبين منازل الوحي ومبعث الدين، أن يحقق للشعوب العربية آمالها، ويعضد نهضتها، إنه قريب مجيب».

ولا بد أن نستشف من خلال الرسالة الملكية وخطاب الرئيس والقاضي ما كان يقصده المغرب بإرسال هذه الوفادة في تلك الظروف التي كانت العلاقات المغربية الفرنسية فيها أخذت تجتاز مرحلة عصيبة، لا سيما والمغرب قال كلمته عندما قام بتحرير وثيقة المطالبة بالاستقلال عام ١٩٤٤م.

وبعد إلقاء قصيدة رائية للشيخ المختار السوسي، قدمت القهوة اليمنية للضيوف في كؤوس صغيرة تحمل جرعة أو جرعتين على عادتهم في ذلك.

غسل الكعبة:

وفي اليوم الموالي، السابع من ذي الحجة، وجهت الدعوة للوفد لحضور غسل الكعبة،

وحضر لذلك كوكبة من عسكر السلطان للمحافظة على النظام، ونصبوا المدرجة الخصوصية المعدة لارتقاء العاهل، وبثوا الزرابي للمرور عليها. ولما دنا من البيت كان رئيس الوفد المغربي أول من استقبله، ودار من خلفه وصعد معه إلى البيت.

فأول ما فعله أن صلى ركعتين على المرمرة الحمراء يتحرى المكان الذي صلى فيه النبي ﷺ يوم دخول البيت، ثم دار على أركان البيت ثلاث مرات، ثم وقف متهيئاً لغسل البيت، وقال لي: أقول للشيبي: لو عمل بهذه الآيات ـ كأنه يعني آيات منقوشة بالبيت ـ لكفته[1]. ثم شد له الشيبي وسطه بثوب، وناوله المقشة، وصب الماء، وهو من ماء زمزم قد مزج بماء الورد. وأثناء العمل أشار للخدمة أن يناولني مقشة، فحظيت ببركة غسل الكعبة، ويا لها من مزية.

وبعد ذلك أخذ يلقي بعض الكلمات، فازدحم الناس عليه، وقد تبينت منها ما معناه: أن أهل فلسطين طلبوا مني معونتهم فأجبتهم بأن يعملوا بما في كتاب ربهم.

ثم غلبته الحرارة في المكان وتزاحم الأنفاس، فنزل معتمداً على بعض حاشيته، ونزلنا جميعاً، فقدمت إليه عربة صغيرة، امتطاها وبعض خدمه يدحرجها بيده حتى طاف بالبيت.

السفراء المعتمدون بالسعودية في حفل العشاء الملكي:

وفي الليل دعانا الملك أيضا بأوراق مطبوعة للحضور إلى حفلة العشاء التي استدعى لها عدداً وافراً من وجوه الحجاج. وفي بطاقة الاستدعاء التنبيه على الحضور بدار الحكومة؛ حيث يجد المدعوون السيارة التي تقلهم إلى القصر. فاجتمعنا لذلك في الوقت المعين. ولما أقبلنا على باب القصر حيًّا الحرس الواردين، ثم استقبلنا بردهة القصر بعض أولاده. وكان اسم كل زائر من الأعيان مرقوماً في بطاقة على كرسي جلوسه، فأخذنا مقاعدنا. وبعد برهة قصيرة أقبل جناب الملك، ومعه حاشيته بأزيائهم الرسمية،

---

(١) لعل القصد إلى الآية المطرَّزة على ستارة (باب التوبة) داخل الكعبة، وهو الباب الذي ينفر إلى السطح، وهي تقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

يتقدمه مَنْ يهتف بحياته إعلاماً بقدومه، فجلس على أريكته، وكان عن يمينه أبناء الإمام يحيى ملك اليمن، وعن يمينهم أمراء البحرين، وعن يمينهم كاتب هذه المذكرة، وكان على يساره الوزير المصري طوسون، وقبالته سفير الأفغان بمصر الذي كان يحدثه عن ملك الأفغان، ويقول له: إنه كان على عزيمة الحج هذه السنة لولا أن عاقه مرض عن ذلك، وكان السفير الأفغاني في لباس إحرامه كوزير اليمن الذي كان قبالة الملك أيضاً. ورأيت من السفير في حديثه مع الملك تبسطاً كبيراً وضحكاً عالياً.

وبعد برهة من الزمن قام الملك لمائدة الطعام، وقمنا خلفه، فأخذنا مقاعدنا حول المائدة المنتصبة التي كان مرقوماً على كل مقعد فيها اسم صاحبه.

أما الطعام فهو خرفان مشوية في أوانٍ كبيرة، وقد أحاط بها كثير من أنواع المطبوخات، ولا سيما أصناف الحلواء والفواكه، وأمام كل آكل الشوكة والسكين يستعين بهما على الأكل. والخدم يطوفون حول هذه المنضدة لتقريب بعض أواني المأكولات أو تقديم الماء لمن طلبه.

وبعد الفراغ عدنا إلى القاعة على الترتيب الذي كنا عليه، وجلس الملك على أريكته، وأخذوا يديرون كؤوس القهوة على الحضور، كؤوس صغار من القهوة اليمانية الحادة تحمل جرعة أو جرعتين، ثم تدفع للحرس الذي كثيراً ما يكررها.

ثم بدأ دور الخطب وإلقاء القصائد، فتقدم أولاً شاعر الحضرة السعودية السيد أحمد الغزاوي فألقى قصيدة طنانة في مدح الملك والإشادة بمآثره، ولا سيما فيما يرجع إلى بث الأمن في تلك الربوع، واستئصال جرثومة أهل الفساد.

ثم خطب بعض علماء الشام، ثم بعض الشعراء من أهل فلسطين، وكان مضمون ذلك تحريك الملك إلى العمل في قضية فلسطين، وكان يهتز لذلك من حضر الحفل من الحجاج ،كما كانت ردهة القصر تهتز وتضطرب بالتصفيق.

الخروج إلى منى وعرفات:

ومن الغد، وهو يوم الثامن، أحرمنا بالحج من مكة، وخرجنا لمنى مقدار ما ندرك الظهر، ونزلنا بمنزل أنيق متسع، نصبنا على مشرفه راياتنا المغربية التي كانت ترفرف بين

أعلام الدول العربية.

وفي ضحى الغد امتطينا سيارة إلى عرفات يسوقها عربي أسود بسرعة مدهشة، فكان إذا هالني الأمر من سرعة السير وعدم أخذه بنظام السير، ولا سيما عندما يلتقي بالسيارات الكثيرة التي تموج بها الطريق، أشير عليه بالأناة، فما يزيد على أن يجيبني بقوله: "صلِّ على النبي يا حاج"، فأسلمت نفسي إلى الله قائلاً: هب أني صدمت وقضيت نحبي، فأنا حاج في طريق عرفات، وهذه أشرف ساعة في حياتي.

ولما انتهينا إلى عرفات في وقت الضحى ألفينا في انتظارنا المطوف سيدي عبد الرحيم الحريري، وقد ضرب لنا قبة هائلة نصبت عليها الرايات المغربية، ورأينا مشهداً عظيماً ذكرنا بالموقف، مشهد تسقط أقلام الواصفين حسرى من هيبته وجلاله، فاشتغلنا بالذكر والدعاء والتوجه إلى الله تعالى.

ولما غربت الشمس حاولنا الدفع إلى المزدلفة، فلم نتمكن من السيارة إلا بعد ردح من الليل. وبعدما طال أمد الانتظار صلينا المغرب والعشاء جمعاً وقصراً؛ لأن ذلك هو المطلوب، ثم أحضرت لنا السيارة، وأشار علينا المطوف المذكور لما رأى من ضعفي بأن ننزل عند المشعر الحرام (المزدلفة) ونصلي المغرب والعشاء، ونمكث برهة زمانية، ثم نذهب إلى منى للمبيت هنالك. ولما انتهينا إلى المزدلفة وجدنا الحجاج قد حطوا رحالهم، ولم أبصر إلا الأيدي تجول في تلك الرمال لالتقاط الجمار، فنزلنا ومكثنا ما شاء الله، وكلفت صبياً هناك فالتقط لي الحصيات، ثم عدنا فامتطينا السيارة إلى منى.

وفي الغد بعد طلوع الشمس بادرت إلى رمي جمرة العقبة، ودفعت هدي التمتع لمن يقوم على ذبحه.

ثم دخلنا إلى مكة، فطفنا طواف الإفاضة، وسعينا بين الصفا والمروة، وتحللنا، ولبسنا جديد الثياب، وحصّلنا بفضل الله الخير الكثير. ثم خرجنا مساءً إلى منى لقضاء أيام التشريق ورمي الجمار.

تهنئة العاهل السعودي يوم ثاني العيد:

وفي ثاني العيد أشار علينا المطوف بالذهاب إلى قصر الملك لتهنئته بالعيد، وأعد لنا

سيارة للركوب، فذهبنا إليه بقصره بمنى، وجلسنا للانتظار بقبة خضراء. ثم دعانا للدخول عليه، فأخذنا مقاعدنا، وحضر يومئذ شيخ الأزهر الشيخ مصطفى عبد الرازق، فألقى بين يديه خطاباً بنبراته الحلوة افتتحه بالتكبير، إليكم نصه:

«الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين. كنا على تنائي الديار، وتباين الأوطان نولي وجوهنا شطر المسجد الحرام، وتخفق قلوبنا شوقاً إلى زيارة هذه المعاهد المقدسة، فلما دخلنا مكة المكرمة التي شرفها الله ببيته وتذكار إبراهيم وإسماعيل، وشرفها بمولد محمد بن عبدالله، وبنزول الوحي عليه أول ما نزل، شعرنا ببهجة روحية هي أقوى وأكمل من كل بهجة في الحياة.

ثم شعرنا بروحية الإيمان وسلطانه على القلوب في وقفة عرفات، وليالي منى، وإنا لنتنسم نفحات الوحي والنبوة.

وإنا لنستمع من أعماق الماضي البعيد إلى صدى صوت إبراهيم إذ يؤذن في الناس بالحج، ونستمع إلى صوت محمد إذ يصيح بين غمرات الشرك الضارب أطنابه أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، فيردد الدهر صيحته، ولا يزال يردد صيحته.

حين كان الطريق إلى الحج غير ممهد، وكان الأمن في الحجاز معدوماً درجت الدول الإسلامية على إرسال كتائب من الجند مدججة بالسلاح تصحب ركب الحجاج، وتشق لهم السبيل إلى بيت الله. وكان يتولى زعامة هذه الكتائب قائد عسكري، وهو أمير الحج. لكن عهد الملك الجليل عبدالعزيز آل سعود مهد السبيل، وأقر الأمن في البوادي بما لا نظير له في أعظم المدائن حضارة ورقياً، فأصبح الحاج آمناً مطمئناً، يسير إلى الأماكن المقدسة غير محتاج إلى حماية ولا سلاح، إلا سلاح الإيمان بالله رب هذا البيت الذي جعله مثابة للناس وأمناً، وهذه إحدى مزايا الملك العربي الكريم، وإحدى أياديه الجسام.

لم يعد أمير الحج قائد جند يسير إلى الهيجاء، بل سفير أخوة وإسلام ودعوة إلى الله

في ظلال الكعبة التي يوجه المسلمون وجوههم شطرها».

قال: ومن مظاهر اهتمامه بهذه المعاني السامية أن اختار لإمارة الحج في هذا العام، وللسفارة بينه وبين أخيه جلالة الملك عبدالعزيز شيخ الأزهر، خادم الإسلام والعلم والفقراء، وهذا لقبه منذ زمان.

والأزهر هو أكبر جامعة إسلامية، وهو مثوى الدراسات الدينية والعربية العالية. هو الذي حفظ شعلة الثقافة الإسلامية التي كادت تخبو في أعاصير العصور المظلمة، وهو اليوم يرقبها في غبطة وأمل؛ إذ تأخذ في الازدهار هنا وهناك في كنف الله ورعايته.

جاء شيخ الأزهر إلى هذه المزارات المكرمة ليسعى بين يدي الحاج إلى مناسك الله، يؤدون فرضها، ويستعيدون عندها ذكريات المجد الإسلامي، ويستلهمون في جوها المبارك نفحات الأمل المرجو. جاء شيخ الأزهر إلى هذه المزارات المكرمة ليلتقي حول الكعبة المباركة برجالات من أهل الإسلام في بلاده المختلفة، فيزيد بهم عروة أخوة الإسلام توثيقاً، ويستنصحهم وينصح لهم، وما أحد بأصغر من أن يعين، ولا بأكبر من أن يعان.

ثم جاء شيخ الأزهر ليصيح في منازل الوحي بما صاح به محمد بن عبد الله ﷺ من آيات الكتاب العزيز: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾، ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾، ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

أما بعد: فإنا نسأل الله أن يوفق المسلمين إلى التعاون على ما فيه العزة والقوة لدينهم وبلادهم بهداية ملوكهم الراشدين.

ثم ألقى الغزاوي شاعر الحضرة قصيدة طنانة في تهنئة الملك.

وبعد تناول المشروبات دعانا الملك للحضور في حفلة استعراض الجيوش التي قام بها ولده الأمير منصور، فأخذنا مقاعدنا بصف الملك، وأخذت الجيوش تمر ركباناً ورجالاً

تحت صدح الموسيقى، وكذلك الدبابات على النظام الأوربي تماماً، ويزيد عليه بما يلوح على تلك الجيوش من الحماسة العربية.

ثم تفرق الجمع، ومرّ الملك وهو يقول: هذا الشيء يحتاج إلى الصحافيين. كأن مراده ليصفو الحفل.

أسعار الصرف:

أما بورصة مكة فالليرة المصرية صرفها بالريال السعودي اثنا عشر ونصف وقرشان، فالريال السعودي عشرون قرشاً. والليرة الإنجليزية الذهبية تصرف بخمسة وستين ريالاً سعودياً، وبخمس ليرات مصرية ورقية. والألف من الإفرنك يصرف بخمسة عشر ريالاً سعودياً إلى سبعة عشر أخيراً، ولأهل مكة مهارة عجيبة في الصرف بكثرة السكك المختلفة النافقة ببلادهم.

وداع صاحب الجلالة ابن سعود:

ثم دعانا الملك للوداع، وكان في رفقتنا خليفة القنصل الفرنسي الحاج حامدي الجزائري، فجلست إلى يمينه كيوم أول، وطال حديث الملك المتنوع. كل هذا والشيخ الجزائري يرفع عجيزته من كرسيه إيماء إلى النهوض، ولكني لم أَرْضَ أن أقطع على الملك حديثه حتى سمعت منه كلمات الوداع.

ولما خرجنا من ردهة الاستقبال ألفيت بالباب السيد رشدي ملحس وبيده جواب الملك إلى حضرة ملكنا المحبوب، فتلقيته باليمين.

رحلة الهواري ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م

هذه رحلة لكاتب ينتمي إلى منابر أخرى، فهو الأستاذ أحمد بن محمد الهواري، صحافي عتيق، وهو قاضٍ بالمحكمة العليا، وعضو بجمعية أحباس الحرمين الشريفين، فهو إذن عارف بخبايا الأمور، وهو موكل لكي يتتبع الأحوال في عصره على ما ينبغي أن يكون.

وسأقتصر هنا على ما يتصل بمكة وما حواليها ما دامت الرحلة قد طبعت من زمان، وقد أهداها لجلالة السلطان محمد بن يوسف (محمد الخامس)[١].

ومنذ البداية أذكر أن الرحلة كانت تحتوي على نصوص تاريخية وصور أرشيفية إذا صح القول. لقد نقلت إلينا خطاب العاهل السعودي بالكامل، واحتفظت لنا برسوم نادرة.

لقد غادر طنجة يوم الثلاثاء ١٤ شوال سنة ١٣٥٢هـ / ٣٠ يناير ١٩٣٤م أثناء مطر رذاذ بعد أن استمتع بمناظر مرشانها المشرف على مجمع البحرين في بوغاز جبل طارق، كما يقول، ومن طنجة إلى مرسيليا التي غادروها يوم ٣ فبراير إلى بور سعيد ٧ فبراير ١٩٣٤م... إلى القاهرة... إلى أن وصل إلى ينبع حيث يحكي عن الراية السعودية الخضراء المرفوعة على القوارب المكتوب عليها إلى جانب السيف عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، إلى أن دخلوا بيت الله الحرام، فطافوا بالكعبة، وسعوا بين الصفا والمروة، ثم حللوا الإحرام ونزلوا بالرباط المغربي لجمعية أحباس الحرمين الشريفين[٢].

---

(١) الطبعة الأولى بالمطبعة الرسمية بالرباط، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م.

(٢) يقول الهواري: يوجد في مكة ملجأ خيري مغربي يسمى رباط المغاربة، أسسه العاهل المغربي السلطان مولاي الحسن (الأول) على ما أخبرنا به سيدي الحاج علي بن فاس. وهو دار قديمة ليست بعيدة عن المسجد الحرام... ولا عن المعهد المغربي الجزائري لأحباس الحرمين الشريفين، ولها طابق سفلي وطابق علوي... تحت نظارة أحد الشرفاء الدباغيين المجاورين هناك.. وقد بعث ملك المغرب في هذه الأيام مع الحاج عبد الرحمن بن زاكور ما تجمع من واردات الأوقاف على مكة لعام ١٣٥٢هـ لملك الحجاز؛ ليحيله إلى (لجنة الصدقات) لتوزعه على المحتاجين. يراجع ما كتبه القاضي السائح عن هذه الدار، وما حرره كذلك كاتب هذه الحروف في تأليفه: (التحليق إلى البيت العتيق) الذي صدر عن دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ، رقم الإيداع ٤٠٨٥ / ٢٢.

وتتحدث مذكرة الهواري كذلك عن "أن الحجاج عندما يحرمون فإنهم يتجردون عن لذات الدنيا، ويقبلون على بيت الله في كفن الأموات. يتذكر الإنسان في هذه الحالة حالة موته.. ولما تراءت لهم مكة المكرمة بنورها الساطع تهللت وجوههم... ثم قصدوا المسجد الحرام من باب السلام... حتى وصلوا الكعبة المشرفة التي جعلها الله مثابة للناس وأمناً... ثم قصدوا الحجر الأسود لوجوب البداية به في الطواف... وطافوا بالكعبة... وصلوا بمقام إبراهيم.. ثم خرجوا للسعي.

وفي اليوم السابع (الجمعة) جاءت غمامة أعقبتها أمطار غزيرة كأنها أفواه القرب، وازدحم الناس تحت ميزاب الرحمة تعرضاً للماء النازل من سطح الكعبة.

وفي يوم التروية قصد الحجاج منى، وهي تبعد عن مكة بنحو أربعة عشر كيلو متراً، بعضهم في السيارات، والبعض في شقادف (جوالق) الجمال، والبعض على البهائم، والبعض على الأرجل، وتستأجر بيوتها بالليبرة والليبرتين والثلاثة والأربعة على حسب أحوالها... هذا علاوة على الخيام المنصوبة في الفضاء.

وكان يوم الوقوف بعرفة يوم الأحد (٢٥ مارس)، وهو بسيط فسيح يدخل إليه بين علامتين (عمودين)، ويتوسطه صخرات كبار في أسفل جبل الرحمة... ومرت الوقفة بسلام، ولا ما يشوش البال من علل وأسقام.

وفي حديثه عن الأيام التي قضاها الهواري بمكة المكرمة، اغتنم الفرصة ليقدم لنا نظرة عن الوضع السياسي في البلاد، وهنا تحدث عن جلالة الملك عبد العزيز آل سعود... الذي قال الهواري: إنه رأى في شخصه صورة من صور ملوك العرب الذين قص علينا تاريخ الجزيرة أخبارهم ومزاياهم في قصص لا يبلى ذكرها مع الليالي والأيام.

ولفت نظره أنه إذا نودي للصلاة في أوقاتها أغلقت أبواب المتاجر، وعمرت المساجد... وأنه لا يوجد موطن واحد من مواطن اللهو والفساد!

ولا غرو في ذلك فإن البلاد مهد الإسلام وينبوع شعائره... وهكذا فلا نجد فيها من يعتنق من أهلها ديناً غير الإسلام... وقد تساءلنا: هل إن الوهابية مذهب جديد؟ فأكدوا أنهم سنيون ينتمون إلى مذهب السلف الصالح... وأن دعوتهم ترمي إلى

الرجوع إلى الإسلام الصحيح. وقد كانت الصلوات تقام في البيت الحرام وفق المذاهب الأربعة وراء أئمة أربعة، فأصبح الإمام واحداً كما شاهدنا ذلك.

ومن جراء قيام المذهب السلفي بالحجاز فقد أبطل ما كان بقي من الطرق الصوفية من سنوسية وقادرية... فالناس لا يطلق عليهم اليوم إلا مسلمون.

وفي أثناء وصفه للحكومة السعودية الحديثة بكل مرافقها وأجهزتها العصرية يسجل مبادرة مهمة بالنسبة إلى الكعبة الشريفة التي كانت تعتمد على مصر في كسوتها السنوية التي ينقلها (المحمل) على ما أسلفنا في معظم الرحلات السابقة.

قال الهواري: وفي شارع جياد يوجد المصنع الذي أسسه جلالة الملك في السنوات الأخيرة لصنع كسوة الكعبة المشرفة، وقد حضرنا على إخراج الكسوة منه، وجعلها على الكعبة في محفل كبير... وهي مصنوعة من الحرير الأسود، وتطرز بالآيات القرآنية واسم الجلالة بخط رفيع.

كان حديث الهواري عن الوجه الجديد للدولة الحديثة حديثاً مسهباً بما يعني مشروعات البناء والتعمير.

وبالمناسبة يتحدث الهواري ـ وهذا مهم ـ عن الخزانات المائية الاحتياطية بمكة: صهريج قايتباي وعين زبيدة.. إلخ، وهي المنشآت التي تعزز ماء زمزم الذي لا يكفي لكل هذه الخلائق.

ولا يفوت الهواري أن يؤكد الاهتمام بالناحية الصحية وسلامة الموسم من أي وباء، كما لا يفوته الحديث عن عدد الحجاج في أيامه، وأنه بلغ ستمئة ألف نسمة. وفي عهد الهواري كان المسعى بين الصفا والمروة لاتزال السوق على جانبيه، وكان الحجاج دائماً يرفعون عقيرتهم بالشكوى من هذه السوق!!

وحديث الهواري عن أسواق مكة يعدّ وثيقة لا تستغني عنها بلدية مكة لمعرفة الفرق الشاسع بين الأمس واليوم.

وبعد استيعاب الحديث عن مرافق مكة وشوارعها يصف البيت الحرام والكعبة المشرفة التي يرتفع بابها عن الأرض بنحو مترين، يصعد إليها بواسطة سلم خاص له نحو خمس

درج... كما يصف داخل الكعبة، وهو ما يشير إلى أنه دخلها... وقد ذكر أن جلالة الملك يتولى غسل داخل الكعبة... وبهذه المناسبة يقدم لنا وصفاً مفيداً وجميلاً.

وبمناسبة حديثه عن القصر الملكي والحفل السنوي الذي ينظم فيه كل سنة يذكر أن الملك عبد العزيز قرر أن يوجه رسائل مكتوبة للمدعوين خلافاً للعادة التي كانت تقتضي حضور الناس كافة لحفلة عمومية. قال: وذلك للاحتياط مما يمكن أن يحدث، ولا سيما والعلاقات بينه وبين الإمام يحيى (ملك اليمن) على ما كانت عليه من التوتر.

فعلاً حضر المدعوون مساء يوم الخميس ٦ ذي الحجة ١٣٥٢هـ / ٢٢ مارس ١٩٣٤م... وقد أثنى الهواري ثناءً عاطراً على حسن التنظيم، وأبهة الاحتفال، وروعة الاستقبال، وفخامة البناء، وبهجة الكهرباء، ولم يكن يختلف عن القصور في جهات أخرى من العالم.

وقد تصدر العاهل المائدة الأولى، وتصدر الثانية ابنه الأمير فيصل حاكم مكة، والأمير خالد بقية الموائد.

وجلس إلى جانب جلالته سلطان مسقط (عمان)؛ حيث أديرت أكواب القهوة اليمنية.

وهنا ارتجل الملك خطابه التاريخي الذي أتى في ختامه على شرح موقفه إزاء الإمام يحيى... وما يسعى فيه الملك عبد العزيز لإصلاح ذات البين بين الجهتين.

لقد كانت رحلة الهواري أول مصدر حمل لنا نص خطاب العاهل السعودي الذي كان - ولا يزال - وثيقة تاريخية، ليس فقط للوضع السياسي في المنطقة، ولكن كذلك للمحاولات الأولى التي جرت بالمشرق في هذا التاريخ من أجل بناء الوحدة الإسلامية، وهذا الذي دفع بنا إلى نشر نصه الكامل بمناسبة الحديث عن الخطاب التاريخي للملك محمد الخامس بمدينة طنجة يوم الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ / ١١ إبريل ١٩٤٧م حول رابطة العالم الإسلامي(١).

---

(١) د. التازي: الخطاب التاريخي لجلالة المغفور له الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج١٠، تعليق ١٤. رقم الإيداع القانوني ٢٥ / ١٩٨٦. مجلة الحرس الوطني، السنة الخامسة، العدد ٢٢، ذو الحجة ١٤٠٤هـ / سبتمبر ١٩٨٤م، ص ١٠٢.

وقد كان من فقرات هذا الخطاب التاريخي:

«لقد حكمت هذه البلاد حكومات قوية، ولكنها لم تقدر على تأمين الطريق، أما اليوم فالأمن سائد في طول البلاد وعرضها، قد لمستموه بأيديكم، وهذا من فضل ربي علينا... إن رابطة الإسلام جامعة قوية، ولكن المسلمين فرقهم التخاذل فتفرقوا شيعاً».

ولما أشار إلى الخلاف بينه وبين الإمام يحيى قال: «إن هذا أمر يهم المسلمين... وإن كل مَنْ في قلبه خردلة من إيمان يتمنى أن يعتصم المسلمون بحبل الله، وأن يتركوا المشاحنات فيما بينهم.

كنت أتريث في أعمالي معه، وأقدم حسن الظن، وآخذ بالحزم؛ عملاً بقول الشاعر:

وأحزم الناس من لم يرتكب عملاً

حتى يفكر ما تجني عواقبه

يحيى كما ذكرت لكم أعظم صديق لي، وما كنت أحب أن يكون بيننا وبينه مثقال حبة خردل من الخلاف».

ثم لما تكلم الملك عن دخوله لعسير... وما اتصل بينه وبين الإدريسي من المحبة الخالصة، وما تحمله من المصاعب في سبيل الوفاء بالعهد مع الإدريسي... كان حريصاً على إيضاح الأمور وبسطها أمام الجمهور... وتعجب من عدم تقدم أحد من ملوك المسلمين أو أمرائهم أو أحزابهم لإصلاح ذات البين بيننا... وقد قارن هذا الموقف بالوضع عند الغربيين، فقال: «ولما وقعت بعض حوادث النمسا قامت بعض الدول الكبرى وعملت كل ما تستطيع لمنع كارثة الحرب، ولكن المسلمين والعرب لم يبالوا بما يجري عندنا».

ولم يهمل الهواري الحديث عن عدد من المواقع الجغرافية التي كانت بالأمس بمكة المكرمة بما فيها دار الحكومة، وقصر الأمير، ودار الهنود، وأوتيل مكة، والرباط المغربي الجزائري، ومقر الإباضية الجزائريين الذين كانت لهم خيمة خاصة بهم في منى كذلك، ملاحظاً أن سلطان مسقط ينزل بمقر الإباضية الجزائريين.

ويتحدث الهواري علاوة على مشاهد مكة الدينية عن الصحافة بالحجاز، وخاصة أم القرى وصوت الحجاز والإصلاح، مشيراً الانتباه إلى أن الملك عبد العزيز كان مهتماً بالإعلام لدرجة أن سيارته الخاصة (رولز رويز) كانت مزودة باللاسلكي.

الرهوني ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م

هذه رحلة للقاضي أحمد بن محمد بن الحسن التطواني الرهوني... وهي تحمل باختصار عنوان «الرحلة المكية»، وتسجل مذكراته عن الرحلة التي قام بها رئيساً لوفد الحجاج من الإقليم الشمالي للمغرب (سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م)، وقد كان محكوماً من لدن الإسبان.

وقد نشر الرحلة معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية عام ١٩٤١م بتطوان بعد نحو أربع سنوات من الرحلة.

وتأتي أهمية هذه الرحلة من أن صاحبها الفقيه الرهوني يقدم لنا معلومات عن ظروف الرحلة التي كانت تصادف فترة قيام فرانكو ضد الشيوعيين، فهي تعبر عن مخطط الجنرال لكسب عواطف المسلمين ضد الشيوعية.

ويخبرنا الفقيه الرهوني بأنه جعل من المركب الذي أقل الحجاج مدينة جامعية بما نظمه من دروس توجيهية قام بها العلماء والفقهاء من الذين قصدوا مكة المكرمة في هذا الموسم.

والرحلة تحمل نص الرسالة التي بعث بها الأمير المولى الحسن بن المهدي خليفة سلطان المغرب إلى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود سلطان المسلمين، وتحمل تاريخ ١١ ذي القعدة ١٣٥٥هـ / ٢٣ يناير ١٩٣٧م.

لقد دخلوا المسجد السبت ثاني ذي الحجة (الموافق ١٤ فبراير) من باب السلام كما هو المندوب... ودخلوا قوس بني شيبة كما هو المندوب أيضاً، وقصدوا الحجر الأسود فقبلوه كما هو المندوب كذلك، ثم شرعوا في طواف العمرة.

ويلاحظ أن الفقيه الرهوني كان حريصاً على مزج تحركاته بالتنصيص على رأي الفقهاء حول الموضوع.

ويهمنا أن نعرف عن مشاعر الفقيه وهو يجد نفسه أمام الكعبة المشرفة التي كان يستقبلها طوال حياته كل يوم... وهي مشاعر تذكرنا بما أسلفناه منذ الحديث عن

العبدري الحيحي، وابن بطوطة الطنجي. قال الفقيه التطواني: أما حالتنا عند « دخولنا المسجد الحرام وعند مقابلتنا للكعبة المشرفة فقل عنها ما شئت، وحسبك أني ذهلت حتى عن نفسي!! فما كنت أشعر بوجودي! وإنما الذي أعقل عليه هو أني دخلت المسجد الحرام، ووصلت إلى الكعبة، وما سوى ذلك كله خيال؛ لأن العقل ذهب والدموع تجري، والذات انحلت أعصابها وتلاشت، فكان المطوف ومن معنا من الإخوان يسكنوني خوف السقوط، وأنا ذاهل سكران! والمطوف يلقنني الأذكار التي يقولها عند الطواف والسعي وأنا أتابعه بلساني، ولكن قلبي حائر ولهان، لأني بين حالة خوف ودهش من هيبة الجلال التي اعترتني، وبين حالة فرح بإنعام الله عليَّ حيث أوصلني إلى ذلك المقام الذي من دخله كان آمناً، فأنا تارة أقول: الحمد لله على هذه النعمة التي لا يفي بالشكر عليها إعمار أهل الدنيا والآخرة وأعمالهم، وتارة أقول: أستغفر الله من ذنوب قد تحول بيني وبين قبول الله لي في هذا المقام الأعظم. والحاصل أن العبارة ضاقت عن التعبير عن الحالة التي اعترتني في تلك الآونة، وإن جميع الحجاج تعتريهم تلك الأحوال وأعظم منها بحسب مقامهم في الإيمان... ».

ويحكي عن استقبالهم من لدن معالي وزير المالية السيد عبدالله السليمان، الذي جعل سيارة فخمة رهن إشارة الفقيه، أقلته إلى الأوتيل المخصص له، مع احتفاظه بحجرته في الدار التي نزل فيها بقية الوفد؛ لأنها ـ أي: الدار ـ تطل على الحرم الشريف.

واستمروا بمكة يوم السبت (ثاني ذي الحجة) إلى يوم الخميس ملازمين للمسجد الحرام ليلاً ونهاراً في الطواف والصلاة، ستة أيام لم يمر عليهم مثلها في عمرهم، يقول الفقيه الذي يعتقد أنه كان يشرب عشرة لترات في اليوم من ماء زمزم ناصحاً الحجاج بأن لا يغتروا بمن يقول: إن ماء زمزم مضر!!!

ويتحدث الفقيه عن أنه صحب معه من بلاده السمن المذوب والزيت الإسباني الرفيع والخليع المغربي والكسكوس، فظل على ما كان عليه بتطوان لا يتناول سمن الحجاز المخلوط وشحوم الخرفان.

وبعد حديث عن تاريخ الكعبة رجع فيه للتقي الفاسي من البداية إلى أن وصل إلى

أيام الشريف حسين والد ملك العراق والشام، المتوفى منفياً بقبرص على حد تعبيره.

ويقدم لنا معلومات عما يسميه "كيل" الكعبة يعني مقياسها، مستعملاً كلمة المتر والسنتيمتر عوض الذراع، فيذكر أن كيل ارتفاعها وطولها في السماء نحو خمسة عشر متراً، وكيل عرضها في الجهة الشمالية تسعة أمتار واثنان وتسعون سنتيمتراً، وفي الجهة الجنوبية المقابلة لها عشرة أمتار وخمسة وعشرون سنتيمتراً، وفي الجهة الغربية اثنا عشر متراً وخمسة عشر سنتيمتراً، وفي الجهة الشرقية المقابلة لها أحد عشر متراً وثمانية وثمانون سنتيمتراً، هكذا تقريباً.

وبعد هذا يتحدث عن كيل داخلها، وما يوجد بهذا الداخل من رخام وقطع نقشت عليها أسماء بعض الملوك، ومن القناديل المهداة للكعبة، وستارة طرِّزت ببعض الآيات.

ثم يتحدث عن الشاذروان مؤكداً أنه من الكعبة، وأن الطواف داخله لا يجوز. وبعد هذا يصف الحجر الأسود وتاريخه إلى أن قام الملك عبد العزيز آل سعود باسترجاع بعض المسروق منه، ورده بيده إلى حيث كان مستعيناً بعمل كيماوي.

وبعد الحديث عن مقام إبراهيم الذي قال: إنه والحجر الأسود يكونان الأثرين الشريفين الخالدين المحفوظين إلى يوم القيامة.

بعد ذلك خصص فصلاً للميزاب الذي هو ـ كما قال ـ القادوس الذي ينزل منه ماء سطح الكعبة على أرض الحِجْر (بكسر الحاء وتسكين الجيم)... متحدثاً عن تاريخه عبر الأحقاب إلى أيام السلطان عبد الحميد، قال: وهو مصفح بنحو خمسين رطلاً من الذهب، وهو الموجود الآن.

ويتحدث عن باب الكعبة وتاريخه، وعن دخوله الكعبة وكسوتها وسدنتها، إلى أن يذكر الموجود منهم في وقته الفقيه العلامة المحدث سيدي محمد بن محمد صالح بن أحمد بن محمد بن زين العابدين الشيبي القرشي القصي المولود عام ١٢٩٣هـ.

ويتحدث الفقيه الرهوني عن دخوله إلى الكعبة، وقال: إنه دخلها مرتين اثنتين، وصلى في جهاتها الأربع... غير مغفل الكلام عن أغواتها، وموعدي غسلها قبل الموسم، وبعد انصراف الحجاج.

وبعد أن يخصص فصلاً للحديث عن بيع كسوة الكعبة القديمة من تأليف الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة الحضرمي بعنوان "تاريخ الكعبة"، يذكر أنه هو نفسه اشترى طرفاً من حزامها بنحو ستين ريالاً، وأن جلالة الملك عبد العزيز أهدى للخليفة السلطاني حصة كاملة من الحزام، وأن نصيبه هو من الكسوة كان قطعة مطرزة بسورة الإخلاص.

وينتقل للمسجد الحرام فيتحدث عنه بما تعهده تقريباً... ويتحدث عن أبواب المسجد الحرام كذلك بما نعرفه، ثم عن زمزم التي يفصلها عن الكعبة نحو عشرين متراً والتي يوجد في قعرها ثلاث عيون، مذكراً بأن الملك عبد العزيز أحدث سبيلين ملازمين لمقصورة بئر زمزم، وجدد سبيلاً آخر وكتب عليها اسمه.

ويعود إلى شرب ماء زمزم، وهنا يذكر - وهذا مهم - أنه كان فوقها ساعة شمسية (مزولة). قال: والآن توجد بالمسجد ساعة ميكانيكية ترى حركاتها من مكان بعيد، ويسمع صوت دقاتها كذلك، وهي موضوعة في برج فوق دار الحكومة تشرف على المسجد الحرام وعلى جميع مكة، قال: وهي من مآثر الملك عبد العزيز وضعها عام ١٣٥٣هـ / ٣٤-١٩٣٥م. قال: وهي أول ساعة بالحجاز.

وعند حديث الفقيه الرهوني عن مقامات الأئمة الأربعة... وأن الشافعي كان يؤدي الصلاة المكتوبة أولاً، ثم المالكي والحنبلي في آنٍ واحد، ثم الحنفي، إلا في صلاة المغرب التي كان الأئمة يصلونها في آنٍ واحد، فيقع في ذلك من الاختلاط ما كان لاحظه ابن بطوطة على ما عرفنا... عند حديثه حول هذا الموضوع، اغتنم الفرصة لينوّه بمبادرة الملك عبد العزيز الذي أمر بتوحيد الصلاة خلف إمام واحد، جازاه الله خير الجزاء... ثم يتحدث الرهوني عن منارات المسجد وطريق الإنارة الجديدة وتطورها حسب تطور العصر.

وينتقل إلى الحديث عن الصفا والمروة فيصفهما، ويصف المسعى الذي كان على عهد الرهوني لايزال شارعاً، لكنه ظُلّل ورُصف. ويختم الرهوني حديثه عن المسعى بكيله؛ أي: تحديد مسافته.

ثم يتحدث عن حدود الحرم الشريف ملخصاً ذلك من تأليف باسلامة الحضرمي.

وبعد هذا يخصص فصلاً للحديث عن الموقع الجغرافي لمكة ذاتها، وأول مرة نرى رحالة مغربياً يذكر خطوط العرض والطول، كما يذكر علو البلد عن سطح البحر... وهكذا يقول: إنها ـ أي مكة ـ تقع على خط ٢١ و٢٨ عرضاً شمالاً، وعلى ٣٧ طولاً شرقي باريز، وترتفع عن سطح البحر الأحمر بـ ٣٧ متراً، وهي عاصمة الحجاز. إلى آخر المعلومات التي توافرت لديه عن مكة آنئذ، وهو وصف مملوء بالفائدة لمن يريد الوقوف على صورة مكة بالأمس القريب بثكناتها المدنية والعسكرية والديوان الحكومي والأميري، ودار البوسطة والتلغراف والتليفون... علاوة على مزاراتها ومشاهدها وزواياها.

قال: وفيها مدارس للعلوم، وثلاثة وأربعون كتَّاباً للصبيان، وعدد تلامذتها ألف ومئة وخمسون... ومكتبتان تحتويان على كتب عربية وتركية وهندية وغيرها، ومستشفى عسكري، وآخر للغرباء، وسبعة عشر مصنعاً، ومدبغتان للجلود، ومسلختان، ومخزنان، وثلاث قلاع تحكم على البلد، وبها عساكر، وبها حمامان، وعشرون سبيلاً للماء وعشرون صهريجاً، وسبعة عشر رباطاً يأوي إليها الفقراء، وثمان طاحنات، وستون فرناً، وخمس وتسعون قهوة، ومحجر صحي وصيدلية، ومتجران كبيران للجواهر، وسبع عشرة كوشة لصناعة الجير، ومصانع للفخار، ومخزن كبير للغاز، وثلاثة آلاف حانوت، وستة آلاف دار. قال: ودورها من طبقة إلى خمس طبقات، وبها كثير من البساتين الصغيرة والبرك والخصص (الفوارات).

قال: وسكانها فيهم المكي وأعراب من البادية، وفيهم يمنيون وحضارم وحجازيون ونجديون، ومنهم هنود وقوم من جاوة، وبخاريون وأفغانيون، وأعجام وشوام وأتراك ومصريون وسودانيون ومغاربة، وغيرهم من الأمم الإسلامية.

قال: ومن هذا الاختلاط حصل امتزاج في الأخلاق، وفي الصور، وفي اللغات، وفي الأزياء، وهم يزيدون على ١٢٠ ألفاً، كلهم مسلمون، ولهم كسائر الناس عادات فيها المستحسن والمستهجن.

قال، وهذا مهم: وبضاعتها تأتي من الخارج... ونقودها مجموعة من نقود العالم

الإسلامي وغيره، واليوم - يقول الرهوني - هناك الليرة الذهبية لكل دولة، وهناك الريال السعودي الفضة الذي يساوي في الليرة الذهبية عشرين ريالاً ونصف ريال. وهناك قروش ٢٢ فضة، وهللات نحاس فيها ٨٠ وأقل وأكثر، وهناك هلالة مشينة ٢١ فيها هلالتان، وفي مكة أيضاً الفرنك الفرنسي، سعره ذهباً أو فضة، وهناك غير ذلك من السكك التي تروج.

ويتحدث الرهوني بعد هذا عن (شرب مكة). ولما في هذا الحديث من جوانب تاريخية حضارية فإننا نحاول تلخيصه للقارئ... يذكر الرهوني أنه وجد في طريق الطائف على نحو ٤٠ كيلو متراً من مكة عيناً تسمى (عين حنين) تعرف بعين زبيدة، تسير في قناة بنيت لها من منبعها إلى عرفة فالمزدلفة فمنى فمكة، عرض هذه القناة متر هكذا، وفراغها من ٥٠ إلى ٦٠ سنتيمتراً، وعمقها متر ونصف، وارتفاع الماء داخلها ٧٠ سنتيمتراً، وقد يزيد أو ينقص، وهي مغطاة بالحجارة... وفي ذلك الغطاء فتحات لأخذ الماء منها، وهذه الفتحات يتباعد بعضها من بعض بمسافات مختلفة، وبجانب كل فتحة أحواض لشرب الناس، وأخرى لشرب الحيوانات، وسطح هذه القنوات تارة يتساوى مع الأرض، وتارة يعلو عنها إلى أن يصل إلى ٧ أمتار، وتارة يغور في الأرض حسبما تقتضيه الهندسة.

ومن هذه القناة تأخذ كل الصهاريخ بمكة، فيشرب أهلها، وتدور هذه القناة في سفح جبل عرفات من ثلاث جهات، وفيها فتحات طولها ٨ في عرض ٦٠ سنتيمتراً، ويصعد إليها في سلالم، وقد تكون درجها ١٥، وتنظف تلك الحياض في كل سنة قبل موسم الحج.

وكان أهل مكة فيما سلف يشربون من الآبار، وفي زمن معاوية أجريت إليها عيون في عشر قنوات، فكان أهل مكة وعرفة يشربون منها إلى أن انقطعت في عام ١٣٢هـ، فرجع الناس إلى الآبار حتى عام ١٩٣هـ، حيث أمرت زبيدة بإجراء عين حنين المذكورة. ثم أمرت بإجراء وادي النعمان، وهي عين منبعها جبل كرا قرب الطائف فأجريت إلى عرفة وأنفقت في ذلك مليونًا وسبعمئة ألف دينار... ثم أصلحت تلك العيون مرة

بعد أخرى، وكان آخرها إصلاحاً عام ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م.

وكان الفصل الأطول من تأليف الرهوني هو الذي خصصه للجانب السياسي لمكة، للحديث عن أمراء مكة من أيام الخلفاء مروراً بفترة الأشراف معتمداً على كتاب (مرآة الحرمين)(١)، إلى أن تملك زمام الأمر الملك عبد العزيز آل سعود. وهنا يتخلص الرحالة المغربي إلى الحديث عن حياة هذا الملك، فيترجم له ترجمة حافلة معتمداً على ما قرأ وما سمع ورأى، مذكراً بأن نسبه ينتهي إلى أسد بن ربيعة بن نزار.

صفحات طويلة ألم فيها بحياة هذا الملك الذي كان له أثر قوي في التاريخ الحديث في المنطقة كلها، تحدث عن نشأته وعن صفاته وهواياته... ومواقفه، وقال عنه: إنه فصيح اللسان نظيف البدن، له خاتم من فضة يحمل فصاً من عقيق اليمن، يلبس النظارات ويقرأ بدونها.

وكشاهد عيان تحدث عن حجة الملك عبد العزيز في هذا الموسم عندما دوت القلعة بإطلاق إحدى وعشرين طلقة من مدافعها كإعلان لوصول الملك آتياً من الرياض.

قال: ولما كانت الساعة الثالثة من ليلة الأربعاء خامس ذي الحجة نزل العاهل السعودي إلى المسجد محرماً بالعمرة بعد العشاء بساعة ونصف؛ لأن الغروب عندهم على الساعة ١٢ كما هو معلوم، هو وحرمه وحشمه ودخل من باب السلام... وتوجه الوفد المغربي في سادس الحجة للسلام على الملك، حيث أجلسه الملك عن يمينه، وهنا تبودلت الأحاديث حول المغرب والمغاربة، ونادى الملك على القهوة على عادته، فإن قرى الضيف عندهم شرب القهوة. وهي عبارة عن إبريق من معدن (النيكل) يحمله أحد الخدمة بيمينه، ويحمل في اليسرى عدة فناجين، فيبدأ بالملك ويصب له قطرة من قهوة البن اليمني، وهي مرة بدون سكر، فيشربها في جرعة واحدة، ثم يتناول الفنجان خادم آخر يكون وراء الأول، وهكذا يمضي لمن يمين الملك إلى أن ينتهي، ويكون من هؤلاء القهوجية عدد يطوف على الناس عدة مرات، والفناجين التي تكون بيده أظنها ستة إلى

---

(١) هذا الكتاب يحمل عنوان «مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة بمئات الصور الشمسية»، تأليف ورسم اللواء إبراهيم رفعت باشا، الجزء الأول، ص ٣٥٤، أمراء مكة.

عشرة، ومن لم يرد شربها لا يكلف.

وكان من جملة ما قاله العاهل عبد العزيز للفقيه الرهوني: «إني أحبكم معشر المغاربة محبة خاصة؛ لأنكم متمسكون بدينكم غاية التمسك، لا تأخذكم من ذلك حيل ولا ترهات، ولما فيكم من كمال الرجولية، إني رجل بكل معنى الكلمة فأحب الرجال كذلك».

ثم سأله عن رؤية الهلال، وكانوا يلاحظون أن مطلع ذي الحجة في المغرب غيره في الحجاز، فأجابهم: بأنه ثبت عنده ثبوتاً شرعياً أنه رؤي ليلة الجمعة، وأن الشهادة القائمة عنده لا يمكن الشك فيها ولا الريب لعدالة الشهود والقضاة.

وبعد هذا ودعوا الملك... قبل أن تلحقهم دعوته لتناول العشاء عند المغرب... ويصف الرهوني العشاء الفخم الذي أقيم للوفود الواردين من كل جهة. ويتذكر أن الملك كان محفوفاً من اليمين واليسار بأبناء الملك يحيى... وأنه حضر من العلماء الشريف سيدي أمين الحسيني مفتي القدس... وكان عن يساري الشيخ السعداوي الطرابلسي... وصار كل واحد يغرف في صحنه من الصحون التي أمامه. وكان حديث جلالته في العلم والعمل به مؤكداً على أن العلم النافع هو الذي يصحبه للعمل.

وبعد تناول القهوة والشاي الأسود في صالون ثانٍ قام أحد اللبنانيين بإلقاء خطاب اقترح فيه على الملك إصلاح الطريق بين مكة والمدينة، وأن يستخدم فيها أهل الحجاز الذين أبدى تأسفه على حالتهم التعسة من الجوع والعري وغير ذلك.

ولم يتأخر الملك عن جواب الخطيب المذكور الذي ذكَّره الملك بعد أن أثنى على خطبته واقتراحه بأن الحكومة قائمة بكل ما يجب عليها، وأن مداخيلها لا تكفي لكل شيء، وأن الطريق المقترحة يجب أن يقوم بها المسلمون في أقطار الأرض كلها؛ لأنهم هم المنتفعون بها، وعلينا أن نساعدهم بكل ما يمكن.

وبعد هذا يسجل الفقيه الرهوني لقطة رائعة لشاعر نعته بالمراكشي، لم يذكر اسمه، وكان هو الشاعر الكبير محمد بن إبراهيم شاعر الحمراء، وصف قصيدته بالجيدة الطنانة البليغة.

وبدافع من منافسة تقتضيها المعاصرة لاحظ الشيخ الرهوني أن الشاعر أشار إلى وقائع تمس ضيوف اليمن الحاضرين... كما لاحظ أن الملك قال للشاعر: إن القصيدة طالت وساقرؤها وحدي "وأسكته"، وهي المعلومة التي تخالفها رواية أخرى للأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنين الذي يذكر أن ذلك العاهل خلع على الشاعر وأثابه عليها ثواباً جزيلاً، وقد حبب إليّ أن أقتطف من هذه القصيدة الرائعة التي يقول فيها ابن إبراهيم من جملة ما يقول:

كما شئت مُر فالدهرُ ممتثل أمرا
نسوق ظباه خلفك الفتح والنهرا
رأتك المعالي كفأها حين أقبلت
وما طلبت إلا القبول لها مهرا
إلى الفارس المغوار ألقت زمامها
سلوا الطعنة النجلاء والفتكة البكرا

* * *

حرارة إيمان، وصدق عزيمة
وعزة نفس لا تباع ولا تشرى
فسُدْتَ بجيش الأربعين وقد طما
وفاض على وجه الثرى عسكراً فجرى

* * *

ويوم سدير، والرياض، ومحمل
ويوم الحسا والوشم والشمر والشقرا
ويوم عسير، والقصيم وحائط
وبالجوف، والسرحان، قد حصر وأحصرا

* * *

ولم تنس حق الحلم حين أسرتهم
ومقلتهم عبرى وأنفسهم حسرى
أسرتهم والصفح عنهم منتوًى
فما هم من الأسرى وإنهم أسرى

* * *

بدأت طريراً دون عشرين حجة
وأتممت للخمسين أعمالك الكبرى
ومازال منك الدين... يرجو امتداده
فلا زلت يا عبد العزيز له ذخرا
من المغرب الأقصى أتتك نخبة
يلغها عن أهله شاعر الحمرا(١)

ثم يتحدث الرهوني عن مجريات اليوم الموالي سابع ذي الحجة، فيذكر أن الملك نزل المسجد الحرام مع حاشيته، حيث قام بالطواف، ثم قام بغسل الكعبة بماء زمزم والطيب. ورفعت كسوتها إلى نحو مترين، ووضع عليها إزار أبيض من حرير علامة على إحرامها كما جرت به العادة... وحضر هذا كله أخو الفقيه الرهوني، والحاج عبد الكريم كريش، أما الفقيه فقد حُرِمَ من ذلك بسبب جفاء بعض العساكر الذين استصغروا حجمه وشكله، مما دعاه إلى العودة إلى بيته!!

وقد حان الحديث بعد هذا عن حجة الشيخ الرهوني وإحرامه بنية الحج ملاحظاً - وهذا مهم - أن بعض الحجاج من أعضاء الوفد ممن لم يحرموا بالتمتع يظنون أنهم يقوون على الإحرام بالحج والبقاء محرمين إلى يوم النحر فبقوا كذلك، واتسخت ثيابهم، وصاروا في حالة يرثى لها بالنسبة إلى هذا العصر... أما الفقيه الرهوني فقد بقي بحالة الحلال إلى اليوم الثامن من ذي الحجة: يوم التروية؛ حيث أحرم بالحج، وصعد إلى منى عبر

(١) ديوان شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم المراكشي، ضبط وتنسيق وتعليق أحمد شوقي بنين مدير الخزانة الملكية، الإيداع القانوني: ١٥٧٥-٢٠٠٢، ص ١٥١-١٥٢.

السيارة وأقام بمنى برهة، ولم يبت بها على ما هو السنة... بل توجه لعرفات في كفالة الفندق المكلف به... واستراح إلى الفجر... ويذكر أنه حصل في هذه الليلة برد عظيم أحوجه إلى ارتداء الملابس (٧ فبراير).

وبعد أن يتحدث عن استضافته من لدن الشيخ محمد علي ظافر في خيمته المترفة على عادة أغنياء مكة الذين يقصدون عرفة ليلتها وينصبون قباباً وخزائن، بعضها لحريمهم، وبعضها لهم ولأحبابهم، وبعضها لخدمهم، ويذبحون الخرفان والدجاج، ويهيئون الأطعمة الفاخرة، ويدعون إليها من يحبون، ويظلون يومهم في نزهة إلى أن تغرب الشمس من عرفة... حيث ينزلون إلى المزدلفة على نفس الطريق في سيارات خصوصية كأنهم الملوك!

قال الرهوني: وهذه الحالة وإن كان فيها ترف إلا أنها أدعى للراحة المناسبة لحالة أهل هذا العصر، إن تربيتنا لا تطيق ذلك التقشف الذي كان تتطيقه ذوات أسلافنا الماضين!!.

ثم صلينا الظهر والعصر جمعاً كما هي السنة، وشرعنا في التلبية تارة، وفي الذكر أخرى إلى أن قرب العصر.

وقد تمكن الفقيه من الوصول إلى الموقف، فوقف ودعا، وعاد أخيراً إلى رفقته التي نزلت قرب مسجد نمرة؛ حيث أتى جلالة الملك ومعه الإمام الخطيب، وصلوا الظهر والعصر جمعاً كما هي السنة، قبل أن يأتوا الموقف الذي صحبهم فيه الرهوني إلى أن أتوا الصخرات التي كان يقف عندها الرسول ﷺ.

وفي تلك الأجواء تذكرنا ـ يقول الرهوني ـ المسلمين وما هم عليه من تفريق الكلمة والذل والاستعباد، فتضرعنا إلى الله أن يبدل الفرقة بالوحدة، والذل بالعز!!

ورجع الفقيه إلى كفالة الأوتيل فركب السيارة... وصمم الشيخ على ألاّ يغادر المكان حتى تغرب الشمس... بعد هذا أطلقوا العنان للسيارة حتى مسجد المزدلفة حيث المشعر الحرام.

وهناك صلوا المغرب والعشاء جمعاً... ثم ركبوا السيارة قاصدين منى حيث قضوا الليل... إلى أن طلع الفجر وصلوا الصبح... وركبوا السيارة إلى جمرة العقبة حيث

رموا سبع حصيات كانوا التقطوها من المزدلفة، ثم نزلوا إلى المسجد الحرام حيث قام الشيخ بطواف الإفاضة، وسعى بين الصفا والمروة وحلقوا... قبل أن يعودوا إلى منى حيث استضافهم الشيخ محمد علي ظافر طوال ثلاثة أيام إلى أن أنهوا رمي الجمرات.

ويحكي الرهوني عن استقبال الملك للحجاج في منى لتقبل التهاني بالعيد، وحضر هذا الاستقبال أمير الحاج المصري أحمد طلعت باشا، والشريف أمين الحسيني مفتي القدس، وأولاد الإمام يحيى، وسلطان مملكة بورنو من السودان، وأفاضل من الهند وجاوة والصين، وعدد من العلماء والفضلاء.

وهناك ألقى الشاعر الغزاوي قصيدته المنشورة في جريدة أم القرى، وتوالى بعده الخطباء من تونس والشام.

وهنا يحكي عن ظاهرة شاهدها: رجل مصري يحمل اسم سيدي عاقل... أعمى العينين بصير القلب، إذا أنشدته بيتاً من شعر وطلبت منه أن يجيزه، أجازه بداهة بقصيدة من البحر والروي والمعنى... وقد أحضره المصريون أمام الملك، وصار كل واحد ينشد له بيتاً، ويطلب منه إجازته، فيجيزه على الفور.

وقد لذَّ للشيخ الرهوني أن يشارك في هذه الجلسة الأدبية فأنشد سيدي عاقل قول العارف سيدي محمد الحراق:

إن للناس كل عام لعيد ـــ
ـــن وكل وقت لنا بك عيد!!

فاسترسل سيدي عاقل فيذكر قصيدة في هذا المعنى، وهكذا حتى طال المجلس والناس متعجبون، وجلالة الملك يتأمل فيه تأملاً عجيباً.

والأعجب من هذا أنه إذا أنشد بيتاً بلغة أعجمية كالفرنسية والإنجليزية أجازه باللغة المذكورة!

وقد أعجب الشيخ الرهوني بهذه الظاهرة التي لقيها مرات أخرى في مكة وفي المدينة، حيث حكى عنه مثل ما حكاه من إجازته لكل ما يسمعه من الشعر.

والغريب أن أحد الحاضرين في المجلس طلب إليه شرح قوله تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ**

بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ...﴾ الآية. فسأل: هل أشرحها نظماً أم نثراً؟ فقالوا: نظماً، فأنشد قصيدة شرح فيها الآية[1] محللاً لبعض مسائلها من الأقوال، من غير تلعثم ولا توقف، وبفصاحة ونغمة مصرية تهز القلوب المذكورة.

ولم يفت الشيخ الرهوني أن يسجل دخوله الكعبة المشرفة بعد أن كانت الظروف معاكسة في مرة سابقة؛ حيث قضى بها ساعة ما مرت مثلها ساعة في الدنيا..! وصلينا في جوانبها الأربعة واقترحوا علينا الصعود إلى السطح في الدرج التي ثمة (باب الرحمة)، فتأدبنا واستحيينا من الله عز وجل..!!

قال: وكذلك دخلت الكعبة وحدي يوم الأحد ٧ ذي الحجة ١٣٥٥هـ (٢٨ فبراير ١٩٣٧م)؛ لأن السدنة فتحوها لزيارة طلعت باشا... دخلت قبل أن يحضر المذكور وبقيت وحدي فأنشدت:

ولقد خلون مع الحبيب وبيننا
سرٌّ أرقُّ من النسيم إذا سرى

وصرتُ أصلي في الأركان تارة، وأتمرغ في الأرض تارة، وألصق خدودي في الجدران تارة، وألمس العواميد المنتصبة هناك، وماذا تظن بمحبٍّ ظفر بمحبوبه يفعل؟! ثم أتى صبيان من أولاد سدنة الكعبة الشيخ الشيبي، وطلبا منا التبرك بمفتاح الكعبة وأخرجاه من غمده من الحرير ووضعاه على قلبي وعلى فمي.. ولقناني أدعية لا أذكر الآن لفظها؛ لأني كنت كالمصطلم لا أدري ما أفعل.

وبعد حديث الوزير الرهوني عن مراسيم وداع جلالة الملك عبد العزيز، وتبادل الأوسمة والكلمات، يذكر أنه زار الكاتب الخاص للملك الأمير فيصل الذي قال له: إن من فضل الله أن هذا العام خرج سالماً؛ حيث إنه حج فيه ما يزيد على مئتي ألف حاج، ومع ذلك لم يمت في أيام الحج كلها إلا نحو عشرة أشخاص، ماتوا موتاً طبيعياً... حيث أجابه رئيس الوفد المغربي بأن الفضل يرجع إلى التدابير التي اتخذها سمو الأمير.

---

(١) ذكَّرني تفسيره للقرآن بالنظم الذي أبدعه عالم مصري ضرير يحمل اسم أبي سلامة، وقد مر ذكره عند رحلة الإسحاقي ورحلة الحضيكي.

ثم تسلموا كتاب توصية إلى السيد عبد الله السديري والي المدينة المنورة التي قصدوها يوم الأحد ١٧ ذي الحجة الحرام.

وقد ختم الوزير كلامه بالحديث عن منى التي قال عنها: إنها لا تسكن إلا في أيام الحج. وقد وصف الجمرات الثلاث، ومسجد الخيف، وبعض المشاهد المعروفة ملاحظاً أن الذبائح كانت ملقاة في الفضاء بين الخيام على حالة يجب الالتفات إليها وتدارك ضررها.

ثم عرّف بالمزدلفة وبحدود عرفة... ومسجد نمرة والتنعيم محيلاً على خريطة المشاعر من مرآة الحرمين السالف الذكر.. وخصص بعد هذا فصلاً للحديث عن الحج والعمرة والميقات معتمداً على متن ابن عاشر الذي يتعمد الفقيه الرهوني شرحه باعتباره "الدليل الصادق" عند الحجاج المغاربة.. مذيلاً ذلك بحديث عن الحج الذي قال عنه: إنه مؤتمر عام يجتمع فيه أجناس العالم الإسلامي... محيلاً على الجزء الرابع من تآليف للشيخ حسين باسلامة الحضرمي[١]، ومختتماً بإيراد ما قاله الشيخ خليل في مناسكه عن البيت الحرام، وأن الله أقامه هناك مقام بيت الملك الذي تستدعى العباد إليه لاختبار مدى طاعتهم للرب جل جلاله.

بهذا يختتم الرهوني رحلته من غير إهمال الكلام على أقوال الصحيفة التي كانت تصدر في عهده... وعلى نصوص الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض الجهات المتنفذة والفاعلة آنذاك قبل أن يصل إلى المدينة المنورة، ويقدم مذكراته عنها... ويرجع إلى جدة ليجتمع بحاكمها السيد محمد عبد الرؤوف قائم مقام نائب جلالة الملك.

ولم يَنْسَ الفقيه الرهوني "متاعب" المحجر الصحي الذي نسب[٢] أسباب مضايقاته إلى أنهم الأجانب يعتبرون الحاج من أعدى أعدائهم!! لأنه يسافر لأرض الحجاز الموبوءة، ويصرف المبالغ الطائلة من الأموال من غير جدوى، ويضيع الوقت في عمل يضره ولا ينفعه، مع أن أوروبا تتوفر على الأوتيلات والمسارح والمستشفيات، لكن المسلمين يتركونها ويذهبون لأرض الحر والوباء.

---

(١) لم أهتدِ إلى الوقوف على هذا التأليف الذي ينقل عنه الشيخ الرهوني.

(٢) أشرنا عند رحلة الغسال (ت ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م) إلى الإهانات التي يتعرض لها الحجاج في (جبل الطور)، عندما يجبرون على المقام هنا عدة أيام بحجة الحفاظ على الصحة.

الحجوي ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م

هذه الرحلة لها ميزة خاصة عن الرحلات السابقة من حيث أداؤها وظروفها السياسية كذلك... فإن صاحبها العلامة محمد بن الحسن بن العربي الحجوي الثعالبي كان من المفكرين النابهين المعاصرين، وكان من الشخصيات المتنفذة في المغرب الأقصى، حيث تقلّد عدة وظائف سامية... وباشر كذلك العمل التجاري على أرفع مستوى، ويكفي أن نعرف أنه مؤلف كتاب «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» الذائع الصيت مغرباً ومشرقاً.

لقد قام بمناسك الحج في موسم عام ١٣٦٥هـ / أكتوبر ١٩٤٦م، وكان عليه أن يقطع الطريق جواً، ولكن ليس على خط واحد، بل إلى وهران أولاً بالطائرة، ومنها إلى تونس بالطائرة أيضاً، ثم من تونس إلى ليبيا ماراً بطرابلس، ثم ابن غازي، ثم من هنا إلى القاهرة: خمس عشرة ساعة ونصف الساعة.

لم يكن مقامه في القاهرة مقام مطلق الناس. إن الرجل ـ كما قلنا ـ علامة مستنير ومؤرخ متفتح، وهو الذي نعت القاهرة بأنها "باريز العروبة"، لقد استعظم كثرة الخلق بها قائلاً منذ ذلك الزمن: ولا أراهم إلا مضطرين لجعل الخنادق تحت الأرض عن قريب أو بعيد بحكم الضرورة واتقاء الزحام!! وهكذا "تنبأ" بإحداث الأنفاق لتسهيل المرور خمسين سنة قبل أن يقع.

هذا هو الحجوي الذي رأيناه في القسم الحجازي من رحلته، وهو الأهم في الرحلة بالنظر إلى موضوعنا مكة من خلال الرحلة المغربية.

كان أول ما أدخل البيرو على الأستاذ الحجوي أن يجد في استقباله زوال الاثنين ثالث ذي الحجة على حساب المغرب السيد محمد نصيف مع أنجاله الكرام.. لم يكن يتوقع ذلك وعدّه طالع سعد بالنسبة إلى الزيارة.

ثم كان أبرز ما اهتم به ـ على عادة سائر الحجاج ـ يوم عرفة. وهنا انشغل الشيخ بأمر

الحديث الشريف: « يوم صومكم يوم نحركم »، وما قاله الحافظ ابن حجر من أنها قاعدة أغلبية وقد تتخلف... ويتتبع مذياع لندن حول مدخل الشهر.. ويذكر أنهم كانوا في شك هل يكون وقوف عرفة يوم السبت أو يوم الأحد... لكنه لم يلبث عندما وصل إلى مكة أن سمع المنادي يقول: إن الوقفة ستكون يوم السبت، وذهب الشك، وانقطع الخلاف، ويكون العيد يوم الأحد، لكنه كان بالمغرب يوم الثلاثاء... وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

إن إفادات الحجوي عن كيفية العمرة ثم الحج كانت إفادات تختلف عن معاصريه من أصحاب الرحلات... إشارات عملية مختصرة، تفترض أن المخاطب عالم مطلع على أحكام الحج، فلا تكثر عليه من تفسير الواضحات! إنه ـ على سبيل المثال ـ يخالف معظم الحجاج الذين مروا بنا مخالفة تامة في الحديث عن تفاصيل العمرة والحج والخوض في جزئياتها ودقائقها، والإغراق في الروحانيات والوجدانيات، وهكذا نجد أن الحجوي وهو رجل الدولة، الفقيه، التاجر، المهموم بقضايا التحديث والتغيير... هذه الصفات هي ما يكسب ملاحظات الحجوي عن الحجاز في كنف الدولة الفتية المشرفة على الحكم تمايزاً وفرادة(١).

أول ملامح الصورة هي كرم الوفادة عندما نقرأ عن الحجوي أنه غداة وصوله إلى جدة وجد تحت تصرفه سيارة خاصة بعث بها الملك عبد العزيز بن سعود لأخذ الضيف إلى مكة يوم الثلاثاء، حيث قام بأداء العمرة على الطريقة المعروفة.

أما عن ثاني ملامح الصورة فإنها تنكشف في الاستقبال الرسمي من لدن الملك عبدالعزيز بن سعود بعد تحلله من العمرة:

ولما قابلنا وقف على قدميه وتقدم بخطوات إلى مصافحتنا فصافحناه كما يجب، فأجلسني على كرسي يمينه مثل الكرسي الذي هو جالس عليه، وأجلس النجلين عن

(١) هذا التحليل ننقله كاملاً عن زميلنا الأستاذ الدكتور سعيد بن سعيد العلوي: أدب الحج في المغرب العربي: نماذج من الرحلة الحجية المعاصرة في المغرب معتمداً على مخطوطة الخزانة العامة بالرباط بعنوان الرحلة الحجازية المصرية، مجلة التاريخ المغربي، العدد ٢١ شتاء ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص ٣١٧- ٣٢٩- ٣٣٤. وانظر معلمة المغرب عن ترجمته بقلم محمد حجي، المجلد الأول، رقم ١٠، ص ٣٣٣٧.

يساره (...) وسألني عن ولديَّ، فعرفته بكل منهما اسماً وعلماً وعملاً، وأبلغته سلام سيدنا السلطان المؤيد بالله ودعاءه الصالح له ولأنجاله، وقدمت له هدية فقبلها أحسن قبول، وأظهر فرحه بها، وتقديره إياها، وسألني عن أحوال جلالة السلطان ومملكته الكريمة، وبالغ في السؤال والدعاء لجلالته. وسألني كيف كان سفري وراحتي(...) وسأل النجلين عن عملهما وحالتهما، وكل حالته وحركاته وكلامه دال على فضل الرجل ومنزلته واعتنائه بالعلم والعلماء، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه. وقد استدعانا للعشاء عنده ليلاً والحضور معه في غسل الكعبة من غده(١).

ثالث ملامح الصورة تتضح في الخطبة التي خطبها داخل الكعبة يوم غسلها، منها حضّه ملوكهم ورؤساءهم على نصرة عرب فلسطين، ووصيته لجميع المسلمين ألاَّ يعلموا أولادهم الثقافة الأوروبية الإفرنجية، كما أثار انتباه الحجوي كبر سنه: «بعد هذا الخطاب ودعنا وهبط من الكعبة وركب عجلة صغيرة طاف عليها لكبر سنه وعجزه عن الطواف على القدم، لأنه بلغ من الكبر عتياً».

رابع ملامح الصورة يستمده الحجوي استقراءً من حديث مَنْ حدثه عنه من «مَنْ هم مطلعون على أحواله».

سألت عن معلومات الأمير ابن سعود المذكور فقال: إن معلوماته عربية فقط، فقد درس رسالة لهم في فقه عبادة الحنابلة، وأخرى في التوحيد على مذهب الوهابية. ولكن له ذكاء متوقد، وحافظة جيدة، وطوية إسلامية، وشهامة عربية، وله مع ذلك حظ قوي في تسيير مملكته والظفر بأعدائه، ولكن إذا ظفر حلم وعفا حتى صار أعداؤه أحباباً له.

خامس ملامح الصورة هو ما لمسه الحاج ـ صاحب الرحلة الموظف المغربي السامي ـ من

(١) فما يذكر عن هذا العلامة الجليل الذي صادفته في آخر أيامه ظروف سياسية لم تكن بالحسبان، فقد كان له موقف يخالف ما أجمعت عليه البلاد عند الأزمة السياسية بين المغرب وفرنسا عام ١٩٥٣م، وهو يومئذ نائب للصدر الأعظم في العدلية... لذلك ساءت حالته النفسية والصحية بعد استرجاع المغرب استقلاله عام ١٩٥٥م، وتوفي بأحد مستشفيات الرباط في فاتح ربيع الأول سنة ١٣٧٦هـ / ٦ أكتوبر ١٩٥٦م، وحمل من الغد إلى فاس، ودفن بقصبة ابن دبابا، ولم يحضر جنازته أحد بعدما امتنع الحزابون من تلاوة القرآن عليه، وبعد دفنه امتنع سكان القصبة من الصلاة في ذلك المكان، فأخرج من قبره ونقل إلى مكان مجهول. معلمة المغرب، ج ١٤، ص ١٣٣٨.

إنجازات فعلية، أولها وأشدها خطورة هو استتباب الأمن. وفي الذاكرة الإسلامية صور مرعبة لقطاع الطرق والحرابة داخل أرض الحجاز في الطريق بين مكة والمدينة، مما قرأنا عنه في كثير من المقاطع عند بعض الرحالين. وهذا ما كان أحياناً من مسوغات القول بسقوط فريضة الحج عن أهل المغرب.

وبالجملة، أهم ما تراه في الحجاز انتشار الأمن بسبب ضبط الأحكام وصرامتها المهولة. فإن الحجاز في أيام الترك والحسينيين وكر السراق والنهاب وقطاع الطريق. ووجود ابن سعود ـ أطال الله عمره ـ أباد هذا النوع من البشر الذي كان ضد الحجاج وضد البشرية، فأقام الحدود الشرعية بقطع يد كل سارق كيفما كان. وما قطع منها إلا نحو العشرة، فلم يبق منهم واحد. وقتل قطاع الطرق واللصوص حتى لم يبق منهم واحد، فأمنت البلاد، وأقبلوا على التجارة والاكتساب.

ومما لمسه الفقيه ـ الموظف المغربي المسؤول ـ هو الاعتناء الشديد بالنظافة. فمع أن الحجيج قد فاق المئتين وخمسين ألفاً «ومع ذلك، ما كنا نرى في المسجد الحرام الذي يحمل باكتظاظ قسماً مهماً من هذا العدد صباحاً ومساءً وليلاً شيئاً ما من فضلات هذا العدد ولا بالطرق المتصلة به ولا بأبعد منه لا في ليل ولا في نهار كأن الجان ينقل فضلاتهم...».

أما الدولة السعودية ذاتها، أجهزة ومالية وإدارة، فلم تكن عين الحجوي كليلة عن رؤية ما كان يعدّه نقصاً يشينها. ويمكن القول: إن الأبعاد الثلاثة في شخصية صاحب الرحلة (الفقيه، الموظف السامي، التاجر) تجد جميعاً مرتعاً خصباً لانتقادها وتسجيلها لجوانب الضعف والتقصير. فالفقيه يلاحظ ما يسجله العياشي والإسحاقي قبل نحو من قرنين عندما رددا قولتيهما: لم يَبْقَ في المشرق مَنْ تشدُّ له الرحال! يلاحظ أن:

الحالة العلمية في الحجاز والحرمين الشريفين مما يدخل الكدر على كل غيور على مواطن الوحي والدين، وهما النقطتان اللتان ابتدأ منهما انتشار العلوم الإسلامية والآداب الدينية... فكل من الحرمين الشريفين خالٍ من دروس العلم الديني والدنيوي، فما رأيت في مسجد مكة والمدينة دروساً علمية أو تهذيبية.

والموظف المسؤول يرى أنه وإن كانت «مالية الحجاز مالية عريضة من المداخيل الوطنية كعشور المراسي والحدود... ومن دخل البترول واليسانص وهي ثروة عظيمة... كذلك حظه من الذهب...» إلا أنه «لا يوجد في الحجاز طرق منظمة إلا ما كان من طريق صناعية نحو ٧١ كيلو متراً ما بين جدة ومكة المشرفة». وتعليل ذلك عند الحجوي انعدام «مالية منظمة كما ينبغي وكما يجب لتضبط الداخل والخارج لعدم وجود الرجال الأكفاء المثقفين الماليين الذي يحوطونه من التلاعب والعبث». ولعل من نتائج ذلك الاضطراب في ضبط مالية الدولة ما سمع الحجوي عنه من اضطراب في صرف رواتب الموظفين في أوقاتها المعلومة، وخاصة المدرسين منهم.

والتاجر المتمرس بشؤون التجارة العليا المطلع على أمور الدولة وإدارتها يلاحظ وجود تفاوت بين حقيقة الغنى، لغنى مصادر المال وتنوعها في الدولة السعودية، وبين واقع الأمر من جهة العملة الرائجة فهي تعادل نصف ما تحتمله، «ولذلك انتشر غلاء مفرط في المملكة كلها، فهي من أغلى البلاد، وهي من أغنى البلاد أيضاً ومن أفقرها أيضاً».

على أن الحاج محمد بن الحسن الحجوي الفقيه التاجر الموظف لا يعدم تقديم اقتراحات، وبالأحرى أماني، لعلها الأماني عينها التي كانت تراود الوافدين على بيت الله الحرام حجاجاً ومعتمرين، أخصها توسعة المسجد الحرام على نحو «يصير المسعى داخل المسجد الحرام الذي هو أحق بالتوسعة». والحجوي يرى أن تساهم الأوقاف، في كل البلاد الإسلامية، بنصيب في ذلك «بقدر مداخيلها بعشرين في المائة من المدخول سنة واحدة، وإذا بقي شيء عجزت عنه الأحباس فيجمع بالاكتتاب». وهو يتمنى للأمة الإسلامية، فضلاً عن التوفيق في توسيع مسجدها الحرام ومسعى طوافها، أن يوفقها الله إلى «توسيع أفكارها بالعلوم والمعارف على اختلاف أنواعها، فلا اعتبار بأمة لا توسع أفكار شبابها بالعلم والتهذيب الأخلاقي». وأما في الحديث عن توسعة الحرم المديني فإن لهجته تعلو، ونبرته تحتد، فالأمر عنده «إهمال للمدينة المنورة، وتركها للخراب يركض فيها ويضعضع بناءها».

ما نريد أن نخلص إليه، اختتاماً لحديثنا عن رحلة الحجوي الحجازية، أننا أمام رجل

تلتقي عنده هموم المسؤولية، مسؤولية الاشتراك في تسيير دواليب الدولة، فهي لا تفارقه في سفره معتمراً وحاجاً لبيت الله الحرام، مثلما أن هم التحديث بالتعليم وتنقية العقول يظل حاضراً بقوة في وجدانه وفي حديثه عن تجربة الدولة السعودية الفتية وملكها الباني عبدالعزيز الذي يرى أن الفضل الأكبر يرجع إليه لاجتماع جملة من الخصائص السيكولوجية الإيجابية في شخصه والصفات التي تحقق القوة والنجاح لرجل الدولة العظيم، وفي مقدمتها العدل مطلقاً، «فأما الأمن ففي جميع مملكته بصرامته التي لا تقبل شفاعة، ولا تعرف محسوبية».

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الحجوي

ابن العتيق ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م

هذه رحلة تشكل لوناً آخر من التعلق بزيارة مكة والبيت الحرام وأداء المناسك المعينية.. ينتمي صاحبها ابن العتيق إلى بيت عالم شهير: بيت الشيخ ماء العينين، رحمه الله. فهو إذن من تخوم صحراء المغرب التي كانت ترزح تحت نيِّر الاستعمار الإسباني[١].

اجتمع صاحبها في الطرفاية بالشيخ (مربيه ربه) الذي تولى قيادة الحركة الجهادية بعد وفاة الشيخ ماء العينين، وهناك تعاهدا على الرفقة في الحج.

وهكذا "انتزع" الشيخ مربيه ربه رضا الحماية الإسبانيولية في أن يرحل مع من يختاره من الرفاق الشناقطة، حيث تلقى صاحب الرحلة البشرى من سيدنا بواسطة أخيه الشيخ عبد الوهاب الملقب "عبدات".

غادر ابن العتيق بيته على متن سيارة عند مطلع شمس السبت ١٧ شوال ١٣٥٧هـ / ١٠ ديسمبر ١٩٣٨م، وصحبه على متنها الشيخ محمد الأغظف ابن الشيخ ماء العينين الذي سيؤلف كتابه « الجاش الربيط في الدفاع عن مغربية شنجيط »[٢]، توجها معاً إلى طانطان حيث يقيم الشيخ (مربيه ربه).

ومن الطرفاية جنوب طانطان أبحر الوفد يوم الخميس ٢٢ شوال ١٣٥٧هـ / ١٢ ديسمبر ١٩٣٨م إلى جزيرة كناري (لاص بالماص)، وأصبح الوفد يتألف من أربعة من آل الشيخ ماء العينين بمن فيهم كاتب الرحلة... وستة من قبيلة الزركيين، واثنين من قبيلة

---

(١) تحمل الرحلة عنوان (الرحلة المعينية)، تاليف العلامة ماء العينين بن العتيق، تحقيق محمد الظريف، نشر مؤسسة الشيخ مربيه ربه، مطبعة المعارف الحديثة، الرباط. ونحن نشكر (مؤسسة مربيه ربه) التي أتحفتنا بنسخة من هذه الرحلة التي صاحبتنا إلى عمرتنا الرمضانية ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

(٢) لا تزال صورة هذا الرجل الجليل ماثلة أمام عيني عندما اجتمعت به في بيت شيخنا باشا سلا الحاج محمد الصبيحي وأهداني هذا التأليف بخطه مستعملاً كلمة (حبس) عوض أهدى، « نفعنا الله وإياه بما علمنا ». التاليف، طبعة دار العلم، الرباط ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

الركيبات، وواحد من قبيلة توبالت، وواحد من الأفيكات، وواحد من قبيلة آيت الحسن، وواحد من قبيلة أولاد تيدرارين... هؤلاء جميعاً إلى جانب ممثل عن المخزن؛ أي حكومة المغرب... والتحق بالوفد في (لاص بالماص) سيدنا مربيه ربه الذي وصل عبر الطائرة مع أسرته إلى قادس على أن يلتحق الجمع بمركب إسباني حملهم إلى القادس ثم إلى سبتة، ليصلوا إلى تطوان حيث نزلوا في ضيافة المخزن، وهناك أدّوا صلاة الجمعة فاتح ذي القعدة ٢٣ ديسمبر مع الخليفة السلطاني المعظم المولى الحسن بن المهدي خليفة سلطان المغرب محمد بن يوسف (محمد الخامس)، خليفته بالشمال والصحراء التي ينتمي إليها أعضاء الوفد المغربي.

وفي تطوان التحق بالوفد بقية المواطنين المغاربة من الذين كانوا منتشرين في الجهات التابعة للحماية الإسبانية.

التحقوا عن طريق الطائرة أو السيارة، والكل نازل في دار الضيافة التي أسست منتدى للعلماء والشعراء ورجال السياسة والسلطات... قبل أن يقيم الفقيه محمد بن موسى وزير الأحباس حفلاً يوم الأحد فاتح يناير ١٩٣٩م على شرف رئيس الوفد مربيه ربه... ومعه الوفد ومتعلقاته من الطلبة الذين كانوا يدرسون بتطوان أمثال محمد العيادلة ابن الشيخ محمد الأغظف السالف الذكر.. وأحمد بن سيد الشهيرة عترته بالإمارة في أدرار.

ولم يتم إبحار الشناقطة من سبتة إلا يوم السبت ١٩ ذي القعدة / ٨ يناير ١٩٣٩م بعد أن زارهم المقيم العام الإسباني ليطلب من رئيس الركب الشيخ سيدنا مربيه ربه ومن سائر الأعضاء "أن يخبروا المسلمين بالحجاز وغيره أن الخنير السمو فرانكو هو الذي هيأ هذه الباخرة (ماركيس ذي كومباس) للمسلمين...»[1].

تعمدت ذكر هذه المقدمة قبل أن تحط الباخرة في جدة بعد أن سلم على أصحابها الأمير المغربي المولى المهدي ابن الخليفة الذي كان يدرس بمصر... تعمدت ذلك لأذكر العراقيل والمتاعب التي كان يلقاها المغاربة من أجل الوصول إلى مكة في عهد الاستعمار

(١) يذكرنا هذا الصنيع برحلة الفقيه الرهوني السالفة الذكر.

الذي قسم المغرب إلى شطرين، فكان السكان في الجنوب لا يتمكنون من عبور الطريق الطبيعي الذي عهدوه بالأمس حتى يصلوا إلى موانئ الشمال؛ لأن المقيم العام الفرنسي كان يقف دون ذلك، وكان على المغاربة أن يبحروا كما رأينا من الطرفاية إلى (لاص بالماص) ليصلوا إلى تطوان عبر سبتة إلى آخر ما سمعناه... ومع كل ذلك فقد وجد المغاربة أنفسهم سواء أكانوا من الشمال أم الجنوب على متن سفينة واحدة... تحت شعار واحد وفي ظل ملك واحد... وفي وجهة واحدة هي وجهة المسجد الحرام.

لقد فضَّل الوفد أن يهل بالعمرة اقتداء بما ورد في حديث جابر بن عبدالله من الحث على التمتع بالعمرة... وقد وجدوا في جدة السيد أحمد ابن المطوف الشيخ عبدالله الكردي الذي دعاهم ليلة السبت الأخيرة من ذي القعدة (٢٠ يناير ١٩٣٩م) إلى العشاء في بيته؛ حيث قضوا الليلة بجدة، على أن يدخلوا مكة ضحى يوم الأحد فاتح ذي الحجة « بمسرات وأفراح لم تغادر في الحشا إثر أحزان ولا أتراح... دخلناه من باب بني شيبة... فشاهدنا البيت العتيق وقد تدلت أستاره، وأشرق أضواء منظره وأنواره، فلما ابتهجنا بشهوده، وقرت أبصارنا وانشرحت بمشهده صدورنا وأسرارنا، قطعنا ما كنا فيه من التلبية، وقرأنا الورد الممكن من الأدعية، وبادرنا وسط الزحام الحجر الأسعد وقد اضطرب القلب من هيبته وارتعد، فقبلنا يمين الله في أرضه، والشاهد لمن قبَّله يوم عرضه... وطفنا بيت الله سعياً على الصفة المأمور بها شرعاً، وصلينا خلف المقام ركعتي الطواف »، إلى آخر الوصف الذي أبان فيه الكاتب ابن عتيق عن باعه في باب السجع.

وقد استجاب الشيخ مربيه ربه لدعوة مريدين اثنين من شنقيط كانا مجاورين بمكة أتياه ينقلان له دعوة الحكيم السيد إعزاز الدين الهندي للنزول بداره، حيث حملوا الأثاث إلى الدار ونزلوا عنده... وكان إعزاز الدين الهندي من مريدي الشيخ أحمد بن الشمس[١] الذي صدره الشيخ ماء العينين واستخلفه في الزاوية بمدينة فاس، بل كان واسطة في أكثر الشؤون بينه وبين سلطان المغرب... ولم يزل الوفد ملازماً للمسجد

(١) من أبرز أعلام الزاوية، ولد بشنقيط... وتصدر عن الشيخ ماء العينين. انظر ترجمته في معلمة الصحراء لعبد العزيز بن عبدالله، ص ٣٠.

الحرام في أكثر الأوقات ليلاً ونهاراً لإقامة الصلوات ولإتمام الطواف... قال: لم نفرغ لغير ذلك من زيارة المشاهد... لقلة المقام بمكة، فاغتنمنا الاشتغال عنها بما هو أفضل وأكبر: ملازمة البيت الحرام، لم نفارقه إلا في أوقات الضرورات.

وقد خصصت الرحلة جانباً مهماً منها للاتصالات والنشاطات العلمية التي قام بها الوفد في مكة المكرمة... وهكذا اجتمع الوفد ومعه سيدنا مع الشيخ عمر بن حمدان المحرسي شيخ المالكية بالحرمين الشريفين... حيث صادفوا عنده بداره كثيراً من الكبراء والعلماء والرؤساء من أهل مكة ومصر والعراق وبلاد الشام وغير هؤلاء من الحجاج... ووقعت في المجلس محاضرات أدبية ومذاكرات علمية آلت إلى إنشاد الأشعار... ضاعت لصاحب الرحلة مذكراتها لما أصابه من مرض في منى!

وقد ذكر صاحب الرحلة إلى جانب الشيخ عمر عمدة المالكية شيخ المذهب الحنفي محمد المرزوقي أبا حسين، وشيخ المذهب الشافعي أحمد ناضرين، وقاضي القضاة بمكة الشيخ عبد الله النجدي من آل الشيخ، وأولئك يقلدون في كثير من أحكامهم الإمام أحمد بن حنبل.

وكان ممن اجتمعوا به في بيته كذلك من أهل مكة الشيخ الحسين ابن قاضي المستعجلة عبد الغني بحضور الشيخ وسائر الوفد... لقد كانت صحبته مع بعض مريدي الشيخ ماء العينين. ومن أولئك الذين تعرف إليهم الوفد الشيخ عدنان بن عمر الكتبي الذي بالغ في إكرام الجماعة.

وكان من أولئك الذين ترددوا على سيدنا مربيه ربه الأمير شكيب أرسلان صاحب كتاب «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية»... إلى آخر اللائحة الطويلة التي اعتذر بعدها عن ذكر الباقي؛ لأنه أكثر من أن يحصى!

ومع هذا يتطوع بذكر لائحة لمن اجتمعوا بهم من أهل بلادهم الشناقطة.

وقد عقب على هذا بما يفيد أن معظم تلك اللقاءات كانت تتم بالمسجد الحرام. ولا يخفى - يقول الكاتب - أن أهل المسجد من الحجاج كلها مقبل على شانه، فقليلاً ما يجدون فسحة لغير الصلاة والطواف والتلاوة!

وقد ختم هذا الفصل الذي يمكن أن نسميه فصل التعارف بالحديث عن رئيس السدنة على ذلك العهد الشيخ محمد بن محمد صالح... الشيبي المتولي رئاسة السدنة في اليوم الحادي عشر من شهر رمضان من سنة ١٣٥٧هـ، وقد اجتمع مع الشيخ مربيه ربه في حجته للسنة الماضية، وتكرر اللقاء هذه السنة مع سائر أعضاء الوفد، وكان رئيس السدنة يفتح الكعبة في يوم معين أو يومين من كل أسبوع فيدخلها الناس للتبرك. وكان إذا فتحها ورأى أحداً من وفدنا يقدمه على غيره في الدخول من غير أن يقبل أخذ أي شيء كما يأخذه من الداخلين حسب مراتبهم!

وقد صادف يوم فتح الكعبة أن كاتب الرحلة يطوف وسادنها عند بابها جالس على السلم الذي يرقى معه للباب، ورأى سيدنا مربيه ربه جالساً وبإزائه أخوه الشيخ محمد الإمام فأشار سيدنا إلى الكاتب أن اصعد! ونبه السادن إليه. فأشار السادن إلى الناس أن يفسحوا الطريق، وصعد الكاتب الذي يقول: فطلعت وقد داخلني من الذلة والخضوع والانكسار، وعلاني من الخجل والدهش والوجل لجلالة ذلك المشهد ومهابته، ما الله مطلع عليه! ولما دخلت الباب أخذ سيدنا الشيخ ـ أعزه الله ـ يدي لما رأى من حيرتي، وأراني المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ، وكان السادن أراه إياه، فصلى فيه قبل دخولي، وجلس ـ أعزه الله ـ ينتظرني، فصليت فيه ركعتين، ولم يعد طرفي قدمي إعظاماً وإجلالاً لبيته تعالى.

وكذلك أخبرني الشيخ محمد الإمام أنه وقع له مثل ذلك، فلم يقدر أن ينظر غير محل سجوده.

وعلى العادة فقد ظل الأزرقي والتقي الفاسي مرجعاً لكاتب الرحلة على نحو ما كان سابقوه.

ولما كان يوم الجمعة السادس من ذي الحجة (٢٧ يناير) حضروا للصلاة بالمسجد الحرام واستمعوا ـ كما يقول ـ إلى خطبة حسنة طويلة... ووقع بالمسجد في وقت الصلاة تدافع الناس بسبب الازدحام.

وخرجوا يوم التروية (الأحد ثامن ذي الحجة) بعد أن اغتسلوا ولبسوا ثياب الإحرام

ناوين الحج... خرجوا من مكة لما ارتفع النهار متوجهين إلى منى التي وصلوها حين زالت الشمس، وقضوا الليل بها تحت قباب أعدها المطوف، ولما طلعت شمس اليوم الموالي الاثنين ساروا في اتجاه جبل عرفات... حيث اغتسلوا اغتسالاً خفيفاً للوقوف بعرفات كما هي السنة، وجمعوا الظهر والعصر بمسجد نمرة، ولم نر الخطيب ولم نسمع صوته لكثرة الازدحام، يقول ابن العتيق الذي يسجل أنه حدث أن الله صب عليهم مطراً غزيراً في ذلك اليوم (٢٩ يناير)، وأنه لم يزل المطر ينهمر والناس واقفون في دعاء وابتهال وخشوع، وأذكار واستغفار وخضوع، ويستمر في وصف الحجاج في تلك اللحظات المشرقة ليذكر أن سيدنا (مربيه ربه) خنقته العبرات، وترادفت عليه من الخشية الزفرات.

وقد انقشع السحاب لما دنت الشمس للغروب... ثم نفروا وانصرفوا بين المأزمين قاصدين المزدلفة (المشعر الحرام)، حيث جمعوا بين العشاءين... على أن يعودوا لرحالهم فيذبحون الهدي... وساروا إلى مكة من غير أن يتركوا الإحرام... هناك طافوا طواف الإفاضة، ثم سعوا بين الصفا والمروة وحلقوا... ونزعوا لباس الإحرام قبل أن يعودوا إلى منى لصلاة الظهر في مسجد الخيف... قبل أن يرجعوا لخيامهم حيث شعر الكاتب بوعكة شديدة اضطر معها إلى أن يستعين بمن يستند إليه ليكمل رمي الجمرات الثلاث... وكذلك فعلوا في اليوم الموالي.

وكغيره من الرحالة سجل أن ليالي منى كانت غرة في وجه الزمان، وموسماً لأهل الإيمان.

وتعجلوا فدخلوا مكة وقت العصر يوم الخميس ١٢ ذي الحجة (ثاني فبراير) شاكرين الله على منَّته عليهم بقضاء المناسك على الوجه الذي قرَّروه.

وقد رأى أن من الفائدة أن يذرع الكعبة والمسجد الحرام بالقدم مسترشداً بالروايات المختلفة التي تعتمد على اختلاف الذراع في القصر والطول!!

وقد استفدنا من خلال هذا الحديث - وهذا مهم جداً - أن هناك رحلة حجازية للشيخ ماء العينين، وهي الرحلة التي تحدثنا عنها سنة ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م. وقد لاحظ ابن العتيق

أن القناديل اليوم صارت تعتمد على الكهرباء، وليس على الزيت أو الشمع كما كانت بالأمس. وإلى جانب هذا قدم لنا معلومات جيدة عن كسوة الكعبة، فيذكر أن المحمل كان يأتي من مصر في كل سنة؛ لأن الكسوة في الأصل كانت تأتي من الخلفاء العباسيين قبل أن ينتقل آخرهم إلى مصر بعد اجتياح التتار لبغداد، واستمر مجيء الكسوة من مصر حتى أعلن أمير مكة الشريف الحسين بن علي الثورة على الحكومة التركية منادياً باستقلال البلاد العربية سنة ١٣٣٤هـ، واستمر إتيان الكسوة من مصر حتى وقع الخلاف بين المصريين والشريف الحسين سنة ١٣٤١هـ حتى عاد المصريون بالكسوة من جدة، فكساها الشريف بكسوة كانت مودعة بالمدينة المنورة من الحكومة التركية، فلما كان عام ١٣٤٣هـ استولى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود على مكة المشرفة فكساها، وفي سنة ١٣٤٤هـ كساها المصريون على عادتهم، ووقعت حادثة المحمل[١] بمنى، فامتنع المصريون من مجيء الكسوة عام ١٣٤٥، فكساها الملك عبدالعزيز وصنع داراً لحياكة كسوتها بمكة، وكتب على الكسوة آيات مناسبة وأسماء على غير النسق المصري... واستمر العمل إلى سنة ١٣٥٥هـ عندما اصطلح الملك عبدالعزيز مع المصريين فأتوا للبيت بالكسوة من مصر على هيأتها الأولى، إلا ما كان من تسمية السلاطين؛ لأن بلاد المشرق لم تجتمع كلمتها على سلطان من يوم تلاشى ملك العثمانيين... بل استقل في كل أرض ملك كالملك عبدالعزيز استقل بالحجاز ونجد ولواحقهما، والإمام يحيى باليمن، وغازي بن فيصل بن الشريف حسين بالعراق، إلخ.

ولم يزل المصريون يأتون بالكسوة على هيأتها الأولى إلى عامنا هذا، وهو عام ١٣٥٧هـ، أتى بها المصريون على عادتهم، ولكن بدون ذكر الأسماء الحاكمين.

وبعد الحديث عن الأبواب والمنارات وفضل الطواف في بعض الأوقات المعينة، يشير ابن العتيق إلى حادثة تاريخية لا يخلو ذكرها من فائدة، قال:

وبينما نحن نطوف يوماً في الازدحام إذ أقبل أصحاب الملك عبد العزيز فدفعوا الناس عن المطاف... ولم يبق طائف إلا أنا والشيخ محمد الإمام ابن الشيخ ماء العينين، فإن

---

(١) تراجع رحلة البلغيثي السالفة الذكر لمعرفة حادثة (المحمل) وصلتها بمن نعرفهم تحت اسم الإخوان.

أصحاب الملك لم يتعرضوا لنا حتى أتممنا طوافنا... وبلغنا أن الملك عبد العزيز كان يطوف في جملة الناس بدون امتياز طوال أعوام إمارته الأولى حتى غدره بعض الظلمة وهو يستلم الحجر الأسعد فضربه بمكطة حتى مسَّت الرصاصة الحجر الأسعد، فسلمه الله... فهو حينئذ لا يطوف إلا على هذه الهيئة من إحاطته العسكرية خشية الغائلة.

هكذا قرأنا جديد ابن العتيق أيام مقامه في مكة التي غادرها ليلة الأربعاء الثامن عشر من ذي الحجة، فيالها من بلدة من دخلها كان من الآمنين، ومن نحا نحوها كان من الفائزين، فهي قبلة العابدين، وغاية منية السابقين، ومناط هم العارفين، ومحط آمال الراغبين.

كنون ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م

هذا زميل عزيز وكاتب مكثر، ومجمعي كبير عبد الله كنون.

حج أول مرة سنة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م، ثم حج ثانية سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م، وفي كلتيهما كان رئيساً للوفد المغربي، كانت الأولى في عهد الملك محمد الخامس، وكانت الثانية في عهد الحسن الثاني(١).

وقد دوَّن الرحلة الأولى ضمن مقالٍ بعنوان: «مشاهداتي في الحجاز»، كما عنون إفادته في الرحلة الثانية هكذا: «حديث عن الحج».

كان برنامج الوفد المغربي البدء بزيارة المدينة المنورة التي لاحظ الأستاذ أن جل المجاورين المغاربة يفضلونها؛ لأنهم موالك، ونحن - يقول كنون - نعلم قولة الشيخ خليل بن إسحاق: «والمدينة أفضل ثم مكة». وهكذا، وبعد قضاء سبعة أيام بالمدينة التحقوا بمكة؛ حيث وجدناهم يصلون إليها عند الغروب. لم نتردد - يقول كنون - فيما يجب علينا البدء به، ولم نقل ما قاله جُريج: (رب أمي وصلاتي)(٢)، بل ذهبنا تواً إلى البيت الحرام، وطفنا وسعينا وأحللنا من عمرتنا، ثم جئنا إلى رباط المغرب الذي هو محل نزول الوفد، وهناك التقينا برجال السفارة الذين حدثونا عن المأدبة الملكية وما لقوا فيها من إكرام.

---

(١) نُشر الحديثان ضمن كُتيب يحمل عنوان "تحركات إسلامية"، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء.

د. التازي: عبد الله كنون، بحث قُدِّم لمجمع اللغة العربية بمناسبة تعويض د. التازي للأستاذ كنون في عضوية المجمع المذكور، وقد تعمدنا اختيار تاريخ الرحلة دون تاريخ الوفاة لينسجم مع ما بعده.

(٢) لكي نفهم هذه الإشارة من الشيخ كنون لا بد من العودة إلى صحيح البخاري، قال رسول الله ﷺ: «نادت امرأة ابنها وهو في صومعته، قالت: يا جُريج، قال: اللهم أمي وصلاتي؟ فكررت النداء وكرر هو: اللهم أمي وصلاتي؟ فقالت: اللهم لا يموت جُريج حتى ينظر في وجه المياميس!! وكانت تأوي إلى صومعته راعية ترعى الغنم، فولدت، فقيل لها ممن هذا الولد؟ قالت: من جُريج، فنزل من صومعته، وقال: أين هذه التي تزعم أن ولدها لي؟ وقال للولد: يا بابُوس من أبوك؟ قال: راعي الغنم». وروي عنه ﷺ: «لو كان جُريج عالماً لعلم أن إجابته أُمَّه أولى من عبادته ربه».

وبهذه المناسبة أشكر الزميل الأستاذ السيد الحسين وكاك رئيس المجلس العلمي لجهة تيزنيت.

وبعد حديث الشيخ كنون عن الرباط المذكور يصف صلاة الجمعة بالحرم الشريف ويقول: إن المشهد كان عظيماً جداً، عظيماً بروعته وبجلاله، عظيماً بمن يشهده من هذه الخلائق التي لا يحصيها العد، ولا يستوعبها الوصف، عظيماً بالخطاب الجليل الذي ألقاه إمام المسجد الحرام منوهاً بحكمة الحج وداعياً المسلمين إلى التمسك بعروة الدين الوثقى، عظيماً بهذه الصلاة تجاه الكعبة، حيث لا شرق ولا غرب ولا شمال ولا جنوب! وإنما هو كشف وعيان لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان على صدق قوله عز وجل: ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾.

وقد أتيح لنا أن نشهد هذه الأمواج المتلاطمة من المكان المشرف الذي هيأه لنا السيد أحمد الزمزمي، وهو ملاصق لبيته... وقد أدلى لنا من النافذة بمروحة كهربائية، وكان يتعهدنا بماء زمزم في آنية نظيفة، ولم يكن معنا زائداً عن الشخصيات المغربية... إلا سيد هندي من أعيان بلاده، فكنا موضع غبطةٍ من جميع الذين كانوا يمرون أمامنا! وكنا نستغفر الله من هذا التمييز الذي لم تكن لنا فيه يد، ولم يكن لنا فيه حق!!

وكنت أقرأ عند الفقهاء جواز السجود عند كثرة المصلين كيفما تأتّى، ولو أن يسجد بعضهم على ظهر بعض. فكنت أستبعد ذلك حتى رأيته هنا! وكم كان عجبي شديداً حينما سلمنا من الصلاة، ونظرت فرأيت الناس يطوفون بالكعبة، لا أدري أصلوا معنا أم كانوا يطوفون من قبل.

وخرجنا يوم السبت، وكان يوم التروية، إلى منى فمكثنا بها حتى صلينا الصبح من الغد الذي هو يوم عرفة.. وكان نزولنا في البيت الذي اكتريناه بواسطة المطوف، وهو بيت قديم كان ملكاً للأمير منصور آل سعود.

ويتحدث كنون عن قرية منى الناشئة من ناحية العمارة، ويذكر أن فيها بناية للمؤتمر الإسلامي العام، وكانت من أفخم ما يكون، لكن المؤتمر هذه السنة لم ينعقد.

ويصف كذلك مسجد الخيف الذي يقول: إن فقراء الحجاج من كل قطر وجنس يحتلونه ومعهم أثقالهم وأدواتهم، وصار الواغلون عليهم من غير طبقتهم متطفلين عليهم غير مرغوب فيهم.

وبعد حديث عمن لقيهم الأستاذ بمنى من علماء ورفاق يتحدث عن قصده لعرفة، وقد وصف نظام المرور كأحسن ما يكون النظام، وحكى عن شرطي علا أحد المخالفين لنظام السير بالسوط، وأوقفه إلى أن مر سائر الناس!!

كان اليوم بعرفة ظليلاً (٩ يوليو ١٩٥٧م) رحمة من الله بوفوده اللاجئين إليه الطامعين في مغفرته، فلا تسأل عن روحانية ذلك الموقف، والأنس والإشراق والطمأنينة التي غمرت النفوس، وأثلجت الصدور.

ولم يستطع الشيخ كنون أن يحمي نفسه من ذكر بعض الاعتراضات على انتقاد (جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) لأصوات المسمّعين المغاربة داخل الخيام في عرفات.

وينوه زميلنا كنون بما كانت تقوم به مراكز الإرشاد لتيسير الاتصال حتى لا يضيع الحجاج في هذه الكثرة الكاثرة من الذين قد يتعرضون لأخطار ضربة الشمس في هذا الفصل الحار، لاسيما وقد بلغ عدد الحجاج هذا العام ما يزيد على المليون... مما يظن الأستاذ أنه لم يتقدم له نظير منذ فرض الحج في الإسلام.

وقد قضى الوفد ساعة الوقوف قبيل الغروب في التلاوة والذكر والدعاء... وكانت ساعة خالدة ليست من هذا العالم الفاني في شيء، وإنما هي سمو بالروح وبالنفس وبجميع المشاعر إلى الملأ الأعلى، ونسيان للذات وتطهيرها من جميع الرعونات، ومقام الإحسان الأول الذي يمنّ الله به على عباده المتقين.

ودفعنا بعد ذلك إلى المزدلفة في بحارٍ متدفقة من المؤمنين الذين جاؤوا من كل فج عميق يرجون رحمة الله، وبعد أداء وصفٍ لهذه الحشود الخارجة عن الحصر... يعود للحديث عن المقام في المزدلفة بما يصحبه من التقاط الحصيات التي استعملوها في اليوم الموالي قبل أن يتوجهوا إلى مكة لطواف الإفاضة... ويعودوا إلى منى لإتمام الجمرات.

وفي منى، والشيخ يجد نفسه أمام ذلك الازدحام الشديد والحر الشديد، يتساءل كفقيه: هل هناك مانع من فتوى يُرخص فيها للناس أن يختاروا لأنفسهم وقتاً مناسباً لهم لرمي الجمرات غير وقت الزوال الذي تكاد الروح فيه أن تزهق؟!

وهنا يأتي بالحديث الشريف: «فما سئل النبي ﷺ يومئذ عن شيء قُدِّم أو أُخِّر إلا قال: افعل ولا حرج».

ولم يفت الوفد المغربي أن يذهب صباح اليوم الأول من أيام التشريق لتهنئة الملك سعود بعيد الأضحى في قصره بمنى، حيث جلسوا إلى جانب خادم الحرمين الشريفين... وتقدَّم عدد من الخطباء من مختلف الجهات في العالم الإسلامي... وهناك قدَّم الوفد هدية المغرب لجلالة الملك سعود، وكان على الرئيس كنون أن يقصد صحبة سفيرنا الأستاذ محمد غازي لتهنئة وزير المالية الأستاذ محمد سرور الصبان.

وتحكي الرواية أن السفارة المغربية شهدت في هذا المساء حفلة استقبالٍ كبرى تحية لحدث كبير صادفه هذا اليوم بالمغرب، ويتعلق الأمر بتنصيب الأمير المولى الحسن وليَّ عهدٍ للمملكة المغربية، حيث حضر سمو الأمير محمد ابن الملك سعود.

وقد تعجَّل الوفد إلى مكة؛ حيث قام بطواف الوداع، ومن هناك قصدوا فوراً مدينة جدة.

التازي ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م

هذه رحلة أولى من نوعها؛ لأنها تدشن عهداً جديداً في أدب الرحلات، رحلة جعلتنا نتساءل بحق: هل هذا النمط من الأدب (أدب الرحلات) في طريقه إلى الانقراض إن لم يكن انقرض فعلاً؟ رحلة لم يتخذ صاحبها طريقه إلى مكة عن طريق البر، كما فعل سابقوه الأولون، ولا عن طريق البحر، كما شاهدناه عند من التحق بأولئك السابقين، حيث قضى أولئك الشهور وهم يذرعون الأرضين، وخاض هؤلاء لجج البحار بين تفاعلات المفاجآت ومضاعفات الأحداث... إن رحالتنا الجديد وصل مكة عن طريق الأجواء التي ربطت المغرب بالمشرق في بضع ساعات حيث الخدمة الجيّدة متوافرة، وحيث الغذاء الشهي مقدم بانتظام، وحيث الغطاء حاضر، ووسائل التبريد والتدفئة متوافرة!

وهذا موضوع رحلتنا الجديدة التي اختار لها صاحبها عنوان: «التحليق إلى البيت العتيق»[(١)].

لقد وطئنا أرض جدة يوم الجمعة ٢٨ من ذي القعدة ١٣٧٨هـ= ٥/٦/ ١٩٥٩م، وكان يوماً شديد الحرارة بالغ الرطوبة.

«كانت الظاهرة الأولى التي أثارت انتباهي في هذه الحجة الأولى[(٢)]، ونحن ننتظر تحديد الموعد لزيارة سمو ولي العهد الأمير فيصل، أنهم أخبروني بأن ذلك سيتم في الساعة الثانية عشرة... فسألت: هل السيارة مكيفة؟ لماذا ألقيت السؤال؟ لأن الساعة الثانية عشرة عندنا بالمغرب تعني وقت الزوال، أي: أنها تعني عزَّ الحرّ، ونحن نعيش شهر يونيو اليوم... لكن

(١) صدرت هذه الرحلة عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، رقم الإيداع القانوني ٢٢/٤٠٨٥. جريدة الشرق الأوسط/ لندن ٤ أغسطس ٢٠٠٢م. مجلة الفيصل عدد ٣١٨، مجلة الحج والعمرة ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، جريدة العلم المغربية ٢٥ أبريل ٢٠٠٣م، الأسبوع الصحفي ٢ مايو ٢٠٠٣م.

(٢) قام الكاتب برحلتين أخريين لحج بيت الله: الأولى عضواً أيضاً في الوفد المغربي بتعيين من الملك الحسن الثاني في أعقاب سفارته لبلاده في طهران عام ١٣٩٩هـ / أكتوبر ١٩٧٩م، وكانت صحبة زوجتي، والثانية عام ١٤٠٣هـ / سبتمبر ١٩٨٣م بدعوة من صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي عهد المملكة، وكانت صحبة نجلي محمد.

سفيرنا الأستاذ محمد غازي ـ رحمه الله ـ أفهمني أن القصد بالثانية عشرة وقت الغروب بالتوقيت الغروبي العربي الذي كان يستعمل في الحجاز . . . إن التوقيت هنا كان يصطلح على هذا، وليس على التوقيت العالمي الزوالي (جرينتش) كما هو الحال عند سائر الدنيا!

كانت لحظات قمةً في التأثر والانفعال بالمدينة المنورة، وخاصة ليلة زيارة داخل الروضة والوقوف أمام قبر الرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر، بعد أيام مرّت من التنقلات والزيارات لم نعرف فيها قسطاً للراحة في مناخ شديد الحرارة كان يحول دون النوم أو دون الشهية لتناول الطعام كذلك باستثناء البارد! ولم أشعر في اليوم الموالي إلا وأنا أمام انهيار كامل بلغ حد التفكير في إيجاد وسيلة للعودة!! وقد أسعفني رفيقنا في الرحلة الدكتور عبدالكريم الخطيب ببعض الحقن المنعشة ناصحاً لي بالسكون.

وقد تحاملت على نفسي يوم نادى الرحيل إلى مكة المكرمة والقيام بعملية الإحرام؛ حيث قصدنا بئر طوى للغسل . . . ثم أخذ الطريق إلى مكة مباشرة إلى « الرباط المغربي » . . . ثم أسرعنا إلى بيت الله الحرام، ودخلنا من باب السلام . . . ودعونا بالملتزم وركعتين خلف الملتزم . . . وأخذنا المشوار المعتاد إلى المسعى، ولقد سقفت المسافة بين الصفا والمروة في هذا الإصلاح الجديد، ولكن غبار الأرض غير المبلطة يتطاير على الساعين! . . . ولقد أكبرت الأعمال الجارية من أجل توسعة الحرم الشريف . . . إنه المقاول المشهور بن لادن له على الحكومة كذا مليوناً من الريالات.

إن هذه المراوح الكهربائية هنا في المسجد الحرام رحمة للعاملين أجمعين . . . ومع ذلك كنا نسمع باستمرار صفارات سيارات الإسعاف التي تنقل ضحية من ضحايا ضربات الشمس أو إنهاك القوى.

ونحن في هذه الزحمات يوم الجمعة سادس ذي الحجة (١٢ يونيو) إذ بأصوات تتعالى ـ بعد خروجنا من صلاة الجمعة ـ طالبة فتح الطريق للملك سعود الذي كان راجعاً من أداء فريضة الجمعة. ومساء هذه الجمعة كنا معزومين لدى جلالته . . . حيث يلاحظ أن "السموكين" المفروض على الجميع كان هو لباس الإحرام! الذي شبهه رحالون سابقون بالكفن الذي يحمله الحاج!!

وبعد وصف دقيق للقصر الملكي وللعدد الكثير من المدعوين الذين كانت أجهزة التصوير مسلَّطة عليهم وهم يسلمون على جلالة الملك ... بعد ذلك أسوق النص الكامل للخطاب الملكي الذي تلاه الشيخ يوسف ياسين تلميذ الشيخ رشيد رضا ...

لقد ندد الخطاب بالاستعمار ... وحمل على إسرائيل وحلفائها الذين يساندون موقفها ضد الفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق. وبعد الحديث عن موقف الدبلوماسية السعودية من قضايا الساعة، عاد ليتحدث عن الدَّيْن الذي في طوق المسلمين إزاء الجزيرة العربية مهد الإسلام ... ويختتم الخطاب برسم سياسة المملكة بالنسبة إلى المستقبل.

إن حبائل الاستعمار كحبائل الشيطان، وجنود الاستعمار كجنود الشيطان، إذا سدّ عليهم باب سلكوا باباً آخر، فإن أعيتهم قواهم عن الوصول لأغراضهم من هدم الإسلام ومبادئه راحوا يكيدون له بأساليب وطرق تكاد تعجز إبليس وجنوده، فإذا عجزوا عن الفساد أخذوا في الوقيعة بين المسلمين والتفريق بينهم بطرق شتى، فإذا لم ينتبه المسلمون لما يراد بهم ذهبت ريحهم، وضاعوا في هذه الدنيا، وكانوا أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.

وقد ركز الخطاب الملكي في أن المسلمين لا ينسون إخوانهم من أهالي فلسطين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ... إن أرض فلسطين أرضنا وبلادنا ... لقد تكالبت على الفلسطينيين سائر قوى الاستعمار من مشارق الأرض إلى مغاربها ... كانوا يؤيدون العصابات الصهيونية المجرمة الآثمة حتى أخرجوا إخواننا من ديارهم وأموالهم ... ولم تكتفِ قوى الاستعمار بما مكنت لهذه العصابات الصهيونية المجرمة، بل أخذت تتفقدهم بمساندتهم بكل ما تستطيع من مال وسلاح وعدة ... وأدّى ذلك إلى أن أخذوا يناصرونهم في قسم هو من صميم البلاد المقدسة ... ذلك سعيهم لنصرتهم في إيجاد حق لهم في خليج العقبة الذي يعتبر قطعة لا نتجزأ من البلاد المقدسة.

لا نذكر هذه الجرائم التي ارتكبها وترتكبها دول الاستعمار قبولاً بالأمر الواقع ... ولكن لبيان تكالب الاستعمار وعمله لمقاومة الإسلام والعرب، ونحن لا يأس عندنا ولا

قنوط ... إن قوانا لن تَهِنَ، وإن عزائمنا ستظل مشحوذة حتى يتم لنا ما نريد.

وبعد حديث عن واجب المسلمين إزاء الجزيرة العربية كمهبط للوحي يدعو إلى تقوية العلاقات ودعمها بين الدول الإسلامية؛ حفظاً لكيانهم وحماية للمبادئ الإسلامية حتى يعيش المسلمون أحراراً في بلادهم أينما كانوا.

بعد الخطاب الطويل الذي أعقبته قصيدة الشاعر الشيخ أحمد الغزاوي قصد المدعوون قاعة الطعام أو ميدان الطعام على الأصح.

وأذكر جيداً أن القصر - بحكم التكييف - كان يذكر بمناخ المصطافات الجبلية المعروفة ببرودة طقسها، ولذلك فإن المدعوين بوغتوا وهم يقتربون من باب الخروج بالحرارة المرتفعة التي كانت تلفح الوجوه لفحاً، ومع أن الوقت كان صميم الليل كانت الحرارة داخل القصر ١٥، ولكنها خارجه بلغت الخمسين!! وهكذا أصيب رئيس وفدنا المغربي الرئيس السيد البكاي بضربة قمر! ولي بضربة شمس كما هو المعتاد!!

وقد دعينا يوم الزينة ٧ ذي الحجة إلى احتفالات غسل الكعبة صحبة العاهل السعودي، ونصب السلم للصعود بعد أن قام بنو شيبة بفتح الكعبة ... وكانت ساعة خاشعة رهيبة دامعة باكية ... كل يدعو بلسانه، وبما يعرف ... تجولت ببصري في المكان الذي كانت زحمة الوقت من جهة وهيبة المكان من جهة أخرى تمنعاني من التحديق الممعن !! لقد علقتْ بأعلى السقف بعض المعالق كانت أقرب إلى مصابيح منها، وقد فرشت الأرض بالرخام، أما الجدار فنصفه الأسفل رخام، ونصفه الأعلى مكسو بقطع من النسيج الفاخر المطرز ببعض الآيات... وقد صلينا في نفس المكان الذي صلى فيه رسول الله، لا تسألوا عن الشعور الذي كان يخامر الحاضرين وهم يشغلون حيزاً شغله بالأمس نبيهم قبل أربعة عشر قرناً!!

وبعد هذا أتى دور تضميخ الجدران الداخلية للكعبة بالعنبر .... وودعنا المكان بصعوبة كبيرة، فإن الحجاج الذين كانوا على باب السلم ينتظرون تهالكوا علينا ليتبركوا منا، وفيهم مَنْ كان يطمع في قطعة من إحرامنا!!!

وجاء يوم التروية يوم ثامن ذي الحجة فقصدنا منى؛ حيث قضينا ليلة كان لها نكهتها

ولها جوُّها بما تقترن به من زيارة لبعض المعالم والمشاهد.

وقد قصدنا عرفات على ما هو المسنون صبيحة تاسع ذي الحجة (١٥ يونيو)، كل وسائل النقل جُنِّدت لخدمة الحجاج ... لأنهم جميعاً متجهون لحضور عرفة، والحج كله عرفة كما نعلم ... سبعة كيلومترات، ولكنها لا تقطع إلاَّ في بضع ساعات!! وبين هذا وذاك، فإن الأصوات تتعالى بالتضرع والدعاء ... لم أر مثل هذا التجمع أبداً في حياتي!

كان سرادقنا فخماً وهو مكلل بالرايات المغربية ... وقد نصبت في صدره صورة للملك محمد الخامس ... وقد نصبت بين الخيام دور وضوء ضماناً لراحة الناس، ولكن كنا مضطرين لمساعدة الرئيس البكاي الذي كان متعباً جداً.

الحرارة بالغة الغاية ... كنا نتبادل الطاقيات المثلجة لجعلها على رؤوسنا! والمطوف إلى جانبنا يريد أن يعرف نوع مخالفات الحجاج ليتسلم مبالغ الهدي الذي يتولى هو صرفها، فمن مفضِّل للجمال، ومن مقتصر على الخرفان. لبعدنا عن المسجد ... لم نر الخطيب ولم نسمع عن خطبته.. لحظات ضارعة حقاً يقبل الناس فيها على الذكر والتوسل والتأمل والتضرع ... وكلما اقترب وقت الغروب تعالت أصوات الحجاج يتوسلون ... إلى أن تبودلت التهاني عند الغروب ... لقد أصبحنا ننعم بلقب جديد في حياتنا ما كان أعلاه عندنا.

وبعد هذا "نفرنا" إلى المزدلفة عند هذا المشعر الحرام ... التقطنا على ضوء القمر سبعين حصاة استعداداً لرمي الجمرات.

وكانت منى تتجلى عروساً بما تحلت به من لآلئ ... إن الشارع يرقص بالحاجات والحجاج والحاجين ... إعلانات المتاجرين لبضاعتهم تتعالى بها الأصوات إلى جانب صفارات سيارات الإسعاف.

وصبيحة عاشر ذي الحجة أخذ الناس طريقهم إلى رمي الجمرات ... هناك الجمرة الصغرى على شكل دائرة، والوسطى وهي كذلك على شكل دائرة، والجمرة الكبرى على شكل نصف دائرة، ويتوسط هذه الدوائر قائم هو الذي يقصد بالرجم.

وهكذا فعل الحاج أن يرمي الجمرة الكبرى ... ويقصد مكة لطواف الإفاضة على أن

يعود إلى منى لإكمال رمي الجمرات.

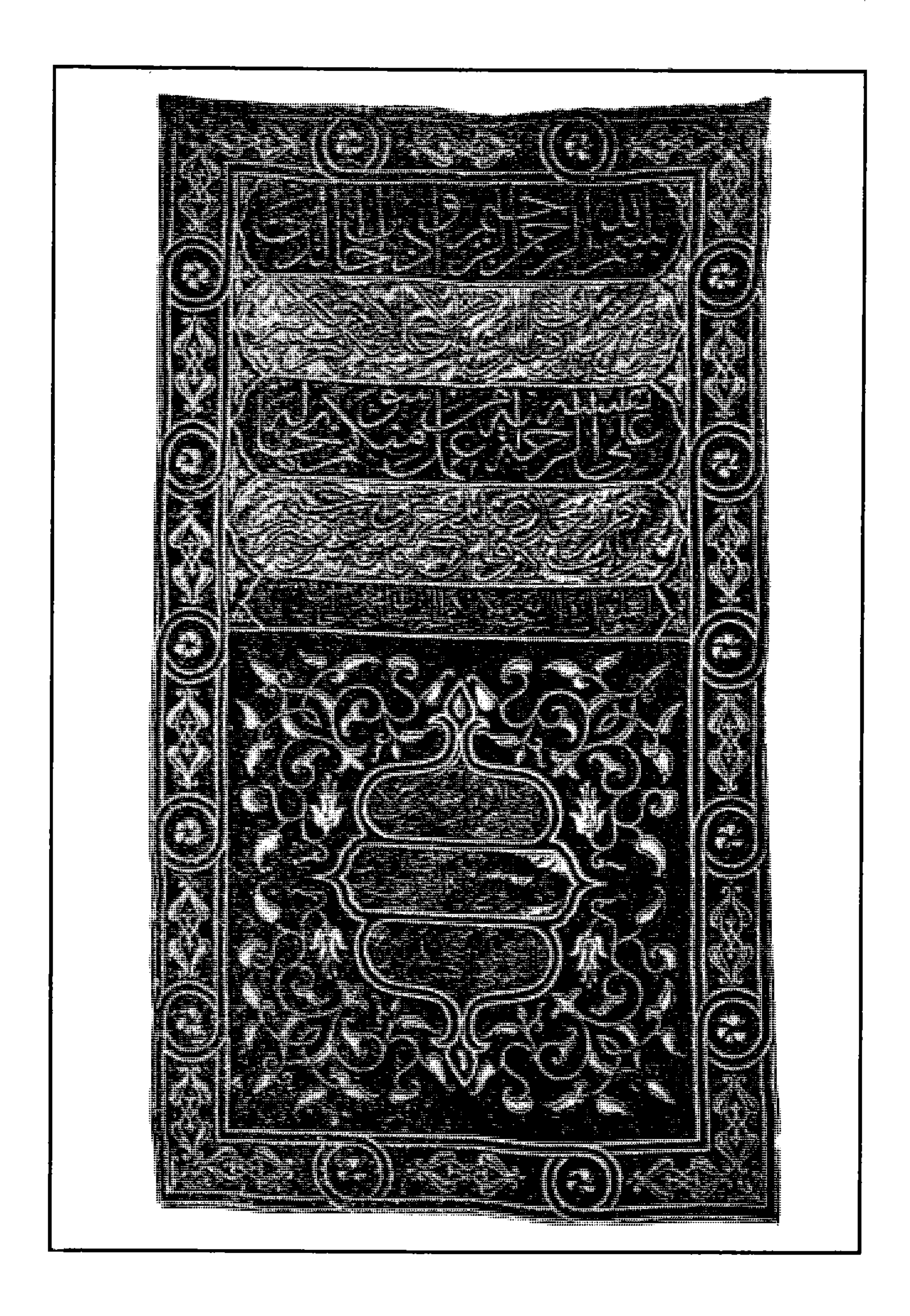
إن معظم شعائر الحج من باب التعبد المطلق الذي لا مجال فيه لاستخدام العقل، وإن أسرار العظمة تكمن أحياناً في أنك تمتثل من غير أن تسأل.

وكان مما سجلته رحلتي - ونحن في منى - تهنئتنا للملك سعود بالعيد السعيد ... جلسنا في خيمة للانتظار مفروشة بالزرابي النفيسة. وهناك استقبل الوفد المغربي من لدن الملك سعود، ثم كان استقبالنا من لدن ولي العهد الأمير فيصل الذي سألته عن عدد الحجاج هذا العام، فذكر أن عددهم من الخارج (٢٧٠) ألفاً، ومن الداخل (٣٠٠) ألف.

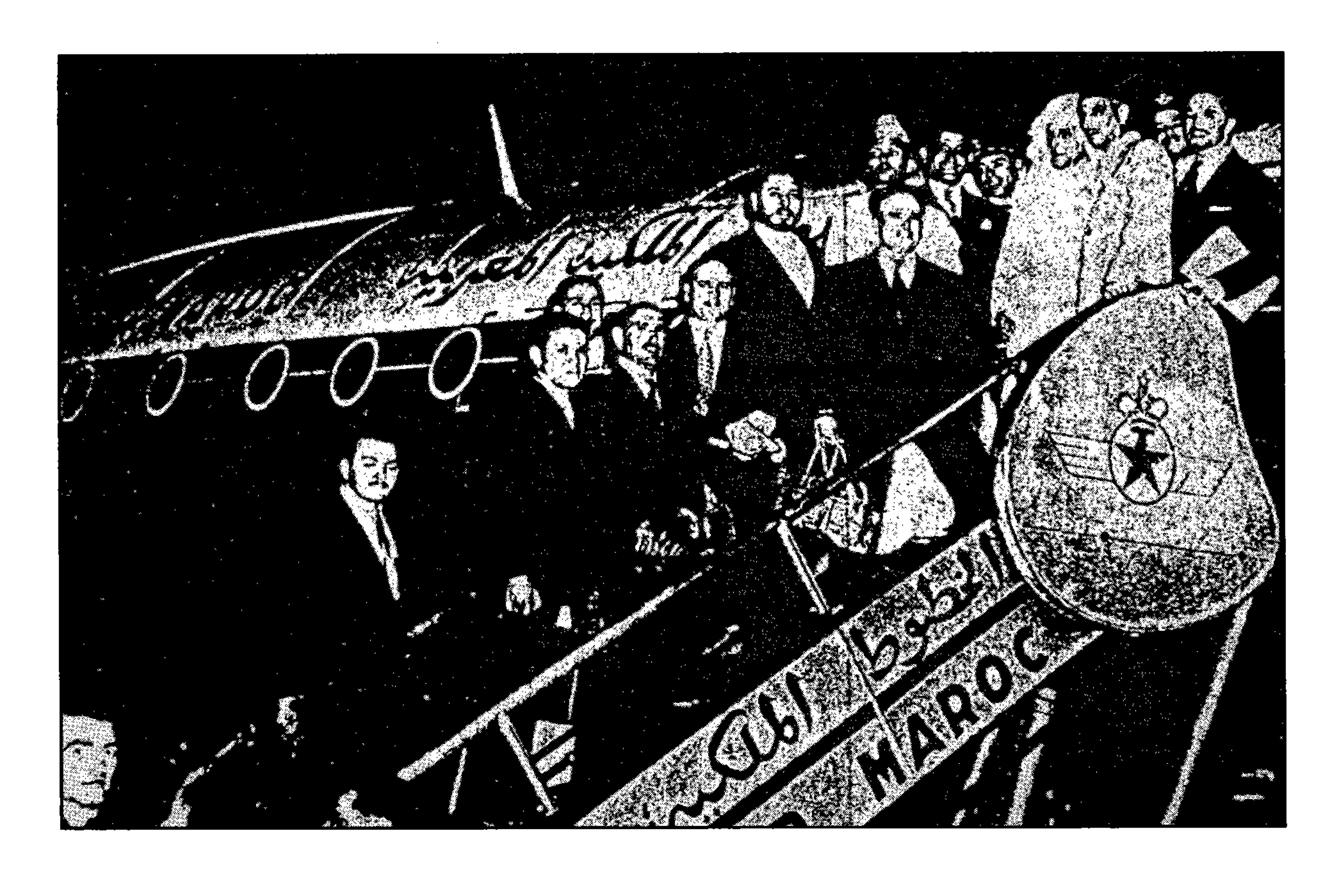
وقد انقلبنا إلى مكة؛ حيث كان لنا من الوقت ما نؤدي فيه عمرة ...فقد جرت عادة الحجاج أن يحرصوا على أداء العمرة لا سيما وهم يوجدون في عين المكان، وهكذا قمت بالعمرة أول مرة انطلاقاً من الجعرانة التي أحرمنا منها على نحو ما فعله الرسول ﷺ. وقصدنا المسجد الحرام حيث طفنا ثم سعينا ... ولقد سجلت بامتعاض زائد مرور سيارات خاصة بالمسعى تقطع على الناس خشوعهم بما تطلقه من (كلاكصونات) مزعجة! لقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه سعى على المطايا، ولكن أي فرق بين المطية والمطية، وبين الرسول ومن أتى بعده بأربعة عشر قرناً؟!

وأخذ الحجاج يتسابقون على مغادرة مكة زرافاتٍ ووحداناً، يتوسلون للالتحاق بأهلهم. لقد صدر بلاغ رسمي يوم ١٤ ذي الحجة يقول: إن الإصابات ناهزت اثني عشر ألفاً.

وفي لقاء جديد مع الملك سعود لتجديد الشكر له على عنايته وتوديعه في ذات الوقت، طلب إلينا أن نرفع للملك محمد الخامس تمنياته، وإخباره بأن الحكومة السعودية عبّدت الطريق إلى "ينبع"؛ حتى يتمكن عند تشريفه للسعودية من زيارة قبر أجداده هناك.



إحدى ستائر الكعبة المشرفة



الطائرة التي أقلت التازي إلى الأراضي المقدسة

محمد الخامس في عمرته الرجبية ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م

عندما تحدثنا عن رحلات الحج كنا نقصد أيضاً الحجاج الذين كانوا يقومون في الوقت ذاته بأداء مناسك العمرة مغتنمين فرصة وجودهم في الموسم للاستفادة من العمرة.

وقد كان من النادر أن تُشد الرحال إلى العمرة خاصة، ولا سيما من بلادٍ نائيةٍ كبلاد المغرب الأقصى... لقد سجلنا بعض رحلات للعمرة قام بها بعض الرجالات، ولكنها تظل محدودة العدد.

ولكن تطور وسائل المواصلات، خصوصاً عندما ظهرت الطائرات، شجَّع كبار القوم على أن يقصدوا تلك الديار لأداء العمرة مختارين بأنفسهم الوقت المناسب لهم من حيث الفراغ والمناخ.

وهكذا شاهدنا الملك محمد بن يوسف بن الحسن (محمد الخامس) يقرر بعد عودته من المنفى، واسترجاع الاستقلال، القيام بنسك العمرة، والقرب من مثوى أجداده في (ينبع) التي سبق أن قدمنا أن الملك سعود طلب إلينا، بمناسبة حجتنا في الموسم الماضي، أن نجدِّد للملك محمد الخامس دعوته لزيارة الحرمين، وإخباره كذلك بأن الطريق إلى ينبع قد عُبِّدت، والماء وصل إليها.

وقد تحدَّثتْ عن هذه الرحلة جميع أجهزة الإعلام في المشرق والمغرب، وإلى جانب ذلك فقد تطوع بعض الكتَّاب بتسجيل خطواتها ورصد دقائقها، إلا أننا لم نكن في حاجةٍ إلى كل ذلك الذي قيل وكتب؛ لأن الملك محمد الخامس قام بنفسه بتسجيل ذلك عن طريق الرسائل المكتوبة التي كان يبعث بها إلى نائبه وولي عهده آنذاك الأمير الحسن، وعن طريق هذا كانت تصل إلى سائر أفراد الشعب.

ومن هنا تمكَّنَّا من الوقوف على نمط جديد غير مسبوق لأدب الرحلات، لم يكن معروفاً من ذي قبل، حيث استمعنا بواسطة المذياع إلى الأخبار التي تزف للناس عزم جلالة الملك على الرحلة إلى الديار المشرقية ... « ... وسيتاح لنا أن نؤدي سُنَّة العمرة

والتبرك بزيارة البيت الحرام والروضة الطاهرة بيثرب الطيبة ... ونعرج على البقعة التي هاجرت منها أسرتنا إلى الوطن منذ سبعة قرون، والبقاع الأخرى التي كانت مستقراً للقبائل والعشائر التي انطلقت منذ القرن الأول للهجرة إلى الديار المغربية حاملة مشعل الحق والثقافة، فغمرت سهول المغرب وجباله، وامتزجت بسكانه امتزاجاً وثيقاً صار وإياهم شيئاً واحداً ... وستكتسي هذه الرحلة فوق ذلك حلة خاصة؛ إذ لأول مرة في تاريخنا يقوم ملك مغربي يمارس سلطته برحلة من المغرب إلى المشرق؛ ليظهر المغرب على حقيقته الإسلامية العربية التي لا لبس فيها ولا غموض...».

وفي رسالة العاهل إلى نائبه وولي عهده من المدينة المنورة بتاريخ الاثنين ٢٠ رجب سنة ١٣٧٩هـ / ٢٥يناير ١٩٦٠م، أخبره بأنه وصل إلى مدينة الرياض صحبة نجله المولى عبدالله؛ حيث وجد في استقباله الملك سعود بن عبد العزيز صحبة سائر الأمراء ، وأنه لم يلبث أن أُخبر بوصول الأميرات وباقي الأسرة التي نذرنا لله، ونحن في المنفى، أن نذهب بها إلى أقدس البقاع التي تتوق إليها نفوس المسلمين... جزاءً لها على مقاسمتها إيانا المتاعب والمشاق التي تحملناها في سبيل شعبنا ووطننا[١] ... وقد يسَّر الله لك قبلها أسباب الوصول إلى الحرمين الشريفين، وها هي ذي تؤدي بعدك سنة العمرة وتزور قبر الرسول مقدمة لأداء فريضة الحج.

وصباح يوم الخميس (٢١ يناير) توجهنا إلى جدة جواً، ومنها إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة، فلا تسأل عما جرى وكيف جرى عندما لاحتْ لنا أعلام ذلك البيت العظيم، وأشرقتْ علينا طلعة محيَّاه الوسيم، فطفنا به خاشعين، وصلينا بمقام إبراهيم خاضعين، وسعينا بين الصفا والمروة متوسلين متضرعين، في حالةٍ من العبودية للعلي العظيم، يستوي في ذلك الملك والمملوك والآمر والمأمور. وخلال أدائنا للمناسك فتحت أبواب الكعبة المشرفة في وجهنا، ودخلنا إلى جوفها، وسألنا الله كل خير لك ولإخوتك ولأسرتنا وشعبنا وسائر العرب والمسلمين، وقد واظبنا على أداء الصلوات بمقام أبينا إبراهيم.

---

(١) د. التازي: عظمة الميثاق، محاضرة أمام الملك الحسن الثاني ١٤ رمضان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م. المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، نشر الفنك ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ص ١٨٣.

وبعد الفراغ من صلاة صبح الجمعة قصدنا عرفات مارِّين بمنى والمزدلفة، وبعد صلاة الجمعة وطواف الوداع غادرنا مكة مودَّعين بمثل ما قوبلنا به من الحفاوة من طرف أميرها الأمير متعب بن عبدالعزيز وسُكَّانها وأولي أمرها.

وبعد أداء وصفٍ خاشع واسع لزيارة المدينة التي قصدها العاهل جواً، يخبر نائبه أنه زار الروضة الطاهرة، وأنه كان يقضي معظم وقته بين منبر النبي وبيته الذي هو روضة من رياض الجنة .

وقبل أن يُنهي هذه الرسالة التي كانت بمنزلة مذكرات، يخبر ولي العهد بأنه كان يعتزم السفر إلى (ينبع) مستقر الأسلاف، لكنه لم يستطع، « ولهذا فقد توجه نيابة عنا الأمير المولى عبدالله ليصل بها، مع أبناء عمنا، الرحم، ويبلغهم سلامنا واعتذارنا » .

وهكذا لم يكتب القدر زيارة (الينبع) إلا لحفيده الأمير سيدي محمد الذي أصبح الملك محمد السادس، وذلك عندما قام بزيارة رسمية للملكة أول رجب سنة ١٤٠٦هـ/ ١٢ مارس ١٩٨٦م[١].

(١) انبعاث أمة، جزء ٣١، ١٩٨٦م، ص ١٠٨-١١٥ . مجلة المجلة، العدد ١٠١٩/ ٢٢- ٢٨ أغسطس ١٩٩٩م، ص ١٤-١٥.

تذييل حول عمرة رمضان عام ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

ونحن نتحدث عن العمرة الرجبية التي قام بها كلّ من الجد والحفيد أذكر أن الله ادَّخر لي فرصة للقيام بعمرةٍ في رمضان بعد أن أديت عمرات أخرى(١).

لقد قمت بهذه العمرة في شهر رمضان ١٤٢٠هـ (ديسمبر ٢٠٠٠م) بدعوة من صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن فهد بن عبد العزيز.

لقد اقتصرتْ إفاداتي خلال كل تلك الحجات والعمرات على الإشارة في مذكراتي التي تلازمني عادةً إلى أهم مَنْ تعرفتُ إليهم، وأبرز ما استفدته ... لكني في عمرة رمضان الأخيرة تناولت قلمي لأسجل قيامنا ـ وكنت ضمن جماعة من الأساتذة الجامعيين المغاربة ـ قمنا بإشراف "مطوفنا" الشيخ عبدالعزيز بن عثمان التويجري الذي كان حريصاً على أن ينطلق بنا من نفس منطلق أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها؛ حيث أحرمنا من (التنعيم) وليس من (الجعرانة) كما كان الأمر بالنسبة إلى عمرتي الأولى عام ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.

وهكذا قمنا صباح يوم السبت ٢٠ رمضان ١٤٢١هـ حسب التقويم السعودي (١٦/١٢/ ٢٠٠٠م) بالتوجه نحو مسجد السيدة عائشة؛ حيث أدينا ركعتين اثنتين ... وقمنا بتلاوة ما تيسر من كتاب الله من سورة سبأ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ

---

(١) لقد سنحت الفرصة بأداء عدد من العمرات... في أثناء وجودنا بالمملكة في مهمات رسمية: في ربيع الآخر ١٣٩٦هـ / أبريل ١٩٧٧م عندما حضرنا الندوة العلمية الدولية حول مصادر تاريخ الجزيرة العربية، وفي صفر ١٣٩٨هـ / يناير ١٩٧٩م في المؤتمر الدولي حول جغرافية الجزيرة العربية، وفي رجب ١٤٠١هـ/ مايو ١٩٨١م على رأس اللجنة المغربية لإنقاذ فاس، وفي ربيع الأول ١٤٠٦هـ / ديسمبر ١٩٨٥م عندما حضرت الرياض ضمن المحكمين في جائزة الملك فيصل العالمية، وفي رجب ١٤٠٩هـ / مارس ١٩٨٨م عندما حضرت المهرجان الرابع للجنادرية، وفي شوال ١٤١٩هـ / يناير ١٩٩٩م عندما حضرت الندوة الدولية لعمارة المساجد، وفي ذي القعدة ١٤٢٠هـ / فبراير ٢٠٠٠م عندما حضرت أيضاً تحكيم جائزة الملك فيصل؛ حيث زرت (ينبع)، وفي رجب ١٤٢١هـ / أكتوبر ٢٠٠٠م عندما حضرت الندوة الرابعة حول الرحلات إلى الجزيرة.

﴿في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

ومن هنا توجهنا محرمين إلى مكة المكرمة؛ حيث قصدنا المسجد الحرام بعد أن تخففنا من أغراضنا في "الضيافة الملكية"، ودخلنا المسجد من باب السلام على ما هي السُّنَّة. طفنا سبعة أشواط كاملة في خضم من المعتمرين الذين بكَّ[1] أحدهم قدمي اليمنى فظللت أحجُل بضعة أيام !! وكان عليَّ أن ألتمس لنفسي علاجاً مؤقتاً قبل أن آخذ في السعي بين الصفا والمروة، وقبل أن يفك إحرامي حاج من نيجيريا كان يتطوع لمساعدة المعتمرين.

ومع اقتراب ساعة الإفطار، كما نشاهد، كان المتطوعة يغدقون بسخاء على الصائمين المارين والعابرين بأكياس من أنواع التمور استعداداً لوقت الغروب ... ثم التقينا ـ أو بعضنا ـ على مائدة الرحمن بداخل الحرم الشريف، حيث تجمع آلاف البشر من البقاع ومن مختلف الألوان والألسن، هنا أيضاً عدد من الضعفة والمعوقين ممن يحتاجون إلى إفساح الطريق، وهنا الشيوخ والأطفال والنساء ... المسجد يموج بقاصديه، والصحن بدوره دوامة تدور بالطائفات والطائفين.

جمعتنا مائدة الرحمن، على غير موعد، مع مَنْ لا يُحصى من مختلف التوجهات والاتجاهات، وجدت نفسي ذات يوم بداخل الحرم بجانب الأستاذ دهيش (ابن مؤرخ مكة عبدالملك)، وأخرى إلى جانب التاجر البار خوجة الذي يغدق على الحرم بالعود القماري، وفي يوم ثالث جلست إلى جانب الشريف المنجرة من البيضاء وقد التزم نسخ المصحف أمام الكعبة. وفي مرة أخرى كنت إلى جانب سيد فاضل من وجدة، وأخرى إلى جانب الأستاذ خالد السليمان مدير ثانوية السعودية بالرباط وكأنني كنت على موعد معه في صلاة الصبح، وأخرى مع الحاجة فاطمة كريمة الحاج البشير الشرايبي (مراكش)، ومرة إلى جانب عز الدين جسوس (فاس).

وكان صوت الدكتور الشيخ السديس وزميله يقرع الآذان بما يتلوه من الآيات البينات في كل وقت من أوقات الصلاة، وكم كنت أجلس إليه أو ألقاه في دار الضيافة، فيتحول

---

(١) مما ورد في اسم بكة ـ وهو من أسماء مكة ـ أنه آتٍ من هذا المعنى، بكَّه: تعني زاحمه وصدمه.

الحديث إلى موضوع ثانٍ يصبح السديس فيه فارس الميدان.

وكنا بين الفينة والأخرى نقوم للصلاة على الجنازة، وما أكثر الجنائز هنا، جنازة رجل أو امرأة أو طفل أو هم جميعاً يرحمهم الله. فتدربنا على التكبيرات الخمس، وعرفنا ما يقال في أثنائها مما يقصر أو يطول!! وكم من مرة نلتقي فيها على متن المصعد بقوم لم يكن يدور بخلدك أنهم معك في فندق الشهداء أو على باب من أبواب المسجد الحرام أو على صف من صفوف صلاة القيام، وما أدراك ما صلاة القيام!

وكان مما حفظته ذاكرتي من العناصر الساخنة التي تناولها خطيب الجمعة ٢٦ رمضان / ٢٢ ديسمبر موضوع حول "الأيام الملتهبة" التي يعيشها المسلمون اليوم مع مظالم فلسطين والقدس والأقصى، لقد توالت طعنات النبال، وتكسرت النصال على النصال.

كان الخطاب العظيم مراجعة صريحة وجارحة كذلك للانحرافات والانزلاقات التي أدت إلى زعزعة دار الإسلام ... ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...**﴾ على هذه الآية التي ترسم الطريق ركز الخطيب، وهو لم يَنْسَ جانب التعامل كذلك مع الأطراف الأخرى ... ﴿**وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ...**﴾: الاثنين معاً ... الحفاظ على الهوية ... وعدم إلحاق الأذى بالذين يريدون الحفاظ على ما عندهم.

وكان مما سجلته ذاكرتي الدعوة الكريمة التي تلقيتها لأداء التراويح في بيت الشيخ صالح كامل، وكان البيت يشرف على المسجد الحرام، وهذه مزية لبعض البيوت المحظوظة.

كان يحضر معنا في هذه الأمسية الضارعة صديقنا السفير الدكتور عبدالعزيز خوجة، وأخونا الوزير الدكتور محمد عبده يماني، إلى جانب ثلة من الرفاق والزملاء من الأساتذة الجامعيين الذين تحولوا من نقّاد إلى عبّاد، ومن متخصصين في العلاقات بين العباد إلى الاهتمام بالمعاد!! وكنا لا نجد حرجاً في أداء التراويح جالسين أو على كراسينا ... وأذكر أننا بعد التراويح أخذنا في الحديث عن بعض الموضوعات، وكان مما سمعته من الشيخ

صالح كامل أن على المؤرخين أن يبحثوا في التراث العربي والإسلامي بصفة خاصة عن اهتمام الأقدمين في آدابهم وممارساتهم بالجانب الإعلامي والجانب الاقتصادي ... ماذا عند الفقهاء من نصوص تيسر التعامل مع مستجدات العصر ... ليس من المعقول أن نقتصر على الإشادة بما وصل إلى الغرب من طب العرب مثلاً، ولكن علينا أن نبرز الجوانب الحضارية الأخرى ... من قوانين وتشريعات ذات صبغة دولية ... ولنا في هذا الباب منجم غني ثري لا يزال بحاجة إلى حفريات.

لقد اكتشفت في هذه الأيام الرمضانية هنا ما لم أعرفه عن هذا الفضاء على الرغم من حجاتي وعمراتي السابقة، عندما تحول المسجد الحرام إلى شكل آخر بما أحدث فيه من طبقات، وما نصبت فيه من سلالم متحركة تسهل عليك الحركة أنى كان اتجاهك، وما أثث به مختلف الأروقة من مكيفات بلغت الغاية في الإتقان، بل وما تخلل رخام المسجد من تركيبات غيرت ذاك الرخام إلى قطع باردة في عز الصيف ... كنت أتخيل لو أن ابن بطوطة عادت له الحياة لنعرف رأيه حول الصحن بالأمس البعيد عندما كان يعجز رحالتنا عن المرور به دون أن يستعمل سجادته ليمر عليها للعبور إلى الجهة المقابلة. كنت أتصوره لو بعث من مرقده ليرى أن الثلاجات تنبث في كل منعرج ... وإلى جانبها كؤوس يركب بعضها بعضاً ليستعملها المعتمرون متى شاؤوا عند الحاجة! كنت أتمنى لو بعث الرحالون السابقون من مراقدهم ليقرؤوا في صحيفة «الاقتصادية» التي قرأناها صباح هذه الجمعة يوم ٢٦ رمضان ١٤٢١هـ / ٢٢/١٢/٢٠٠٠م (وهي صحيفة العرب الاقتصادية الدولية) أنها تتوقع إزالة ٣ آلاف عقار بجوار الحرم، وأن هيئة عليا أُنشئت لتطوير مكة.

إن الإنتاج الثقافي الزاخر أصبح يغمر مكة اليوم بعد أن كان بالأمس يقتصر على مراجع من أمثال الأزرقي والفاسي ... ومكة الآن أصبحت تنوء بما تحتضنه من مؤسسات جامعية ومكتبات متعددة الاختصاص، تغرقك بفهارس محتوياتها وبتعدد فقراتها ... فاجأني الأستاذ ابن ملوح بآخر إصدارات داره في جدة، وكانت من أروع الإصدارات شكلاً ومضموناً، وعرفني إلى شخصيات علمية تتمتع بمصداقية وعمق

علمي واسع، عرفني إليهم في بيت يؤجره بمكة... ذكرت مجالس الرحالين السابقين عندما كانوا يحرصون على أخذ إجازاتهم من مشايخ مكة والبحث عن رجالات مكة.

وما لي أقتصر الحديث عن شيوخ مكة دون شيخاتها ... نعم شيخاتها! فقد تفضلت الدكتورة عواطف سلامة، وهي أستاذة سعودية بكلية الآداب، فأهدت لي في جملة ما أهدت من تآليفها كتاباً حول مكة في التاريخ ... إنها واحدة من عشرات السيدات الفضليات اللاتي استمعت إلى أحاديثهن، وقدرت عمقهن وصدقهن في الحديث على نحو ما عرضناه منذ البداية عن كريمة المروزية.

وقد زرت بعد التراويح مكتبة عتيقة تقع خلف الحرم المكي، كنت أبحث عن آثار المصحف التاريخي الذي كتبه بذات يمينه العاهل المغربي السلطان أبو الحسن المريني، وأهداه إلى طلبة مكة ... بعد أن كنت سألت عنه الزملاء المتخصصين ... فوجدت في تلك المكتبة عدداً من المخطوطات، وخاصة منها التي أهديت لمكة من ذوي الأريحية والنبل إلا المصحف المغربي. وسرني أن أجد في هذه المكتبة من يستشير هذا المخطوط أو ذاك، وسرني أكثر استعانة القيمين على المكتبة بالحاسوب والإنترنت عوض ما كنت أعرفه سابقاً من جذاذات وفيشات... أريد تأكيد ما أشرت إليه من أن فضاء مكة اليوم، كما وقفت عليه في هذه العمرة، هو بالتأكيد غير الفضاء الذي عرفت مكة فيه قبل أربعة عقود!! لقد ظلت التوسعة سائرة في طريقها باستمرار منذ حديثي عن طلائعها في "حجتي الأولى"، وهكذا بلغت مساحة المسجد اليوم ٣٥٦٠٠٠ متر مربع تستوعب مليون مصلٍّ على نحو ما تم بالنسبة إلى المدينة... التي أصبح مسجدها يستوعب أكثر من ٧٠٠ ألف مصلٍّ ... ليواكب الزيادة المطردة في أعداد المعتمرين والحجاج.

وإلى جانب هذا شقت الطرق السريعة، وحفرت الأنفاق، وأقيمت المنشآت الخدمية، كما تطورت المرافق والخدمات بالمشاعر المقدسة لخدمة المعتمرين والحجاج، وطورت وسائل النقل والاتصال، فاختفت الجمال والشقادف والهوادج. أكثر من هذا، أعدت للمعوقين والعاجزين وسائل مريحة حتى لا يحرموا من هذه المشاهد.

وقد زودت الطرق جميعها، وهذا مهم، بالسقايات والحمامات؛ لتوفير الراحة

والظروف الصحية المناسبة وتقديم الرعاية الشاملة للمعتمرين والحجاج... وقد وضحت للناس مواقيت الإحرام بالرسم والنعت، وعلمت حدود منطقة الحرم المكي والجمرات بالحرف العربي وغيره؛ تسهيلاً على الواردين والواردات من شتى الجهات.

واستحدثت مئذنتان بارتفاع ٨٩ متراً، وبذلك أصبح عدد المآذن تسعاً، هذا إلى جانب السلالم المتحركة التي استحدثت... وكان أحدهما شمال مبنى التوسعة، والآخر جنوبه، ويحتوي كل مبنى على مجموعتين من السلالم بطاقة ١٥٠٠٠ شخص في الساعة.

وهناك ستة سلالم أخرى ليصبح العدد تسعة عشر سلماً ... كل هذا يذكر إلى جانب تكييف المنطقة بالهواء البارد بطاقة ٤٠٠٠٠ طن، وقد استحدث ١٨ مدخلاً ليصبح العدد ٤٥ مدخلاً.

أما المداخل الرئيسة، فقد استحدث مدخل رئيس ليصبح العدد أربعة مداخل رئيسة، وقد استحدث ١٤ باباً بعد التوسعة ليصبح عدد الأبواب ٤١ باباً، والمهم أكثر إلى جانب هذا استحداث أربعة آلاف حمَّام ليصبح مجملها سبعة آلاف حمام وميضأة، ولا تخفى أهمية التفكير في هذا الجانب.

فإذا أضفنا إلى كل هذا توافر الماء في كل خطوة وفي كل منعرج داخل الحرم وخارجه في منى وفي عرفات عرفنا إذن الوجه الحقيقي للموقع في الحالة الراهنة.

في هذه الظروف أمكن لي أن أقوم بمناسك العمرة، وتمكنت من القيام بالمقارنات والمفارقات بين عمرة رمضان هذه والعمرات السابقة التي قمت بها قبل عقود خلت[١]، وأن ما قام به الأوائل في عصور متباعدة من توسعة للحرم قام بأمثال أمثاله وأضعاف أضعافه هؤلاء القادة الذين يقومون اليوم على خدمة الحرمين الشريفين.

وقد سمعت وأنا أودع البيت العتيق أن المعتمرين بلغوا هذا الموسم مليونين وأن العزم انعقد على توسعة جديدة وشيكة من شأنها أن تفسح المجال أكثر أمام الحجاج والحاجات

---

(١) د. التازي: عائد من أول بيت وضع للناس. جريدة العلم المغربية، السنة ٥٥، العدد ١٨٤٩٨، الأحد ١٢ شوال ١٤٢١هـ / ٧ يناير ٢٠٠١م. التحليق إلى البيت العتيق، نشر دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٢، رقم الإيداع ٤٠٨٥ / ٢٢. جريدة الشرق الأوسط، ٤ أغسطس ٢٠٠٢م. جريدة العلم المغربية، ٢٥ إبريل ٢٠٠٣م. مجلة الفيصل السعودية، العدد ٣١٨. مجلة الحج والعمرة، ربيع الآخر ١٤٢٤هـ.

والمعتمرين والمعتمرات، وفي ذلك "آيات بينات" .

وأذكر أني، وقد أديت الفريضة منذ زمن، أصبحت أشعر بأن العمرة أخف وسيلة للتذكر والتأمل، وقد أتيح لي أن أقوم بالعمرة في كل فصل من الفصول، لكنني لم أجد راحة للنفس واطمئناناً للقلب أجمل ولا أروع ولا أنفع وأخشع من شهر الصوم رمضان، الذي يمكن فيه للإنسان أن يجمع بين سائر أنواع القربات ومختلف ضروب الطاعات، فأنت معتمر طائف ساع صائم مصلٍّ قائم متهجِّد في الوقت الواحد.

ولقد راعني هذه المرة ما رأيته رؤية عين وأنا أمام هذا البيت العتيق، رأيت اجتماع كل هذه المخلوقات بألوانها وأجناسها، كبيرها وصغيرها غنيها وفقيرها... اجتماع كل هؤلاء الأقوام عند أذان المغرب على سفرة واحدة لا يتميز فيها الضيف من المضيف، الكل ضيف والكل مضيف، الكل ينتظر في سكينة وابتهال أمام هذا البيت العتيق، ينتظر أذان المغرب حيث تتجلى فضيلة التراحم والتواصل والتآخي بين المؤمنين على اختلاف طبقاتهم ... وكل يتقبل ما يهديه إليه جاره الذي قد يكون من قارة غير قارته، يتكلم بلغة غير لغته، لغة القلوب هي السائدة هنا، لغة الإيمان هي المتحكمة في هذه المجالات .. ويقوم الجميع لأداء فريضة صلاة المغرب ... فصلاة العشاء والتراويح وصلاة القيام، وما أدراك ما صلاة القيام!

لقد تملكني شعور بالاغتباط كبير وأنا أسمع هنا عن ضرب المواعيد بين الناس على طريق آخر غير الطريق الذي اعتدتُ أن أسمعه ... لقد ضرب لي صديق موعداً بعد التراويح، وضرب لي آخر موعده بعد صلاة القيام.

إنه عالم آخر، عالم زاخر بالفضيلة، زاخر بالعطاءات من كل نوع، فإذا كنت ترغب في راحة غير ممنوعة، وفي عبادة غير مقطوعة، فعليك إذن أن تقصد إلى أول بيت وضع للناس ... إلي بيت استمتع بالنظر إليه الآلاف من الأنبياء والمرسلين والمسلمين والمؤمنين منذ أن أذّن إبراهيم في الناس بالحج فأتوا من كل فج عميق رجالاً وعلى كل ضامر ليذكروا اسم الله بالبيت العتيق.

عن الركب الصالحي بآسفي

تلقانا ونحن نتحدث عن الركب الرسمي الذي سنَّه بنو مرين منذ ظهور دولتهم أواخر القرن السابع الهجري شخصية كبيرة تنتمي لمدينة آسفي. تلك الشخصية تتمثل في الرجل الفذ الإمام الشهير أبي محمد صالح الماجري المتوفى سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م. فقد كان من أهم أركان طريقته الدعوة لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي ﷺ، وجعل من أصحابه وأبنائه دعاة اقتنعوا بفكرته فاستمروا على منواله وانتهاج نهجه، وكان من نتائج تلك الدعوة أن استطاع أن يؤسس ولأول مرة الركب المغربي الذي كان يدعى (الركب الصالحي) نسبة لمؤسسه.

وقد أولى أبو محمد صالح هذا الركب الشيء الكثير من عنايته، فأسس الأربطة العديدة لينزلها الحاج المغربي في ذهابه وإيابه من آسفي إلى مكة المكرمة، وبث أصحابه في هذه المراكز بما فيها الإسكندرية وبلاد الشام؛ حيث كانت تلك المراكز تقدم للواردين من المغرب يد المعونة، وتبذل لهم كل المساعدات حتى يؤدوا مناسكهم.

وللمحافظة على تلك الأربطة استقر غير واحد من أولاد أبي محمد صالح وأحفاده بالشرق كقيّمين على تلك الأربطة... ومن هؤلاء ابن أبي محمد صالح السيد عبدالعزيز الذي كان بمصر قبل أن يتوفاه الله ويخلفه حفيده السيد إبراهيم بن أحمد ابن أبي محمد صالح، ثم كان ولد الأخير أبو العباس السيد أحمد بن إبراهيم مؤلف كتاب «المنهاج الواضح في كرامات الشيخ أبي محمد صالح»(١).

وقد وقفنا أثناء ذكرنا لأسماء الشخصيات التي كانت تُرشح لمرافقة الركب الرسمي على عدد من حفدة الشيخ أو أسباطه ممن كانت الدولة ترى ضرورة بعثهم لتلك الديار. ونذكر من هؤلاء الشيخ المزوار عبد الواحد (المدحو عبو) ابن قاسم بن عبد الله ابن الشيخ أبي محمد صالح الذي حمل هدية السلطان أبي الحسن المريني إلى السلطان الناصر قلاوون صاحب مصر والشام، وضمنها المصحف الشريف الذي كتبه أبو الحسن بخط يده.

---

(١) المنوني: ركب الحاج المغربي، مطبوعات معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٣م.

كما نذكر منهم أبا العباس أحمد بن يوسف حفيد الشيخ الذي لقيه لسان الدين ابن الخطيب (نفاضة الجراب) بآسفي عام ٧٦٣هـ ونعته بصردوك المدينة . . . وكان هذا - أي أبو العباس - يتولى إمارة ركب الحاج إلى بيت الله الحرام أيام أبي الحسن وابنه السلطان أبي عنان كذلك[١].

(١) المجلس البلدي لمدينة آسفي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أبو محمد صالح : المناقب والتاريخ، النشر العربي الإفريقي، رقم الإيداع القانوني ٧١٧-١٩٩٠، ص ٨٦.

- محمد السعيدي الرجراجي : الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني، منشورات جمعية آسفي للبحث والتوثيق والنشر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- ارمان انطونا : جهة عبدة، ترجمة : علال ركوك ومحمد بن الشيخ، نشر : جمعية البحث والتوثيق، ٢٠٠٣م.

- محمد بن أحمد العبدي الكانوني، جواهر الكمال في تراجم الرجال، تحقيق : علال ركوك والرحالة الرضواني ومحمد الظريف، رقم الإيداع القانوني ١١٥٧-٢٠٠٤، نشر جمعية حوض آسفي.

- محمد بالوز : صفحات من تاريخ آسفي، جميعة آسفي للبحث والتوثيق والنشر، ٢٠٠٤م.

- كتاب أحمد الصبيحي حول آسفي، تحقيق : عبدالرحيم المناوي، رقم الإيداع القانوني ٤٣٢-٢٠٠٤.

الخاتمـة

كان استمتاعي بالغاً باستعراض هذه الرحلات التي وجدت فيها تنوع الفائدة على نحو ما وجدت فيها مصدراً حياً لتاريخ جهةٍ ربطتنا بها منذ عدة قرون تشريعات أصبحت من ثوابتنا كأمة إسلامية عندما فرض القرآن على أهله في السنة السابعة للهجرة أن يقوموا بالرحلة إلى مكة ليؤدوا بها شعائر لها ترتيب خاص مكاناً وزماناً.

وجدتُ في هذه الرحلات مصدراً ثرياً لنوازل الحج في الفقه الإسلامي، فكل حاج تَعرض له قضايا يلتجئ في فهمها وحلها إلى الفقهاء والعلماء، ومن هنا وجدنا أن بعض الرحلات تزخر بالفتاوى حول ما يمكن أن يحصل في أثناء هذا التحرك الكبير، في مناطق معينةٍ وأوقات مضبوطة. وقد زاد من قيمة هذه الفتاوى أنها لا تنتمي إلى رأي معين، ولكنها تعتمد على عدة آراء، وكل رأي له مدركه ومستنده في القضية ... ومن هنا كانت الرحلات الحجازية موسوعةً فقهيةً جديرة بالاطلاع ... فقد نقف مع هذا الرأي أو ذاك لنصل في النهاية إلى أحكام متقاربة، وكان في كل ذلك عمل يشحذ الفكر ويثري الذاكرة.

ويبدو من خلال النوازل وآراء الفقهاء حولها أنها ـ أي الآراء ـ كانت تخضع لظروف النازلة وما يحتفُّ بها من حالاتٍ أمنية أو صحية تفرض الفتوى بما تقتضيه مصلحة الإنسان وبما تقتضيه القاعدة الفقهية العامة التي تقول: «المشقة تجلب التيسير».

وقد أصبح الناس يشعرون بل ويقتنعون بضرورة تحرك آليات الاجتهاد في الحج باستمرار رفقاً بالناس أن تنالهم المشقة، وينهكهم الجهد، خصوصاً مع كثرة الواردين والواردات، ولا سيما أيضاً والظرف المكاني يحول أحياناً دون استكمال الشروط واستيعاب المطلوب، والقيام بكل الواجبات والمستحبات.

وقد رأينا في بعض النوازل ما أثار الجانب المغربي بصفةٍ خاصةٍ دون الجانب المشرقي، حسبها الحجاج المغاربة جنحاً لا ينبغي السكوت عنه، وعدّها الحجاج الآخرون أمراً غير ذي بال، ويتعلق الأمر بشرب التبغ، كل الرحالين المغاربة كانوا لا يتصورون أن يقوم زميلهم في تلك الديار بإشعال سيجارة، ربما في داخل مكان مقدس، عدُّوا ذلك

حدثاً غريباً يستحق أن يروى للناس في المغرب على أنه منكر من المنكرات. وأمامنا ابن سليمان الروداني الذي ثار على الذين يدخنون. وأمامنا كذلك السنوسي التنوسي الذي علق على ذلك بشعره المروي:

إن أهل الشرق طراً ولعوا
بدخان ذي البخار النَّتِن
واكتفوا من نقطة زيدتْ على
نتن لستره بالتَّن!

وإن الآيات القرآنية ذاتها من التي تناولت موضوع الحج جميعها كانت محل درس وتنقيب عميقين من لدن بعض الرحالين العلماء من الذين وجدوا مرتعاً خصباً للنقاش والمراجعة ... أسماء مكة في القرآن ... وما القصد بمقام إبراهيم، والمشعر الحرام، وماذا عن الصفا والمروة، وماذا تعنيه آية ﴿**سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**...﴾، وماذا عن حدود الاستطاعة المذكورة في الكتاب الكريم ... وما تعنيه كلمة: ﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾ ... وماذا عن مشمولات ﴿**ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ ... وهل الثمرات تقتصر على ما يؤكل، أم أنها تتناول غير ذلك من علوم آثر الله بها من أسعده بالمقام هناك، ومن جمال وكمال تحدثت عنه أقلام الذين عنوا بهذا الموضوع.. وماذا عن لفظ الإحصار الوارد في القرآن ... كل آية من الآيات المتصلة بالحج استوقفتني كثيراً حتى لقد امتلكتني الحيرة وأنا أختار الآية التي أتيمَّن بها عند افتتاح تأليفي هذا ... ونفس ما قلته عن الآيات القرآنية أقوله عن الأحاديث النبوية، فقد اجتهد العلماء من كتَّاب الرحلة في أن يختاروا لكل حديث تأوليه المناسب حسبما يؤديه اجتهادهم، كيف كان حجه عليه السلام، وكيف كانت عمرته، ومن أين ابتدأ إحرامه، وكيف كانت عملية الإحرام، وماذا تعنيه عبارة "الاضطباع" والرمل مثلاً في ثقافة الحج ... وماذا عن موقف السيدة عائشة من زيارة قلب الكعبة، ورد فعل المحدثين والعلماء والفقهاء.. زادٌ معرفي آخر يضاف إلى الأنواع الأخرى من الزاد.

أما عن الناحية الإنشائية، فإن الرحلات كانت متعةً في أدائها، كل له أسلوبه، كل

وميوله، كلٌّ وأدبياته ... كنا مولعين بمعرفة عواطف الرحالين وهم يجدون أنفسهم أمام الكعبة أول مرة، ووجدنا المتعة الزائدة ونحن نكتشف في كل واحد قدرته على الكلام، ونعرف عن مدى حاسته وحسه ... سجلنا عدداً من ضروب القول وفنون الكلام، وكنا في ذلك حريصين على أن نترك الرحالين وشأنهم في التعبير، وقد تجلّى واضحاً أن معظم المتحدثين "يغيبون" عن هذا الكون الذي يعيشونه، وما إخال أننا ننسى العبارة العظيمة التي جاءت على لسان الرحالة ابن بطوطة، وقبله الرحالة العبدري، اللذين وزعا الواقفين أمام الكعبة على نوعين من القوم: قوم يتملكهم الإيمان، فهم يزدادون إيماناً، وقوم يتملكهم الشك فهم يصحون هناك، ويعودون إلى الصواب.

وقد كان مما أثار انتباهنا ونحن نستعرض هذه الرحلات ما أجمع الكتاب عليه تقريباً من الحديث عن أدوات الموسيقى والطرب التي لم تغبْ عن هذه الموضوعات أيضاً، وخصوصاً في منى، وما أدراك ما أيام التشريق في منى! أيام أكل وشرب وبِعَال على حد تعبير بعضهم! والحديث عن أدوات الاسترواح والراحة لم يكن غريباً عنا في تلك البقاع التي عرفت أنواع الطبول والمزامير والعرْضة والشطيح والرديح على إيقاع النغمات التي تخلد أيام النصر والنضال، وما من شك في أن الذين يعيشون مع تاريخ مدينة ينبع: ينبع البحر وينبع النخيل، ينبع باب الحجاز على البحر الأحمر ... يعرفون حينئذ ما كانت عليه حياة البلاد من مظاهر الرفاهة والبذخ لميناء بحري تتعايش فيه سائر الشعوب وسائر الحضارات، وإن الذين يعرفون عن ينبع وعن حضورها ليس فقط من وجهة نظر المؤرخين الشرقيين، ولكن من وجهة نظر المؤرخين المغاربة الذين كانوا عن طريق ينبع يطؤون أول ما يطؤون أرض الحجاز ... وعن طريق ينبع كانوا يتجهون جنوباً إلى مكة، وشمالاً إلى المدينة، ينبع التي قال عن أسواقها أحد الحجاج المغاربة: إنها تحتوي حتى على لبن النَّمل. كل الذين يعرفون عن ذلك التاريخ يعرفون أنه لم تكن هناك حدود تفصل بين ما يعيش عليه الناس عند هذا الباب وما يعيش عليه الناس في الضفة الأخرى على الصعيد المصري[1].

---

(١) د. التازي: ينبع في المصادر المغربية، بحث جاهز للطبع.

والحديث في الرحلات المغربية عن أدوات الطرب يسلمنا إلى الحديث عما تحدثت به بعض الرحلات مما قد تشهده تلك اللقاءات من منكرات وبدع مما كان محل استنكار من بعض الرحالين المغاربة من أمثال العبدري الذي يشاهد إمساك الرجال بسوق النساء وهن يتسلقن إلى داخل الكعبة. ومما حكاه ابن عمار وهو يتحدث عن الاختلاط الذي لم يجد سبيلاً لمنعه أن المواسم لا تخلو من مثل هذه المخالفات، وكيف ننسى أشعار الشريف الرضي والتنوخي ومعبد وأشعار عمر بن أبي ربيعة التي رددت في تلك المقامات، مما روتْه كتُب الأدب، وهذا ما لم يغب عن ذاكرة الشيخ رشيد رضا وهو يسرد مذكراته عن الحجاز(١).

ومن الرحالين من أطلق لقلمه العنان، فغدا يقارن ويفارق بين ما تتوفر عليه مكة وما يوجد في بلاده هو، وكان في هذه المقارنات والمفارقات في نظرنا أكبر فائدة لمن يتطلع إلى معرفة (دار الإسلام) عبر العصور ... لقد بوغت ابن جبير وهو يرى في مكة ما لم يره في الأندلس من الأرزاق والطيبات، «كنا نظن أن الأندلس اختصت في ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه ...». وشاهدنا الرحالة ابن بطوطة وهو يلاحظ أن الناس في مكة مهتمون بهندامهم ونظافتهم، وأن السيدة في مكة تضحِّي بعشائها حتى تحافظ على ما اعتادته من الطيب والعطر، و«إن لجسدك عليك حقاً» كما جاء في المأثور.

لقد قرأنا لبعض الرحالين عن انطباعاتٍ حول مكة لم نجدها أبداً في مصدر من مصادر التاريخ الذي يدون لتاريخ مكة. ومن هنا قلنا ونردد القول: إن الرحلات المغربية تاريخ لما أهمله التاريخ في تلك البقاع ... تاريخ لحكامها وقادتها وعاداتها، تاريخ لأحداث حتى عوارضها الطبيعية، وهل سجلت تواريخ مكة حدثاً لخسوف القمر كما سجله رحالة مغربي ورد على تلك البقاع لأداء فريضة الحج، وفوجئ باختفاء ضوء القمر الذي كان ينعم به؟!

---

(١) رحلات الإمام محمد رشيد رضا، جمع وتحقيق: د. يوسف إيبيش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، يوليو ١٩٢١م، ص ١٨٧- ١٨٨- ١٨٩.

لقد تضافرت كتب التاريخ المغربي ونصوص الرحلة المغربية، بل والوثائق الدبلوماسية الفرنسية والعثمانية، تضافرت كلها على نقل أحداث مصاهرة العاهل المغربي الملك محمد الثالث ببعض بناته للشريف سرور شريف مكة، حيث اشتغل الناس دهراً بالكلام عن ذلك الحدث السعيد، وتناقلته وفود الحجاج الذين كانوا بالمصادفة يحضرون ذلك الموسم، فماذا عن ذلك الحدث في بطون تاريخ مكة؟! لا نجد ولو حرفاً واحداً عنه... ولقد سجلت الرحلات المغربية عن مختلف مظاهر الحياة في مكة... فيها من اهتم أصحابها بالمعمار ومشاهد العمران، فغدا يصف المباني ويعدد المشاهد... يصفها بما تأتّى له من مقاييس ومعايير، ابتداءً من الشبر وانتهاءً إلى المتر، وابتداءً من تحديد المسافات بالمراحل والمناهل المائية إلى تعدادها بالدرجات والساعات، ومن منّا لم يقرأ في بعض هذه الرحلات أن الحاج أحياناً يحصل على شهادة مكتوبة من لدن رئيس الموسم (قاضي مكة) بأنه أدّى حجه في موسم الحج بتاريخ كذا، وأنه وقف بعرفة... وأدّى المناسك ... وقام بأنشطة تتمثل في كذا وكذا.. يحتفظ بتلك الشهادة صاحبها أو صاحبتها ويعتز بعرضها على الذين يهمهم الأمر.

ظاهرة لم نقرأها في رحلةٍ شرقيةٍ أو مصدر من المصادر المهتمة بتاريخ مكة ...

فإذا انتقلنا إلى فوائد الرحلة المغربية حول ما يتصل بحديثها - أي الرحلة - عن المناخ العلمي بمكة المكرمة، فإننا سنقف، وهذه معلومة يجب أن نبرزها، على لائحة طويلةٍ عريضةٍ من العلماء والمشايخ من الذين نصبوا أنفسهم لتدريس العلم بتلك البقاع، كلّ الرحالين المغاربة كانوا يرون أن أخذهم عن علماء مكة كان بمنزلة الختم الذي يزكي زادهم العلمي، ويأذن لهم في إشاعة المعرفة ونشر العلم. وعشرات الأسماء من الرجال الذين حفظت لنا أسماءهم تلك الرحلات خلال عقود من الزمن ... كان من أولئك الرجال من انتسب إلى مكة أصلاً، لكن فيهم من أتى إليها من أقصى البلاد، من السند والهند وهمذان وخراسان. والطريف في هذه الرحلات المغربية أنها تروي أيضاً عن سيدات فُضليات كذلك من اللاتي كن مصابيح يضئن تلك الأرجاء بعلومهن وثقافتهن وصلاحهن، فيستفيد منهن كلّ الذين يردون على الكعبة من الأندلس وبلاد المغرب...

ولا يخفى ما في كل هذا من أثرٍ في توثيق السند العلمي الذي عرف عن المغاربة أنهم متعلقون به معتزون به، علاوةً على ما فيه من استنهاض الهمم، وإلهاب القرائح، وتشجيع المواهب.

ولا بد أن نلاحظ أن شيوخ مكة في أثناء الموسم يكونون منشغلين هم بدورهم بأداء الفريضة، فهم غائبون عن ساحة الدرس، غارقون في زحمة الطائفين والعاكفين والساعين والواقفين.

وقد لاحظنا هذا نحن عندما قصدنا تلك الديار في موسم الحج، وقارنا الحال بين الموسم الذي يتفرغ فيه الناس لالتزاماتهم وغيره من الفصول التي يتوافر فيها العدد الكبير من رجال العلم المنبثّين في كل زاوية من زوايا مكة المكرمة، وخاصةً المسجد الحرام.

قصدنا بهذه الملاحظة أن نقول: إن ما ذكرناه من أسماء المشايخ من أهل مكة هو قُلٌّ من كُثر ممن كانوا ينقطعون هم كذلك إلى مناسك الحج في تلك الفترة، فلا يشاهدون ولا يسمع لهم ذكر ... ومع ذلك فقد لاحظنا أن مكة قبل وقوف عرفة وبعده كذلك تظل لمن يسمح وقتهم من غير المستعجلين والمجاورين محلَّ درسٍ وتثقيف، ويشهد لذلك ما نقرؤه في كثير من الرحلات التي يعود أصحابها وهم يعتزون بالإجازات التي يحملونها من مشايخ مكة، وهكذا نجد أن مكة ظلت حاضرة في الذاكرة المغربية وكأنها كانت - كما أشرنا - الختم الذي يتوِّجون به حياتهم العلمية في أثناء السَّفر إلى الحجاز، إلى مكة، هذا السّفَر الذي ينعتونه بسيد الأسفار.

لقد قدّمت إلينا الرحلات المغربية خريطةً لعالم الإسلام من خلال ما نقلته من أسماء لرجال انتسبوا إلى كل تربة... وقدّمت لنا الرحلات المغربية جرداً كاملاً بأسماء الكتب التي كانت تدرس بمكة، وعناوين الفنون التي كانت محل اهتمام من لدن الشيوخ والتلاميذ على السواء: القراءات، سيبويه. محتويات مكة وخزاناتها العلمية أيضاً كانت مما تناولته الرحلات... المدارس والزوايا والخوانق، كل ذلك يمكن أن نجده ضمن الرحلات المغربية، ظاهرة المشاركة في العلوم شاهدناها فيما قرأناه عند الرحالين المغاربة.

إن كل تلك الفوائد والعوائد جعلتنا اليوم نأسف على مستقبل أدب الرحلات، وخاصة الرحلات الحجازية؛ فقد أمسينا وقد اقترب العالم بعضه من بعض أمام ظاهرة اختفاء أدب الرحلة في التأليف العربي، وفي الأدب المغربي على الخصوص.

وقد وجدنا في عناوين الرحلات ذاتها ما يعبر عما يتمناه الرحالة لرحلته من نجاح ورواج ... فهذا اختار عنواناً لرحلته «ماء الموائد»؛ لأنه لا غنى عنه للناس على نحو الماء بالنسبة إلى الطعام.

وبعضهم اختار عنواناً لرحلته «ملء العيْبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة إلى الحرمين: مكة وطيبة».

وثالث كالرحالة ابن بطوطة اختار لها: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

ورابع اختار لها عنواناً: «أُنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب».

ومنهم خامس اختار عنوان رحلته هكذا: «الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً».

وكان منهم سادس سماها: «مستفاد الرحلة والاغتراب ...»، وكان منهم مَنْ سماها «تاج المشرق في تحلية علماء المشرق»، وبعضهم اختار لها أسماء بسيطة؛ كالرحلة المغربية، والرحلة الحجازية أو الرحلة المكية.

وكان في الرحالين مَنْ سمَّى رحلته: «عجالة المستوفز المستجاز في ذكر مَنْ سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز». وربما وجدنا في العناوين ما يحتاج إلى قاموس أو فانوس! على نحو ما نجده في الرحلة المعنونة بـ«الإصليت الخِريت بقطع بلعوم العفريت النفريت»... إلخ.

ولقد لفت أنظارنا في الرحلات المغربية حضور رجال الدولة إلى مكة على الرغم من ظروف مسؤولياتهم الكبيرة، كان منهم عدد من الأمراء وعدد من الأميرات، إلى جانب طائفةٍ من الوزراء والسفراء والقواد والرؤساء والقضاة.

وإذا قارنا بين عدد المسؤولين المغاربة وغيرهم من كبار المسؤولين في الجهات المشرقية كالهند وفارس، فإننا سنلاحظ وفْرةَ الرواد المغاربة من الآدميين والحواءات (آدم وحواء) على حدّ تعبير أهل ينبع.

وقد كان من أهم ما سجلته الرحلة المغربية هذه المبالغ العظيمة السخية التي كانت توجَّه إلى الجهات الحاكمة المتنفذة، وإلى العناصر المحتاجة في مكة وفي المدينة وفي ينبع وبدر وغيرها من المواقع التي عُرفت بحاجة ساكنيها، أو اشتهرت بدور لها في التاريخ.

لقد دأب الذين تحدثوا من المشارقة عن تاريخ الحرمين بصفةٍ خاصة على ذكر الهدايا الرفيعة التي كانت تهدى إلى مكة وتأتي من الخارج .. دون أن يلتفتوا إلى المغرب الذي كانت له أوقاف خاصة على مكة وغيرها من البقاع المقدسة، كانت لمكة مرتبات منتظمة تنتقل إليها عبر العصور في كل موسم، بل قرأنا عن وصول كسوة الكعبة من المغرب إلى مكة، وهو خبر طريف وأصيل، يعني أن المغرب كان ينافس دولة المماليك في المنطقة، كما ينافس ركب العراق واليمن، وهذا كان له ما يؤكده ويعززه. هذا الجانب المهم لولا الرحلات المغربية لضاع الحديث عنه بين أثناء الأخبار، مع أنه كان للمغرب النصيب الأوفر في تغطية نفقات القائمين على الشعائر بتلك الديار أباً عن جد. كانت تلك الإنفاقات محل تنافس بين الذكور والإناث... وقد عشت أنا شخصياً أواخر هذه الفترة عندما كنت ضمن أعضاء الوفد المغربي سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، وحُملنا مبالغ سخية من المال، من الملك محمد الخامس لمن كانت الدولة اعتادت مواصلتهم بانتظام كل موسم[١].

وأي ملك في دار الإسلام قام بنسخ المصحف الكريم بخط يده هو من أول حرف إلى آخر حرف، وأهداه إلى حرم مكة مصحوباً بالأحجار الكريمة واليواقيت الثمينة؟!

ليس من السهل أن يقوم شخص في مسؤولية ملك بهذا التركيز الكبير فيحرر مصحفاً لمكة، وآخر للمدينة، وثالثاً للقدس الشريف، دون أن يفرط في كلمةٍ ولا حرفٍ ولا نقطة. لا أدري بماذا كانت تقدر ثروة الحرم الشريف لو أن الأيدي لم تصل إلى

(١) د. التازي: التحليق إلى البيت العتيق، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ رقم الإيداع ٤٠٨٥ / ٢٢.

مخازنه، لو أن قلب الكعبة أو أن خزانة الكعبة ظلت بأيد أمينةٍ لا تمتد إلى تلك الكنوز من التي كان ملوك الدنيا يتبارون في إيثار الكعبة بالنفيس منها، مما قرأنا على مدى العصور.

وقد فتح الحديثُ عن الرحلات المغربية عيوننا على حشد آخر من المغاربة كانوا يعيشون موزعين بين الحرمين الشريفين وينبع وقبيلة حرب وبدر والطائف ... عشرات الأسر المغربية من التي كانت ولا تزال تحمل أسماء مغربية من أولئك الذين نسميهم "مجاورين" أسهموا في بناء البلاد بحِرفهم ومهنهم، وتجاراتهم واستثماراتهم، هؤلاء المجاورون رددت الرحلات المغربية حضورهم هناك، بل رددت أخبار حرصهم وتعلقهم بالبقاء بجوار بيت الله وروضة رسول الله. كان منهم العلماء الذين يحسنون عدداً من اللغات؛ لأن البقاع تجمع الناس من كل جهات العالم الإسلامي، وكانوا بحاجة إلى من يلقنهم أمر دينهم باللغة التي يحسنونها ... ووجدنا من بين أولئك المجاورين زعماء وأمراء كانت لهم الكلمة المسموعة في البيت الحرام والمدينة المنورة ... وكشفت عنهم الرحلات المغربية عبر العصور.

وهكذا فإن لقب "جار الله" لم يكن مقتصراً على مَنْ سمعنا عنهم من المشارقة، ولكنه لقب كان يكتسبه أيضاً الكثير من المغاربة من الذين انقطعوا إلى الله، وانصرفوا عن مباهج الدنيا وزينتها لخدمة البيت الحرام بكل ما يمتلكون.

وقد اكتشفنا من خلال الرحلات المغربية أن في هؤلاء المغاربة مَنْ أسهم بحظٍّ وافر في مقاومة حركة القرامطة الذين زُين لهم أن يعتدوا على الحجر الأسعد ... قرأنا هذا في بعض الرحلات المغربية، وكان ذلك مما صدَّقَ ما ورد في مصادر التاريخ المغربي القديم من أنهم ـ أي: المغاربة ـ كانوا حاضرين هناك منذ الوقت الذي طلب إليهم الحضور فيه.

ومن كل هذا عرفنا وزن نعت الحاج عند المغاربة وحجمه وقيمته، لقد كانوا يتباهون بنعت الحاج ولا يزالون، وربما من خلال هذا اللقب كانوا يصلون إلى أغراض لهم ومطامح يشفع لهم فيها أنهم وطئوا أرض مكة ووقفوا في عرفات.

ومع كل هذا، فقد كانت الرحلات صريحة عندما كان أصحابها يصطدمون بقطّاع

الطرق أو اللصوص والمندسين بين الحجاج، فكان الحجاج يرفعون عقيرتهم بالشكوى، وفي مقابل ذلك كانوا يشيدون أيما إشادة بمن يحمي ظهورهم، ويوفر لهم ظروف الأمن والاستقرار والرفاهة، مغدقين على القادة عبارات الثناء والامتنان والشكر.

وقد اهتمت الرحلات المغربية بالمادة الحيوية في الحج: قضية الماء. إن الماء في الحج كان هو الأساس في الحديث... فعلاوة على حديثهم عن ماء زمزم الذي يتضلعو منه بغير مقدار، مرددين عنه ما قيل في الماضي، علاوة على ذلك كانوا مهتمين جداً بجهود الأوائل في توفير الماء للحجاج.. جلّهم لم يجد بداً من ذكر السيدة زبيدة أم جعفر... ذكروها بتقدير كبير وإشادة عظيمة، وتتبعوا القنوات الموضوعة قناة قناة، محطة محطة، إلى أن سقت المؤمنين في عرفات والمزدلفة، واستفاد منها الناس في مكة والطائف. كانوا يشعرون بأن الحديث عن الماء في موقع كمكة حديث أساسي... ولذلك فقد وجدنا للماء ذكراً في معظم الرحلات، ووجدنا لزبيدة ذكراً في كل مكان، بل وجدنا تأويل الآية الشريفة: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ ينطبق على مثل هؤلاء المحسنين الذين انساقوا وراء وحي أفئدتهم، فبذلوا لهذا البيت وسكان هذا البيت كل ما يستطيعون وفوق ما يستطيعون، إلى حدٍّ أنه عندما قدّموا للسيدة زبيدة لائحة بما صرفوه عن نصب الماء، وكانت لائحة ثقيلة، كان جوابها: «تركنا الحساب ليوم الحساب».

ولقد أسهمت الرحلة المغربية بصفة بارزة واضحة في كتابة تاريخ مكة والمسجد الحرام والكعبة وما يتصل بها، بحيث إنه يمكن القول: إنهم - أي: الرحالين المغاربة - لم يقتصروا على ما نقلوه عن الأزرقي والفاسي ودحلان، ولكنهم بذلوا هم جهدهم في الإسهام الجيد في كتابة تاريخ تلك البقاع... ليس فقط من الناحية العمرانية، ولكن كذلك من الناحية الاجتماعية والصناعية والسياسية. ومن هنا يسوغ لنا القول مرة أخرى: إنه من التقصير الفاضح عدم الالتفات إلى ما خطته أقلام المغاربة الذين كانوا يكتبون موضوعهم بعيون جديدة، وبدافع من تنافس في أن يأتوا بشيء جديد من عندهم.

حسبوا الأبواب، وعدّدوا الصوامع، ورصدوا عمارة البيت، ولم يخفوا امتعاضهم جميعاً من وجود السوق بين الصفا والمروة... لأنه يصرفهم عن نسكهم... على نحو ما

اشتكوا من تدخل المطوفين الأعاجم في شؤونهم وعدم تركهم يتوسلون بما يريدون، ويضرعون عندما يرغبون. وانتقد بعض الرحالين المغاربة ما كانوا يلاحظونه عندما يؤم كل إمام قومه على انفراد... وخاصة عند صلاة المغرب... ووقتها ضيق على ما نعلم.

إن المرء ليستغرب من عدم الاستفادة من الرحلات المغربية فيما سجلته - وهو كثير - عن الحرمين الشريفين، وعن المواقع الجغرافية الأخرى... فباستثناء بعض زملائنا ممن كانوا - ولهم الشكر - حريصين على استثمار الرحلات المغربية نجد أن بعض الكتاب كانوا بمنأى عما كتبه ابن بطوطة مثلاً، مع أن معلوماته عن مكة كانت رائعة وأصيلة شأنه في ذلك شأن ابن جبير، ونحن نعلم أنه - أي ابن بطوطة - رحل إلى مكة أربع رحلات، وجاور في إحداها على مدى ثلاثة مواسم.

وعلى ذكر المواقع الجغرافية نقول: إن هذه المواقع كانت هي الأخرى محل اهتمام من الرحالين حتى في تلك الرقعة المحدودة للحركة... حديثهم عن الكعبة، وعن الأركان الأربعة، والملتزم، والحطيم، والحجر، والميزاب، والصفا والمروة والميل الأخضر... والمسافة بين مكة ومنى والمزدلفة وموقع عرفات وعرنة والمأزمين، والجمرات الثلاث التي تعني أصلاً مواقع جغرافية... حيث يبدو أن الفكر الجغرافي عند بعض الرحالين كان محدوداً وخاصة في الفترات الأولى قبل أن يظهر الحديث عن خطوط الطول والعرض، وقبل أن يظهر الحديث عن درجات الارتفاع عن سطح البحر... ويظهر كذلك الحديث عن درجات الحرارة... ودرجات الرطوبة... كل هذا سنلاحظ تطور الحديث عنه من خلال الرحلات المغربية... ولا نتحدث عن ضاحية مكة وظاهرها، حيث توجد المواقيت (جمع ميقات)؛ أي مكان الإحرام، وحيث نسمع عن كَداء (كسماء) وكُدَى بضم الكاف، فقد حرص الرحالة على الاهتمام بضبطها وتحريكها.

وقد اهتمت الرحلات بالمنقوشات على بعض المعالم، والمطرزات على بعض الستور، لتستخلص من ذلك - وقد فعلت صواباً - تواريخ الحدث، كان ذلك إسهاماً جيداً في كتابة تاريخ مكة اعتماداً على وثائق معاصرة لا سبل للطعن فيها والنيل منها، ويا حبذا لو تعمق البحث حول هذه النقوش - في دائرة احترام المكان - لنعرف عما يوجد بالضبط

داخل الكعبة وما يتصل بها تنويراً للرأي، ووقوفاً على الحقائق التاريخية التي لا تزال غائبة عنا، مما قد يمكننا جيداً من معرفة نشاط ذلك الخليفة أو الملك أو الأمير أو المحسن أو المتطوع، نشاطه إزاء تأثيث المكان وتزويده بما كان يحتاج إليه من مرافق ومكملات. قضية المنقوشات كانت جديرة باهتمام الكثير من الرحالين المغاربة، وكانت مما نطمح إلى جمعه ودراسته واستخلاص التاريخ منه.

ونحن نسمع عن الظواهر الطبيعية لمكة في مكة... لا ننسى أن الرحلة المغربية اهتمت بضبط تواريخ الأوبئة التي كانت تفتك بالحجاج على شكل فظيع، يتحدثون عنها وعن ضحاياها، وكيف كانت الهيئة الحاكمة تعمل على ضبط أسماء الأموات، فكانت لا تسمح بدفن أحد إلا بعد التأكد من اسمه ووضعه... ويدخل ضمن هذا حرص المشرفين على الحكم في البلاد على معرفة عدد الحجاج الواردين من خارج البلاد عن طريق شيخ المطوفين الذي يعتمد بدوره على الإحصاءات التي يقدمها له سائر المطوفين الذين يشرفون عادة على ضبط الحجاج القادمين إلى مكة من مختلف الأرجاء.

هذا إلى ضبط الرحلات لعدد السيول التي يصادفونها في الموسم أو يسمعون بها، حيث يكون ذلك وسيلة تسوِّغ لهم ذكر ما سمعوه عن السيول الماضية... وربما قرأنا عن هؤلاء الرجال معلومات مغرقة في الغرابة، حديثهم مثلاً عن الحجاج الذين كانوا يطوفون سبحاً في المسجد الحرام. وأغرب من هذا أن نسمع عن فتاوى الفقهاء حول حكم الطواف سباحة، وهل يجزئ أم أنه لا بد من الطواف على الأقدام. ولا يستغرب قارئ الرحلات المغربية من حديثها عن مختلف العملات التي تروج في أسواق مكة من شتى جهات العالم، من ذهب وتبر ومن فضة كذلك، أسماء غريبة لعملات كانت سائرة يتعامل بها الناس، وهذا موضوع وحده يستحق الاهتمام به من لدن رجال الاقتصاد والمتخصصين في الظاهرة النقدية وأصولها عند المسلمين خلال العصور.

وإن الواقف على الرحلات المغربية ليقدِّر أصحابها وهم ينصحون إخوانهم بألاّ يصحبوا معهم إلا العملات الذهبية، وخاصة منها غير المصنوعة والمطبوعة. وإن الحقيقة التي اتفقت عليها الرحلات المغربية أنها لم تتحدث عن عملات الورق، كما كان الحال

عليه في بعض البلاد الآسيوية، ولا كذلك عن عملات الودع التي عرفتها بعض الجهات في المحيط الهندي أو في بلاد السودان.

لقد أدركنا من خلال الرحلات المغربية أن مساحة العالم تصبح في مكة فعلاً صغيرة ومحدودة عندما يلتقي على فسحة من الأرض حشد من المؤمنين، كل له لسانه، وكل له لباسه ومعتاده وخصوصيته في سحنته وفي سيرته وسلوكه، وحتى في اختيار اسمه، وينقلب المغربي إلى بيته يحكي عن ذلك العالم الذي اجتمع فيه باليمني وبالجاوي والزنجباري والهندي والمصري... العالم الذي يجتمع هناك على قول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، يستمع فيه إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على نحو ما يعرفه، فإذا تجاوز موضوع الحوار هاته الكلمات ابتعدت الشقة بين هذا وذاك، وأصبح الكل بحاجة إلى ترجمان، مما كان يذكرنا بقول المتنبي:

تجمَّع فيه كلُّ لسنٍ وأمةٍ
فما تُفهِم الحدَّاثَ إلا التراجمُ

وقد وجد بعض الرحالين المغاربة أنفسهم بحاجة إلى أن ينقلوا إلى أصحابهم في المغرب صوراً لبعض من كانوا يلاقونهم على تلك الأرض السعيدة. وهكذا حُبِّب لمعظمهم أن يحكوا مثلاً عن نوع من الحجاج يأتون من اليمن يعرفون بالسَّرْو، وهم يمثلون حقيقة نمطاً من المسلمين غريباً كل الغرابة عما هو معتاد في ديار المغرب... يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع! ومنهم مَنْ يسجد السجدتين والثلاث! ويلتفتون يميناً وشمالاً التفات المروَّع، ثم يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا في أثناء ذلك، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه ووصّاه بما شاء، ثم عاد إلى سجوده.

ومن الطريف أن نسمع أن بعض هؤلاء الرحالين المغاربة كانوا يربطون صلة الوصل مع زملائهم في الحرمين من المشايخ والعلماء والأمراء كذلك، وكان بعض هؤلاء "المعارف" يقدمون إلى المغرب لرد الزيارات، حيث وجدنا منهم على ما يحكيه بعض أولئك الرحالين، وعلى ما يوجد في كتب العلاقات الدولية للمغرب... وجدنا منهم الأمراء من

آل أبي نُمي، ووجدنا العلماء الذين قاموا بتنظيم دروس بالمساجد المغربية، ووجدنا بعض بني شيبة من الذين سمتهم الرحلة المغربية باسم "بوابي الكعبة" . . . وقد عاد كل هؤلاء بحقائبهم مثقلة بالهدايا والتحف المغربية بعد قيامهم بجولات سياحية في مختلف المدن المغربية.

أما عن وسائل المواصلات في الحجاز، فإننا نقرأ حديثاً طريفاً من خلال الرحلات المغربية؛ حيث نقف على جملة من المعلومات الحضارية التي تستحق الذكر، إضافة إلى ما فيها من ذكر لبعض المصطلحات الخاصة بوسائل التنقل من هودج ومَحَارةٍ وشقدف . . . ويكون للجمل في هذه الوسائل حظ الأسد في الذكر على نحو ما يذكرون الجمالين بأساطيرهم ونوادرهم مع الحجاج في استنزافهم وامتصاصهم!!

وقد كان للخيول أيضاً والبغال حضور في هذه التنقلات، لكن اللافت للنظر حديث الرحالين عن نوعٍ من تلك الوسائل لم ينتبه إليه كل الناس، ألا وهو الحمار الذي يربط الصلة بين جدة ومكة بما ذكر عنه من صغر حجم، وخفة حركة، وكثير نشاط، حتى أصبح المغاربة يرددون إلى الآن عبارة "حُمَيِّر جدة" بالتصغير، يطلقونها على الشخص النشيط الذي يتحرك بسرعة وخفة ويقضي الأغراض المطلوبة منه دون متابعة. ويتبع وسائل النقل في الحجاز حديث عن الخيام . . . وآلاتها وأجهزتها . . . وهذا أيضاً مما كانت الرحلات مهتمة به.

وفي الرحلات المغربية مَنْ اهتم من أصحابها بالإشارة إلى الحج قبل الإسلام، وما حذف منه، وما أقره الإسلام، وفيهم من أجاب عن أسئلة محتملة عن السر في عدد أشواط الطواف والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات، وماذا تعني.

ومن المعلوم أن الكتب زخرت بالحديث عن الحج فيما قبل الإسلام . . . وقد أدّت الأسطورة دورها، على ما نعتقد، في حَبْك الحكايات مما وجد فيه بعض الكتَّاب ـ وأقول بعضهم ـ ما يربطون فيه بين عادات ما قبل الإسلام وما بعده، سواء فيما يتعلق بالحركات أو اللباس والاحتفالات الليلية في منى بما يصحبها من أنوار وأضواء.

وأخيراً نؤكد ما قلناه: إن التأريخ لبلاد الحجاز يتوقف إلى حد كبير على ما نقلته

الرحلات الحجازية المغربية، فابتداءً من أيام الأمويين والعباسيين، ومروراً بكل مراحل التاريخ الذي ربط الحجاز بغيره من البلاد الإسلامية، وانتهاءً بأيام النفوذ العثماني، وظهور الحركة الوهابية، والثورة العربية الكبرى، ومعارك الملك عبد العزيز من أجل توحيد البلاد وبسط الأمن فيها، كل هذه الفترات نجد لها صدى في الرحلات الحجازية المغربية المتعاقبة؛ لأن هذه الرحلة لم تنقطع، ولأنها ظلت تكتب بأقلام بعيدة عن الهوى، نزيهة محايدة غير متأثرة بما يجري على أرض الواقع من تفاعلات.

ومن ثمَّتَ فإنه يسوغ لنا أن نطلب إلى الذين يؤرخون اليوم للمملكة العربية السعودية أن يسندوا مقولاتهم بشهادات أولئك الذين كانوا يردون من بعيد... ليعلقوا على ما كان يجري... وليدلوا بشهاداتهم على المخاض الذي كانت تشهده هذه البلاد من أجل أن تمسي اليوم في عداد الدول البانية.

أريد تأكيد أن تاريخ الحجاز عموماً وتاريخ مكة على الخصوص أمسى منذ السنة الثامنة للهجرة موزعاً بين أطراف العالم الإسلامي... بمعنى أن الحديث عن مكة يظل حديثاً ناقصاً ما لم يعتمد على روافده من أطراف العالم الإسلامي كلها، ومعنى هذا أن كتابة تاريخ الحجاز والحرمين يظل بحاجة إلى الرحلات التي كانت ترصد بدقة كل ما يمر بتلك الجهة.

وبعد، فإن رجائي من القراء أن يعودوا إلى ما علقته عليهم من أمل في ديباجة هذا التصنيف، ألاَّ يقصدوا قصد مَنْ إذا رأى حسناً أنكره، وإذا رأى عيباً أظهره، وقد صدق جار الله الزمخشري إذ يقول:

وإن امرأً يمسي ويصبح سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد!!

* * *

مسرد للرحلات الإضافية

١- رحلة لعبد الواحد الصنهاجي المتوفى سنة ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م. ذكرها له في «طبقاته» الشيخ محمد بن أحمد الحضيكي المتوفى سنة ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص ٣٤٥.

٢- رحلة لأحمد اليبوركي المتوفى سنة ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م. ذكر فيها صاحبها كل ما رآه. ابن سودة: المصدر السابق.

٣- رحلة أحمد بن أبي عسْرية المتوفى سنة ١١٣٧هـ / ١٧٢٤م. نقل عنها القادري في كتابه نشر المثاني عند ترجمة ابن حمو الشاوي القصري. نشر مكتبة الرسالة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ج٣، ص ٧٨.

٤- رحلة عبد القادر الكوهن المتوفى بالمدينة سنة ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م. الكتاني: فهرس الفهارس، ج١، ص ٣٨٦-٣٦٩. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م، ج٢، ص ٣٦.

٥- رحلة المدغري: النصف الأول من القرن الثالث عشر.

٦- رحلة سعيد الكَثيري نسبة إلى الشريف أحمد بن إدريس بن إدريس، المكنى بكَثِير، حج سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥م. نظم رحلته على البحر الطويل. المختار السوسي: المعسول، مطبعة النجاح، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م، ج٢، ص ٢٢١.

٧- رحلة اليزيدي نسبة إلى يزيد بن معاوية، تمت رحلته سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م. المختار السوسي: المعسول، ج٥، ص ٢٥٦.

٨- رحلة جعفر الكتاني، وتتعلق بحجته الثانية سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٣م. وتوجد في خزانة خاصة بمراكش. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج٢، ص ١١٦، رقم ٩٧٤.

٩- رحلة علي الهويزيوي: أواخر القرن الثالث عشر الهجري.

١٠- رحلة إبراهيم العروسي المتوفى سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٣م، وقد تمت سنة ١٣٠٥هـ /

١٨٨٧م، وقد عهدت إليه سيدة من سوس بإزارة خاتمها لتلك البقاع المقدسة. المعسول، ج١٢، ص ٥، ٥٢، ٦٧.

١١- رحلة أحمد الصبيحي المتوفى سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م، وقد قام بحجته سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م، وهي محفوظة في المكتبة العلمية الصبيحية بمدينة سلا.

١٢- رحلة مؤرخ الدولة ابن زيدان المتوفى سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م، وهي عن حجته الثانية سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٣٨م، وهي محفوظة بالخزانة الحسنية تحت رقم ١٢٣٨١.

١٣- رحلة محمد بو شعرة المتوفى سنة ١٣٩٠هـ / ١٩٥١م، وكان من المتأثّرين بكتاب «مرآة الحرمين». المنوني: المصادر العربية، ج٢، رقم ١٣٧٠.

١٤- رحلة محمد بن الطيب العلوي المتوفى سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م، وهي محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط.

١٥- رحلة أحمد معنينو المتوفى سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، الذي كان يحكي لنا عن حجته سنة ١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م، ويتحدث عن ركوبه الجمال من ينبع إلى المدينة على مثل ما يحكيه الحسن واعزيز سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م.

١٦- الصديق الشدادي سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م، الذي يتحدث عن تعويض السيارات للجمال.

١٧- رحلة عبد السلام الكويرة المتوفى سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٥م.

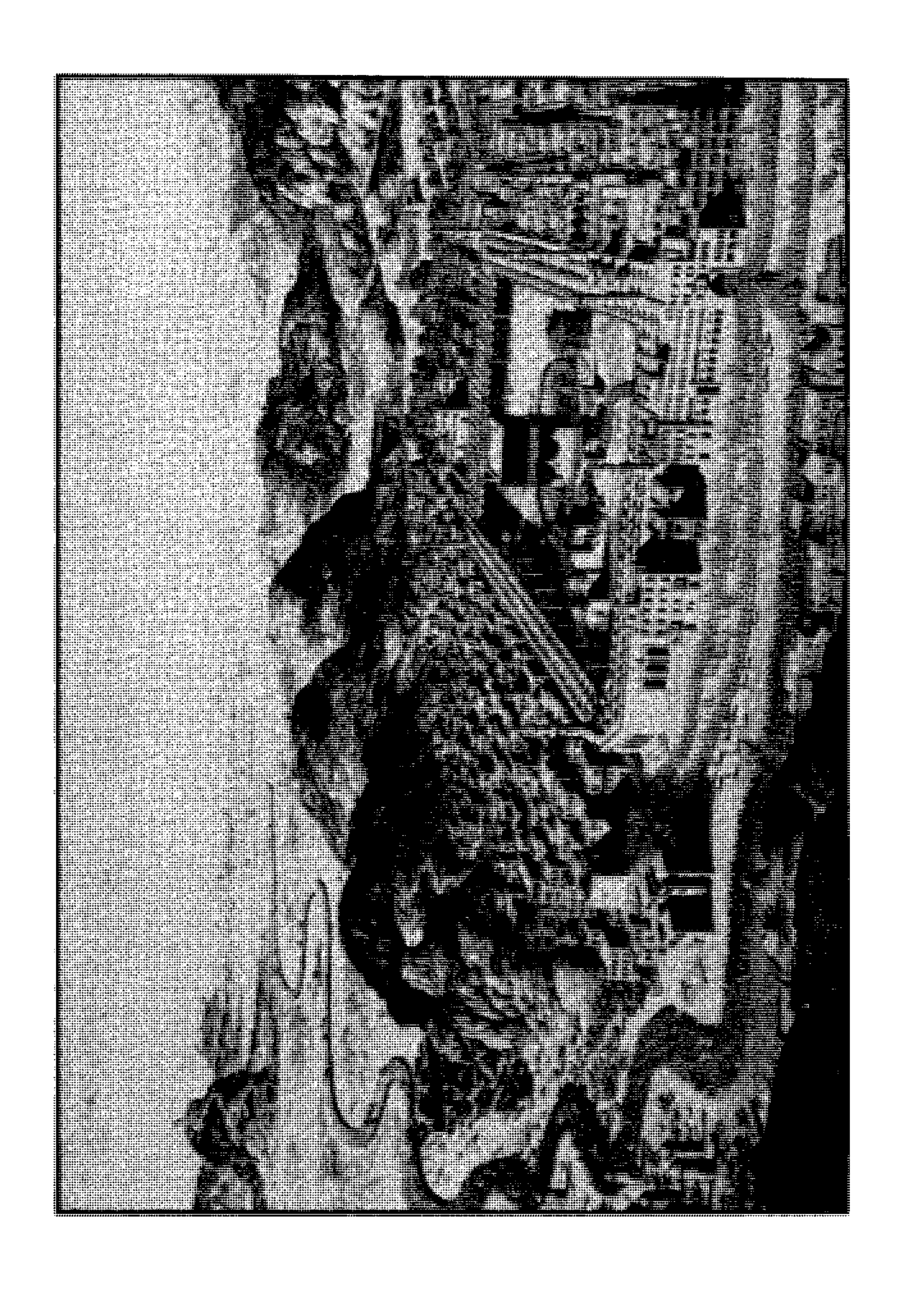
١٨- رحلة عبد القادر بن سودة بعنوان «الرحلة الميمونة الغرَّا في بعض ما شاهدته براً وبحراً» المتوفى سنة ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.

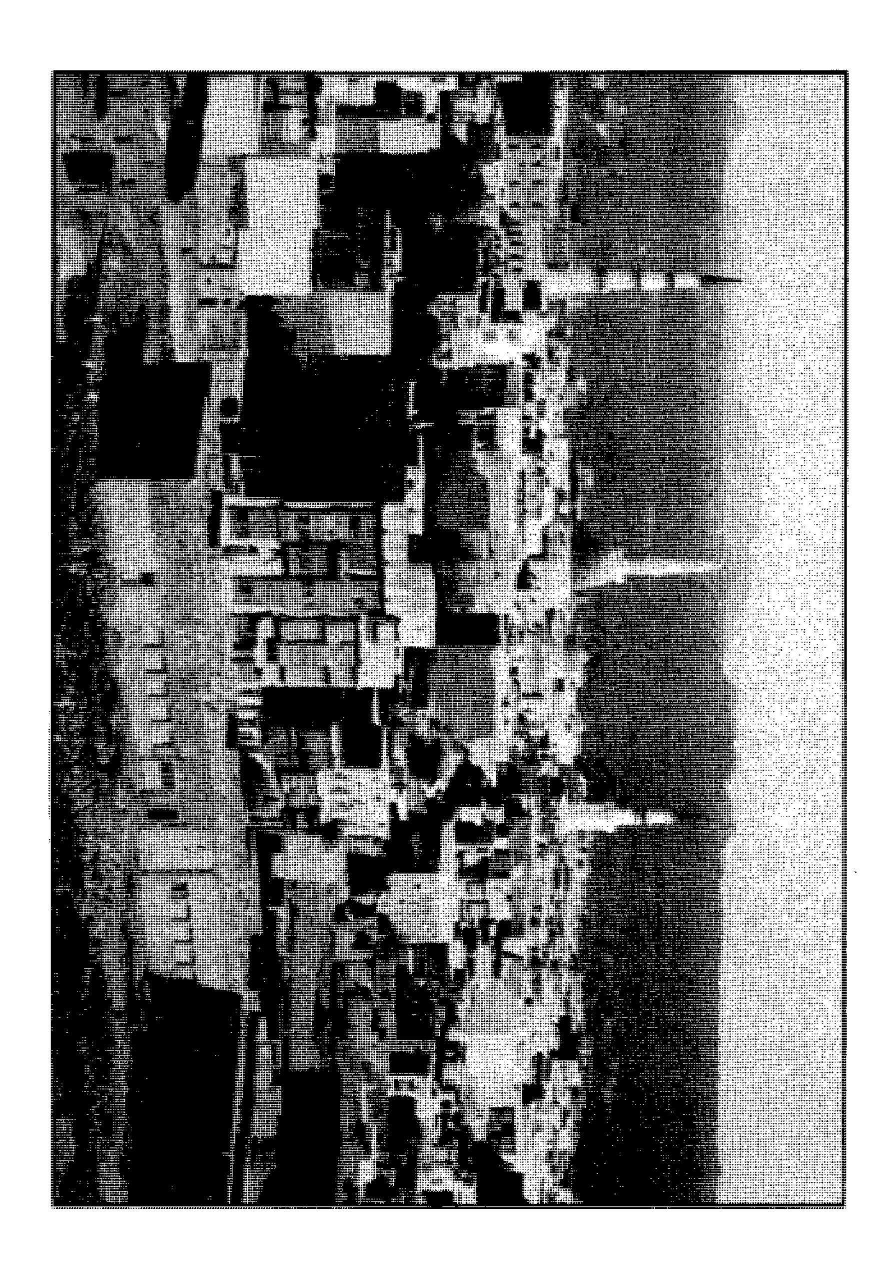
١٩- رحلة عبد السلام بن سودة التي دوَّن فيها ارتساماته عن الحرمين الشريفين في حجته سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م، وتوسع في الحديث عن أسرار الحج. مخطوطة عند أسرة المؤلف. المنوني: المصادر العربية، ج٣، رقم ١٧٤٠.

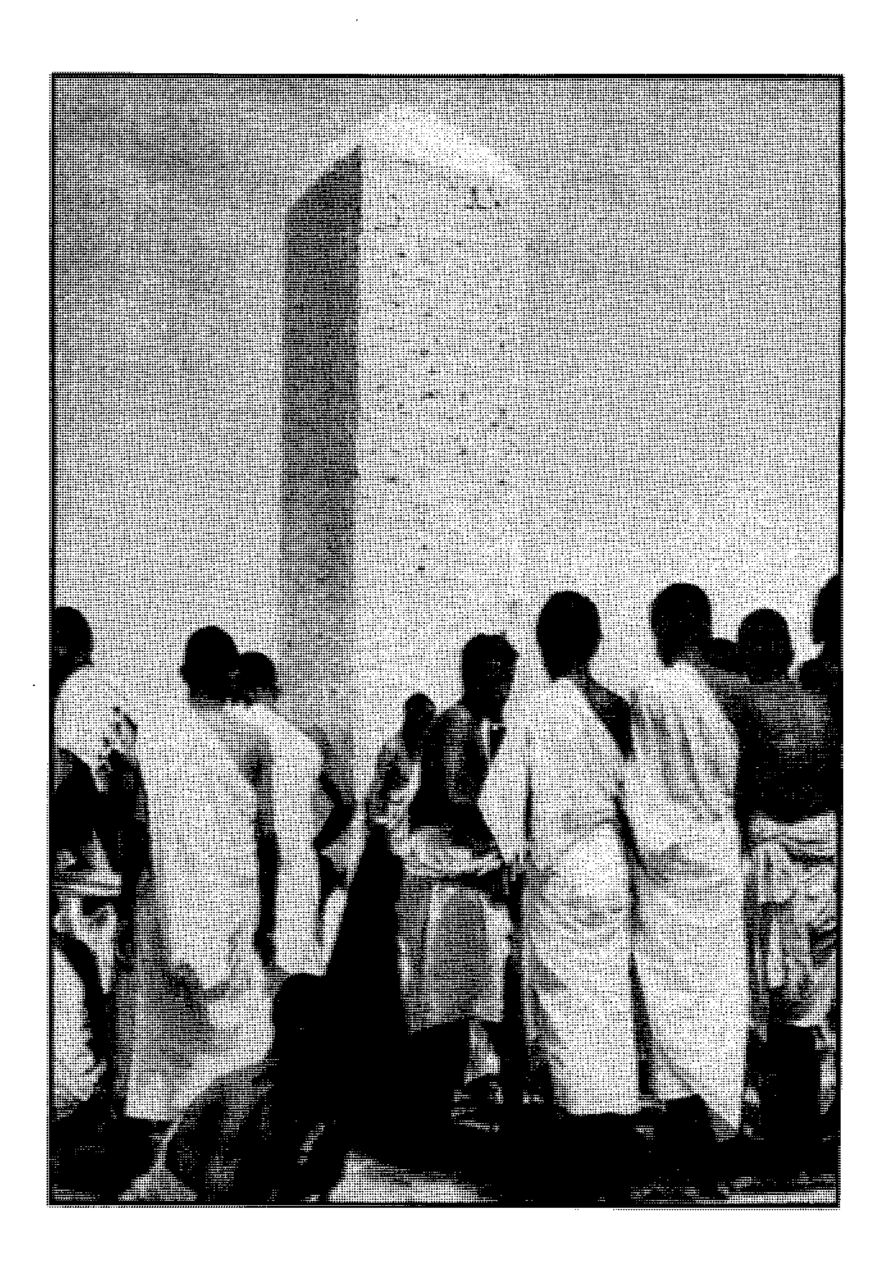
٢٠- رحلة عبد الكريم غلاب التي تُذكر في رحلة عبد القادر المازني، نشرها في كتابه: «من مكة إلى موسكو»، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧١م.

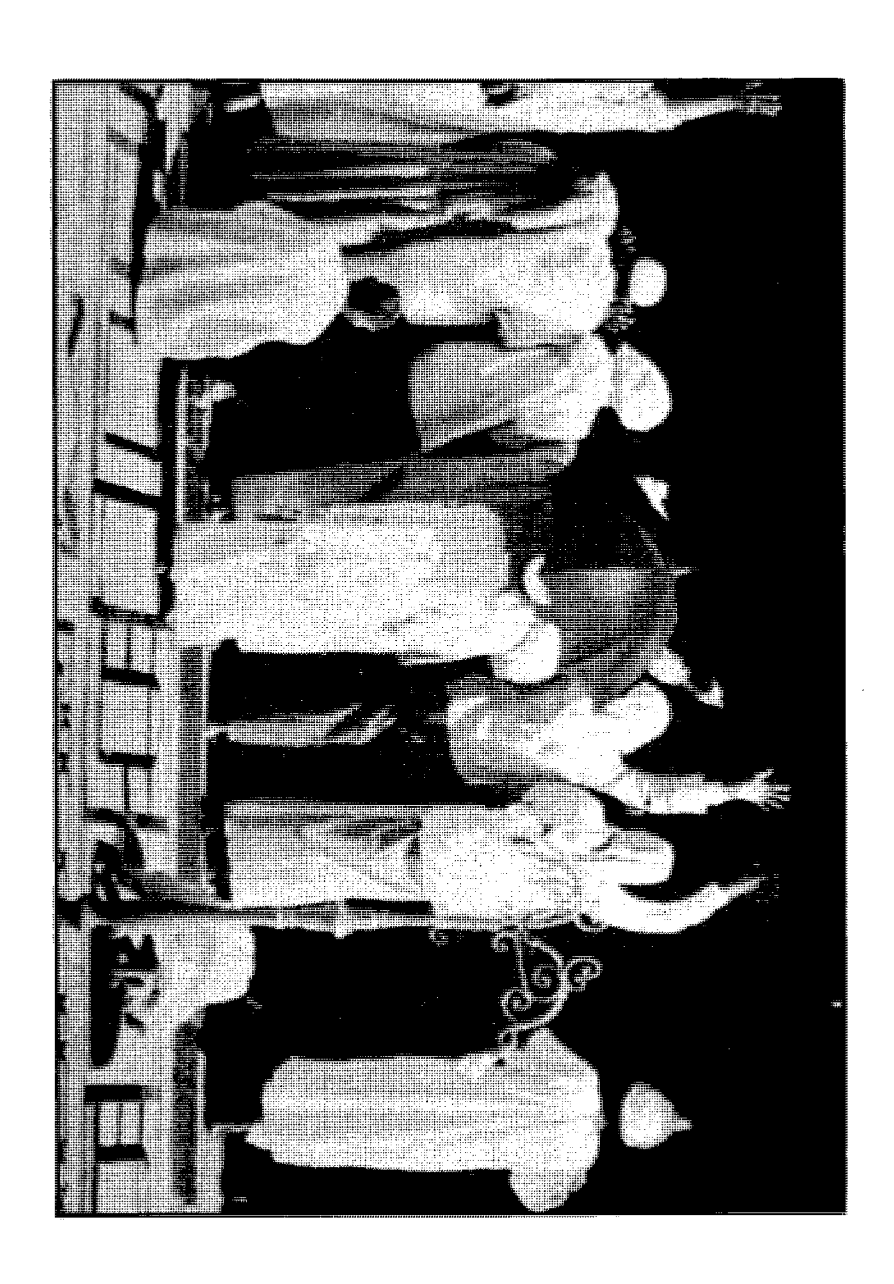
كشاف عام

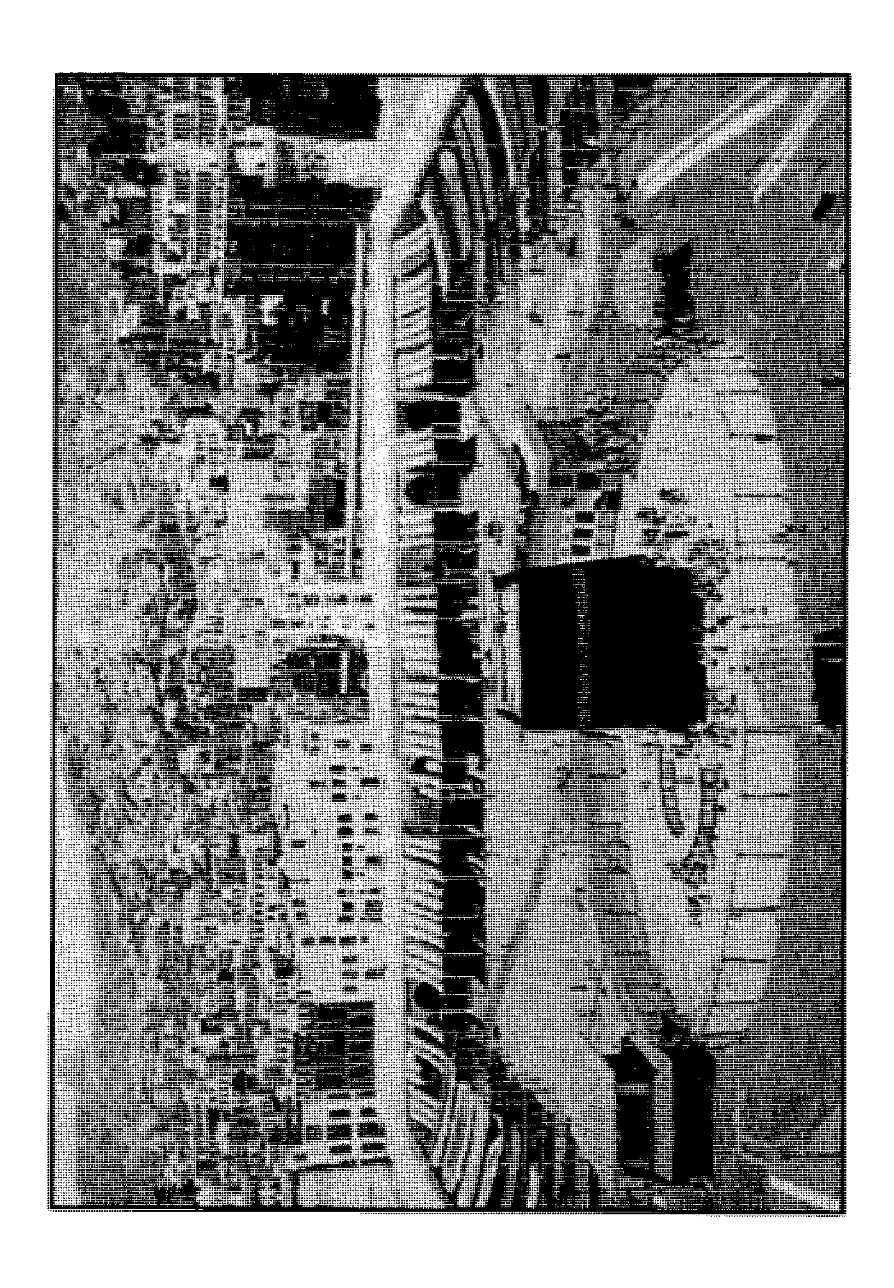
الملاحق

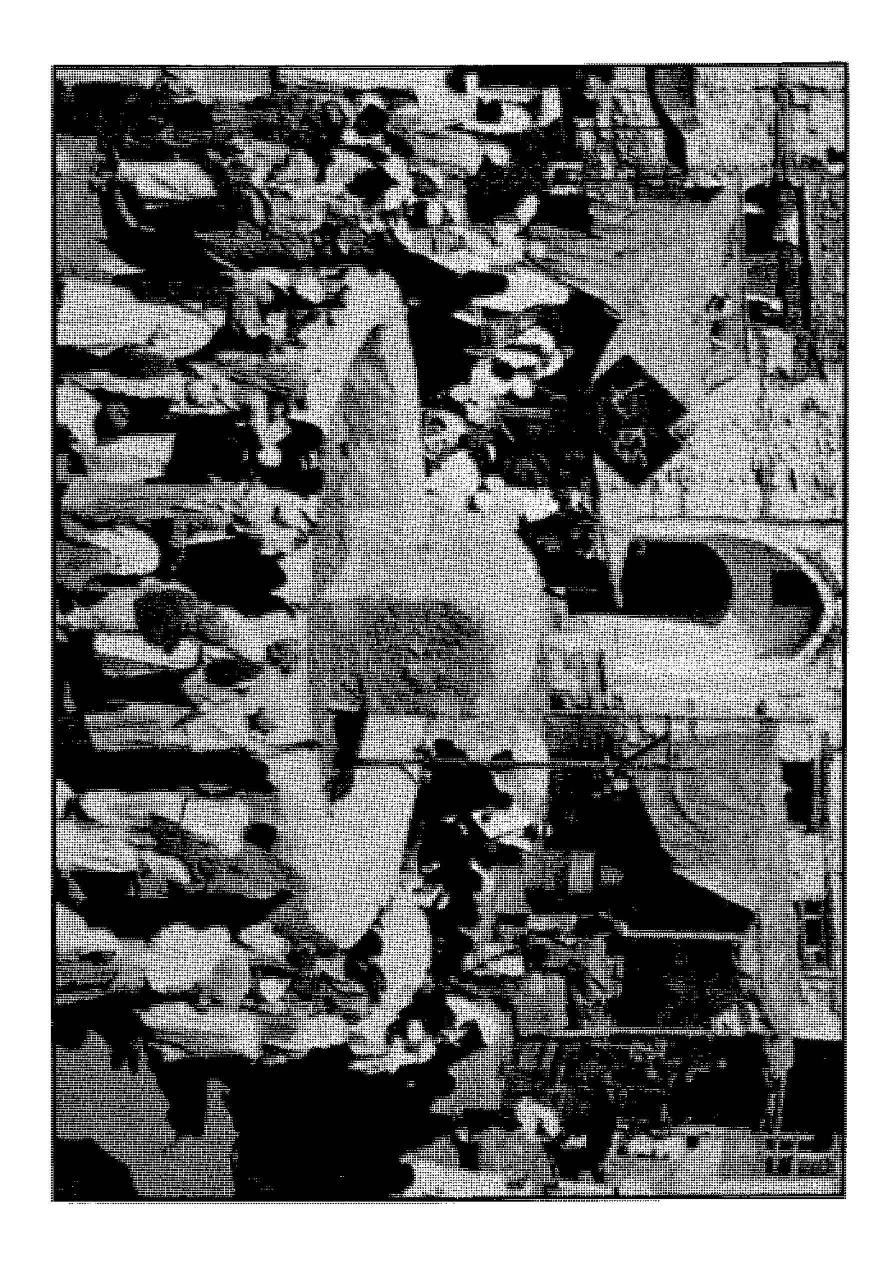


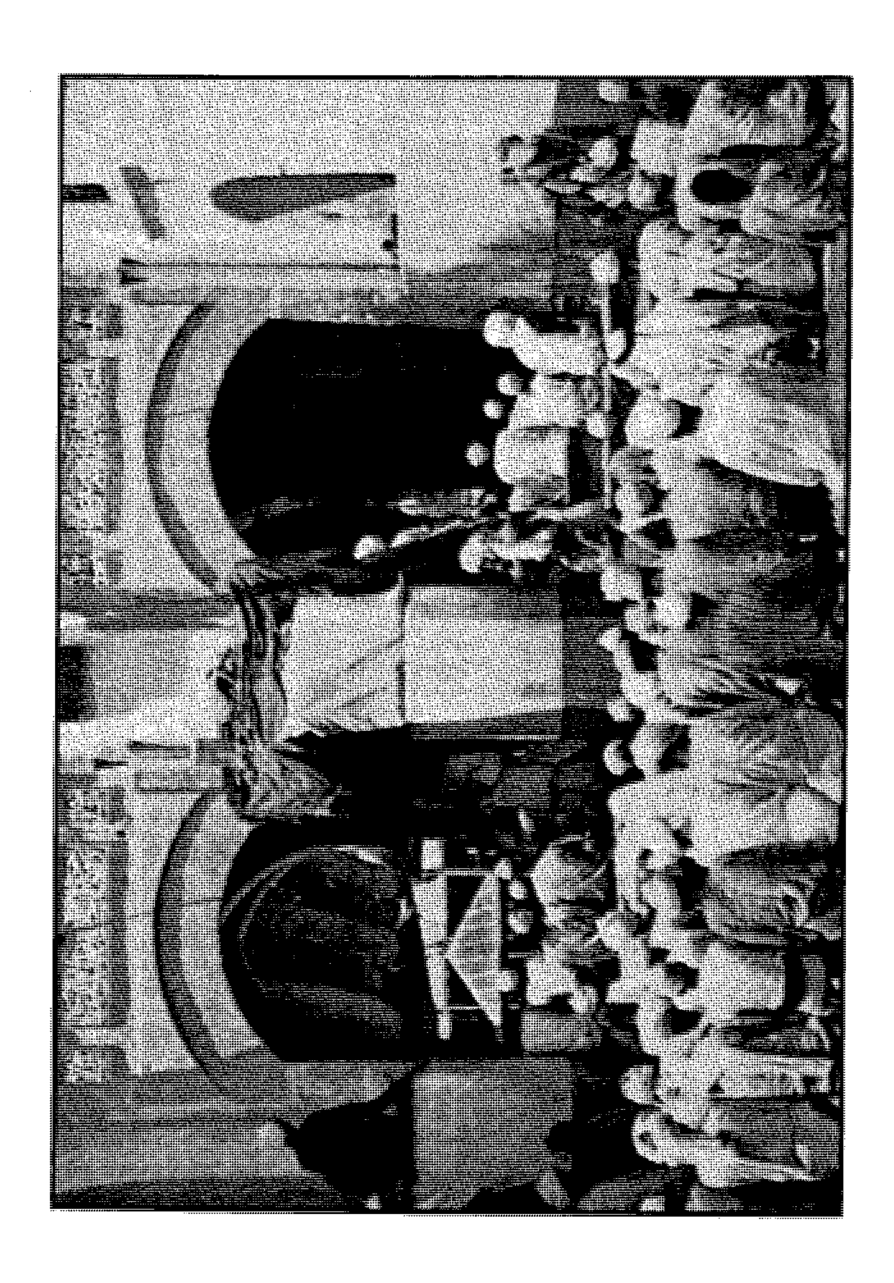


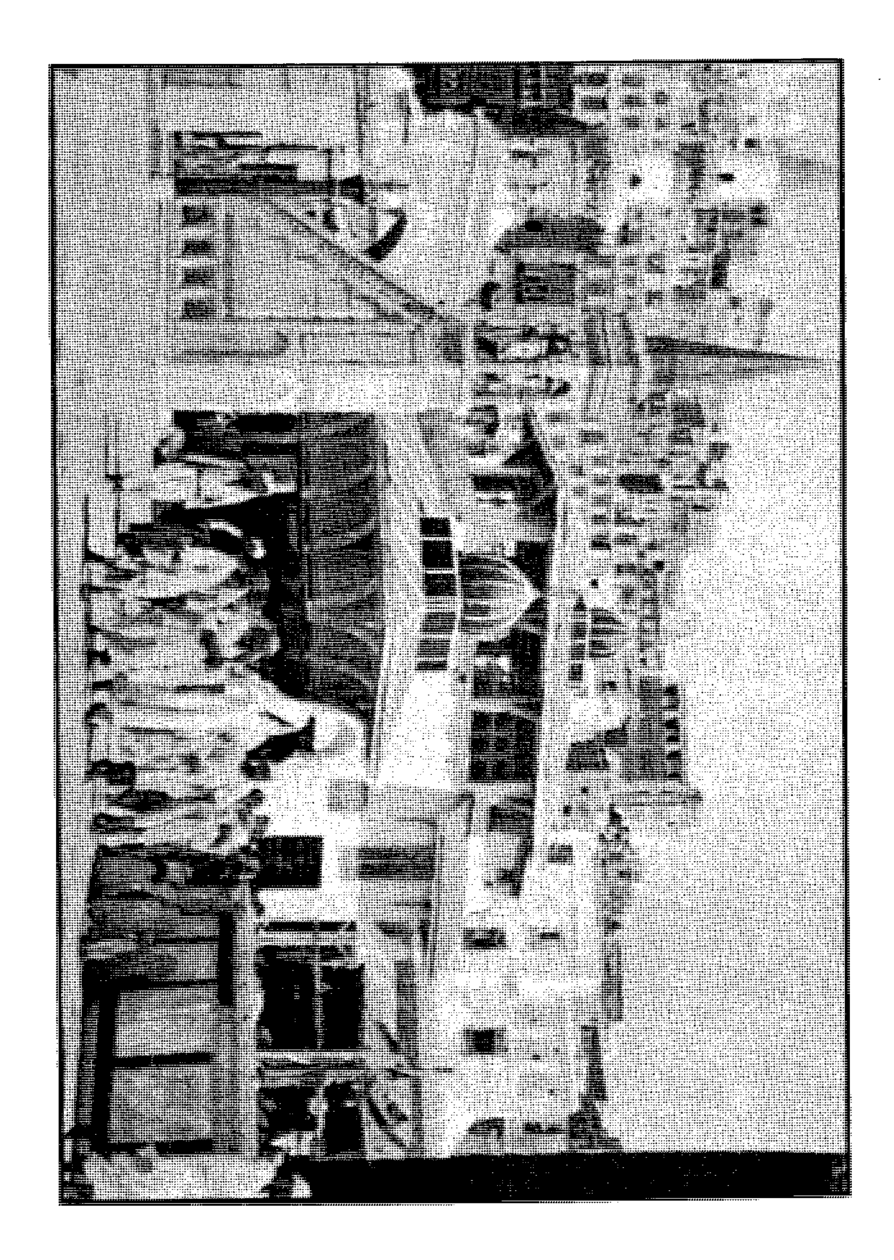


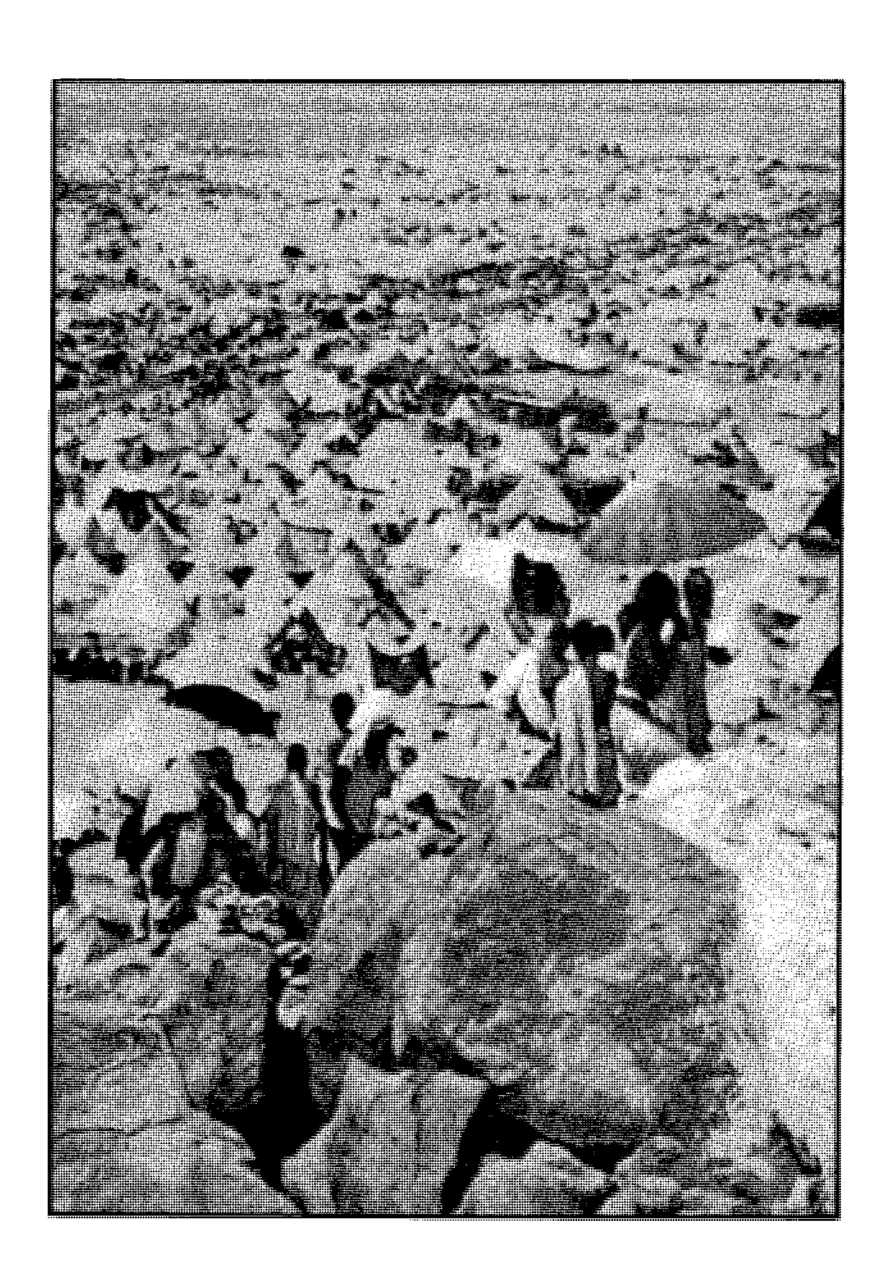


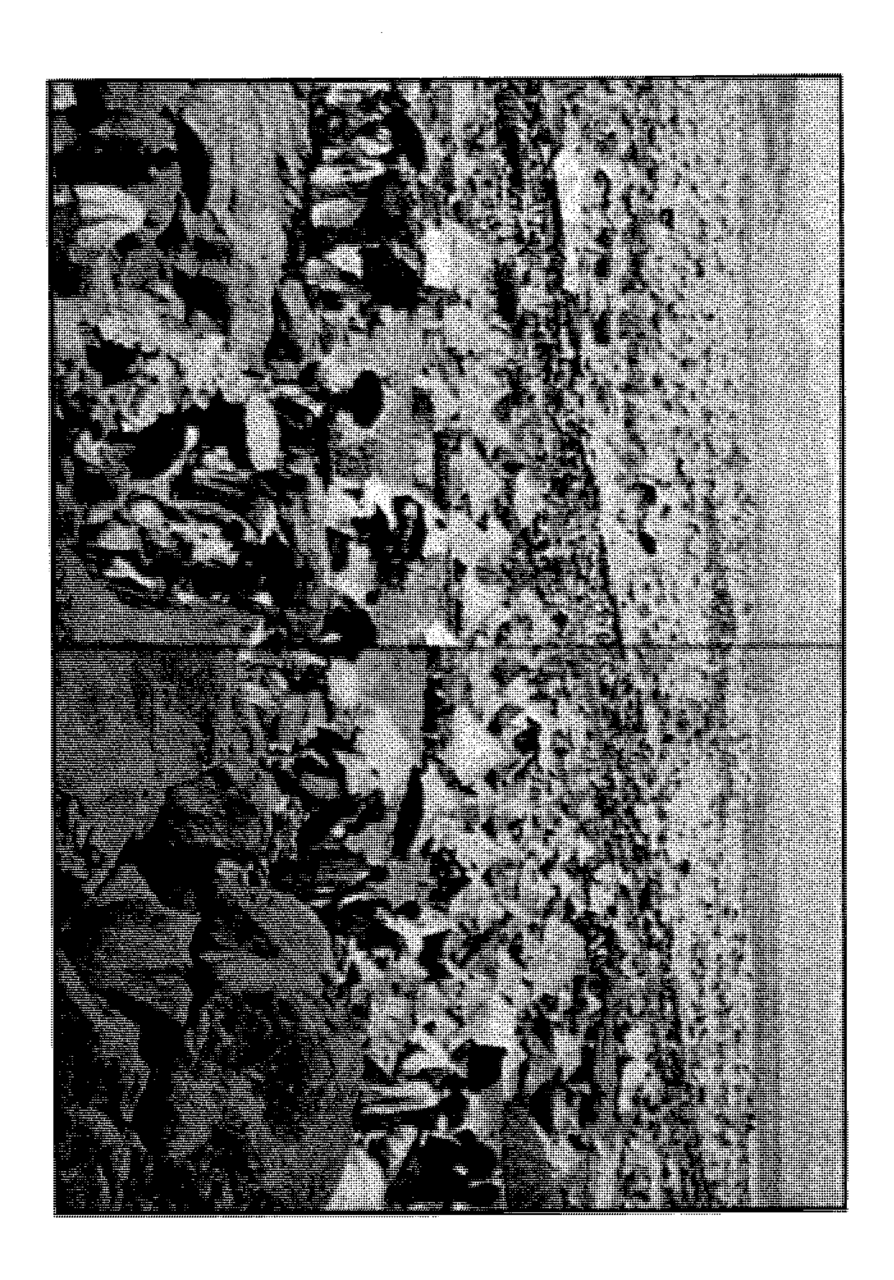


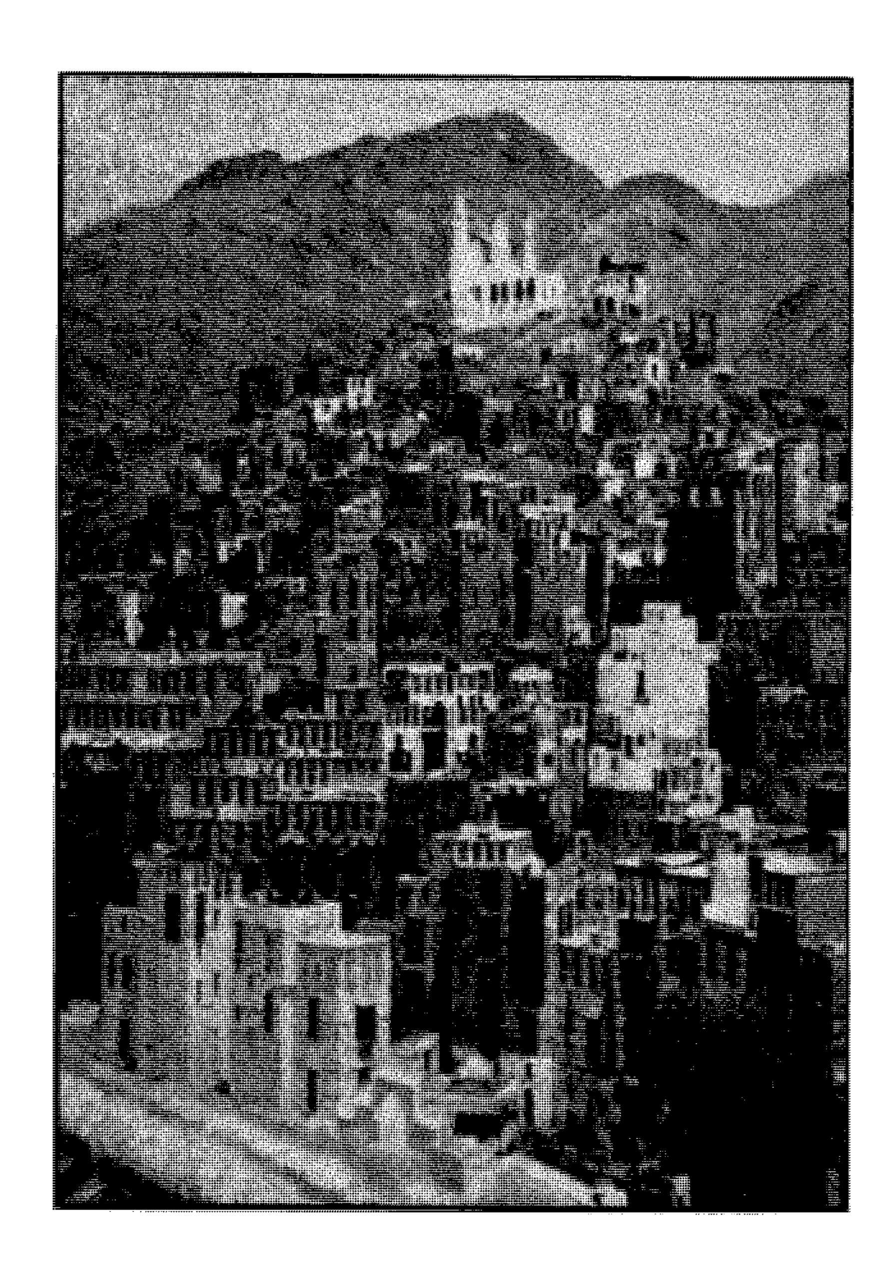


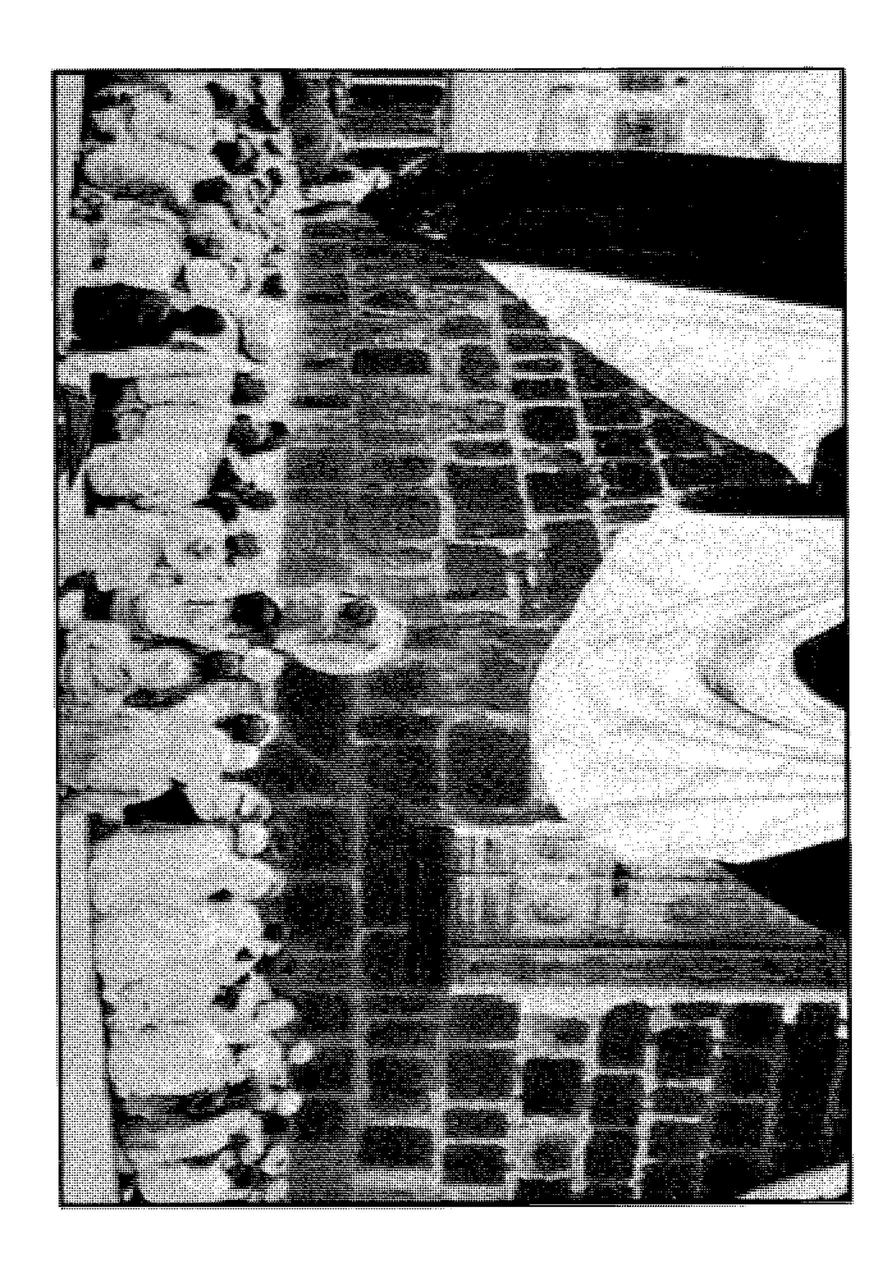


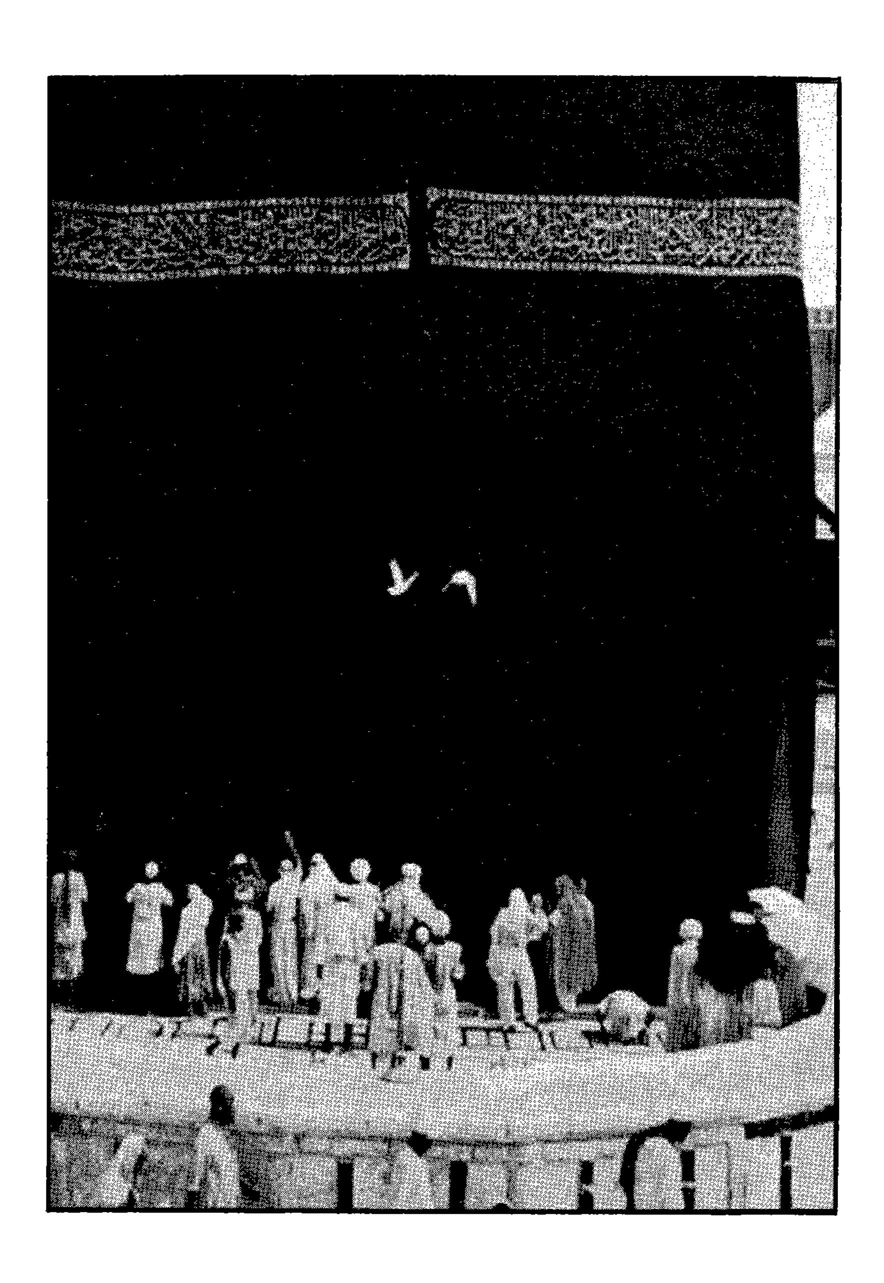


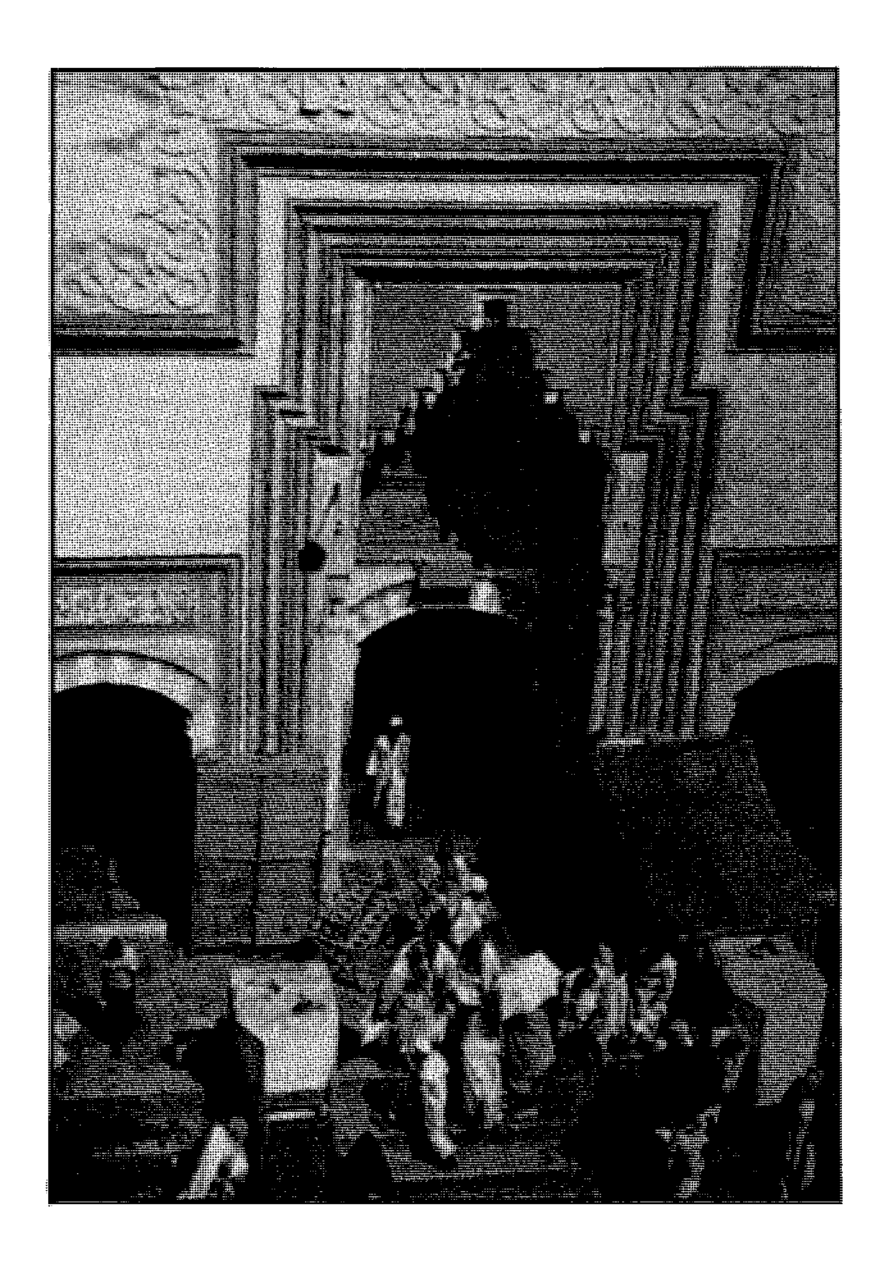


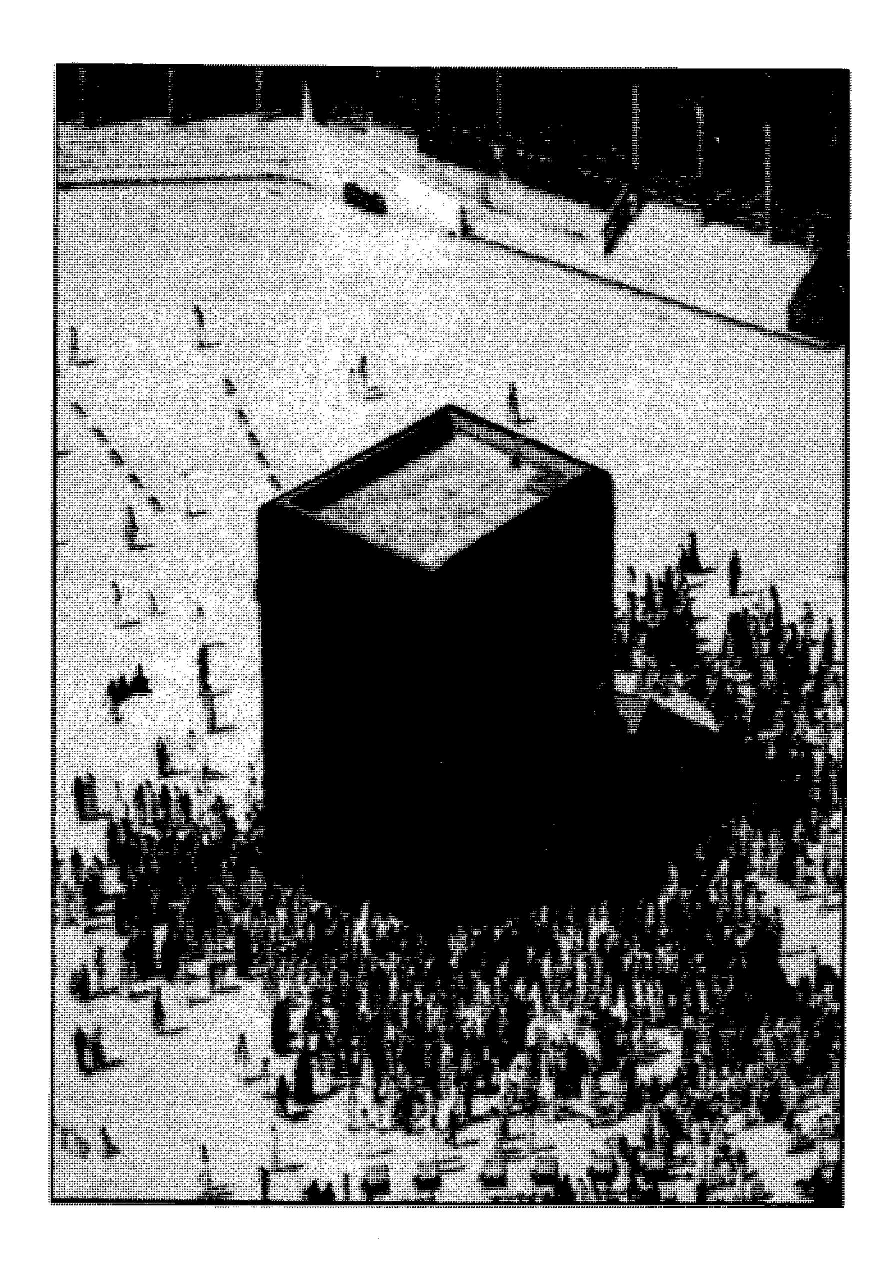


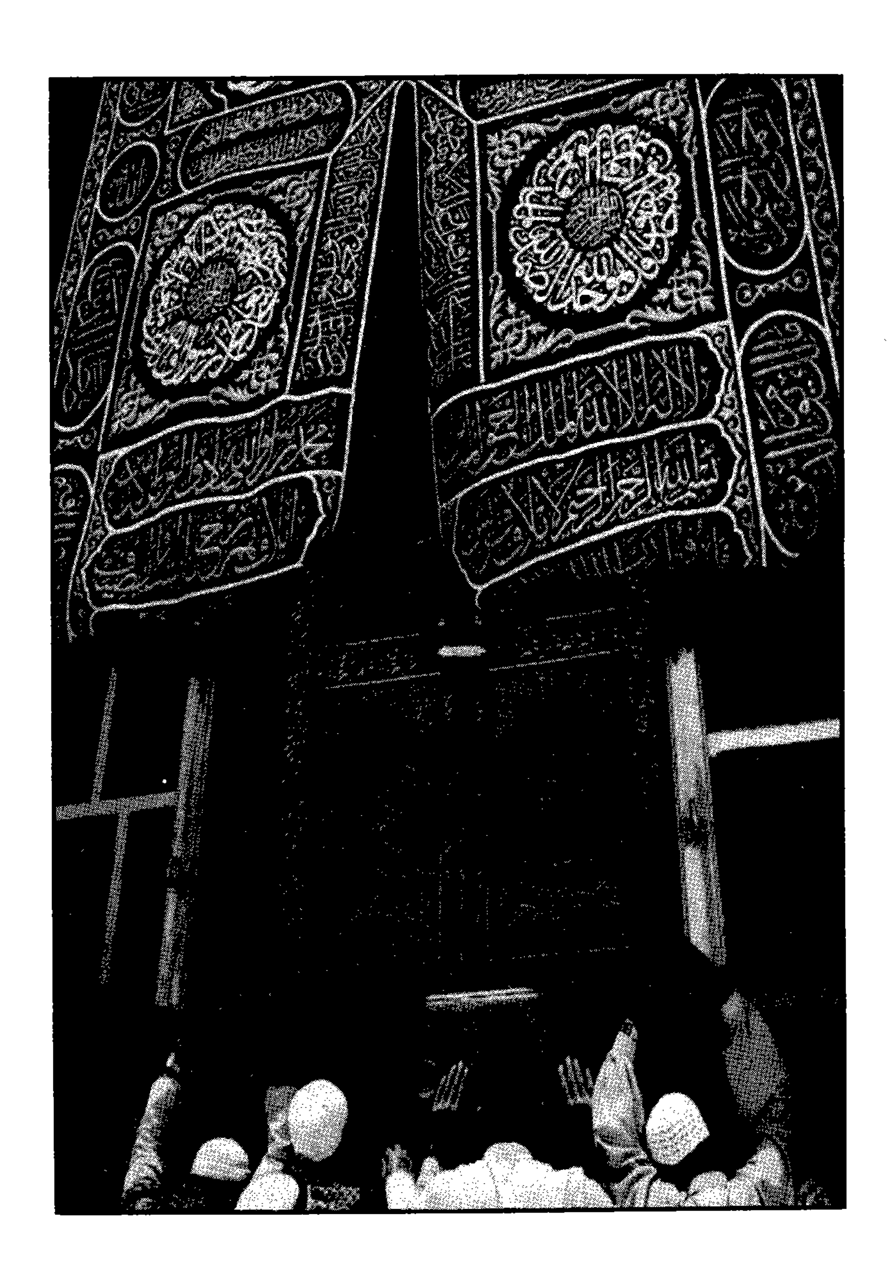




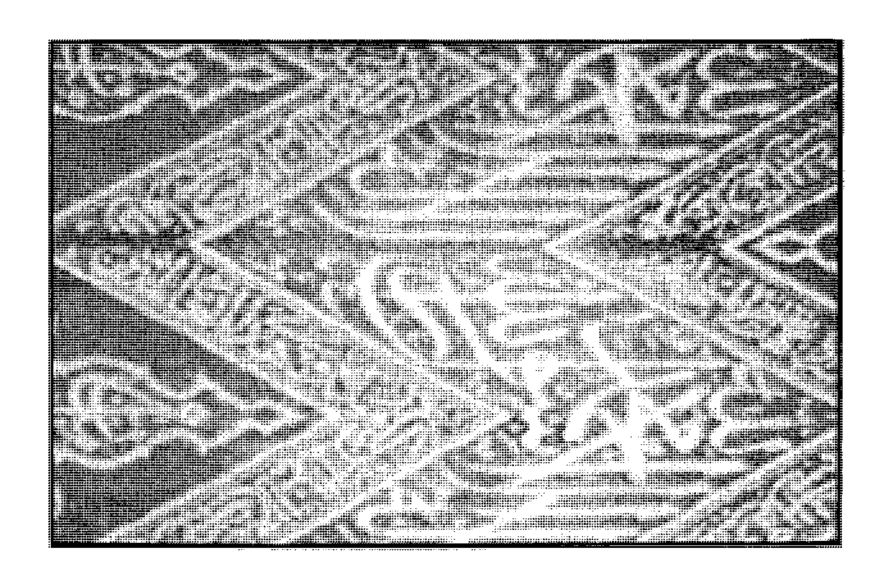














محتويــات الجزء الثاني